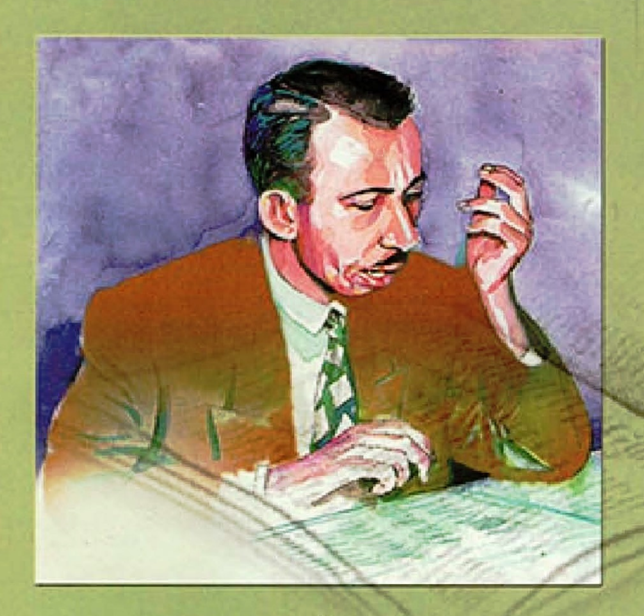
ديوان

بدر شاكر السيّاب

المجلد الأول






الناشيء

ديوان

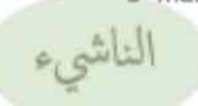
بدر شاكر السيّاب

المجلّد الأول

دار العودة . بيروت

- **عنوان الكتاب: ديوان بدر شاكر السياب المجلد الأول**
- **المؤلف : بدر شاكر السياب**
- **الطبعة : 2016**

- يطلب من دار **العودة** - بيروت - لبنان
- كورنيش المزرعة بناية الريفييرا سنتر
- هاتف:006911818405
- فاكس:009611818406
- e-mail:Daralawda@hotmail.com



ISBN: 978-9953-593-72-2

السيّاب ... شيء من حياته

بقلم ناجي علوش

إن هذه الدراسة تكشف جوانب تفصيلية من حياة بدر. وقد استهدفت أن أقدم هذه التفاصيل دون تحليل، ودون التركيز على الناحية الأدبية.

اعتمدت هذه الدراسة عدداً من المراجع، سأشير إلى أهمها فيما بعد، ولكن ما أود أن أشير إليه هو أن المعلومات تتداخل، بحيث يكون صعباً أن يشار إلى مصادرها بالتفصيل. لذلك فسأذكر المراجع عموماً دون إشارات مخصصة.

ولقد كنت عندما أجد اختلافاً في المعلومات أختار ما أرجحه، بسبب معرفتي الشخصية، أو بسبب تقديري لأهمية المراجع.

ثم إن عليّ أن أشير أن كتاب الدكتور عيسى بلاطة هو أوفى المراجع فيما يتعلق بتفاصيل حياة بدر. أما كتاب الدكتور إحسان عباس، فإنه أوفى الدراسات الأدبية. وإن كان يضم معلومات شخصية وسياسية هامة. تكمل أو توضح ما جاء في كتاب الدكتور عيسى بلاطة.

والواقع أنني مدين لهذين المرجعين بالكثير من المعلومات التي قدمتها.

وأن هذا الجهد، أخيراً، هو نتيجة عمل سنوات في جمع المعلومات والمقابلات والدراسة. وآمل أن يكون بالإمكان بلورة هذه المعلومات والمقابلات والدراسات في دراسة شاملة عن السياب، تغطي جميع حياته وأدبه.

مدخـــل

عرفته على صفحات الآداب. كنت معجباً بشعره إعجاباً عظيماً، وحـــين تعرض لهجوم على صفحات الآداب انبريت للدفاع عنه[1] ولقد ظللت أتـــابع أخباره وأشعاره، ولكني لم ألتقِ به، ولا كاتبته، وإن كانت قد وصلتني منه تحية شفوية على ما كتبته دفاعاً عنه.

وذات يوم أخبرني الشاعر علي السبتي أن بدراً سيأتي إلى الكويت للعـــلاج بعد مرض عضال أصابه، فاتفقنا على أن نستقبله في المطار.

وذهبنا في الموعد المحدد لوصوله على المطار: علي السبتي[2] وفاروق شوشة[3] وأنا. كان الوقت حوالي التاسعة صباحاً على ما أذكر. وصعدنا سلم الطـــائرة وكان بدر ما يزال جالساً. وجه أسمر معروق، أنف طويل حادّ، عينان براقتان، جسم هزيل تلفه دشداشة حريرية، وسترة ميالة إلى الخضرة الفاهية.

كان اللقاء حاراً، ولكن بدراً الذي كان يبتسم، وكان يبدو مرحاً، لم يكن يستطيع المشي. ساعدناه على الوصول إلى الأرض حمـــلاً. وانطلقنـــا بـــه إلى المستشفى.

[1] الآداب. عدد حزيران سنة ١٩٥٦ ص ٧٤.
[2] شاعر كويتي، برز في أواخر الستينات.
[3] الإذاعي الكبير واللغوي والشاعر.

وفي المستشفى عاش بدر أياماً محزنة... كانت صحته تتدهور وقروحه تتسع. وكان يعيش وحيداً على الرغم من عشرات الأصدقاء الذين كانوا يأتون إليه يومياً.

وهناك في المستشفى عرفت الكثير عن بدر.

كان يتكلم أحياناً، وفي أحيان أخرى يهذي. ولكنه خلال هذا كله كان يكشف تاريخه وذكرياته. وهناك عرفت منه شيئاً كثيراً عن جيكور وبويب وأبي الخصيب، وعن أبيه وأمه وزوجة أبيه والجن وبيت جده والنخيل.. لقد كان يصارع الموت وهو يعرف أنه يموت. ولقد جئت إليه مرة فحدثني كيف أنه رأى عملاقين من الجن يتصارعان عند شباكه، فارتعب، وكان طيلة صراعهما يفكر بعضلاته الهزيلة وجسمه المنهار.

أصبح بدر خلال إقامته في المستشفى بالكويت جزءاً من حياتنا اليومية. وعلى الرغم من إحساسنا بأنه كان يذوي، فقد أخذنا نحس بأن علاقتنا به تزداد توثقاً.

وأُخبرنا يوم ٦٤/١٢/٢٤ أن الشاعر قد مات.

١- عودة إلى أول القصة

جيكور، التي حدثنا عنها بدر كثيراً، والتي خلدها في شعره، قرية صـــغيرة، من قرى جنوب العراق، تظلل بيوتها الطينية أشجار النخيل، وتتخللها جداول وقنوات تقطعها المعابر هنا وهناك. تبعد جيكور عن أبي الخصيب حوالي ثلاثة كيلو مترات، أو مسيرة ثلاثة أرباع الساعة مشياً على الأقدام، وتبعـــد أبـــو الخصيب عن البصرة مسيرة ثلاثة أرباع الساعة في السيارة في الاتجاه الجنـــوبي الشرقي. وعدد سكان جيكور مختلف عليه ولكنه يتراوح بين ٥٠٠ و ١٢٠٠

وبويب هو أحد الجداول التي تمتلئ بالماء عندما يفيض شط العرب، ثم مـــا تلبث أن تعيد إليه ماءه عند الجزر. ويستمد بويب ماءه من جدول آخر اسمـــه جيكور. وجيكور القرية زاوية من زوايا تضم كوت بازل وبكيع (بقيع) الـــتي يمر منها بويب.

وتسكن عائلة السياب جيكور وتمتد إلى بقيع، ولكنها لا تقيم في كـــوت بازل. وإذا كانت أمه تسكن جيكور، وفيها ماتت، فقد كان أبـــوه يســـكن "بقيع"

وآل السياب من سكان جيكور، فيها يقيمون من أجيال. والسياب هـــي البلح الأخضر. ولكن يروى أن هذا الاسم التصق بالعائلة لأن الطاعون أصابها،

فلم يبقَ منها إلا سياب بن محمد بدران المير الذي فقد كل أقاربه الأقربين. وبدا هذا الفرع من عائلة المير يسمى السياب.

وكان عبد الجبار بن مرزوق السياب، أحد أحفاد سياب، يملك من أشجار النخيل ما يجعله غنياً. وقد ابتنى لنفسه داراً من اللبن في بقيع، تضم خمس عشرة غرفة، وابتنى بجانبها داراً للعبيد العاملين في الأرض. وقد سمى بدر هذه الدار "مترل الأقنان" فيما بعد.

وكان في البيت ديوان يؤمه الناس، فيتسامرون ويتحاورون، وفي ليالي رمضان يسمعون قصص عنترة وفتوح الشام وغيرهما، أو يستمعون إلى مرزوق السياب جد الشاعر (مات مسناً سنة ١٩٣٦) وهو يتحدث عن نابليون والعرب في إيران الخ.

ولقد زينت جدران البيت صور كثيرة، أهمها صور أبي التمن وسعد زغلول وكمال أتاتورك، من زعماء الحركات التحريرية في ذلك الحين. وكانت هذه الصور تعكس الحديث الذي يدور بين جدران الديوان.

أنجب عبد الجبار ثلاثة أولاد، هم شاكر وعبد القادر وعبد المجيد. ومع أن الأب كان مهتماً بتعليمهم، إلا أنهم لم يتجاوزوا التعليم الابتدائي، بسبب عدم وجود مدارس عالية هناك.

وتمخض هذا الجو عن تحول في نفسية عبد القادر، قاده إلى أن يصبح عضواً في حزب سري اسمه الحزب اللاديني، كان يجتمع أعضاؤه في ذلك الديوان، وكانوا ينشرون آراءهم على صفحات جريدة لبنانية اسمها الشمس.

وعاش أبناء عبد الجبار مع والدهم، يشاركونه حياة القرية، ويساعدونه في الزراعة. وكان شاكر، والد شاعرنا، والابن الأكبر لعبد الجبار، أنشط أولاده

وأكثرهم فعالية. ذلك أنه كان يساعد والده كأخوته، ولكنه كـــان يقـــوم في الوقت ذاته بأعمال الدلالة في موسم التمر. كما كان يشرف على نخيل بعـــض كبار الملاكين.

وتزوج شاكر سنة ١٩٢٥ كانت عروسه كريمة ابنة عمه ذات سبعة عشر ربيعاً. انتقلت من جيكور إلى بقيع، وعاشت في بيت الجد الكبير.

٢- طفل جديد يولد

ولدت كريمة سنة ١٩٢٦ ابنها البكر. طار الوالد بالمولود فرحاً، وسجّل تاريخ ميلاده حتى يظل في ذاكرته، لكن التاريخ ضاع، وظل بدر لا يعرف تاريخ ميلاده الدقيق.

وعاش الطفل مع أطفال القرية، يلعب في ظل النخيل، ويغوص في المياه، ويراقب البواخر العابرة، كما كان في الأماسي يستمع إلى حكايات جده وجدته. ولكن الطفل الذي كان في السادسة ماتت أمه. لقد توفيت كريمة بعد ولادتها الرابعة، إذ أنجبت طفلة، ما فتئت أن ماتت أيضاً، في العام عينه ١٩٣٢ وكان الطفل شديد التعلق بأمه، فلما خطفها الموت، أثّر ذلك فيه تأثيراً كبيراً. وحين كان يسأل عنها كانوا يقولون له. "بعد غد تعود لا بد أن تعود"

وراح الطفل الذي فقد الحضن الدافئ يبحث عنه. ولم يكن عسيراً عليه أن يجده في شخص جدته لأبيه أمينة.

كانت جيكور آنذاك ما زالت بلا مدرسة. واختار الأب لابنه أن يذهب إلى المدرسة الحكومية في قرية باب سليمان المجاورة لجيكور. وكان الطفل يذهب كل يوم ماشياً إلى المدرسة.

ولما كانت الدراسة في المدرسة لا تتجاوز الأربع سنوات، اضطر الطفل أن ينتقل إلى مدرسة المحمودية في "أبي الخصيب"، حيث قضى سنتين أخريين.

وعرف بدر في أبي الخصيب الشناشيل وهي شرفة خشبية مزركشة ذات نوافذ زجاجية ملونة، لأن مدرسته كانت بيتاً من بيوت محمود باشا عبد الواحد، أحد أفراد عائلة ثرية من الملاكين الكبار، تبرع لها لتكون مدرسة. وكان المدير يجلس في الغرفة المجاورة للشناشيل، مما جعل شاعرنا يستعذب دعوته إلى غرفة المدير. وحول المدرسة كانت تقوم بيوت آل عبد الواحد.

وهناك أحس بدر بأن الوصول إلى هذه الشناشيل حلم. وبأن الوصول إلى الصبايا المنعمات فيها حلم أكبر. لقد عانى الفلاح الصغير كثيراً أمام هذه المفارقة، حتى أنه لم يستطع إلاّ أن يعبِّر عن مشاعره هذه بعد سنين طويلة في قصيدته شناشيل ابنة الجلبي، التي يردد فيها أبياتاً من الشعر الشعبي كان الأطفال يهزجونها في الأيام الممطرة:

يا مطراً يا حلبي

عبِّر بنات الجلبي

يا مطراً يا شاشا

عبِّر بنات الباشا

وفي هذه القصيدة يعبِّر بدر عن الحلم الكبير الذي راوده كثيراً:

ثلاثون انقضت وكبرت، كم حبٍّ وكم وجد

توهج في فؤادي

غير أني كلما صفقت يدا الرعد

مددت الطرف أرقب ربّما ائتلق الشناشيلُ

فابصرت ابنة الجلبي مقبلة إلى وعدي

ولم يمض طويل وقت، على وفاة والدة بدر، حتى قرر والـــده أن يتـــزوج. ولقد تزوج فعلاً. وكان زواجه ثقيل الوطأة على نفس بدر، ذلك أن والـــده لم يأت بإمرأة بديلة لأمه فحسب، ولا أغضب والده، جد بدر، فقط، بل غادرهم ليعيش حياته الخاصة. كان ذلك سنة ١٩٣٥،

وعاش بدر في بيت جده، يلعب مع الأطفال في "مترل الاقنان" أو "كـــوت المراجيح" كما يسمونه.

وما لبث الطفل أن أخذ ينظم الشعر بالعامية، ثم باللغة الفصحى. وإذا كان قد بدأ يقول الشعر واصفاً الطبيعة أو ساخراً من أترابه، فإنه تقدم خطـــوة إلى الأمام وأخذ يكتب شعراً وطنياً. وكتب في هذه المرحلة قصيدة يصف فيهـــا معركة القادسية، فما كان من إعجاب المدرس به إلاّ أن حمله لكي يلقيها.

وأصدر بدر في هذه المرحلة جريدة مخطوطة أسماها جيكور. مقرها مـــترل الاقنان، وموزعوها أترابه من الأطفال.

الطفل الصغير الذي فقد أمه وأضاع أباه. يتفتق عن شاعر كبير.

٣- الصبا والشباب

أنهى بدر دراسته الابتدائية في صيف ١٩٣٨، فما كان من جده إلا أن أرسله إلى البصرة لمواصلة تعليمه الثانوي. وسكن في البصرة مع جدته لأمه.

ومع أنه كان يدرس في البصرة، فقد كان قلبه في جيكور دائماً، فهناك ملاعب طفولته، وهناك وفيقة إحدى بنات عمومته. وكان بدر حين يعود إلى جيكور يساعد جده في رعاية قطيع صغير من الخراف.

ولقد كان حبّه وفيقة من الحوادث التي أثرت فيه تأثيراً عميقاً، ذلك أنها تزوجت، وظلّت تمثل الحلم الممتنع بالنسبة له وقد عكس ذلك في شعره فيما بعد.

كما أنه كان يعود ما بين الفينة والأخرى إلى ذكريات الريف والرعي، وإلى حبّه للراعية "هوّيل" كما سمّاها، واسمها الحقيقي هالة.

كان الصبي مبرزاً في اللغة العربية والأدب العربي. ولكنّه حين خُيرّ سنة ١٩٤١ اختار الفرع العلمي. لماذا؟ ليس هنالك تفسير لهذه الظاهرة، ولكن يبدو أنه قدّر بأنه سيختار فرعاً علمياً في الجامعة. ولكن اختياره الفرع العلمي لم يخفف من حدة اتجاهه نحو الأدب. وفي هذه السنة بالذات بدأ بدر يكتب الشعر بانتظام. وإذا كانت قصائده، قبل هذه السنة قد ضاعت أو مزقت، فان

عدداً من القصائد التي كتبها في هذا العام ما زالت موجودة، نشرناها في البواكير، وأول هذه القصائد قصيدته "على الشاطئ"

وكان في المدرسة حلقة أدبية من زملاء بدر، وأبرزهم محمد علي اسماعيل وخالد الشواف ومحي الدين اسماعيل، وكان بعضهم يكتب الشعر وبعضهم الآخر يكتب القصة أو النقد، وكانت لهم نشاطات أدبية أبرزها الحفلات الأدبية التي يقيمونها بين الفينة والأخرى. وقد ظلت مناقشاته مع هؤلاء ومراسلاته معهم من مصادر نمو شاعريته، وخاصة زميله خالد الشواف الذي رحل إلى بغداد، بسبب انتقال والده، قبل أن يكمل السنة الثانوية الأخيرة.

وفي هذا العام حاول العراق أن ينتزع استقلاله من الانجليز، فكانت الحركة التي سميت حركة رشيد عالي الكيلاني، نيسان – أيار ١٩٤١ ولقد تدخل الإنجليز من أجل فرض سيطرتهم بقوة السلاح وإعادة عملائهم الهاربين. وكان من نتيجة ذلك أن حدثت الحرب العراقية البريطانية التي هزمت فيها قوات الثورة في العراق. ولما أعادت القوات الاستعمارية السيطرة، وأعادت العملاء، بدأوا بإعدام قادة الثورة. وكان أول الذين أعدموا يونس السبعاوي وفهمي سعيد ومحمود سلمان.

ولا يستطيع ابن الخمسة عشر ربيعاً إلاّ أن ينفعل بالواقعة. ان صور أبي التمن وسعد زغلول وكمال أتاتورك التي كانت تزين بها جدران ديوان جده، والمناقشات التي كانت تدور في البيت تركت آثارها العميقة في نفس الشاعر. كما أن الغليان الذي كانت تعيشه الجماهير، منذ الاحتلال، كان ينعكس على نفس شاعرنا.

ولقد عبّر بدر عن هذه الواقعة بالقصيدة التالية:

رجــــال أبـــاة عاهـــدوا الله أنهـــم

مضحون حتى يرجـــع الحـــق غاصـــبه

أراق عبيـــــد الإنجليـــــز دمــــاءهم

فيـــا ويلـــهم ممـــن تخـــاف جوالبـــه

أراق عبيـــــد الإنجليـــــز دمــــاءهم

ولكـــن دون الثـــأر مـــن هـــو طالبـــه

أراق ربيـــــب الإنجليـــــز دمــــاءهم

ولكـــن في بـــرلين ليثـــاً يراقبـــه

رشـــيد ويـــا نعـــم الـــزعيم لأمـــة

يعيـــث بهـــا عبـــد الإلـــه وصـــاحبه

وإذا كان العراق يفقد استقلاله، فإن جد بدر كان يعيش أزمة أيضاً. لقـد أخذت أحواله المالية تتدهور. وكان يستدين بفوائد عالية فتزداد مشاكله. وفي الوقت الذي كان فيه الأب يعاني من المشاكل المالية، كان ابنه عبد القادر يشن حملات قاسية على المرابين والمستغلين في جريدة الناس. ولكن هذه الحملات لم تستطع إنقاذ السفينة المثقوبة.

وتفتق وعي بدر في هذا المعمعان: معركة الوطن مع العدو الأجنبي ومعركة الطبقات الكادحة والبرجوازية الصغيرة مع كبار المستغلين والمرابين. ولقد شكل هذا كله ركناً هاماً من أركان وعي بدر. وظهر هذا واضحاً جلياً فيما بعد.

وكان العام الدراسي الأخير في الثانوية (٤١ – ٤٢): عـام التحـول إلى الدراسة العلمية عاماً غنياً حافلاً بالشعر. إن قريحة الصبي أخذت تتركز وتتبلور،

وموهبته أخذت تنضج. وبدأ الشعر يتحول إلى وسيلة للتعبير عن نفس جياشة قلقة، كما أصبح طريق إثبات الهوية.

ولكن بدر فجع بعد تخرجه بموت جدته. كان ذلك في ٤٢/٩/٩. لقد فقد امّه الحبيبة، وخسر أباه الحاني، وهو يفجع الآن بجدته الحنون. وأصبحت علاقته الآن مع جيكور وبقيع علاقة مع التراب والقبور والنخيل. وكان أن كتب قصيدة يرثي بها جدته وماذا يملك غير الرثاء؟

٤- الانتقال إلى بغداد

كان الشاب القروي، عندما تخرج سنة ١٩٤٢ لا يعرف سوى البصـــرة. والبصرة ليست إلا قرية كبيرة. أما بغداد فتلك عالم آخر. انه لا يعرفها وهو لا شك يطمح إلى التعرف إليها. ولكن كيف. لقد حلم مرة انـــه رأى دجلـــة في المنام. وهو يكتب رسالة إلى صديقه خالد الشواف ٤٢/٣/٢٦ يتساءل فيهـــا عما إذا كان دجلة كما رآه في المنام. وحين كتب إليه صديقه خالد يطلب منه أن يأتي إلى بغداد أجابه بدر بأن "الصبايا العذارى الريفيات يتشـــبثن ببقائـــه" ٤٢/٣/٢٦. و لم يكن هذا هو السبب الحقيقي، إذ أن الصبايا الريفيـــات كـــن أكثر بعداً عنه من بغداد. إلا أنه أراد أن يتعلل بالوهم، وأن يستر عجزه عـــن الذهاب بخدعة طفولية.

ولقد كان السفر إلى بغداد تجربة جديدة وغنية ذلك أن بغداد غير جيكور والبصرة. وفي بغداد كانت تصطرع تيارات أدبية واتجاهات سياسية من خلال مخاض المدينة، المثقلة بالأغلال، المتطلعة إلى الحرية. و لم يكن بدر يعـــرف مـــن بغداد إلا اسمها. ولكن صديقه خالد كان بانتظاره عند مجيئه، وكان عليـــه أن يعرّفه بالمدينة الكبيرة، المرغوبة المرهوبة.

وأقبل الشاب القروي، المعروق الجسم على حياته الجديدة، إقبال الغريب. لقد وجد نفسه يضيع في المدينة، وإن كان الحنين إلى الريف يغمر قلبه.

كان قد أصبح طالباً في دار المعلمين في بغداد، مع بداية السنة الدراسية في خريف سنة ١٩٤٣ ولقد اختار دار المعلمين لأن الدراسة فيها كانت مجانية، ولم يكن باستطاعة عائلته أن تتكفل بدراسته في مكان آخر. واختار بدر في دار المعلمين فرع اللغة العربية، مع أنه اختار الفرع العلمي في الثانوي.

ووزعت حياة الشاب الغريب في بغداد مشاغل جديدة واهتمامات طارئة، وجد نفسه مشدوداً إلى بعضها، ووجد نفسه غارقاً في بعضها الآخر. وأهم هذه المشاغل والاهتمامات:

أ- **الحياة الأدبية الحافلة:** كانت بغداد المولعة بالأدب منذ كانت، تعيش مرحلة جديدة. وكان المجتمع يمور بالنشاطات الأدبية. وكانت هنالك النوادي والمقاهي والصحف. ووجد بدر نفسه عضواً في جماعة أدبية، يشارك في الاحتفالات التي تقيمها، ويساهم في نشاطاتها. وخارج هذه الحلقة كان يتردد بدر بصحبة خالد الشواف إلى جمعية الشباب المسلمين، كما كان يتردد على مقر جريدة الاتحاد ومقهى الزهاوي.

ولقد تعرف بدر في مقهى الزهاوي على ناجي العبيدي، صاحب جريدة الاتحاد، فأعجب الأستاذ العبيدي ببدر، وكان أول من نشر شيئاً من شعره.

وعرفت بغداد شاعراً جديداً. كان بدر يقتحم قلوب الأدباء والمتأدبين بشعره الوجداني وإلقائه المؤثر. ولم يلبث أن انتزع إعجابهم وأصبح يحتل مكانة مرموقة بينهم.

ب- الحياة السياسية الصاخبة: عندما جاء بدر بغداد كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها. وكان العراق، مثل كل البلاد العربية، يعيش انعكاسات الصراعات العالمية: الصراع بين النازية والديمقراطية الغربية، النزاع بين الاشتراكية والرأسمالية. وكان يعيش ذلك كله من خلال توق الجماهير إلى التحرر ونقمتها على السيطرة الاستعمارية. و لم يكن العراق بعيد عهد بغزو القوات البريطانية التي احتلت العراق سنة ١٩٤١

وجاء بدر إلى بغداد شاباً وطنياً. لم يكن منتمياً إلى حزب، ولا كان منحازاً إلى فلسفة. وظل بدر كذلك مدة من الزمن يرجح أنها امتدت إلى سنة ١٩٤٥ ويصف الأستاذ محمود العبطة بدراً في سنته الدراسية الثانية (٤٤ – ٤٥) بما يلي: "كان هادئاً وديعاً و لم يرتفع صوته في هذه الأيام عندما كنا نتراشق ونتلاسن وننقسم إلى معسكرين: منا من يؤيد الحلفاء ومعسكر الديمقراطية، ومنا من يمجد النازية وهتلر. وإذا ما احتدم النزاع – وكثيراً ما يحتدم – يستأذن في الذهاب إلى القسم الداخلي من الدار تاركاً النزاع وأهله"[1]

ولكن بدراً لم يكن غير مبال بما يجري. وكان عازماً على أن يتخذ قراراً. ولكنه لم يكن قد أصبح شيوعياً بعد. ويؤكد الأستاذ سليمان العيسى زميله في دار المعلمين أن بدراً كان يكتب قصائد يسارية في هذه المرحلة، ولكنه كان في بعض الأحيان يسب الشيوعيين. وكان في أحيان أخرى يعلن للأستاذ سليمان العيسى، وهو قومي، أنه يؤيد آراءه. أما الأستاذ محمد علي الزرقا، وهو زميل آخر لبدر، فإنه يؤكد أن بدراً لم يكن عضواً في الحزب الشيوعي، حتى سنة ١٩٤٥، عندما غادر الأستاذ الزرقا بغداد، وأن بدراً كان عضواً مؤازراً يحضر

---

[1] (بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق ص ٩)

الاجتماعات. ويضيف الأستاذ الزرقا أن بدراً كان يخلط بين الفكر والـــرفض، وان علاقته كانت مع جماعة القاعدة من بين الشيوعيين.

فكيف أصبح بدر شيوعياً إذن؟

كانت له علاقاته مع الشيوعيين في الجامعة. وكانت له زميلة تدعى لميعـــة تزوده بالمنشورات. وكان شيوعي إيراني يتصل ببدر في قريته ويحدثـــه عـــن الشيوعية والرفيق فهد. وقد أعجب بدر بصديقه الشيوعي وما لبـــث أن قبـــل التوقيع على استمارة الانتساب، هو وعمه عبد المجيد ورفيق ثالث لهما. يـــذكر بدر هذه الحادثة، ولكنه لا يذكر متى حصل ذلك، ولا أية تفاصـــيل أخـــرى ويرجح أن ذلك حصل سنة ١٩٤٥ ويبدو أن عمادة الكلية كانت تعتقد أنـــه عضو في الحزب الشيوعي عندما قررت فصله، في الثاني من كانون الثاني ســـنة ١٩٤٦، بسبب تحريضه على إضراب. أما قوله عن نفسه: "وصرنا نبث الدعاية لروسيا وللشيوعية جنباً إلى جنب مع الدعاية للنازيين. سوف ينتصر المحور على الحلفاء وسوف تنتصر روسيا معه، وستعم الشيوعية العراق فبشرى للفقـــراء، بشرى للفلاحين الجائعين...إلخ" فلا يدل على انتسابه قبل هذا التاريخ، بل يدل دلالة قاطعة على المرحلة التي سبقت الانتساب، والتي كانت تعبّر عن الـــرفض والتمرد أكثر مما كانت تعبِّر عن الانتماء: إنها المرحلة السابقة على الانتماء.

عاد بدر إلى بغداد في أيار بحثاً عن عمل. وكانت بغـــداد تمـــور بنشـــاط سياسي غير عادي. ذلك أن الحرب كانت قد انتهت، وعمـــدت الســـلطة في العراق إلى السماح ببعض الحريات السياسية مثل تكوين الأحـــزاب وإنشـــاء الصحف. وحاول الشيوعيون أن ينتزعوا اعترافاً رسمياً بهم فلم يفلحوا. وكـــان أن لجأوا إلى إنشاء حزب التحرر الوطني برئاسة حسين الشبيبي، وأصبح بـــدر

عضواً في هذا الحزب. ثم ما لبث أن انتخب رئيساً لاتحاد الطلبة في دار المعلمين.

وصادف في هذه الأثناء أن أخذت بغداد تغلي بمظاهرات ضد السياسة البريطانية في فلسطين، فشارك بدر في هذه المظاهرات (حزيران ١٩٤٦). وردّت السلطة على المد الجماهيري بسياسة قمعية، فاعتقلت الكثيرين، وأغلقت عدداً من الصحف. وكان بدر من بين المعتقلين.

وعاش بدر تجربة السجن المرة لأول مرة، في بغداد ثم في بعقوبة، حيث قضى حتى منتصف الصيف في زنزانة رطبة، ينام على صفائح البنزين التي تركها له السجين السابق.

وظل بدر حتى تخرج سنة ١٩٤٨، يشارك في المظاهرات الوطنية ويلقي القصائد في المهرجانات الجماهيرية.

جـ- عالم المرأة السحري: لقد أصبح موضوع المرأة معقداً في دخيلة بدر. ويعود ذلك إلى وفاة أمه من جهة، وهو بعد صغير، وإلى طبيعة وضع المرأة في ريف عربي متخلف كالريف في العراق، ومنذ بدأ يتكون كانت مشكلة المرأة تنمو مع نموه. ويبدو أن علاقاته بالمرأة في القرية كانت علاقة "خيالية" جدته كانت الإنسانة الوحيدة الحقيقية في حياته. وهو يكتب عن ذلك إلى صديقه خالد: "أحق ان الذي قلته في قصائدك خيال؟ أحق أن (...) و (...) عاشتا في بالك فقط؟ أأصدق أنك لم تعرف الحب. أأنت مثلي لم تعرف فتاة بعينها؟ أأنت مثلي محروم من العاطفة لا يرى قلباً يخفق بحبه؟ لا، فأنت وان صدقت في زعمك لست مثلي، فأرجو ألا تكون مثلي إن شاء الله... مرت السنون وأنا

أهفو إلى الحب ولكني لم أنل منه شيئاً و لم أعرفه، وما حاجتي إلى الحب ما دا
هناك قلب جدتي يخفق بحبي"؟ ٤٢/١١/٢٣ [1]

وحين جاء بدر بغداد حمل معه حكاياته عن المرأة، إلاّ أن عـــالم المـــرأة في بغداد عالم جديد، والمرأة موجودة مع بدر على مقاعد الدراسة. لقـــد كـــان التعليم مختلطاً منذ سنة (٣٦ – ٣٧)، ولكن وجود الفتيات على مقاعد الدراسة مع الشباب لم يكن يعني أن المجتمع كان يستطيع أن يتجاوز رواسبه وتقاليده. إلاّ أن الفتى الريفي الحالم بات على تماس مع امرأة من نوع جديـــد، تـــتكلم وتبتسم وتقرأ الشعر. وإذا كانت صلته بالمرأة الريفية صلة الرعي، فان مدخلـــه إلى المرأة المدنية كان الشعر. وأصبح ديوانه ينتقل إلى مخادع العـــذارى، وينـــام تحت مخدامن. ثم ما لبث أن وجد إلى المرأة مدخلاً آخر هو السياسة.

ولكن المرأة في المدينة تظل بعيدة عنه. ان البنات البرجوازيات اللواتي كـــن يحببن أن يتشبث هن كنّ يردن ان يكون ذلك مجرد تسلية. أمّا لميعة التي كانت تنقل له المناشير فكان يسميها الإمبراطورة، معبّراً عن علاقتها الفوقية به.

كان وحيداً يحن إلى اللقاء ولكنه لا يصل. إن كل اللواتي أحبهن كان بينه وبينهن فواصل. كانت جدته حبيبته الأولى ولكنها ماتت في صيف ١٩٤٢ قبل أن يأتي إلى بغداد. وكانت لبيبة تكبره بسبع سنوات، لقد كانت أماً. وكانت علاقة لميا به علاقة برجوازية تريد أن تتسلى بشاعر مسحوق، أما لميعة فكانت صابئية ولقد أعجبت بشعره وأحبها ولكنهما كانا لا يستطيعان الزواج وكانت علاقة لميعة الأخرى به سياسية، ولذلك فقد سمّاها الإمبراطورة كما ذكرنـــا.

[1] د. إحسان عباس: بدر شاكر السياب: دراسة في حياته وشعره، ص ٣٥.

كان بدر يبحث عن حلم ضائع، وكان يتصور السراب ماءً فما يلبث أن يكتشف الحقيقة.

لذلك ليس غريباً أن يصرخ بدر بعد سنوات طويلة من المعاناة:

وما من عادتي نكران ماضيّ الذي كانا
ولكن... كل من أحببت قبلك ما أحبوني
ولا عطفوا عليّ، عشقت سبعاً كن أحيانا
ترف شعورهن عليّ، تحملني إلى الصين
سفائن من عطور نهودهن، أغوص في بحر
من الأوهام والوجد
فألتقط المحار أظن فيه الدر ثم تظلني وحدي
جدائل نخلة فرعاء
فأبحث بين أكوام المحار لعلّ لؤلؤة ستبزغ
منه كالنجمة
وإذ تدمى يداي وتنزع الأظافر عنها لا يبزغ
هناك غير الماء
وغير الطين من صدف المحار فتقطر البسمة
على ثغري دموعاً من قرار القلب تنبثقُ
لأن جميع من أحببت قبلك ما أحبوني

كان الشاعر القروي الشاب الذي يجري وراء السراب، بحثا عن الماء عطشاً إلى الماء الحقيقي الواقعي. كان عطشاً إلى المرأة المحسوسة الملموسة. والمرأة

المحسوسة والملموسة في مثل هذا الجو ليست شيئاً غير الجنس. والجنس يباع في سوق المتاع بعيداً عن الحب والعاطفة. وكان بدر مستعداً أن يغرف من هذا المعين الذي لا معين غيره.

قال لي أحد زملائه في الكلية: "وكانت قضية الجنس تشغله أولاً وقبل كل شيء" ولِمَ لا؟ لقد كان الشاب القروي يريد أن يكتشفها، أن يغرف من معينها أكثر، ويريد أن يجعل من حلمه في امتلاك المرأة حقيقة حية معاشة.

كان بدر، خلال حياته في الكلية يعود إلى قريته ما بين الفينة والأخرى وكان في المدينة يقضي وقته متنقلاً بين المقاهي والنوادي أو متسكعاً في الشوارع، ومن المقاهي التي كان يتردد عليها: مقهى إبراهيم عرب، ومقهى البلدية ومقهى الزهاوي.

وكان بدر يقرأ في هذه الفترة، من الأدب العربي الحديث، شعر الياس أبي شبكة وعلي محمود طه. ولقد تأثر بدر بهذين الشاعرين تأثراً كبيراً. وكان أن كتب قصيدته بين الروح والجسد في ظل هذا التأثير. ولا غرو بعد ذلك ان أرسل القصيدة المذكورة لعلي محمود طه حتى يكتب مقدمة. وكان شديد الاهتمام بالأدب العربي الحديث يتابعه بحرص وعناية.

وبدأ بدر يحاول أن يوسع معلوماته عن الآداب الأجنبية. فقرر أن ينتقل من فرع اللغة العربية إلى فرع اللغة الإنجليزية. وأخذ يقرأ شكسبير وبايرون ووردزويرث وشلي وكيتس. وما لبث ان اكتشف إليوت، وأعجب به إعجابه بالشعراء المذكورين سابقا.

وحاول أن يوسع معرفته بالأدب الفرنسي، عن طريق قراءة الشعر المترجم. ولقد قرأ ترجمة لقصائد بودلير. وكان يطلب من زميله سليمان العيسى أن يترجم له بعض الشعر الفرنسي، ولاسيما شعر لامرتين وبودلير.

وظل بدر مع ذلك محافظاً على قراءته التراثية. قرأ ابن الرومي ومهيار الديلمي والمتنبي والبحتري وأبا تمام. وكان يحفظ من الشعر الذي أورده ابن قتيبة في "الشعر والشعراء"

يقول محيي الدين اسماعيل: "كان يقدس التراث، لم يخرج عليه. بدأ يقرأه واستمر على ذلك. أمّا أكثر من تأثر بهم من الشعراء بالعربية فهما: المتنبي وأبو تمام. أثر أبي تمام أوضح. وكان يلازم "حماسة" أبي تمام ويحفظ منها الكثير، تأثر بكثير من قصائدها. وكان يهتم بالشعر الجاهلي.

حاول ان ينفلت من التراث مدة. ولكن تلك المدة كانت قصيرة جداً وعقيمة نسبياً. هذه الفترة هي سنتا ١٩٤٥ – ١٩٤٦ ولكنه ما لبث ان عاد إلى الاهتمام بالتراث" ويبدو ان إقباله على الأدب الانجليزي شغله مؤقتاً عن مواصلة الاهتمام بالأدب العربي القديم.

ولقد سعى بدر إلى الينابيع الفكرية والفلسفية، فتعرف على الماركسية وقرأ الكتب المتوافرة منها، سيان التي كانت في السوق أو التي كان يوفرها الحزب. وقد أصدرت دار الحكمة عدداً من الكتب آنذاك منها "أصل العائلة" لإنجلز.

وهكذا نرى أنه خلال سنوات حياته في الكلية، وسّع مداركه، وزاد معلوماته في اتجاهات متعددة، تؤهله لأن يكون شاعراً كبيراً.

ولكن لماذا ترك فرع العربية، وتحوَّل إلى فرع اللغة الانجليزية؟

هنالك عدد من التفسيرات، أهمها اثنان، الأول: أنه لم يعد يشعر بالاستفاد في فرع اللغة العربية. وربما أحس بمثل هذه المشاعر نتيجة اتساع قراءاته. ذلك أن من بين أساتذته نخبة من رجال الأدب لا في العراق فحسب، بل في الوطن العربي كله، مثل الدكتور مصطفى جواد والأستاذ طه الراوي والدكتور محمد مهدي البصير. والثاني: أنه أراد اتقان اللغة الانجليزية لتوسيع معرفته بالآداب الأجنبية وتعمقها.

تعرف بدر إلى نازك سنة ١٩٤٦. وكانت نازك قد تخرجت من دار المعلمين قبل سنتين. وأخذ بدر يزور نازك، فيتناقشان في القضايا الأدبية، وفي الشعر خاصة. وكان من نتيجة لقاءاتهما أن اتفقا على إصدار ديوان شعر مشترك، يضم شعرهما الجديد. وكانا يأملان أن يكون هذا الديوان مفاجأة ولكن الديوان لم يصدر.

وكان بدر مازال يواصل نشاطه السياسي. وعلى الرغم من أنه لم يطرد من الكلية مرة ثانية، فقد وجهت إليه عمادة الكلية إنذاراً مسجلاً في كانون الأول من سنة ١٩٤٦، نتيجة عملية تشويش قام بها في حفلة تعارف أقامها الطلاب القدماء في دار المعلمين للطلاب الجدد.

ولقد انتخب بدر ليمثل طلاب دار المعلمين في المؤتمر الأول للطلاب العراقيين الذي عقد في بغداد في ربيع سنة ١٩٤٨.

وكان بدر حتى هذه اللحظة قد وفّق إلى طباعة مجموعته الشعرية الأولى: "أزهار ذابلة" التي أرسلها إلى القاهرة مع بعض أصدقائه في خريف ١٩٤٧، والتي صدرت ووصلت بغداد قبل نهاية العام. ولكنه لم يوفق في إصدار ألفيته: بين الروح والجسد التي أرسلها إلى علي محمود طه، والتي ضاعت كما يبدو عنده.

٥- سنوات العمل والتشرد

المرحلة الأولى من التخرج إلى ثورة ١٤ تموز

تخرج بدر من الكلية سنة ١٩٤٨ وتقدم بطلب إلى وزارة المعارف، فعيِّن مدرساً للغة الإنجليزية في ثانوية الرمادي، اعتباراً من أول السنة الدراسية ١٩٤٨ - ١٩٤٩ بدأ بدر حياته الجديدة متحمساً، ذلك انه اعتبر عمله الجديد يهيئ له الفرصة لإقامة علاقة مع النشء الجديد.

كان بدر وحيداً في بلد لا يعرف أحداً فيه. وقد نزل في فندق هو أحسن فنادق البلدة كما وصفه. كان ما زال شيوعياً ولكن البلدة التي حل فيها لم يكن فيها شيوعيون ما عدا ثلاثة هم بدر شاكر السياب وزميل له تخرج من دار المعلمين وأحد الأطباء غير العراقيين.

وكان العراق ما زال يغلي، بسبب ظروف العراق الداخلية، وبسبب انعكاسات القضية الفلسطينية على الوضع الداخلي في العراق. وقد استقالت وزارة الباجهجي في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٤٩، بعد ستة أشهر تقريباً من توليها السلطة، وجاء نوري السعيد. كانت ذكرى الوثبة قريبة: ٤٩/١/٢٧، وكانت السلطة تريد أن تتفادى احتفال القوى الوطنية بالذكرى، فقررت التبكير بالعطلة؛ فقرر بدر أن يعود إلى قريته. وقد سمع وهو في المحطة همسات عن فصله من عمله، و لم يكن قد تسلم شيئاً رسمياً حول هذه القضية.

وصل بدر قريته فأخبره والده أن الشرطة سألت عنه، وطلب منه أن يختفي ولكن بدر ظن أن الشرطة لن تعود بسبب المطر فاطمأن إلى ذلك. وجاءت الشرطة في اليوم التالي، واقتادته إلى البصرة، ومنها إلى بغداد.

كانت حكومة نوري السعيد قد صعّدت حملتها ضد الشيوعية، مستغلة الأحكام العرفية التي كانت مفروضة على البلاد. وفي هذا الجو، قامت حكومة نوري السعيد باعتقال المئات من الشيوعيين والوطنيين وبالحكم على العديدين منهم، كما قامت بإعدام أربعة أشخاص من قادة الحزب الشيوعي، أعيدت محاكمتهم وهم في السجن، واعتبروا مسؤولين عن أحداث كانون سنة ١٩٤٨

ما لبث بدر ان أخرج من السجن، وهو في حالة من المعاناة النفسية الممضة. لقد ضرب الحزب، وأعدم "فهد" والقادة الآخرون. وحين عاد إلى القرية وجد عمه عبد المجيد، مسؤول الحزب في أبي الخصيب مسجوناً، كما وجد نفسه قد فصل من العمل رسمياً يوم ٤٩/١/٢٥. ومنع من التدريس عشر سنوات.

قضى بدر بعض الوقت في جيكور، ثم ما لبث أن ذهب إلى البصرة يبحث عن عمل. و لم يكن وجود العمل سهلاً، فقضى بعض الوقت عاطلاً، ثم اشتغل ذواقة في شركة التمور العراقية.

وانتقل بعد ذلك إلى شركة النفط العراقية في البصرة.

كان ما زال على علاقة بالحزب. لقد ترك جيكور، وكان عمّه مسجوناً، فوقع الاختيار على علي عبد اللطيف ناصر ليكون مسؤولاً عن الحزب في أبي الخصيب، وكان بدر يحتقره جداً. وقد وصفه فيما بعد في مقالاته التي نشرها في الحرية، بأنه "فلاّح من ذوي قرباي سخيف غاية السخف، جاهل غاية الجهل،

وإن كان يدّعي العلم والمعرفة" وقد زعزع اختيار علي ثقة بدر بالحزب. ولكن الحزب ظلّ يتصل ببدر، وهو في شركة نفط البصرة. وكانت تصله "القاعدة" والمنشورات الأخرى؛ ولم يكن بدر سلبياً. كان يتصل ويعمل. وحدث ذات يوم أن أمر الحزب تنظيمه العمالي في الشركة بتنظيم الإضراب، وحدث الإضراب. كان تنظيم الحزب الشيوعي قوياً، ومبررات الإضراب قوية أيضاً. ولم يكن بدر عاملاً. كان من فئة الكتّاب. هل كان بدر يعرف بالإضراب؟ لا بدّ، فليس ممكناً أن يكون عضواً نشيطاً، ولا يعلم. ولكنه بدا يوم الإضراب، وكأنه لا يعلم. لقد ذهب هو وزملاؤه إلى العمل كالعادة. وعندما وصلوا وجدوا العمال قد ضربوا كاتباً لأنه يريد أن يواصل العمل. فقرر بدر ورفاقه أن يشاركوا العمال الإضراب. وتداعى الكتّاب إلى اجتماع في ذلك اليوم، وخطب بدر فيهم محرضاً ومشجعاً فاستجاب الجميع. واختيرت لجنة لذلك الغرض كان بدر أحد أعضائها. وامتد الإضراب، وبدأ العمال يعانون من وطأته، فما كان من الكتّاب إلا أن قرروا إنقاذ الموقف بالقيام بدور الوسيط. واستطاعوا، عن طريق ترهيب الشركة مما سيقوم به العمال من أعمال عنيفة، أن يقنعوا الشركة بتلبية مطالبهم. ولقد لبت الشركة مطالبهم.

لم يستقر بدر طويلا في شركة نفط البصرة. قضى عاماً وبعض عام، ورحل سنة ١٩٥٠ إلى بغداد، يبحث عن عمل آخر. ولا نعلم إن كان قد فصل من عمله بسبب نشاطه السياسي، أو أنه ضاق ذرعاً بالبصرة وتشوّق إلى بغداد وأجوائها الأدبية.

عاد إلى بغداد، إلى مقاهيها ونواديها وإلى أصدقائه: خالد الشواف ومحـي الدين اسماعيل وغيرهم. لقد وجدهم و لم يجد عملاً. وكان أن اضطر إلى أن يعمل مأموراً في مخزن شركة لتعبيد الطرق، ثم أخذ ينتقل من عمل إلى آخر.

وأصدر عام ١٩٥٠ مجموعته الشعرية الثانية "أساطير" التي تضم إنتاج سنته الأخيرة في دار المعلمين (٤٧ – ٤٨).

ولقد تنقل في هذه الفترة بين عدد من الصحف، "الثبات" و "الجبهة الشعبية" و "العالم العربي" وكان عمل بدر في الصحافة متقطعاً، لأن الحكومة كانت تغلق الصحف الوطنية، ولهذا بحث بدر عن عمل دائم. واستطاع أن يجد وظيفة في مديرية الأموال المستوردة في آب ١٩٥١، بعد أن رضي مديرها العام بعدم مطالبته بشهادة حسن سلوك. وكان راتبه خمسة عشر ديناراً لا غير.

عاد بدر إلى العمل الرتيب، ولكنه كان عملاً يوفر له حداً من الدخل الثابت، وظلّ بدر ينشط سياسياً وصحفياً وأدبياً.

* * *

وقام مصدق في هذه الأثناء بتأميم النفط في إيران، فهبت المعارضة في البرلمان العراقي مطالبة بتأميم شركة نفط العراق والشركات الأخرى. واستطاعت الحكومة العراقية أن تصل إلى اتفاقية جديدة، يحصل بموجبها العراق على نصف الأرباح. ولكن هذا الاتفاق لم يرض المعارضة، فنظمت إضرابات ومظاهرات، فلجأ نوري السعيد رئيس الوزراء إلى كل الإجراءات لقمع الحركة الشعبية. وحين استقال نوري السعيد في تموز ١٩٥٢ خلفه مصطفى العمري، فقدمت إلى الوصي مجموعة من المطالب، منها حق الانتخاب المباشر وتحديد ملكية الأراضي وإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٠

و لم يكن متوقعاً أن تستجيب السلطة للمطالب الـتي قدمتـها المعارضـة. فقررت المعارضة أن تقاطع الانتخابات المقبلة إذا لم يقر قـانون الانتخابـات المباشرة.

وكان بدر يعيش هذه الأحداث فنشر قصيدة في جريدة الجبهة الشعبية تنبأ فيها بانتفاضة. وما إن حل تشرين الثاني حتى حصلت تلك الانتفاضـة. لقـد أضرب طلاب كلية الصيدلة في ١٩٥٢/١١/٢٢. و لم يكن سبب الإضـراب سياسياً. ومع ذلك فقد انفجرت بغداد المعبأة.

شارك بدر في المظاهرات الصاخبة التي هزت بغـداد. وكـان مـن بـين المظاهرات مظاهرة، فيها بدر، اتجهت إلى مخفر باب الشيخ، وقد قتل في الصدام عدد من الأشخاص، بما فيهم بعض رجال الشرطة، وأحرق المخفر.

كان من نتيجة هذه الأحداث أن استدعي الجيش لتسلم السلطة. وأصـبح نور الدين محمود رئيساً للوزراء، فأعلن الأحكام العرفية، وبدأت حملة اعتقالات واسعة.

وفكر بدر فيما عليه أن يصنع، وقرر أن يهرب. إلى أين؟ إلى إيران. كيف؟ تنكر بدر في زي أعرابي، وذهب إلى المسيب، ومنها إلى البصرة، ومن البصـرة على أبي الخصيب بالسيارة، ثم إلى جيكور، حيث لم يعرفه أحد إلا حين أخـذ يتكلم وساعده أحد المهربين على الوصول إلى المحمرة (خرّ مشهر).

ظل بدر في إيران مدة شهرين وعشرة أيام، كان خلالها علـى مـا يـبدو متضايقاً. وعزم على السفر إلى الكويت، وقد زوّده رفاقه من حزب توده بجواز سفر إيراني. ومع ذلك فقد كان عليه أن يدخل الكويت "مُهرَّبا"

نزل بدر الكويت في أوائل عام ١٩٥٣، بعد رحلة متعبة؛ وكان معه صديقه محمد حسين. والتقى بدر بجماعة من الشيوعيين فروا من العراق وحكم عليهم غيابياً. وقد سكن بدر ومحمد مع المجموعة التي بلغت ثمانية، تختلف مهنهم وأمزجتهم وثقافاتهم وكان من بين هؤلاء ثلاثة مصابون بالسل.

كانت مهمة بدر في حياته المنزلية الجديدة، أن يقوم بالأعمال المنزلية. وكم كانت المهمة صعبة بالنسبة للشاعر، خاصة إذا كانت المهمة الموكلة إليه تتطلب منه أن يهتم بهذا الحشد المتناقض من الناس. وعمل بدر خلال إقامته في الكويت موظفاً في شركة كهرباء الكويت.

وكان بدر خلال إقامته في الكويت يحن إلى العراق، ويفكر بالعودة. ولقد صوّر حالته النفسية هذه في قصيدته "غريب على الخليج" (الديوان ٣١٧).

"أعلى من العبّاب يهدر رغوه ومن الضجيج
صوت تفجّر في قرارة نفسي الثكلى عراق
كالمد يصعد، كالسحابة كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي عراق.
والموج يعول بي عراق، عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق"

وما هي إلا ستة أشهر حتى عاد بدر إلى جيكور. كان فيصل الثاني قد أصبح ملكاً في أيار سنة ١٩٥٣ وفاضل الجمالي رئيساً للوزارة. ولكن العراق كان حيث هو. لم تطل إقامة بدر في جيكور، لأنه كان بحاجة إلى عمل، ولأنها كانت تضيق بمطامحه الأدبية. ولذلك توجه إلى بغداد.

نزل في بغداد، في فندق رخيص. وأخذ يتصل بأصدقائه، ويتردد على مقهى حسن العجمي، ويلتقي بمحيي الدين اسماعيل، وعبد الوهاب البياتي وخالد الشواف ومحمود العبطة وآخرين.

وسافر بعد قليل إلى بوخارست لحضور مهرجان الشبيبة، وحصل على رسالة من حزب توده الإيراني. وكان لزيارته الثانية أثر في مستقبل علاقته بالحزب.

عاد بدر مرة أخرى إلى بغداد وعمل في جريدة الدفاع لصادق البصام، ولكنه ما لبث ان عيّن في مديرية الاستيراد مرة أخرى بتاريخ ٥٣/١٢/٢٣. فاستأجر بيتاً في الأعظمية ودعا عمته آسية لتعيش معه وتدبر له شؤون البيت.

وعاد بدر إلى حياته السابقة: لقاءات في المقاهي، تردد على الحانات ونقاشات في السياسة والأدب، "ومسيرات" على شاطئ دجلة، وزيارات لمبغى بغداد.

كانت علاقة بدر بالحزب الشيوعي تتداعى في هذه الأثناء وكانت هنالك مجموعة من العوامل التي تحكم على هذه العلاقة بالإحباط. ومن هذه العوامل:

أ- ما يتعلق بشخصية بدر: ان بدراً شاعر، وهو ابن فلاح، ولقد كان فردياً مفرط الحساسية، قومياً مثل كل المثقفين من أبناء البرجوازية الصغيرة، "مثالياً" في تكوينه النظري ولم يكن يستطيع أن يكون شيوعياً، إلا إذا كانت الشيوعية اندفاعاً سياسياً وحماسة عاطفية. وكان نمو هذه المشاعر وهذه الاتجاهات عنده يزيد من اختلافه مع الشيوعيين.

ب- وكانت هناك أيضا معاناته الشخصية مع بعض الشيوعيين. من ذلك احتكاكاته ومهاتراته مع زملائه في الكويت، كما روي فيما بعد، واحتكاكاته مع أحد الشيوعيين الإيرانيين خلال زيارته الثانية لإيران.

ج- وكان هنالك اختلال في الخط العام، بعد مقتل فهد خاصة، وكان من ذلك، مثلاً الموقف في إيران من مصدق، والموقف في العراق من قضية فلسطين. ثم كان هنالك مواقف الشيوعيين من اتجاهات بدر الجديدة: قراءته للأدب البرجوازي، إعجابه الشديد بشكسبير، اتجاهه نحو ايليوت، وبداية اهتماماته "العربية"

يقول خالص عزمي: "كنا نتردد كل ليلة على المحلة. انقطع بدر فترة، بسبب السفر فيما أتصور، ثم عاد ولديه تحول جذري في أفكاره جعله ينفر من أي تجمع سياسي. كان منكمشاً آنذاك و لم يذكر الأسباب"

إنّ شاعرنا يعيش مرحلة جديدة، انه ينهي التزامه الشيوعي الذي استمر سنوات من حياته. وكانت سنوات شاقة وغنيّة.

وكان بدر يوقع كل عام نداء أنصار السلام، إلاّ أنه لم يوقعه سنة ١٩٥٤.

وكان من أهم ما أنتجه بدر خلال السنوات (١٩٥١ – ١٩٥٤) مطولاته الأربع: فجر السلام ١٩٥١، حفار القبور ١٩٥٢، المومس العمياء ١٩٥٤، الأسلحة والأطفال ١٩٥٤. وكانت هذه المطولات تجربة جديدة في الشعر العربي الحديث.

كان بدر قد بدأ يكشف عن اتجاهات قومية عربية. وقد أقام علاقات مع مناضلين قوميين، منها علاقته بفيصل حبيب الخيزران، أحد قادة حزب البعث

العربي الاشتراكي. ويقول صديقه محيي الدين إسماعيل أن أحد أكثر اثنين أثرا في حياة بدر هما: فيصل وعبد الجبار وهبي – شيوعي – كما أنه أنشأ علاقة مع مجلة الآداب. وأخذ ينشر قصائد على صفحاتها، ذات اتجاه وطني وتقدمي وإنساني، ومنها قصيدته القومية "في المغرب العربي"

قرر بدر سنة ١٩٥٥ أن يتزوج. ولقد اختار أخت زوج عمه عبد القادر. كانت اقبال من أبي الخصيب، ولكنها لم تكن من عائلة بدر. وكانت قد تخرجت من دار المعلمات الابتدائية قبل سنتين: واشتغلت بالتدريس. كتب العقد في ٥٥/٦/١٩ في البصرة. ولم يحضر العرس إلاّ الأقارب الأقربون. وقد استأجر بدر بيتاً في بغداد، وأصبح لأول مرة رب بيت بالمعنى الحقيقي.

كانت الصراعات منذ سنة ١٩٥٣ تتصاعد في المنطقة العربية عامة، وفي العراق من جملتها. ولكن بدراً كان في هذه الأثناء يقرأ ويكتب ويترجم، ويتحسس مشاكل الجماهير وآلامها ولكنه لا يشارك في النضال العملي كما كان.

وبدأت بعض القصائد في شعره تعبّر عن المنحى الجديد في حياته: مثل قصيدته "تعتيم" التي نشرها بجلة الآداب في عدد كانون الأول سنة ١٩٥٥. وحين نشر مجموعة مترجمة من القصائد في خريف سنة ١٩٥٥ سجن أسبوعاً وغرّم خمسة دنانير لأنه لم يذكر اسم المطبعة على غلاف الكتاب.

ولقد تحمل بدر بالزواج مسؤوليات جديدة، زادت أعباءه المادية وزادت كما يقول مشاغله ومشاكله. وقادته على أن يقلل من الشراب، ويحد من ارتياد الحانات والتردد على المقاهي. ولكن زواجه لم يسعده كثيراً، لأنه كان يتوقع ان تعينه زوجه على تحقيق أحلامه ومطامحه فلم تستطع. وما كان ممكناً أن يسعد

الزواج رجلاً مثله، فردي بلا حدود، مطامحه كبيرة، ولقد اعتاد أن يعيش وحيداً مشرداً بلا بيت ولا زوج ولا أم، بينما حاولت الزوج أن تكوّن بيتاً ونظاماً وأن توفر حياة منظمة.

كان بدر في هذه الفترة يزداد شهرة داخل العراق وخارجه. ولقد ظل يواكب حركة الجماهير العربية بشعره. وحين وقع نفر من رجال الفكر والأدب بياناً بتأييد الثورة الجزائرية لم يتخلف بدر. إلاّ أن صدور البيان لفت انتباه السلطة، لاسيما أن عدداً من الموقعين كانوا من الشيوعيين. وقبل أن تسأل السلطة بدر أعلن أن لا علاقة له بالشيوعيين.

وحين كوّن الوفد العراقي الرسمي إلى مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في دمشق، من ٢٠ إلى ٢٧ أيلول سنة ١٩٥٦، كان بدر أحد أعضائه الثلاثة، وكان العضوان الآخران: نازك الملائكة ومحمد بهجت الأثري. ساهم بدر بمحاضرة في المؤتمر حول: "وسائل تعريف العرب بنتاجهم الأدبي الحديث"، كما اختير عضواً في لجنة صياغة المقررات. وكان المؤتمر مناسبة تعرف بدر من خلالها على عدد كبير من الأدباء العرب.

وحين حدثت حرب السويس، بعد أن عاد بدر إلى بغداد بقليل، أحس بدر بمثل ما أحس به الوطنيون العرب جميعاً. ولقد نظم قصيدة باسم "بور سعيد" ألقيت في مهرجان أقيم في دار المعلمين العالية ببغداد، حيث درس بدر وتخرج.

ولدت غيداء ابنة الشاعر البكر في ٥٦/١٢/٢٤. ولم يغير ميلاد الطفلة شيئا من حياته. ولكنه أخذ يعمل في جريدة الشعب لصاحبها يحيى قاسم. ومع أنه كان يترجم للجريدة ويكتب مقالات أدبية لملحقها الأسبوعي فقط، إلاّ أن

عمله في جريدة الشعب أثار عليه الأوساط الوطنية. ولقد كانت الحاجة هي دافعه الأساسي.

وصدرت مجلة شعر في هذه الأثناء، فتحول بدر عن الآداب إليها. وليست الحاجة هي السبب الوحيد في قناعتنا. وإنما التحول الكبير في مفاهيمه الأدبية هو السبب. ولقد دعته مجلة شعر إلى بيروت، ليُلقي شعراً في ندوتها المسماة: خميس مجلة شعر، فسرّه ذلك، وقدّم لشعره بمقدمة تدل على التحول الذي ذكرناه في مفاهيمه الأدبية.

وما لبثت ثورة ١٤ تموز ان انفجرت.

دخل بدر في هذه الفترة أهم معاركه الأدبية: معركة إثبات الوجود الشعري. وشهدت مجلة الآداب صفحات من هذا الحوار المحتدم ١٩٥٣ – ١٩٥٦، كان بدر يريد أن يثبت أنه رائد الشعر الحديث بالشعر وبالنثر. ودار نقاش شارك فيه بدر وصلاح عبد الصبور وكاظم جواد وصالح عبد الغني كبه وآخرون. ونشر بدر في هذه المرحلة قصائد من أفضل شعره: يوم الطغاة الأخير (نيسان ١٩٥٤). أنشودة المطر (حزيران ١٩٥٤)، المخبر (تشرين أول ١٩٥٤).

ولكن بدراً في هذه المرحلة أيضاً كرّس افتراقه عن مفهومه السابق في الالتزام الأدبي. أنه ما يزال من دعاة الأدب الواقعي. "ولكن الواقعية التي أدعو إليها هي الواقعية الحديثة التي تحدث عنها الناقد الشاعر الإنكليزي الكبير ستيفن سبندر في محاضرته القيمة عن الواقعية الجديدة و"الفن" ويضيف بدر أن الفنان الحديث من وجهة نظر سبندر أصبح انطباعياً وسريالياً وتكعيبياً ورمزياً في محاولته الهادفة إلى إيجاد انسجام بين ذاته وذات المجتمع. ولكنه أبى لنفسه أن

يكون من زمرة الطبيعيين الذين ينقلون الواقع نقلاً فوتوغرافياً. و لم يلبث الفنان الحديث حتى اهتدى إلى مخرج – كما يقول سبندر – وقد وجد هذا المخرج في الواقعية الحديثة، وهي في رأيه تحليل الفنان للمجتمع الذي يعيش فيه تحليلاً عميقاً فيه أكبر عدد مستطاع من الحقائق التي يدركها بنفاذ صبره، ولا تهم بعد ذلك وجهة النظر التي ينظر منها ما دام تحليله كذلك" (الآداب، أكتوبر ١٩٥٦ ص ٢٢).

وسيترك هذا التحول آثاره على المرحلة المقبلة. وهو تحوّل سياسي أدبي وذاتي كبير. انه يمثل معالم مرحلة جديدة في حياة السياب.

المرحلة الثانية: من ثورة ١٤ تموز إلى المرض. بشّر بدر بالثورة كما لم يبشر بها شاعر آخر. ولعل قصيدته قارئ الدم من أوضح ما كتب في هذا المجال. وكنت أنا وقد نشرت هذه القصيدة بعد ١٤ تموز مباشرة لأدلل على الحدس الأصيل التي فيها (جريدة الشعب الكويتية – ١٩٥٨/٨/٧). ولكن لبدر قصائد أخرى أكثر أهمية مثل أنشودة المطر ومدينة بلا مطر. وهو في قصيدته: "رسالة من مقبرة" متذمر برم من بغداد التي لا تثور:

هذا مخاض الأرض لا تيأسي
بشراك يا أجداث حان النشورْ
بشراك في "وهران" أصداء صورْ
سيزيف ألقى عنه عبء الدهورْ
واستقبل الشمس على الأطلسي

آهٍ لوهران التي لا تثورْ

وجاءت الثورة، بعد أن بدأ بدر رحلة تغربه السياسي. إلاّ أن بدراً فــرح بثورته كما فرح بها كل الوطنيين العرب. ولقد حيّاها بقصيدة لم ينشــرها في مجموعاته التي صدرت بعد ١٩٥٨

ما لبث بدر، بعد قرابة شهرين ان استقال من مديرية الاستيراد العامــة، وعيّن مدرساً للغة الإنجليزية في وزارة المعارف. ولقد قــاده تحســن راتبــه إلى الانتقال من محل سكناه إلى محلة هيبة خاتون بالأعظمية. ثم نقل بدر بعد قرابــة شهرين أيضاً (٢٠/١١/٥٩) إلى مديرية التجارة العامة.

كانت الجبهة الشعبية الوطنية في هذا الوقت تتفسخ. ذلك أن أطراف الجبهة لم يستطيعوا الاتفاق على برنامج. وقاد الصراع حول قضية الوحدة والســلطة إلى صراعات حادة ونزاعات دموية. وكان عبد الكريم قاسم يلعب بالصراعات من أجل أن يبقى. وما لبثت هذه الصراعات السياسية أن تحوّلت إلى تيــار دم، وإلى قطيعة ما بين أطراف الجبهة الوطنية.

كان بدر في هذا الصراع ضد الشيوعيين. ولقد كان مُعَــدّاً لأن يكــون كذلك. وحين حدثت حركة الشواف، وتصاعد العداء بين أطــراف الجبهــة الوطنية صفّ بدر إلى جانب القوميين. ولقد طلب منه أحد زملائه في العمــل ذات يوم أن يوقع عريضة تدين حركة الشواف وتتهم الرئيس عبــد الناصــر بتدبيرها. ولكن بدراً رفض التوقيع، وحدثت مشادة كلامية، فما كــان مــن بعض زملائه في العمل إلا أن شكوا بدراً إلى وزارة الاقتصاد، بتهم شتى. ولقد اقتيد إلى المخفر للتحقيق معه، فلم يثبت عليه شيء. وخرج من السجن بكفالة بعد أيام، إلا أنه فقد عمله.

ولقد كان فقدان عمله عامل ضيق كبير له. ذلك أنه أصبح معيلاً، كما أنه بات غير ملتزم سياسياً. ولذلك أحس هول المشكلة. وحاول أن يجد عمــلاً في الدولة فلم يستطع، لأن كل الأبواب كانت تسد في وجهه. ولذلك رضـي أن يعمل مترجماً في السفارة الباكستانية براتب ضئيل.

ولقد تعرض في هذه الفترة لمضايقات أخرى. ذلك أن رفاقــه الشـيوعين تعمدوا إيذاءه. وحدث مرة أن تعرضوا له في الشارع، فأجبروه، بعد أن أهانوه، على أن يعلق صورة الزعيم عبد الكريم قاسم على ياقة معطفــه. كمـا أنهـم طاردوا زملاءه ومنهم محي الدين اسماعيل.

وحاول، مصطفى أخو بدر أن يقنعه بأن الحزب مازال يكن له الاحتــرام، وان زملاء له مثل عزيز الحاج مازالوا يعزّونه، وأنهم يسـتطيعون مسـاعدته في العودة إلى عمله. ولقد ذهب فعلاً إلى "اتحاد الشعب" ليقابل عزيز الحاج فلـم يجده. ووجد اثنين من أصدقائه هما جمال الحيدري وحمزة سلمان و لم يبحـث الصديقان معه قضية فصله، بل بحثا قضية علاقته مع الحزب، وطلبـا منـه أن يكتب وجهة نظره في قضية خلافه هذا. قبل بدر ذلك، وكتب وجهة نظره في قضية الخلاف، وإنه لمن المؤسف حقاً أننا لم نستطع رؤية هــذه الوثيقـة، ولا استطعنا قراءة موجز لها.

المهم في الأمر أن الرفاق لم يفعلوا لبدر شيئاً، فلا هم أعادوه إلى عمله، ولا هم أصدروا قراراً بشأن علاقته بالحزب. ولقد أثّر ذلك في بدر كثيراً. ومـا إن بدأ المد يميل ضد الشيوعيين حتى كتب بدر سلسلة مقالات في مجلـة الحريـة البغدادية بعنوان (كنت شيوعياً) نشرت في منتصف آب سنة ١٩٥٩، وكانت هجوماً حاقداً انفعالياً لم يبق و لم يذر.

كان بدر في هذا الوقت يتهاوى. لقد هاجم الشيوعيين، وتملق عهد قاسم مراراً، وإن كان قد ظل ضده. ولكنه كان قد بدأ يحس بالعبث والتعب والانهيار.

زار بيروت في صيف ١٩٦٠ لطبع ديوان له. ولما كانت مجلة شعر قد أعلنت عن مسابقة اشترك في مسابقتها؛ وأتاحت له زيارة بيروت فرصة التعرف على عدد كبير من الشعراء والأدباء، كما أتاحت الزيارة الفرصة لظهور بدر في عدد من الندوات والمقابلات.

وحين عاد إلى بغداد ألغي قرار فصله من العمل، فأعيد تعيينه في السادس عشر من آب سنة ١٩٦٠ وصدرت في أواخر هذا العام مجموعته الشعرية الثالثة: "أنشودة المطر" التي ضمت ثلاثاً من مطوّلاته: حفار القبور والمومس العمياء والأسلحة والأطفال.

ولكن بدر كان متعباً يحن إلى الراحة. انه يريد راحة النفس، بالابتعاد عن بغداد وذكرياتها المرة. ويريد راحة الجسد الذي بدأ يتداعى؛ حتى أنه أصيب بضعف عام، وبدأت رجله اليمنى تتثاقل عن الحركة. ولقد ظلت الفكرة تلح عليه حتى أنه كتب لادونيس في ٦٦/١٢/١٨: (سوف أنقل مقر عملي إلى مدينة البصرة، فقد هزَّني الشوق إلى جيكور وبويب وسواهما من ملاعب الطفولة). وما لبث بعد أربعة أيام أن استقال من عمله وانتقل مع عائلته إلى البصرة.

٦- أسفار مع المرض والعذاب

وصل بدر إلى البصرة، ولكنه لم يبحث عن العمل طويلاً هذه المرة. لقد دعاه المدير العام للموانئ العراقية اللواء الركن مزهر الشاوي للعمل في مصلحة الموانئ. و لم يتردد بدر، ذلك أنه بحاجة إلى العمل، واللواء مزهر رجل محب للآداب ينظم الشعر ومن المعجبين بشعر بدر.

أصبح بدر بعد اسبوعين موظفاً في مصلحة الموانئ براتب مثل راتبه السابق، البالغ حوالي خمسين ديناراً. ولكن قرار تعيينه صدر وهو في السجن، ذلك أنه اتهم بأنه شارك في مظاهرة قامت في بغداد. والحقيقة أن بدراً لم يكن في بغداد. ولما استطاع اثبات ذلك أفرج عنه بعد أن قضى حوالي أسبوعين مسجوناً (٦١/٢/٤ حتى ٦١/٢/٢٠).

وكان أول تعيينه في مديرية الشؤون الثقافية، ثم نقل إلى مديرية النقليات بأرصفة الميناء، وأعيد ثانية إلى الشؤون الثقافية، ليكون مسؤولاً عن شؤون البعثات الطلابية التي ترسلها المديرية. كما عيّن عضواً في أسرة تحرير مجلة الموانئ التي تصدرها المديرية، وكانت عضويته في أسرة التحرير تضيف إلى دخله خمسة دنانير.

كانت صحة بدر في هذه الأثناء تتدهور. بات الألم في أسفل ظهره محسوساً، وتثاقلت حركة رجليه. وولدت له طفلة في السابع من تموز سنة

١٩٦١، سمّاها آلاء، وشاء سوء الطالع أن تقرر الحكومة العراقية في هذا الوقت إسترداد المكافأة التقاعدية التي تسلمها سنة ١٩٥٩، فأوقعه ذلــك في ضــائقة مالية. لقد كانت ولادة بنته ومرضه سببين كافيين لزيادة المصروفات، فكيــف إذا استقطع ثلث الراتب؟

وقد اضطرته ضائقته المادية إلى التعاون مع مؤسسة فرانكلين لإنجاز بعــض الترجمات.

وكان في ربيع هذا العام، ١٩٦١، قد زار جيكور، فأثارت زيارته في نفسه حشداً من الذكريات، وأنتجت عدداً من القصائد المسربلة بالموت.

لقد بدأ الموت الخاص الفردي يكون شاغله الوحيد.

وكانت صحته تزداد تدهوراً، ذلك أن نصفه الأسفل بدأ يستسلم للشلل، وأخذت قواه الجنسية تضعف، وسيطرته على البول والغائط تتناقص.

وجاءته في هذه الأثناء دعوة لحضور مؤتمر للأدب العربي المعاصر يعقــد في روما ما بين ١٦ و ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٦١. فشارك بمحاضرة عنوانهــا: الالتزام واللا التزام في الأدب العربي الحديث.

وانتقل بدر من المشاركة في مجلة شعر إلى المشاركة في مجلة حوار، ثم قــرر أن يعود إلى الآداب.

وكان يتنقل بين بيروت وبغداد وباريس ولندن من أجل العلاج، والمــوت نصب عينيه وبنات الجن تلاحقه. ولكن العلاج لم يجده فتيلاً. كــان الجــزء الأسفل من جسمه يضمر ويضمر، والقروح تأكل ظهره. وحين جربوا معــه العلاج الطبيعي، كسرت عظمة الساق لهشاشتها.

ومات بدر يوم ١٩٦٤/١٢/٢٤ وكان ديوانه، شناشيل ابنة الجلبي قد صدر، ولكنه لم يصله قبل الوفاة. وكان قد صدر له قبل ذلك: المعبد الغريق ١٩٦٢، ومنزل الأقنان سنة ١٩٦٣

يقول تقرير المستشفى الأميري في الكويت:

كان يعاني من مرض عضال ألمّ به منذ سنة ١٩٦٠، حيث أصابه ضعف في حركة أطرافه السفلى، أدخل على أثره مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت و لم يتحسن. سافر بعدها إلى إنكلترا، بعد أن فقد القابلية على السير، حيث أجريت له الفحوصات وعولج و لم يحصل إلا على تحسن جزئي لا يذكر. وأخيراً حط به المطاف في الكويت حيث أدخل المستشفى الأميري بتاريخ ٦٤/٧/٦، حيث كان طريح الفراش يشكو من شلل تام في أطرافه السفلى وضمور شديد في جميع عضلات الجسم وفقدان السيطرة على التغوط، مع قروح جلدية عميقة في منطقة الورك. كذلك كان يعاني آخر أيامه من اضطرابات نفسية حادة. عرض على أخصائي الأمراض النفسية حيث أخبر الطبيب انه يعتقد ان سبب مرضه هو الظروف القاسية التي مر بها خلال السنوات العشر الماضية سياسياً وعائلياً. وكان الطبيب المعالج يعتقد ان العلاج النفسي سيساعده كثيراً في التغلب على المرض، بينما يعتقد الأخصائي بأنه يشكو من كآبة حادة: بالإضافة إلى مرضه الأول (شلل تام).

قضى فترة ما يقارب الستة أشهر في المستشفى الأميري أجريت له شتى الفحوصات المخبرية والشعاعية، أعطي بعدها العلاج الطبيعي الذي سبب له من سوء حظه كسراً باثولوجياً في عظم الفخذ الأيسر، وذلك لشدة ضعف العظم والعضلات. انتكست حالته الصحية أثناء مكوثه في المستشفى عدة مرات، بينما

كان المرض يتطور من سيء إلى أسوأ، مع كافة مضاعفاته، إلى أن وافاه الأجل الساعة ٢,٥٠ صباحاً من يوم ٢٤/١٢/٦٤، إثر إصابته بذات الرئة الشعبي الحاد"

ولقد حمل صديقه علي السبتي جثمانه وسار به إلى البصرة. كان الجو ممطراً والشوارع مقفرة. وحين وصل بيته لم يجد أحداً، لأن الشرطة كانت قد أخرجت عائلته من البيت في ذلك اليوم نفسه، فالبيت لمصلحة الموانئ، ومصلحة الموانئ طردت بدراً، بعد أن استنفد الإجازات المرضية، ولأن عائلة بدر لم تدفع المتأخر من الإيجار ونفقات الكهرباء.

ودفن جثمان بدر، بعد الصلاة عليه في مقبرة الحسن البصري، و لم يحضر جنازته إلا عدد قليل من أصدقائه.

واليوم يقف لبدر تمثال شامخ في البصرة، على شط العرب، أقيم في احتفال بمناسبة ذكرى وفاته السادسة سنة ١٩٧١

* * *

المراجع

د. إحسان عباس: بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره – دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩.

د. عيسى بلاطه: بدر شاكر السياب، حياته وشعره – دار النهار للنشر، ١٩٧١

عبد الجبار داوود البصري: بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد ١٩٦٦

سيمون جورجي وآخرون: بدر شاكر السياب الرجل والشاعر – منشورات أضواء، ١٩٦٦

محمود العبطه: بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق – مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٥.

مجلة الآداب: نيسان ١٩٥٤، حزيران ١٩٥٤ تموز ١٩٥٤، أكتوبر ١٩٥٤، كانون الأول ١٩٥٥، حزيران ١٩٥٦، أكتوبر ١٩٥٦

مجلة شعر: العدد ٣ سنة ١٩٥٧

مجلة حوار: العدد ٥، ٩، ١٠.

مقابـــلات مع: محيي الدين اسماعيل، سليمان العيسى، محمد علي الزرقـــا، خالص عزمي، علي السبتي.

عبد الجبار عباس: السياب – وزارة الإعلام، كتاب الجماهير ١٢، ١٩٧٢.

خالص عـــزمي: صفحات مطوية من أدب السياب – وزارة الإعلام، سلسلة الثقافة العامة ٧، ١٩٧١

السياب ... شيء عن شعره وعصره

إن سنة ١٩٤٨ سنة حاسمة في التاريخ العربي الحديث، فهي لم تشهد نكبة فلسطين فقط، ولكنها شهدت بداية انهيار المجتمع العربي التقليدي، التي تمثلت فيما بعد بانهيار أنظمة الحكم في سوريا ومصر، وبالحركات الشعبية ضد السيطرة الاستعمارية في مصر والعراق... وليس غريباً أن تشهد هذه السنوات ذاتها بداية حركة "الشعر الحر" في الوطن العربي.

إن انهيار المجتمع العربي التقليدي لم يكن انهياراً فحسب، ذلك أن قِيَم هذا المجتمع المتخلف المحافظ أخذت تنهار أيضاً أمام الحركة النامية في أحشائه، تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية. وكانت هذه الحركة من العمق إلى درجة لم يستطع معها الشعر العربي – وهو الذي لم يستطع التجديد الجذري أن يقتحمه منذ الجاهلية – أن يبقى حيث أراد له الخليل بن أحمد. لقد بلغت الهزة الشعر العربي، فعاد إلى مكانه من حركة التطور، وبدأ يتفاعل معها، لتبدأ تجربة "الشعر الحر

ولقد هيأت لهذه التجربة عوامل مختلفة أهمها:

أولا: سقوط الوجود العربي التقليدي، وزوال صفة القداسة عنه، ذلك أنه سقط سياسياً، وسقط اجتماعياً، وسقط فكرياً.

ثانياً: دراسة تجارب الشعر الغربي، ولاسيما الفرنسي والإنجليزي، والتأثر بتياراته المختلفة.

ثالثاً: تسرب الفكر الاشتراكي عامة، والماركسي خاصة، إلى بلادنا وكفاحه من أجل التحرر والتجديد وربطه بينهما.

ولقد حدثت قبل سنة ١٩٤٨ إرهاصات في مجال التجديد الشعري أهمها محاولات الدكتور لويس عوض في "بلوتولاند وقصائد أخرى"، وترجمة علي أحمد باكثير لمسرحية شكبير. والجدير بالذكر أن هذه المحاولات ظلت سنوات دون نشر، حتى قيّض لها أن تصدر سنة ١٩٤٧ وتعتبر محاولات الدكتور لويس عوض جادة وهامة لأنها تخطت مفاهيم الشعر العربي تخطياً نهائياً، إذ أنه حاول أن يبتكر أوزاناً جديدة سواء بالاستفادة من العروض العربي، أو بالاستفادة من العروض الإنجليزي، كما حاول أن يحرر الشعر من اللغة الجامدة، لغة المعاجم والفقهاء. وتضم هذه المجموعة قصائد فصيحة وقصائد عامية، قصائد موزونة وقصائد غير موزونة[1] إنها مجموعة تجارب واعية. ولكن صدورها سنة ١٩٤٧، جعلها ذات أثر محدود في تجربة الشعر الحديث. لقد ضاعت في الموجة التي أخذت تتسارع في السنة التالية غير ملتفتة إلى شيء.

بدر والقصيدة الحديثة

كانت بغداد تشهد مداً يسارياً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان في دار المعلمين العالية في بغداد طالب قَدِم من جيكور في جنوب العراق، يدعى بدر

[1] - مجلة حوار – العدد ٢٠، صراع المتناقضات في الشعر الحديث – غالي شكري.

شاكر السياب، يدرس الأدب الإنجليزي، وينتمي للحزب الشيوعي العراقي كان بدر غريباً في المدينة، وغريباً في نفسه، ولكنه كان – وهو ابن الفلاح – ضد المدينة... إنه يرفضها سياسياً لأنها تضطهده، وتحوله إلى تابع مهين ويرفضها اجتماعياً لأنها تحوله إلى عبد محروم.. فلم يكن بدعاً أن يرفضها ثقافياً خاصة والدعوة الشيوعية "دليله"، والثقافة الغربية مادة دراسته.

كان الفتى الغريب بطبعه ووضعه رومانسياً، ولكن رومانسيته لم تكن رومانسية وطن يتقدم نحو الازدهار، بل كانت رومانسية وطن يعيش مرحلة تخلخل سياسي واجتماعي، وتعاني أكثرية الشعب فيه أقسى أنواع الاضطهاد والحرمان. الرومانسية هنا ليست مترفة، ليست تمويمات برجوازية "صناعية" صاعدة، ولا تأوهات برجوازية وسطى تضيق بأطرحياتها وتقاليدها.. إنها رومانسية برجوازية صغيرة مذلة مهينة محرومة، ترزح تحت وطأة تقاليد اجتماعية قاتلة، وتجابه تخلف مجتمع شبه إقطاعي شبه مستعمر، وهي هزيلة التكوين والفكر. من هنا كانت الرومانسية جزءاً من الثورة السياسية الاجتماعية فتحولت من "تبرم" إلى "رفض" وتجاوزت الضبابية والغموض – إلى حد – لتطرح قضية التغيير الجذري للمجتمع.

وحين بحثت رومانسية البرجوازية الصغيرة هذه عن دليل للثورة، وجدت الماركسية فتبنتها، واتحدتا معاً... كان بدر ابن هذا الاتحاد القلق، فآمن بالتغيير ولكنه ظل محافظاً على حرمة التراث، وسمح لنفسه أن يتجاوز تقاليد العمود الشعري العربي، ولكنه ظل وفياً للتراث، فلم يتجاوزه أبداً[1] لم يكتب قصيدة

---

[1] اكد لي صديقه محيي الدين اسماعيل هذه الحقيقة، كما أكدها لي الشاعر شخصيا.

النثر، و لم يستعمل العامية، و لم يتجاوز الأسس المتعارف عليها في العروض العربي، إلا في أقل القضايا أهمية، وهي عدد التفاعيل.

ومع ذلك فقد كان بدر رائداً من روّاد التجديد.

هل كان أول الرواد؟...

إنها قضية مختلف عليها. وهنالك ما يدعو إلى الالتباس. ذلك أن القضية ليست واضحة تماماً. فمن الناحية التاريخية سهل علينا أن نحدد تواريخ كثير من القصائد التي تعتبر القصائد الأولى في تجربة "الشعر الحر"، ولكنه ليس من السهل أبداً أن نحكم" أي من هذه القصائد هي النموذج الأول لتجربة الشعر الحديث. ومع هذا فسنحاول أن نطرح القضية زمنياً، وشعرياً.

هنالك اتفاق من الناحية الزمنية على أن محاولات الدكتور لويس عوض وعلي أحمد باكثير هي الحائزة قصب السبق في هذا المجال. ولكن هذه المحاولات كانت كالصيحة في الوادي، فالدكتور لويس عوض وعلي أحمد باكثير لم يخوضا معركة التجديد.. و لم يدخلا معركة التجربة الشعرية الجديدة بالشعر... لقد توقفا من حيث كان البدء. ويبدو أن محاولاتهما لم تكن ذات أثر في العراق. نستدل على ذلك من المناقشات التي دارت على صفحات الآداب حول "الشعر الحر"، والتي اشترك فيها السياب نفسه. فما من أحد أشار إلى محاولات لويس عوض وباكثير، من المتناقشين، إلا صلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب. أما السياب فقد مر مروراً عابراً بعلي أحمد باكثير معتبراً إيّاه أول من كتب "الشعر الحر"، و لم يشر أبداً للويس عوض. وأما صلاح فقد ذكر لويس دون باكثير[1] يبدو أن بدراً لم يقرأ محاولات لويس عوض، وإلا فما كان من

[1] الآداب، حزيران – تموز ١٩٥٤ ويناير ١٩٥٥.

سبب يدعوه لعدم ذكره، ما دام يعترف بالأولوية لباكثير[1] ثم إن صدور محاولات عوض وباكثير سنة ١٩٤٧، وان كانت قد كتبت قبل هذا التاريخ بسنوات يجعل تأثيرها محدوداً – إن كان لها تأثير خارج مصر – ذلك أن التجربة في العراق كانت تعطي أولى ثمارها في هذا التاريخ.

تروي السيدة نازك الملائكة أنها نظمت قصيدتها الكوليرا يوم ١٩٤٧/١٠/٢٧، التي نشرت في أول كانون الأول من العام نفسه، كما تذكر أن الشاعر بدر شاكر السياب أصدر ديوانه "أزهار ذابلة" في بغداد في منتصف كانون الأول من ذات العام، وكانت فيه قصيدة بعنوان "هل كان حباً" "علق عليها في الحاشية بأنها من الشعر المختلف الأوزان والقوافي"[2] وهنالك اتفاق بين من كتبوا حول الموضوع على أن ديوان بدر "أزهار ذابلة" صدر في كانون الأول[3] ويذكر صالح عبد الغني كبه أن "رفائيل بطي" علق في مقدمة "أزهار ذابلة" على قصيدة متحررة فيه[4]، ولكن بدر نفسه يذكر أن ديوانه "أزهار ذابلة" طبع في مصر، وأنه وصل إلى العراق في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧، وان قصيدة "هل كان حباً" "المكتوبة على طريقة الشعر الحر قد كتبت قبل طبعه بما لا يقل عن شهرين – إذا كانت المسألة مسألة حساب فقط – و:أكثر من عام كما هي الحقيقة"[5] وقد نشرت قصيدة "هل كان حباً" في مجموعة "أزهار وأساطير"[6] التي طبعت سنة ١٩٦٠ عندما كان بدر يعالج في بيروت، وقد وضع

---

[1] يذكر بدر في مقدمة "أساطير" اسمي الياس ابو شبكة وخليل شيبوب.
[2] قضايا الشعر المعاصر – ص ٢٣ – ٢٤، ط ٢ مكتبة النهضة بغداد.
[3] الأداب – شباط ١٩٥٤، حول الشعر المتحرر في العراق، صالح عبد الغني كبه ص ٥٠ – ٥١.
[4] المصدر السابق.
[5] الأداب – حزيران ١٩٥٤ ص ٦٩.
[6] إصدار مكتبة الحياة.

تحتها التاريخ التالي: ١٩٤٦/١١/٢٩. وينسجم هذا التاريخ مع ما ذكره بدر أعلاه. ويذكر بدر أيضا أنه نشر خمس قصائد من "الشعر الحر" في الفترة الواقعة بين ظهور "أزهار ذابلة" و "الكوليرا" ولكن بدراً لا يذكر أسماء هذه القصائد، ولا أين نشرت. ومن المفروض أن تكون قد نشرت في الفترة الواقعة بين كانون الثاني ١٩٤٧، يعود تاريخها إلى سنة ١٩٤٨ أما القصائد المنشورة فيعود تاريخها بالترتيب كما يلي: أساطير ٤٨/٣/٢٤، سراب ٤٨/٣/٢٧، اتبعيني ٤٨/٤/٢١، نهاية ٤٨/٥/٢٦، في القرية الظلماء ٤٨/٦/٢٠، سوف أمضي ٤٨/٢/٣٠، أغنية قديمة ٤٨/٧/٢٠، في ليالي الخريف، ٤٨/٩/١٧، في السوق القديم ٤٨/١١/٣، اللقاء الأخير ١٩٤٨ دون تاريخ محدد.

ومن الجدير بالذكر أن بدراً لم يجد – حين نشر رده، وبعد ذلك – من يناقشه في صحة المعلومات التي أوردها، والغريب أن نازك الملائكة أصدرت كتابها "قضايا الشعر المعاصر"، وأوردت وجهة النظر الواردة آنفاً، والمخالفة لوجهة نظر بدر، ولكنها لم تكلف نفسها عناء مناقشة ما أورده بدر، مع أني أستبعد أن تكون غير مطلعة عليه.

هنالك فرق زمني يبلغ عشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً بين تاريخ قصيدة بدر "هل كان حباً"، وتاريخ قصيدة نازك "الكوليرا" وهذا يعني أن بدراً كتب هذه القصيدة قبل صدور ترجمة باكثير لمسرحية شكسبير[1]، وقبل صدور مجموعة الدكتور لويس عوض، ولكن هذا السبق الزمني لا قيمة له عملياً ذلك أنه وإن كان يسجل لبدر سبقه في هذا المضمار، إلا أنه لا يجعله معلماً رائداً لأبناء جيله.. لنازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور وغيرهم. لقد

---

[1] كان بدر يعلم ان ترجمة باكثير التي نشرت سنة ١٩٤٧ كانت مهياة للنشر منذ سنوات.

أعلن بدر إشارة البدء – بعد أن أعلنها الدكتور لويس عوض ولكنه لم يدخل الميدان – وما كاد يدخل الميدان حتى وجد عدداً من الشعراء يخوض الشوط معه. وكان كل شاعر من هؤلاء ذا تجربة خاصة، وله من الإمكانيات ما لبدر أو بعض ما لبدر، وخلال الشوط الطويل تكوَّن هؤلاء الشعراء، ونضجت تجربة "الشعر الحر" كان كل واحد منهم يأخذ من النهر، منمياً طاقاته وإمكانياته. وإن كان كل منهم يحتفظ بمصادر طاقته الخاصة. ولكن كل واحد منهم كان يحاول اللحاق ببدر، ويتأثر به بشكل أو آخر.

* * *

لنعد إلى قصيدة بدر الأولى "هل كان حباً"، لنرى ما فيها من التجديد. إنها تتكون من أربعة مقاطع من بحر الرمل (فاعلاتن مكررة ثلاث مرات بالأصل). ولقد خرج بدر على قاعدة الخليل بن أحمد التي تقضي بالتزام ثلاث تفعيلات في الشطر الواحد إذا كان البحر تاماً، وباثنتين إذا كان مجزوءاً، فجاءت بعض الأبيات من تفعيلتين وبعضها من ثلاث وبعضها من أربع دون نظام معين. وإن كان يبدو من دراسة القصيدة أن بدراً حاول الالتزام بنظام معين فيها، ولكن الزمام أفلت من يده. يدل على ذلك المقطع الأول الذي يتكون من سبعة أبيات[1] الثلاثة الأولى منها ذات ثلاث تفعيلات، والبيتان التاليان أربع أما السادس والسابع فمثل الأبيات الثلاثة الأولى. ونلاحظ أن قافية الأبيات الثلاثة الأولى منسجمة مع قافية البيتين الأخيرين. إلا أن المقاطع الأخرى لا تخضع لنفس الترتيب في التفعيلات، وإن كان الثاني يخضع لنفس الترتيب في القافية.

---

[1] سميتها أبياتا مع ان بعضها أشطر حسب الاصطلاح التقليدي أما في هذه الدراسة فالبيت والشطر شيء واحد.

أما الثالث فقد كان مقدراً له أن يكون مثل سابقيه من حيث القافية. ولكن الأبيات الأربعة الأخيرة التقت في قافية واحدة. ويخرج المقطع الرابع – من حيث القافية – عن إطار ما التزم في المقاطع السابقة، إذ تتوالى القافية الواحدة في شطرين متتابعين، ما عدا الشطر الثالث الذي ظل وحيداً.

ونلاحظ في هذه القصيدة:

١- استعمال تفعيلات الرمل – كاملاً ومجزوءاً – دون نظام معين.

٢- محاولة التخلص من التزام قافية واحدة التزاماً محدداً.

ويبدو أن التطور الذي حدث في هذه القصيدة جاء عفوياً، لأنها ابتدأت بنظام معين – وزناً وقافية – ولكنها تجاوزت ما بدأت به، وإن كانت لم تنته إلى استعمال التفعيلة الواحدة في الشطر الواحد، ولا إلى تجاوز أي نظام للقافية. إن ما فعله بدر في هذه القصيدة هو أنه أجاز لنفسه الانتقال من تفعيلتين إلى ثلاث فأربع انتقالاً غير منتظم.

وقد حقق بدر الانتقال إلى استعمال التفعيلة الواحدة في قصيدته "سوف أمضي"[1] لأول مرة، فيما نعرفه من قصائده. إلا أن هذه القصيدة تلتزم نظاماً معيناً في الوزن والقافية، ما عدا شطراً واحداً في المقطع الأخير. ولعل قصيدته أساطير[2] تحقق قفزة إلى الأمام في مجال التخلص من عمود الشعر التقليدي. فالقصيدة من المتقارب (فعولن مكررة أربع مرات في كل مرة) و لم يعرف الشعر العربي لهذا البحر مجزوءاً، ولا مخلوعاً (استعمال ثلاث تفعيلات)[3] وقد

---

[1] أزهار وأساطير ص ٤٧ من هذه المجموعة وتعتمد هذه المجموعة كمرجع إلا حيث ذكر ذلك.

[2] المصدر السابق ص ٣٣.

[3] تسمية اصطلاحية ليست له.

جاء بدر فحرر هذه التفعيلة من عمود الخليل، لترد فرادى أو مثنى أو ثلاث أو رباع دون انتظام.

تعالي فما زال لون السحاب
حزيناً يذكرني بالرحيل
رحيل؟...!
تعالي، تعالي. نذيب الزمان
وساعاته في عناق طويل
ونصبغ بالأرجوان
شراعاً وراء المدى
وننسى الغدا
على صدرك الدافئ العاطر
فتهويمة الشاعر
تعالي فملء الفضاء
صدى هامس باللقاء
يوسوس دون انتهاء

ونستطيع أن نلاحظ هنا أن بدراً تحرر من اتباع نظام معين في تواتر القوافي، وان كان يميل للإتيان بالقوافي المتماثلة في الأشطر المتتالية، وكثيراً ما تتابع القوافي أو تتوالى.

ولقد تقدم بدر خطوات خلال سنة ١٩٤٨، وكانت "أغنية قديمة" و "السوق القديم" أفضل شعره "الحر أخذت قصيدة بدر تتحرر من مظاهر القصيدة التقليدية، وتسير نحو الوحدة والجريان، وهي خلال ذلك تبحث عن

أساليب التعبير المناسبة، مثل التعبير بالصور بدل التعبير المباشر. ومع أن قصيدة نازك "الكوليرا" أقرب للشعر "الحر من قصيدة بدر "هل كان حباً"، إلا أن قصائد بدر التي يعود تاريخها لسنة ١٩٤٨ أكثر تفتحاً وانطلاقاً من قصائد نازك، وأكثر جدارة باعتبارها لبنات أساسية في أساس تجربة الشعر "الحر وإنه لضروري أن نسجل لنازك الملائكة قدرتها على إيضاح أسس التجربة الجديدة في مقدمة "شظايا ورماد" الذي صدر سنة ١٩٤٩ بينما عجز بدر عن أن يفعل ذلك في مقدمة مجموعته "أساطير" الصادرة سنة ١٩٥٠ وما ذلك في رأيي إلاّ نتيجة تفوق نازك في ميدان الدراسة. وهذا ما جعل نازك تتفوق، فيما بعد في ميدان الدراسات الأدبية، بينما تفوق بدر شاعراً.

وهنالك ثغرة ما زالت تعترض سبيل الذين يدرسون شعر بدر. فشعره ليس كله منشوراً، وليس – فيما قرأنا – أية قصيدة تعود لسنوات (٤٩ – ٥٢). وهذه السنوات الأربع هامة لأنها السنوات التي تلت تخرجه من جهة، ولأنها سنوات نشاطه الشيوعي من جهة ثانية. ومع أني ما زلت أحاول أن أسد هذه الثغرة إلا أني أتساءل لماذا لم ينشر بدر شيئاً من قصائد هذه الفترة؟.[1]

ونستيطع أن نميز أربع مراحل في حياة بدر وفي شعره:

الأولى: الرومانسية ١٩٤٣ – ١٩٤٨.

الثانية: الواقعية ١٩٤٩ – ١٩٥٥.

الثالثة: التموزية أو الواقعية الجديدة ١٩٥٦ – ١٩٦٠.

الرابعة: الذاتية ١٩٦١ – ١٩٦٤.

---

[1] نشر إعلان في مجموعته "أساطير" عن قرب صدور ديوانه السياسي والاجتماعي بعنوان "زئير العاصفة" ولكن هذه المجموعة لم تصدر. ولا يعرف أين ذهبت موادها.

بدر الرومانسي

بدأت الحرب العالمية الثانية، وبدر في أول بلوغه. وهكذا فتح الفتى عينيه على عالم يهتز. وكان الوطن العربي في هذا الوقت، يغلي بمختلف مشاعر التمرد والرفض، التي لا تتجه نحو الاستعمار فقط، بل نحو التقاليد البالية أيضاً. وكانت الحركة الرومانسية في الوطن العربي، قد بلغت ذروة مجدها، ممثلة في مدرسة أبولو... وكان بدر في الوقت ذاته، يعاني مأساة خاصة. لقد توفيت أمه، وتزوج أبوه. ويبدو أن الحادثتين أثرتا كثيراً في نفسه، لنسمعه يقول من قصيدة عنوانها "خيالك":

خيالك من أهلي الأقربين

أبرُّ وإن كان لا يعقل

أبي منه قد جردتني النساء

وأمي طواها الردى المعجلُ

وما لي من الدهر إلاّ رضاك

فرحماك فالدهر لا يعدلُ..[1]

---

[1] إقبال ط. أولى، حزيران ١٩٦٥، ص ٨١.

وكانت جدته قد توفيت أيضاً، ويبدو أنها حلت في ذهنه محل والدته، فصدمه موتها صدمة عنيفة: وكان أن كتب قصيدة بعنوان "رثاء" جدتي بتاريخ ٩/٩/٤٢ جاء فيها:

جدتي من أبث بعدك شكواي طواني الأسى وقلّ معيني أنت يا من فتحت قلبك بالأمس لحبي أوصدت قبرك دوني فقليل عليَّ أن أذرف الدمع ويقضي عليَّ طول أنيني ليتني لم أكن رأيتك من قبل و لم ألقَ منك عطف حنون آه لو لم تعوديني على العطف وآه لو لم أكن أو تكوني...[1]

كانت مأساة بدر تكمن في غربته... غربته الأبدية عن أمه، وعن أبيه، وعن جدته. وكان يعيش في مرحلة اشتد الصدام فيها بين القيم والواقع، بين الماضي والحاضر. وكان هذا كله، يجعله دائما يبحث عن مَثَل أعلى، ليس موجوداً. إنه يرفض أن يقبل الواقعي، لأنه مؤلم.. لأنه الموت، لأنه فراق أمه وأبيه وجدته.. ولأنه خيانة وغدر وبؤس. لقد أحب "لبيبة" وهي تكبره بسبع سنوات، كما جاء في هامش كتبه بخط يده[2]، ولكنه لا يخاطب لبيبة كما يخاطب الحبيب حبيبته، بل كما يخاطب الطفل أمه، وهو لا يخاطب لبيبة نفسها، لأنه لا يريد أن يجعل من حبه واقعياً، بل يخاطب خيالها:

خيالك من أهلي الأقربين أبَرّ وإن كان لا يعقل

وليس هذا غريباً، فهو لا يحب إنسانة حية... إنه يحب خيال إنسان. فلا غرو إذا رأيناه بعد هذا كله، يرفض أن يدنس نفسه بحب فتاة "الهوى والثرى"

أعفرت من كبريائي النداء؟ ورجّعت آمادي القهقرى

---

[1] المرجع السابق ص ٧٨.
[2] في دفتر مخطوط بحوزتي.

نسيت التي صورتها مناي	وناديت أنثى ككل الورى
وأعرضت عن مسمع في السماء	إلى مسمع في تراب القرى
أتصغي فتاة الهوى والخيال	وأدعو فتاة الهوى والثرى

في مثل هذه الحالة، يصبح الحب ضائعاً، وتصبح "الحبيبة" سراباً، تصبح مثل ذلك الطائر الخداع الذي يسمى "ملاهي اراعي"[1] ويبدي بدر في قصيدته "ضلال الحب"[2]" نقمته على المرأة، فلا يجد أفضل من قصة آدم وحواء، دليلاً على ما تصنعه بالرجل، وكيف تقوده إلى الهاوية.

وزاد من شعور بدر بالغربة هجرته من الريف إلى المدينة. هنا يبدأ الضياع الكبير الذي ترك آثاره العميقة في مستقبله كله. وعلى الرغم من أن قصيدته "المساء الأخير"[3] التي كتبها ليلة مغادرة الريف، وكتب تحت عنوانها "آخر مساء قبل مغادرة الريف"، ليست حارة حادة، فإنها تمثل ارتباطه بالريف، وارتباط الريف بالحب. وهو قبل أن يغادر لا يطمع بلقاء، لأن هذا مستحيل بل يطمح إلى نظرة...

وهو في المدينة غريب، هذا ما يحس به، فيحلم "بالليالي المقمرات وبالنخيل" يحلم بالرحيل إلى الريف.

* * *

ليس في شعر هذه المرحلة ما يلفت النظر إلى أن بدر سيصبح شاعراً كبيراً، إنه شعر عادي تقليدي فيما عدا القصائد التي ذكرناها. وقصائد هذه المرحلة غزلية على الأغلب أو من شعر الحنين. لقد كتبها بدر وهو في سن تتراوح بين

---

[1] قصيدة همسك الهاني – إقبال صفحة ٦٩.
[2] المرجع السابق، ص ٦٥.
[3] المرجع السابق، ص ٩٨.

السادسة عشرة والثالثة والعشرين. وليس في هذه القصائد ما يدل على أنه تأثر خطى أحد من الشعراء الرومانسيين العرب، وذلك لأن رومانسيته من طـراز فريد أولاً، ولأن الرومانسية العربية رومانسية مترفة، وكانت قد بلغت ذروة مجدها، وأخذت في الأفول عندما بدأ بدر يتنفس شعراً. فبدر شاعر "مـأزوم"، وقد عانى الأزمة على صعيد المُثُل، وعلى صعيد وجوده الفـردي، بينما كانت الرومانسية العربية حالمة سابحة في خيالات حسية ومترفة. لقد وقف هذا الحاجز بين بدر والرومانسية العربية، وإن كان على ما يبدو معجباً بعلي محمود طه، وقد طلب منه تقديم قصيدته "بين الروح والجسد"، ولكن علي محمود طه مات قبل أن يلبي رغبة بدر. ويبدو هذا التأثر أحياناً باستعمال الصور الحسية والصفات الحسية المترفة المتتالية مثل:

أمنيات دغدغدت حسي بإغمـاء طـروب
وانتشاء فـاتر الآمـاد نعسـان الطيـوب
الأريج الـدافئ المغنـاج منغـوم الهبـوب
أسكرته الليلة القمـراء في سـهل رطيـب[1]

غير أن عدم وقوع بدر تحت تأثير الرومانسيين العرب ناتج عن أنه اطلـع على الآداب الأجنبية، والإنجليزية خاصة، خلال دراسته في دار المعلمين العالية في بغداد التي تخرج منها سنة ١٩٤٨. كان بدر يدرس الأدب الانجليزي، وقد أتاحت له دراسته التعرف إلى الأدب الإنجليزي، فتأثر به كثيراً، وخاصة بشلي وكينس. ويبدو تأثره واضحاً في بعض القصائد. فهو مثلاً في "ذكرى لقـاء" يترجم مقطعاً لجون كيتس، مشيراً إلى ذلك في الهامش. وهذا هو المقطع:

[1] محيي الدين اسماعيل – ملامح من الشعر العراقي الحديث – مجلة الآداب – يناير ١٩٥٥.

وتمتــد يمناك نحــو الكتاب كمن ينشد السلوة الضائعة

فتبكي مع العبقري المريض وقد خاطب النجمة الساطعة

تمنيــت يــا كــوكب

ثبــاتا كهــذا – أنــام

علــى صدرها في الظلام

وأفنــى كمــا تغــرب

والعبقري المريض – كما يشير الهامش المذكور – هو "الشاعر الإنجليــزي جون كيتس" الذي "مات مسلولاً في الخامسة والعشرين من عمره، وآخر مــا كتبه قصيدته التي يخاطب بها كوكباً في السماء"[1]

ويرى الدكتور لويس عوض أن قصيدة "رئة تتمزق"[2] تعتبر تنويعــاً علــى قصيدة كيتس "أنشودة إلى بلبل"، كما أن قصيدة "اتبعيني"[3] تعتبر تنويعاً علــى قصيدة شلي "اتبعيني... اتبعيني" من بروميثوس طليقاً[4]. ولكن السياب لم يقل أحداً، وكما لم يستطع أن يسير تحت راية الرومانسيين العرب، لم يســتطع أن يحمل راية الرومانسيين الإنجليز. فالسياب لم يكن يحلم فقط، و لم يكن قانعــا بالخدر... إنما كان يحلم بالثورة... العاصفة الهوجاء التي تمنحه الحرية والحب.

[1] ازهار واساطير ص ٨٢ – ط اولى.
[2] ازهار واساطير ص ٤٢.
[3] ازهار واساطير ص ٣٨.
[4] ملحق الأهرام الأسبوعي ١٩٦٥/٣/٥.

بدر الواقعي

أصبح بدر في أوائل الأربعينيات عضواً في الحزب الشيوعي. متى أصبح شيوعياً؟ ليس معروفاً حتى الآن بالضبط. انه يؤكد أنه أصبح شيوعياً، هو وعمه الأصغر عبد المجيد عن طريق شخص إيراني، ولكنه لا يذكر متى. وهو يؤكد أنه خلال الحرب العالمية الثانية كان يقوم بالدعاية للشيوعية والنازية[١] وقد اتصلت بالأستاذ محمد علي الزرقا أحد زملائه في الجامعة، فذكر لي أن بدراً كان عضواً مؤازراً للحزب، من السنة الأولى لدخوله الجامعة، وأنه ظل كذلك حتى ترك الأستاذ الزرقا بغداد سنة ١٩٤٥ ويذكر الأستاذ الزرقا أيضاً أن بدراً كان من جماعة القاعدة، أي حزب فهد، وأنه كان حتى آنذاك يخلط بين الوعي والرفض. وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه بدر نفسه.

ومما يرويه الأستاذ محمد علي الزرقا أن بدراً نظم سنة ١٩٤٤ قصيدة طويلة نشرت في مجلة "واسط"، قارن فيها بين ثورة دجلة الذي فاض وثورة الجماهير.

ويؤكد ما يذكره الأستاذ الزرقا أن بدراً انتسب للحزب سنة ١٩٤٥[٢] ولقد بقي بدر في الحزب الشيوعي مدة ثماني سنوات.

---

[1] الحرية، المراقبة العدد ١٤٤١.

[2] عباس، إحسان: بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره، صفحة ٨٩. دار الثقافة بيروت.

ولقد كلفت بدراً هذه التجربة كثيراً، إذ انه اضطهد وشرّد، ولكنها أفادته كثيراً، إذ حوّلت إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة مؤقتاً. كان الموت، فيما مضى، موت أمه فقط، أما الآن فقد أصبح الموت عامة موت الآخرين. وكان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده، أما الآن فقد أصبح يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين. أدرك في هذه المرحلة بأن فاجعته ليست فاجعته الخاصة بل فاجعة شعبه. ونستطيع أن نتبين موقفه هذا من خلال قصائده: ١- فجر السلام، ٢- حفار القبور، ٣- الأسلحة والأطفال، ٤- المومس العمياء.

ونلمس في كل قصيدة، من هذه القصائد على اختلافها أن مصير الإنسان ليس مصيراً فردياً منعزلاً، إنه جزء من المجتمع والتاريخ. وأن في المجتمع قوى ظلم واضطهاد ودمار، ولكن فيه أيضاً قوى خير ومحبة. في "المومس العمياء" تتحرك الأمور ضمن إطارها الموضوعي. الفرد هنا يعيش ضمن هذا الإطار، وفاجعته ليست خارجة عنه، إنما هي جزء منه. ما من شيء هنا يحدث اعتباطاً وصدفة. الموت ليس قدراً بلا علة، كموت الأم إنه هنا نتيجة ظرف اجتماعي معين. والدعارة ليست نزوة إنما ظاهرة اجتماعية. وقد استطاع السياب ان يحشد في قصيدته هذه مجموعة من المتناقضات التي تحفل بها الحياة العربية والتي تمثل الفساد والضعف والانحلال. ويقدم السياب حفار القبور مثلاً لذلك الإنسان الأناني، الذي يتمنى أن يموت الآخرون لكي يحصل على ما يوفر له المتعة: وحفار القبور هذا رمز لكل "طفيلي" لا يفكر إلا بنفسه. وبدر عندما يقدم حفار القبور، لا يقدمه على انه "حالة فردية" بل على انه حالة اجتماعية ففي المجتمع المفكك المنحل، تولد طبقة تعيش من موت الآخرين: وشأن هذه الطبقة

شأن حفار القبور الذي يتمنى أن يموت الآخرون لينعم بملذات الدنيا. أما الأسلحة والأطفال وفجر السلام، فإنهما تؤكدان الانتصار على تجار الموت وغيلان الدمار.

تجاوز بدر في هذه المرحلة شلي وكيتس إلى ستيفن سبندر وروبرت بروك ووليم هنري دافيس وادغار الن بو ما بين ١٩٤٨ - ١٩٥٠، ثم تجاوز هؤلاء إلى ت.س. اليوت وأديث ستويل. وكان في الوقت ذاته يكافح مع الحزب الشيوعي العراقي ضد الطغيان والمؤامرات الاستعمارية، وينهل من الثقافة الشيوعية.

تضم هذه المرحلة قصائد متباينة، لا يمكن أن تخضع لمقياس نقدي واحد، سواء من حيث تركيبها أو مضمونها. ويكفي أن نذكر في هذا المجال "فجر السلام" و "حفار القبور" و "المومس العمياء" و "الأسلحة والأطفال" و "أنشودة المطر فمن حيث البناء الفني تقف القصائد الأربع في جهة، وأنشودة المطر في جهة أخرى. "أنشودة المطر" نموذج من نماذج شعرنا "الحر"، بينما "المومس العمياء" مثلاً يمكن إرجاعها إلى نهاية المرحلة السابقة من حيث تركيبها... إنها بسيطة جداً تعتمد على تنويع بسيط في استعمال التفاعيل، ولكنها في الغالب تتكون من أبيات متساوية تتواتر قوافيها أو تتوالى، وتعتمد أسلوب التعبير المباشر، وإن كانت في مجموعها تقوم على "رمز" ولا تختلف عنها "حفار القبور" أو "الأسلحة والأطفال" في شيء. وإن كانت "الأسلحة والأطفال" أكثر تعبيراً عن الواقعية الاشتراكية في مضمونها. أما "فجر السلام"

فهي أقرب ما تكون إلى الشكل التقليدي، وتذكرنا بالمواكب لجبران خليل جبران، لأنه يستخدم التنويع عينه[1]

في هذه المرحلة أصبحت الأسطورة جزءاً من قصيدة بدر. ولعل "المومس العمياء" أكثر قصائده تخمة بالأساطير التي تبدأ بياجوج وماجوج وتنتهي بميدوزا. إنك وأنت تقرأ بعض قصائده تشعر أنه صرف أياماً وليالي وهو يجمع الأساطير من كل كتاب، حتى يقدمها لك في قصيدة، ترابط الهوامش حولها من كل جانب.

وقد أعاد السياب للقصيدة العربية ارتباطها بقضية الجماهير عن طريق كثير من تفاصيل الحياة اليومية، التي تتحول إلى رموز ذات أبعاد ودلالات. "فالمومس العمياء" و "حفار القبور"، والبائع المتجول الذي يشتري الحديد العتيق، تحول من بعض جزئيات في الحياة اليومية إلى رموز لقوة الحياة وحرمانها، وأنانية الفرد الذي يتمنى أن يموت الآخرون ليعيش، إلخ...

ولكن بدراً لم يكن واقعياً بالمعنى الحرفي للكلمة، ولا واقعياً اشتراكياً بالمعنى الضيق، إن شعره في هذه المرحلة ليس كله تصويراً خارجياً لبعض مظاهر الحياة، وليس كله هتافات وشعارات، ولكنه شعر يلتزم بقضية كبرى، ويعبر عن أهداف سياسية. إن أنشودة المطر هي خير مثال على ما أقول:

"أكاد أسمع العراق يذخر بالرعود

ويخزن البروق في السهول والجبال

حتى إذا ما فض عنها ختمها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود

[1] استخدم جبران البسيط ومجزوء الرمل، واستخدم بدر البسيط وبحورا ومجزوات بحور أخرى.

في الواد من أثر
أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع
عواصف الخليج والرعود منشدين
مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
رحى تدور في الحقول حولها بشر.
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع
ثم اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر
مطر...
مطر...
ومنذ أن كنا صغاراً، كانت السماء
تغيم في الشتاء

ويهطل المطر

وكل عام – حين يعشب الثرى – نجوع

ما مر عام ليس في العراق جوع

مطر...

مطر...[1]

إنه يحس هنا بحركة التاريخ التي سيفض عنها ختمها الرجال يوماً، فلا يبقى من ثمود في الوادي من أثر. وإن كانت قصيدتاه "فجر السلام" و "الأسلحة والأطفال" أقرب إلى الالتزام الشيوعي التقليدي، وهذا ما يعترف به.

[1] انشودة المطر صفحة ١٦٠.

بدر التموزي

كما تجاوز بدر الرومانسية، تجاوز الواقعية الاشتراكية. وكان تجاوزه لهـا ناتجاً عن أنه كان أعجز من أن يلتزم بخط سياسي مباشر. وهو في تكوينـه لم يكن واقعياً اشتراكياً، لقد كان مثالياً... يقوم المثال عنده فوق الواقع ونقيضـاً له. وحين أصبح شيوعياً كانت الشيوعية بالنسبة له شكلاً من هذه الثنائية.. إنما المثال وهي نقيض الواقع. غير أن الشيوعية قابلة للتحقق، ومثال بدر غير قابل للتحقق.. انه وجه أمه التي "تنام نومة اللحود" وكان بدر ريفياً يحمل تـراث الريف العربي ورواسبه، عاطفياً يتأثر سلباً أو إيجاباً بأبسط المثيرات. ولقد كانت قصيدته "المومس العمياء" الشعرة التي قصمت ظهر البعير. ففي هذه القصـيدة كان بدر "قومياً عربياً" بالمعنى السلفي فهو يقول:

ما زلت أعرف كل ذاك، فجربوني يا سكارى

من ضاجع العربية السمراء لا يلقى خسارا

كالقمح لونك يا ابنة العرب

كالفجر بين عرائش العنب

أو كالفرات على ملامحه

دعة الثرى وضراوة الذهب

لا تتركوني فالضحى نسبي:

من فاتح ومجاهد ونبي

عربية أنا: أمتي دمها

خير الدماء كما يقول أبي

ونجد بجانب كلمة "العرب" إشارة، ونعود للهامش فنجد التعليق التـالي: "ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين. يجب أن تكون القومية الشعبية والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر، وكورثة لأمجاد الأمـة العربية. أفليس عاراً علينا نحن العرب أن تكون بناتنا بغايا يضاجعهن الناس من كل جنس ولون؟؟"[1] ولقد أدى نشر هذه القصيدة إلى انفصاله عن الشيوعيين، واستقلاله سياسياً؛ ولقد كانت القصيدة القشة التي قصمت ظهر البعير.

قادَهُ انفصاله عن الشيوعيين إلى الاتجاه القومي سياسياً، فأنتج قصائد قومية عديدة، بعضها عادي مثل بور سعيد، وبعضها الآخر يتدفق حيوية وقوة مثل في "المغرب العربي" كما قاده انفصاله عن الشيوعيين إلى العودة للمطلق. بـات المطلق – بمعناه الفلسفي المجرد – محط نزوع بدر، فانتقل من العادي واليومي، إلى الأسطوري والرمزي، كان الموت في المرحلة السابقة – حادثـة، وكـان الجوع ظاهرة، وكان النضال رجولة، أما في هذه المرحلة فقد تحول المـوت إلى أسطورة... أصبح فداء أسطورياً، يمثله تموز أو المسيح. إن تحـول المـوت إلى أسطورة، ليس تصوراً شعرياً فقط، إنه ذو مضمون أيديولوجي أيضاً.. فالسياب عندما كان يناضل كان يرى الخلاص في النضال. في الدم الحقيقي الذي يسيل. ولهذا كانت "كل قطرة تراق من دم العبيد"، "ابتسام في انتظار مبسم جديد"

[1] المومس العمياء – مطبعة دار المعرفة بغداد – صفحة ٣١.

أما الآن فالدم ليس دم العبيد، إنه دم المسيح. الموت الفردي أصبح معجزة. كان هذا ناتجاً عن أنه لا يشترك في حركة التاريخ، وإنه يشعر بالعجز عن الاشتراك فيها. إنه واقف يشاهدها، ويود لو استطاع أن يساهم فيها:

فيدلهم في دمي حنين
إلى رصاصة يشق ثلجها الزؤام
أعماق صدري، كالجحيم يشعل العظام
أود لو عدوت أعضد المكافحين
أشد قبضتّي ثم أصفع القدر
أود لو غرقت في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر
وأبعث الحياة أن موتي انتصار[1]

هكذا يحل التمني محل النضال، ويصبح بديلاً له. وقد اتضح هذا منذ بدء هذه المرحلة حين أصبح الرجوع إلى الماضي معزياً عن نضوب الحاضر، أو مغذياً لما فيه من أمل كما حصل في قصيدة "في المغرب العربي" إلا أنه ازداد وضوحاً منذ نهاية سنة ١٩٥٦ ولعل قصيدة "جيكور والمدينة" خير تعبير عن الفرار وإعلان العجز الكامل:

وجيكور خضراء،
مس الأصيل
ذرى النخل فيها بشمس حزينة
ودربي إليها كومض البروق

---

[1] أنشودة المطر – ط اولى صفحة ١٤١.

بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أثار المدينــة

وعرّى يدي من وراء الضماد كأن الجراحات فيهــا

حـــروق

وجيكور من دونها قام سور وبوابة واحتوتها ســـكينه

فمن يخرق السور؟ من يفتح الباب ؟ يدمـــى علـــى

كل قفل يمينه؟

ويمناي لا مخلب للصراع فأسعى بها في دروب المدينة

ولا قبضة لابتعاث الحياة مـــن الطـــين... لكنـــها

محض طينه

وجيكور من دونها قام ســـور وبوابـــة.. واحتوتهـــا

سكـــينه

وكانت جيكور هي حلم هذه المرحلة، ولكن بعث جيكور هو مطلق بدر غير القابل للتحقيق، وهو يتعلق به على الرغم من أنه يعرف بأنه حلـــم لـــن يتحقق. وكان هذا الحلم... بعث جيكور يصبح رمزاً لبعث الأمـــة وتحريـــر الوطن. فجيكور في اندثارها رمز للموات، وجيكور في اخضرارها رمز للحياة. وكان بدر يعلن أحياناً عن خيبته بحلمه:

يـــا شمـــس أيـــامي أمـــا مـــن رجـــوع؟

جيـــكور نـــامي فـــي ظـــلام السنيـــن[1]

---

[1] المرجع السابق – العودة لجيكور صفحة ١٠٨.

خلال هذه المرحلة التقى بدر مع مجلة شعر فأصبح شاعراً من شعرائها، حتى أنه غاب عن صفحات الآداب خلال عام ١٩٥٧ كلها. وكان هذا يقوده إلى مزيد من "التغرب"

هذا الاتجاه الجديد بما فيه من غربة ووحشة وحلم ويأس سماه بدر "الواقعية الجديدة" والواقعية الجديدة هذه في نظر بدر هي الواقعية الحديثة التي تحدث عنها الناقد الشاعر الإنكليزي الكبير ستيفن سبندر في محاضرته القيمة عن "الواقعية الجديدة والفن" وتتلخص واقعية سبندر الحديثة في ان "الفنان الحديث أصبح انطباعياً وسريالياً وتكعيبياً ورمزياً في محاولته الهادفة إلى إيجاد انسجام بين ذاته وذات المجتمع. ولكنه أبى لنفسه أن يكون من زمرة الطبيعيين الذين ينقلون الواقع نقلاً فوتوغرافياً و لم يلبث الفنان الحديث حتى اهتدى إلى مخرج – كما يقول سبندر – وقد وجد هذا المخرج في الواقعية الحديثة. وهي في رأيه تحليل الفنان للمجتمع الذي يعيش فيه تحليلاً عميقاً فيه أكبر عدد مستطاع من الحقائق التي يدركها بنفاذ بصره، ولا تهم بعد ذلك وجهة النظر التي ينظر منها ما دام تحليله كذلك.

وحين يطبق بدز الواقعية الحديثة على انتاجنا الأدبي يقول: "أما إنتاجنا الواقعي أو الملتزم فهو في كثير من الأحيان خلو من الفن أو بعيد عن المعنى الصحيح للواقعية والالتزام. والمنظومات السياسية والقصص التي كانت جديرة بأن تكون مقالاً افتتاحياً في جريدة تملأ مجلاتنا ومكتباتنا وإذاعاتنا. ويرى أن إنتاج نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الملك نوري إنتاج واقعي بلغ حد الروعة[1]

---

[1] مجلة الآداب – "وسائل تعريف العرب بنتاجهم الأدبي الحديث" اكتوبر ١٩٥٦ – صفحة ٢٢.

لقد أصبح مقياس سبندر الذاتي مقياساً لبدر. فالشاعر هو محور العالم، ونفاذ بصره هو بديل الإيديولوجية العلمية، ومهمته أن يحلل المجتمع "تحليلاً عميقاً" مهما كانت أداته. ان سبندر "مثالي" ولقد انزلق بدر إلى هوته، كانت النتيجة قصائده الموحشة التي نشر أكثرها في "مجلة شعر ولقد كان تعاونه مع "مجلة شعر" انطلاقاً من هذا المبدأ.

ومع ذلك فقد أنتج بدر في هذه المرحلة قصائده: مدينة بلا مطر، جيكور والمدينة، النهر والموت، رسالة من مقبرة، في المغرب العربي، المسيح بعد الصلب والمبغى إلخ...

وصدف – خلال هذه المرحلة – أن حدث الصدام الدموي بين الشيوعيين و "القوميين العرب" في العراق، فأدخل بدر قلمه حلبة الصراع، ووقف ضد الشيوعيين. وكانت من نتيجة ذلك بعض القصائد نذكر منها المبغى[1] و"رؤيا في عام ١٩٥٦[2]" و "العودة لجيكور[3]" هذا بالإضافة إلى مقالاته السياسية التي نشرت في الحرية البغدادية وغيرها. ولم يكن موقفه من الشيوعية موقفاً سياسياً فحسب، بل كان موقفاً فكرياً. فبدر لا يحارب دعوة سياسية، إنه يحارب إيديولوجية. صحيح أن بدراً كان قومياً عربياً، وكان مع الوحدة ولكن هذا العامل كان العامل الثانوي في صراعه مع الشيوعيين. العامل الأول والأساسي هو "مثاليته" فبدر الذي كان شيوعياً حقيقياً. كان "مثالياً" يرفع شعارات الحزب الشيوعي العراقي، لا رغبة في التضليل وإنما لأن الشيوعية في مرحلة

---

[1] انشودة المطر – ص ١٣٥ ط أولى. وقد كتب تحتها في الهامش: "كتبت في العهد المباد" ولكن هذا ليس صحيحا. فقد كتبت في عهد عبد الكريم قاسم.

[2] المصدر السابق – ١١٦.

[3] المصدر السابق – ١٠٨.

كانت "مطلقة" ولقد دخل هذا الصراع ضعيفاً مهزوزاً، فكانت النتيجة ان مات بتأثير منه كما أثبتت تقارير الأطباء النفسيين.

وهذه المرحلة هي عهد بدر الذهبي. لقد بلغ ذروة مجده، وأثبت ريادته للشعر الحر بجدارة، بعد أن تراجعت نازك.

ولقد أثبت في هذه المرحلة تمثله لتجربة إليوت تمثلاً حياً ويبدو ذلك واضحاً في عدد من قصائده.

ومع أن في شعر هذه المرحلة غثاثة أحياناً، فغثها قليل بالنسبة للمراحل السابقة، والمرحلة الأخيرة اللاحقة.

المرحلة الأخيرة من حياة بدر فقيرة ومحزنة. لقد واجه بدر قدره، وأصبح يدافع عن "مجرد بقائه" الموت لم يعد رجولة ولا حباً ولا فداء.. بل أصبح عبثاً.. ولكنه عبث لا يرد ولا يعالج، ولا يقتنع من الغنيمة بالأياب.

خيّم شبح الموت على بدر، فأخذ ينظر إلى كل شيء من خلاله. ان قارئ شعره في هذه المرحلة (المعبد الغريق ومنزل الأقنان، وشناشيل ابنة الجلبي واقبال) يلمس كيف أصبحت الحياة في نظره موتاً فقط. لقد تضاءل كل شيء في عينيه، إلا شبح الموت الذي أخذ يكبر ويكبر. الموت الذي خطف وفيقة واخترق بودلير، وجعل جيكور خرائب. الموت الحقيقة الوحيدة في الوجود.

وكان – والألم ينهش جسمه – يحس بدبيب الموت في أوصاله، فيطلق من أعماقه احتجاجاً مخنوقاً ولكنه عنيف:

"أهكذا السنون تذهب
أهكذا الحياة تنضب
أحس أنني أذوب.. أتعب
أموت كالشجر"[1]

ولكنه كان يصرخ أحياناً:

---

[1] المعبد الغريق – دار جدي – ١٤٣.

"منطرحاً أصيح   أنهش الحجار
أريد أن أموت يا اله"
أو "رصاصة الرحمة يا إلهي

إن بدراً يعانق موته   ويصارع موته   الموت موته الخاص، لا شريك له فيه ولا نصير. ومن يستطيع أن يناصره؟ من يستطيع أن يحرره من قـدره؟ لا أحد... ليواجه إذن موته الخاص العابث الذي لا يحمل أي مضمون احتماعي. انه يلقاه متذمراً، ولكنه يود معانقته لأن فيه الخلاص. انه يكرهه لأنه خطـف أمه، ولكنه يريده لأنه يحرره من الشعور بالفقدان، وهو يكرهه لأنه يهـدده في مجرد بقائه، ولكن أي معنى ظل لبقائه بعد أن انهارت عوالمه واحداً بعد الآخر.

مرحلته الأخيرة حرمته من كل شيء حتى القدرة على المشي، فأصبح الشعر رفيقه الوحيد. كان يتحدث مع الزوار ويصارع الجن أو يكتب شعراً. شـعر هذه المرحلة لا جديد فيه. إنه شعر ذاتي وانفعالي وغث في أحيان كثيرة، نستثني من ذلك بعض القصائد، ومنها "سفر أيوب[1]" لقد أقعد المرض بـدراً عـن المشي، وأقعده عن المضي في متابعة تجربته الشعرية. انه توقف قبل أن يستنفد.

[1] منزل الأقنان ص ٢٤٨.

شعر بدر

أعطى بدر خلال حياته القصيرة عطاء جزيلا، يفوق من حيث الكم والكيف ما أعطاه أي من معاصريه خلال الفترة ذاتها. فلبدر:

١- أزهار ذابلة صدر سنة ١٩٤٧

٢- أساطير صدر سنة ١٩٥٠.

٣- المومس العمياء صدر سنة ١٩٥٤

٤- الأسلحة والأطفال صدر سنة ١٩٥٥

٥- حفار القبور.

٦- أنشودة المطر صدر سنة ١٩٦٠ عن دار مجلة شعر.

٧- المعبد الغريق صدر سنة ١٩٦٢ عن دار العلم للملايين.

٨- منزل الأقنان صدر سنة ١٩٦٣ عن دار العلم للملايين.

٩- شناشيل ابنة الجلبي صدر سنة ١٩٦٤ عن دار الطليعة.

١٠- إقبال صدر سنة ١٩٦٥ عن دار الطليعة وقد جمعت الآن في هذا الديوان بالإضافة إلى قصائد لم تنشر بعد، وسوف تصدر في جزء آخر.

ولبدر أيضاً شعر كثير غير منشور، يعود قسم منه إلى سنوات ٤٢، ٤٣، ٥٤، ولديّ شيء منه. وهنالك قصيدته الطويلة "بين الروح والجسد" التي

أرسلها للشاعر علي محمود طه، ولكنه مات قبل أن يكتب لها مقدمة. وتناهز هذه القصيدة الألف بيت. ثم هنالك مجموعة من قصائده مع السيد محمد علي إسماعيل، لم نستطع الحصول عليها حتى الآن. وله قصائد نشرت في جرائد عراقية قبل سنة ١٩٥٣، ولكنها لم تنشر بعد.

والآن ما هي أبعاد تجربة بدر الشعرية؟

إن تجربة بدر الشعرية فذة ومعقدة. وهي تجمع ثنائيات متناقضة. ويمكن أن نحدد أبعاد هذه التجربة بما يلي:

أولا: معاناة بدر ذهنية، وتقوم المعاناة فيها بناء على تصور الأمور تصوراً ذهنياً. ففي العالم طرفان، المطلق والواقع، الحب والموت، الحادثة والأسطورة، والحياة صراع بين قطبين دائماً. هذا ما يبدو في شعره، وما عبر عنه في إحدى مقالاته. قال "وقد كانت وظيفة الأدب، أو بالحري وظيفة الرائع منه تصوير هذا الصراع القائم بين الشر وبين الإنسان، وما زالت وظيفته حتى يومنا هذا"[1] ويبدو هذا أيضا من الشعراء الذين أعجب بهم، وعكف على انتاجهم يستملاه ويتمثله. ومن هؤلاء المتنبي والجاحظ وأبو العلاء المعري[2] الذين يسميهم العمالقة الثلاثة، و ت. س. إليوت واديث ستويل. ولكن انفعالية بدر، وعدم توفر موقف علمي لديه، كان يجعل هذه الثنائية مهزوزة، فلم تنعكس في موقف ديالكتيكي من التاريخ والكون، و لم تعبر عن نفسها بموقف "أخلاقي". وكان من نتيجة هذا أن تحولت هذه "الثنائية" إلى امتدادات نحو الخارج، وانكماشات نحو الذات، ولكنها لم تجد غناها في الخارج كما لم تجده في الذات.

---

[1] مجلة الآداب – اكتوبر ١٩٥٦ – ص ٢٢.
[2] المرجع السابق.

معاناة بدر هذه قادته إلى قضايا كبيرة كالحرب والسلم، الكفـاح ضـد الاستغلال والاستعمار، والانحلال الاجتماعي إلخ وقصائده من بداية المرحلـة الثانية حتى منتصف الثالثة تعبير عن مثل هذه القضايا. وقد تحـول في المرحلـة الثالثة إلى قضايا كبرى أخرى كالحب والموت، الحب والفداء، الحياة والموت إلخ وقصائده من منتصف المرحلة الثالثة حتى موته تدور حول مثل هذه القضايا.

ولقد كانت موهبة بدر قادرة على تحويل مثل هذه القضايا الكبيرة إلى شعر خالد، إلا أن انفعالية بدر وعدم انطلاقه من موقف "عقائدي" ثابت مهما كان، جعل معاناته الذهنية محدودة وضحلة أحياناً... فكرياً وشعرياً، لم يكن بدر يقل عن اليوت في موهبته، ولكنه كان يقل عنه في "عمقه"

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أسباب هذا "الاهتزاز" الذي أشرنا إليه. وهـو يعود في رأيي إلى عاملين أساسيين:

الأول: نمو نفسي غير متوازن، وضعف جسمي.

الثاني: التعرض لصراعات الثقافات المتحاربة دون وجود خلفية مناسـبة، ودون وجود قدرة على الوقوف في العاصفة.

فلم يكن غريباً والحالة هذه أن ينتقل بدر من جهة إلى أخرى وأن يعـاني رحلة الذات والموضوع، ولكن معاناة رد الفعل.

قال انسي الحاج عن بدر أنه: "جـاهلي بـدوي فولكلـوري خـرافي انكلوسكسوني على واقعي هجاء ورثاء مداح بكاء، يسيل به الشعر سيل قريحة فارطة، ويسيل معه الشعر حتى المـوت"[1] وهـذا في رأيـي أروع تصـوير كاريكاتوري لبدر.

---

[1] ملحق النهار – العدد ٨٩٥٠ – الأحد ٧ شباط ١٩٦٥.

ثانيا: تعدد الثقافات، فهل بدر من ثقافات مختلفة، فقرأ الأدب العربي والأدب الروسي وأدب اللغة الإنكليزية. ولقد توفر على دراسة الأول والأخير منهما، وتمثل آراء أكبر الشعراء العرب والإنكليز والأميركيين. ولقد درس القرآن كما درس الإنجيل والتوراة، وقرأ شيئاً من التراث الفكري الغربي، وكان كل هذا يبدو في شعره، بأشكال مختلفة، وبمقادير متفاوتة.

ثالثا: تعدد الأوضاع الاجتماعية. نشأ بدر في بيئة ريفية فلاحية فتربى على قيمها وتقاليدها، وقد انتقل إلى المدينة طالباً فقيراً وهو في السابعة عشرة من عمره. عاش من هذا التاريخ في المدينة. كان في المرحلة الأولى طالباً شيوعياً، ثم أصبح موظفاً شيوعياً. طورد فهرب من العراق ثم عاد إلى العراق موظفاً. أصبح بورجوازياً صغيراً. اختلف مع الشيوعيين – كما ذكرنا – فصف مع القوميين العرب وظل مضطهداً حتى سنة ١٩٥٨، ولكنه تعرض لاضطهاد أشد بعد ثورة الرابع عشر من تموز، وفصل من عمله مدة. كان مرتبطاً بالريف وقيمه وتقاليده، وكان معجباً بالتراث العربي الكلاسيكي، ومعجباً بالأدب الإنكليزي في الوقت ذاته.

لهذا كله جمع شعر بدر بعض ما في الشعر الحديث وبعض ما في الشعر التقليدي، وظهرت فيه الروح الشعبية الريفية، كما ظهرت فيه روح مثقف مشبع بالمثل الليبرالية من مثقفي البلدان المختلفة. ونتيجة لكل ذلك تفرد شعر بدر بملامح وميزات نوجزها فيما يلي:

١- بروز روح الشعر العربي التقليدي. وقد تجلى هذا في الاهتمام بجزالة اللفظ، وحسن السبك، وبالعروض اهتماماً خاصاً. إن بدر تفوّق على زملائه من الشعراء المحدثين بهذا كله. لقد كانت عربيته – عموماً – أسلم وأقوى،

وعروضه – لاسيما الحديث منه – أصح وأغنى. وبينما كان الشعر الحــديث يميل إلى الهمس – في الأغلب – كان شعر بدر يميل إلى الجرس الحاد. ليس هذا فحسب، بل ظل يستعمل التعبير المباشر، ويلجأ للتشبيه العادي كثيراً. الكاف تدخل بين كلمتين أو صورتين حتى لو كان الاستغناء عنها ممكناً. وبالإضافة إلى ذلك فقد ظل حتى أواخر أيامه ينظم قصائد عمودية، وكانت بعض قصــائده تزخر بالإسهاب أحياناً، بينما كانت قصائد أخرى لا تتمتع بوحدة القصــيدة الحديثة ويعود هذا إلى أن بدراً كان منفعلاً أكثر مما كان متأملاً، وإلى أنه كان ينساح بدلاً من أن يضرب في الأعماق.

٢- استعمال الأسطورة والرمز. لم يستعمل شاعر عربي الأسطورة والرمز كما استعملهما بدر. ولقد أكثر منهما حتى أصبح من النادر أن تخلو قصيدة من قصائده من رمز أو أسطورة، وكانت الأسطورة أحياناً تصبح جزءاً من القصيدة كما حدث في قصيدة "مدينة بلا مطر بينما تظل في أحيان أخرى مجرد كلمة من كلماتها، غريبة ومعزولة لا يبررها إلا الهامش الذي يوضع لتفســيرها. في الحالة الأولى كانت الأسطورة تزيد القصيدة غنى، أما في الحالة الثانية فكانــت تفقد القصيدة "شعريتها" أو بعض شعريتها كما حدث في "المومس العميــاء"[1] مثلاً أو "سربروس في بابل"[2]

إن وظيفة الأسطورة في شعر بدر غير واضحة تماماً. ولقد حاول هــو أن يفسر لجوءه للأسطورة فما وجد مبرراً مقنعاً. قال بدر: "هناك مظهر مهم من مظاهر الشعر الحديث: هو اللجوء إلى الخرافة والأسطورة، إلى الرموز. و لم تكن

---

[1] أنشودة المطر، ص ٥٠٩.

[2] أنشودة المطر، ص ٤٨٢.

الحاجة إلى الرمز، إلى الأسطورة أمسّ مما هي اليوم. فنحن نعيش في عالم لا شعر فيه، أعني أن القيم التي تسوده قيم لا شعرية، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح. وراحت الأشياء التي كان في وسع الشاعر أن يقولها، أن يحوّلها إلى جزء من نفسه، تتحطم واحداً فواحداً، أو تنسحب إلى هامش الحياة. إذن فالتعبير المباشر، عن اللاشعور لن يكون شعراً فماذا يفعل الشاعر إذن؟. عاد إلى الأساطير، إلى الخرافات التي ما تزال تحتفظ بحرارتها لأنها ليست جزءاً من هذا العالم. عاد إليها ليستعملها رموزاً، وليبني منها عوالم يتحدى بها منطق الذهب والحديد. كما أنه راح من جهة أخرى، يخلق أساطير جديدة، وإن كانت محاولته في خلق هذا النوع من الأساطير قليلة حتى الآن[1]

عالم الأسطورة أغنى من الواقع: هذا ما يذهب إليه بدر، بعد أن لاذ بالفرار يائساً مهزوماً. الأسطورة إذن هي نقيض الواقع، هي الحب والحياة والحرية والغنى. أما الواقع فهو الكره والموت والاضطهاد والموت.

والحقيقة أن عدم تحديده لوظيفتها بوعي من جهة واعتبارها نقيضاً للواقع من جهة ثانية، جعله غير قادر على الاستفادة منها دائماً. ان الأسطورة التي تغني الشعر هي الأسطورة التي تندمج بالتجربة الشعرية، لا التي تكون واجهة قصيدة. والأسطورة لكي تغني الشعر يجب أن تكون قادرة على استثارة المتلقي، بينما حشد السياب من أساطير الهند والصين واليونان وأوروبا ما لا يثير في القارئ العربي أي إحساس.

وإذا كان إليوت يستخدم مثل هذه الأساطير فهو يستخدمها لقارئ هي جزء من حضارته وتاريخه، وتثير فيه أحلاماً بالبطولة والبراءة، في عالم "الذهب

---

[1] مجلة شعر: العدد الثالث – السنة الأولى، أخبار وقضايا – ص ١١١ – ١١٣.

والحديد" الذي ذكره بدر. ان هذا العالم ليس عالمنا، وإن هذه الأساطير ليست أساطيرنا. وما زال في واقعنا غنى يغنينا عن غنى الأسطورة.. فنحن الآن نخلق عالماً، سيكون أساطير ورموزاً في المستقبل. ولكن بدراً الذي قال مرة: "إن إلهنا فينا" أضاع "إلهه" هذا فبحث عنه في اللات والعزى وزيوس وعشتار.

٣- الموسيقى الحادة والاستفادة من الأوزان. موسيقى شعر بدر حادة.. حتى عندما تكون هامسة أو رثائية، وتعود حدتها إلى أن بدراً كان حريصاً على الموسيقى الخارجية. إنها بعض مظاهر الشعر التقليدي من جهة، وتعويض عن الخواء الداخلي والخارجي الذي يحسه بدر من جهة ثانية. الموسيقى هنا "مارش عسكري أو لحن جنائزي، كان بدر يسير في خط مخالف للاتجاه العام للشعر الحديث الأكثر نضجاً وتقدماً، ولكنه في الواقع كان يقدم للشعر الحديث نموذجاً جيداً يزخر بالنغم الخارجي والنغم الداخلي أحياناً، فيزيد التجربة الشعرية غنى وحرارة.

ولقد استفاد بدر من بحور الشعر العربي، فاستعمل الرجز، حمار الشعراء القدامى والمحدثين فجعل منه حصاناً كما حدث في "أنشودة المطر"، واستخدم صيغة من صيغ السريع "الحديثة" فأحسن استخدامها كما حدث في "رسالة من مقبرة"، واستخدم تفعيلة المتدارك المهملة "فاعلن" فإذا نحن أمام قصيدة حية زاخرة كما حدث في "المسيح بعد الصلب" وبينما نجد أكثر الشعراء المحدثين يكثرون من استخدام الرجز حتى أصبح بحرهم المألوف، نوّع بدر في شعره، فاستفاد من الكامل والوافر والرمل والسريع والمتقارب والمتدارك.

وكان بدر يلجأ أحياناً إلى الانتقال من بحر إلى بحر، ليستفيد من تنوع النغم كما حدث في "المغرب العربي" وفي "جيكور والمدينة" وكان ينوّع أحياناً في

استعمال التفاعيل كما حدث في "المسيح بعد الصلب" إذ أنه أدخل في القصيدة مقطعاً من مشتقات التفعيلة الأساسية "فاعلن" التي التزمها في القصيدة كلها.

٤- الانسياح بدل التمركز. قصيدة بدر مثل "الدوائر المائية" إنها تنساح وتنساح حتى تتلاشى. وهي تتسع بدل أن تتعمق، إنها بلا بؤرة ثابتة، لأن بؤرتها تصبح دائرة. وقد نتج هذا عن توفر شاعرية متدفقة من جهة، وعدم الانطلاق من مركز ثابت. قصيدة بدر كالعاصفة حتى مركزها يتحرك، ولكنها على الرغم من ذلك لا تتبعثر شظايا، ولا تقبل التفريق أبياتا، فهي وحدة فنية يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص. مع أن هذا لا يشمل القصائد الهزيلة والمنظومة والتقليدية من شعره، فتلك مستثناة.

إلا أن هذا الانسياح ما كان يفقدها في كثير من الأحيان "التركيز" الشعري. الانسياح هنا لم يكن على حساب التركيز، و لم يفقد القصيدة "كثافتها" بل أغنى رؤيتها الشعرية.

٥- العفوية. قصيدة بدر مكتوبة بوعي، ولكن الصناعة فيها لا تكشف عن نفسها بخلاف أكثر قصائد الشعر الحديث التي – مهما كانت أصالتها – تكشف عن الصناعة فيها بشكل أو آخر. إن صلاح عبد الصبور شاعر أصيل، ولكنك لا تقرأ قصيدة له إلا وتشعر بالفكر المصمم وراء كل بيت من أبياتها. هذا لا ينطبق على بدر، لأن قصيدته – على الرغم من أنها ثمرة نوع من المعاناة الذهنية – تطل من ورائها شخصية شاعر كبير ليس إلا.

وهذا لا يعني أن شعره "خام"، وأن قليلا من الصقل أو إعادة النظر كان سيزيده قوة، فليست هذه هي المسألة المطروحة، إن ما هو مطروح هو أن كلمة

بدر انبثقت من نفس شاعر معطاء، كان يسعى أن يكون شاعراً فقط، و لم يكن يستطيع أن يكون ناقداً مفكراً وشاعراً في الوقت ذاته.

ومع هذا فقد كان بدر مدركاً لأسرار صناعته الشعرية، كما لم يـــدركها أكثر زملائه من المحدثين.

غير أن بعض القصائد كان أثر الصناعة فيها بادياً مثل قصيدته "مرثية الآلهة" و "من رؤيا فوكاي" و "مرثية جيكور"[1]

وكانت ثقة بدر بقدرته تدفعه إلى النظم، أحياناً كما حـــدث في "قافلـــة الضياع" أو "المخبر"[2] وقصائد غيرهما.

٦- الاسهاب بدل التركيز. يميل الشعر الحديث إلى التركيـــز. القصـــيدة الحديثة قصيدة مركزة تفيض بالإيحاءات والإيماءات، وتتفجر بالدلالات، ولكنها تقتصد كثيراً في الكلمات. قصيدة بدر ليست كذلك إنما "فيض" ولعل مـــن أهم أسباب ذلك عاملان: أولهما أن بدراً لم يكن يميل إلى القصيدة "المركزة"، وثانيهما أن شاعريته المفرطة كانت تعطي بغزارة. وكانت الغزارة عند بدر تقوم مقام التركيز، كما قام الانفعال مقام التأمل.

كتب بدر مرة يقول: ومهما يكن، فان كوني، أنا ونازك أو باكثير أول من كتب الشعر أو آخر من كتبه ليس بالأمر المهم. وإنما الأمر المهم هو أن يكتب الشاعر فيجيد فيما كتبه، ولن يشفع له – إن لم يجد – أنه كان أول من كتب على هذا الوزن، أو تلك القافية " ولنكن متواضعين ونعترف بأننا ما نزال جميعاً في دور التجربة، يحالفنا النجاح حيناً، ويصيبنا الفشل أحياناً كـــثيرة. ولا

[1] أنشودة المطر ٣٤٩، ٣٥٥، ٤٠٣.
[2] أنشودة المطر ص ٣٦٨، ٣٣٨.

بد للشاعر الذي قدر له، أن يكون شاعر هذا الجيل العربي، أن يولد ذات يوم مكبراً جهود الذين سبقوه، أو لعله ما زال يمسك القلم بيده حتى الآن[1]

لقد كان بدر يعرف أنها تجربة.

وكان يعرف أن هناك من الآتين من سوف يتجاوزونه، ولكنه حـــاول أن يعطي هذه التجربة كل ما يستطيع.

مجلة الآداب - حزيران ١٩٥٤، مناقشات ص ٦٩.

البـــواكيـــر

١٩٤١ ـ ١٩٤٥

هذه المجموعة

تضم هذه المجموعة قصائد كتبت في السنوات ١٩٤١، ١٩٤٢، ١٩٤٣، ١٩٤٤ وقصائد بلا تواريخ، يرجح أنها تعود إلى الفترة ذاتها.

ولقد بدأت قصة هذه القصائد عندما حاولت "دار الطليعة" إصدار مجموعة "إقبال" بعد وفاة بدر مباشرة. اتصلنا بعائلته وطلبنا أن يرسلوا لنا ما توافر من قصائده، وما تيسر من معلومات عنه. وكان أن أرسلوا لنا، فيما أرسلوا، دفترين من قصائده الأولى. نشرنا قسماً منها في مجموعة إقبال، و لم ينشر الباقي حتى الآن.

وعليه فإن هذه المجموعة تضم:

أ- قصائد الدفترين المذكورين، التي نشر بعض منها في مجموعة اقبال (وسنشير إلى مرجع كل قصيدة في الفهرست).

ب- قصائد نشرها الدكتور عيسى بلاطة في ملحق كتابه: "بدر شاكر السياب: حياته وشعره"

والحقيقة أن هذه المجموعة لا تضم كل قصائد بدر الأولى. فهناك قصائد لم نستطع الحصول عليها، وهناك شك بوجود قصائد لم نستطع الحصول عليها، وهناك شك بوجود قصائد لا نعرف عنها شيئاً الآن. ولكنا اكتفينا بهذه لأننا نعتقد بأنها تعطي صورة واضحة عن تجربة بدر الأولى في الشعر. فليس من

السهل جمع شعر بدر كله. إنه مفرَّق وموزع، ويحتاج إلى جهود كبيرة من أجل جمعه وتحقيقه. ونأمل أن تكلف وزارة الإعلام في العراق أو اتحاد الأدباء العراقيين مَن يستطيع القيام بهذه المهمة.

هذه إذن بواكير شعر بدر. وهي تمثل شعره في السنوات الأربع الأولى من حياته الشعرية. ومن هنا تنبع أهميتها.

١/١٠/٧٢

قصـائد الديـــوان

على الشاطئ (عيسى بلاطه: بدر شاكر السياب حياته وشعره)

شهداء الحرية (المرجع السابق)

اذكريني (المرجع السابق)

إليك شكاتي (المرجع السابق)

رثاء جدتي (إقبـــال)

يوم السفر (إقبـــال)

ذكريات الريف (إقبـــال)

همسك الهاني (إقبـــال)

أغنية السلوان (إقبـــال)

الذكرى (غير منشورة)

تنهدات (غير منشورة)

تحية القرية (إقبـــال)

يا ليل (غير منشورة)

خيالك (إقبـــال)

على الرابية (غير منشورة)

سراج (غير منشورة)

أغنية الراعي	(إقبـــال)
المساء الأخير	(إقبـــال)
شاعر	(إقبـــال)
أغرودة	(غير منشورة)
المنديل الأصفر	(غير منشورة)
الوردة المنثورة	(إقبـــال)
السجين	(إقبـــال)
عودة الديوان	(إقبـــال)
مقطع بلا عنوان	(غير منشورة)
رثاء القطيع	(إقبـــال)
حورية النهر	(غير منشورة)
من أغاني الربيع	(غير منشورة)
شعاع الذكرى	(غير منشورة)
ضلال الحب	(إقبـــال)

على الرابية

وحيداً؛ هنـــاك... علـــى الرَّابيـــة ... جلستُ أبثُّ الـــدجى مـــا بيـــه
أعــــددُ أيــــامي الـــذاهبات ... فـــأبكي لأيـــامي الباقيـــه!
وجـــدَّدتِ الحـــزن لي دمعـــةً ... محـــيرة بـــين أهدابيـــه
عرفـــتُ لهـــا قصـــتي في الحيـــاة ... وتضـــليل روحـــي وآماليـــه
لهـــا بـــين عـــيني وبـــين الثـــرى ... مســـيلٌ علـــى وجنـــةٍ ذاويـــه
فلـــي مثلـــها ســـفرةٌ في غـــدٍ!!! ... ولي مثلـــها قصـــة داميـــة
شـــكوتُ إلى الليـــل جـــور الحيـــاة فارتـــدّ يشـــكو أذاهـــا ليـــه
فقـــال: وإني أســـيرٌ وتلـــك النجـــوم المضـــيئات أغلاليـــه
فقلت: وروحـــي بـــذل الإســـار ... رمتـــها قـــوى الجســـد العاتيـــه
فمـــا خفقـــات فـــؤادي ســـوى ... رنـــين سلاســـلها القاســـيه
شكوت إلى الليـــل جـــور الغـــرام ... فأرســـل آهاتـــه الباكيـــه
فقـــال: وأني احـــبُّ النـــهار ... ويعشـــق أطـــرافي السّـــاجيه
كلانـــا يفـــتِّش عـــن إلفِـــه... ... وكـــلٌّ تفـــرَّق في ناحيـــه
فقلـــتُ وفي القلـــب مـــن حبّـــه ... نـــواظرُ تحلـــم بالراعيـــه!
قســـيمي بمـــا أشـــتكيه الـــدجى ... فهبهـــات أن أشـــتكي ثانيـــه
ومـــرّت علـــى وجـــنتيَّ الصَّـــبا ... مكفكفـــة أدمعـــي الجاريـــه!

١٩٤٤/٢/٢

سراج

أشراع يطوي بحار الظلام؟ أمْ سراجٌ في غرفة المستهامِ

شاحب الضوء يرقب الشاعر السهران تبكيه نائبات الغرام

خافقٌ مثل قلبه حين يطغى راعشٌ مثل دمعه في انسجام

أعليه لنجمة الصبح وَعْدٌ بلقاء فباتَ نضوَ سقام؟

فهو نبعٌ تحت الظلام فريدٌ لو روى قلب ظامئ من أوام

وهو أرجوحة الظلام وظلٌّ حركته أنامل الأنسام

وجناحٌ يبيت ينتظر الفجر خفوقٌ بغصنه المتسامي

مرَّ طيفٌ من الحبيبة يهفو؛ للقاء المعذب المستضامِ

فطواه اللظى وبات دخاناً يطرق الليل نفحةً من قتام

فرويداً؛ كفى السراج اعتسافاً إنه غال رائع الأحلام!

بأسى الليل؛ باحتراق الفراشات بدفع من النفوس الظوامي

بسهاد الفتى، بما بين جنبيه بما للنجوم من آلام...

رحمة أيها السراج بمن أحصيت آهاته وراء الظلام

لا تسامره إنه شاعرٌ ضل بدنيا الخيال والأوهام

آذن الصبح أن يلوحَ فدعْه يُسعِد الطرفَ لحظةً بمنام

ليلة ١٩٤٤/٢/٧

أسلمتني أيـــدي القضـــا للشـــجونِ إذ قضى مَـــن يـــردّني لســـكوني

ورمـــى ســـهمه بقيـــة آمـــالي فخـــرّت صـــريعة مـــن عيـــوني

ووعـــتْ أذنـــه تـــواليَ أنغـــامي وآبـــتْ إلى الفنـــاء لحـــوني

جدّتي...

وهـــي كـــلُّ مـــا خلّـــف الـــدهرُ مـــن الحـــب والمـــنى والظنـــون

ورجـــاءً بـــدا فـــألهمني الصـــفوَ وخفّـــت أنـــواره لحنـــيني

قـــد فقـــدتُ الأم الحنـــون فأنســـتني مصـــاب الأم الـــرؤوم الحنـــون

* * *

كم تحملـــتِ في حياتـــكِ ســـقماً ودَّ قلـــبي لـــو أنـــه يعتـــريني!

تتلـــوّين في مهـــاد المنايـــا وتغيـــبين في عـــذابِ الأنـــين

وتضـــجين بالـــدموع ســـجاماً وتطـــوفين في بحـــار الســـنين!

ثم آبَ الســـفين! بعـــد طـــوافٍ خالبـــاً عـــودة الكســـير المهـــين

تاركـــاً في البحـــار عـــذبَ أغانيـــه لهـــا بالميـــاه أي رنـــين

يـــا لهـــا ليلـــةً وقـــد عـــادت الـــروح إلى ربهـــا ودنيـــا الـــيقين!

فزعت كـــل مهجـــة لأســـاها وارتمـــى الفكـــر فـــوق صـــدر الشـــجون

وانجلـــى الفجـــر حـــاملاً بـــين كفيـــه ســـعيراً عذابـــه يصـــليني

جاء مـــن خلفـــه نـــوى وبعـــادُ لا يرجـــى اللقـــاء فيـــه بحـــين

رفعـــوا نعشـــها ونحـــن حيـــارى والـــــدموع الغـــزار مــــلءُ العيـــون

* * *

أيها القـــبرُ كـــن عليهـــا رحيمـــاً مثلمـــا ربّـــت اليتـــامى بلـــين...

أيها القلـــب هـــل تـــلام شمـــالي والـــتي تفعـــل الـــذنوب يمـــيني؟

لا تلمـــني فلســـتُ قـــد علـــمَ الله أردّ القضـــــاء لـــــو يـــــأتيني

ولُـــمِ المـــوتَ والزمـــانَ الـــذي يســـلبُ مـــا ترتجيـــه غـــير ضـــنين

* * *

جـــدتي مـــن أبـــث بعـــدكِ شـــكوايَ؟ طـــواني الأســـى وقـــلَّ معـــيني

أنـــت يـــا مـــن فتحـــتِ قلبَـــك بالأمس لحُبّي أوصدت قـــبرك دوني

فقليـــل علـــيَّ أن أذرف الـــدمع ويقضي علـــيَّ طـــول أنـــيني...

ليـــتني لم أكـــن رأيتـــكِ مـــن قبـــلُ و لم ألـــق منـــكِ عطف حنـــون

آه لـــو لم تعـــوّديني علـــى العطـــف وآه لـــو لم أكـــن أو تكـــوني...

٤٢/٩/٩

على الشاطئ

"بين رفات أحلامي التي تكسرت أجنحتها، وأحرقتها نار الخيبة... وبين ضباب من الأوهام يكتنفني، ووسط سكون رهيب لا يعكره إلا أنات قلبي الجريح، جلست على الشاطئ أترقب عودتكِ، ولكن... هيهات"

على الشاطئ أحلامي طواها الموجُ يا حبُّ
وفي حلكة أيامي غدا نجم الهوى يخبو
عزاءً قلبيَ الدامي

وذا الفجر بأنوارهْ رمى الليل وأطيافه
شدا الطير بأوكاره وهزّ الورد أعطافه
وفي غمرة أوهامي
وفي يقظة آلامي
بكى محبوبة القلب
عزاءً قلبي الدامي

وعن بعد سرى زورق فهل فيه التي أهوى
وذا قلبي جوىً يُحرق عسى أن يجد السلوى
ومن آهات أنغامي
أتتني رمية الرامي

مضى الزورق يا ربُّ

عزاء قلبي الدامي

وفي موكب أحلامي تسير الشمس للغربِ

فيشكو قلبي الظامي إليها لوعة الحبِّ

فيا ربة إلهامي

ويا تسبيح أيامي

لك القلب مضى يصبو

فردي بعض أحلامي

تقضّى الليل فالفجرُ ولكن هل أتت هندُ؟

خلا من طيفها النهرُ فأين الحب والعهدُ؟

سدى قضّيت أعوامي

على شطآن أوهامي

ولا صفوٌ ولا قربُ

فردي بعض أحلامي

(١٩٤١)

"رثاء الشهداء: يونس السبعاوي، فهمي سعيد، محمود سلمان"

شهيد العُلا لن يسمع اللومَ نادبُهْ ... وليس يرى باكيهِ من قد يعاتبُهْ
طواه الردى فالكون للمجد مأتمٌ ... مشارقه مسودَّةٌ ومغاربهْ
فتىً قاد أبناء الجهاد إلى العُلا ... وقد حطّمت بأس العدو كتائبهْ
فتى همّه أن يبلغ العزّ موطنٌ ... غدا كل باغٍ دون خوف يواثبهْ
فتى يعرف الأعداء فتكة سيفه ... وقد فتحت فتحاً مبيناً مضاربهْ
فتى ما جنى ذنباً سوى أنه انتضى ... حساماً بوجه الظلم ما لان جانبهْ
إذا ذكروا في جحفل الحرب "يونساً" ... مشى الموت للأعداء حمراً سبائبهْ
لقد باع للعُرب شموسَ ثلاثةً ... فقرّوا ودمعي لا تقرّ غواربه
فآه على من ودّع الصحب واغتدى ... على "يونس" فليطلق الدمع حاجبهْ
وآهٍ على نسر أهيض جناحه ... وكم ملأت أفق العراق عصائبهْ
لئن غيّبوا جثمان "محمود" في الثرى ... فما غيّبوا المجد الذي هو كاسبهْ
ولهفي على "فهمي" وما كان خطبه ... يهون وإن هانت لديه مشاربهْ
شهيد رأى الطغيان يغزو بلاده ... فهبّ وقاد العزم جنداً يحاربهْ
أيُشنق من يحمي الديار بسيفه ... وتغدو على كسب المعالي ركائبهْ؟
رجال أباة عاهدوا الله أنهم ... مضحّون حتى يرجع الحقَّ غاصبُهْ

أراق عبيـــد الإنكليـــز دمـــاءهم	فيا ويلهم ممـــن تخـــاف جوالبـــة

أراق عبيـــد الإنكليـــز دمـــاءهم	ولكنّ دون الثأر مَنْ هـــو طالبـــة

أراق ربيـــب الإنكليـــز دمـــاءهم	ولكـــنّ في بـــرلين ليثـــاً يراقبـــة

رشيد ويـــا نعـــم الـــزعم لأمـــة	يعيث بها عبـــد الإلـــه وصـــاحبة

لأنتَ الزعيم الحـــق نبـــهت نوّمـــاً	تقـــاذفهم دهـــر توالـــت نوائبـــة

(١٩٤٢)

اذكريني

قبَسٌ من نور قلبي مشرق في ناظريكِ

فهما مهد الهوى إن الهوى غافٍ لديكِ

وهما نبع المنى إن المنى في مقلتيكِ

كل ما يغري ويصبي هاتف في نظرتيكِ

فاذكريني واذكري قلباً بكى بين يديكِ

شعلة من دم حي كمنت في شفتيكِ

فاجعليني لفظة بينهما تحنو عليكِ

ولتعانق ذكريات الحب دوماً أصغريكِ

كم نهلنا الحب من أقداحه في وجنتيكِ

وصدى القبلة تخفيه جنان ذات أيكِ

قد محا أيامنا الدهر فهل تبقى لديكِ

آه لو كنت بقربي إنني أصبو إليكِ

(١٩٤٢)

إليــــك شكـــاتي

لغيركِ لم يخفــق فــؤادي ولا هفــا ... يجنبّي قلبٌ ضــاربٌ في التفجُّــعِ

ولا ذرفت عيناي دمعاً إذا جــرت ... بوادره طــاف اشــتياقي بمــدمعي

فرحماك لا تستترقي دمــع نــاظري ... فدمعي إذا ما هاجني الشوق مفزعي

يســير بــأحلامي لوديــان حبّهــا ... فترتدُّ بالطيف الحبيــب لمضــجعي

به أذكر الحب القــديم فــإن نــأى ... تبيّنتُ في فقد الحبيــبين مصــرعي

ولولا خيال في الدجى منك عــادني ... لذاب مع الأنفاس قلبٌ بأضــلعي

فيا نفحة للحــب مــلء جــوانحي ... ويا نبأة للوحي طافــت بمســمعي

إليك شكاتي فامسحي من أضــالعي ... سطور جوى فوق الفؤاد، بــأدمع

إلى أُفق أحلامــي ففــي ســرحاته ... لنا موعد يحلو فنخفــي لــه معــي

هناك لروحينا على الحــب ملتقــى ... يزوّقــه طهــر الهــوى المتضــوّع

وما الحب إلا يقظة بعــد هجعــة ... فــلا تجعليــه صــحوة المتفجّــع

(١٩٤٢/٧/١٤)

يوم السفر

مـن لقلـبي علـى القـدر ... قُضـي الأمـر بالسـفر

آه لـو أنـه مضـى ... معهـم يتبـع الأثـر

أتـرى كـان ينـثني ... عـن محبيـه لـو قـدر؟

مـن معـيني علـى الغـرا ... م إذا ضـج أو زخـر؟

دهـم القلـب موجـه ... فعنـا القلـب وانقهـر

هـو للصـخر قـاهر ... لـيس قلـبي مـن الحجـر

أسـفا! زورق المـنى ... وَسْـطَ أمواجـه انغمـر

أنـت يـا مـن أحبـه ... جـاد بالوصـل أم هجـر

أنـت يـا مـن حـدوت ركـب سـروري لـك المفـر

جـاء يشـكو لـك الأذى ... سـاهد طالمـا صـبر

كـم فـؤاد قتلـه ... قبـل أن يـدرك الـوطر

لم تبلغـه مـا يـرو ... م ويـاطول مـا سـهر

واحنـيني لقبلـة ... فـاز مـن قـد بها ظفـر

إن قومـاً نحبـهم ... حرموهـا علـى البشـر

وبعيـد عـن البلـو ... غ لقـاء وان قصـر

لـن أرى جنـة الهـوى ... لا ولـن أقطـف الثمـر

مـــن شـــفاه حـــوالم بـــرؤى اللـــثم كـــالزهر

قـــد جلـــت ســـاعة الـــوداع شـــتيتاً مـــن الصـــور

حمـــل القلـــب شـــوقه مقلـــة زانهـــا الحـــور

داعـــب الشـــعر وجنـــة مـــن شـــذا عطرهـــا ســـكر

وتجلـــى مودعـــا حاجـــب يجلـــب الحـــذر

منجـــل يحصـــد القلـــو ب فلـــم يـــق أو يـــذر

ذكريات الريف

شعاع من الماضي منير بخاطري ... وذكرى لما ولّى تعطِر حاضري
تلمُّ ففيها دمعة وابتسامة ... وتأتي فلا تبقي على صبر صابرِ
لقد لاح لي من ذكرياتي بوادرٌ ... وإنْ هوى نفسي بتلك البوادر
وأبرز لي وَهْمي وكان مصوِّرا ... ذواهب أيام حسانٍ سوافر
فتلك رسوم الريف تحيا بخاطري ... كما عاش في الأوتار أنغام ساحر
وتلك الحقول الزُّهر تنسلُّ بينها ... جداول ماءٍ بين وانٍ وفائر
عليها جسور من جذوع نخيلها ... تئن وتشكو تحت أقدام عابر
كذاك فؤادي يعبر الحزن فوقه ... على نهر حبّي وارداً بعد صادر
تذكرت سرب الراعيات على الربا ... وبين المراعي في الرياض الزواهر
ورنات أجراس القطيع كأنها ... تنهّد أقداحٍ على ثغر شاعر
أقود قطيعي خلفهنَّ محاذراً ... وأنظر عن بعد فيحسر ناظري
وما كنت لو لم اتبع الحبَّ راعياً ... ولا انصرفتْ نحو المروج خواطري
"إليها" طويت الليل بالليل صابياً ... وطاردتها مستهوناً بالمخاطر
وقبّلتُ حتى البهمَ لما رأيتها ... تُقبِّل تلك البهم قبلة ثائر
فقد أهتدي في قبلةٍ إثرَ قبلةٍ ... إلى أثرٍ من ثغرها غير ظاهر
تذكرتها والفجر لاهٍ يضمها ... فلا هو بالآتي ولا بالمغادر

تنام على النــهر الجميــل ضــفافُهُ ‏ وبالماء تــدلي مائجــات الغــدائر
كموجـــة بحــر قيّــدهما سلاســلٌ ‏ من النور مثــلُ العســجد المتنــاثر
وحاملـــةً عنــد الــرواح لــدارها ‏ حزيمات عشبٍ من بجيل المخاضــر
أهذا هو العشب الذي كان في الضحى ‏ مهاداً لها بــين الحقــول النواضــر
أتخشـــاه ألا يكــتم الســرَّ ويحــه ‏ ويروي أنبــاء الأليــف المعاشــر
فكم قبلـــةٍ رفّافـــةٍ خبــأت بــه؟ ‏ وكم دمعةٍ تنساب من ظلم هــاجرِ
وصبحٍ خريفـــيٍّ تكفــن ضــوؤه ‏ بغيمٍ يغشّي صفحة الأُفــق ســائر
قد اصفرَّت الأوراق حــتى كأنها ‏ ذبالاتُ نور في دجى الليل ســاهرِ
وقد"جلست" فوق الضفاف حزينةً ‏ تشيّعُ نهراً ســال بــين الأزاهــر
كحوريّةٍ أغرت من المــوج كالئــاً ‏ ففرَّ بها – جذلان – من غور زاخر
قضت بانتظار الجزر ساعات يومها ‏ ليحملــها للمزبــدات الهــوادر
ولكنــها إن يقبــل الليــل هادئــاً ‏ – على مدِّ أحلامي – تعُدْ لسرائري
تذكرها تصــغي لهمــس يــراعتي ‏ فتسألُ: ما شأن الثقوب الفــواغرِ
ألم تعلمــي أن الثقــوب نوافــذٌ ‏ تطالعنــا منــها تــرانيم زامــر؟
وكانــت لأنغــام الفــؤاد منابعــاً ‏ تفيض بسيل مــن أغانيــه غــامر
فداؤك روحي ما ثقــوب يــراعتي؟ ‏ جراحٌ تنــزتْ من خطوب قــواهر
ونايي اجتنى الأنغام حــتى تألّفــتْ ‏ وبعثرها في الشدوِ غــير مُحــاذر
فكان كحبّي جمع الشّــمل شملَنــا ‏ وفرَّقنا من بعــد تفريــق ســاحرِ

* * *

عَدَتني ليالي الصيفِ من ذا يعيــدُها ‏ سوى الوهم والذكرى لأسوان حائر
فيا حبذا لي جلسة فــوق شــاطئ ‏ ألوذُ به إن مسَّــني ظلــمُ جــائر

أراقب منه الموجَ يسـري بـزورقٍ ... بدتْ فيه مَن تعنو إليها مشـاعري
يسيرُ بمجـذافين في النـهر أشـبها ... ذراعَيْ مشوقٍ مُـدّتا في الـدياجر
كأن رشاش الماء – يعلو – أزاهـرٌ ... نثرن عليها مـن أليـفٍ مسـامرِ
تـروّح عنـها بالشّـراع نسـائم ... ويرتادها ضوءُ النجـوم الزواهـر
سها النجم أفلاكاً له حين شـاقها ... فتابعهـا في أفقـه كـلُّ دائـر
ومن حولها مَوْجٌ تضـيء كراتـه ... وتعكس من ألوانهـا كـلَّ بـاهر
تفجّرها الأمواج كالكأس حُطِّمـتْ ... وكالقلب أعياه اعتساف المقـادر
وكالزهر في أكمامه اغتاله الـردى ... وبعثـره هـزُّ الريـاح الثـوائر
وكالزورق السّاري أضـلَّ سـبيلَه ... فعاد حطاماً فوق شـطآن زاخـر
وكالزمن الماضي تلاشى ولم يَعُـدْ ... إلى ذاكرٍ أنـس الليـالي الغـوابر

١٩٤٣/٤/٩

خيالكِ أضحى لابساً مــن فؤاديــا ... رداءً موشّىً بالرؤى البيض حاليــا

وكنتِ كذاكَ الطائرِ الخادع الــذي ... يراه رعاةُ البَهْم في المــرج هاويــا

فيعدونَ بين العشب والزهــر نحــوَهُ ... وإن قاربوه طار جــذلانَ شــاديا

فمــا زال في إســفافه وانطلاقــه ... فلا هو بالنــائي ولا كــان دانيــا

وما زال يُلهي راعياً عــن قطيعــه ... ومزمارهِ حــتى يضــل المســاريا

وإنكِ قد أشغلتني — صانكِ الهوى – ... عن الشعر لما أن تبعتُــكِ راضــيا

وإن على مــرآة شِــعري ســحابة ... لأنفاسكِ الولهى تغَشّــي المرائيــا

وإن رغبَ الروحُ انطلاقــاً أعاقــه ... صدى روحك الرخوِ الجناحين داعيا

وهمسُك ألهاني فمــا بــتُّ ســامعاً ... لحونَ إله الشــعر أو بــتُّ واعيــا

وقيثارتي... مــا شــأنها وأنــاملي ... بشَعركِ باتــت عابثــات لواهيــا؟

ألا يتسنى يا ابنــة الحــبِّ ســاعةً ... لروحي أن ترقى النــهود العواريــا

فتلمحَ مــن عليائهــا أُفــق فتنــة ... يوافيه إشعاعٌ من الحــب، زاهيــا؟

ســأهتف بالأشــعارِ إمــا رأيتــه ... وأستقبلُ الإلهــامَ ســهلاً مواتيــا!

متى حوّمت في أُفــق ثغــركِ قبلــةٌ ... يصعِّدُها ثغري فقد زال مــا بيــا!

وعدتُ لربِّ الشعر جذلان ســامعاً ... حفيف جناحيه ينــادي خياليــا!

١٩٤٣/٧/٢٩

تباعدنا فــلا حــزن علــى مــا ضــاع مــن قــربِ..
ولــيس الحــبُّ إلا الرحلــة اسـتلت قــوى القلــبِ
وهـــل يلقـــي انتـــهاء السَّـــفَر المـــلاَّح في كَـــرْب
إذا مـــا راح يطـــوي الـــيمَّ نحـــو الشـــاطئ الخصـــب؟
نفضـــنا قطـــراتِ الوصـــلِ بـــين الـــورد والعشـــب..
إذا مـــا اهتـــزت الزهـــرةُ ألقـــت بالنـــدى العـــذب
وأُفردنـــا وفي الإفـــراد بعـــض الخـــير للصَّـــبِّ
تعـــيش الزهـــرة الفينـــاءُ في المنبســـط الرحـــب
وتقضـــي وحشـــة الأيـــام بالتحـــديق في الســـحب
تنـــام علـــى وســـاد الشـــوك نائيـــة عـــن التُّـــرب
ولا ترمقهـــا عـــينٌ فتنجـــو مـــن أذى العطـــب
وإمـــا زهرتـــان اســـتوتا جنبـــاً إلى جنـــب...
ســـرت نجواهمـــا تنســـلُّ بـــين العطـــر في السُّـــهب
فتســـمعها الفراشـــاتُ وراء التـــلِّ والشـــعب
فتضـــربُ في الفضـــاء الرحـــب نحـــو المنبـــت الرطـــب
إذا مـــا ركـــض الطفـــلُ وراء فراشـــة الســـرب

فلاذتْ بصدور الزَّهر بعد الحوم والجوب
فشأن الزهرتين القطف والإذعانُ للخَطب
عِناقُ الحبِّ فاجأه هويّ المنجل الغضب
فيا للقبلة المشلولة الأصداء بالرُّعب
وكنا للوحَيْ نافذةٍ في هيكل الحبِّ..
فلو لم نفترق لم ينفذ النورُ إلى القلبِ
وكنا كجناحي طائرٍ في الأفقِ الرّحب..
فلولا النشرُ والتفريق لارتدَّ إلى الترب
ولو لم نبتعد لم تسمُ نفسانا عن الذنب
وكنا شفتيْ هذا القضاء مفرّق الصّحْب
فلو لم ننفرج لم تضحكِ الأقدارُ من كربي!

١٩٤٣/٨/٧

الذكـــرى

أطللتُ من نافذة الذكرياتْ على رياض القِدَمِ الحالمات
ولي زمانٌ عرضت لي به أجمل حلم أبدعته الحياة
أركض في أنحائها لاهياً مع الفراشات بمسٍّ النبات
وأسهر الليلة مَع جَدْوَلٍ مرتعشٍ للنُّسُم الفاترات
يا لهفي إنَّ وراء الربى صوتاً دعاني هو صوت الرُّعاة
وكيف آتيكِ جنان الهوى يوماً ودوني حُجُبٌ مانعات؟

* * *

دعا صباباتي لضفّاته غديرُ ذكرى مائج الأمنيات
حدّقتُ في أمواجه ساعةً مستطلعاً أغوارَه المبهمات
أرى ظلالَ السُّحْبِ تقبيلةً مرّت على جبهته في أناة
والسَّحْبُ هل أنكرتها؟ إنما كانت نُهَيْراً شاعريَّ اللهاة
ملءُ فروع الدوح ألحانه سكرى على قرع كؤوس الحصاة
نما على أعشاب ضفّاته مختلسين القبل المسكرات

* * *

نَحْوَ الغدير العذب مُدَّت يدي تلمس فيه السحب العائمات
فانفجرت منها فقاعاتُه في إثرِ أترابٍ لها سابقات

إني سمعت الحُورَ في همسة … مسحورة أصداؤها عاتبات

تلك عقودُ الحور بعثرتَها … فهل أتتك المتع الذاهبات؟

وصرخة الأطفال من غوره … يا أيها القاسي فجَرْت الكرات!

* * *

ودوحة الذكرى تسلقتها … مُجتذباً أغصانها المزهرات

مستقصياً ما بينها فجوةً … تمر منها النسم الهائمات

أبصرتُ منها ذكريات الصبا … على نجيل المرج مستلقيات

والبحر يسعى دونها زافراً … فالموج آهات حطمن الصَّفاة

يا مرج هل تذكرني راعياً … أعبد فيك "الله" والراعيات!

والبحر ما كان سوى جدول … ينير في الليل سبيل الرعاة

فما دهاه اليوم حتى غدا … ملحاً أجاجاً بعد عذب فُرات

أحقبة نضجر من طولها … وإنما طرفةُ عين الحياة؟

* * *

قالت لي الدوحةُ لا تبتئسْ … ستهبط المرْج ففيمَ الشكاة

هاك جناحين فطر وائته … واستوح فيه المتع الطارئات

وقدّمت بين دموع الندى … فرعين من أغصانها المورقات

* * *

غنّى الخريفُ الغابَ ألحانَهُ … فانتثرت أوراقه راقصاتْ

وقبل أن أُدرك ما أبتغي … ذوى جناحاي مع الذاويات!

ليلة ١٩٤٣/٨/١٨

تنهــــدات

"كنت أهصر سعف النخيل حــذار أن
يمنع عينيَّ من رؤيتها إذا أقبلت! أمــا
الآن فليتهدل السعف فهي لن تأتي"

سَعَفَ النخيل علــى الممــرِّ تَهــدّل
واحجب بظللك ما يــراه المجتلــي

من كنتُ أحذر أن تحجب طيفهــا
عن ناظري نزلــت بأبعــد مــترلِ

سيان عندي اليوم قفــرٌ مــوحشٌ
وظلال روض مســتطاب المنــهل

فسَل النسائم أن تكفَّ عن الســرى
ما للفؤاد بيســرها مــن مأمــل

إن أقبلت بشذى الزهور و لم يكــن
عطــر الحبيبــة فيــه فلتتحــوَّل

أبداً تذكرني المــروج بمــن نــأت
وربابة الراعي تهــيج الشــوق لي

في كل زاويةٍ نظرت رأيــت مــن
آثارهــا مــا خلفتــه لمقتلــي!

فإذا سهوتُ عــلا ثغــاء قطيعهــا
يشــكو أســاه بلوعــةٍ وتــذلل

قد ودّعتــه فمــا شــفاه وداعهــا
من حرقــةٍ في صــدره لم ترحَــل

ألقــت بمســمعه ثمالــة شــدوِها
فرنا بغــرب دموعهــا المترســل

خففتُ لو ودّعتها بعــض الأســى
ومسحتُ بعض دموع قلبٍ مثقــل

والدوح عصــفرَه الخريــف وردَّهُ
كالعاشــق المتحــرِّق المتــذلل

نَثَرَ الأصيل عليه عمــق ســكونه
فمضــى يحــن لأغنيــات البلبــل

فكأنمــا الوَرَقــاتِ مــرآةٌ لــه
تجلو اصــفرار سمائــه للمجتلــي

أأروحُ وهـــو يظلُّـــني وحبيـــبتي وأعود وحدي وهو غـــير مظلّلـــي

سعف النخيل: سواك خان مـــودّتي وبقيت تحفظهـــا لمـــن لا ينســـلي

أشكو إليك أذى الفؤاد وإن تكـــن لا ترجع الشكوى لصبٍّ مبتلـــي[1]

تمضِ الحبيبـــة والزمـــان كلاهمـــا وأظلُّ أندبهما وتصغي أنـــت لي...

١٩٤٣/١٢/٦

---

[1] كلمة مبتلي غير صحيحة ويقتضي (مُبتلى).

تحيـــة القـــرية

شـــفّني مـــن ربوعِـــكِ النضــراتِ فتنـــــةٌ تســـــتعيدها نظـــراتي

في رياض النخيل يجمع فيها الفجـــر شمــــل الضـــياء بعــــد شـــتاتِ

فـــإذا الـــروض فتنـــة تتجلّـــى من صـــناع الأنامـــل المبـــدعات

أخـــذتْ حَليَهـــا الطبيعـــةُ فيـــه وبـــدت في غلائــــلٍ عطـــرات

توَّجـــتْ بـــالزهور مفرقِهـــا، الجـــدول ربُّ الخمائـــل الهامســـات

وانثنـــت تســـتحثُّ ماشـــطة الـــريح وتُبـــدي النجيـــل للماشـــطات

والمروج الحســـان هامـــت عليهـــا حُـــرَقٌ مـــن تنهـــدات الرعـــاة

والعـــذارى بـــين الرُّبـــا يتـــهادَيْنَ نـــــديَّ التَّـــوار والزهـــرات

والغـــديرُ الوســـنان ظلّلـــه الكَـــرمُ وأصـــى أمواجـــه الموهنـــات

منظـــرٌ تســـتخفُّ ألوانـــه الطـــير فترجـــي ألحانهـــا الســـاحرات

وهـــدوء الحقـــول تلقـــى لديـــه الـــنفس مـــا ترتجيـــه مـــن غايـــات

فهو نورٌ يهدي ســـفائن أفكـــاري إلى مـــــا وراء بحـــــر الحيـــــاة

فتـــرى المبـــدع المصـــوِّر فيمـــا حولهـــا مـــن جنـــائنٍ موثقـــات

في ابتســـامِ الريـــاض للمـــدِّ والجـــزر لطوفـــانِ عـــذبِيَ[1] النغمـــات

يحملان الحـــديث عـــن مـــرقص البحـــر وحـــور الشـــواطئ اللاعبـــات

---

[1] في الأصل عذبى والأصح أعذب.

وعـــن الشـــطّ والنخيـــل الســـكارى في الليـــالي القمـــراء والمظلمـــات

رنحتـــها الأنســـامُ لمـــا ســـقتها العطـــر في أكـــؤسِ النـــدى المترعـــات

وقـــروطُ الأغـــداقِ تهتـــز إغـــراءً لفُلـــكٍ شـــوارعٍ جاريـــات

صـــورٌ تســـجد النفـــوس لـــديها وتضـــجُّ القلـــوبُ بالصَّـــلوات

أينمـــا دار نـــاظري طـــالعتني فتنـــةٌ تســـتعيدها نظـــراتي

١٩٤٣/١٢/٢٢

يـــا ليـــلُ

ليت الليـــالي تنســـي قلـــبي الألمـــا
والنجم يُنبئهـــا عـــني بمـــا علمـــا

للعينِ يا ليـــل ســـرّ لا تبـــوح بـــه
أغمضتَ عنه عيون الناسِ فانكتمـــا

إلا عيوني ما أغمضـــت ســـاهدها
فبتنَ يرقبنَ منك النّـــوءَ والظُّلمـــا

قد أنقيتَ أذاهـــا فاســـتترت لهـــا
دمعاً لمتْ فيه عما فيك منســـجما

صحبتُ فيكَ سُرى الأحلام مُفزعِها،
وعذهاا فطويتُ الغـــور والأكمـــا

فما التقيت بمن أهـــوى؟ أتحسَـــبُها
يقظى؟ لديك فما أهديتها حُلمـــا

وهل نعمت من الـــدنيا برؤيتـــها؟
أما احترقت فأفزعت النجوم.. أما!

ألم تخنك الدراري مذ شغفن بمـــا؟
وكيف وارين غرب الدمع حين هما

ترى على الأرض مأواها وموطنها؟
أما السماء نمتْها فهي بنـــت سمـــا؟

من السنا والندى والزهر منـــــزلها
على ثرى من نديّ الغيم قد رُسمـــا

إن الأهلّةَ شـــيء مـــن أرائكهـــا!
والفجرَ مرآتها مـــا رفَّ مبتســـما

وساءلتك وغربُ الـــدمع ســـامرُها
عني فألفتك قد أوليتـــها صَـــمما

فردتِ الطرفَ نحو الغـــيم حـــائرةً
فارتدَّ بارقـــه يجلـــو لهـــا الظلمـــا

وهزّتَ الأفـــقَ الســـهران باحثـــة
عني وبتُّ أهزُّ القلـــبَ مضـــطرما

فما نجومُك وهي النيِّـــرات ســـوى
آثار أقدامها تـــروي لـــك الألمـــا

وما أغانيك وهي الخالدات ســـوى
أشتات قلبي تـــروي حبّـــه نغمـــا

أما سئمت من الآهـــات تُرســـلها
ناراً، وقلبك من قلبي أمـــا ســـئما؟

ضُمَّ الفؤادين لم تُبق النـــوى بهمـــا
ما يستطيع حياةً إن همـــا انصـــرما

١٩٤٤/١/١٦

"إلى لبيبة ذات المنديل الأحمر"

"نظرت إلى ظلــك في الجــدول
فالتقت عيناي بعينيــك أو عينيــه
فكان حي لك أو له..."

لظلّـــكِ لـــو يعلـــمُ الجـــدولُ ... على العذبِ مــن مائــه مَنــزلُ
يمــرُّ بـــه القلـــب مــرَّ الغريـــب ... ويهفـــو لـــه الحـــبُّ والمأمـــل
بأفيائـــه تحلـــم الـــذكريات ... ويشـــدو الخيـــالُ ويسترســـل
وقفـــت حزينـــاً لـــدى الضـــفتين ... وحـــولي زهـــور المـــنى تـــذبلُ..
وقـــد رفَّ ظلـــك فـــوق الميـــاه ... وجالَـــت بأعطافـــه الشـــمأل..
ففـــي المـــوج مما رأى هـــزّة ... يحـــار لهـــا الشـــاطئ الممحِـــل..
وســـرحتُ عـــينيّ في مقلـــتين ... يـــدُّ ســـهميهما الجـــدول
غـــرامٌ! فهـــل تنكـــرين الغـــرامَ؟ ... وحـــبٌّ، وهـــل منـــه لي موئـــل
تمنيـــت لـــو كنـــت ريحـــاً تمـــرُّ ... على الظـــل ولهـــى فـــلا تعـــذَل
ويستأســـرُ المـــوج إغراؤهـــا ... وترديـــدها[1] النـــائح المرســـل
فتمضـــي وتمضـــي بـــه للســـماء ... غمامـــاً بأرجائهـــا يرفُـــل...

---

[1] كانت "ويفتنه لحنها" وصححت بخط الشاعر.

فـــأخلو بظلّـــكِ بـــين النجـــوم وقد جال فيهـــا الـــدجى المسبل
ففـــي كـــلّ تقبيلـــة نجمـــةٌ تغـــوّرُ أو كوكـــبٌ يُـــذهل[1]
خيالُـــكِ مـــن أهلـــي الأقـــربين أبَـــرُّ، وإن كـــان لا يعقـــلُ
أبي... منه قـــد جـــردتني النســـاء وأمي... طواها الـــردى المعجـــل[2]
ومـــا لي مـــن الـــدهر إلا رضـــاكِ فرحمـــاكِ فالـــدهر لا يَعْـــدِل..

١٩٤٤/١/٣١

---

[1] كان عجز البيت: تغور وثانية تذهل. وصححت بخط الشاعر.

[2] يشير إلى زواج والده بامرأة أخرى.

أغنيـــة الـــراعي

دعـــي أغنامنـــا ترعـــى حيـــالَ المـــوردِ العـــذبِ؛
وهيـــا نعتلـــي الربـــوة يـــا فاتنـــةَ القلـــب...
فنلقـــى تحتنـــا الوديـــانَ في ليـــلٍ مـــن العشـــب!
خيالانـــا بـــه طيـــفٌ مـــن الآمـــالِ والحـــبِّ!

* * *

خطانـــا تبعـــثُ الـــذكرى بقلـــب الـــورد والزَّهـــرِ
ســـيبقى في غـــدٍ منـــها صـــدىً ينســـابُ في النـــهر
وفي الأنـــداءِ مـــا ذابـــت علـــى وقـــع خطـــى الفجـــر
وفي أغنيـــة الرعيـــان مـــا بـــين الـــربى الخضـــرا

* * *

ســـئمنا العـــالَمَ الفـــانيَ والنـــاس ومرعانـــا
لقـــد ســـجنوا بـــأغلالٍ مـــن الأنظـــار نجوانـــا
سننشـــدُ في أمـــانٍ مـــن عيـــون النـــاس مأوانـــا
ضـــعي يـــدك الجميلـــة في يـــدي ولنـــذهب الآنـــا

* * *

ومـــن أثـــواب قطعانـــك يـــا ريحانـــةَ العمـــرِ
نحـــوكُ شـــراعَ زورقنـــا ونطـــوي لـــجّة العمـــر
نغـــني المـــوج أغنيـــة الرعـــاةِ علـــى الـــربى الخضـــر

لقيثـــارٍ روى أنغامَـــــه عـــــن ربّـــــة الشـــــعر!

* * *

نـــــؤم جزيـــــرةً منســـــيةً في بحرهـــــا النـــــائي

طـــوى المـــوجُ بشـــطيها جناحيَـــــه بإعيـــاء

إليهـــا أومـــأ المجـــذافُ لمـــا ضـــلّها الرّائـــي

وأضـــحى دمعُـــه يرســـمُ أقمـــاراً علـــى المـــاء

* * *

ســـنبني كوخنـــا تحـــتَ الغصـــونِ بجانـــب النبْـــعِ

ونملـــؤه بمـــا شـــئناهُ مـــن زهـــرٍ ومـــن شمـــع

وأنغـــامٍ رواهـــا الـــوترُ السَّـــكرانُ بالـــدمع

وعِطـــرٍ قُطفَـــت أزهـــاره مـــن ذلـــك الجِـــذع

* * *

ســـتهوي شـــفتانا فيـــه نحـــو القبلـــة الأولى

فيصـــغي في صـــداها خـــافقٌ مـــا زال متبـــولا

إلى همـــس المجـــاذيف طواهـــا الليـــل تقبـــيلا

إلى نجـــوى الينـــابيع بـــرَوضٍ بـــات مطلـــولا

* * *

تعـــالي نهجـــرُ الآثـــامَ والنـــاس ودنيانـــا

لأرضٍ ســـبقتنا نحوهـــا بالسَّـــير روحانـــا

هنـــاكَ نـــرى المـــنى، والحـــبُّ والأحـــلام ترعانـــا

ضـــعي يـــدك الجميلـــة في يـــدي ولنـــذهب الآنـــا...

* * *

١٩٤٣/٧/٢٩

المساء الأخير

"آخر مساء قبل مغادرة الريف"

بربِّ الهوى يا شمسُ لا تتعجَّلي ... لعلي أراها قبل ساع الترحّلِ
سريت فأفق الغرب يلقاك باسماً ... طروباً وأُفق الشرق بادي التذلل
كأنَّ السَّنا إذ فارق الأرض واعتلى ... رؤوس الروابي والنخيل المسبَّل
أحاسيس أخفاها الفؤاد وصانها ... زماناً ففاضت من عيونٍ ومِقْوَلِ
وصفصافةٍ مخضوبةِ الرأس بالسَّنا ... تراع بزفزافٍ من الريح مُعوِل
تبينُ كعذراء من الريف أقبلت ... بجرَّتها من دافق الماء سلسلِ..
نعى لي وللناس النهارَ (مؤذّن) ... وقد كان ينعي لي فؤادي ومأملي
تمنيتُه لا يسمع الصَّوت، أخرساً ... تمنيت لو يهوي إلى الأرض من علِ!
ألا وُقِرتْ آذان من يسمعونه ... بأشلاء قلبٍ في ضلوعي مقتَّل
ألا نثرتْ من تحت أقدامه أسىً ... حجارةُ ذاك المسجد المتبتِّلِ!
أطرتُ عصافير الربى حين غردتْ ... كأنَّ بتغريد العصافير مقتلي!
رأيتُ بها شبهاً بدَهر مجنَّح ... فأبغضتُ أشباد العدوّ المنكِلِ
كأني به لما يمُدُّ جناحه ... يمُدُّ لأكباد الورى حدَّ فيصَلِ
ألا ليت عمر اليوم يزداد ساعةً ... ليزداد عُمرُ الوصلِ نظرة معجَلِ.

١٩٤٤/٢/١٦

شاعر

كفَّن بالأوراق آهاته وارتدّ يرثيها بآياتهِ

واستأسرتْ أبياته روحَهُ فطاف يبكي حولَ أبياتِهِ

غنّى ليصطاد حبيباته فاصطاد أسماء حبيباته

إن تبك عينيه صباباتُه أبكى عيوناً بصباباته!

ساعاته في شعره خلّدتْ ما بالُه يندبُ ساعاته!

وهو إذا ما أنَّ من لوعةٍ رجّع كلُّ الكونِ أناته!

إن دُسَّ تحتَ التربِ جثمانُه وكفَّ قلبٌ بين طياته!

خلّف قلباً بين أشعاره! يسمعُ مَن في الأرض دقاته!

١٩٤٤/٤/٢١

أغـــــرودة

"إلى ذات المنديل الأحمر"

كفـــى طَرفــكِ اليــومَ أن غــرّرا بقلــبٍ جفــا الحــبَّ واســتكبرا

ضـــــللتُ وقـــــدّر لي أن أراكِ وأهـــوى فصــبراً لـمــا قــدّرا

أضـــاء حيـــاتي ســـنا مقلتيـــكِ فأبصــرتُ مــا لم أكــن مبصــرا

وشاهدتُ قفــراً بعيــد الحــدود تعـــانق فيـــه الســماء الثــرى

وقـــد خلـــت في ظلمـــتي أنّ لي رفيقـــاً.. وهـــا أنـــي لا أرى

فــرُدّي علـــى القلـــب أوهامَـــه وخلّيـــه فيمـــا ادّعـــى وافتـــرى

"لبيبـــةُ رحمـــاكِ إن الوصـــال أحـــبُّ إلى القلـــب لـــو خيِّـــرا

أهـــاب الغـــرام بقلـــبي الكئيـــبِ فخـــفّ إلى عاليـــات الـــذرى

جناحـــاه ســـهمان في جانبيـــه يشـــعّان بالنـــار إمـــا ســـرى

بعينيـــكِ غـــدرٌ بكـــل الرجـــال ولكـــنَّ عـــينيَّ لـــن تغـــدرا

إذا لم تضمّ الكيانَ النحيلَ ذراعاي حيناً ولم تهصرا

فقد ضمّك القلبُ منذ اللقاء فطوّق حسنك واستأسرا

سأسعى لأضفي عليكِ الخلود بشعرٍ من الروح قد فجّرا

فتمسين أغرودة العاشقات وترنيمة الركبِ عند السُّرى

١٩٤٤/٣/١٩

أتـــدري وقـــد أومـــأت للصـــباحْ أزاهـــيرُ قطـــنٍ بتلـــك البطـــاحْ
سكارى من الطلِّ صـــفرُ الثيـــاب هفا كـــلُّ طـــيرٍ لهـــا بالجنـــاحْ!
بـــأن الليـــالي ســـتختارهنَّ ليُصـــبحنَ منـــديل خـــودٍ رادحْ!
يتيه – وحـــقَّ لـــه – بالشـــحوب علـــى حمـــرةٍ في شـــفاه الملاحْ!
تبـــدّى وفي عطـــره عطرهـــا ومن ســـرها فيـــه مـــا لا يُبـــاحْ
أمن حبِّها جـــاء هـــذا الشـــحوبُ وطولُ اصطحاب الأسى والنـــواح
أيشـــقى الـــذي ضـــمَّه صـــدرُها ورواه مـــن ثغرهـــا كـــأسُ راحْ؟
كـــأني بـــه هالـــةُ البَـــدْر في ليالي الوصال العـــذاب الوضـــاحْ
كـــأني بـــه قبلـــةٌ جمّـــعتْ علـــى ثغرهـــا أو ثغـــور الاقـــاحْ
ففيـــه شـــذى القبـــلِ الناعمـــات وريُّ الأزاهـــير عنـــد الصـــباحْ
خريـــفٌ ولكنـــه كـــالربيع يضـــوعُ بعطـــرِ الصّـــبا والمِـــراحْ
فما مُذهب مـــن شـــعور الحســـان تراخى علـــى كتـــفٍ واســـتراحْ
بعشـــبهِ منديلـــها فتنـــةً وســـحراً إذا جاذبتـــه الريـــاحْ
أمنـــديلَها مـــن تحـــبُّ الفتـــاةُ؟ ألا! إن شـــأنَ الهـــوى أن يُبـــاحْ
لعلّي – ويا ليـــتني – مـــن تحِـــبُّ فأشفى بـــذاك الضـــنى والجـــراحْ
أمنديلَها لـــو مســـحتَ الـــدموعَ لمـــا بـــتَّ في لوعـــةٍ والتيـــاحْ!..

١٩٤٤/٣/٢٤

وحي وردة نثرتها حسناء"

أعــولي يــا قيــاثرَ الشــعراء في سكون الدجى وصمت المســاءِ

وردةٌ أغمــض المســاءُ عليهــا طرفــه وهــي في ثيــاب الــرواء

واســتفاق الصــباح يبحــث في الوديــان عنــها وفي خــدور النســاء

فرآهــا بكــفّ عــذراء أزهــى مــن جنــاح الفراشــة البيضــاء

وهــي آنــاً تنيلــها ثغرهــا الغــضّ وآنــاً تضــمها بازدهــاء

غــير أنّ الــتي تحطــمُ قلبــاً تنثــر الزهــر مثلــه في الفضــاءِ.

لَريــاحُ الخريــف أرفــقُ بــالورد وبالقلــب مــن يــد الحســناءِ

نثرتهــا أمــام عــينيَّ لا تســمعُ مــني تــذلّلي ونــدائي!

رحمةً منــكِ فهــي رمــزٌ لحبّــي أنا أشقى فــلا تزيــدي شــقائي

أنــتِ لــو تعلمــين كــم سَــهرَ الــروض عليهــا وهبتِهــا للبقــاء

ربَّ طــيرٍ أظلّهــا بجناحيــه وغــنى لهــا أرقّ الغنــاء

رب نهــرٍ مصــفقٍ أرســل الشــوق لهــا ذائبــاً مــع الأنــداء

رب راعٍ هفــا لرؤيتــها شــوقاً وغنّــى علــى تراجيــع نــاء

غــير أنّ الرُّعــاة والطــير والأنهــار تفــدى لعينــك الحــوراء

أنــت خلّــدْتها ولــولاك مــا غنّــى بهــا منشــدٌ مــن الشــعراء

أنـــتِ خلّــدْتَما ولــولاك ســـارت – مثلمـــا ســـار غيرهـــا – للفنـــاءِ

فانثري الزّهر كــل يــوم لــيحيى   في فـــؤادي ويرتـــوي بـــدمائي

أنثريـــه لتلـــهمي قلـــبيَ الغـــضَّ   فيشـــدو لحـــون أهـــل الســـماء

١٩٤٤/٤/٢

السجيــــن*

سجين... ولكنَّ سجني الكتــابْ! وأغــــلاليَ الآســـرات الســـطورْ
فما بين جنبيـــه ضــاع الشــباب وفوق الصحائفِ مات الســـرور!
لقد طال بالقلب عهـــد العـــذاب! وهـــا أنـــه بعـــد صـــبر يثـــورا!
ســـأطويهِ لا رجعـــةٌ لا إيـــاب وأمضي طليقاً كتلـــك الطيـــور!

* * *

ســـطورُ كتـــابي أوتـــار عـــودِ عليهـــا يُوقّـــع لحـــن الرثـــاء!
وأسرابُ غُربٍ[1] من الطـــير ســـود نواعـــبُ تنـــذرني بالشـــقاء
أفي ظلمة الكتب أفـــني وجـــودي وأحيـــا بليـــلٍ وحـــولي الضـــياء!
فيـــا نفـــسُ لا تُـــذعني للقيـــود وثـــوري ولا تصـــبري للقضـــاء!

* * *

عيـــوني بآفاقـــه ســـاهرات وحـــولي يبيـــتُ ردى رقّـــدا
بأرجائـــه ألتقـــي بالممـــات كـــأني علـــى موعـــدٍ والـــرَّدى
ومـــا بَـــينَ ألفاظـــه القاتمـــات أشـــعَّةُ عـــينيَّ ضـــاعت ســـدى
وما بين أوراقـــه الصـــامتات! تلاشى غنـــائي ومـــات الصّـــدى

١٩٤٤/٤/٢٥

---

* وهي آخر ما في المجموعة الأولى التي بين يديّ.

[1] غربان جمع غراب.

"إلى ديواني العائد من تجواله بين العذارى... إلى ذلك الزورق المتنقل بين موج النهود أرفع زفرتي..."

ديوان شعري يعود من سفرةْ! ما ضرَّني لو يظلُّ في وطرِهْ
وكان في جنة فأخرجه منها تجنّي الزمان في قدره
بين العذارى يبيت منتقلاً يا ليتني سائرٌ على أثرِه؟
ويسهر الليل في مخادعها إني له حاسدٌ على سهره
ينام فوق النهود مُدَّكرا فترجحنُّ النهود من ذكَره
ويوشك القطن في صحائفه أن يُطلعَ المستحبَّ من زهره!
ديوان شعري يعود من سفره! ما ضرّني لو يظلُّ في وَطَره!

* * *

زورقُ حبٍّ شراعه الغَزَلُ! ما بين موج النهود ينتقلُ
قد ضلَّ ملاّحُه السبيل فما أرسى على صدرها هي الأمل
لولا هواها لما تحرَّك بالشعر يراعي فجاء يشتعل
عاد إلى صدري الكئيب وقد ألقى المراسي فليس يرتحل!
عاد وقد مُزّق الشراع كما مَزّق لذات عمري الملل
كالقلب إذ عاد من صواحِبه هدّه النائبات والعلَلُ

رورقُ حـــب شـــراعُه الغَـــزَلُ ما بــين مــوج النــهود ينتقــلُ!

* * *

أنلـــتَ مـــن عطفهـــنَّ يـــا ورقُ مـــا لم ينلْـــهُ المسَـــهّد الأرقُ

فكنـــتَ منـــديل كـــل باكيـــة منـــهنَّ ينتـــاب روحهـــا القلـــق

ســـدّدن أنظـــارهن نحـــوك يـــا ديوان شـــعري ولســـت تحتـــرق

أمـــا تـــراني أكـــاد إن نظـــرتْ لي ذات حســـنٍ تُـــذيبني الحُـــرَق

لكنّ شعري الـــذي ســـكبت بـــه قلـــبي علـــى جانبيـــكَ يـــأتلق

ولا تلظّـــى بنـــاره أفهـــل... تهـــيج فيـــك الصـــبابة الحُـــدقُ

قد نلت مـــن عطفهـــن يـــا ورق: مـــا لم ينلْـــه المســـهَّد الأرِق..

* * *

إن عادَ نفســـي شـــجىً فزعزعهـــا أصـــبحتَ مرتادهـــا ومفزَعهـــا

تـــذيبُ أنفاســـها بأدمعهـــا: شـــعراً وتلقـــي عليـــك أدمعَهـــا

فحدّث النفس... ما رأيـــت ومـــا أسمعتَ ممـــن طرقـــت مخـــدعها!!

عـــن العـــار، وكـــل عاشـــقة ناحتْ فأنـــت قصـــائدي معهـــا

خبّـــأنَ في جانبيـــك لي قُـــبَلاً هـــلاّ أريـــتَ الفـــؤاد موضـــعها

حسْـــبُ الحييّـــات مـــن عـــرائس شـــعريَ أن ظـــلّ الحســـان قَنّعهـــا

إن عاد نفســـي شـــجى فزعزعهـــا أصـــبحتَ مُرتادَهـــا ومفزَعهـــا

١٩٤٤/٤/١٢

مقطع بلا عنوان*

وأي خيرٍ في الهوى كلّه   إن كنتما بالحبّ لا تعلمان؟
يا زهرتي قد متُّ يا زهرتي   آهٍ على مَن يعشقِ الأقحوان
لولا التي أعطيت سحر اسمها   ما بتُّ استوحيكِ سحر البيان

١٩٤٤/٤/١٨

---

* وجدت هذه الأبيات في الدفتر دون عنوان، ولدى البحث وجدت بعض أبيات من القصيدة في كتاب إحسان عباس: بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره، ص ٥٥-٥٦. وهذه هي الأبيات المنشورة في الكتاب المذكور:

جاء الدجى يا زهرة الأقحوان   فانسلُّ نحو الموعد العاشقان
ماذا ينال القلب يا ويحه   إذ يعطف الروض ولا تعطفان
وأي جدوى في أغاني الهوى   إذ تسمع الدنيا ولا تسمعان

ويذكر إحسان عباس ان القصيدة غير مؤرخة، بينما هي مؤرخة في النص المتوافر لديَّ.

"إلـــى الراعيـــة"

لقـــد حـــدثوني بمـــوت القطيـــع فشدَّت على القلـــب كـــفُّ الألَمْ
رأيتُـــكِ تـــبكين بـــين الثـــرى وتستصـــرخين رعـــاة الغـــنَم
وحولكِ[1] ســـربٌ مـــن الراعيـــات يخفّفـــن عنـــكِ الضَّـــنى والســـأم
أما أرّقـــت عـــينَ هـــذا التـــراب: دمـــوعٌ لهـــا فوقَـــه منســـجَمْ
مـــن الأعـــين الحـــور ينبوعهـــا: فهل تصبحُ اليـــوم تحـــت القـــدمِ
لقد زوّقتْ تحتَ أيـــدي الأصـــيل! ســـفوحُ الـــروابي بظـــلّ القمـــم
وقد حوَّم النـــومُ حـــول الغـــدير: فمـــا بـــالُ أزهـــارِه لم تـــنم؟
وأمواجـــه أخلـــدت للســـكون: فمـــاتَ علـــى ضـــفَّتيه الـــنغم
وكانـــت تغنّـــي بحجـــر النســـيمِ إذا لفَّهـــا موهنـــاً واســـتجم
أحزناً على مـــا أصـــابَ القطيـــع؟ رفيـــقَ هواهـــا، عراهـــا السَّـــقمْ
ومالـــكِ لا تملأيـــن المـــروج ابتســـاماً فـــإن الربيـــع ابتســـم
وفوقَ الثرى ذاب قوسُ الســـحاب فبـــادتْ علـــى جانبيـــه الظُّلـــم!
رياضٌ كمـــا يشـــتهي العاشـــقون وما صـــوَّر الفـــنُّ منـــذ القـــدَم.
ونَـــوَّرَ ســـها في شـــفاه الزهـــور ونمـــر عليـــه الـــذهول ارتســـم

[1] في الأصل: وحوليك سرب! والمسموع هو: حولكِ وحواليك.

أحزناً على مــا أصــابَ القطيــعَ   أليــفَ الــروابي؛ اعتــراك الألم

سأبكي وقد كنــتِ تستضــحكين   إذا الدمع مــن نــاظريَّ انســجم

١٩٤٤

حورية النهر

نفـــوس معذبـــة هائمـــه تخـــبّط في الظلمـــة القاتمـــة
أجـــدَّ لهـــا الليـــل أحزانهـــا وتـــذكار أيامهـــا الباسمـــه
فســـارت تفـــتش عـــن حبـــها وتنشـــد لـــذّاتها الدائمـــه
وأسرى بها تحـــت جـــنح الظـــلام زوارق في اللجـــة الغائمـــة.

* * *

إذا مـــا تلـــوّتْ علـــى الشـــاطئين مـــن النـــهر أمواجُـــهُ اللاطِمـــه
وأرســـى علـــى مائـــه زورقٌ تؤرجحـــه النســـمة الحالمـــه
أطلّـــت علـــى النـــهر حوريّـــةٌ فأغوتْـــه بـــالنظرة الســـاهمة!
فـــأغوارُهُ وهـــي أوطانهـــا بـــواكٍ علـــى فقـــدها نادمـــه!
وأمواجُـــه وهـــي أترابُهـــا جثتْ تحـــت أقـــدامها لاثمـــه...
أحوريّـــة النـــهر غُضـــي العيـــون وكـــوني بملاّحـــه راحمـــه.!
تســـيرين في زورق مـــن ظـــلالٍ فتدفعـــه النســـمةُ الناعمـــه
ومجـــذافُك اخترتِـــه مـــن ضـــياء النجـــوم علـــى اللجـــة القاتمـــه

* * *

وأطربـــتِ النّهـــر والضـــفتين أغـــانٍ وقيثـــارة ناغمـــه
لقد حـــقَّ أن تســـحَر الكائنـــات وتســـتل آهاتهـــا الجاثمـــه
فأوتارهـــا شـــعرُك العســـجديُّ وأنـــتِ الموقّعـــة الباسمـــه

رأى النـــهرُ مصـــرع ملاّحِـــه   بعينيـــك أيتـــها الظالمـــه...

* * *

رآكِ فهيـــــأ مجذافَـــــهُ   وأســـلَمَ زورَقـــه للظُّـــلام
يـــثيرُ إذا ســارَ عـــزم الميـــا   ه فتطلـــقُ عـــن جانبيـــه السِّـهام
طغى الموج وارتدَّ يطـوي الظـلال   فلـــم يُبـــق للعـــين إلا القتـــامْ!
فيا زورقـــاً مـــن ظـــلال تلاشـــى   بحوريّـــة لـــيس ترعـــى الـــذمام!
أخلفـــتَ ملاحَنـــا وحـــده   وللموج في الشـاطئين احتـدام؟
وحوريـــة النـــهر مـــا خلّفـــت   ســـوى أغنيـــات تـــثير الغـــرام
يجـــاري اختلاجاتهـــا زورقٌ   ومـــوجٌ وقلـــبٌ حـــواه الهُيـــام
ونهـــرٌ تمـــازج أمواهـــهُ   ويحملـــها رغـــوه إذ تنـــام
ونجـــمٌ يعشـــي الـــدجى ضـــوءه   كنبعٍ على ثغـــره العشـــب نـــامْ
ويقتـــاف آثارهـــا زورق   وملاّحـــه الشـــارد المســـتهام
يطالعـــه طيـــف حوريّـــة   من المـــوج يختـــال في الابتســـام
فمِن كلِّ صـــوب ســـرى خالَهـــا   هناك وإن ســار ألفـــى الظـــلام
أوَهْمـــاً يـــرى؟ لا. فـــذا صـــوتها   ينتـــهي فتعيـــد الميـــاه الكـــلام
ولاحـــت لـــه أعـــين مشـــفقاتٌ   محدّقـــة مـــن وراء الغمـــام
تنـــادي بـــه: ضـــللتك الخطـــوب   وقادتك نحـــو الـــردى والحمـــام
ولكـــن أذنيـــه لم تســـمعا   حديث السموات حيث الســـلام!

* * *

جـــرى وهـــو لـــيس لـــه غايـــةٌ   سوى أن يجذِّف حـــتى الصـــباح
ويقفو على المـــاء ضـــوء النجـــوم   ويصـــرع أشـــجانه بـــالنواح
لقـــد حطـــم الليـــل مجذافـــه   وهيض الشراع بعصـــف الريـــاح

وقــد أطفــأ المــوج مصــباحه ... فصــاح و لم يُجــد ذاك الصــياح
تبرّمــتَ يــا ليــل بالبائســين ... فزُلْ واترك الصبح يأســو الجــراح
ونادى وقــد مــدّ كلتــا يديــه: ... لقد حان يا أرض عنــك الــرواح
فيا شاطئاً كــان مــأوى الغريــب ... إذا ملّ طــول السُــرى فاســتراح
وداعــاً... وداع الشــقيّ الحــزين ... يسير إلى المــوت بعــد الكفــاح
ويا زمّــج المــاء خــدن الســفين ... سمير الشراع الطــروب الصــداح
كلانــا يحــنُّ إلى تربــه ... فطِــرْ لي فــإني مهــيض الجنــاح
ويــا أنجــم الليــل يــا عــوّدي ... إذا القلب في الليل بالــداء طــاح!
إذا مــا خبــا نــوركنّ الوضــيء ... أســيَ وتــألّق نجــم الصــباح!
فحدّثنــه عــن فــتىً في الــدجى ... طــواه العُبــاب وحــبُّ المِــلاح
رأى – ويــح عينيــه – حوريّــة ... فجــنَّ بهــا ســاعة ثمّ راح
فقد يُخــبر الــنجم عنــه الرعــاة ... فيبكون حزنــاً وتبكــي البطــاح
ومات الشــقيُّ الحــزين فعــادت ... تكفّنــه بالشــراع الريــاح!

حُلُــــمٌ بآفـــــاق السُّـــــرور ‏ رسمَتْـــــه أجنحــــــةُ الطيُّــــورِ
وبشـــــائرٌ فـــــوقَ الـــــرُّبى ‏ بـــــينَ الخمائـــــلِ، في الصُّـــدور
ونســـــائمٌ رقصـــــتْ علــــى ‏ زهـــــر الجنـــــائن والغـــدير
وفراشـــــةٌ قـــــد روّحـــــتْ ‏ عـــن زهـــرة الحقـــل النضـــير
تعلـــــو وتهـــــبطُ في الريـــــاض ‏ كأنهـــــا نغَـــــمُ الحبـــــور
الفجـــــر يـــــبني للنــــدى ‏ وَكَنـــــاً جمـــيلاً في الزهـــور
فلـــــنبنِ مـــــن قبلاتِنـــــا ‏ للحُـــــبِّ عشـــــاً في الثغـــور

يبعث الهمَّ لي شحوبُ المساءِ ... ويثيرُ الدفينَ من بُرَحائي..
أخلدت روحي السؤوم إلى الوحدة ... والقلبُ للأسى والعناء
فطلبتُ القفارَ أنسى بها الناس ... وأخلو بأدمعي وشقائي
مجلسي في هدوئها قربَ نهرٍ ... عند أقدامِ دوحةٍ لفّاءِ
فرياح الخريفِ تنسلُّ منها ... ورقاتُ الخمائل الفرعاء...
ونعيبُ الغربان يصعد في القفر ... كئيباً مشوّش الأصداء
وسجوفُ الغمام في رحبات الأفق ... مخضلةً بدمْع ذكاء
وأنين المياه يدفعُ بالذكرى ... لقلبي ويستثير دمائي..
سمعته الضِّفافُ فارتجف العشبُ ... ارتجاف الأهداب عند البكاء
وتنهدتُ زافراً فأجابتْ ... زفراتي تنهداتُ الرعاء
فالربابات رنحتها الأغاني ... ولهاثُ المزمار ملءُ الفضاء
وكأن القطيعَ في خضرة المرج ... غمامٌ في الليلة القمراء..
وقلوبُ الزهور طافت بها الذكرى ... فعادت تفيض بالأنداء
مَن لقلبي الكئيب أيتها الصحراء ... إلا الرمال في الصحراء؟
آه لو تكتمين سري لحدثتكِ ... عن جنةٍ تركتُ ورائي..
عن هوايَ القديم في الريف ... والأحلام والأنس والمنى والرجاء
فالصِّبا ضاحكٌ وراعيتي الحسناءُ ... في المرج بانتظار اللقاء..

كـــم لجأنـــا إلى الشـــواطئ   نستروح في لذة عطـور السـماء

ينشر الظلّ فوقنـا سـعفُ النخـل   ويُلقي الهـدوء صـمت المسـاء

أقبـل المـوجُ - إذ رآنـا - إلى   الساحل يرنو لوجههـا الوضـاء

كم خلونـا إلى الحقـول ضـحى   ننصت فيها! إلى همـاس الضـياء

والنهيراتُ مائلاتٌ تـرى السـهل   وجيبـاً يشـقُّ صـدر الفضـاء

* * *

لم يعد لي من الهوى غـير ذكـرى   هي في مسـمعي نشـيدُ الرثـاء!

ذكريات الهـوى، لأنـت شـعاعٌ   راقصٌ فوق موجـةٍ مـن دمـائي

والعَصْـــرِ مخضــوبَ البنـــانِ وأزاهـــر الحقـــل الحســـان

والصّـــبح يمـــلأ بالنـــدى عطـــراً ســـلال الأقحـــوان

والبـــدر وهـــو مظلّـــةٌ لليـــل تمتلـــكُ افتتـــاني

إن الفـــؤاد لفـــي ضـــلالٍ مـــن هـــواه وفي هـــوان

مـــا داخَـــلَ الحـــبُّ الفـــؤا دَ فعـــاد بيتـــاً للأمـــاني..

أو بـــات في روضٍ وأصـــبح باسمـــاً نضـــر المجـــاني

هـــبط النعـــيم وســـاكنيه فـــردّه خلـــو المغـــاني

ســـل عنـــه أزهـــار الحقـــول علـــى جـــداولها حـــواني

ســـل زهـــرة التفـــاح ضـــاحكة الأســـرَّةِ والمعـــاني..

يـــا زهـــرة التفـــاح هـــلاّ تُخـــبرين عـــن الجنـــان!

يـــوم اســـتفزَّ هـــا الهـــوى قلـــبين باتـــا يخفقـــان

أروي لنـــا نبـــأ (الطريـــد) فأنـــت راويـــةُ الزمـــان

أغوتـــه (حـــوّاءٌ) فمـــدَّ يديـــه نحـــو الأفعـــوان

ثمـــرٌ يحرِّمـــه الإلـــه عليهمـــا... ويحلّـــلان

ذاقـــا فكانـــا ظـــالمَينِ فكيـــف يجـــزى الظالمـــان؟

وبـــدا المـــوارى منـــهما فـــإذا هنالـــك ســـوءتان

وعليهمـــا طفقـــا مـــن الـــورق المهـــدَّل يخصـــفان...

يـــا بـــؤس مـــن فضـــحَ الإلـــه و لم يـــزده ســـوى الهـــوان

لم يعـــرف الـــدوحُ الخريـــفَ ونـــزعَ أوراقٍ حســـان...

حـــتى نضـــى ورقاتـــه ألعاشـــقان الآثمـــان

* * *

وردت قصيدة أغنية السلوان في هذا الديون مرتين، ذلك أننا عثرنا على القصيدة في دفترين من دفاتر السياب.

أزهار ذابلة
وقصائد مجهولة
(١٩٤٧)

أزهـــار ذابلـــة

...الديـــوان الأول للشاعر

في طبعة جديدة...

"طبع هذا الديوان في مطبعة الكرنك بالفجالة في القاهرة عـــام ١٩٤٧ و لم يطبع نهائياً بعد ذلك، كما أن قصائده لم تضم إلى الأعمال الشعرية الكاملة التي صدرت للشاعر

اسم لباب*

السموات، بالسواد المذاب: ضائعاتُ المدى، فيا لاكتئابي

لم تطرْ خلفَ كل نجمٍ شرود نظراتي، وإثر كلِّ شهاب..

وتطفْ في السماء، إلا لكي ترسمَ بين الكواكب اسمَ "لباب"

وصلتْ بين كل نجم ونجمٍ بشعاع من الهوى والشباب..

فَهْيَ في روضة من اسم التي تهوى، وفي مدرج وضيء الشعاب

كيف أنساك يا لباب وأسلوك وضوء النجوم ليس بخاب

كلما ارتادهنَّ طرفي، تذكرتكِ فاستتبع ادكاري عذابي

وتجرعتُ من سناهن كأساً تنكأ الجرحَ في الفؤاد المصابِ

أين نهر النسيان يا أنجم التذكار يا من يهجن من أوصابي

يبدل القلب ماؤه العذب وردا وشرابا، بمورد وشرابِ

* * *

ملأتْ سمعي باسمكِ العذب يا عذراء شعري، تنهداتُ الرباب...

فاسمك العذبُ كل ما تسمع الروح من الطير هائماً في الروابي

في سُرى كلِّ نسمةٍ أو شعاعٍ في لُغى كل جدول منساب

في حفيف النخيل من كلِّ روضٍ في اختلاج الشراع فوق العباب

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في أبو الخصيب بتاريخ ٦ يونيو – حزيران ١٩٤٤.

واسألي السامرين كـم بـتُّ والليـلُ وضـوء السـماء، غـض الأهـاب

لا يعي مسـمعايَ غـيرَ حـروفٍ جمعاهـا فكانـت اسـم لبـاب

أنـا أهـواك لسـتُ أرجـو علـى الحـب ثوابـاً، فـإن حـبي ثـوابي

المحبوبة المدنسة*

أتحبُّ خائنةً وأنتَ الشاعرُ؟ ... وتود هاويةً وأنتَ الطَائرُ؟

أحببتها وجهلت كلَّ مغيَّب ... من فعلها، وكذا الغرام العاثرُ

مما يغص القلب في خفقاته، ... ويرد طرفي وَهْوَ باكٍ حائرُ..

أن التي خفق الفؤاد بحبها ... عامين، دنسها خليعٌ فاجرُ

أأحبها أسفا وتحتَ ثيابها، ... من أمسها الدنسِ الوضيع، مقابرُ؟

ونواظر كانتْ نواظرَ للخنا ... والعارِ، صيغَ لها القصيدُ الطاهرُ

كانت تغضّ من اللذاذة بل كفى ... كم يستطير بك الخيالُ العاهرُ؟

يا من حرمتَ على الهوى تقبيلها ... حين ارتضيتَ بما يصيبُ الناظرُ

فيم الهوى العذريُّ؟ ويحك إنما ... كانت وجالب عارها تتآمرُ..

ورفعتُ للحمأ الدنيء عبادةً ... علويةً وأنا الذليلُ الصاغرُ

صاغ الخيالُ من الترابِ كواكبا ... فأفادها ألقاً، سناه الباهرُ

لولا اتباعي للخيالِ وجدتني ... وأنا – على ما شئتُ منها – قادرُ..

أواه "بَيْرُن"[1] أنتَ من عَرَفَ الهوى ... روحي فداؤك والهوى يا شاعرُ

الحب تقضيه المآربُ والمنى ... ما أمكنتك من الحبيب مقادرُ

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في ابو الخصيب بتاريخ ١٩٤٤/٧/٢٠. وقد نشرت في ص ٣٦ من الطبعة الأولى لديوان "أزهار ذابلة"، وكتب الشاعر هامشا يقول: "المعينة هنا، لم يرد ذكرها في غير هذا الموضع، من هذا الديوان".

[1] لورد بايرن – الشاعر الإنكليزي الشهير، ما اتصل بحسناء إلا قضى وطره منها، ونبذها بعيدا عن أجواء هواه – الهامش للشاعر.

لا أن تُحَــرِّقَ لوعــةً وصــبابة   وتذيبَ قلبك وهو غــضٌّ زاهــرُ..

شغفاً بغادرةٍ ســواكَ ينــالُ مــن   ثمراتها مــا بِــتَّ عنــه تــزاور..

كم تخــدع الشــعراء روحانيــةٌ   ألوهمُ حــاكَ حجابهــا والخــاطرُ

ما في رحاب الأرض من حوريــةٍ   أو في مــداها الطلــق روحٌ طــاهرُ

يـا هـواي البكـــر*

يا هواي البكــر، دنيــا ذكريــاتي
كلّهــــا، غابــــت وراء البســـماتِ

يا هــواي البكــر، قــد أنســيتَني
ما تـــولى مـــن غـــرام الناســـيات

يـــا ربيـــعَ العمـــرِ، يـــا إشـــراقةً
في شـــبابي، يـــا حيـــاةً في حيـــاتي

يا دماً غذّى دمـــي، يـــا فرحـــةً
مزقتْ ثوبَ البلـــى عـــن فرحـــاتي

أنـــتَ جَمّعْـــتَ المـــنى في ســـاعة
أفتـــديها بالســـنين الماضـــياتِ

كنتُ قبـــل اليـــوم ظـــلاً ضـــائعاً
خافيَ التطوافِ، محجوبَ السـماتِ

باسطاً من هـــوةِ الماضـــي يـــدي
صارخاً، والبعدُ يـــوهي صـــرخاتي

كنت.. ماذا كنت؟ قـــبراً جائعـــاً
زادُه شـــعري ودامـــي أغنيـــاتي

كنت.. ماذا كنت؟ نـــاراً عيشـــها
ميتـــة، يغتـــالُ نـــوري جـــذواتي!

يا غرامي، يا سنى فـــضَّ الـــدجى
يا خريراً طافَ في صـــمتِ الفـــلاةِ

أنـــت جمعـــتَ المـــنى في ســـاعة
أفتـــديها بالســـنين الماضـــياتِ

هـــذه عـــذراءُ شـــعري، هـــذه
أختُ روحي هـــذه كـــلُ حيـــاتي

كيف أضحتْ وهي قربي؟ من طوى
شـــقةً أعـــيى مـــداها خطـــواتي؟

الروابي، والصـــحارى، والضـــحى
والنخيلُ الشـــمُّ، والغيـــدُ اللـــواتي

والعيونُ الحـــورُ.. غابـــتْ كلـــها
عـــن عيـــونٍ بالأمـــاني مترعـــاتِ

لا تـــرى عينـــاي، ممـــا حفـــني
غـــيرَ أضـــواءِ ابتســـامٍ والتفـــاتِ

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ ١١/١٢/١٩٤٥.

أيّ صوتٍ نث سحراً في دمي — شاعريّ اللحن، غضّ النبرات!

"هات لي شعراً" فؤادي كلُّه — صار أنغاماً عذاباً ساحرات

كلُّ جرحٍ في فؤادي شاعرٌ، — صادحُ القيثارِ، مسحور اللهاة

الأغاريدُ التي رتلتُهَا — والخيالاتُ التي في أغنياتي

والسهولُ الفيحُ، والريحُ الذي — هزَّ روحي، والحسانُ الملهمات

تفتدي غمازَتيْنِ[1] انداحتَا — فوق خدين استثارا حسراتي

زينتْ غمازتاك الملتقى — لابتسامات الهوى بعد الشتات

شعَّ. فوق الثغرِ منها كوكبٌ — مرجحنُّ اللمحِ، محمرُّ الشيات

وانتحى عينيكِ من تيارها — مستفيض السيلِ، جمّ الدفقات

حين ضاقَ الثغرُ عن إشراقة — صبَّها فوق العيون الساحرات

أترعَ العينين حتى فاضتا — بابتسامِ الحبِّ فوق الوجنات

يا يداً مرَّت كما رفَّ الندى — فوق أزهارِ المصيفِ الظامئات

قَلَّبتْ ديوانَ شعري، صفحةً — بعد أخرى، وهْوَ دنيا ذكرياتي

أيُّ جرحٍ ساكنٍ حركتِه — أيُّ قيثارٍ، نؤوم النغمات؟!

يا شفاها رفَّ شعري بينها — راقصاً في موكبٍ من همسات

أنتِ جمعتِ المنى في ساعة — أفتديها بالسنين الماضيات

ذاك يومٌ غابَ عمري بعده — في دياجير البعاد العابسات

عدتُ.. ماذا عدتُ؟ قبراً جائعاً — زَادُهُ شعري ودامي أغنياتي

عدتُ.. ماذا عدتُ؟ ناراً عيشها — ميتة، يغتالُ نوري جذواتي

---

[1] الغمازة: نقرة في الخد من دلائل الجمال، (رصعة) – الهامش للشاعر.

كلما غابَ الهوى عــن خــاطري عاد محفوفَ السُــرى بالــذكريات

راقصات الخطو، في مصــباحها شــعلةٌ يوقِــدُها مــن خــاطراتي

شعلةٌ طافــتْ بثغــري فــاختفى ضووها تحتَ الــدموعِ الســاكباتِ

لــــو أراهـــــا*

لــــــو أراهـــــــا، فارقـــــتْ قلـــــبي إليهـــــا أغنيـــــاتي

وارتمـــــتْ مـــــا بـــــينَ نهـــــديها نشـــــاوَى راقصـــــات

لــــــو أراهـــــــا.. آه لـــــو أدركـــــتُ يومـــــاً أمنيـــــاتي..

ماتـــــت الشـــــكوى علـــــى ثغـــــرٍ تمـــــادَى في الشـــــكاةِ!

* * *

لــــــو أراهـــــــا.. كيـــــف إقبـــــالي عليهـــــا لـــــو أراهـــــا؟

هـــــل تـــــراني أســـــتطيع الســـــير.. إن حثـــــت خطاهـــــا؟

أم ســـــيطغَى ذلـــــك الوجـــــدُ الـــــذي غشَّـــــى حيـــــاتي

كـــــي يحيـــــل الخطـــــو - يـــــوم الملتقـــــى - آهـــــاً فآهـــــا؟

* * *

أيُّ غـــــابٍ ســـــاهمِ الأفيـــــاء بســـــام النخيـــــل

نـــــائمٍ في الضـــــفةِ الســـــكرَى علـــــى حلـــــمٍ جميـــــل

يجمـــــع القلـــــبين يـــــوم الملتقـــــى بعـــــد الشـــــتات

في ضـــــحىً زانتـــــه ربَّـــــاتُ الهـــــوى أو في أصـــــيل؟

* * *

أيُّ دربٍ عطـــــرَتْ أنفاسَـــــه ريـــــح الشـــــتاء؟

عـــــجَّ بـــــالنجوى.. بآهـــــات العـــــذارى.. بالغنـــــاءِ

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ ١٩٤٥/١٢/٢٨.

بابتســـــامات الأحبـــــاء، بشـــوق العاشـــقات

ألتقيهـــا فيـــه مـــن بعـــد التجـــافي والتنـــائي

* * *

أيُّ مغـــنى شـــاعَ في أنســـامه عطـــرُ العـــذارى؟

أيّ روضٍ شـــاحبِ الســـاحات ســـاجٍ كالصـــحارى؟

أيّ ليـــلٍ واجـــمِ الأفـــلاك، مســـودٌ الشـــيات

تُســـعدُ اللقيـــا بـــه قلبـــاً جموحـــاً مســـتطارا

* * *

لـــو أراهـــا.. ليتـــها يومـــاً تمنَّـــتْ لـــو تـــراني..

ليتـــها تشـــتاقُ بعـــضَ الشـــوقِ.. يـــا ويـــح الأمـــاني!

أيُّ جـــدوى في أمانيـــكَ العـــذابِ الباسمـــات؟

كلمـــا أشـــرقنَ غـــاضَ النـــورُ عـــني واجتـــواني

* * *

نبئـــيني يـــا سمـــاءَ الغيـــب أنبـــاءً عـــذابا

أســـد لي – مـــن بعـــدها – مـــن دون عـــينيّ الحجابـــا:

أيّ يـــوم تجتلـــي مـــن ليلِـــكِ الـــداجي حيـــاتي؟

علّـــني أدري: أمـــا أفنيـــت بـــالغمِّ الشـــبابا؟

* * *

حســـبُ روحـــي "صـــورة" إن هـــزني شـــوقٌ أراهـــا

نَضَّـــرتْها زهـــرةٌ قـــد نضّـــرتْها وجنتاهـــا..

وابتســـاماتُ وألحـــاظٌ تُســـاقي ذكريـــاتي

حمـــرةٌ يُفْـــدَى بآمـــالِ التلاقـــي ســـاقياها!!

السائلة السوداء*

ليتَ الخليَّ ومنه شكواك أصماه خطبُك حين أصماك

سوداءُ ويحك أيُّ فاجعةٍ سوداءَ تكمنُ تحت مرآك!

يا من تَهضَّمها، على كبرٍ، فقرٌ يكرُّ بقلب سفّاك

فلواتُ (أفريقيةٍ) انتفضتْ لما تَرَدَّدَ صوتُكِ الباكي

جُنَّتْ مغاورُها لمَا سمعتْ وهفتْ حمائلها للقياك

وبكلِّ منعطفٍ بكى أثرٌ قد أرضعتْه العيشَ رجلاك

فعلى الغديرِ غشاوةٌ عبثتْ بالموجِ فهو مفجَّعٌ شاك

وعلى الأزاهر هجعةٌ ودمٌ ساجٍ تَطَلَّعُ منه عيناك

والغاب هزَّ جناحَ طائره جرحٌ تمرّ عليه كفّاك

وجرتْ دموعك في دجى هرمٍ واهي السماء، بناه خدّاك

* * *

يا من تمدُّ يداً لمنْ عَبَرا وتظلُّ تتبعُ شخصه النظرا

يا من تعدّ خطىً تمرّ بها شتّى تزعزع صبر من صبرا

ما بينَ لاهيةٍ، مرنحةٍ من فرحةٍ، جلبتْ لها الكدرا

وبطيئةٍ كسلى، يُنقّلها واهي الفؤاد يعاتبُ القدرا

ما بينَ عاجلةٍ إذا اقتربتْ منها تسلّلَ ربُّها حذرا

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد عام ١٩٤٥ دون أن يحدد اليوم والشهر اللذين كتبت فيهما.

وشجية وقفتْ بجانبها لتنالَ من وقفاتها ثمرا
يا قصةً دميتْ ومرَّ بها قلبُ الغنيِّ ضحّى فما شعرا
حركت خافقَ شاعرٍ حنق فمضت يبث الشعر مستعرا
وأقامها حرباً مضرجةً تُصمي القساه وتفلقُ الحجرا
وتهزُّ بابَ القصرِ صارخةً هوجاءَ تقذف حولها الشررا

* * *

بالأمسِ كنت ضحيةَ الرقّ واليومَ أنت ضحيةُ العتقِ
الرقُّ زالَ فأنت مُطْلَقَةٌ في عالمٍ متهلّلِ الأفْقِ
السيدُ القاسي غدا حُلُماً والقيدُ لانَ لقبضة الحقِّ
وشقيت أنت، فأيّ فاجعة صَدَعتْ فؤادَكِ يا ابنةَ الشرق؟
يا من عريت وأنت خالعةٌ عن منكبيكِ مطارفَ الرقِّ
يا من ظمئت وأنتِ عائفةٌ كأسَ العبيدِ وذُلَّ ما تسقي
يا من سغبت وأنت تاركةٌ زادَ الأسير بغير ما شوق
الرقُّ فجَّر راحتيكِ دماً يغلي، وصاحَ تناولي رزقي
والعتقُ مهلكةٌ، معالمها سودٌ، تعجُّ بكماً ما يُشقي
غلاّنِ مضطرمان ما اختلفا يغريهما بك ألأمُ الخَلْقِ

* * *

يا من رأيتُ بحالها حالي ورثيتُها فرثيتُ آمالي
إنّا لمثلِكِ في مواطننا نشقَى وينعمُ كلُّ محتالِ
نحن العبيد تبيعُنا أممٌ غشمى، بمالٍ خابَ من مالِ
شرقٌ يبيع لمغرب جشع خالي الجوانح، فارغ البالِ
ومتوَّجان تمادَيا دررا غواصُهنَّ دفينُ أسمالِ

وَلّى شبابُكِ ما انتفعتِ به وذوى ربيعُ شبابنا الحالي

ما بينَ مغتصبٍ بجرّعُنَا كأسَ الهوان وقلبُه خالي

وأخي ثراءٍ لا تحركه حسراتُ زراعٍ وعمالِ

لولاهما لأمنتِ مسغبةً نخشى، وبتٌ بخير ما حالِ

لولاهما لخلا ثَرَى وطني من كادحينَ سدىً، وسؤّالِ

بعد اللقاء[*]

يا حُبُّ.. ما بالي سئمت الحياة؟ ... وما لأنفاسي أراها تضيق؟
ما للعيون الحور.. ما للشفاه ... ظلماءُ ما فيه سنىً أو بريق؟

* * *

ما للغرام العفِّ، ما للفجور.. ... لا يرضيان الشاعر المستهام؟
أين الهوى؟ مات الهوى والشعور ... والقلب؟ أين القلب؟ ذاك الحطام

* * *

يا شعر.. ما بالي سئمت الغناء ... والكون حولي منصت يسمعُ
غنيت حتى ضاق صدر الهواء ... فما لصوتٍ عنده مطمعُ

* * *

غنيت حتى مسَّ قلبَ الحبيب ... شدوي، وحتى ثار فيه الهوى
أغفى فلما هجتُ فيه الوجيب ... أمسى لغيري واحتملتُ النوى

* * *

يا عمر.. والعشرون تقفو خطاي ... كالليل سوداءَ الخطى والثياب
هل هُنَّ لي وحدي؟ أما من سواي ... ماشٍ، كأن الريح خلف السحاب؟

* * *

يا عمر.. مالي مطمع بالسنين ... حسبي ثلاث بعد ذاك العذاب

---

[*] كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ ١٩٤٦/١/٥.

في الريف أقضيهن حتى يحين ... يومي، فيؤويني إليه التراب
مأواي كوخ من جذوع النخيل ... في غابةٍ لفّاءَ بين التلال
أدعو إليه الصحب بعد الأصيل ... والليلِ، ما إن يعترينا ملال

* * *

يأتي عليَّ الصيفُ بعد الربيع ... والزهرُ بعد العاصف الزمهرير
والنكبةُ الهوجاءُ لا تستطيع ... إطفاء مصباحَ الشباب النضير

* * *

يا شعر.. أنت العمر.. أنت الحياه ... والحب، ليس الحب شيئاً سواك
فإنْ سمعت القلب يوماً دعاه ... فاعطف على قلب كئيب دعاك

* * *

يا قلب. بالأمس اشتهيتَ اللقاء ... واليوم كان الملتقى، كيف كان؟
واحسرتا، فيم الأسى والبكاء ... يا من بلغتَ الأمنيات الحسان؟

* * *

هاتان عيناها، يكاد الحنين ... يذكي سراجيه بتلك العيون
الدهر ينسى فيهما كل حين ... أعوامه الجذلى وبعض القرون

* * *

إن شاءتا أن تمنحاك الربيع ... فيناً ينَدى، في ليالي الشتاء
عاد الهزيع. الجون بعد الهزيع ... روضاً تحليه الزهور الوضاء

* * *

النظرة العجلى شهور طوال.. ... يحظى بها عمر المحب السعيد
والنظرة المكسال عند الوصال ... عام، يكر العام وهو الجديد
ما بال قلبي أثقلته الجراح؟ ... والأرض من تحتي أراها تميد؟

بَلْ ما لطـــرفي؟ أســبلته الريــاح؟ أم غاص في غور الفــؤاد البعيــد؟

* * *

هذي يدي تنســل نحــو النســيم من غير علمي، لا ملكــتُ اليــدا

وذاك ثغري عــاد طيفــا يهــيم.. بــين ابتســاماتِ طواهــا الــردى

* * *

هذا هواي البكر: عَبْــر الطريــق يــدنو.. فيــزداد اللظــى والغــرام

ما بال صدري باشتياقي يضــيق؟ ومــا لروحــي تلتظــي بــالأوام؟

* * *

يا ليــت أقــدامي تشــق الثــرى عن قــبريَ الــداجي فــلا أنظــرُ

واحسرتا.. مــا بالهــا لا تــرى؟ يا خيبــةَ اللقيــا.. أمــا تبصــرُ؟

* * *

أين التحايا؟ أيــن أيــن الســلام؟ يا ضيعةَ الآهات... أيــن اللقــاء؟

أواه... مــالي لا أطيــق الكــلام مالي... وأنفاســي تهــز الهــواء؟

* * *

يا نظرة الأنثــى عــلام الــبرود؟ فــيم ازدراء العاشــق الخــائرِ؟

يا ثغرها الألاقَ.. فــيم الصــدود يــا مــن رَوَى أغنيَّــةَ الشــاعرِ؟

* * *

يا للشفاه الصــامتات، العــذَاب يغفــو علــيهن الكــلامُ المريــر

كالكــأسِ دفاقــاً بمُــرِّ الشــراب مازته قبل الشــرب عــينُ الخــبير

* * *

بيني وبــين الحــب قفــرٌ بعيــد مــن نعمــةِ المــالِ وجــاه الأبِ

يا آهتي كُفِّي.. ومتْ يــا نشــيد شــتَّان بــين الطــينِ والكوكــبِ

في يوم عابس*

الــــريح تجـــأرُ بالشــــكاة إلى الجـــداول والنخيــــل
والسُـــحْبُ واهيـــة النقـــاب، تحـــفُّ بالصـــحو القتيـــل
تُلقي علـــى الغـــاب الكئيـــب، عبوســـةَ الضـــجر الملـــول
والشـــمس كالأمـــل البعيـــد يـــذوب في الشـــجن الهزيـــل
أو كـــالغرام يغيـــب خلـــفَ حـــوادث الـــدهر الثقيـــل
أو كالحيـــاة تغـــورُ بـــين دمـــوعٍ ذي ســـقم، عليـــل
كالبـــدر يكســـفه النـــهار، كنجمـــةٍ عنـــد الأفـــول

* * *

ضـــاقت بيَ الـــدنيا، وضـــقتُ بهـــا.. كـــأني في رحيـــل..
في وهـــدةٍ قفـــراءَ بُـــحَّ بجوهـــا صـــوتُ الـــدليل
لا شـــيء لي، ممـــا تنـــاثر تحـــت عـــيني، في ســـبيلي
لا عاصـــفاتُ الـــريح، لا جـــردُ الأبـــاطح والســـهول
لا ظلمـــةُ الليـــلِ البعيـــد الغـــورِ، لا ســـحرُ الأصـــيل
لا نغْمَـــة الحـــادي تطـــير بهـــا شـــجيات الهـــديل
حـــتى الســـراب زواه عـــن عـــينيَّ ريـــان الغليـــل
فظللـــت، لا أمـــلٌ يســـامرني علـــى الـــدرب الطويـــل

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في أبو الخصيب بتاريخ ١٩٤٦/١/٣١. وقد وردت – أولا – ضمن إحدى رسائل بدر إلى صديقه الشاعر خالد الشوف (راجع ص ٣٤ من رسائل السياب – جمع وتقديم ماجـد صالح).

فيضـــيء ســـاعاتي... ولا ذكـــرى مـــن الأمـــس الجميـــل

* * *

ربـــاه والعشـــرون مـــن عمـــري تســـير إلى الـــذبول

ســـوداً، مكفنـــة الأهلـــة بالتنهـــد والعويـــل

كانـــت تمـــر جريحـــة الأيـــام، رعنـــاء الخيـــول

ظلمـــاء مطفـــأة الســـراج، كأنهـــا بعـــض الطلـــول...

كانـــت تمـــرُّ علـــى الجـــراح الســـود في القلـــب العليـــل

فـــالجرح يهـــوي فـــوق جـــرحٍ والقتيـــلُ علـــى قتيـــل

والنـــار تصـــلى حَـــرَّ نـــارٍ غـــير مطفـــأة الغليـــل

مـــاذا جنيـــتُ مـــن الزمـــان ســـوى الكآبـــة والنحـــول؟

أو أرقب الليـــلَ الطويـــلَ يـــذوب في الصـــبح الطويـــل..!

وأتـــابع الشـــمسَ المرنحـــةَ الشـــعاعِ. إلى الأفـــول..!

وأشـــيِّعُ البـــدرَ الســـؤوم يغيـــب مـــا بـــين النخيـــل..!

لا مأمـــلٌ لي بـــالكثير ولا رجـــاء بالقليـــل!؟؟

وأعـــد أيـــامي لأسْـــلمَها إلى الهـــم الثقيـــل..؟

وأعـــيش محـــرومَ الفـــؤاد مـــن الهـــوى عـــيشَ الـــذليل؟

وأسَـــرِّحُ الطـــرف الكئيـــب مـــن الـــتلال إلى الســـهول..

لأصَـــعِّدَ الآهـــات داميـــةً وأمعـــنُ في عـــويلي؟!

ضـــاقت بي الـــدنيا وضـــقت بهـــا، كـــأني في رحيـــل..

في وهـــدةٍ قفـــراءَ بـــح بجوهـــا صـــوت الـــدليل

زهـــرة ذاويـــة*

تحـــبين عنـــد انتـــهاء الربيـــع ... وتـــذوينَ يـــوم احتضـــار الشـــتاء
كحب أتى بعـــد حـــين الشـــباب ... زواه الردى عـــن بلـــوغ الرجـــاء
كعذراءَ.. ما زال يشـــكو هـــواه ... إليهـــا، فـــتىً جرعتـــه الجفـــاء..
فلمـــا ســـلاها وكـــان الفـــراق ... رمى قلبَها الحـــبُّ.. يـــا للشـــقاء
أتذوينَ؟ مـــا ظـــلَّ دون الربيـــع ... ومغـــداه، إلا نجـــوم المســـاء..
تمنيتُ يـــا أخـــتُ لـــو تمســـكين ... إلى مطلعِ الفجرِ، هـــذا الـــذماء..

* * *

تفـــردت كالشـــاعر المســـتهام ... إذا راح طَلْـــقَ الخطـــى في العـــراء
يجوب الصحارى صـــداه الـــرخيمُ ... فيهفو على الرمل صـــدرُ الســـماء
تلفت والغـــابُ قفـــر الجهـــاتِ، ... كئيبـــاً يغـــني لحـــونَ الرثـــاء..
توافيـــكِ غربانُـــه بالنعيـــب ... وتأتيـــك أغصـــانُه بالبكـــاء..
إذا جـــالَ في جانبيـــه الأصـــيل ... بَرُودَ الخطـــى، عاصـــفيُّ الجـــواء
وأبصـــرت أوراقَـــه الـــذاوياتِ ... أباديـــدَ يُـــنْقلنَ ركـــبَ الهـــواء
تذكرت بالشوق عهـــدَ الخريـــف ... كمـــا يـــذكرُ المبعـــدونَ اللقـــاء
لأشـــبهت آمـــاليَ الظامئـــاتِ ... إلى رشـــفةٍ مـــن رحيـــق البقـــاء
تفـــتحنَ بعـــد ابتعـــاد الحبيـــب ... وصوَّحْنَ، واحسرتا، حـــين جـــاء

---

* لم يؤرخ الشاعر قصيدته جريا على عادته، ولكنني تعرفت على تاريخ كتابتها في "رسائل الســياب"، وهذه القصيدة مؤرخة في الرسالة بتاريخ ١٩٤٦/٢/٧ (راجع ص ٣٧ من رسائل السياب).

نشيـد اللقـــاء

كـــان لي عنـــد النـــوى ثـــارٌ، وقـــد أدركـــت ثـــاري

وانجلـــى ليـــلُ الشـــتاءِ الجـــونِ، عـــن نـــورٍ ونـــار..

أســـكرتني ســـاعةُ اللقيـــا علـــى غـــير انتظـــار

يـــا لوعـــدٍ صـــاغه المُـــرّانِ: شـــوقي واصـــطباري

واحتـــواه الصـــمت، مخفّـــي الســـرى دون الحـــوار

فَهْـــوَ مـــا لم يطـــوه اللفـــظ فيلقـــى في إســـار..

وهـــو فـــوق النـــاس، والتـــاريخ، والحـــين المعـــار

ذلـــك الشـــهرُ الـــذي أفنيتُـــه ســـاعاً فســـاعا

في ديـــار الحـــبِّ، لا يرضـــى لنـــا الـــدهر اجتماعـــا..

خلْتُـــه ولـــى ســـدى مـــن عمـــري الـــداجي. وضـــاعا

كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ ١٩٤٦/٤/٧. وقد أشار بدر إلى هذه القصيدة في إحدى رسائله إلى خالد الشواف، وهي رسالة موجهة من أبو الخصيب بتاريخ ١٩٤٦/٤/٢٠ (راجع رسائل السياب – ص ٣٩)، حيث يقول بدر الخالد: إن حادثا قاسيا خانقا، يغض اليْ كتابة الرسائل حتى إلى أعز الناس لديْ، وأقربهم إليّ.. لا شك في ك تذكر اللقاء.. لقاني.. والهوى البكر، وتتذكر ما قالته لي.. "وافني بكل ما تكتب من الشعر.. عن طريق الآنسة فلانة".. أكملت "نشيد اللقاء" حتى بلغ عداد أبياته التسعة عشر بعد المائة، وانصرفت إلى نقله في كراس صغير، أنيق، زرقته، وجملته جهود يومين طويلين، وأرسلته إلى الآنسة فلانة.. راجيا إياها إرساله إلى المعبودة وأن تسرع (فتنبأني) فتنبئني عما تركه نشيدي، في نفسها، من أثر. ومرت الأيام الثقيلة، والأسابيع الطويلة دون رجع جواب.. لا من الآنسة ولا من الحسناء، التي أخبرتها بعنواني في آخر صفحة من صفحات الكراس المنكود". والمعبودة التي يقصدها بدر هنا في لمعان كما سبق أن أشرت، وسيجد القارئ أن الشاعر لم يحذف شيئا من أبيات قصيدته، فالنص الذي ننشره هنا نقلا عن الطبعة الأولى تبلغ أبياته ١١٩ بيتا كما ذكر بدر في رسالته.

كيــف حــالي، في غــدٍ، إن قــال أصــحابي وداعــا!.؟
كيــف حــالي يــوم لي لا قلــب، إذا نــادى، مطاعــا؟
حــين ألقــي طــرفيَ الســهرانَ، مــا بــين القفــار..
في ســكون الليــل، لا يــدري، بمــا ألقــاه، دار

الــدجى، والصــفحةُ الرقطــاء، والصــمتُ الرهيــب
والرمــالُ الســودُ، والنــهر المغشــى، والكئيــب
أغنيــاتٌ تبعــثُ الشــكوى، صــداهُنَّ الوجيــب!
لَهْــفَ روحــي، يــوم يخفــيني، عــن النــاس الجنــوب!
أيــن..، أيــن القريــةُ الســجواءُ والشــطُّ الرحيــب
مــن هــوى للــروحِ، في "بغــداد" مشــبوبِ الأوار؟
أنــت داري، أنــتِ يــا بغــداد، لــيس الريــف داري

آه لــولا ملتقــىً مــن غــير ميعــاد أتانــا...
ضــمَّ روحــين، علــى طهــر الهــوى فاضَــا حنانــا
كيف كــان الشــوقُ، لــولا الملتقــى؟ بــل كيــف كانــا؟
كيف؟ لا.. قــد كنــتُ جــمَّ الشــوقِ وحــدي لا كلانــا
ليــت تلــك الســاعة العــذراء تجتــاحُ الزمانــا...
لا ظــلامُ الليــل يثنيهــا، ولا ضــوءُ النــهار...
ليــت أني أوقــفُ الــدنيا عليهــا في المــدار!

هــا هنــا دارُ الهــوى، يــا عــينُ، في هــذي الرحــاب

ها هنا سال الدم الجاري من القلب المذاب
في الأزاهيرِ، على العشب المندَّى، في التراب
فانفضي أرجاءَها القصوى، وهزِّي كلَّ باب
وامزجي دمعي وأنفاسي على عطر الجواب
بالندَى، بالنسمة السكرى، بأنغام الهزار
بالربيع الطلق، بالأفق الموشَّى باصفرار!!

أيها الظمآنُ، يا طرفي، أأبصرتَ الغديرا؟
ذَوَّبَ الأنسامَ، في أمواجه النشوى، هديرا
والظلالَ الفيحَ، في أغواره، يسطعنَ نورا
والزهورَ الغينَ، بالأنداء يحرقنَ العبيرا
لو سقى – والعاصفاتُ الهوجُ يوقدنَ الهجيرا
في رمال الوهدةِ القفراء، ساحاتِ القفار
بث في أرجائها، أيار فواحَ العرار..

ما أرى؟ وافرحتا!! هذا هواي البكر لاحـ..
أيها القلبُ الذي لم يعشق الغيدَ الملاحا
أو ينثّ الشعر عبَّاقَ الشذى، إلا مزاحا
يا فراشاً كان يرتاد الخزامى والأقاحا..
هذه النار التي تهوَى، فلا تطوِ الجناحا
دون أن يرتدَّ في ذاك اللظى بعضُ الغبار

واهياً، تلهو به ريحُ الصَبَا بين الصحاري..

يا بناناً طاهراً يمتدُّ نحوي بالسلام..
نابضَ الهزات بالشوق المخفى.. والغرام
ليتني أبقيك في كفّي ساعا كلَّ عام!
عند ذاك الجدول الساجي.. بعيداً في الظلام
ليتني حسبي مُنىً يا قلبُ، ما تطفي أوامي
أمنياتٌ جامحاتٌ الشأو، رعناءُ السفار!
هذه البيداءُ لا يسخو حصاها بالثمار!

يا شفاهاً عطرتْ بالبسمة الريَّى سؤالا...
والأناشيدَ اللواتي فضْنَ شوقاً وابتهالا
والمقادير التي لم ترض لي إلا ارتحالا..
وابتعادا عنكِ والدنيا، إلى شر الديار
آه لو تدرينَ ما حالي على بُعْد المزار..

رُبَّ غابٍ كبلتْ أنسامَه شُمُّ التلال..
في ربوعِ الريفِ، مكتوم الضحى بين الظلال
شاحب الأيامِ والساعاتِ، مهدوم الدوالي
إن طواني في غدٍ، يا سوء ما يوحي خيالي!
رنَّ في أنحائه صوتٌ ينادي كيف حالي
عن يميني هبَّ، من خلفي تناهى، عن يساري

مــن فــروع الدوحــة اللفّــاء، مــن كــلّ انحــدار..

حــظُ شــعري، عنــدك، الإيثــار والحــبُّ الجديــد
والنــوى، والصــدُ والنســيانُ، حظّــي والجحــود
ويــحَ قلــبي كلمــا وافــاكِ لحــنٌ أو نشــيد...
نــالَ منــكِ الســهَدَ والآهــاتِ، شــاديهِ البعيــد
إنَّ شــرَّ الظلــمِ أنْ تَنْــدَى مــن اللــثم الــورود..
والغصــون الواهبــاتِ الــورد تَصْــلَى حَــرَّ نــار!!.
لهــفَ روحــي.. كيــف تَلْقَــيْنَ انتحــابي بــافترار

أتــركيني أُغــرق الــدنيا بنبــعِ الــذكريات
ناســياً عــينيَّ في تلــك العيــون الناعســات
آه لــو هدهــدتُها، قبْــلَ الكــرى، بــالقبلات
آه لــو ذوبــتُ في آبادِهــا الســكرى حيــاتي
بــين أحقــابِ نــديات عِــذَاب الأمســيات
غانيــاتِ فــوق شــطآن تقيــات البحــار..
شــاعَ في أرجــائهن الصــمتُ شــفافَ الســتار..

اللقــاءُ البكــر لا أنســاه مــا عــاد الخريــف!!
الضــحى، والســفرةُ المطــرابُ، والصــحو الشــفيف
والتفاتــاتٌ يحييهــا، مــن القلــب، الرفيــف...
حبَّــذا لــو طــال بالــدنيا علــيهن الوقــوف!

أيـــن أنغـــام علـــى العشـــاق بالـــذكرى تطـــوف؟
صـــوتُكِ المغنـــاجُ روّاهُـــنَّ بالوجـــد المثـــار؟
أيـــن نهـــر في خفـــاء الغـــاب منســـيُّ المجـــاري؟

ذلـــك النـــهر الـــذي أدنيـــتِ مـــني وَهْـــوَ نـــاء..
لاحَ لي ينثـــالُ، عـــذبا، مـــن ينـــابيعِ الغنـــاء!
لجَّ في الأبعـــاد، منســـابا إلى غـــير انتـــهاء..
والضـــفاف الغـــين تطـــويهن آهـــاتُ الرعـــاء..
كيـــف حـــالي؟ ســـاءَ – لـــو لم تســـأليني أنـــتِ – حـــالا
ســـائلي عينيـــكِ، والتـــذكارَ عنّـــي، والخيـــالا
عـــابراتٍ، في ســـكون الـــريح، آمـــادَ الفضـــاءِ
حبـــذا نهـــر، بـــه غنيـــتِ، يهتـــاج ادكـــاري!
يـــا "ســـواني" آه لـــو أنـــا جُمِعنـــا في جـــوار..

إن ســـجا ليـــل، وأغفـــى في ذراع الـــريح غـــاب..
وارتمـــى، في هالـــةِ البـــدر الموشـــاةِ، شـــهاب
خابيـــاً يفـــنى.. كمـــا يفـــنى علـــى المـــاء الحبـــاب
مثـــل مصـــباحٍ وراء الشـــط غشّـــاه الضـــباب
شـــعَّ وهـــو الفضـــة البيضـــاء في المجـــرى تـــذاب
واختفـــى يُلقـــي عليـــه البـــدرُ أثـــوابَ النضـــار
هـــاج لي شـــوقاً إلى واديـــك دفـــاقَ المجـــاري

تلـــك. تلـــك الضـــفةُ الخضـــراءُ.. هـــا إني أراهـــا!
نضـــرتْها ليلـــةٌ قمـــراءُ، رفـــافٌ ســـناها..
والنجـــوم البـــيض، في الأمـــواج ذوَّبـــنَ الشـــفاها
مالكـــاتٍ غـــورك المســـحورَ آهـــا، ثم.. آهـــا..
خاتمـــاتٍ منـــه منســـياً وراء المـــوج تاهـــا!.!.
ليـــت أني كنـــتُ في ســـاحاتِه بعـــض الحجـــار!!.
في ربـــاك الفـــيح مـــيلادي وفي الســـهلِ احتضـــاري

يـــا حيـــاتي كلُّهـــا، يـــا شـــقوةَ الـــروحِ المهـــان..
إن طـــواني عنـــك، دون النـــاسِ، أحـــداثُ الزمـــان
فـــاجعليني – كلّمـــا رجّعْـــتِ لحنـــاً في "ســـواني" –
نَغْمـــةً، خفاقـــةً، تفـــنى علـــى صـــدر البيـــان!
أسمعـــيني صـــوتَكِ المطـــرابَ، تنثَـــالُ الأمـــاني
منـــه في قلـــبي، إذا غنيـــتُ في يـــوم انتصـــاري:
كـــان لي عنـــد النـــوى ثـــار وقـــد أدركـــت ثـــاري!

حب يموت

اليومَ.. بين مَصَارع الزَهَر والصبحُ يطفئُ جانبَ القمرِ
حبي يموت وأنتِ لاهية لم يدرِ سمعُكِ ضجةَ الخبر
الكوخة القفراء عن كثب تلقي كآبتها على النهر..
والدوحةُ اللفّاءُ، رنَّحَهَا أن الربيع يهمُّ بالسفر
والجدولُ المحزون قد سرقتْ منه التألقَ، ظلّة الشجر
فكأنّ هذا الكونَ صنعُ يدي ذوبتُ في جنباته عمري!!
اليوم أوهِنُ كلّ خاطرةٍ تحلو هواك، وكلّ مدكر
واليوم أكفرُ باللقاءِ وما صبُّ اللقاءُ عليَّ من فِكَر..
واليوم أُطلِقُ من منابعه ماضيَّ.. بين مخالب القدر
حتى يضلّ بكل قاحلةٍ تاه الزمان بها بلا أثر
نسيَ السراب زمانَ مولده فيها وماتَ تنقلُ البصرِ
بين الصلالِ يضيع أوله ويجفُّ آخره على الحجر

واليوم بين توهجِ السحب وخبوّهنَّ، وضيعة اللهب..
وتموجِ الأنغامِ في أفقِ ذاب الغناءُ به و لم يذَب،

كتب الشاعر هذه القصيدة في ابو الخصيب بتاريخ ١٩٤٦/٤/١٥. وقد وردت – أولا – في إحدى رسائل بدر لخالد بتاريخ ١٩٤٦/٤/٢٠، (راجع رسائل السياب – ص ٣٩).

والطـــير نازعـــةً إلى ســـكنٍ عبر الفضـــاء تصـيحُ مـــن طـــرب
يَقْضي هوايَ.. وأنـــت ضـــاحكة للـــنجمِ، والظلمـــاتِ، والشـــهب
هو لو – علمتِ – سحابةٌ نفضت عنـــها بقيـــةَ ضـــوئها الشـــحِب
هـــو صـــبحةٌ في الليـــل أطلقهـــا طيرٌ.. فَخَرَّ.. ومـــات في العشـــب
وهـــو الـــوداع، مســـافرٌ تعـــبٌ ألقـــاه ثم مضـــى ولم يـــؤب
هو زهـــرةٌ ضـــحكت فعاجلـــها لفـــحُ الهجـــير، وجـــامعُ الحطـــب
وهو الشهيدُ على يـــديكِ هـــوًى يبكـــي ويقـــذفُ بالـــدمِ الســـرب
مزقـــتِ بالطعنـــات جانبَـــه وعصـــبتِ باصـــرتَيْه بالـــذهب
الـــذكرياتُ غـــداً ســـأحرقها في جامحٍ، حنـــقٍ، مـــن الغضـــب
وأرجّـــعُ النغمـــات يلـــهمها ريـــفٌ يفـــيض بفتنـــةٍ عجـــب!

واليـــومَ.. بـــين أزاهـــرِ الـــدُفُلِ والـــربيع ترعشـــهنَّ بالقُبَـــلِ..
والليلِ يختـــمُ بالســـكونِ، علـــى غاب النخيـــلِ ومـــوحشِ الســـبل
حـــبي يمـــوت.. وأنـــتِ نائمـــةٌ يلـــهو بخصـــركِ ســـاعدُ الأمـــل
ما كان غير هـــو وكـــلٌ هـــوى بـــين اثنـــتين معلـــقُ الأجـــل:
قلبـــان، إن خفقَـــا معـــاً هبَطـــا روضـــاً يعـــلُ ثـــراه بالقبـــل
وإذا اســـتطار الوجـــدُ بعضـــهما خر الشـــقيُّ علـــى شَـــفَا طلـــل،
وافـــاك ينطـــق بـــالجوى غَـــزِلٌ لا تقتليـــه بصـــامتِ الغَـــزَل!
أأظـــل أذكـــر منـــك ناســـيةً وأعـــود أُثقـــل بالأســـى رُسُـــلي؟
وأراك باخلـــة علـــيَّ بمـــا جادَ البخيـــلُ بـــه علـــى عجـــل؟
أيـــنَ الرســـائلُ بـــتُّ أرقبـــها وأصـــبِّرُ الآهـــاتِ بالعلـــل؟

إن طــاف بــين جــوانحي أمــلٌ   أني أراك   برئــتُ مــن أملــي
أعرضتِ عامدةً فمــا احتملــتْ   فيــه الأنوثــةَ عــزةُ الرجــل

* * *

واليــومَ حيــث تمــرَّغ الحُلُــمُ   في نــاظرَيْنِ طواهمــا أَلَــمُ..
مات الغرامُ فهــل حلمــتِ بــه   أو ســالَ منــه علــى رؤاك دم؟
العاصــفاتُ نســجنَ لي صــورا   يمشــي لهــنَّ مــن الــردى نغــم
ألــوانهن تشــفُّ عــن أرجٍ   بــؤسُ القبــورِ عليــه ينســجم
والعطــر تنبــعُ مــن نســائمه   ســودُ الشــيات، وتولــدُ الحمــم
يبــدينَ طيفَــكِ حــائراً شَــحِباً   تنــزو، وتطفــر، دونــه الظُلَــم..
نادى.. فما صعدتْ علــى فمــه   إلا مقــاطع خــائفن فــم..
فرفعتُ مصباحي، يفــيض دمــاً   أبصــرتُ فيــه دمــي، ويضــطرم
يــا للــذبالِ.. أكــاد أعرفــه..   ويكــادُ يعرفــه معــي القلــم..
هذي رســائلُ حبِّــي احترقــتْ   وأعــزُّ شــعري غالــه العــدم..
ذاب الظلام فمــا رأيــتُ ســوى   أنثــى تنــاثَرُ حولهــا الــرمم
تطوِي ذراعَ فــتىً يقــولُ لهــا: لا تذكريــه.. وأُطفــئ الحُلُــم!.

...لا النأيُ أطفأَ سَــالفَ الحُـــرَقِ في جـــــانبيَّ، ولا يـــــدُ الأرق

"أهواك" ما خدمتْ علـــى شــفتي أو ماتَ حـــبي، فاعــذري نزقـــي

"أهواك" مــلءُ جــوانحي ودمـــي صــوتٌ يظـــلُّ.. وينتـــهي رمقـــي

أنتِ الفضاءُ، فمـــا ســعتْ قـــدمٌ بي حيثُ كنتُ فغابَ عن طرقـــي!

قـــالوا: تَنَقّــلَ كالنســـيم، فمـــا يصـــفو هـــواه، وطـــافَ كـــالألق

هـــل للنســـيم- علـــى تنقُّلـــه حُـــرُّ الوثـــاقِ – تَجَـــاوزُ الأفـــق؟

أنتِ الوجـــودُ فحيثمـــا انطلقـــتْ بي مقلتــــانِ ملكـــتِ منطلقـــي!

سيان عندي.. مـــتُّ مـــن ظمـــأ – ما دمتُ عبدَ هواكِ – أو غرقـــي

سيان عندي.. كنـــتُ في سَـــحَر – ما زلتِ أنتِ سنايَ – أو غسقي

روحـــي فـــداؤك، بـــت راضـــيةً أني فـــديتُكِ.. أو علـــى حنـــق!!

لا يغضـــبنَّكِ مـــن أسـير هـــوىً هـــزُّ القيـــودِ، وثـــورةُ القلـــق

فهو الحـــريص علـــى الغَـــرامِ إذا ظنَّ الغرامَ قضَـــى.. فمـــن فَـــرَق

كتب الشاعر هذه القصيدة في أبو الخصيب بتاريخ ١٦/٤/١٩٤٦.

يا قلب.. بالأمس اشتهيت اللقاء
واليوم كان الملتقى كيف كان؟
وا حسرتا فيم الأسى والبكاء
يا من بلغت الأمنيات الحسان؟

الجنـــاحُ الطليـــقُ دونَ انتـــهاءٍ، فـــارَقَ الـــوكرَ هازئـــاً بالـــدماءِ
والجنـــاح الطليـــق والجـــرح، مـــا زالا يرفـــان في رحـــابِ الفضـــاء
والجنـــاح الطليـــق، والجـــرح، والأنـــواء.. فـــوق اســـتطاعةِ الأنـــواء
فاصـــدحي يـــا قيـــاثري – رغـــم أن الحـــبَّ ولّـــى – بأغنيـــات اللقـــاء!
شـــيعي، الـــنعش، بـــالزهور، إلى اللحـــد.. وعـــودي بضـــحكة اســـتهزاء
لســـتُ مَـــنْ ضَـــيَّعَ الوفـــاء ولكـــني وهبـــتُ "الحيـــاةَ" كـــلَّ الوفـــاء

أضَيْعُ الدمعِ ما جرى فوق رمـــسٍ — صـــامتٍ غـــير حافـــلٍ بالبكـــاء
غاب عن مقلتَّي ريفـــي وأضـــحى — جوســـقي لا يُظِـــلُّ غـــيرَ الهـــواء
أيها الجدولُ الذي كـــان يلقـــاني — علـــى ضـــفتيه نجـــمُ المســـاء..
أيها الدوحُ يحرقُ الصيفُ ما يَلْقَـــى — على الأرض مـــن خيـــالِ الشـــتاء
كنتُ في جنةٍ من الريـــفِ، لـــولا — جذوةٌ مـــن هـــوىً بغـــير انطفـــاء

كتب الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٥/١٠/١٩٤٦.

الـــدجى والنخيـــل، والســـامر المطـــراب، والنـــاي وانســـكاب الغنـــاء

وارتعاشُ النجوم في قـــاع كأســـي وارتعاشـــي بفـــائرٍ مـــن دمـــائي

وانبجاسُ الدموع في عينيَ العـــبرى وإخفـــاؤهن خلـــف الأنـــاء

فاعـــذرِ الطـــرفَ كلمـــا جفـــت الأقـــداحُ فامتـــدَّ وجهـــةَ (الـــزوراء)[1]

واعـــذرِ العاشـــقَ المغنّـــى إذا بـــاحَ، بمـــا يعتريـــه، للصـــهباء!!

ربمـــا طـــاف بي، وقـــد نامـــت الأفيـــاءُ فـــوق الوســـادة الخضـــراء

هاتفٌ أنطـــقَ الســـكونَ وأحـــيى وتـــراً في مقـــابرِ الأصـــداء!

مـــن وراء النخيـــل، يعلـــو.. وقـــد ذاب بلفـــحِ الهجـــيرة الحمـــراء

صـــوتُها ذاكَ.. جنحتـــه ارتعاشـــاتٌ تحـــدَّيْنَ عاصـــفاتِ التنـــائي

فهْوَ خفقُ الشراع نـــادَى غريبـــا حـــائراً في الجزيـــرة القفـــراء

والخريـــر الطـــروب في حلْـــمِ ظمـــآنَ تهـــاوى علـــى الثـــرى مـــن عيـــاء

والحـــداء البعيـــد تُلقِـــي بـــه البيـــداءُ في سَـــمْعٍ تائـــهٍ في عمـــاء

والغنـــاء الشـــرود وافَـــى بـــه المـــوتى صـــدى عـــابرٌ مـــن الأحيـــاء

والحفيـــف الوليـــد أصـــغَى إليـــه جـــدولٌ جمدتْـــه ريـــحُ الشـــتاء

والجناح الـــذي يـــرفُّ.. فيعطـــو أزغبَ الريش بعـــد طـــولِ الرجـــاء

قرب الشوق مـــن لغاهـــا، وأدنى مـــن خطاهـــا تـــوهمي وافترائـــي

مـــا دخـــانُ الشـــقيقِ[2] مـــن (فـــارسَ) البيضـــاءِ مـــلء المجـــامرِ البيضـــاء

فاح فانجابَ عن عيونِ الســـكارى عـــالَمٌ حاقـــدُ علـــى الأشـــقياء

---

[1] الزوراء: بغداد – الهامش للشاعر.

[2] الشقيق: الأفيون – الهامش للشاعر.

واستفاض الوجود بالعطرِ والأطيافِ يسحن في شفيف الجواء

وانطوى ساعد على خصرِ عذراءَ سَرَتْ في غلالةٍ من هباء

وانتشى لاثمٌ.. وأهوَى على نهدٍ من النور مولَعٌ بالنساء

ما دخان الشقيق من (فارس) البيضاء ملء المجامر البيضاء

يمنحُ الناشقينَ ما تمنحُ المشتاقَ أوهامُ حبه من عزاء!

أصبح الريفُ دارَها فهي روحٌ خافق فوق ساعدي كالضياء:

همسها وارتماؤها في ذراعيَّ، وهمسي.. وصرختي.. وارتمائي!

منَّة يا خيال.. هيهاتَ أنساها، ولولاك.. أين كان التجائي؟

منة يا خيال أن يصبحَ النائي ببغدادَ وهو في (الفيحاء)[1]

منة يا خيال أن يلثم النجم اندفاقاتِ نوره ثغرُ ماء!

عدتُ.. بل عادتِ الجراحُ الدوامي فاحذري لمسَهنَّ قبل الشفاء

لا أريدُ الضمادَ من هذه الأيدي فإنَّ الضمادَ من كبريائي

لا أريد الضماد منهن.. حسبي نخوة من تحرشٍ واعتداء

كنت إنْ أفرغَ ارتكاضُ الليالي أكؤسَ الصبر أترعَتْهَا دمائي

فاعذريني إذا تشوقتُ – ما تحلو ليَ الكأسُ من يدٍ شلاَّءِ

كيف أشتاقُ حين لا دارها داري، وأجفو وناظراها إزائي؟؟

كيف يهتاجني خريرٌ وأجفو جدولاً؟ ليس ذاك شأنُ الظماء

يا لقاءً هوتْ له الكأسُ من كفّي فأدمى حطامها من إبائي

---

[1] الفيحاء: البصرة – الهامش للشاعر.

أنـــتَ أخرســـتَ صـيحةَ الشـوقِ في ثغـري وخيبـتَ مـأملي باللقـاء
حَـرَّكَ الوجـدُ مـن يـدي فهـي تمتـدُّ.. فـلا تلتقـي بغـيرِ الهـواء
والتحايـا[1] علـى فمـي ذاهـلاتٌ يابسـاتُ الـرنين فـوق "المسـاء"
أيـن أيـن السـلام ينسـاب في عينيـكِ قبـلَ انطلاقـه لالتقـائي؟؟
أيـن يمنـاك وهـي تهتـز في يمنـايَ لحنـاً مـن الهـوى والوفـاء؟؟

وانبسـاطُ الأكُـفِّ بالأصـفر الرنَّـان غـيرُ انبسـاطِها بالرجـاء
والتقاءُ العيـونِ في قـاعِ كـأسٍ أينَ منـه التقاؤهـا في السـماء؟!
شاحبٌ ذلـك اللقـيُّ[2] فكفّـي عـن حـديثٍ مرنَّـقٍ بالريـاء
اسكتي.. حسبُكِ.. اسكتي، إن عيني تلمحُ الموتَ خلـف ذاك الطـلاء!
اهزئـي.. واعبثـي بقلـبي.. فمـا أنـتِ سـوى غـادةٍ ككـلِّ النسـاء
أنتِ.. ما أنتِ؟ عـابرٌ في طريقـي لاحَ لي ثمَ غـابَ فيمـا ورائـي
كنـتُ أدعـوكِ فتنـةَ الشـعرِ، واليـومَ سـأدعوكِ فتنـةَ الأغنيـاء
هـانَ قلـبٌ غشـاؤه أصـفرُ التـبرِ ودقّاتُـه رنـينُ الغشـاء!

إصـدحي يـا قيـاثري.. أنصـت الكـونُ انتظـاراً لنغمـةٍ عـذراء
إصدحي!! قبضـةُ الخلـودِ سـتهوي، بعـدَ حـين، علـى قيـودِ الفنـاء!
نبئـي ذلـك الحطـامَ الـذي أولتْـه روحـاً ضـلالةُ الشـعراء
أنني قـد نثـرتُ زهـري علـى أرضـي.. وأطلقـت بلبلـي في سمـائي!

---

[1] من التحية المعهودة: مساء الخير – الهامش للشاعر.
[2] في القاموس المنجد: اللقيّ: الملاقي في خير أو شر وأكثر استعماله في الشر يقال "هو شقيٌ لقيٌ".

عينـــــان

"إلى ذات العينين اللتين لا يعرف لونهما"

نـــام في مُقلتَيْـــكِ بحـــران ينثـــالان بالـــدفء، والنـــدى، والضـــياءِ
بالضـ ـباب الشـــفيف يَفْنَـــى شـــعاعُ البـــدرِ فيـــه.. وناسمـــاتُ الهـــواء
يلـــثم ا ـــوج راعشـــاً خـــافقَ الأنفـــاس.. حـــتى يـــذوب دون ارتـــواء

أرشفي نـــاظريَّ دفء العـــذارى وانبثاق الهـــوى، ولـــون الســـماء
قطـــرة أو أقـــل. ثم اتـــركيني ناعس الحـــس.. خـــادر الأعضـــاء
ذاهلاً.. مثـــل كوكـــب رنحتـــه نسمة.. في الغدير.. عنـــد المســـاء

إنَّ في مُقلتيـــكِ دنيـــا مـــن الأحـــلام بالحـــب، والنـــوى، واللقـــاء:
الأماســـيُّ، والحبيبـــان، والســـاعاتُ يهـــربن قبـــل ريِّ الظمـــاء
قبـــل أن تحـــرق الشـــفاه التقـــاءً وابتعـــاداً مرنحـــاً بالتقـــاء
قبـــل أن تمـــنح الســـموات والآبـــادُ بعـــض العنـــاق.. بعـــض الغنـــاء
خفقـــة ترتمـــي علـــى خفقـــة ســـكرى.. وقلبـــاً لإلفـــه في ارتمـــاء!

ذلـــك اللـــون.. ذلـــك الســـر في العيـــنين.. مـــاذا وراء ذاك الخفـــاء؟
الـــدجى، والمـــروج في الضـــحوة الســـجواء، والبحـــر، ذوبـــت في هبـــاء

كتب الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٤٦.

في سماوَين تشربان السموات بكأسين صيغتا من نقاء

هذه الذكريات يلمحن في عينيكِ ما بين ومضة وانطفاء..

هنَّ يرقصن ذلك اللون أو هذا على ناظريك دون انتهاء

فَهْوَ لون الحياة هيهات يُدرى وَهْوَ لونُ السراب في الصحراء!

لحن جديد

أرعشِ الأوتارَ باللحن الجديد ... إنه اليوم المرجَّى.. يومُ عيدي

هذه الدنيا.. هوىً مسترَف ... قوة الشادي، وأنفاس النشيد

هذه الدنيا شبابٌ دافقٌ ... في شبابي، وانبثاق في وجودي

إنه الطَرْفُ المغشَّى بالدجى ... فضَّ عنه النورُ أختامَ الجمودِ

أرسل اللمح ارتعاشاً ظامئاً ... يشربُ الآفاقَ، بجنونَ الصعودِ

حامَ فاستوفى نهاياتِ المَدَى ... ناثراً حوليه أشلاءَ الحدودِ

هذه العذراءُ نبعٌ فائرٌ ... بالتفاتاتِ الأماني والوعودِ

مَرَّغَ الماضي على أقدامِها ... كلُّ ما في ذكرياتي من خدودِ

نظرةٌ ملكتها فيها.. كَمَا ... يملكُ النهرُ ابتسامات الورودِ

يا جناحاً في سمائي ضارباً ... خافقاً آناً، وآناً في ركودِ

يا ندى ساقى سرابي فارتوى ... منه جدبي وانتشى، واخضرَّ عودي

بتُّ أخشى أن تشكّي وحشةً ... بين آفاقي وأن تخفيك بيدي

بتُّ أخشى غدرةً عودتها ... من صباباتي، وأيامي، وغيدي

يا فتاةَ اليومِ كوني مِنْ غدي ... رشفةَ الظامي ونبعَ المستزيدِ

راوحيني زهرةً مخبوءةً ... في خريفي من نضيراتِ العهودِ

كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ عام ١٩٤٦، دون ان يحدد اليوم والشهر اللذين كتبت فيهما.

أنتِ حلمٌ مــن رقــادي هــاربٌ لاحَ لي في يقظـــتي بعـــدَ الشـــرودِ

الفــراشُ المرتمــى فــوق الثــرى مــل مثــواه المغشَّــى بالجليــد

يا بقايــا مــن جناحيــه اخفقــي واحملي نحو اللظى جسـمَ الشـهيد

ليت لي يــا هــذه الــدنيا فمــاً لم يكبِّلْــه ارتعاشـــي بــــالقيود

آه لـــولا رهبـــةٌ تحبـــو علـــى سُلّمٍ من أضـلع الشـادي، عتيـد

كلمــا شــام الــتي غنّــى بهــا أرجعَ الشكوى إلى الغــور البعيـد

طافَ بـــالنجوى علـــى إصـــغائها لـــو أعانتـــه انتفاضــات القصــيد

يــا لمــوجٍ صــاخبٍ مستأســرٍ في غديريٍ ظالمِ الشـاطى عنيـد..

حاطم الأغلال

"عمَّت الولايات المتحدة الأميركية، موجة عارمة من اضطهاد الزنوج فأعدموا لغير ما سبب، وطوردوا دون جريرة منهم – وتألف وفد من الزنوج يترأسه المغني الزنجي الشهير "روبسن" – قابل ترومان واحتج عليه"

"فإلى الفنان الغاضب، الثائر على الظالمين، إلى روبسن، أرفع هذه القصيدة!"

املأ الكونَ اربداداً واضطراما	(يا سواداً) سامه الخسفُ الحماما
يا زنوداً خلّفت شمسُ الضحى	فوقها، من نورها الحامي، ظلاما
أطلعي من ليلكِ الفجر الذي	يترع الدنيا صفاءً وسلاما
الدم الحرُّ الذي فيكَ، انتضى	من مذلات الأرقاء الحساما
خاطبي الجلاّدَ، يوم الملتقى	واجعلي بارودك الفظ كلاما..
ذلك الطاغي أما هاجَ الصدى	منه صوتٌ، والوغى تذكي ضراما؟
وادَّعى – يا بعدَ ما كان ادعى	أنه المنجِي من الذلِّ الأناما؟!
نصره الموعودُ عرسٌ ضاحكٌ	للتآخي! ليت ذاكَ العرس داما!
حاطم الأغلالِ – يا للمنتهى –	صاغ غلاً ثانيا ذاك الحطاما!

كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٤٦، دون أن يحدد اليوم والشهر اللذين كتبت فيهما. وتتضح في هذه القصيدة ثورة بدر على أستاذه الشاعر الرومانسي علي محمود طه، كما سيتبين هذا في الهامش.

قصة (العِرْقِ) انطوى سِفْرٌ لها ... تحت أقدام الثكالى واليتامى
أيهذا النابشُ القبر الذي ... ضمَّ "هاماتٍ" ملأنَ الكون هاما
لستَ بالمحيي بداً سفاحةً ... أوسعتها قبضةُ (الحقِّ) انتقاما
قصة (اللون) التي استحدثْتَهَا ... قد تحيلُ الأبيضَ الصافي قتاما

غابُ "أفريقيةَ" السمراء غاما ... من خطوبٍ شرّدت عنه المناما
ود لو أنَّ الثرى - في ساحه - ... جامحُ البارودِ يغتال اللثاما..
والحصا، في كل مجرى ناغم، ... من رصاصٍ يفجرُ اللحنَ احتراماً
والغصون استرقصتْها هبَّةٌ ... للصَبا، عادت قسيًّا وسهاما!
همهم الدوحُ المندَّى، والسنا ... ينزعُ الطلَّ اختلاساً واهتضاما،:
"ايه يا شمس اتركي حمر الخطى ... في مراقيها الفسيحات نياما...
واسمعي شكوى من الشرق، امتطى ... لفحُهَا من ذروةِ الغيظ السناما!
فيم هيأت "الطلاء المحتوى!" ... تابعاً بين الرحاب الجون (حاما)؟
أَهْوَ ختمٌ خلْفَه الرقُّ اختفى؟ ... أم وقاءٌ يقهر الموت الزؤاما؟"

أيها الشادي[1] وقد بات الهوى ... يُرعشُ الأنخابَ في أيدي الندامى
يا سليلَ الغابة الثكلى بكى ... قلبها السمح السليل المستضاما
غَنِّ باللحن المدمَّى، واللظى ... يحرقُ الأجسادَ - لا ريح الخزامى
واشتكِ الجورَ الذي يُرْمَى به ... قومُكَ الأحرارُ - لا تشكُ الغراما
أين صاحٍ عاد لا يلْقَى هوىً ... من سقيمٍ عادَ لا يلقَى طعاما؟!

---

[1] الشادي: المغني روبسن - الهامش للشاعر.

فارو، لا عنْ مخدعٍ[1] ظلَّ الشذى ... حائراً يرعى "ملاكا" فيه ناما..

واحكِ، لا عن غانيات نُزَّق ... يتطارحن اعتناقاً والتثاما...

لا.. فما أبقى صليل القيد في ... مسمعِ المأسورِ للسلوى مقاما

فاترك اللحنَ "الموشَّى" للغنى ... والطغاة الصيد يهتاجُ العراما

إنك الحرُّ الذي لا يرتجى ... منْ يَدَيْ جلاّده القاسي، وساما

إنك الجرحُ الذي لا يحتمي ... بالمُدَى يمتاح منهن التئاما..

أيها الشادي وقد راح الردى ... مُسْلماً للأهوجِ الفظِّ الزماما.

فَجِّرِ الألحانَ من ينبوعها: ... مهجةُ الطاوي وأضلاعُ الأيامى

هذه الألحانُ، خيرُ الفنِّ ما ... حرّكَ المأسورَ واهتاج المُضَامَا

نحن في حالين ساوَى منهما ... ظالمٌ سامَ الملايين الحماما

نحن في حالين ساوى منهما ... أنَّ لليل انتهاءً وانصراما

الزنودُ استنهضتها هزةٌ ... بعد حينٍ تترك الطاغي حطاما!

---

[1] في يقيني، أو في اعتقادي الأقرب إلى اليقين أن بدر كان في ذاكرته وهو يكتب هذا البيت قصيدة "مخدع مغنية" لعلي محمود طه، حيث تحدث أستاذ بدر السابق عن هذا المخدع المترف الذي:

شارع في جوه الخيال ورف ... الحسن والسحر والهوى والمراح

ونسيم معطر خفقت ... فيه قلوب ورفرفت أرواح

طيفٌ أزاحتْه عن جفنيكَ عـــذراءُ … والصبحُ فوق السهولِ الغين أنـــداء
والنجم ينسابُ في ماء الغدير صدىً … مسراه ومضٌ وموســـيقاه لألاءُ....
طيفٌ مضى مثلما ذابَ السحابُ على … صحْراءَ... فانثالَ من أهدابكَ المـــاء
خانتك حواء فاستبكِ الفؤادَ لظـــىً … إن كنتَ أوَّلَ من خانتـــه حـــواء!
يا عاشقَ الوهم في جثمانِ غـــادرةٍ … هل تُنبتُ النرجسَ المعطارَ صـــحراء؟
أصبحتَ تجري وراء العاطفات دماً … ظمآنَ مـــا بَـــلَّ مـــن ناريـــه إرواء
يسري إلى الواحة الريّـــا ويســـبقه … حَرُّ الغليلِ إليها.. فهـــي جـــدباء!
واليوم هَدَّأتَ من تلك الدماء، فما … أبصرتَ؟ أين النـــدامى والأحبـــاء
كالجدول الثائر الـــدفاق منطلقـــاً … من شاطئيه وقـــد ســـاقته أنـــواء!!
أهوَى على الجدول النائي يعانقـــه … فالضـــفتان ارتعاشـــاتٌ وإيمـــاء..
تستقبل القبـــة الزرقـــاء بينـــهما … موشـــيةً بـــالظلالِ الفـــيحِ جلـــواء
والجدولانِ انثيـــالٌ لـــيس توقفـــه … ، في لجة الشاطئ المغمـــور لفـــاء..
حتى إذا استوقفته الشمسُ طالعـــةً … من مخدع الشرق واسترضته أضـــواء
واستذكر الماءُ، في الشطين زنبقـــةً … غرقَى لها في هديرِ المـــوجِ إصـــغاء
واهتاجت الجدولَ الطاغي متيمـــةٌ … من سامرِ النخل عبر الشط فرعـــاء
ذاب اشتياقا إلى مجراه، واحترقـــتْ … أمواجه من هواهـــا فهـــي حمـــراء

* كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ ١٩٤٦/١/٥.

والجدولان انثيالان استحثهما روحانِ: راضٍ بما يلقى ومستاء
عادا ودون التلاقي من ضفافهما شتى موانع أدناهُنَّ شمّاء

حاشاك حاشاك يا نفسي فما خُلقتْ للحبِّ والشاعر الموهوب رعناء
أنتِ الفراشةُ ما تهوَى سوى لهبٍ فليعشق الدمَ واللحمَ الأخساء
وليعبثوا بالنهودِ المائجات على صدر من القلب خالٍ، مثلما شاؤوا
وليرشفِ الطلَّ من تلك الشفاه فمٌ لم يُذْكِ فيه اللهيبَ الخالدَ النساء
ولتشهد الكاعبُ الحسناءُ مصرعَها لو أنها في الغد المنكود حسناء!

أمنيـــات

أمنيـــاتٌ دغـــدغتْ حسّـــي بإغمـــاء طـــروب
وانتشـــاء فـــاتر الآمـــاد، نعســـان الطيـــوب..
الأريـــج الـــدافئ المغنـــاج، منغـــوم الهبـــوب
أســـكرته الليلـــة القمـــراء في ســـهل رطيـــب

والنـــداء الهـــامس المســـحور، لـــو أصـــغيت حينـــا،
طـــافَ بـــالأرواحِ أشـــواقاً ووافاهـــا حنينـــا..
فـــاض مـــلء المخـــدعِ المعطـــارِ[1] شـــدواً أو رنينـــاً
شـــفَّ حـــتى قالـــت العـــذراء: نـــاداني حبـــيي

أنـــت يـــا مـــن تحســـبُ الحـــبَّ اعتناقـــا وابتســـاما
لا ضـــراما يجعـــلُ الأرواحَ تشـــتاق الضـــراما
لا خلـــوداً خالقـــاً مـــن هـــزة القلـــبين عامـــا
مـــائجَ الأزهـــار دفّاقـــاً كشـــدو العنـــدليب

كتب الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٩٤٧/٢/٣.

[1] رأينا بدر في قصيدته "حاطم الأغلال" يتمرد على أستاذه علي محمود طه، وها هو – في هذا البيت – يعود إلى ما تمرد عليه، فيصف "المخدع المعطار"!

أنـــت يـــا حلـــم الربيـــع الطـــل مـــا بـــين الأقـــاحي
يـــا عروســـا في الأســـاطير منـــداةَ الوشـــاح
نافضـــا (طفـــلُ الهـــوى)[1] مـــن فوقهـــا ظـــلَّ الجنـــاح
وَهْـــي وســـنى تســـرقُ الأنفـــاس مـــن ريـــح الجنـــوب

أقبلـــي.. فالضـــفةُ القمـــراءُ تنـــدَى بـــالفتور
والضـــياء الحـــالم اســـترخى علـــى دفء العـــبير
مُرعشـــاً ظـــلَّ الأزاهـــير النشـــاوى، في الغـــدير
أقبلـــي.. مـــا كانـــت القمـــراءُ كـــي لا تســـتجيبي

أســـبلي، كالجـــدولِ المكســـالِ، هاتيـــك الشـــعورا
واتركيهـــا ترشـــف الأنســـامَ والأضـــواءَ نـــورا
وليعـــبَّ الكوكـــبُ العربيـــدُ منـــهن العطـــورا
ذائبـــاً فـــيهن... يـــدعو. يـــا نجـــوم الليـــل ذوبي!

ثم فيضـــي أغنيـــاتٍ لا أعـــي منـــهن معـــنى..
ربمـــا حـــدثْنَ عـــن آذار أو خـــبرنَ عنـــا..
ربمـــا حـــركن في الـــدنيا مـــنىً أو هجـــنَ حزنـــا!!
غـــير أني ســـامعٌ فـــيهن أنغـــامَ القلـــوب

[1] طفل الهوى: كيوبيد إله الحب – الهامش للشاعر.

ربما أطلقنَ في قلبي جناحَ الذكريات

ربما أوْحَيْنَ لي بالخاطرات الموجعات

عن هواك البكر.. عن ماض خفي الحادثات

ربما أنطقنَ في ثغري سؤال المستريب؟

* * *

أرعشني، بالضمِّ والتقبيل، في ثغري سؤالا

كاد أن ينسابَ ملء الليل آهاتٍ طِوالا

أحرقي ألفاظَه الحمراءَ بالنار اشتعالا

ربما كان انتحاراً لهوانا أن تجيبي

* * *

واهتفي، ولتهتف الدنيا إلى حين الصباح

أهتفي حتى يهبَّ الطيرُ مطلولَ الجناح

باحثاً عن عاشقَيْنِ استلقيا بين الأقاح،:

"عانقيني يا إلهاتِ الهوى.. هذا حبيبي!!.

مـريضة في الـربيع

"إلى صديقتها المريضة في الربيع"

أختاه.. كيـف خبـا ضـياؤك والوجـود يفـيض نـورا؟
عـاد الربيـع نـدىً يـذوب علـى السـنابل، أو غـديرا
عـاد الربيـع فراشـةً بيضـاءَ تسـترق العـبيرا..
حامت هنا.. وهفـت هنـاك – تدغـدغ الزهـر النضـيرا
وتـرفُ فـوق الجـدول الفضـيِّ.. أنـداءً ونـورا،

عـودي إليَّ، كمـا عهـدتكِ، جـدولا مـرح الميـاه..
متعـانق الأمـواج، ترعشـه أناشـيد الرعـاه..
يجلـو شـقائقَ.. عربـدت جـذوالهنَّ علـى الشـفاه
يلـثمن وهمـاً في الهـواء.. يبـث في دمهـا صـداه
ضـرّجنَ أنفـاس النسـيم فـأظهرتهن الميـاه..

عـودي إليَّ تحـدث السـاعات عـن أمـس الطـروب
هل تذكرينَ ضـحىً شـفيفَ النـور مكسـالَ الطيـوب؟

كتب الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٩٤٧/٤/١٨.

رحنا هناك.. هناك.. بين سنابل السهل الرطيب
وأنا.. وأنت.. و "من تشاء" مرنحون على السهوب
أنسيت أنتِ ولا أزال أعيش بالأمس الطروب؟

والجدولُ النعسانُ يلمع في غلائلَ من ضباب
نُسجَتْ من النار الندية.. والأزاهر.. والسحاب
كالهالة القمراء يصبغها لظى نجمٍ مذاب
والغابَ عن بعد يموج.. كشاعر قَلِقَ الرغاب
أو طائرٍ نفضَ الجناح وراح يضرب في ضباب

هل تذكرينَ؟! يكاد ينفجر الصدى: (هل تذكرين)
جياشةَ الإيقاع.. تصهر ما تُصَادفُ، بالرنين
وقّادةً مثل الشهاب تشق آماد السنين
نقشتْ على أعجالهن[1] بأحرف اللهب الحزين
وتظلُّ. مركبة الزمان تسوقها (هل تذكرين)

تلك الطبيعة في انتظارك.. وهي تهمس "يوم عيدي..
رقصتْ معطرةَ الخطى ساعاتُه.. رَقْصَ الورود.."
والساعةُ العذراءُ تسأل أختها لمَ لَمْ تعودي!

---

[1] أعجالهن: عجلاتهن – الهامش للشاعر، وهذا البيت والذي يليه يتمثل فيهما الشاعر الأسطورة الأغريقية.. أسطورة فايتون وعربة الشمس (راجع على سبيل المثال، مسخ الكائنات – أوفيد – ترجمة د. ثروت عكاشة).

والــــريح تبحـــث في ميـــاه النــــهر.. عــــن ظـــل الخـــدود
عن ثغركِ الطلــقِ الضــحوك يقــول: هــذا يــوم عيــدي!

أختـــــاه.. بعـــــدَ غــــدٍ إلى دفء الربيــــع ســـــترجعان
وأظــــلُّ وحــــدي في شــــتاءٍ لــــيس يخضـــع للزمـــــان
هيهـــاتَ.. لســـت بمــــن يعـــود إلى الجـــداول والجنـــان
أنـــا جــــدول خــــتم الجليـــد علـــى خطـــاه بـــأفعوان!!
غــــلٍّ.. يكـــــاد صــــليله المســــموم يهتــــف: ترجعـــان

أنفاســــــي المتجمـــــدات علـــــى ضـــــفافي كالصــــــخور
يصـــــرعن أزهــــارَ الغـــرام بمنحـــــل الـــــبرد النــــثير
هيهـــاتَ يصــــهر ظلـــهن كيــــان مــــائي، بــــالعبير!
لكــــنَّ أنفاســـــي، إذا مــــازجن أنفـــاس الهجـــــير
ذابـــت فزلـــزل ســـيلُها الفـــوَّارُ أقـــدامَ الصـــخور!

الجـــدولُ السلســـالُ والظـــلُّ المـــرنّحُ بالميـــاه
والشـــاعر الهيمـــانُ يشـــرق بالوداعـــة نـــاظراه
يستشـــرف الأفـــقَ البعيـــد فيســـتحيل علـــى مـــداه
روحـــاً محلقـــةً ولحنـــاً يهمـــس الـــوادي صـــداه
مـــاذا وراءك يـــا حيـــاة؟

تلك الغصـــونُ الشـــاحبات وقـــد خـــتمن علـــى الحفيـــف
ينظـــرنَ ناحيـــة الشـــتاء ويلـــتفتن إلى الخريـــف
فيريـــن في الأفـــقِ البعيـــدِ غضـــارةُ الصـــحو الشـــفيف
والموقـــدُ المجنـــون يـــرمقهن بـــاللحظ المخيـــف..!
أإلى احتـــراق أم رفيـــف
تلك الغصـــون؟ ســـل الحيـــاة

ذاك الجنـــاح.. أمـــا تـــراه يكـــاد يغـــرق في الفضـــاء؟
يطفـــو ويرســـب، مثـــل نجـــم بـــين ومـــض وانطفـــاء
أو كالرجـــاء، لـــو انَّ في الأكـــوان أجمعهـــا رجـــاء

لم يؤرخ الشاعر هذه القصيدة، ولكنها من حصاد عام ١٩٤٧. من الطبعة الأولى لديوان "أزهار ذابلة".

ذاك الجنـــاح، أللثـــرى هــــو في غـــد أم للســـماء؟

مـــا بـــين نشـــر وانطـــواء..

أكـــذاك شـــأنك يـــا حيـــاه؟

يـــا للـــتلالِ.. أكـــاد أهتـــف دون وعـــيٍ بالســـوال:

مـــاذا وراءكِ؟ أهـــو نـــور مـــا وراءكِ أم ظـــلال؟

ســـهلٌ يطـــوف بـــه النـــداء فـــلا يرجَّـــعُ، أم تـــلال؟؟

القـــبح خلـــف الشـــاهقات الشـــم غـــاب، أم الجمـــال

إن الحقيقـــــة كالخيـــــال!

والموت مـــن صـــور الحيـــاه..

تلـــك الزهـــور الـــذاويات أكـــنَّ يعـــرفن الغـــرام..؟

مـــا حبـــهن؟ نـــوىً وصـــدٌ، أم عنـــاق والتثـــام؟

والغـــدر – يـــا غـــدرَ الزهـــورِ!! أهـــنَّ يشـــبهن الأنـــام؟

الحـــب مصـــباحُ الحيـــاةِ، فمـــا لقلـــبي في ظـــلام؟

مـــالي حُرمـــت مـــن الهيـــام؟

أوَلســـتُ زهـــرا يـــا حيـــاه؟

يـــا دوحـــةً بـــين الرمـــال تكـــاد ترتشـــف الغـــدير،

إن نَشَّـــرَ الليـــلُ البـــهيمُ ذوائـــبَ الـــنجم الأخـــير

بـــين الغصـــونِ الحالمـــاتِ المصـــغياتِ إلى الهـــدير،

حـــتى خفقـــنَ علـــى الميـــاه كخفقـــةِ الـــنَفَسِ البـــهير –

ما حـــال عاشـــقك الصـــغير؟

هل كـــان يثبـــتُ في هـــواه؟

بـــالأمس كنـــتُ أفـيض بالشـــعر النـــديِّ علـــى تـــراب!!

فنفخـــتُ مـــن روح الربيـــع بـــه ومـــن ســـحر الشـــباب

ظلّلتُـــــه زمنـــــاً بأجنحـــــة الفـــــراش وبالســـــحاب

واليـــوم أضـــحَى مـــا غرســـتُ لقـــىً لمنقـــار الغـــراب

وا حسرتا لي؟ كيـــف خـــاب

في النبـــت ظـــني في حيـــاه؟

هـــو جـــدولٌ ضـــحلُ الميـــاه يلـــوح ظـــلُّ الـــنجمِ فيـــه

فتـــبين أبعـــادُ الســـماواتِ الفســـاح لناظريـــه

حـــتى إذا بســـط الأوامُ عليـــه أيـــدي واردیـــه

فـــر القـــرار مـــن الأكـــف وعـــاد يســـقي شـــاربيه

طينـــاً... فلـــيس يقـــول آه

غـــير المفجـــع في صـــداه

لســـت المفجـــع يـــا حيـــاه!!

يــا ليــالي

(إلى السمراء ذات الغلالة الزرقاء)

واعــذاباه مــن خطــاكِ الثقــالِ ... وانتظــاري لوقعهــا، يــا ليــالي!

قَــرِّبي موعــدَ الهــوى، والتحايــا ... مــن ألــيفْينِ ألحَفَــا بالســؤال؛

ينفضــان السـماء نجمــا فَنجمــا ... بين بحثٍ عــن الضــحى وابتــهال

الخريفُ الكئيبُ ما زالَ خلف التــل ... عريــانَ لائــذاً بــالظلال

فانزعي عن يمينــه صــبغةَ المــوتى ... ورشّي بهــا اخضــرارَ الــدوالي

إن يومَ اصــفرارها موعــدُ اللقيــا ... علــى غــير موعــدٍ بالوصــال

واملأي، بالنجومِ مصهورةَ الأضواء ... ما اســوَدَّ مــن فــراغ الهــلال!!

قربي موعد الهــوى يــا ليــالي

أين حقلٌ علــى الليــالي حصــانُ ... مــاج فيــه الشــعاعُ والألــوانُ

راوحتــه الفصــول في الموكــب ... الرفّاف، يحدوه كوكــب أضــحيان

لوَّنتْ كلّ خطــوةٍ مــن خطاهــا ... زهــرةٌ، حــين هــاجهن الرهــان

حار فيه الربيع لا يعــرف التــأريخَ ... فالــدهر كلــه (نيســان)؟؟

أين حقل هناك، مّني لــه الإنشــادُ ... والبــث.. وهــو منــه الحنــان

واتكائي علــى الأزاهــير نشــوانَ ... ومــن حــولي الوجــوه الحســان

كتب الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٩٤٧/٩/٢٠.

كم تسلمتُ موعداً في حناياه فغنيتُ واستعادَ الزمان:

قربي موعد الهوى، يا ليالي!

أيها الريفُ، ما ذممتُ المقاما في مغانيكَ، لو وجدتُ الغراما

ليس حقلي هناك أندى عبيرا منكَ – لو لم يعطر الأقداما

وَهْيَ تسعى إلى لقاء، ولو لم يجمعِ العاشقيْنِ عاما فعاما

إنما جنةُ الهوى حيث حواءُ، وإن كانت الجحيمَ اضطراما

أنتَ نبهتَ غافيا من خيالي ناسجاً حول جرحي الأحلاما

خلوة في الظلال، يا ريفُ هزَّتْ من أمانيَّ فانتزعتُ اللثاما

سافراتٍ تقول منهن عذراءُ لأخرى أما سئمتِ الظلاما؟؟

قربي موعد الهوى، يا ليالي!

خلوة في الظلالِ.. والأشقياءُ بين باكٍ وغائبٍ، يا سماءُ؟؟

خلوة.. تذهب الليالي وتأتي ما لها بالمتيمين امتلاءُ..

بالحَر الغليلِ، إن فاضت الأقداحُ نوراً، وغابتِ الصهباء!

واكتئابي وحسرتي كلما رانت على الريفِ ليلةٌ قمراء!!

فالضياءُ الظلامُ، إن كان لا يطوي على الدفء ساعديُّ الضياء:

إن شوكاً يدوسه الحبُّ أغلى من أزاهيرَ رفُّهُنَّ الجفاء..

خلوة في الظلال في غابك النائي كأنَّ السكونَ، فيها، نداء

قربي موعد الهوى، ياليالي!

قد سئمتُ الربى.. مللتُ الضفافا ... أحسبُ الموجَ أو أعدُّ الخرافا

مثلما عدَّ أنجمُ الليل عرّافٌ ... فأنبتْ، بموته، العرافا

أيها الشاطئان، أوْهَى جليدُ الموت ... كفّي، فأرخت المجذافا

وكأني أرى بعينيَّ غوراً ... قاتماً أحتسي دجاه ارتجافا

أهبطُ الموجَ سُلّماً باردَ الألوان ... حتى أعانقَ الأصدافا

يا لمثوايَ أعظماً قضقضتهن ... الأعاصيرُ والعبابُ اجترافا

حيث لا نادبٌ سوى اللجِّ زخّاراً ... على أضلعي يعيد الهتافا

قربى موعد الهوى يا ليالي

عاشق ينسجُ الرؤى من عناقِ ... يتمناه بعد طول الفراق!!

حالم جَنَّحَ الأساطير بالأشواقِ ... واصطادهُنَّ بالإطراق

هكذا كان حاله، قبل لقياها ... على غير موعدٍ بالتلاقي

كان عبد المنى.. فلما رآها ... صاح: يا أمنيات حلّي وثاقي

تلك حوائي التي حَدَّثَ الفردوسُ ... عنها، ففاض بالأشواق

يا معيناً يقطر، الحب من قلبي ... وذوب الشباب في أعراقي

يا حياة تدفقت ملء صحرائي ... تبلّ احتراقها واحتراقي

قربى موعد الهوى يا ليالي

في المساء الكئيب، دَوَّى نداءُ ... ضاقتِ الأرضُ فاحتوته السماءُ

بين تلك التلالِ، حيث السواقي ... تعتريهن وحشةٌ وانطفاء

والضباب الشفيف ينحَلُّ ... كالأطيافِ في خاطر طواه الفناء

علقتْ فيه نجمةٌ، فهو ظلّ ... ألهبته الفراشة البيضاء

وهو رؤيا، توهجتْ بالهوى فيها ... وبالوجد، قبلةٌ عذراء

بين حث التلالِ ناديتُ: يا سمراء ... حتّى وَهَى وبُحَّ النداء

م يجبني سوى صدى حائرِ ... الإيقاعِ باكٍ، يصيح: يا سمراء!

واختفى موعد الهوى في الليالي

أين ألقاك؟! ضجَّ أمسي يناديكِ ... وألهبتِ حاضري بالسؤالِ

كلما أ شرقتْ، على قلبي المقرورِ ... عيناك من سماء الخيال

قلبي الراكد الذي انداح فيه ... صوتُكِ الناحلُ الصدى كالظلال

ذلك الجدولُ الذي جمدتْه ... في الشتاء الحزين، ريحُ الشمال

كلما أشرقتْ، على قلبي المقرور ... عيناك – في ظلامِ الليالي

ذاب غلُّ الجليد من صوتك الفضيِّ ... سكرانَ بالصبى والجمال

أنتم الخائنون كلّ الرجال

سائلي أنجم الدجى عن هوانا ... أيُّنا أخلفَ العهود وخانا

منذ أن مزقَ الظلام اتقادٌ ... صاغ من هزةِ السكون الزمانا

واسألي "شاعر الليالي"[1] غناءً ... هز (فينيسَ) رقةً وحنانا

يرقب (البرجَ) عدّت الساعةُ الثكلى ... عليه الخطوبَ والأحزانا

---

[1] الشاعر الفرنسي، الفريد دوموسيه، صاحب ديوان الليالي وفينيس – البندقية – المكان الذي فر إليه الشاعر وحبيبته الكاتبة الشهيرة (جورج صاند) والبيتان التاليان لهذا البيت مقتبسان من موسيه، قال: (دعي ساعة البرج، في قصر الدوج، تعد عليه لياليه المسئمات واتركينا نعد القبلات على ثغرك العاصي!) – الهامش للشاعر.

أين ثغـر يعـدّ بالقُبَـلِ الحَـرّى		عليـه الوجيـبَ والخفقانـا؟

أين من أقسمتْ له، وهْي سـكرى		في ذراعيـه نشـوةً واحتضـانا

السراج الكئيب ولاريـحُ والتقـويمُ		ينسـجنَ حولـه الأكفانـا

وهي سكرى تعبُّ كأس الوصال

واعـذاباه كـم أطلّـتْ عيـونُ		من ظلامِ الثرى، ترى مـن نكـونُ

نحن مَنْ لم تصـدّنا حرمـةُ المـوتى		فجئنـا نقـولُ: كانـتْ تخـرن!!

هذه البيـد مزقـت برقـع الآلِ[1]		فهبّـتْ مـن الرقـاد القـرون

وانثنتْ تقتفي على رملـها النـاس		خطـىً غـلّ وقعهـن السكون

نقلتها على الثرى أرحـلٌ حـيرى		طـواهنَّ داؤهُـن الـزمين

أنظـريهنَ واقفـاتٍ.. حيـارى		مطرقـاتٍ تذيبـهن الشجون..

واسمعيهن: ها هنا ماجـتِ الـدنيا		وخـرَّ المعـذَّبُ (المجنـون)[2]

أين "ليلاه"؟؟ خبري يا ليـالي؟

عَـافَ كـلَّ الحيـاة إلا هواهـا		ليتـه خـانَ ودَّهـا أو جفاهـا

أيـن مـا تـدَّعي؟؟ أحنَّـتْ كمـا حـنَّ اشـتياقاً وذاب آهـا فآهـا؟

الهـوى بيـتُ عاشـقيْنِ اطمأنـا		لا سؤالٌ: أأنتَ قبلـتَ فاهـا[3]؟؟!

يشرف الحبُّ جامعاً بـين زوجـين		بصـفو الحيـاةِ أو في شـقاها

---

[1] الآل: السراب – الهامش للشاعر.

[2] مجنون ليلى – الهامش للشاعر.

[3] إشارة إلى قول (المجنون) مخاطبا زوج ليلى:

بـربك هـل ضممت إليك ليلى		قبيـل الصبـح أو قبلـت فـاها؟

يكن الغدُ المرجَّى صداها يُكَنُّ الغـدُ المرجَّـى صــداها

يقرأ النص:

ينسجان الزمانَ من قبلةِ سكرى ... يُكَنُّ الغدُ المرجَّى صداها
كلما صوَّرا، من العطفِ، أختاً ... صَوَّرا بين ساعديها أخاها،
يغرسان الورود في قلب "قابيل" ... فيحيي "هابيل" طيبُ شذاها
ضامدا بالإخاء جرح القتال

واعذاباه من خطاكِ الثقالِ ... وانتظاري لوقعها، يا ليالي
قربي موعد الهوى، والتحايا، ... بين أليفين ألحَفَا بالسؤال..
الخريفُ الكئيبُ ما زالَ خلف التلِّ ... عريانَ لائذا بالظلال..
فانزعي من يمينه صبغةَ الموتى ... ورشّي بها اخضرارَ الدوالي
قربي موعد الهوى، يا ليالي!

- الهامش للشاعر.

خطـاب إلى يــزيـد

إرمِ السماء بنظـرةِ اسـتهزاءِ ... واجعلْ شـرابَكَ مـن دم الأشـلاءِ

واسحق بظلك كلَّ عـرضٍ ناصـعٍ ... وأبـحْ لنعلـك أعظُـمَ الضـعفاءِ

واملأ سراجك إن تقضّـى زيتـه، ... ممـا تـدر نواضـبُ الأثـداءِ

واخلع عليـه كمـا تشـاء ذبالـةً ... هدب الرضـيع وحلمـة العـذراءِ

واسدر بغيِّكَ يا يزيد فقـد ثـوى ... عنك (الحسـين) ممـزَّقَ الأحشـاءِ

والليل أظلَمَ والقطيع كمـا تـرى: ... يرنـو إليـك بـأعينٍ بلـهاءِ

أحنى لسوطِكَ شـاحباتِ ظهـوره ... - شأن الذليل - ودبَّ في استرخاءِ

وإذا اشتكى فَمَنِ المغيثُ؟ وإنْ غفـا ... أيـن المهيـب بـه إلى العليـاء؟!

مثَّلتُ غـدرَكَ.. فاقشـعر لهولـه ... قلـبي وثـارَ، وزلزلـتْ أعضـائي

واستقطرتْ عيني الدموعَ ورنقـتُ ... فيهـا بقايـا دمعـةٍ خرسـاءِ

يطفو ويرسـبُ في خيـالي دونهـا ... ظـلٌّ أدقُّ مـن الجنـاح النـائي

حـيرانُ في قعـر الجحـيمِ معلـقٌ ... ما بـين ألسـنة اللظـى الحمـراء!

أبصرتُ ظلَّك يـا (يزيـد) يرجُّـه ... موجُ اللـهيب وعاصـفُ الأنـواءِ

رأس تكلَّلَ بالخنا، واعتـاض عـن ... ذاك النضـار[1] بحيَّـةٍ رقطـاءِ

ويدانِ موثقتـانِ بالسـوط الـذي ... قد كان يعبـثُ أمـسِ بالأحيـاء!

قم واسمعِ اسْمَكَ وهو يغـدو سُـبَّةً ... وانظر لمجدك وهـو محـضُ هبـاءِ

---

[1] النضار – الذهب – الهامش للشاعر.

تنظر إلى الأجيال يأخذ مقبلٌ ... عن ذاهب ذكرى أبي الشهداء

كالمشعل الوهّاج – إلا أنها ... نور الإله يجلّ عن إطفاء

غصّتْ بي الذكرى، فألقتْ ظلّها ... في ناظريَّ، كواكبُ الصحراء

مبهورةَ الأضواء يغشَى ومضَها ... أشباحُ ركب لجَّ في الإسراء

أضفَى عليه الليلُ ستراً حِيكَ من ... غرف الجنان ومن ظلالِ حراء

أسرى ونام.. وليس إلا همسة ... باسمِ (الحسين) وجهشة استبكاء

تلك (ابنةُ الزهراء) ولْهَى راعها ... حلم ألمَّ بها مع الظلماء

تُنبي أخاها وهي تخفي وجهها ... ذعراً، وتلوي الجيد من إعياء

عن ذلك السهل الملبَّد يرتمي ... في الأفق مثل الغيمة السوداء

يكتظ بالأشباح ظمأى حشرجتْ ... ثم اشرأبتْ في انتظار الماء

مفغورة الأفواه – إلا جثة ... من غير رأس لطخَتْ بدماء

زحفتْ إلى ماءٍ تراءَى، ثم لم ... تبلغه – وانكفأت على الحصباء

غير (الحسين) تصده عما انتوى ... رؤيا.. فكُفّي يا ابنةَ الزهراء

من للضعاف إذا استغاثوا والتظت ... عينا (يزيدَ) سوى فتى الهيجاء؟

بأبي عطاشى لاغبين، ورضّعاً ... صفرَ الشفاه خمائص الأحشاء

أيدٍ تمد إلى السماء، وأعين ... ترنو إلى الماء القريب النائي

طامٍ، أحلّ لكلّ صادٍ وِرْدَه: ... من سائبٍ[1] يعوي ومن رقطاء

عزَّ الحسين وجلّ عن أن يشتري ... رِيَّ الغليل بخطة نكراء

آن يموتُ ولا يوالي مارقاً ... جمَّ الخطايا، طائشَ الأهواء

---

[1] السائب: الكلب، الرقطاء: الحية – الهامش للشاعر

فليصـــرعوه كمـــا أرادوا.. إنمـــا ما ذنـــبُ أطفـــالٍ وذنـــبُ نســـاء

عاجتْ بيَ الذكرى عليهـــا ســـاعةً مرَّ الزمـــانُ بهـــا علـــى استحياء

خفقتْ لتكشفَ عن رضيعٍ ناحـــلٍ ذبلـــتْ مراشـــفه، ذبـــولَ خبـــاء

ظمـــآنَ بـــين يـــديْ أبيـــه كأنـــه فـــرخُ القطـــاةِ يـــدفُّ في نكبـــاء

لاح الفرات له فـــأجهشَ باســـطاً يمنـــاه نحـــو اللجَّـــةِ الزرقـــاء

واستشفع الاب حابسيه على الصدى بالطفـــل يـــومئ باليـــد البيضـــاء

رجَّى الرواة فكان ســـهماً حـــزَّ في نحو الرضـــيعِ وضـــحكةِ اســـتهزاء

فاهتز واخـــتلجَ اختلاجـــة طـــائر ظمآن رفَّ ومـــات قـــرب المـــاء

ذكـــرى ألمَّـــتْ، فاقشـــعر لهولهـــا قلـــبي وثـــارَ، وزلزلـــت أعضـــائي

واستقطرتْ عيني الدموع ورنقـــت فيهـــا بقايـــا دمعـــةٍ خرســـاء

يطفو ويرســـب في خيـــالي دونهـــا ظـــلٌّ أدقُّ مـــن الجنـــاح النـــائي

حـــيران في قعـــر الجحـــيمِ معلَّـــقٌ ما بـــين ألســـنةِ اللظـــى الحمـــراء

حسناء. يهنئكِ الشبابُ الغضُّ والمالُ العميم
يهنئكِ يا بنتَ القصور الشمِّ أنك في نعيم
إن مَسَّ ظلَّ القصر بالأقدام بانيه اللئيم
الحاطمُ الصخرَ العَصيَّ بحدِّ معوله الأثيم
العامل العربيد يسفر عن محيَّاه السقيم
ورايتِ آثار الغويِّ بسِمة الثغر النظيم
أو طاف بالكوخ البعيد تَنهُّدُ الطفلِ اليتيم
فظَّاً يدنِّسُ وقعُه المسمومُ هزات النسيم
طهرتِ سمعَكِ بالغناء العذب والصوت الرخيم
حسناء يهنئك الشباب الغض والمال العميم

* * *

يهنئك يا حسناء هاتيك اللآلي والثياب
لم يضرِب الغوَّاصُ مهتاجَ الخواطر في العباب
أو يقطع الأنفاس والأمواجُ ترقص في ضباب
إلا ليحظى جيدُكِ الوسنانُ بالنطفِ الرطاب
يقطعنَ أنفاس المحبين الظماء إلى السراب
لم يشرب الفلاحُ وَسْطَ الحقل عريانَ الإهاب
والشمس تحرقُ، في رحاب الأفق، أشتاتَ السحاب

إلا ليلبسكِ الدمقس يضوع بالعطر المذاب
وسنان، يحرقُ أكبد العشاق في نار العذاب
فإذا عريتِ فعن دلالٍ عابث هتّكَ الحجاب
يهنيك يا حسناء هاتيك اللآلىء والثياب

* * *

لم تَسْرِ بنتُ الكوخ في أسمالها، تحت الظلام
مذعورةَ الألحاظ، عاثرة الخطى، بين الرحام
حيرى تودع خدْرَها المهجور، بالدمع السجام>
عذراءَ.. تطرحُ جسمَها المنهوك في دار الأثام
إلا لتُمْسي أنت طاهرةً، مصفات الغرام
أو تسهر الليل الطويل، على ذراع المستهام
فظٌّ يجرّعُها العذابَ وقد تخطّفه الغرام
إلا ليسقيك الكرى، مما يعصّرُ، ألف جام
ما دمتِ هانئةَ الجفون، إلى الضحى، دون الأنام
فلتسر بنت الكوخ في أسمالها تحت الظلام..

* * *

إن حَوَّمَ الموتُ المروّعُ فوق هامات الجنود
وجرى الدم المسفوكُ يخضب، بالأسى، بيض البنود
وهوى الرجالُ على الأسنة والنساءُ على اللحود
ولمحت أعناقَ الشعوب مصفدات في القيود.
فامضي إلى النار العتية بالأزاهرِ والورود!
ما شأنهنَّ إذا تألقت الأساور والعقود؟

تسعَى من الشـرق المخلـف، وهـو منتـهكُ الحـدود
قد بـات مخضـوب القبـور، وبـتِّ خاضـبةَ الخـدود
فلتحلمـي بـالعطرِ، والـذهب المصـفّى والـبرود
إن حـوَّم المـوت المـروع فـوق هامـات الجنـود

يهنيـك أنـك قـد ملكـتِ علـى رضـاك العـالمين
خَلّفـتِ أربـابَ الفنـون، حيـال خـدْرك سـاجدين
والكـادحون لغـير حسـنكِ لم يعـودوا كـادحين
فالنـاي، مثـل المنجـل الجبـار، مأسـورٌ، سـجين
والنغْمـةُ المطـرابُ، كـاللون المقيـد في الجـبين
أو فـوق هاتيـك الشـفاه اللعـسِ والطـرف الضـنين
في صـورةٍ ظلّـت تلونهـا دمـاءُ البائسـين..
والشاعر النشـوان، يَقْـبِسُ مـن جمالـك كـلَّ حـين
فنّـاً يحلـق فـوق أوهـامِ العـراة الجـائعين
يهنيـك أنـك قـد ملكـت، علـى رضـاك، العـالمين

حسـناء إنْ دام الشـبابُ فـإنَّ مالَـكِ لا يـدوم
والقصـرُ يـنفضُ بعـدَ حـينٍ، عنـه، أذرعـةَ النجـوم
فيعـود أنقاضـاً مصـدعةً يجللّهـا الوجـوم..
يمشـي عليـه الثـائر الغضـبان بسّـامَ الكلـوم
الحـاطم المسـتعبدين، وكـل جبـار ظلـوم.
العامـل الموتـور، يأخـذ بـالترات مـن الخصـوم

يحنو على الطفل اليتيم، كأنه الأم الرؤوم
فإذا اكتئابُ الكوخ بِشْرٌ لا ترنقه الهموم
وإذا التنهد أغنيات، في جوانبه تحوم..
حسناء إن دام الشباب فإن مالَكِ لا يدوم

إن اللآلئَ سوف تنزعها الأكفُّ الداميات
فيقر قلبٌ، في المقابرِ أو عيونٍ مطفآت
قلب تَنَقَّلَ، في البحار، على زئير العاصفات
وعيون غواص هتكنَ دجى الليالي المظلمات
وبحثن في الأغوار، والأمواج كالحية الثبات
عن كلِّ ما حَوَتِ القلائدُ، من لآلئ لامعات
حسناء والدنيا بأجمعها تفيق من السبات
قد آن أن تنسَلَّ أثواب الدمقس العاطرات
من جسمك الكاسي، إلى تلك الجسوم العاريات
فإذا أبيتِ فسوف تنزعها الأكفُّ الداميات

حسناء والشعبُ المقيَّدُ، ليس يبخل بالدماء
تجري سيولاً، تجرفُ الأصفادَ صاخبةَ الحداء
وحناجر الأبطال تقتحم العواصف بالنداء
يا أيها المستعمرونَ إلى الجلاء.. إلى الجلاء
لن تشهدي والليلُ مختنقُ الكواكب في عماء
عذراءَ تطرح جسمها المنهوك في نار البغاء

فـالجوعُ والعـريُ اللـذان تجاذباهـا في المسـاء
ذابـا علـى نـور الصـباح، وذاب أصـحابُ الثـراء
في موكـب الشـعب المفيـق يسـير خفـاقَ اللـواء
لا يبخـل الشـعب المقيـد، بالضـحايا والـدماء

* * *

إن قَطَّـبَ المـوت المـروِّعُ، في وجـوه الثـائرين
وجـرى دم المظلـوم يسـبَحُ في دمـاء الظـالمين
فـالأفْق مختصـم العواطـف، مكفهـر لا يـبين
شـد الهتـاف علـى هتـاف، والأنـين علـى أنـين
وطغـى دُخَـانٌ في اليسـار علـى دخـان في الـيمين
فلتعلمـي أن الأسـاور سـوفَ تنـزع بعـد حـين
أن السـجين نـزًا فَحَطَّـم عنـه أغـلال السـجين
والشـرق محمـيُّ الحـدود بكـلّ محمـيٍّ العـرين...
ولتعلمـي أن الأسـير يخـط لَحْـدَ الآسـرين..
إن قطـب المـوت المـروع، في وجـوه الثـائرين

* * *

والفـن ألمـر واسـتحالَ إلى سـواعدَ لا تلـين
غضـى، تمـوجُ لتسـتقر علـى رقـاب الظـالمين،
هـو دمعـة الثكلـى، وقفقفـة العـراة الجـائعين
وتَمُـرغُ المكلـومِ في دمـه، وأحـلام السـجين

وهو ابتسامات الضحايا، وانتفاض الثائرين

فلتنبت الأرضُ الخرابُ[1] على سنا النجم الحزين

صبَّارَها.. إنا سنملأ عالَمَ الغدِ ياسمين

ولتَلْظَ أحداقُ الطغاة فسوف تطْفَأ بعد حين

إن رنحْتَها، حيثما اتقدتْ، سواعدُ لا تلين

غضبى، تموج لتستقر على رقاب الظالمين

[1] "الأرض الخراب": عنوان قصيدة للشاعر الإنكليزي الرجعي ت.س. أليوت – الهامش للشاعر، وقد كان بدر يصف اليوت بأنه شاعر رجعي في تلك المرحلة فحسب، أي أثناء التزامه بالخط اليساري الثوري، وانخراطه في صفوف الحزب الشيوعي العراقي.

قصـــائد للشـــاعر
لم تنشر في دواوينـه

عــــادهُ الشــــوق

عادَه الشـــوقُ وفاضـــت عبراتُــهْ فشكا البعدَ وهل تجـدي شـكاتُهْ؟

قلبُ صبٍّ خطّت الـذكرى بـه لـك رمـزا، رددتـه خفقاتـه

كلما حـاولَ صـبراً لم يطـقْ أيطيقُ الصبر مـن غابـت هناتـه؟

راعه أن مـر بالحقـل.. ضـحى فـرأى البلبـل تتـرى حسـراته

أُسِرَتْ بالقلـب آهـات النـوى وقـديماً أسـرته ذكرياتـه

فـإذا بالقلـب لا يكتمهـا.. فتـداعت مـن صـداها جنباتـه

بفؤادي صـاحبٌ رقّـتْ سماتـه تبعـث النـوحَ إلينـا زفراتـه

حركت نجـواه في القلـب لظـىً إن سـقاه الـدمع زادت شـعلاته

واحبيبـاه بنفسـي مـا تـرى مـن عـذاب شملتنـا نكباتـه

صَبِّر الـنفس عسـى أن نلتقـي فـإذا خالـد تحلـو بسـماته

وإذا بغـدادُ لحـنٌ للـهوى تمـلأ القلـبَ نشـيداً "فتياتـه"

وردت هذه القصيدة في مستهل رسالة أرسلها الشاعر إلى صديقه خالد الشواف من البصرة بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٤٢ (ص ٨ من رسائل السياب – جمع وتقديم ماجد السامرائي).

الخريف

قاد الخريفُ مواكبَ الأيامِ — فالدوحُ ناءٍ في يد الأنسامِ

تشدو به ألحانها فتهزه — بحديثِ حمرِ عذبةٍ وغرام

أضفى على الورقاتِ صفرةَ عاشقٍ — حُصِدَتْ مناه بمنجل الآلام

حتى إذا هتفَ النسيم بلحنه — حنَّتْ لإلفٍ في ربى الأوهام

فتخف أجنحةُ النسيم لحملها — صعدا فتهجر غصنها المتسامي

فإذا تبدَّدَ وهمها وتدافعتْ — أشجانها في مهبط الأحلام

سقطتْ فكلُّ وريقةٍ قيثارةٌ — مقطوعةُ الأوتار والأنغام

عبرت أغانيها الغناءَ وأصبحتْ — تُوحي إلى الفنان بالإلهام

ولعلها رأتِ المروجَ أمامها — عريانةً من ثوبِ عشب نام

قد أغمضتْ كفُّ الغناءِ زهورَها — وبكى الرعاةُ لوحدةِ الآكام

لا طيرَ يونسُها بمائجِ لحنه — ويدفُّ عبر فضائها المترامي

فهوت تنبِّهُها.. ولكن لا يعي — الأمواتُ لحنَ الحبِّ والتهيام

قد أصبحتْ كفناً لآخرِ زهرةٍ — وُلِدَتْ على فمِ صيفها البسام

تلك الشواطئُ أين همْ روّادُها — كيف انثنوا عنها بقلب دام؟

فلقدْ أُلِمُّ بها وحيداً شارداً — لأعيدَ ذكرى سالف الأيام

وردت هذه القصيدة في رسالة أرسلها الشاعر إلى صديقه خالد الشواف من البصرة بتاريخ ٢٣/١١/١٩٤٢. (ص ١٢ من رسائل السياب)

مضى أسائلها أيرجعُ ما مضى ... ويجودُ من أهواه بالإلمام؟
أرِدُ البحيرةَ أقتفي بضفافها ... آثار حبٌ يرتجيها الظامي
رقَدتْ على أمواجها أحلامُنَا ... وتعانقت في أُلفةٍ ووئام
وغدا يُرجِّعُ ماؤها أنغامَنَا ... للصخرِ حيناً والغدير الطامي
لفراشة الوادي تودِّعُ نورَه ... الذاوي فتبعثُ حيرةَ الأنسام
وعلى جذوعِ الدوحِ من أيامنا ... أثرٌ يخلِّدُها مع الأعوام

قد مر مثلي بالبحيرةِ طائرٌ ... فَقَدَ الأليفَ وعاد بالآلام
حيرانَ تدعوه الغصون فينثني ... عنها ويضرب سادراً بحِيام
ما زال يَنشُدُ في الربوع أليفَه ... فتجيبه الذكرى من الأيام:
"ذهب الحبيبُ فأنتَ وحدك بعده ... تأوي وجرحُكَ لبس بالملتام
فلعلَّ في الذكرى لقلبك سلوة ... ولعلَّ في الذكرى ارتواء الظامي
والموجُ يهمس في الضفاف بلوعة ... "قد جفَّ نبعُ الطلِّ في الأكمام
فأشعةُ الفجر العذارى بعده ... ظمأى لينبوعِ الجمالِ السامي
والفجر أُبدلَ من شجيِّ خريره ... بعويلِ عاصفة على الآكام
وجلا من الأفق البعيد مسارحاً ... للسُحْبِ تذرع جوَّه المترامي
والروضُ أبدل من غناء طيوره ... وصياحِ قبرةٍ وشدوِ حمام
نعيب غربانٍ تَبَعْثَر موحشاً ... بين الربى فطغى على أنغامي
حاوَبتْ بين المروجِ مزاهرٌ ... ألحانُها دمعُ الرعاة الهامي
كل يذيعُ ذكريات ربيعه ... فالذكرياتُ ثمالةٌ في الجام

مريضة

حبيبةُ القلب أضحَى السقُم رائدَهَا … فمنْ وفاء لها لو كنت عائده

وإنَّ وِزْضاً على من كان يعذلها … أن لم تعاوِدْه يوماً أن يعاودها

يا من يضن عليها بالزيارةِ هل … ضنَّتْ عليكَ بقلبٍ كان واحدها؟

إن كنتَ قد همتَ حقا فَهْيَ عاشقةٌ … فهل تُعكِّرُ يا هذا مواردها؟

أو كنتَ قد حدتَ عنها فهي باقية … على هواكَ فهل تنسى محامدها؟

لا لم أحدْ عن هواها فالفؤاد لها … والروح طوع يديها لن تعاندها

وهلِ أصدُّ وقلبي لا يطاوعني … وكيفَ كفري بمن قد كنت عابدها؟

جفوتُ خوفَ رقيبٍ باتَ يرصدنا … فإن تغافلتُ باتَ القلبُ راصدها

مريضةٌ؟ لك ربي يا (هويلُ) ولي … وللقلوب التي ضلت مقاصدها

مريضة؟ لم ينلك الداءُ واحدةً … فالروح مثلك عاد الداء وافدها

مريضة؟ ويحَ قلبي كم يكيد له … علمي بذاك وداء كنت واردها

قريبة منك داري والزيارةُ لا … يا للحبيبة صعب أن أشاهدها

إذا انقطعتُ عن الدنيا فلي صلةٌ … بمن أحبُّ فكنُ يا قلبُ عائدها

وردت في هذه القصيدة في رسالة أرسلها الشاعر إلى صديقه خالد الشواف من البصرة - عشار بتاريخ ١٩٤٣/٣/٩ (راجع رسائل السياب - ص ١٩)، وقد أرخ ماجد السامرائي - الذي جمع رسائل الشاعر - هذه القصيدة بتاريخ (١٩٤٣/١١/١٥) وهذا خطأ واضح لأن الرسالة ذاتها مؤرخة بتاريخ ١٩٤٣/٣/٩، فكيف يمكن إذن أن تكون القصيدة الواردة بها مؤرخة في ١٩٤٣/١١/١٥؟! وقد أشار الدكتور إحسان عباس إلى هذه القصيدة في دراسته عن الشاعر، وأثبت تاريخها الصحيح وهو (١٩٤٣/١/١٥) - راجع د. إحسان عباس - بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره - ص ٤٢.

الشتاء

يا رُبَّ أمسيةٍ أظَلَّ سحابُها ... الدنيا وعاد شتيتُه يتواءمُ

فَرَقَتْ إليه من الرياح مغازل ... وغدت وشائعُ قطره تتساجم

حتى إذا سطعتْ ذُكاءُ بنورها ... واستقبلتْها للجمالِ عوالم

وسمت مع الأنسام في معراجها ... قطراتُ غيثٍ للشعاع بواسم

عاجتْ إلى القطرات من دنيا السنا ... غيدٌ عذارى كالظباء تباغم

ولجتْ هناكَ خدورها واستسلمتْ ... للنومِ وَهْي بمن تحب حوالم

فإذا نوافذ كل خدرٍ أطلعتْ ... حلما تمد له الجناح نسائم

فتلاءمت أحلامهن وكونت ... قوسَ السحاب و لم تزل تتلاءم

وكأنما قوسُ السحابِ وقد بدا ... أوتارُ قيثارٍ مضت تتنادم

فتقاربتْ حتى يعاود عزفها ... مرح الأنامل بالملاحن عالم

هذا الشتاءُ فأوسعوه تحيةً ... فوراءه إنّ الربيعَ لقادم

وردت هذه القصيدة أو بالأحرى هذا الجزء منها في نفس الرسالة التي وردت بها القصيدة السابقة "مريضة" – رجع ص ١٩ من رسائل السياب.

فـي الغــروب*

وقــف المســاء بضــوئه المتغــورِ تعباً على الشــط الكئيــب المقفــرِ

والشمس في الأفق المزوق بالســنا كرة من اللهب الضــئيل الأصــفر

عقدت على ثــبج الميــاه خيالهــا فجرى وسال كجــدول متحــدر

بل مثل درب بات يبســم للنــدى متألقــاً في جــنحِ ليــلِ مقمــر

الموج حفَّ بــه فكــان أزاهــرا براقــةَ الألــوان ذات تغــير

درب لعاطرة النســائم والشــذى ترتــاده ولطـــرفيَ المــتحير

ولأنجــم الليــل الحســان تجوبــه وتخــفُّ فيــه لأفقهــا المســتعبر

* * *

يا شمس عمري والمغيبُ تقاربــتْ لحظاتُــه منَّــا قفــي وتصــبري

هل تألفينَ وموج شعري لم يــزل متواصــلَ الوثبــات لم يتكــدر

من قبل أن تضعي على صــفحاته درباً من الأنــوار حلــو المظهــر؟

تمشي عليه من العطــور جــداولٌ ومــن الخيــال عــرائس لم تبصــر

وتُمرغ النســمات فيــه جبينــها وتجوبــه نظــراتُ كــلِّ محيَّــر

وتمر فيه مــن النجــوم كواعــبٌ تســمو لآفــاق الخيــال المســكر

يا موجَ شعري في غــدٍ أو بعــده سيضيء شطَّكَ دربُ نــورٍ فاصــبر

* * *

---

* كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ ١٩٤٦/١/٥.

وسحابةٍ مَلَكَ النسيم زمامها بيضاء تخطر في وشاح أحمر
نفخت ملائكة الدجى بشراعها وطوته في أفق الغروب الأكدر
وكأنما حسدتْ ذُكَاءَ فحجَّبَتْ بشراعها ألقَ الجبين المسفر
لِمَ يا سحابةُ تسترينَ ضياءَها أو ما كَفَتْ حجب الغروب لتستري؟
الشمس ذاهبة فلا تتعجلي والأفْقُ بين يديك فاسري واعبري
هي في الوداع وجئتِهَا فحرمتِها ما في الوداع من العزاء المثمر
وبعثتِ لي ذكرى غسلتُ دماءها ونسيتُها فوددتُ لو لم أذكُر

قسماً بمن أذكرتني بوداعها لقد ابتعثتِ صبابتي وتحسري
هي ذي "لبابةُ" والقلوبُ تحفها من كلِّ منكسر الجناح مسعر
جلستْ وما جلسَ الفؤادُ من الجوى وتبسمت فبكى ولم يتصبر
وهبتْ تحيتها لآخر غيره فبكى.. وقال لعلها لم تبصر
وقد اكتفى – لو أنصفته – بنظرة لكنها حرمتْه طيبَ المنظر
فتحجبتْ بسحابةٍ من صحبها وتسترتْ فصرختُ "لا تستري"
لو كان يسعفني البيانُ لصغتُها مرثيةً لفؤادي المتفطر

زهـــر وأنســـام.. ولا أتـــرنم ... أتـــرى الطبيعـــة كلـــها لا تلـــهم؟
لا النهر جف ولا الازاهر صوحت ... فعـــلام صـــمتُك؟ أيهـــذا الملْهَـــم؟
الزهـــر أيقظـــه تواثـــبُ نســـمةٍ ... وفراشة تحـــت الكواكـــب تحلـــم؟
والنهرُ قيـــدت النســـائمُ موجَـــه ... فهبوبـــه لهبوبهـــا مستســـلم
وعلـــى جوانبـــه النضـــيرة غـــادةٌ ... ترميـــه بـــالحجر النـــثير وتـــرجم
فـــإذا تراقصـــت الـــدوائرُ فوقـــه ... مثـــل المباســـم خلتـــه يتبسَّـــم
وأرى خيـــالي إن بكيـــت أفـــاده ... شـــجناً يـــردُّ مياهـــه تتـــألم
وإذا ابتسمتُ بـــدا خيـــالي باسمـــا ... فإذا الميـــاه مـــن البشاشـــة تبســـم
وإذا الدجى ركبتْ متـــونَ مياهـــه ... غشيت ملاعبَـــه الفســـاحَ الأنجـــم
ويزين صـــفحتَه النـــهارُ بضـــوئه ... فـــإذا النجـــومُ زنـــابقٌ تتضـــرم
الا يـــوهج مـــاءه ظـــلُّ الـــتي ... أهوى فخـــير منـــه كـــفٌّ مظلـــم
أيسرني - وأنا معـــاقرُ وحـــدةٍ - ... إن الطيـــورَ قرائنـــاً تتـــرنم؟
وإذا النسائم ما عبثنَ بشَـــعر مَـــنْ ... ملكتْ هـــوايَ فليتـــها لا تنســـم
أنّـــى التفـــتُّ فللتحســـرِ مبعَـــثٌ ... ومتى نظـــرتُ فللمـــدامع مســـجم
أيهـــز قلـــبي جـــدولٌ وبحـــيرةٌ ... وأرى على قمم الـــربى مـــا يلـــهم

وردت هذه القصيدة في رسالة أرسلها الشاعر إلى صديقه خالد الشواف من "أبو الخصيب" - بتـاريخ ١٩٤٤/٧/٢٦ والقصيدة ذاتها مؤرخة بتاريخ: ١٩٤٤/٧/١٥. (راجع رسائل السياب - ص ٣٠).

و (لبابُ) لم تطأ السهول ولا مشتْ ... فوق التلول حبيبةً تتبسم؟

أترى الطبيعة حركتْ من شاعرٍ ... فمضى بدون هوى دعاه يهيم؟

وترى البحيرةَ ماءها وصخورَها ... لولا تذكُّرُ (أو نعير)[1] — تتيم؟

وألذُّ من شعر الطبيعة غنوةٌ ... الحبُّ في جنباتها يتكلم

---

[1] ورد اسم "أو نعير" في هذا البيت، والواقع أن هذا خطأ، لا أستطيع أن أقول إنه من الشاعر أو من جامع الرسائل لأنني لم أطلع على الرسائل في صورتها الخطية. وصحة الاسم "أولفير" وهي حبيبة الشاعر الفرنسي لامارتين، التي تذكرها في قصيدته "البحيرة".

قصـة خصــام

أسكري أنجُم المســاء الطــروب   وارقصــي حــولهن حــتى تــذوبي

واتبعــي ظلَّهـــن في الجــدول الســاجي، وأشــباحهن بــين الــدروب

واســرقي مـــن لفـــائف الـــبرعم الغـــافي جنـــاحيْن رُقِّشَـــا باللـــهيب

رنقـــا حـــول هدبـــه ثم دفـــا   في رؤاه فراشـــةً مـــن طيـــوب

واصدحي في جوانحي يا أناشـيدُ،   ورفِّــي علــى شــفاه الغيــوب

الخصـــام الثقيــل ألقــت عليــه   ظِلَّهـــا ضـــمةُ التلاقـــي فـــزالا

واختلاج الشــفاه تلقــي ســؤالاً   غير مــا تشــتهي وتخفــي ســؤالا

والعيــــون الــــتي تظلــــل بالهــــدب اشــــتياقاً، ولهفــــةً، وابتــــهالا

والســـكون الـــذي يلملـــم أصـــداءَ التحايـــا، وينســـج الآمـــالا

والفـــراغ الـــذي يريـــد امـــتلاءً   والظنـــون الـــتي تخـــاف المـــلالا

كوكبٌ لاحَ، وانتظـــار تلاشـــى   في انتظـــار.. وضـــحكةٌ ســـوداءُ

نشرت هذه القصيدة في مجلة "البيان" العراقية التي كان يصدرها علي الخاقاني، في عددها ٦٩، ٧٠ - الذي صدر بتاريخ ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩، والأرجح عندي أن هذه القصيدة من حصاد عام ١٩٤٨ لا عام ١٩٤٩، وإن كان بدر قد نشرها في عام ١٩٤٩، وذلك لأنها تصور "قصة خصام" للشاعر مع زميلته "المنتظرة"... لميعة عباس عمارة، وقد انطوت صفحات القصة كلها عام ١٩٤٨، وفي عام ١٩٤٩ كان بدر بعيدا عن لميعة حيث كان يعمل مدرسا للغة الإنجليزية بإحدى مدارس لواء الرمادي، وكانت لميعة لم تتخرج بعد من دار المعلمين العالية.

وصدى تعرفُ الظهيرةُ معناه وكأسٌ يذوب فيها المساء

و(انتهينا)[1] تمر في كفي الكأس.. وحزن كأنه استهزاء

انتهينا؟! أهكذا قالت السمراء؟ هيهات! تكذب السمراء

انتهينا؟! أهكذا قالت السمراء؟ هيهات لن يكون انتهاء

إنه الليل و"انتهينا" هتاف في رقادي مفجع الأنغام

والرؤى السود مائجات على جفن يبوح انطباقُه بالمدام

جذوة في السماء كالشمس، حمراء.. وظلّ مقنع بالظلام

وشفاه على المدى شاحباتٌ و"انتهينا" صدى وراء الغمام

وجناحان يمسحان الشفاه الصفر بالظل تارة والضرام

(سوف ألقاكَ) همسةٌ من هوانا رددتها مع الضحى شفتان

الرنين اللجوج.. والهاتف المصغي إلينا.. وغصةٌ بالأماني

وانطلاق إلى اللقاء المرجَّى أنكرتْ فيه غيظَها قدمان

وظلال الخصام ضاعت لديها (سوف ألقاك) وانطوتْ فرحتان

لم تزل توثق الشقيّينْ حتّى حطمتها على التلاقي يدان!

[1] انتهينا.. كلمة كانت لميعة قد أنبأت بدر بها، وأثرت الكلمة في نفسه كثيرا، فراح يكررها عدة مرات، تماما مثلما أثر فيه قولها: "سأهواك حتى تجف الدموع.. وتنهار أضلعي الواهية"، وقد كرر بدر هذا القول في قصيدته "نهاية" بصورة ساخرة حيث أخذ يقطع عبارة الشاعرة، معلقا عليها إلى أن وصل في تلك القصيدة إلى تعليقه القائل: "سأهواك"... ما أكذب العاشقين!"..

أمّ سجين في نُقرة السلمان

في قلعــــةٍ جُبِلَــــتْ حجارتُهـــا ... بــدمِ القلــوب وبــاردِ العــرَقِ
ظلمـــاء يلـــهث في مغاورهـــا ... داجـــي الهـــواء لهـــاث مختنـــق
وتعفـــن الـــزمن الحبـــيس لـــدى ... جـــدرانها طبقـــاً علـــى طبـــق
وتلظـــت الصـــحراء فـــاغرةً ... عنـــها فـــم المتثائـــب القلـــق
حيـــث النـــهار هجـــيرةٌ ودجـــى ... والليـــل غاشـــيةٌ مـــن الأرق
قلـــب أعـــزُّ مـــن الحيـــاة علـــى ... قلـــبي.. يلـــوك بقيَّـــة الرمـــق

ما كـــاد يخطـــر أمـــسِ في بـــالي ... أني سأشـــهدُ مـــوتَ آمـــالي
إني أمـــد يـــدي فيمـــنعني ... عـــن أن أضـــمكَ حـــائطٌ عـــال
أأرى النجـــوم ولســـتَ تبصـــرها ... إلا خـــلال كُـــوىً وأغـــلال
تحنو وتســـطع.. مثلمـــا خفقـــتْ ... في ركضـــها أقـــدام أطفـــال
وشـــواطئُ الأنهـــار ضـــاحكةٌ ... لك والســـنابل والضـــحى العـــالي
وأظـــلُّ أحلـــم ثم ينبـــئني ... كيـــف انتـــهيتَ ســـريرك الخـــالي

أفللسّـــجونِ ولذّتـــه؟! أحـــرَى ... عرقـــي وزلـــزل جســـمي الألم

وردت هذه القصيدة في كتاب "الحكم الأسود في العراق" تأليف غائب طعمة فرمـان – ص ٦١، ٦٢، وهي من قصائد عام ١٩٥٢.

وضحكتُ والحمى ترج دمي ... والدمع في عينيَّ يضطرم

لما استهل وأدركته يدي ... ورأيت كيف تَجَسَّدَ الحلم

ليموتَ - أينع مايكون - طوىً ... بئسَ القضاءُ وبئستِ النظمُ

تلك العظام أكنت أطعمها ... لحمي، وأبنيها وألهزم

ليدكّها نملٌ ويركلها ... بحذائه المتجبِّرُ العرم

إني اغتصبت من الردى لمناً ... لدم الشهيد ودمعي الجاري

حسبوه بَخْساً وهو لو علموا ... وعد البذور بقطف أثمار

إني عرفت وقبلي اطلعتْ ... مقل الثكالى من كوى الثار

أنْ ليس من ولدٍ لوالدةٍ ... حتى يجندل كلّ جزار

حتى يحرِّرَ حيثما سمعت ... أمّ تدثر طفلها العاري

باسم السلامِ فداعبتْ فمها ... خلل الدموع طيوفُ آذار

إذا عـــدت مـــن وحـــدتي واغتــــرابي

أصـــيلانَ يـــومٍ حـــزين الســـحاب

حـــديقتُنا فيـــه تنضـــحُ موتـــا

وصمتَـــا

وتنتشـــــر أوراقهــــــا في اكتئـــــاب

وأنـــــت تلفـــين صـــمت الحديقـــة

علـــى غمغمـــات الأســـى في كتـــابي

تطلـــين منـــها بعـــينْ (وفيقـــه)

علـــى عـــالمٍ خلـــف ســـور الحديقـــه

إذا عـــدت أعجـــز عـــن طـــرق بـــاب

وعـــن صـــيحةٍ، مـــن بعيـــد، مشـــوقه

تـــدحرجني عجـــلاتٌ تـــدور

كدوامـــة المـــاء / شُـــدِدْتُ بكرســـي

ألوذ عليه بنفسي وبالانكســـار الهـــوى والحبـــور!

نشرت هذه القصيدة في جريدة "الأنباء الجديدة" العراقية – عدد ٢٣ – الصادر بتاريخ ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥. وهذا هو النص الكامل لها كما ورد في تلك الجريدة. والواقع أن هذه القصيدة قد نشرت ضمن قصائد "إقبال"، وهو الديوان الذي جمعه ناجي علوش بعنوان "حميد"، وقام جامع الديوان بحذف الأبيات من الأول إلى الثاني والعشرين – راجع ديوان "إقبال" – ص ٣٦، حيث تبدأ القصيدة بالبيت الثالث والعشرين من هذا النص الذي أوردته نقلا من جريدة "الأنباء الجديدة".

فـــــلا تمتفـــــــي: (آه.. واحســـــرتاه

تحطمـــــت قبـــل انقضــــاء الشـــباب)

فـــــإني لأدري بـــــــأن الحيـــــاة

قـــــد اســـــتدرجتني إلى الفاجعـــــة

إلى هـــــوة، كــــالردى، مـــــن عـــــذاب

وإني أحـــــاول نســـــيان مــــــا بي

وأتبـــــع أحلامـــــــيَ الخادعـــــــه

"حميـــــد" أخـــــي في الـــــبلاء الكـــبير

فقـــــد كـــــان مثلـــــي كســـــيحا

يـــــدب بكرســـــيه مســـــتريحا -

تســــاءلت عنـــــه فقـــــالوا: "يســـير

علـــــى قدميـــــه فقـــــد عـــــاد روحـــــا

لقـــــد مـــــات" يـــــا ويلنـــــا للمصـــير

ينـــــام ورجـــــلاه مطويتـــــان

شـــــهوداً علـــــى الـــــداء في قـــــبره

إذا مـــــا رأى الله رأي العيـــــان

وقـــــد ســـــار زحفـــــا علـــــى صـــــدره

فـــــأي انســـــحاق وأيُ انكســـــار

يشـــــعان مـــــن عينـــــه الضـــــارعه

ســـــيبكي لـــــه الله مـــــن رحمـــــة واعتـــــذار

وفي الساعة السابعه

إذا ذرت الريح ورد الغروب

سأجلس في الشرفة الخاليه

ومن تحتيَ الدرب يخفق، ينأى، يذوب:

ألوف من الأرجل الماشيه

إلى أي مبغى وراء الدروب

وخمارةٍ في الدجى نائية!!

إلى اللغو والقهقهات الكذوب!!

وألمح فيما وراء الظلال

حميداً وكرسيَّه في الخيال

فتخنقني اللوعة الباكيه

فأواه لو توقدين الشموع

لدى مسجد القريةِ المترب

تمد من النور خيطاً تعلّق فيه الدموع

ولو تضرعين، مع المغربِ

إلى الله: "يا ربِّ رفقاً بطفلي الصغير

وأبق أباه

وجنبهُ، يا ربِّ، هذا المصير!"

ولكنني من واحسرتاه!

هل كان حباً

هل تسمين الذي ألقى هياما؟
أم جنونا بالأماني، أم غراما؟
ما يكون الحب؟! نوحا وابتساما؟
أم خفوق الأضلع الحرى، إذا حان التلاقي
بين عينينا.. فأطرقت، فرارا باشتياقي
عن سماء ليس تسقيني، إذا ما
جئتها مستسقيا، إلا أواما؟

هل يكون الحب أني
بت عبدا للتمني!؟
أم هو الحب اطراح الأمنيات
والتقاء الثغر بالثغر، ونسيان الحياة؟
واختفاء العين في العين انتشاءا
كانثيال عاد يفنى في هدير

نشرت هذه القصيدة في ديوان "أزهار ذابلة" – ص ٦٨، وهي مؤرخة بتاريخ: ١٩٤٦/١١/٢٩ وقد كتبها الشاعر في بغداد، وبها يؤرخ لتاريخ كتابته أول قصيدة من الشعر الحر، وهي القصيدة التي يعده – بفضلها – كثيرون من النقاد والباحثين رائد الشعر الحر في الوطن العربي. وقد نشرت هذه القصيدة مرة أخرى في ديوان "أزهار وأساطير"، – ص ١٣٩. وقد أجرى الشاعر تعديلات كثيرة على النص الثاني المنشور في "أزهار وأساطير" كما سابين.

أو كظـــــــــل في غــــــــــدير
أمـــس... بـــالأمس التقينـــا في ســـفار
هـــاج ذكـــرى كـــاد ينســاها وينســاني زمــاني
كـــان يـــوم آمنـــتْ فيــه الأمـــاني بالأمـــاني
كـــان يـــوم فـــك عـــن ســـاعاته غـــل المـــدار
ثم أمســـــى تحـــــت أقــــدام الليـــــالي
مثـــــــل جـــــــرح في الرمـــــــال
داســــــه الركــــــب وســـــــارا...

يومـــك المرمـــوق... لا يـــوم تقضّـــى قبـــل عـــام
فـــاسمعيني، فالأمـــاني كلـــها أن تســـمعيني:
أذكـــرتني فرحـــة اللقيـــا بصـــهبائي وجـــامي
آن أن تحســـــي علــــى نخــــب العيــــون!
بـــــــت أســـــــقاها دهاقـــــــا
أحســـــــب الشـــــــرب اعتناقـــــــا
بيننـــا، هـــل كـــان حبـــا مـــا أعـــاني؟!

العيـــون الحـــور، لـــو أصـــبحن ظـــلا في شـــرابي
جفـــت الأقـــداح في أيـــدي صـــحابي

دون أن يحظـــــين[1] حـــــق بالحبـــــاب

هيئـــي يـــا كـــأس مـــن حافاتـــك الســـكري مكانـــا

تتلاقـــــى فيـــــه يومـــــا شـــــفتانا

في خفـــــــوق والتـــــــهاب

وابتعـــاد شـــاع في آفاقـــه ظـــل اقتـــراب!

أهـــي حـــب كـــل هاتيـــك الأمـــاني؟

أم رؤى ســـكران بحنـــون اللغـــى طلـــق المعـــاني

غـــارق الألحـــاظ في غـــور مـــن الأقـــداح نـــاء

راســـم بالإصـــبع الحمقـــاء، في عـــرض الفضـــاء

كـــل أسمـــاء الحبيبـــات الحســـان

كلمـــا نـــادى أتـــاه الســـاقيان

بـــالطلى آنـــا وآنـــا بالأغـــاني؟

كـــم تمـــنى قلـــبي المكلـــوم لـــو لم تســـتجيبي

مـــن بعيـــد للـــهوى أو مـــن قريـــب

آه لـــو لم تعـــرفي، قبـــل التلاقـــي مـــن حبيـــب!

أي ثغـــر مـــس هاتيـــك الشـــفاها

ســـاكبا شـــكواه آهـــا ثم آهـــا؟؟

---

[1] ورد فعل "يحظين" على هذا النحو: "يحضين" وأعتقد أن الشاعر عندما نسخ قصيدته من جديد كتب "الظاء" "ضادا"، على طريقة النطق في العامية العراقية.

غـــير أني جاهـــل معـــنى ســـؤالي عـــن هواهـــا

أهـــو شـــيء مـــن هواهـــا... يـــا هواهـــا؟!

أحـــــــــد الضـــــــــوء الطروبـــــــــا

موشـــــكا، ممـــــا يلاقـــــي، أن يـــــذوبا

في ربـــــاط أوســـــع الشـــــعر الثامـــــا

الســـماء البكـــر مـــن ألوانـــه آنـــا وآنـــا

لا ينيـــــــل الطـــــــرف إلا أرجوانـــــــا

ليـــت قلـــبي لمعـــة مـــن ذلـــك الضـــوء الســـجين.

أهـــــو حـــــب كـــــل هـــــذا؟؟ خـــــبريني!

أنــا لا أزال وفي يــدي قــدحي   يا ليل.. أيــن تفــرق الشــرب؟

مــا زلــت أشــربها، وأشــربها   حــتى تــرنح أفقــك الرحــب

الشــرق عُفِّــر بالضــباب فمــا   يبدو، فــأين ســناك يــا غــرب؟

ما للنجوم غرقن — مــن ســأم —   في ضــوئهن وكــادت الشــهب؟

أنــا لا أزال وفي يــدي قــدحي   يا ليل — أيــن تفــرق الشــرب؟

الحــان بالشــهوات مصــطخب   حــتى يكــاد بهــن ينــهار

وكــأن مصــباحيه مــن ضــرج   كفــان مــدهما لــيَ العــار

كفان!! بــل ثغــران قــد صـــ[illegible]ـدم تــدفق منــه تيــار

كأسان ملوهمــا طلــى عصــرت   مــن مهجــتين رماهمــا الحــب

أو مخلبــان عليهمــا مــزق   حمــراء تــزعم أنهــا قلــب!!

الخمــر جمعــت الــدهور، ومــا   فــيهن بــين جوانــب الحــان

يا ويحهــا! أســكرتُ أم ســكرتْ   أم نحــن في الســكرات ســيان؟

رمــت العــوالم والــدهور علــى   ثغــري وفــوق يــدي وأجفــاني

كفــي تمــد فمــا تنــاولني   كأســا لعــيني خمرهــا نهــب

وأصــافح الــدنيا.. فيــا عجبــا   البعــدُ لانَ.. وأعــرض القــرب!

يا ليل أين تطوف بي قدمي في أي منعرج من الظلم

تلك السبيل.. أكاد أعرفها بالأمس خاصر طيفها حلمي

هي غمد خنجرك الرهيب وقد جردته ومسحت عنه دمي

تلك السبيل، على جوانبها تتمزق الخطوات أو تكبو

تتثاءب الأجساد جائعة فيها... كما يتثاءب الذئب!

حسناء يلهب عريها ظمئي فأكاد أشرب ذلك العريا

وأكاد أحْطِمُه فتحطمني عينان جائعتان، كالدنيا

غرستْ يدُ الحمَّى على فمها زهرا طوى شهواتها طيا

إن فتحته بِحَرِّها شفة سكرى يعربد فوقها ندب

رقص اللهيب على كمائمه ومشى الطلاء يهزه الوثب!

عين يرنح هدبها نفسي وفم يقطع همسه الداء

ويد على كتفي ملجلجة رباه.. ويلك! أتلك حواء؟!

لا كنت آدمها ولا لفحت فردوسي الخمريَّ صحراء!

صوت النعاس يرن في أفقي فتذوب ناعسة به السحب

إن الفراش يقيك يا قدمي سوء العثار إذا دجى درب

أنا حائر... متوجف... قلق كالظل بين جوانب البحر

المد قربني إلى شبحي والآن تبعدني يد الجزر

وأنا الضياء تخيفني دجن وأخاف أن سأضيع في الفجر

يا نوم كلُّ عوالمي حجب ولو التقيتك ذابت الحجب

وانثال من سهري على سهري ... ينبوعك المتثائب الرطب

أملت بين جوانحي أملا ... ما كنت أعلم أنه أمل
مثل الفراشة عاد يحبسها ... دوح بذائب طله خضل
لولا خفوق جناحها غفلت ... بيض الأزاهر عنه والمقل
أنا من ظلالك بين أودية ... عذراء، كل سهادها عشب
هام الضباب على جوانبها ... طل الوشاح... كنجمة تخبو

أنا كوكب ظمآن ترعشه ... نطف مؤرجة من السحر
أنا غير جسمي – عالمي حلم ... بكر الظلال، ولحنه عمري
قلبي تغرب عن أحبته ... وانسلّ من نغماته وتري
فإذا لثمت فغير خادع[illegible] ... [illegible]ت لكل مخادع تصبو
وإذا شدوت أرنّ في أفق ... عبر السماء، غنائي العذب

هو يا فؤادي طيفها مسحتْ ... عنه الترابَ أناملُ الغسق
هو غير تلك... أما ترى ألقا؟ ... هو من دمائك أنت من حرقي
هو غيرها... غدرت، وبادلني ... حبي، وضمد بالسنا أفقي
ومن المهازل أن يرى أمدا ... بين الخيانة والهوى هدب!
أين العوالم؟! كيف غيّرها ... نوم يرف وخاطر صب؟!

خفقت ذوائبها على شفتي ... وسنى، فأسكر عطرها نفسي
نهر من النفحات أرشفني ... ريحا تريب بمجامر الغلس

فكأن نايـاً ضمخته يَـدًا … آذارَ، نـاغَمَ ليلـةَ العـرس
فغفـا ومـا زالـت ملاحِنُـه … مـلء الفضـاء، يعيـدها الحـب
أو أن سوسنـةٌ يراقصـها … رجـع الغنـاء، بشـعرها تربـو

يـا قبلـة أخـذت علـى عجـل … أفـدي بعمـري ذلـك العجـلا
الشـعر سَـتَّرَ بـالظلال فمـي … فهوى علـى الوجنـات واشـتعلا
فعلـى جوانبـهن منـه سـنا … يدعوه من جهل الهوى: خجـلا
فضح احمرارك يـا خـدود فمـا … مـا زال يفضـحني بمـا يحبـو
هـو طفلـك اللاهـي ينازعـه … أبـدا إلى زهراتـك اللعـب

يا جسم ذاك الطيف، يـا شبـ[illegible] ذكرياتي، يـا هـوى خـدعا
لعنـاقي الحنقـات مـا برحـت … تعتـاد خـدرك والظـلام معـا
خفقت بأجنحـة الغـراب علـى … عينيـك تنشـر حولـك الفزعـا
الصبح، صبحك، ضـحك شـامتة … دام، وليلـك مضـجع ينبـو
وإذا هلكت غـدا.. فـلا تجـدي … قبرا... ومـزق صـدرك الـذئب!

والبـوم يمـلأ عشـه نتفـا … مـن شـعرك المتعفـر الضـجر
ويعـود ثغـرك للـذباب لقـى … ويـداك مثقلتـان بـالحجر!
لا تـدفعان أذاه عـن شـفة … بالأمس أخـرس لغوهـا وتـري
وليسق من دمـك الخبيـث غـدا … دوح تعشـش فوقـه الغـرب
تـأوي الضـلال إلى جوانبـه … غرثى... ويعـوي تحتـه الكلـب

ويعود، من خشباته، نزق جان، بمقبض خنجر دام

ويعد منه سرير زانية تهوى فتثقله بآثام

وتظل أعواد المشانق من أعواده، كُسِيتْ بأجسام

حتى إذا عصف الذبول به وهوى عليه المعول العضب

كان الوقود لقدر ساحرة بين المقابر شأنها القشب



أعـــاصيــــر

(١٩٤٨)

هـــذه المجموعـــة

جمع هذه المجموعة وأعدها للنشر عبد الجبار العاشور. وقد أصـــدرتها، في طبعتها الأولى، وزارة الأعلام، مديرية الثقافة العامة في العراق.

واليوم تعيد دار العودة طباعتها، كما هي، دون حذف أو تغيير.

وتأتي هذه المجموعة "الأعاصير" الثالثة بين مجموعاته الأولى، بعد أن صدرت قبل البواكير وقيثارة الريح.

ويلاحظ قارئ هذه المجموعة أنها من الشعر السياسي الملتزم، وأنهـــا تمثـــل مرحلة أكثر تطوراً من المجموعتين السابقتين من الناحية الفنية، ومن ناحية الالتزام السياسي.

هل تعود هذه المجموعة إلى سنة ١٩٤٦؟ هذا ما يتساءله الأخ عبد الجبـــار العاشور، الذي أعدها للنشر. ولكنه يضيف أنّ بدراً ألقاها في وثبة ١٩٤٨ فهل يعني هذا أن بدراً لم يستلهم من الوثبة شيئاً؟

إن قصيدة "عربد الثأر فاهتفي يا ضحايا" تشير إلى قبر "جعفـــر" البـــارد المحزون. وجعفر المذكور هنا هو جعفر الجواهري، أخو الشاعر محمد مهـــدي الجواهري، الذي قتل سنة ١٩٤٨، أثناء الوثبة. وهذا يرجح أن تكون القصيدة

المذكورة من انتاج سنة ١٩٤٨، أو أن يكون بدر قد أضاف هذا البيت بعد استشهاد جعفر.

وعلى كل حال فالمجموعة تغطي المرحلة ١٩٤٦ – ١٩٤٨ من حياة بدر الشعرية، وهي المرحلة السابقة على "أزهار ذابلة"

ونكون بإصدار هذه المجموعة قد غطينا سنوات بدر الشعرية الأولى كلها (١٩٤١ – ١٩٤٨) ومن هنا تنبع أهمية المجموعات الثلاث: البواكير، قيثارة الريح، الأعاصير.

٧٢/١٠/١٧

مقدمـــــة

من المهم جداً أن أبين أن قصائد هذه المجموعة كلها كانت وليـــدة ســـنة ١٩٤٦، وقبل هذا التاريخ. فقد ألقاها الشاعر جميعاً في تجمعات سياسية أقيمت على وجه التحديد في قاعة المكتبة الإسلامية الواقعة في محلة السيف في البصرة، وكان بدر وقتها يعيش فترة فصله من دار المعلمين العالية.

حصلت على أغلب هذه القصائد منه شخصياً. وفي وثبـــة كـــانون ســـنة ١٩٤٨ كانت كل القصائد التي ألقاها في حشود المتظاهرين هي بالذات بعض قصائد هذه المجموعة دون أن أسمع منه شيئاً آخر غيرها. سألته عـــن إصـــدارها بديوان حين عاد إلى دار المعلمين وكنت أنا أحد طلابها فأكد رغبته في إصـــدار الأعاصير وكان يأمل أن يتمكن من ذلك بعيد إصداره لديوانه الأول (أزهـــار ذابلة)، ولكنه لم يكن يتوقع موافقة السلطة يومذاك على نشر هذا النوع مـــن النتاج، فهي تحاربه وتسد عليه المنافذ، ويلوح لي أنه حين تقدَّم به الزمن وابتعد عن التزامه السياسي وقت كتابتها رغب في أن يترك كل ما كان له مع ذلـــك الالتزام أو أنه فقدها لأنها لم تظهر في واحد من دواوينه.

وأرى أخيراً أن أشير إلى روابط صداقة جمعتنا في فترات متباعـــدة أهمهـــا السنوات الأخيرة من حياته في المعتقل في مدينتنا البصرة، حملتني دوافع الوفاء له وللأدب العربي أن لا أدع هذه القصائد تقبع في زوايا النسيان ثم الضياع فدفعتها إلى وزارة الإعلام فكانت هذه المجموعة...

عبد الجبار العاشور

ملاحظة:

قصيدتا "عربد الثأر فاهتفي يا ضحايا" و "حطمت قيداً من قيود" أضــيفتا إلى المجموعة من قبل الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد.

عربد الثأر فامتفي يا ضحايا

بسـ ـة النـور في ثغـور الجـراحِ أنت قبل الصـباح نجـمُ الصبـاحِ

كلما حتِ في خيال الطواغيـت، والمبـت مرقـدَ السفّـاح

ذابَ قدٌّ على اللظـى، وتراخـت قبضـاتٌ علـى حطـامِ السـلاح

واختفتْ كالظلالِ تنحلُّ في النـار، وجـوهٌ تخـفُّ بالأقـداحِ

* * *

كلما لحت هللَ الشـعبُ أسـوان، يبـثُّ ابتهاجـهُ في النـواح

وتحدّى الطغاةَ بالسـاعدِ المفتـول مـن عامـلٍ، ومـن فـلاّح

كان في غفوةٍ، فلما مـلأتِ الـ ـنوم في مقلتيـه بالأشـباح

هبَّ غضبان، يهمز الثـأر بالثـأر، ويمشـي علـى لهيـب الكفـاح

يا عيون الجراح، لولاكِ مـا امتـ ـدتْ عيـونٌ إلى السـتار المـزاحِ

تبصرُ الظلمَ عاريـاً، والطواغيـت كـأوراقِ دوحـة في الريـاح

* * *

جرَّد البغيُّ خنجراً في دجى الليـل، وأهوى علـى الحمـى المسـتباح

فاهتدتْ أُمة علـى لمعـة النصـل وقد عبَّ مـن دمـاء الأضـاحي

واستضاءت في بسمةٍ مـن شـهيد ومشتْ فوق معـبرٍ مـن جـراح

* * *

عربدَ الثأر فامضـي يـا ضـحايا واطرحي عنكِ بـاردات الصـفاحِ

كلما ألهبَ الدجى حـزن بغـداد فغصَّـتْ بـدمعها النضـاح

وانظري، هــل تــرين إلا ثكــالى وأيــامى يضــربن راحــاً بــراح

وانظري!! ما يزال جلاّدك السكران فــوق الثــرى طليــقَ الجنــاح

واسألي قبرَ "جعفر" البارد المحــزون مــا ذنــبُ هــذه الأرواح

* * *

جعفرَ الحق، يا نشــيد البطــولات تغنّيــه تحــت ظــلّ الصــفاح

مُدَّ من قــبرك المــدمى بيمنــاك.. فمــا زلــتَ حامــل المصــباح

أنتَ مزَّقت ظلمة الليــل بــالنور، فــلا تمــنَ مقلــةُ الســفاح

حرَّرت بالدم كلَّ جيلٍ ناءٍ … آت سيذكر منةَ الآباءِ
ورقيت من جثث الضحايا سلماً … يُفضي إلى الحرية الشماء
وجعلتَ أحجارَ القبور صحائفاً … وملأتهنَّ برائعِ الأنباء
فتلفَّت التأريخ يلقي نظرةً … عجلى، ويومئ باليدِ الحمراءِ:
أنَّ الضحايا قصَّرتْ أعمارُها … في الموت، عمرَ "السادة" الأحياء

* * *

وعصابةٍ جمع الشرابُ لصوصها … في مخدعِ الآثام ذات مساء
آلت تبيعك للغريب. وأقسمتْ … بالليل، والخمار، والصهباء
ألاّ يذوبَ الصبحُ في أقداحها … إلا وأنت مكبلُ الأعضاء
وتسلمتْ عن كل جرحٍ مثلهُ … ذهباً، فأثرتْ من دمِ الأشلاءِ
قال "الحليفُ" كما يشاء، ووقَّعتْ … باسمِ الجياع، "صحائفَ" الأرزاء
في كلِّ سطرٍ آهةٌ من أيِّمٍ … ولهى، وكفَّا سائلٍ بَكّاء
عشرون عاماً روّعتْ أشباحها … مهدَ الرضيع، ومرقدَ العذراء
سوداء، يحتضنُ السنابلَ طيفها … ويهدِّدُ التنورَ بالإطفاء
ويظلُّ يرسمُ في الفضاء بأصبعٍ … حمقاء، ظلَّ "الخبزةِ" السوداء
ويظلّ ينظر من نوافذ مجلسٍ … عالي الدعائم، واطئ الأهواءِ
قذف "الأجيرُ" برائديه وصحبهِ … في جانبيه، فغصَّ "بالعُمَلاء"
النائمين على الحرير وحولهم … شعبٌ مراقدُهُ على الغبراء

التاركين لكلِّ كوخ آهةً ... ولكلِّ قصرٍ ضحكةَ استهزاء

السارقين من الرضيعِ وأمِّه ... "لبناً" لكلب نابحٍ وجِراء

السالبين من العذارى بسمةً ... ذابتْ فكانت "لمعةً" لحذاء

والصانعين "قياثراً" أوتارها ... أعراقُ هذي الأمةِ "الخرساءِ"

* * *

ومشتْ لتفرضَ بالحديد قيودَها ... والنارِ، "شرذمةٌ" من الأجراء

حتى انتفضتَ، فلا الرصاص مزمجراً ... يثني خطاك، ولا "الوعيد" النائي

ووقفتَ تهزأ بالمنايا، عاضداً ... عزمَ الشباب بصبيةٍ ونساء

ووقفت تدفعُ بالحجارةِ والحصا ... كيدَ الطغاة، وباليدِ العزلاء

حطَّمتَ قيداً من "قيودٍ" فاتَّخذْ ... للباقيات تأهُّبَ الأكفاءِ

إنَّ "الحليف" هو الحليف وإن صفا ... لا تخدعنَّك صبغة الحرباء

* * *

حيث التفتَّ رأيت شعباً جائعاً ... عريان، يملأُ جوفه بالماء

يسقي الزروع دماً لتثري "طغمةٌ" ... تبني سعادتها على الإشقاء

وإذا تضجرَ "أطعمته" رصاصها ... و"كستهُ" بالأكفان والبوغاء

عادت مناجله سرايا يجتلي ... فيهنّ وجه الثورة الحمراء

* * *

قلْ للحليفةِ ليس يجدي "برقعٌ" ... فاليوم تهتكهُ يدُ الأنواء

بالأمس عبأت الجيوش وأعلنتْ ... حرباً على الفاشيةِ النكراء

فتحطمتْ بيدِ الشعوب سلاسلٌ ... ومدى، وأجنحةٌ من الظلماء

واليوم تلتقط الشظايا في الثرى ... وتلمُّ ريشاً طار في النكباء

أتكون "منقذة الشعوب!" كهتلرٍ ... ويفوقُ "روما" محورُ الحلفاء؟

يا حافز "الغوغاء"، يعصـــرُ مجــدَهُ بالسوط، من أجســادها الصــفراء

إنَّ الجراح، وقد فتحــتَ ثغورهــا، يحفــرنَ قــبرَكَ في الغــد المترائــي

حرّكتَ في المستقبل الــداجي يــداً بيضــاء تمســحُ أدمــعَ البؤســاء

وعوالمَ اغتصبَ الخيــالُ رتاجهــا في لجــة هــي "واقــعُ" الأبنــاء

الظلمُ يزرع في الســجون بــذورَها والشعب يحصدُها علــى الأشــلاء!

ويكــاد يخــترق الزمــانَ بنــوره يــومٌ أطــلَّ بــأعينِ الشــهداء

صبغتْ حواشيه الــدماءُ، ولوَّنــتْ فيــه الظهــيرةُ أوجــهَ "الغوغــاء"

وأكــاد ألمــحُ في بقايــا نقعــه جــيشَ الطغــاة مبعثــر الأجــزاء

* * *

عــاد الحليــفُ بباليــات عهــوده فرقــاً يُحجِّبــها عــن "الإلغــاء"

يتلمسُ "التعــديلَ" مــن أعوانــه ويحــوك ألــفَ دسيســة عميــاء

ويبــثُّ في الظلمــاءِ مــن أذنابــه زُمَــراً تنــافق جهــرةً، وتُرائــي

واستيقظ الإرهــابُ يفــركُ مقلــةً رغم النعــاس، دقيقــة الإحصــاء

عدّتْ على الأحرار آثــار الخطــى والآهــة الحــرّى علــى السجناء

* * *

قــلْ للحليفــة إنَّ شــعباً واعيــاً هيهات أن يرضــى بغــير جــلاء

في يوم فلسطين

يا راقصين على دمِ الصحراءِ ... قد آن يوم الثورة الحمراءِ
تلك الشرارةُ بعدَ حين تنجلي ... عن زاخرٍ بالنار والأضواء
اليوم يحطم كلُّ شعبٍ ثائرٍ ... سودَ القيودِ بضحكة استهزاء
ويد يفرُّ البغي من هزّاتها ... حمراءَ ضرَّجَها دمُ الشهداء
فضتْ فمَ المستعمرين بلطمةٍ ... لا غيرَ قاتلةٍ ولا شلاّء
واليوم يصرخُ كلُّ حرٍّ غاضبٍ ... في وجه كلِ مهوّسِ الآراء
تلك المواطنُ أين عنها أهلُها ... فتروح تعرضها على الغرباء؟
والقدسُ ما للقدس يمشي فوقها ... صهيونُ بين الدمع والأشلاء
ما هتلرُ السفاح أقسى مديةً ... يوم الوغى من هتلر الحلفاءِ
يا أختَ يعرب لن تزالي حرةً ... بين الدم المسفوك والأعداء
ثاراتُ أهلكِ في دمانا تلتظي ... هيهاتَ ليس لهنَّ من إطفاء
حتى يضمَّ ثرى الجزيرة أهلها ... أو يلبسون[1] مطارف العلياء
ما العاطفون على الضعيف لغايةٍ ... مفضوحةٍ لم تبق طيّ خفاء
الأسخياء له بغير بلادهم ... الباخلون بها على الضعفاءِ
بالقادرين على اغتصابك عنوةً ... فاليوم هبَّ الشعب من إغفاء
يا شعبُ ليس القدسُ تشكو وحدها ... هولَ الجراح من اليد الرعناء

---

[1] هكذا ورد في المخطوطة.

ما زال جرحك وهو دامٍ دافقٌ ... رغم انتهاء الطعنة النجلاء

والحرُّ أبعدُ غايةً من أن يرى ... في الدمع تخفيفاً من البرحاء

فالحكم للدم والسلاح المنتضى ... والحربُ لا للدمعة الخرساء

والنصرُ للشعبِ الذي لا ينثني ... عن عزمه، والصولة النكراءِ

أجلُ الطغاة بكلِّ حد صارم ... ما أنْ يزيلَ العارَ كالإجلاء

حتى أراك وأنتَ راضٍ هانئٌ ... حر برغم الأعين الزرقاء

وأرى الجزيرةَ وهي روضٌ مونقٌ ... محميةَ الأبناء بالأبناء

والقدس يسكن كلُّ حرٍ ربعها ... بالعاملين وضيئةَ الأنحاء

يا شعبُ ناد بكلِّ ساه غافلٍ ... عما تذوق القدس من بأساء

ما أشرعَ الأعداءُ فيها حربةً ... إلاّ لشلِّ يدٍ وسفكِ دماء

ما نفعُ جنَّتك التي نضّرتها ... والنارُ حولَ الجنة الخضراء؟

يا شعبي المظلومُ هذا موقفٌ ... بان الوفيُّ به من الحرباء

ما بال رهطكَ وهو باقٍ وحده ... لم يخشَ بأس القوةِ العمياء؟

عاش التحرر كلُّ رهطٍ غائب ... - إلاّهُ - يومَ الجدِّ والإعياء

وغدا فداء الكادحين وجمعهم ... أصحابُ تلك الشارةِ السوداء

يا شعبُ هذا أنتَ جأشٌ رابطٌ ... إن حان يومُ الثورة الحمراء

أصبحَ الكون وهو نورٌ ونارُ ... أيها الظالمونَ أين الفرارُ؟
الأعاصيرُ تملأُ الشرق والغر ... بَ وقد جاشَ حولهنَّ الشرارُ
كلّما حاقتِ المنايا بإعصا ... رٍ نزا فوق نعشه إعصار
فالتهابٌ خبا، فكان التهابٌ ... وانفجارٌ مضى، فجاء انفجار
فاعصفي يا شعوب فالكون لا يُر ... ضيهِ إلا أن يعصفَ الأحرار
واحطمي القيدَ فوق هامِ الطواغيت ... وثوري فالفائز الثوّار
همسةٌ، فانتباهةٌ، فهتافٌ ... فانتفاضٌ فثورةٌ فانتصار
هذه قصةُ الشعوب رواها ... للورى تاجُ قيصرَ المنهار
حرّك الشرقُ عقرب الساعة الوسنى ... فهبَّت تقول: لاحَ النهار
فامضِ يا ليلُ ما عيونُ الجماهير ... بعمياءَ أو عليها ستار
أيها الواقفون في زحمة الدنيا ... وقدْ عصبَ الرؤوسَ الدوار
إنْ وقفتم فما أرى موقف التاريخ ... يعتاقُ من خطاهُ انتظار
فاجعلوا في (اليمين) عرشاً من الظلم ... فما يعرف العروش اليسار
يا وجوهَ الجياعِ، يا قصةً أضـ ... ـحى لها من مواطني أسفار
حاكَ أحداثها الرهيبات جلادٌ ... زها سيفه الذميم اقتدار
أنتَ للجوع لاحَ فيك اصفرارٌ ... وهو للتبر في يديه اصفرارُ
خيّب المستبدُ. لا يكتبُ التا ... ريخَ نابٌ له ولا اظفارُ

إنمــا نحـــنُ وارثـــو هـــذه الـــدنيا ... لنـــا المجـــد كلـــه والفخـــار

إن في صـــفرةِ الخريـــف انتفاضـــاً ... كـــان مـــن معجزاتـــه أيـــار

قلْ لمن فضَّ روحه الرعبُ واستلَّ ... الســنا مــن عيونــه الانــدحار

نقّل الطرفَ بــين شــرق وغــرب ... يحمد الطــرفَ قلبــكَ المســتطار

تلق كأس الطغاةِ في كفِّ ســاقيها ... حطامـــاً تجـــفُّ فيـــه العقـــار

في غدٍ تُســحق القيــودُ ويهــوي ... فــوق أشــلاء تاجــه اســتعمارُ

لألأ الصــبح يــا بــلادي أيبقــى ... في حماك (السفير) و (المستشــار)؟

إبعثــي صــرخة الجــلاء ابعثيهــا ... مثلمـــا ترســـل الهـــدير البحـــار

شعبك الحرُّ ما انثنى عــن نضــال ... لا فهيهـــات أنْ يـــدوم الإســـار

وهو لو كان كوكبــاً يــذرعُ الآ ... فاقَ، ما حدَّ مــن خطــاهُ المــدار

عالم الظالمين قــد هــدمَ المظلــومُ ... ركنيـــه، فـــاحتواهُ الهيـــار

فهو انْ ظلَّ واقفاً كــان للمــوت، ... وإنْ ســـارَ فالمســـير انتحـــارُ

موضعُ القيدِ بعد حــينٍ سيمســي ... فــوق أنحائــه الجريحــات عــارُ

أيها الحاصدُ المعنّى يجوبُ السـهل مســـتوحداً حـــزين الغنـــاءِ
شاحب الناظرين، مضنىً، حريق الظل في لافـــح الثـــرى والســـماء
يورد المنجــل المعنّـــى جراحـــات بكفيـــهِ دافقـــات الـــدماء
كُـــفَّ لا تخطـــونَّ إلاّ احتراســـاً بـــين تلـــك الســـنابلِ الصـــفراء
إصغِ هل أنت ســامعٌ مــن أنــينِ خافت الجــرس دائــب في بكــاء؟
طاف بين المقــابر الســود تبقيــه بغــيض اللظـــى صـــدورُ النســـاء
ذاك والله موكـــبٌ للجراحـــات وإن أخطأتـــه عـــينُ الرثـــاء
إنهُ النعشُ، إنـــهُ الكـــادحُ المنـــكودُ يمضي إلى الـــردى والفنـــاء
إنهُ مُطعم الورى وهـــو مـــن راح قتيـــلَ الطـــوى، صـــريع العنـــاء
إنه الخير والغـــنى. إنـــه الكاســـي وإن عـــاشَ عاريـــاً مـــن رداء
سلْ إذا شئت عنه جدبَ الصحارى كيـــف حـــلاهُ بـــالزهورِ الوضـــاء
إنه المخصـــبُ الثـــرى إنـــه أنـــت فســـلْ عنـــه معشـــرَ الأغنيـــاء
مات لا شاعرٌ مـــن القـــوم يبكيـــه ولا نـــادبٌ مـــن الأوفيـــاء
غير طفلين مرَّغـــا في ثـــرى القـــبر جبيـــنين صـــوّحا مـــن شـــقاء
وابنـــةٍ تعصـــف الهمـــوم بخـــديها تريـــق الـــدموعَ دونَ انتـــهاء
مزق الثوب نفســـه عنـــد نهـــديها فوارتهمـــا بكـــفٍّ الحيـــاء
أمس قد مات صاحبُ القصر فانحلَّ علـــى نعشـــه نســـيج اللـــواء

واغتدى كـــلُّ "تـــاجرٍ بـــالقوافي ... ينقلُ الصـــوتَ والصـــدى بالرثـــاء

واعتلى النعشُ هامةَ المدفعِ الضـــخم ... رئيـــدَ الخطـــى رهيـــب الحـــداء

سار والحشد خلفه واجم الأنفـــاس ... مثـــل القطيـــع خلـــف الرعـــاء

ذاك والله موكـــــبٌ للظلامـــــات ... فهـــل أخطأتـــهُ عـــينُ الســـماء

مات... لم يجنِ منه في الناس خـــيراً ... غـــير مـــن كـــانَ وارثـــاً للثـــراء

ويلكَ هلْ شقَّ جدولاً ينبتْ الزهـــرُ ... علـــى جانبيـــه جـــمّ الـــرواء؟

هلْ سقى السنبلَ النضيرَ فراح الـــ ... ـــناسُ من حَبـــه بـــأوفى غـــذاء؟

ويلكَ ما يخســـرُ الوجـــودُ إذا مـــا ... ماتَ من في الوجودِ مـــن أغنيـــاء؟

أيمـــا جـــائع ســـيبقى بـــلا زادٍ ... وعريـــان لا يـــرى مـــن كســـاء؟

إنمـــا يخســـرُ الوجـــودُ إذا مـــا ... غالـــت الكـــادحين كـــفٌ الفنـــاء

فالجنى والأزاهـــر العـــينُ أحـــلامٌ ... زواهـــنَّ عنـــكَ عســـر اللقـــاء

والطوى صـــائد يحـــوش العرايـــا ... والحضـــارات هَبـــةُ مـــن هـــواء

ذوِّب الليـــل يـــا شـــعاعَ النـــهار تلمـــح العـــين مـــا وراء الســـتارِ

ذوِّب الليلَ يبصر الشعب صـــرعاه فمـــــا زال واقفــــاً بانتظـــــار

يبصر القومَ بين هـــاوٍ إلى اللحـــدِ وغرقـــان دائـــب في احتضـــار

إنمـــا غضـــبةُ الميـــاه الحبيســـات تـــدفقن بعـــدَ طـــول الأســـار

زمزمَ الموج في الســـهول النـــدياتِ مغيظـــــاً وصـــــاحَ في كـــلِّ دار

سائل الكوخ والـــربى والصـــحارى كيـــف أرعشـــن في يـــد التيـــار؟

أيها النائمون في الضـــفة السكـــــ رى على الجوع والضنى والصـــغار

كيفَ بالله... كيف تغفـــو عيـــونٌ في حمـــى كـــلِّ ظـــالمٍ غـــدار..؟؟

علموا دجلة الظلامـــاتِ والغـــدرَ، فعـــادتْ ولا تفـــي عهـــدَ جـــارِ

أيها الضـــاربون في ظلمـــة الليـــل إلى غـــــير منتـــــهى أو قـــــرار

يسرقونَ الخطى على ضـــوءِ نجـــمٍ يسرق الخطـــو في قصـــيٍّ المـــدارِ

كيفَ خلفـــتم الـــديارَ الحبيبـــات ألا لفتـــــةٌ لتلـــــك الـــــديار؟

ضربَ الماء مـــا بـــين كـــلِّ بـــانٍ وطـــوى كـــلَّ مأمـــلٍ بالثمـــار

فاشتكى صاحبُ القطيع من المـــوجِ لـــــــــذئب رآه أو جـــــــزار

واشتكى الحاصدُ المعنى إلى "الشيخ" فمـــا كـــانَ منـــهُ غـــيرُ ازورار

وهو بالأمسِ واهب (القائد الغـــر[1] بي) زلفـــى إليـــه ســـيفَ النضـــار

---

[1] القائد الغربي هو الجنرال مونت كمري فقد أهدى إليه أحد الشيوخ سيفا من ذهب محلى باليواقيت في نهاية الحرب العالمية الثانية أثناء مروره بالعراق.

صيغَ من أضــلعِ الجيــاع العرايــا تحت أنظار كلّ جوعــان عــاري

وهو بالأمسِ، من حبا "لندن" الشو هاء ما شاء منــه حــب الفخــار

وهو من يبخلُ الغداة على الشــعبِ ويلقـــى انحنابـــهُ بـــافترارِ

لـيــتَ لي قــوّة الميــاه فــأقتصّ مـــن (الشــيخ) للــدموع الغــزار

ليـتني أهــدمُ القصــورَ وأبنــيهنّ بيتـــاً لشـــاردٍ في القفـــار

ليتني أبدل القلــوب الــتي تغفــو على الــذلّ، بالحصــى والحجــار

أيها الشــعبُ واحتمالــك عــارٌ ما على الحــرّ دونــهُ كــلُّ عــارِ

طالما قد صبرتَ يا شــعبي المظلــوم فانهض.. كفــاك طــولُ اصــطبار

أيهـــا المرســلُ الأنــين إلى الآذان يلبســـن قـــرط الإســـتعمار[1]

حق مـــا ترســل الأنــين الــيهنّ اجتـــزازاً بصـــارم بتّـــار

فهي صماءُ حين تــدعو، وصــغواءُ إذا اهتـــزّ شـــارب المستشـــار

ضلةً للنيــام، والثعلــب الرعديــدُ يســـطو بمخلـــبٍ مســـتعار

ربّ ناجٍ من الردى خلّف الأبنــاءَ صـــرعى في المـــائج المـــدارِ

مثقل الظهر بالســنين الطــويلات وأشـــلاء بيتـــه المنـــهار

لاحَ لي فانطلقتُ أزجي إليه الشــعر حَـــرّان قاذفـــاً بالشـــرار

أيها المبتلى، وأدعو بــك الشــعبَ وقـــد هـــمّ غيظـــه بانفجـــار

ذلك النهر فــاض بعــد احتبــاسٍ عاصفاً بالســدودِ عصــفَ اقتــدار

نبني أيّ ســاعة أبصــرُ الشــعبَ وقد فاضَ بعــد طــول الأســار؟

ساحقاً في اندفاعه ما أقــام الظلــمُ في دربـــه مـــن الأســـوار

قلْ لمن ثبّت العــروش علــى المــاء فقـــال امتلكـــتُ كـــل البحـــار

---

[1] في البيت اختلال في الوزن ولم نرد التدخل من عندنا فيه.

سوفَ تأتيك ساعةٌ توقظ الأمــواج فيهـــا انتفاضـــةُ الإعصـــارِ

أيها الشعبُ يعصب الــداء عينيــه فـــلا تبصـــران ضـــوء النـــهار

الــدواء الــذي ترجـــي ســيأتيك اسمـــهُ مـــن حنـــاجر الثـــوار

تعصفُ الصــيحة المـــدماةُ بالتـــاج علـــى كـــل مفـــرق مســـتطار

يــومَ لا الظــالم الغشــوم بمنجيــه مـــن الثـــائرين وشـــكُ الفـــرار

لا ولا القيد مستطيعٌ حيــال النــار صـــبراً ودونـــهُ ألـــفُ نـــار

الـــردى والهـــوانُ خـــطُّ الأذلاءِ وكـــل الحيـــاة للأحـــرار

مأساة الميناء

سلِ الميناءَ لو سمعَ الخطابا ... فروّى غلةَ الصادي جوابا

وأبطال (النقابة) كيف باتوا ... يذوقون المذلة والعذابا

أذنبٌ أن يقالَ لنا حقوق ... أبى أصحابهنَّ لها اغتصابا؟

وعدلٌ أن تجرّعَ كلُّ حرٍ ... يدُ المستعمرين قذىً وصابا

حلالٌ لابن (لندن) في حمانا ... دمُ ابن الرافدين.. فلا عتابا

وجورٌ أنْ نمدَّ يداً إليه ... وحقٌ أن يمدّ لنا حرابا!

جموع الكادحين وجمعتنا ... مصائبُ لستُ أدركها حسابا

وحقدٌ إنْ ذممتُ سواهُ حقداً ... فلا ألقاه إلا مستطابا

على المستعمرين يصبُّ ناراً ... وأبناء الثراء لظىً مُذابا

ورثناه الأبوةَ وهو باقٍ ... سنورثه البنين منىً عذابا

ودنيا لا يغيب العدل عنها ... إذا هو عن سواها كان غابا

بربكِ حدّثيني أيُّ جانٍ ... تصيدَ منكَ أبناءً نجابا[1]؟

وأمسى منك دونَ حمىً أمينٍ ... تحدُّ جنوده ظفراً ونابا

أطلٌ على النقابة منه طرفٌ ... مغيظٌ كاد يلتهب التهابا

وأزجى مثقلين بنافثات ... لهيب النار، يحملن الحرابا

يذيقون المهانة كلَّ حرٍّ ... دعاهُ هوى النقابةِ فاستجابا

وما غير المطارق من سلاح ... وقد كرمتْ إلى الحق انتسابا

---

[1] هكذا ورد في المخطوطة.

لكِ الفخرُ المخلد من جيوشٍ	على الجمع القليلِ تجوزُ بابا
وصانك من عدوك (مستشارٌ)	وحسبك أنْ غدوت له ذنابى
رضاه بأن تربعي كلّ دارٍ	تضم الكادحين... وقد أصابا
فما كالكادحين لهُ عدوٌّ	إذا استرضاه مرتزقٌ وحابى
أبالأغلالِ يخنق صوت شعب	تهزّأ بالحمام؟؟ لقد تغابى
دعِ الآفاقَ تزخر بالضحايا	وسمع الريحِ يمتلئ انتحابا
وغذّ بنا السجونَ ومن دمانا	فروّ البيدَ أو فاسقِ السرابا
فما غيرُ الجلاءِ لكَ انتهاءٌ	فإن الشعبَ قد هتك الحجابا
وألوى بالطغاة فما توانى	وبالمستعمرينَ فما أنابا
جموع الكادحين.. وجلّ عاراً	رضانا بالهوان وخسّ عابا
دعاك إلى النضالِ شقاءُ شعب	تحمل من مذلته الصعابا
خذي بالثأر خصمك لا تليني	وجدّي غيرَ قاصرة طلابا
وسار لك الغدُ الزاهي فسيري	وزيدي من محيّاه اقترابا
وأصمي – في جوانحِ كلّ طاغ –	فؤاداً كان للشرّ استجابا
يكادُ الظامئونَ من الضحايا	يصيحونَ: اجعلي دمهُ شرابا
تطلُّ عليك أحداقُ العذارى	من الأكفان حانقةً غضابا
دم الأعراضِ عاد بها اصفراراً	وعادَ على يدِ الجاني خضابا
وأجسام الطغاة حجبن عنا	ضياءً لا نريدُ له احتجابا
ستنصبُّ الأشعة من خروق	رصاص الشعبِ زاد بها انصبابا
لك الغدُ والحياةُ وللأعادي	معاولُ تحفرين بها الترابا
فصيحي (بالحليف) إليك عنا	فلا حلفاً نريدُ ولا انتدابا

صحيفـــة الأحـــــرار

يـــا حابســـين صـــحيفةَ الأحـــرارِ ... هل يمنـــع القيـــدُ اســـتعارَ النـــارِ
إن تحجبوها فهـــي حقـــدٌ كـــامنٌ ... بين الضـــلوع وصـــرخة اســـتنكارِ
بنتَ الكفاح وكلُّ ســـطرٍ خالـــدٍ ... عـــرقٌ يفـــور بـــه، دمُ الثـــوار
ضمَّ الشتاتَ لها (فكـــاوا)[1] يجتلـــي ... من عين (يعرب) ضحكة استبشـــار
و(القدس) تُشهدُ كلَّ جـــرحٍ أنهـــا ... بُـــرءٌ يـــثيرُ مخـــاوف الأشـــرار
لم تكبُ في ساح الجهاد ولا ارتضت ... ذلاً ولا غفلـــت عـــن اســـتعمار
إن تحجبوهـــا فالليـــالي شـــأنها ... ألا يـــدوم لهـــا ســـنا الأقمـــار
ما إن نخور فلـــيس فينـــا جاهـــلٌ ... إن الحيـــاة عطيـــةُ الأخطـــار
إنـــا لنغمـــد في اللظـــى أقـــدامنا ... هيهات نشكو ســـطوة الأحجـــار

* * *

واحـــرَّ قلـــبي يـــا بـــلادي أنـــني ... جُرِّدتُ فيك سوى مـــن الأشـــعارِ
مـــاذا ظننـــت بصـــادق في حبـــه ... لو كـــان يملـــك قـــوة الأقـــدار؟
هلْ كانَ ينفضُ من نضـــال كفـــهُ! ... أو كانَ يتركهـــا علـــى القيثـــار؟
ولَو استطعتُ لكنت حزبـــاً ثانيـــاً ... مثـــل التحـــرر صـــادقَ الآثـــار
أو عدتُ أجعلُ من دمـــائي ثـــورة ... تجلـــو غشـــاوة هـــذه الأبصـــار
الشعبُ يعلـــمُ عـــن يقـــين أنهـــا ... بـــوقُ النضـــالِ ومنـــبر الأحـــرار

---

(١) لفظة كردية تعني الأخ.

حـــان الكفـــاح فأنزلتـــها طعنـــةً ... حمراء في صدر الحليـــف الضـــاري

الجوُ فيـــك لكـــلِّ نســـرٍ ضـــيقٌ ... رحـــبٌ لكـــلِّ ملـــوَّن المنقـــار

فصُّوا جناحَ النسرِ فيـــه وأطلقـــوا ... لليـــوم أجنحـــةَ الخنـــا والعـــار

ومـــن المهـــازل أنَّ أوفى صـــفحة ... للشـــعب تطويهـــا يـــدا غـــدارِ

ما راشَ جودُ الكـــادحين جناحهـــا ... حـــتى يـــراهُ مقـــصُّ الاســـتعمار

إنْ يحجبوهـــا فهـــي في أرواحنـــا ... وضـــحاهُ تنشـــرها يـــدُ التـــذكار

أو طاب يوم (الخائنـــات) بيومهـــا ... فالخائنـــات قصـــيرة الأعمـــار

إنَّ المصاب وإن خلا مـــن فرحـــةٍ ... لم يخلُ مـــن عظـــةٍ ومـــن إنـــذار

فالطـــاعنُ الصـــدرَ الأبيَّ بســـيفه ... شـــقَّ الســـتار بطعنـــة اســـتهتار

فإذا العيـــونُ تُـــرى وفي أهـــدابها ... لمـــحُ الـــدماء خبيئـــة (الثرثـــار)[1]

يجثو على فـــرشِ الحريـــر ودونـــهُ ... جسم الطعين على التراب العـــاري

فالطرفُ يمسكُ بالكؤوسِ ورجلـــهُ ... بـــالطرس. والكفـــان بالـــدينار

لو باركته يـــدا (ســـفير) ســـاعةً ... بـــاعَ النضـــالَ بحفلـــة (اســـتيزار)

* * *

يا من يشـــيد لكـــلِّ حـــرٍ محبســـاً ... خوفـــاً علـــى كرســـيِّه المنـــهار

إنَّ الظـــلام إذا تنـــاهى غيّـــه ... زاد العيـــونَ صـــدى إلى الأنـــوار

والحابس الأبطالَ عـــن أن يـــزأروا ... ظن الـــزئير قضـــى قتيـــلَ إســـار

حتى تكشف عـــن ســـراب ظنـــه ... وانفضَّ جوف الصمتِ عن إعصـــار

فإذا الخنـــاجرُ والزمـــازمُ تـــبري ... غضبى تجـــوزُ عليـــه عقـــر الـــدارِ

هيهاتَ تغلبُ كـــلُّ كـــفٍّ شـــأنها ... لمـــسُ الحريـــرِ، تـــدفقَ التيـــار

---

[1] الثرثار: سدّ يصل مياه دجلة بالفرات.

هيهاتَ يصرع كــلُّ فكـــرٍ ملـــؤه   همس الطغـــاة صـــوارخَ الإنكـــار

ما دامَ بعـــض دمِ الضـــحية دافقـــاً   فيهـــا فـــلا ركنـــتْ إلى الأظفـــار

يا شعب أنتَ غدٌ فـــإن لم يؤمنـــوا   بالكـــادحين، فلســـت للكفـــار

إنَّ الطغـــاةَ نجـــوم ليـــلٍ ترتـــدي   ثوب المغيب، وأنـــت شمـــس نهـــار

أنتَ اندفعت إلى العـــلاء وغلغلـــوا   في هـــوةٍ لا تنتـــهي بقـــرار

لا يستوي الجـــيلان هـــذا مقبـــلٌ   نحـــو الحيـــاة وذاك في إدبـــار

ظنـــوك ســـخرية الزمـــان ونهـــزةً   للطـــامعين ولعبـــة الأغـــرار

حتى أبنت عن اللظـــى في ملمـــسٍ   وكشفت في شربٍ عـــن الأكـــدار

أنتَ العباب سجا وأغفـــى حاجبـــاً   خلـــفَ الســـجو منيـــةَ البحـــارِ

أنت الزمان صـــفا ليهـــوي ســـيفه   بعدَ الصـــفاء علـــى يـــدي جبّـــارِ

إنَّ الشعوبَ شـــكوْنَ داءً واحـــداً   رغـــم التنـــائي واخـــتلاف الـــدار

أغلالهـــنَّ مجمعـــاتٌ في يـــدٍ   رعنـــاء تنشـــرها علـــى الأقطـــار

فإذا حطمتَ فلستَ وحدك حاطماً   تلك القيـــود، غنيـــت بالأنصـــار

ولا وُفّـــق الأشـــرار في أن يخرقـــوا   قلبَ النضـــال بكـــاذب الأخبـــار

هل يأمن المطعـــون مـــن جـــلاّده   إلا لقـــاء الصـــارم البتّـــار

والأرض ليس ترى لها من غاســـلٍ   رجس الطغـــاة ســـوى دمِ الثـــوارِ

غـــادة الريـــف

غادة الريف يـا شـعاع الأمـاني ... في دجى الكوخ.. في ظلام الزمـان

ما لعطفيك تحت أسمالك الشـوهاء ... غابـا كجـذوة في دخـان

ألصبا والربيع طافا بخديك ... فذاب الشحوب في أرجـوان

والصبابات باسمات الأسارير ... يبث اشتياقها النـاظران

وعلى الثغر تستفيضُ ابتساماتٌ ... يحدثن عن خفيٍّ المعاني

عن سنا الصبح. عن رهيب الدجنات ... عن النار عن نعيم الجنان

عن خليٍّ وكادحين وعن قصرٍ ... وكوخين أصبحا في مكـان

يا لحسناء كاد من يجتليها ... يصرفَ الطرفَ عن فتون الحسان

إحـذري عاشقاً كثيرَ التجني ... خف للصيد في دروب الغواني

قد كساه الثراء ثوباً من الكبرِ ... موشى بزائف الطغيان

دودة تسرق الرحيق من الزهـر ... وتلقيه في التراب المهان

* * *

أقفر الكوخ من بقايا طعام ... ليته ظـلٌ كائمـاً مـا يعاني

أقفر الكوخ فاعبثي يا مقادير ... وجودي يا عاديات الزمانِ

أقفر الكوخ والسراب المصفى ... يملأ القصر بالشذى والأغاني

فاذهبي يا ابنة الجياع إلى القصر ... وعودي بعاطرات الأماني

أطرقي بابه بكفٍّ ستدميها ... على بابه يدُ الحدثان

ويك هزّيه، زلزلي صمته، سوميه ... ما شئتِ من ضروب الهوان

إنمــا هــزة الجيــاع المناكيــد تريــع الطغــاة في كــلّ آن

هزّةٌ بات صــوتها يــذرع الغيــب ويــومي لبــائع الأكفــان

* * *

إكدحي واجعلي التــرابَ يواقيــت علــى شــعرك الشــقي المهــان

واغسلي بالدموع ما دنّس المــولى علــى الخــزّ والثيــاب الحســان

أطعمي الجائعين يا خــادم القصــر بمــا ظــلّ في بطــون الأواني

واصبري إن طغى من القوم طــاغٍ وابسمي إن جنى على الكوخ الجــان

* * *

رجّع القصرُ آهةَ الســيد العاشــقِ فهــيَ انتفاضــة الأفعــوان

آثمٌ يحســب الغــرام احتراقــاً في لظــى مــن جهــنم الأبــدانِ

غادة الريف.. أبصر الوجد في عينيكِ تنســاب في ســناه الأمــاني

هــذه الغرفــة الموشــاة مأوانــا هنــا مجلســي وهــذا مكــاني

ها هنا مهده، وثمّ الســرير الغــضُّ يــا للقــاءِ يــا للتــداني

أيها الشعر.. يا هوى. يا عــذارى يا أزاهير، يــا نــدى يــا أغــاني

غاب عنكن كوكب خــتم الليلــة عــن هــذه الــربى والمغــاني

أرســل النــور دافقــاً ثم نحّــاهُ عــن الأفــق زلــةُ الامتــهانِ

* * *

زلــة بعــد زلــةٍ جرعتــها غــادة الريــف عاديــات الزمــان

فإذا الليــل والغــنى والجهــالات يجلّلنــها بثــوبِ الــزواني

أصبح الكوخ وَهْوَ مأوى لــزوجين علــى أيكــة الهــوى ينعمــان

غادة الريف لست زوجــاً لمــولاك وإن قــال ذلــك القاضــيان

إنمــا خدعــة التقــاة المصــلين شــيوخ الــورى، هــداة الأوان

* * *

هيّئ المهـد للوليـد الـذي وافى ... ألسـت الأب الكـثير الحنـان؟

هيّئ المهد "لا يجيب سوى الصمت ... بعيـد الصـدى، خفـي المكـان"

"أيها الليل من ضلوعي وآهـاتي... ... ومـن أنجـم السـماء الحسـان

من دم العفة المراق من الكـوخ... ... مـن الـذكريات.. ممـن جفـاني

هيّئ المهد للوليـد الـذي وافى... ... فأنـت الـذي أعـدَّ التـداني"

* * *

أيبس الداءُ والطوى ثديي المرضـع ... فالطفـلُ سـاغبٌ كـلَّ آن

صارخٌ ترجفُ النجـومُ لشـكواهُ ... ويبكـي النخيـل ممـا يُعـاني

غادة الريف أوصد القصـر بابيـه ... علـى كـلِّ نـاعم البـال هـاني

فيمَ شكواك؟ وهو مـا أن يعيهـا ... أينَ شـكواك مـن رنـين المثـاني

جاهلٌ من يريد أن تضمد الجـرحَ ... يـدٌ تنتضـي خضـيبَ السـنان

أيها الظلم يـا ربيـب المقاصـيرِ ... بناهـا لغـيره كـل بـانِ

أيها الظلـمُ يـا شـباةً صـنعناها ... فعادتْ مـع العـدى في الطعـان

حاملُ الفأسِ قادرٌ أن يشـقَّ القـبرَ ... للظـالمين بعـد الهـوان

* * *

"جفَّ يا زوجي الرحيمَ من الآهات ... ثـدياي... آه ممـا عـراني"

غادةَ الريـفِ أيُّ ذنـبٍ تخطـى ... موضـعَ السـرِّ في عثـارِ اللسـان

قلْ من زوجـك المغـيظ حنايـاه ... بنـارٍ مـن الغـرور المهـان

كيفَ ناديتِ سيد القصر "يا زوجي" ... فدنسـتِ ناصـعات المعـاني؟

* * *

آه قـد أنكـر الوليـد أبٌ جـانٍ ... نـؤوم الضـمير فـظُّ الجنـانِ

"احرقي صفحة الفضـاء بآهاتـكِ ... يـا شمـسُ واعبثـي بالزمـان

واملأي خدرَ كلِّ نجم يجوب — الأفق سهران باللظى والدخان

أغفلتْ أمريَ السماء وإني — سوف أشكو إلى الورى ما عناني"

إنها صرخةُ الجراحِ العميقاتِ — بها يُستطارُ قلب الجبانِ

في غد يكنسُ الثرى بجذةُ العاتي — وتدميه قارصات اللسان

في غد يسمعُ الورى قصةَ الكوخ — تدوّي بمسمع الأكوان

فارتضى الطفلُ لا حنانَ ولكنْ — يفعلُ الخوف مثلَ فعلِ الحنان

* * *

أيها الطفلُ في رحابِ الأبِ الجاحد — تغذوه مرضعاتُ الهوان

إنْ تبسمتَ قطّبَ الولدُ الغضبانُ — أو صحتَ فرّتِ العمتان

واتقى ظلَّ مهدِكَ الطهر عمّاك — وجازا مداه لا ينظران

أيها الكوخُ أيّ همٍّ تغشّاكَ — وماذا طواكَ من أحزان؟

أينَ بانيك؟ ما لهُ صامت الأنفاسِ — والجرسِ ناضب الخفقان؟

فارقَ الأرضَ موجعاً يطعن العار — ثرى قبرِهِ بأمضى سنان

* * *

هزت الكوخ عاصفات المنايا — فارتمى باكياً على كلِّ فان

وطوى الموت زهرةً أذبلتْها — أعين الظالمين قبل الأوان

غادة الريف عافت النور عيناها — فنوّحن دونها يا غواني

ألصبا شاحبٌ وصوت الأساريرِ — نؤومُ السنا حبيس اللمان

غابَ في ظلمة الثرى فهو ناءٍ — عن هوى طامعٍ وعن كفٍّ زان

غاب والجوع راقدٌ في حناياه — قتيلُ الشجى صريعُ الأماني

لا تعكرن صمته بالأحاديث — عن البؤس والورى والزمان

فهو من قبضة الزمان المدماة — بعيدُ المدى طليق العنان

وهو من يحقر الورى، وهو مــن لا ... يعرف البـؤس بعــد ذاك المكــان

فـــيمَ تعجـــبن منـــه إن رفَّ دون ... الجفـــنِ بعـــد انطباقـــه دمعتـــان

نامَ والطفل مبعـــدٌ عنـــه فاشـــتاق ... فلـــم تعصِـــه دمـــوع الحنـــان

* * *

آه قد أرجـــع الوليـــد إلى الكـــوخ ... وطرفـــاه بالـــدجى مغلقـــان

عادَ واحسرتاه أعمى أبيـــدَ الليـــل ... مـــا مُتعـــت لـــه مقلتـــان

وانثنى ســـاجياً إلى ظلمـــة القـــبر ... فأمســـى مـــن الـــورى في أمـــان

نـــوّحي دون قـــبرهِ يـــا أمـــاني ... واسكبي الدمعَ يـــا عيـــون الغـــواني

واغمري مضجع الشهيدين يا شمس ... وغطـــي ثـــراه بـــالأرجون

واخفضي الهمس يا رياحُ وكفـــي ... عن مساعيك يـــا خطـــى الرعيـــان

وأمضِ يا شعر لا تقل عنهما شـــيئاً ... لا ولا تـــدعُ راقـــداتِ المعـــاني

سبكينَ.... والريفُ الجميلُ يَكادُ يرقصه الغروبُ؟

والليلُ يدنو... والغيومُ بجمرها الخابي تذوبُ

أرخى يديه على أبيك... فكفَّ منجله الدؤوب

يا غادةَ الكوخِ الكئيب، يلفه الحقل الكئيب

لولا يقيني أنّ يوماً تضحكين له قريب

لولا أمانٍ هاتفاتٌ سوفَ تنتصر الشعوب

قاسمتُ عينيكِ الدموع فكانَ لي منها نصيب

رجَعتِ آهات الجداولِ وهيَ تشرَقُ بالخريرِ

بين الظلالِ النائمات، من السنابلِ في سريرِ

واحسرتا... أيُّ اكتئابٍ جاشَ في الصدرِ الصغيرِ؟

هذي سجونُ الكادحينَ حطمن أغلاقَ الدهرر

حتى بُعثن على يديكِ تنهداتٍ من سعير

هذي شكاةُ الجائعين يبثها الدمعُ الصبيب

لا يستبدُّ بكِ الأنينُ... سيؤخذُ الحقُ السليب

* * *

فاضَ الأنينُ على خطاي فبتُّ أعثرُ بالأنين

حيوانُ... حتى لا أقرَّ من الظنون، على ظنون

حتى يئستُ من الشكوك... وكدتُ أيأسُ من يقيني

لا تطلـــق الهـــمَّ الـــدفين ســـوى يـــد الهـــم الـــدفين
فـــإذا بكيـــت فعـــن مصـــابٍ ســـوف ينطـــقُ بعـــد حـــين
لو كنتُ مـــن أهـــل "الـــبروج" لقلـــتُ أبكـــاك الحبيـــبُ
فاستبشـــــر المســـــتعمرون ورددوا عـــــاشَ الأديـــــبُ

* * *

أيُّ الـــثلاث القـــائلات المطفئـــات ســـنا الحيـــاة؟
الملقيـــات الأرض في أســـر الجـــراح الـــداميات؟
الجـــاعلات الكـــادحين لظـــىً يثـــورُ علـــى الطغـــاة
هـــاجَ التنهـــد في فـــؤادك واســـتفزَّ مـــن الشـــكاة
جهـــل أعـــاد الحاضـــرين[1] إلى الخيـــام الباليـــات...؟
أم كثّـــرَ الـــداء اللئـــيم فســـدَّ عينيـــه الطبيـــبُ؟
أم ذاك جـــلادُ القلـــوب، عـــدوّكِ الفقـــرُ الرهيـــبُ؟
أيـــنَ الأناشـــيدُ العـــذابُ الظامئـــاتُ إلى الحقـــولِ؟
يهمســـن باســـم القريـــة العـــذراء في أذن الـــدليلِ
والمنشـــدون الهـــاربون إلى ضـــفاف المســـتحيل
القـــانعون مـــن الحيـــاة بكوخـــةٍ بـــينَ النخيـــل
الثـــائرون علـــى ضـــجيج المـــدن والعلـــم (الـــدخيل)
القريـــةُ الســـجواء نـــايٌ في يـــد الراعـــي طـــروبُ...
أو جنـــة صـــبَّ الغنـــاءَ علـــى رُباهـــا عنـــدليب

* * *

---

[1] الحاضرون: الحضر.

إن نــــاح فـــلاحٌ... فمفجـــوعٌ مـــن العشــــاقِ ناحـــا

أو ســــارَ عريــــان الإهـــاب فقـــد تعـــرى فاســـتراحا

لا يأســـفنّ علـــى كســـاء ضـــاق، مـــن لـــبسَ البطاحـــا

أو مـــدَّ للمحـــرات ســـاعده... فقـــد نشـــر الجناحـــا

نـــاموا علـــى خضـــر الـــروابي واسمعـــوا منـــه الصـــداحا

هـــذا هـــزار في الخميلـــة، عشـــه القـــبر "الرحيـــب"؟

بوركـــت يـــا هـــذا الهـــزار، وبـــورك العـــش العجيـــبُ!

* * *

يـــا زاعمـــين الآلـــة (الصـــماء) مـــدعاة الشـــقاءِ

خلـــف الـــدخان الثـــائر، المنفـــوث في عـــرض الفضـــاء

والمرجـــل الفـــوار، يزفـــر بـــاللظى دون انتـــهاء

يـــومٌ هـــو التـــاريخ، مخضـــوب الحواشـــي بالـــدماء

تلـــك الأكـــفّ الهاويـــات علـــى الطغـــاة الأدنيـــاء

تلـــك العيـــونُ الـــدامعاتُ يـــؤجُ منـــهن اللـــهيبُ

تلـــك اللـــواتي ترهبـــون وفـــرَّ منـــهنّ المريـــبُ

تلك الـــدموعُ بـــأيِّ كـــفٍّ ســـوف أمســـح مـــن نـــداها؟

يمنـــاي قـــد ركـــضَ الـــيراعُ بها وشـــدّ علـــى خُطاهـــا

وامتـــدت اليســـرى يطـــوف علـــى جبـــيني إصـــبعاها

ليـــت ينتحـــر الســـراج علـــى صـــحائف لـــن يراهـ!!!

الثـــورة الحمـــراء تخـــترق الســـطور علـــى لظاهـــا

والشـــعر محمـــوم القـــوافي يســـتبد بـــه الوثـــوبُ

فالقبضة الهوجاء ترقص وهي تصدعُ من تصيبُ

* * *

شعري لُهاثُ الكادحينَ، وليسَ أنفاس الغواني
توحيه آلافُ الأكفِّ القابضات على الزمانِ
وافرحتاه إذا تلاقى في اللهيبِ الثائران
داس القيود "ابن المصانع" فاقتفاه "ابن الجنان"
واهتزت الكفان فاتقدَ الترابُ من الدخانِ
العزم يعصف بالصدور، فتنفث النار الدروبُ
حسناء، تلك... أتبصرين...؟ أليس تلك هي الشعوبُ؟

* * *

الآن طابَ لك الغناء، فلا تكلّي يا حناجرْ
اليوم ينفضُ كلُّ حرٍّ عن يديه، دم المجازر
واليوم تنتفض القرون الغابرات من المقابر
سارت بموكبها الضحايا... وهي تعثر بالحناجر
مدّت من الأكفان أيديها تحيي كلَّ ثائر
والرمل منه نزا هلالٌ بالدم القاني خضيبُ
وافتضّ أختام الثلوج وراح يلثمه صليبُ
أينَ الكؤوسُ الدائراتُ على سكارى بينَ غيد؟
نبهنَ من آذار أكماماً معفرة المهودِ....؟
ينفضن عنهن الغبار... فكانَ من حظِّ العبيد
أينَ الورودُ العاطرات، الناظرات من الخدود
حمراء... تهزأ بالسنابل وهي ترقص من بعيد

القصـــر آلى يـــا ســـنابل أن تفـــيض بكـــنَّ كـــوبُ
واليخـــت تنـــور الجيـــاع ويحـــزن الكـــوخ الكئيـــبُ

* * *

أيـــن الجبـــاه الســـاحباتُ الناكســـاتُ مـــن العـــذاب؟
اللاثمـــات مـــواطئ الأقـــدام بالـــدم والشـــبابِ
الهاربـــات مـــن الأســـنة بـــالجراح إلى الحـــراب
اليـــوم ترفعهـــا أكـــف الثـــائرين عـــن التـــراب
واليـــومَ يمـــلأ ظلـــها المكلـــوم أكـــواب الشـــراب
واليـــومَ تســـتلم الجـــراحَ يـــدٌ تحركُهـــا القلـــوب
فيهـــا مـــن اليـــوم الجديـــد ومـــن دم الأحـــرار طيـــب
أيـــن الطغـــاة الحـــاجبون عـــن الوثـــوبِ خطـــى الصـــغار؟
الســـاحقونَ ســـواعدَ الأطفـــالِ فـــوقَ دمٍ ونـــار
ويـــح الصـــغار الكـــادحين مـــن الطواغيـــت الكبـــار!!
اليـــوم ينـــتقم الأبُ الموتـــورُ مـــن ذاك النضـــار
يجـــري عليـــه دمُ ابنـــه المســـفوح أيُّ دم ونـــار
الدميـــةُ الحمـــراءُ تقـــذف مـــن يديـــه بـــه النـــدوب
تستصـــرخُ الأبَ أن يطـــوّحَ بالطغـــاة فيســـتجيب
لـــو تســـألين الـــذكريات اللاهثـــات مـــن الرمـــاد
والليـــلُ يهـــوي بـــالنجوم الشـــاحبات علـــى الســـواد
عمـــا جنيـــتِ مـــن الطفولـــة... لامتنعـــت عـــن الرقـــاد
لـــو حـــدثتك الـــذكريات لصـــمت واجفـــة الفـــؤاد

لا ليس هذا ما أريد... فتلك أيام الحصاد

بل أين أيامي؟ أجيبي... وهي تسكت لا تجيبُ

ماذا عساها أن تقول؟ أيورق الروض الجديب؟

* * *

تلك الخمائل هل أويت إلى حفافيهن ساعا؟!

تبنين بيتاً يستعير من الخيال له ارتفاعا!

فازدان، ما أخذَ الشقاءُ بجانبيه ولا تداعى

ناداك من بين النخيلِ أبٌ تعوَّدَ أنْ يطاعا

واهاً إذا انتزعَ النداءُ ملاعبَ الدارِ انتزاعا

من ناظرين، سنا الطفولة في دموعهما يغيبُ

للكد لا للطيبات، يدٌ يصوّحها اللغوب

إنَ الشبابَ هو الربيع، فأينَ أنت من الربيعِ؟

ضاعَ الهوى من أصغريكِ، فقلت للأحلام ضيعي

تلك الكروم الناشراتُ ظلالهن على الجذوعِ

الراقصاتُ مع الخريرِ الراعشاتُ مع الضلوع

يشهدن أنك ما حملتِ من الحقولِ سوى الدموع

والمنجل المحطوم، والآمال تقتل أو تخيبُ

والحب يعوزه التلاقي، والتحايا، والحبيبُ

* * *

يا شعلةً في الموقد المهجور يحرقها سناها

يا نغمة عادت تذوب سدىً وتفنى في صداها

يا بؤس عاشقة يفيض هوىً عليها ساعداها

عـــذراء تحلـــم بالعنـــاق فمـــا يعانقهـــا ســـواها
كـــالزهرةِ الظمـــأى يفتحهـــا لغـــير نـــدى شـــذاها
مـــن كـــل عـــبءٍ في الحيـــاة عليـــك واشٍ أو رقيـــبُ
هيهـــاتَ أن تـــدع المناجـــل مـــن حيَاتـــك مـــا يطيـــبُ
* * *
لاقـــى شـــقاء الكـــادحين لـــديك حرمـــان العـــذارى
مـــا طـــائرٌ فـــوق الرمـــال مشـــى الهجـــيرُ بهـــنَّ نـــارا
ظمـــآن، كبلـــتِ الجـــراحُ أمـــام عينيـــه المطـــارا
فانكـــبَ يشـــربُ مـــن دمـــاه صـــدىً وأينـــاً وانتحـــارا
يومـــاً بـــأنكى في عـــذاب منـــكِ لـــيلاً أو نهـــارا
أصبحت أشقى مـــن يـــروحُ، وبـــتَّ أشـــقى مـــن يـــؤوب
عـــيش يهـــان بـــه المشـــيب إذا يقـــال: هـــو المشـــيبُ
* * *
واحســـرتاه إذا تأوهـــت المعـــاول في الصـــباحِ
بـــين القبـــور الصـــامتات الموصـــدات علـــى الجـــراح
أللحـــد شـــدً علـــى أبيـــك فشـــدّ منـــك علـــى جنـــاح
وانفـــضَّ عنـــك الحاضـــرون وأســـلموك إلى النـــواح
أيـــن الفـــرار إذا أطـــلَّ علـــى حمـــاك المســـتباح
لَيـــلٌ كـــأن الـــنجم في آفاقـــه القصـــوى نيـــوبُ
مـــزَّقن أســـتار العفـــاف وأظهـــرت غـــدكِ الثقـــوب
* * *
يـــا مـــن تبيـــع شـــبابها المضـــنى بمـــا يئـــد الشـــبابا

إن جرّدتك من الثياب يدٌ لتلبسك الثيابا
أو علَّ من فمك الشرابَ فمٌ ليسقيك الشرابا
أو طاف حولك آكلون ليطعموك.. فلا عتابا
جور الشرائع كم أذلَّ فتى وكم أفنى كعابا
يا شقوة الحسن الأجير كأنه الشاة الحلوبُ
والشاةُ تنعم بالأمومة وهو ترضعه الكروب
* * *
حتى إذا انكسف الشباب وخان خديك الطلاءُ
والتفَّ بالنهدين ثوبٌ كان يعليه امتلاءُ
آواك ركنٌ في الرصيف يهينه منك اجتداء
ويلاه إن خاب السؤال وفاض بالصمت الهواء
واحتار فيك المعوزون وصدَّ عنك الأغنياء
اليوم تسخر من عصاك الغانيات، بل الخطوبُ
يسخرن منك فتصرخين: إلامَ أبقى يا شعوبُ
هل تبصرين الكوكب المنثال في الظلماء نورا
بين اعتناق الغيمتين يبدد العمر القصيرا
هل تبصرين فأنتِ ذاك النجم تلقين المصيرا
حسناء تلك هي المدينة فاتبعيني كي نسيرا
بين النساء الجائعات فنرقب الحسن الأجيرا
بين الرجال العاطلين إلى الهلاك لهم دبيبُ
ما بين شحّاذ يئنُّ وبين ملتاعٍ يلوب
* * *

نــــادي أبـــــاك المســـــتكين إلامَ تبقـــــى مســـــتكينا
بـــــادي آبـــــاك الجـــــائعَ العريـــــان: هـــــبّ الجائعونـــــا
العـــــالم المخمـــــور ثـــــار علـــــى الســـــقاة الخادعينـــــا
والصـــحو قـــد فضـــح الكـــؤوس... وخيـــبَ المســـتعمرينا
الضـــاربين شـــوارد الأمثـــال فـــاه بهـــا (لبيـــبُ)
(بالصـــبر) يخفـــي مخلبيـــه... أينصـــح الأغنـــام ذيـــبُ

* * *

-تســـناء مـــا جمـــح الخيـــال ولا جمحـــتُ مـــع الخيـــالِ
لا بـــدَّ أن تثـــبَ الشـــعوبُ الظامئـــات إلى النـــزالِ
إن قلـــتُ نعصـــف بالطغـــاة الظـــالمين فبالنضـــال
حاشـــا أديـــب الكـــادحين فمـــا تحـــدث بالمحـــال
مـــا كـــان خـــداع النســـاء ولا المغـــرر بالرجـــال
لا والنضـــال... وتعلمـــين، إذا تلـــهبت الحـــروبُ
وطغـــى الـــدخان، وحـــمَّ يـــوم الظـــالمين مـــن الكـــذوبُ
حســـناء صـــبح غـــد نقـــيض لظـــى فويـــلٌ للظـــلامِ
حـــتى جـــراح الكـــادحين... غـــداً تثـــور علـــى الســـهام
يـــوم سيســـفر عـــن حيـــاة مـــن غنـــاء وابتســـام
تـــوفي عليـــك يـــدا حبيبـــك بـــالرغيف وبـــالغرام
هـــو في صـــفوف الثـــائرين فـــتىً بطـــلٌ مـــن القتـــام
جذلان... يهمـــس وهـــو يمســـح مقلتيـــك: لم النحيـــبُ؟
تـــبكين والريـــف الجميـــل يكـــاد يرقصـــه الغـــروبُ

أزهار وأساطير

(١٩٥٠)

"إلى المنتظرة..."

أطلّـــي علـــى طـــرفيَ الـــدامع | خيـــالاً مـــن الكوكـــب السّـــاطعِ
وظـــلاً مـــن الأغصـــن الحالمـــات | علـــى ضـــفّة الجـــدول الـــوادعِ
وطـــوفي أناشـــيد في خـــاطري | ينـــاغين مـــن حُبّـــيَ الضـــائع
يفجّـــرْنَ مـــن قلـــبي المســـتفيض | ويقطـــرْنَ في قلـــبي الســـامع

* * *

لعينيـــكِ، للكـــوكبين اللـــذين | يصـــبان في نـــاظريّ الضـــياءْ
لنـــبعين، كالـــدهر، لا ينضـــبان | ولا يســـقيان الحيـــارى الظمـــاء
لعينيـــك ينثـــال بالأغنيـــات | فـــؤاد أطـــال انثيـــال الـــدماء
يـــودُّ، إذا مـــا دعـــاك اللســـانُ | على البُعدِ، لـــو ذاب فيـــه النـــداء

* * *

يطـــول انتظـــاري، لعلـــي أراك | لعلـــي، ألاقيـــكِ بـــين البَشَـــرْ
ســـألقاكِ. لا بـــد لي أن أراك | وإن كـــان بالنـــاظر المحتضـــر
فـــدْيتُ الـــتي صـــوّرتْها منـــاي | وظلُّ الكـــرى في هجـــير السَّـــهرْ
أطلّي علـــى مـــن حبـــاك الحيـــاة | فأصبحت حســـناء مـــلء النظـــرْ!

* * *

أطلّـــي فتـــاةَ الهـــوى والخيـــال | علـــى نـــاظرٍ بـــالرؤى عـــالقِ،
بعشـــرينَ مـــن ريِّقـــاتِ الســـنين | عَبَـــرنَ المـــدارات في خـــافقي

بعشرين كُلاً وهبتُ الربيعَ وما فيه، من عُمري العاشقِ
فما ظلَّ إلا ربيعٌ صغير أُخبِّيه للموعد الرائقِ

* * *

سأروي على مسمعَيكِ الغداةَ أحاديث سمّيتهُنَّ الهوى
وأنباءَ قلبٍ غريق السراب شقيِّ التداني، كئيب النوى
أصيخي.. فهذي فتاة الحقول وهذا غرامٌ هناك انطوى
أتدرين عن ربّة الراعيات؟ عن الريف؟ عما يكونُ الجوى؟

* * *

هو الريف، هل تبصرين النخيل؟ هذي أغانيه، هل تسمعين؟
وذاك الفتى شاعرٌ في صباه وتلك التي علّمته الحنين
هي الفنُّ من نبعه المستطاب، هي الحبُّ من مُستقاهُ الحزين،
رآها تغني وراء القطيع كـ (بَنلوبَ) تستمهل العاشقين

* * *

فما كان غيرُ التقاء الفؤادَين في خفقةٍ منهما عاتيه
وما كان غيرُ افترار الشفاه بما يُشبه البسمةَ الحانيه
وكان الهوى، ثم كان اللقاء لقاء الحبيبَين في ناحيه
فما قال: أهواكِ، حتى ترامى عياءً على ضفة الساقيه

* * *

وأوفى على العاشقَين الشتاء ويومٌ دجا في ضُحاه السحاب
خلا الغابُ ما فيه إلا النَّخيل وإلا العصافير، فهو ارتقاب
وبين الحبيبين في جانبيه من السَّعف في كل ممشى، حجاب
فما كان إلا وميضٌ أضاءَ ذُرى النخل، وانحلّ غيمٌ وذاب

* * *

ويا سدرةَ الغاب كيف استجارا بأفنانك الناطفات المياه
رآها وقد بلّ من نوْمها حياً زخّ، فاستقبلتها يداه
على الجذع يستدفئان الصدور على مَوعدٍ، كلُّ آهٍ بآه
سلي الجذع كيف التصاق الصدور هزّالها، وابتعادُ الشفاه؟

* * *

أشاهدتَ يا غابُ رقص الضياء على قطرةٍ بينَ أهدابها؟
تُرى أهي تبكي بدمع السماء أساها وأحزان أترابها؟
ولكنها كلُّ نَوْر الحقول ودفءِ الشذى بين أعشابها
وأفراحُ كلّ العصافير فيها وكلّ الفراشات في غابها

* * *

وذاك الخصام الذي لو يُفدى لفدّيتُ ساعاته بالوئام
أفدّيه من أجل يومٍ ترفّ يدٌ فيه أو لفتةٌ، بالسلام
ومن أجل عينين لا تستطيعان أن تنظرا دون ظلّ ابتسام
تذوب له قسوة في الأسارير، كالصحو ينحلُّ عنه الغمام

* * *

خصاماً ولمّا نعلّ الكؤوس؟ أحطّمتِها قبل أن نسكرا؟
خصاماً، وما زال بعض الربيع نديّاً على الصيف مخضوْضرا؟
خصاماً؟ فهل تمنعين العيونَ إذا لألأ النُّورُ، أن تنظرا؟
وهل تُوقفين انعكاس الخيالِ من النهر، أن يملك المعبرا؟

* * *

أغاني شبّابتي تَستبيك وتُدنيكِ مني، ففيمَ الجفاء؟
كأنّ قوى ساحرٍ تستبدُّ بأقدامك البيض، عند المساء

ويُفضي بك الدَّرب حيث استدار، إلى مَوْعدي بين ظلٍّ وماء
على الشطِّ، بين ارتجاف القلوع وهمس النخيل، وصمت السماء

* * *

وحجّبت خدّيك عن ناظريّ بكفّيكِ حيناً، وبالمروحات
سأشدو، وأشدو، فما تصنعين إذا احمر خدّاك للأغنيات؟
وأرخيتِ كفيكِ مبهورتَين وأصغيتِ، واخضل حتى الموات
إلى أن يموت الشعاعُ الأخيرُ على الشرق، والحب، والأمنيات

* * *

وهيهات، إن الهوى لن يموت ولكنّ بعض الهوى يأفلُ
كما تأفل الأنجمُ الساهرات، كما يغرب الناظرُ المُسبَلُ،
كما تستجمُّ البحارُ الفساح مليّاً، كما يرقد الجدول
كنَوْمِ اللظى، كانطواء الجناحِ كما يصمتُ النايُ والشمألُ!

* * *

أعامٌ مضى والهوى ما يزالُ كما كان، لا يعتريه الفتورْ؟
أهذا هو الصّيفُ يوفي علينا فنلقاه، ثانيةً، كالزهور؟
ولكنّهن زهور الخلود فلا أظمأتْ ريّهنّ الحرور
ولا نال من لونهن الشتاءُ ولا استنزَفت عطرَهُنّ الدهور
أغاني، والغاب قَفرٌ الوكون حبيسُ النسائم تحت الدوالي
ترى ماءه، لاتّقاد الهجير، حريقاً بما فوقه من ظلال
وفوق التعاشيب، حيث الغصون ينونَ بأفيائهن الثقالِ،
هنا مضجعٌ هدهدته العطور؛ أأبصرت كيف اضطجاع الجمال؟

* * *

أأمسيتُ أستحضر الذكرياتِ وما كان بالأمسِ كلَّ الحياه؟
أضاعت حياتي؟ أغاب الغرامُ؟ أماتتْ، على الأغنياتْ، الشفاه؟
أُمسي، وما زال غابُ النخيل خضيلاً وما زال فيه الرعاه،
حديثاً على مَوقد السامرين: أحبّا، وخابا، فوا حسرتاه؟!

* * *

أُناديك، لو تسمعين النداء وأدعوك – أدعوك؟! يا للجنون!
إذا رنَ في مسمعَيك الغداة من المهد صوتُ الرضيع الحنون
ونادى بك الزَوجُ أن ترضعيه ونادى صدىً أخفقته السنون
فما نفعُها صرخةً من لهيب أدوِّي بها؟ من عساني أكون؟!

* * *

أعفّرتُ من كبرياءِ النداء؟ وأرْجعتُ آمادي القهقرى؟
نسيتُ التي صوّرتها مُناي وناديتُ أنثى ككل الورى؟!
وأعرضتُ عن مسمَعٍ في السماء إلى مسمع في تُراب القرى!
أتُصغي فتاةُ الهوى والخيالِ وأدعو فتاة الهوى والثرى!؟

* * *

..وودَّعتُ سجواءَ بين الحقول ودنيا عن الشرّ في معزل
وخلفتُ، في كلِّ ركن خضيلٍ من الريف، ذكرى هوىً أوّل
قصاصات أوراقيَ الهامسات بشعري، على ضفَّة الجدول
وجذْعاً كتبتُ اسمها الحُلوَ فيه ونايا يغني مع الشمألِ.

* * *

فمنْ هذه المسترقُّ القلوبَ صبىً ملؤها روحُه الطافره

أما كنتُ ودّعتُ تلك العيونَ الظليلاتِ والخصلة النافرة؟
كأني ترشّفتُ قبل الغداة سنى هذه النظرة الآسرة!
أما كان في الريف شيءٌ كهذا؟ أما تُشبه الربّة الغابرة؟!

* * *

مشى العُمرُ ما بيننا فاصلاً فمن لي بأن أسبق المَوْعدا؟
ولكنه الحبُّ منه الزمانُ ثوان، ومما احتواهُ المدى
أراها فأنفض عنها السنين كما تَنْفضُ الريحُ بَردَ الندى
فتغدو وعمري أخو عُمرها ويستوقفُ المولِدُ المَوْلدا

* * *

وهل تسمع الشعرَ إن قُلته وفي مسمعيها ضجيجُ السنين
أطلت على السبعِ من قبل عشرين عاماً، وما كن إلا جنين؟
وأمسى – ولم تدرِ أنت الغرام – هواها حديث الورى أجمعين
لقد نبَّأوها بهذا الهوى فقالت: وما أكثر العاشقين؟!

* * *

أمن قلبه انثال هذا النشيدُ إليها، إلى الذئبة الضاريه؟
ولو لم يكن فيه طعمُ الدماءِ ما استشعرت رنة القافيه
وما زال تسبيه غمّازتان تبوحان بالبسمة الخافيه
وما زالتا تُذكران الخيال بما كان في الأعصُر الخاليه:
وبالحُبّ والغادة المستبد صباها به، يلعبان الوَرَقْ
وكيف استكان الاله الصغير فألقى سهامَ الهوى والحَنَقْ
رهانٌ، رمى فيه غمّازتيه وَوَرْدَ الخدود، ونور الحدق؛

لكَ اللهُ، كيف اقتحمت القرونَ ... ولم تخب في وجنتيك الألق؟

* * *

كأن ابتسامتها والربيعَ ... شقيقان، لولا ذبول الزَّهر

أآذارُ ينثر تلك الورودَ ... على ثغرها؟ أم شُعاع القمر؟

ففي ثغرها افترَّ كلُّ الزمانِ ... وما عُمرُ آذار إلاّ شهر

وبالروح فدّيت تلك الشفاه ... وإن أذكرتْني بكأس القدرا

* * *

أطلي على طرفيَ الدامع ... خيالاً من الكوكب الساطع

وظلاً من الأغصن الحالمات ... على ضفة الجدول الوادع

وطوفي أناشيد في خاطري ... يناغين من حبي الضائع

يفجّرن من قلبي المستفيض ... ويقطرن في قلبي السامع

١٩٤٧/٢/١

الليل، والسوق القديم
خفتت به الأصوات إلا غمغمات العابرين
وخطى الغريب وما تبثُّ الريح من نغم حزين
في ذلك الليل البهيم.
الليل، والسوق القديم، وغمغمات العابرين؛
والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب،
- مثل الضباب على الطريق -
من كل حانوت عتيق،
بين الوجوه الشاحبات، كأنه نغم يذوب
في ذلك السوق القديم.

* * *

كم طاف قبلي من غريب،
في ذلك السوق الكئيب.
فرأى، وأغمض مقلتيه، وغاب في الليل البهيم.
وارتجّ في حلق الدخان خيال نافذة تضاء،
والريح تعبث بالدخان...
الريح تعبث، في فتور واكتئاب، بالدخان،
وصدى غناء...

ناءٍ يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل؛
وأنا الغريب... أظلّ أسمعه وأحلم بالرحيل
في ذلك السوق القديم.

* * *

وتناثر الضوء الضئيل على البضائعِ كالغُبار؛
يرمي الظلال على الظلال؛ كأنها اللحن الرتيب،
ويُريق ألوان المغيب الباردات، على الجدار
بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب.
الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه
ويدٍ تلوّنها الظهيرة والسراج أو النجوم.
ولربما بردتْ عليه وحشرجت فيه الحياة،
في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح؛
في مخدع سهر السراجُ به، وأطفأه الصباح

* * *

ورأيت، من خلل الدُّخان، مشاهد الغد كالظلال.
تلك المناديل الحيارى وهي تومئ بالوداع
أو تشرب الدمع الثقيل، وما تزال
تطفو وترسب في خيالي — هوّم العطر المضاع
فيها، وخضّبها الدم الجاري!
لون الدجى وتوقُّدُ النارِ
يجلو الأريكة ثم تخفيها الظلال الراعشاتْ —
وجه أضاء شحوبه اللهبُ

يخبو، ويسطع، ثم يحتجبُ
ودم يغمغم وهو يقطر ثم يقطر: مات....ماتْ!

* * *

الليل، والسوق القديم، وغمغمات العابرين،
وخطى الغريب.
وأنت أيتها الشموع ستوقدين
في المخدع المجهول، في الليل الذي لن تعرفيه،
تلقين ضوءك في ارتخاءٍ مثل أمساء الخريف
- حقل تموج به السنابل تحت أضواء الغروب
تتجمع الغربان فيه —
تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أوراق الخريف
في ليلة قمراء سكرى بالأغاني، في الجنوب:
نقر [الدرابك] من بعيد
يتهامس السعف الثقيل، به، ويصمت من جديد!

* * *

قد كان قلبي مثلكن، وكان يحلم باللهيب،
حتى أتاح له الزمان يداً ووجهاً في الظلام
نار الهوى ويد الحبيب —
ما زال يحترق الحياة، وكان عام بعد عام
يمضي، ووجه بعد وجه مثلما غاب الشراع
بعد الشراع — وكان يحلم في سكون، في سكون:
بالصدر، والفم، والعيون؛

والحب ظلله الخلود فلا لقاء ولا وداع
لكنه الحلم الطويل
بين التمطي والتثاؤب تحت أفياء النخيل.

* * *

بالأمس كان وكان – ثم خبا، وأنساه الملال
واليأس؛ حتى كيف يحلم بالضياء – فلا حنين
يغشى دجاه، ولا اكتئاب، ولا بكاء، ولا أنين
الصيف يحتضن الشتاء، ويذهبان... وما يزال
كالمنـــزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح،
كالسلم المنهار، لا ترقاه في الليل الكئيب
قدم، ولا قدم ستهبطه إذا التمع الصباح.
ما زال قلبي في المغيب
ما زال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساء،
حتى أتت هي والضياء!

* * *

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام
عند المساء، وطوقتني تحت أضواء الطريق
ثم ارتخت عني يداها وهي تهمس – والظلام
يحبو، وتنطفئ المصابيح الحزانى والطريق –:
"أتسير وحدك في الظلام؟
أتسير؛ والأشباح تعترض السبيل، بلا رفيق؟"
فأجبتها والذئب يعوي من بعيد، من بعيد

أنا سوف أمضي باحثاً عنها، سألقاها هناك
عند السراب وسوف ابني مخدعين لنا هناك"
قالت – ورَّجع ما تبوح به الصدى "أنا من تريدا"

* * *

"أنا من تريد، فأين تمضي، فيم تضرب في القفار
مثل الشريد؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار.
أنا من تريد.." وقبلتني ثم قالت – والدموع
في مقلتيها – "غير أنك لن ترى حلم الشباب:
بيتاً على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب
لولا الأغاني، وهي تعلو نصف وسنى، والشموع
تلقي الضياء من النوافذ في ارتخاء؛ في ارتخاء!
أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل:
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل،
لا يأس فيه ولا رجاء

* * *

أنا أيها النائي القريب،
لك أنت وحدك؛ غير أني لن أكون
لك أنت – أسمعها؛ وأسمعهم ورائي يلعنون
هذا الغرام. أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب
لعنات أُمي وهي تبكي. أيها الرجل الغريب
إني لغيرك... بيد انك سوف تبقى، لن تسيرا
قدماك سُمِّرتا فما تتحركان؛ ومقلتاك

لا تبصران سوى طريقي، أيها العبد الأسيرا؟

* *

"- أنا سوف أمضي فاتركيني: سوف ألقاها هناك

عند السراب"

فطوقتني وعي همس: "لن تسيرا!"

* * *

"أنا من تريد؛ فأين تمضي بين أحداق الذئاب

تتلمّس الدرب البعيد؟"

فصرختُ: سوف أسير، ما دام الحنين إلى السراب

في قلبي الظامي! دعيني أسلك الدرب البعيد

حتى أراها في انتظاري: ليس أحداق الذئاب

أقسى عليَّ من الشموع

في ليلة العرس التي ترقبين، ولا الظلام

والريح والأشباح، أقسى منك أنتِ أو الأنام!

أنا سوف أمضي! فارتخت عني يداها، والظلام

يطغى...

ولكني وقفت وملء عينيّ الدموع!

١٩٤٨/١١/٣

والتف حولك ساعداي، ومال جيدك في اشتهاء،
كالزهرة الوسنى – فما أحسستُ الا والشفاه
فوق الشفاه. وللمساء
عطر، يضوع فتسكرين به، وأسكر من شذاه
في الجيد والفم والذراع،
فأغيب في أفق بعيد، مثلما ذاب الشراع
في أرجوان الشاطئ النائي وأوغل في مداه!

* * *

شفتاك في شفتيّ عالقتان – والنجم الضئيلْ
يُلقي سناه على بقايا راعشات من عناق –
ثم ارتخت عني يداك، وأطبق الصمت الثقيل.
يا نشوةً عبرى؛ وإغفاءً على ظل الفراق
حلواً؛ كإغماء الفراشة من ذهول وانتشاء...
دوماً إلى غير انتهاء!

* * *

يا همسةً فوق الشفاه
ذابت فكانت شبه آه،
يا سكرةً مثل ارتجافات الغروب الهائمات

رانت كما سكن الجناح وقد تناءى في الفضاء
غرقي إلى غير انتهاء
مثل النجوم الآفلات.

* * *

- "لا... لن تراني. لن أعود
"هيهات. لكنّ الوعود
"تبقى تُلحُّ.. فخفّ أنت، وسوف آتي في الخيال
"يوماً، إذا ما جئتَ أنت. وربما سال الضياء
"فوق الوجوه الضاحكات – وقد نسيتَ؛ وما يزال
"بين الأرائك موضعٌ خال يحدق في غباء!
"هذا الفراغ! أما تحس به يحدق في وجوم؟
"هذا الفراغ.. أنا الفراغ، فخفّ أنت لكي يدوم!"

* * *

هذا هو اليوم الأخير؟!
واحسرتاه! أتصدقين؟ ألن تخفَّ إلى لقاء؟!
هذا هو اليوم الأخير. فليته دون انتهاء!
ليت الكواكب لا تسير؛
والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تفيق!
خلفتني وحدي – أسير إلى السراب بلا رفيق.

* * *

يا للعذاب! أما بوسعك أن تقولي: "يعجزون
عنا. فماذا يصنعون؟

لو أنني — حان اللقاء

فاقتادني نجم المساء،

في غمرة لا أستفيق

ألا وأنت تلف خصري تحت أضواء الطريق؟!"

* * *

ليل، ونافذة تُضاء.. تقول إنك تسهرين.

إني أحسُّك تهمسين

في ذلك الصمت المميت: "ألن تخفَّ إلى لقاء؟"

ليل، ونافذة تضاء

تغشى رؤاي، وأنتِ فيها... ثم ينحل الشعاع

في ظلمة الليل العميق

ويلوح ظلك من بعيد وهو يومئ بالوداع،

وأظل وحدي في الطريق!

١٩٤٨

وقف اختلافهما في المذهب حائلاً بينــهما
وبين السعادة.. فآلى هو أن يلعن الأوثان!
[قصة حب في اليونان الوثنية]

أساطيرُ من حشرجات الزمان
نسيجُ اليد البالية،
رواها ظلام من الهاوية
وغنّى لها ميّتان.
أساطير كالبيد، ماجَ السراب
عليها، وشقّتْ بقايا شِهاب،
وأبصرتُ فيها بريق النُّضّار
يلاقي سَدىً من ظلال الرغيف،
وأبصرتِني؛ والستار الكثيف
يواريك عني فضاع انتظار
وخابت مُنىً؛ وانتهى عاشقان.

* * *

أساطير، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين،

فكم أومضت في عيون الطغاة

بما حُمِّلتْ من غبار السنين

يقولون: وحيُ السماء،

فلو يَسمعُ الأنبياء

لما قهقهت ظلمة الهاوية

بأسطورة بالية

تجرُّ القرون

بمركبة من لظى، في جنون

لظى كالجنون!

* * *

وهذا الغرامُ اللجوج

أيرتدُّ من لمسةٍ باردة...

على إصبع من خيال الثلوج،

وأسطورة بائدة؟

وعرّافةٍ أطلقت في الرمال

بقايا سؤال

وعينين تستطلعان الغيُوب

وتستشرفان الدروب،

فكان ابتهالٌ... وكانت صلاة

تُعفر وجهَ الآله

وتحثو عليه انطباق الشفاه

* * *

تعالي فما زال نجم المساء
يذيب السنا في النهار الغريق
ويغشى سكونَ الطريق
بلونين من ومضة وانطفاء.
وهمسُ الهواء الثقيل
بدفء الشذى واكتئاب الغروب،
يذكرني بالرحيل:
شراع خلال التحايا يذوب
وكفٌّ تلوِّح. يا للعذاب!

* * *

تعالي فما زال لون السحاب
حزيناً.. يذكرني بالرحيل
رحيل؟!
تعالي، تعالي... نذيب الزمان.
وساعاته؛ في عناق طويل،
ونصبغ بالأرجوان
شراعاً وراء المدى،
وننسى الغدا
على صدرك الدافئ العاطر
كتهويمة الشاعر.
تعالي؛ فملء الفضاء

صدى هامس باللقاء

يوسوس دون انتهاء

* * *

على مقلتيك انتظار بعيد

وشيء يريد..:

ظلال

يغمغم في جانبيها سؤال،

وشوق حزين

يريد اعتصار السراب

وتمزيق أسطورة الأولين

فيا للعذاب!!

جناحان خلف الحجاب

شراع..

وغمغمة بالوداع!!!

١٩٤٨/٣/٢٤

إتبعيني

فالضحى رانت به الذكرى على شطٍّ بعيدِ

حالمِ الأغوارِ بالنجم الوحيدِ

وشراع يتوارى، و "اتبعيني"

همسة في الزرقة الوسنى .. وظلُّ

من جناح يضمحلُّ

في بقايا ناعسات من سكونِ

في بقايا من سكونِ

في سكون!

* * *

هذه الأغوارُ يغشاها خيالُ؛

هذه الأغوارُ لا يسبرها إلا ملالُ

تعكس الأمواج، في شبه انطفاءِ،

لونَهُ المهجور في الشطِّ الكئيب،

في صباح ومساء،

وأساطيرُ سكارى.. في دروبِ،

في دروبٍ أطفأ الماضي مداها.

وطواها.

فاتبعيني... إتبعيني

* * *

إتبعيني.. ها هي الشطآن يعلوها ذهولُ

ناصلُ الألوانِ، كالحلمِ القديمِ

عادت الذكرى به – ساج كأشباحِ نجومِ

نسيَ الصبحُ سناها والأفولُ

في سهادٍ ناعس...، بين جُفونِ!

في وجوم الشاطئ الخالي، كعينيك، انتظارُ

وظلال تصبغ الريح... وليل ونهارُ.

صفحةٌ زرقاء تجلو، في برود

وابتسامٍ غامض، ظلَّ الزمان

للفراغ المتعب البالي على الشط الوحيد.

إتبعيني.. في غدٍ يأتي سوانا عاشقان،

في غد، حتى وإن لم تتبعيني،

يعكس الموج؛ على الشط الحزين

والفراغ المتعب المخنوق؛ أشباحَ السنين.

* * *

أمس جاء الموعدُ الخاوي.. وراحا،

يطرق الباب على الماضي.. على اليأس.. عليّا!

كنت وحدي.. أرقب الساعة تقتات الصباحا

وهي ترنو مثل عين القاتل القاسي إليّا –

أمس... في الأمس الذي لا تذكرينه

ضوّأ الشطآن مصباح كئيب.. في سفينة

واختفى في ظلمة الليل قليلاً فقليلا،

وتناءت، في ارتخاء وتوانِ

غمغمات مجهدات، وأغاني

وتلاشت، تتبع الضوء الضئيلا.

أقبلي الآن... ففي الأمس الذي لا تذكرينه

ضوّأ الشطآن مصباح كئيب في سفينه

واختفى في ظلمة الليل قليلاً فقليلا.

١٩٤٨/٤/٢١

الداءُ يثلج راحتيَّ، ويطفئ الغد.. في خيالي
ويشلّ أنفاسي، ويطلقها كأنفاس الذبال
تهتز في رئتين يرقص فيهما شبح الزوال
مشدودتين إلى ظلام القبر بالدّم والسعال..

* * *

واحسرتا!؟ أكذا أموت؟ كما يجف ندى الصباحِ؟
ما كاد يلمع بين أفواف الزنابق والأقاحي،
فتضوع أنفاسُ الربيع تهزُّ أفياء الدوالي،
حتى تلاشى في الهواء.. كأنه خفق الجناح!
كم ليلة ناديت باسمك أيها الموت الرهيبُ
وودت لوْ طلع الشروق علي إن مال الغروب
بالأمس كنت أرى دجاك أحب من خفقات آلِ
راقصنَ آمال الظماء.. فبلّها الدم واللهيب!

* * *

بالأمس كنت أصيح: خذني في الظلام إلى ذراعك
واعبر بي الأحقاب يطويهن ظل من شراعك
خذني إلى كهف تهوّم حوله ريح الشمال..
نام الزمان على الزمان، به، وذابا في شعاعك.

* * *

كان الهوى وهماً يعذبني الحنين إلى لقائه
ساءلت عنه الأمنيات؛ وبت أحلم بارتمائه
زهراً ونوراً في فراغ من شكاة وابتهال..
في ظلمة بين الأضالع تشرئب إلى ضيائه

* * *

واليوم حببت الحياة إلي، وابتسم الزمان
في ثغرها، وطفا على أهدابها الغد والحنان —
سمراء.. تلتفت النخيل الساهمات إلى الرمال
في لونها.. وتفر ورقاء.. ويأرج إقحوان..

* * *

شع الهوى في ناظريها.. فاحتواني واحتواها
وارتاح صدري، وهو يخفق باللحون، على شذاها
فغفوت استرق الرؤى والشاعرية من رؤاها
وأغيب في الدفء المعطر.. كالغمامة في نداها

* * *

عينان سوداوان أصفى من أماسي اللقاء،
وأحب من نجم الصباح إلى المراعي والرعاء،
تتلألأن عن الرجاء كليلة تخفي دجاها
فجراً يلون بالندى؛ درب الربيع، وبالضياء

* * *

سمراء يا نجماً تألق في مسائي ... أبغضيني
واقسي عليّ .. ولا ترقي للشكاة وعذبيني

خلي احتقاراً في العيون، وقطي تلك الشفاها
فالداء في صدري تحفز لافتراسك في عيوني!
* * *
يا موت.. يا رب المخاوف، والدياميس الضريرة
اليوم تأتي؟! من دعاك؟ ومن أرادك أن تزوره؟
أنا ما دعوتك أيها القاسي فتحرمني هواها
دعني أعيش على ابتسامتها وإن كانت قصيرة
* * *
لا! سوف أحيى، سوف أشقى؛ سوف تمهلني طويلا
لن تطفئ المصباح.. لكن سوف تحرقه فتيلا
في ليلة.. في ليلتين.. سيلتقي آها فآها
حتى يفيض سنى النهار فيغرق النور الضئيلا!!
* * *
يا للنهاية حين تسدل هذه الرئة الأكيل
بين السعال، على الدماء، فيختم الفصل الطويل
والحفرة السوداء تفغر، بانطفاء النور، فاها —
إني أخاف   أخاف من شبح تخبّئه الفصول!!
وغداً إذا ارتجف الشتاء على ابتسامات الربيع
وانحل كالظل المزيل وذاب كاللحن السريع،
وتفتحت بين السنابل — وهي تحلم بالقطيع
والناي — زنبقة، مددت يدي إليها في خشوع
* * *

وهويت أنشقها فتصعد كلما صعد العبير،
من صدري المهدوم حشرجة فتحترق العطور
تحت الشفاه الراعشات ويُطْفَأ الحقل النضير
شيئاً فشيئاً.. في عيوني ثم ينفلت الأسير!!

١٩٤٨

سوف أمضي. أسمعُ الرِّيح تُناديني بعيداً
في ظلام الغابةِ اللفّاء.. والدَّرْبُ الطويل
يتمطى ضَجَراً، والذئبُ يعوي؛ والأفول
يسرقُ النَّجمَ كما تسرق روحي مُقلتاك
فاتركيني أقطع الليل وحيداً
سوف أمضي، فهي ما زالت هُناكَ.
في انتظاري.

* * *

سوف أمضي. لا هديرُ السيلِ صخّاباً رهيبا
يُغرق الواديُ، ولا الأشباحُ تُلقيها القبورُ
في طريقي تسأل الليلَ إلى أين أسير —
كلُّ هذا ليس يثنيني، فعودي واتركيني،
ودعيني أقطع الليل غريبا.
إنّها ترنو إلى الأفق الحزينِ
في انتظاري.

* * *

سوف أمضي. حوِّلي عينيك لا ترني إليّا!!
إن سحراً فيهما يأبى على رجلي مسيرا،

إن سراً فيهما يستوقف القلب الكسيرا،

وارفعي عني ذراعيك.. فما جدوى العناق

إن يكن لا يبعث الأشواق فيّا؟

اتركيني. ها هو الفجر تبدّى، ورفاقي

في انتظاري

١٩٤٨/٢/٣٠

هـــوى واحــد

على مقلتيك ارتشـفت النجـوم وعانقـــت آمـــالي الآيـــه...
وسابقت حـتى جنـاح الخيـال بروحـــي، إلى روحـــك الواثبـــه
أطلـــت فكانـــت ســـناً ذائبـــاً بعينيـــك، في بســـمة ذائبـــه

* * *

أأنـــت الـــتي رددتهـــا منـــاي أناشـــيد تحـــت ضـــياء القمـــر
تغـــني بهـــا في ليـــالي الربيـــع فـــتحلم أزهـــاره بـــالمطر
ويمضـــي صـــداها يهـــزّ الضـــياء ويغفـــو علـــى الـــزورق المنتظـــر

* * *

خذي الكأس بلي صداك العميـق بما ارتج في قاعهـــا مـــن شـــراب
خذي الكأس لا؛ جف ذاك الرحيق و لم يبـــق إلا جنـــون الســـراب
وإلا صـدى هـامس في القـرار: ألا ليـــتني مـــا ســـقيت التـــراب

* * *

خذي الكأس، إني زرعت الكـروم علـــى قـــبر ذاك الهـــوى الخاســـر
فأعراقهـــا تســـتعيد الشـــراب وتشـــتفه مـــن يـــد العاصـــر
خذي الكأس إني نسـيت الزمـان فمـــا في حيـــاتي ســـوى حاضـــر

* * *

وكـــان انتظـــاراً لهـــذا الهـــوى وقلـــبي، وأشـــواقكِ العارمـــه؟
وإرسالُ طـرفي يجـوب العبـاب صداها.. فيـــا لـــك مـــن ظالمـــه

إلى أن أهلَّ الشراع الضحوك   ذبولاً على الزهرة النائمه

* * *

أتنسين تحت التماع النجوم   خُطانا وأنفاسنا الواجفة

وكيف احتضنا صدى في القلوب   تغني به القبلة الراجفة

صدى، لج قبل احتراق الشفاه   وما زال في غيهب العاطفة

* * *

ورانت على الأعين الوامقات   ظلال من القبلة النائية

تُنادي، بها رغبة في الشفاه   ويمنعها الشك.. والواشية

فترتج عن ضغطة في اليدين   جمعنا بها الدهر في ثانية

* * *

"شقيقة روحي ألا تذكرين"   نداءاً سيبقي يجوب السنين

وهمس من الأنجم الحالمات   يهز التماعاتها بالرنين

تسلل في فجوة في الستار   إليك وقال: ألا تذكرين

* * *

تعالي، فما زال في مقلتي   سناً ماج فيه اتقاد الفؤاد

كما لاح في الجدول المطمئن   خيال اللظى والنجوم البعاد

فلا تزعمي أن هذا جليد   ولا تزعمي أن هذا رماد؟

١٩٤٨/٢/١٦

هبت تغمغــم: "ســوف نفتــرق" روح علـــى شـــفتيك تحتـــرق
صــوت كــأن ضــرام صــاعقة ينـــداح فيـــه.. وقلـــبي الأفـــق
ضاق الفضاء، وغــام في بصــري ضـــوء النجـــوم، وحطـــم الألـــق
فعلـــى جفـــوني الشـــاحبات، وفي دمعـــي، شـــظايا منـــه أو مِـــزق
فـــيم الفـــراق؟ ألـــيس يجمعنـــا حـــب نظـــل عليـــه نعتنـــق؟
حـــب ترقـــرق في الوعـــود ســـنا منـــه ورف علـــى الخطـــى عبـــق
أُختـــاه، صـــمتك ملـــوه الريـــب فـــيم الفـــراق؟ أمـــا لـــه ســـبب؟
الحـــزن في عينيـــك مرتجـــب؛ واليـــأس في شـــفتيك يضـــطرب
ويداك باردتـــان.. مثـــل غـــدي وعلـــى جبينـــك خـــاطر شـــحب
مـــا زال ســـرك لا تجنحـــه آه مؤججـــــة... ولا يثـــــب
حـــتى ضـــجرت بـــه، وأســـأمه طـــول الثـــواء، وآده التعـــب:
"إني أخاف عليـــكَ" واختلجـــت شـــفة إلى القـــبلات تلتـــهب

* * *

ثم انثنيـــت مهيضـــة الجلـــد تتنهـــدين وتعصـــرين يـــدي
وتـــرددين وأنـــت ذاهلـــة، "إني أخاف عليـك حـزن غـد"
فتكـــاد تنتثـــر النجـــوم أســـى في جـــوّهن.. كـــذائب الـــبرد
لا تتركـــي، لا تتركـــي لغـــدي تعكير يومي، مـــا يكـــون غـــدي؟
وإذا ابتسمت اليـوم مـن فـرح فلتعبســـن ملامـــح الأبـــد!

ما كــــان عمـــري قبـــل موعـــدنا إلا الســـــنين تـــدبّ في جســـد

* * *

أختـــاه لـــذّ علـــى الهـــوى ألمـــي فاســــتمتعي بهـــواك وابتســـمي

هـــاتي اللـــهيب فلســـت أرهبـــه، مـــا كـــان حبـــك أول الحمـــم

مـــا زلـــت محترقـــاً تلقفـــني نـــار مـــن الأوهـــام كـــالظلم

ســـوداء لا نـــور يضـــيء بهـــا كرقـــاد حمًـــى دونمـــا حلـــم

هي ومضـــة ألقـــى الوجـــود بهـــا جـــذلان يـــرقص عـــاري القـــدم

هـــاتي لهيبـــك إن فيـــه ســـناً يهدي خطـــاي.. ولـــو إلى العـــدم

١٩٤٨/٢/٢٠

بقايا من القافلة

تُنير لها نجمة آفلة

طريقَ الفناءْ،

وتؤنسها بالغناءْ

شفاه ظماء —

تهاويلَ مرسومة في السراب

تمزَّق عنها النقاب

على نظرة ذاهلة

وشوق يُذيب الحدود.

* * *

ظلال على صفحة باردة

تحركها قبضة ماردة

وتدفعها غنوة باكية،

إلى الهاوية.

ظلال على سلم من لهيب

رمى في الفراغ الرهيب

مراتبه البالية

وأرخى على الهاوية

قناع الوجود.

سنمضي.. ويبقى السراب

وظلّ الشفاه الظماءْ

يهوّم خلف النقاب،

وتمشي الظلال البطاء

على وقع أقدامكِ العارية

إلى ظُلمة الهاوية،

وننسى على قِمةِ السلمِ

هوانا.. فلا تحلمي

بأنّــا نعودْ!

١٩٤٨/٣/٢٧

وداع

أريقي على ساعديَّ الدموع ... وشدي على صدري المتعب
فهيهات ألا أجوب الظلام ... بعيداً. إلى ذلك الغيهب
فلا تهمسي: غاب نجم المساء ... ففي الليل أكثر من كوكب

* * *

وهل كان حلم بغير انتهاء ... وهل كان لحن بلا آخر؟
لكي تحسبي أن هذا الغرام ... أبيد الرؤى.. خالد الحاضر
وأنا سنبقى نعد السنين ... مواعيد في ظله الدائر؟

* * *

على مقلتيك ارتماء عميق ... وذكرى مساء تقول ارجعي!
نداء بعيد الصدى كالنجوم ... يراها حبيبان في مخدع!
يكاد اشتياقي يهز الحجاب ... وتومي ذراعي: هيا معي!!

* * *

سأمضي.. فلا تحلمي بالإياب ... على وقع أقدامي النائية
ولا تتبعيني، إذا ما التفت ... ورائي إلى الشمعة الخابية
يرنحها في يديك النحيب ... فتهتز من خلفك الرابيه

* * *

ستنسين هذا الجبين الحزين ... كما انحلت الغيمة الشارده
وغابت، كحلم؛ وراء التلال ... بعيداً.. سوى قطرة جامدة

ستنثرها الريح عما قليل وتنشرها التربة البارده

* * *

ورب اكتئاب يسيل الغروب على صمته الشاحب الساهم

وأغنية في سكون الطريق تلاشت على هدأة العالم

أثارا صدى تمس الذكريات ، إذ ما انتهى، همسة الحالم

* * *

غداً... حين يلى وراء الزجاج كتاب عليه اسمي الذابلُ

وتنفض كفاك عنه الغبار ويخلو بك المخدع القاحل

سيلقاك وجهي خلال السطور كما يسطع الكوكب الآفل

* * *

إذا ما قرأت "اللقاء الأخير" تمنيت، في غفلة هاربة،

لو استرجعت قبضتاك السنين، لو استرجعت ليلة ذاهبه!

ولكن شيئاً حواه الجدار تحدى أمانيك الكاذبة.

* * *

تلفت، عن غير قصد، هناك فأبصرت.. بالانتحار الخيال!

حروفاً من النار.. ماذا تقول؟ - لقد مر ركب السنين الثقال

وقد باح تقويمهن الحزين بأن اللقاء المرّجى.. محال!!

١٩٤٨/٤/٥

لا تزيديــه لوعـــة فهـــو يلقـــاك لينســـى لـــديك بعـــض اكتئابـــه
قربي مقلتيك من وجهـــه الـــذاوي تري في الشـــحوب ســـر انتحابـــه
وانظري في غضونه صرخة اليـــأس وأشـــباح غـــابر مـــن شـــبابه:
لهفة تسرق الخطـــى بـــين جفنيـــه وحلـــــم يمـــــوت في أهدابــــه
* * *
واسمعيه إذا اشتكى ســـاعة الـــبين، وخـــاف الرحيـــل – يـــوم اللقـــاء
واحجبي ناظريه؛ في صدرك المعطار وعـــن ذلـــك الرصـــيف المضـــاء
عن شراع يراه في الوهم ينســـاب ومـــــوج يحســـــه في المســــاء:
الوداع الحزين!! شـــدي ذراعيـــك عليـــه.. علـــى الأســـى والشـــقاء
* * *
حدثي.. حدثيه عن ذلك الكـــوخ ...وراء النخيـــل... بـــين الـــروابي
حلم أيامـــه الطـــوال الكئيبـــات فـــلا تحرميـــه حلـــم الشـــباب..
أوهميـــه بأنـــه ســـوف يلقـــاك على النهر.. تحت ســـتر الضـــباب
وأضيئي الشموع في ذلك الكوخ.. وإن كـــان كلـــه مـــن ســـراب..
* * *
كلما ضـــج شـــاكياً، في ذراعيـــك، انتـــهاء الهـــوى صـــرخت انتـــهارا..
فـــارتمي.. أيـــن يرتمـــي صـــدره الجيـــاش حزنـــاً وحـــيرة وانتظـــارا؟
اغضبي.. وادفعيه عن صـــدرك القاســـي.. وأرخـــي علـــى هـــواه الســـتارا
أوصدي الباب خلفـــه.. واتركيـــه مثلما كان.. للدجى والصـــحارى!

١٩٤٨/٤/٨

عطرت أحلامـــي هـــذا الشـــذى ... مـــن شـــعرك المسترســـل الأســـود
الجو مـــن حـــولي، ربيـــع حبـــا ... مـــن خـــدره النـــائي إلى الموعـــد
هـــذا عـــبير الحـــب فجرتـــه ... يبحث عـــن مجـــرى لـــه في غـــد
نبـــع أثـــيريّ الخطـــى، حـــالم ... بالظلـــة الخضـــراء والمســـند
والعاشق السكران يحصـــي علـــى ... ثغرك مـــا في الليـــل مـــن فرقـــد
أوقدت مصـــباح الهـــوى بعـــدما ... خبـــا؛ ولـــولا أنـــت لم يوقـــد
هبـــت عليـــه الـــريح مجنونـــة ... محلولـــة الشـــعر؛ خضـــيب اليـــد
الزيت من هذا الشـــذى واللظـــى ... مـــن قبلـــة في الغيـــب لم تولـــد
تطفو علـــى العطـــر خيـــالاً فـــلا ... ترســـب الا في الفـــؤاد الصـــدي

* * *

أهـــم أن أهتـــف: أنـــت الـــتي ... مثلتـــها في أمســـي الأبعـــد
وأنت مـــن تحلـــم روحـــي بهـــا ... علـــى ضـــفاف الـــزمن المزبـــد
تســـائل المـــوج وتـــومي إلى ... كـــل شـــراع علـــها تهتـــدي
أهـــم أن أهتـــف لـــولا خطـــى ... عـــابرة في الخـــاطر المجهـــد
أطيـــاف حســـناواتي اســـتيقظت ... هاتفـــة: يـــا ذكريـــات اشـــهدي
مـــا نـــال منـــا غـــير أسمائنـــا ... تســـخر مـــن آمالـــه الشـــرد
مكتوبـــة بالنـــار، في شـــعره ... كالصـــورة الخرســـاء في معبـــد

١٩٤٧/١٠/٢١

عيـنـــان زرقـــاوانِ.. يـــنعس فيهمـــا لـــونُ الغـــدير
أرنـــو.. فينســـاب الخيـــالُ وينصـــتُ القلـــبُ الكســـير
وأغيـــبُ في نغـــم يـــذوب.. وفي غمـــائم مـــن عـــبير
بيضـــاء مِكســـال التلـــوّي تســـتفيق علـــى خريـــر
نـــاءٍ.. يمـــوت وقـــد تثـــاءب كوكـــب الليـــل الأخـــير
يمضـــي علـــى مهـــلٍ، وأسمـــع همســـتين.. وأســـتدير
فـــأذوب في عيـــنين يـــنعس فيهمـــا لـــون الغـــدير

* * *

حســـناء.. يـــا ظـــلّ الربيـــع، مللـــت أشـــباح الشـــتاءْ
ســـوداً تُطـــلُّ مـــن النوافـــذ كلمـــا عـــبس المســـاء
حســـناء.. مـــا جـــدوى شـــبابي إن تقضـــى بالشـــقاء
عينـــاك.. يـــا للكـــوكبين الحـــالمينِ بـــلا انتـــهاء..
لولاهمـــا مـــا كنـــتُ أعلـــم أن أضـــواء الرجـــاء
زرقـــاء ســـاجية.. وأن النـــور مـــن صـــنع النســـاء
هـــي نظـــرة مـــن مقلتيـــك؛ وبســـمة تعـــد اللقـــاء
ويضـــيء يـــومي مـــن غـــدي؛ وتفـــر أشـــباح الشـــتاء

* * *

عينـــاك.. أم غـــاب ينـــام علـــى وســـائد مـــن ظـــلال؟

ساجٍ تلـــثم بالســكون فــلا حفيــف ولا انثيــال
إلا صـــدى واه يســيل علــى قيـــاثر في الخيـــال.
إني أحـــس الــــذكريات يلفهــ ــا ظـــل ابتــــهال...
في مقلتيـــك مـــدى تـــذوب عليــه أحـــلام طـــوال،
وغفــا الزمـــان.. فـــلا صـــباح، ولا مســـاء، ولا زوال!
إني أضيع مـــع الضـــباب.. ســوى بقايـــا مـــن ســؤال:
عينـــاك.. أم غـــاب ينـــام علـــى وســـائد مـــن ظـــلال!

١٩٤٨/١/٦

في ليالي الخريف

في ليالي الخريف الحزين،

حين يطغى علي الحنين

كالضباب الثقيل

في زوايا الطريق

في زوايا الطريق الطويل؛

حين أخلو وهذا السكون العميق —

توقد الذكريات،

بابتساماتك الشاحبات،

كل أضواء ذاك الطريق البعيد

حيث كان اللقاء

في سكون المساء

هل يعود الهوى من جديد؟

عاهديني إذا عاد.. يا للعذاب!

عاهديني .. ومرت بقايا رياح

بالوريقات؛ في حيرة واكتئاب

ثم تهوي حيال السراج الحزين.

انتهينا.. أما تذكرين؟

انتهينا.. وجاء الصباح

يسكب النور فوق ارتخاء الشفاه

وانحلال العناق الطويل،

أين آلام يوم الرحيل؟

أين لا "لست أنساك" واحسرتاه؟

* * *

في ليالي الخريف

حين أصغي، ولا شيء غير الخفيف

ناحلاً كانتحاب السجين

خاف أن يوقظ النائمين

فانتحى في الظلام

يرقب الأنجم النائيات

حجبتها بقايا غمام

فاستبدت به الذكريات

الغناء البعيد البعيد

في ليالي الحصاد،

أوجه النسوة الجائعات..

ثم يعلو رنين الحديد

يسلب البائس الرقاد!

في ليالي الخريف

حين أصغي وقد مات حتى الخفيف

والهواء –

تعزف الأمسيات البعاد

في اكتئاب يثير البكاء،

شهرزاد[1]

في خيالي فيطغى عليّ الحنين؛

أين كنا؟! أما تذكرين؟

أين كنا؟! أما تذكرين المساء؟!

* * *

في ليالي الخريف الطوال؛

آه لو تعلمين

كيف يطغى عليّ الأسى والملال!؟

في ضلوعي ظلام القبور السجين،

في ضلوعي يصيح الردى

بالتراب الذي كان أمي: "غدا

سوف يأتي. فلا تقلقي بالنحيب

عالم الموت حيث السكون الرهيب!"

سوف أمضي كما جئت واحسرتاه!

سوف أمضي.. وما زال تحت السماء

مستبدون يستنـــزفون الدماء،

سوف أمضي وتبقى عيون الطغاة

---

[1] قطعة موسيقية، للموسيقار الروسي ريمسكي كورساكوف.

تستمد البريق

من جذى كل بيت حريق

والتماع الحراب

في الصحارى، ومن أعين الجائعين،

سوف أمضي.. وتبقى فيا للعذاب!

سوف تحيين بعدي، وتستمتعين

بالهوى من جديد،

سوف أنسى وتنسين الآّ صدى

من نشيد

في شفاه الضحايا — وإلا الردى

١٩٤٨/٩/١٧

في المقهى المزدحم النائي، في ذات مساء،

وعيوني تنظر في تعب،

في الأوجه، والأيدي، والأرجل، والخشب:

والساعة تهزأ بالصخب.

وتدق – سمعت ظلال غناء

أشباح غناء

تتنهد في ألحاني، وتدور كإعصار

بال مصدور،

يتنفس في كهف هار

في الظلمة منذ عصور!

* * *

أغنية حب أصداء

تنأى وتذوب وترتجف

كشراع ناء يجلو صورته الماء

في نصف الليل.. لدى شاطئ إحدى الجزر؛

وأنا أصغي.. وفؤادي يعصره الأسف:

لمَ يسقط ظل يد القدر

بين القلبين؟! لم أنتزع الزمن القاسي

من بين يدي وأنفاسي،
يمناك؟! وكيف تركتك تبتعدين.. كما
تتلاشى الغنوة في سمعي.. نغما.. نغما؟!

* * *

آه ما أقدم هذا التسجيل[1] الباكي
والصوت قديم؛
الصوت قديم
ما زال يولول في الحاكي.
الصوت هنا باق؛ أما "ذات" الصوت:
القلب الذائب إنشاداً
والوجه الساهم كالأحلام، فقد عادا
شبحاً في مملكه الموت –
لا شيء – هنالك في العدم.
وأنا أصغي... وغداً سأنام عن النغم!
أصغيت.. فمثّل إصغائي
لي وجه مغنية كالزهرة حسناءِ
يتماوج في نبرات الغنوة، كالظل
في نهر تقلقه الأنسام؛
في آخر ساعات الليل،
يصحو.. وينام.

---

[1] الأسطوانة.

أأثور؟! أأصرخ بالأيام؟! وهل يجدي؟!

إنا سنموت

وسننسى، في قاع اللحد؟

حباً يحيا معنا.. ويموت!

* * *

ذرات غبار

تهتز وترقص، في سأم،

في الجو الجائش بالنغم،

ذرات غبار!

الحسناء المعشوقة مثل العشاق

ذرات غبار!

كم جاء على الموتى – والصوت هنا باق –

ليل .. ونهار!!

هل صافه مثلي، بالزمن

تقويماً خط على كفن،

ذرات غبار؟!؟

١٩٤٨/٧/٢٠

عينــاك؛ والنــور الضــئيل مــن الشــموع الخابيــات
والكــأس، والليــلُ المطــلّ، مــن النوافــذ، بــالنجوم؛
يبحــثنَ في عــينيّ عــن قلــب.. وعــن حُــبٍّ قــديم؛
عــن حاضــرٍ خــاوٍ، ومــاضٍ في ضــباب الــذكرياتِ
ينــأى؛ ويصــغر، ثم يفــنى إنــه الصّــمتُ العميــقْ
والبــاب توصــده وراءك في الظــلام بــدا صــديق!
كالشــاطئ المهجــور قلــبي، لا ومــيض ولا شــراعْ،
في ليلــة ظلمــاءَ بــلّ فضــاءَها المطــرُ الثقيــلْ –
لا صــرخةُ اللقيــا تُطيــف بــه ولا صــمتُ الرّحيــل.
عينــاك والنــورُ الضــئيل.. أكــان ذاك هــو الــوداع؟!
بــاب، وظــلٌّ يــدين تفترقــان – ثم هــوى الســتار،
ووقفتُ أنظر، في الظــلام، وســرتِ أنــت إلى النــهار!

* * *

في ناظريــكِ الحــالمينِ رأيــتُ أشــباحَ الــدموع
أنأى مــن الــنجم البعيــد، تمــر في ضــوء الشــموع.
واليأسُ مدّ على شــفاهك، وهــي تهمــس في اكتــاب؛
ظــلاّ – كمــا تلقــي جبــال نائيــات مــن جليــد
أطيــافهن علــى غــدير تحــت أســتار الضــباب،

لا تسألي: مـــاذا تريـــد؟ - فلســـتُ أملـــك مـــا أريـــد!

* * *

بـــاب وظـــلٌ يـــدين تفترقـــان – ليتـــك تعلمـــين

أن الشـــموع ســـينطفين، وأن أمطـــار الشـــتاء

بـــيني وبينـــك ســـوف تهـــوي كالســـتار.. فتصـــرخين،

الـــريحُ تعـــولُ عنـــد بـــابي، لســـت أسمـــعُ مـــن نـــداء

إلاّ بقايـــا مـــن حـــديث رددتـــه الـــذكريات

وســـنان هـــوّم كالســـحابة في خيـــالي..... ثم مـــات!

* * *

أنا سوف أمضي، سوف أنأى، ســـوف يصـــبح كالجمـــاد

قلب قضـــيت الليـــل باحثـــة، علـــى الضـــوء الضـــئيل،

عن ظلـــه في مقلـــيَّ... فمـــا رأيـــتِ ســـوى رمـــاد!!

أنا سوف أمضـــي – ربمـــا أنســـى، إذا ســـال الأصـــيل

بالصـــمت، أنـــك في انتظـــاري تـــرقبين... وتـــرقبين؛

أو ربمـــا طافـــت بي الـــذكرى... فلـــم تـــذك الحـــنين

* * *

الـــزورق النـــائي، وأنـــات المجـــاذيف.. الطـــوال

تدنو على مهـــل ... وتـــدنو – في انخفـــاض وارتفـــاع،

حـــتى إذا امتـــدت يـــداك إليّ في شـــبه ابتـــهال

وهمست: "ها هو ذا يعود!" – رجعـــت فارغـــة الـــذّراع!

وأفقت في الظلمـــاء حـــيرى، لا تـــرين ســـوى النجـــوم

ترنو إليك من النوافذ في وجومٍ.. في وجوم!

* * *

قد لا أؤوب إليك إلا في الخيال، وقد أؤوب

لا أمس في قلبي، ولا في مقلتي هوى قديم:

كفان ترتجفان حول الموقد الخابي.. وكزب

تتراقص الأشباح فيه.. وتنظرين إلى النجوم

حذر البكاء... و "كيف أنتِ؟" تهز قلبك في ارتخاء

- "عاد الشتاء.." -

فتهمسين: "وسوف يرجع في الشتاء!"

١٩٤٨/١٠/٨

ذراعــــا أبي تُلقيــــانِ الظـــــلالَ		على روحـــي المســـتهام الغريـــب
ذراعـــا أبي والســـراجُ الحـــزين		يطـــــاردني في ارتعــــاش رتيــــب
وحفـــت بي الأوجـــهُ الجائعـــات		حيــــارى. فياللجــــدار الرهيــــب!
ذارعــــا أبي تُلقيـــــان الظـــــلالَ		على روحـــي المســـتهام الغريـــب.

* * *

وطال انتظاري.. كـــأن الزمـــان		تلاشـــى فلـــمْ يبـــقَ إلا انتظـــارا!
وعيناي مـــلءُ الشـــمال البعيـــد		فيـــا ليـــتني أســـتطيع الفـــرار..
وأنـــتِ التقـــاءُ الثـــرى بالســـماء		علـــى الآل؛ في نائيـــات القفـــار،
وطال انتظـــاري كـــأن الزمـــان		تلاشـــى، فلـــم يبـــق إلا انتظـــارا

* * *

أألقـــاك، تـــأتي علـــيّ النجـــوم		وتمضي... وما غيرُ هـــذا الســـؤال
تغنيـــــه في مســـــمعيّ الريــــاح		وتُلقيـــــه في نـــــاظري الظـــــلال..
وترنو علـــى جرســـه الأمنيـــاتُ		إلى ذكريـــات الهـــوى في ابتـــهال
أألقـــاك؟ تـــأتي علـــيّ النجـــوم		وتمضي، وما غـــير هـــذا الســـؤال

* * *

أصيخي! أمـــا تســـمعين الـــرنين		تـــدوّي بـــه الســـاعة القاســـية؟؟
أصيخي.. فهـــذا صـــليل القيـــود		وقهقهـــــة المـــــوت في الهاويـــــة!
زمـــان.. زمـــان - يهـــز النـــداءُ		فؤادي.. فـــأدعوك؛ يـــا نائيـــة...

أصيخي! أما تسمعين الرنين تدوي به الساعة القاسية!؟

* * *

أما تُبصرين الدخان الثقيل يجرُّ الخطى من فم الموقد؟!

تلوى.. فأبصرت فيه الظهور وقد قوستها عصا السيد

وأبصرت فيه الحجاب الكثيف على جبهة العالم المجهد..

أما تبصرين الدخان الثقيل يجر الخطى من فم الموقد؟!

* * *

ولا بد من ساعة... من مكان لروحين ما زالتا في ارتقاب!

سألقاك.. أين الزمان الثقيل إذا ما التقينا؛ وأين العذاب؟!

سينهار عن مقلتيك الجدار وتفنى ذراعا أبي كالضباب..

ولا بد من ساعة من مكان لروحين ما زالتا في ارتقاب!

* * *

وكيف التلاقي، وبين المنى وإدراكهن؛ الدخان الثقيل؟

تموج الأساطير في جانبيه ويحبو على صدره المستحيل

ونحن الغريقان في لجه سننسى الهوى فيه.. عما قليل؟

وكيف التلاقي، وبين المنى وإدراكهن، الدخان الثقيل

* * *

لينهد هذا الجدار الرهيب وتندك حتى ذراعا أبي!!

أحاطت بي الأعين الجائعات: مرايا من النار في غيهب

إذا استطعت مهربا مقلتاي تصدى خيالان في مهربي

فأبصرت ظلين لي في الجدار أو استوقفتني ذراعا أبي

* * *

سأبقى وراء الجدار البغيض وعيناي لا تبرحان الطريق
أعد الليالي خلال الكرى وأرعى نجوم الظلام العميق
فلا تيأسي – أن تمر السنون ويطفين في وجنتيك البريق
سأبقى وراء الجدار القديم وعينان لا تبرحان الطريق

١٩٤٧/٧/٢٧

قد انتصف الليل، فـــاطو الكتـــاب   عـــن الـــريح والشـــمعة الخابيـــة
فعينـــــاك لا تقـــرآن الســـطور   ولكنـــــها العلـــــة الواهيـــــة
فأنـــــت تـــرى مقلتيهـــا هنـــاك   وذكـــرى مـــن الليلـــة الماضـــية
فتطوي على ركبتيـــك الكتـــاب   وترنـــــو إلى الأنجـــــم النائيـــــة

* * *

هنا أنت بـــين الضـــياء الضـــئيل   وبين الدجى في الفضـــاء الرحيـــب
وكم من مصـــابيح تفـــنى هنـــاك   تـــنير الثـــرى والفـــراغ الرهيـــب

مصـــابيح كانـــت تـــذوب
وتنحـــــل في شـــــعرها:
خطانا، ولـــون الغـــروب،
وما ضـــاع مـــن عطرهـــا.

وتُلقي علـــى ذكريـــات الشـــتاء   ســـتاراً مـــن الأدمـــع الراجفـــة
فتخبـــو مصـــابيحهن البعـــاد   بطيئـــاً... كمـــا تـــبرد العاطفـــة
كما افترقت، يوم حـــان الرحيـــل   يـــد صـــافحتها يـــد واجفـــة
كرجع الخطى في الطريق البعيـــد،   كمـــا انحلـــت الرغبـــة الخائفـــة

* * *

وتصغي ولا شـــيء إلا الســـكون   وإلا خطـــى الحـــارس المتعـــب
وإلا ارتعـــاش الضـــياء الضـــئيل   وخفـــق الظـــلال علـــى المكتـــب

وأسفارك البالية

كأشباح موتى تسير

حيارى إلى الهاوية

- وحلم ادكار قصير -

وتنساب مثل الشراع الكئيب   وراء الدجى؛ روحك الشاردة

ترى وجهها كالتماع النجوم   وتطويه عنك اليد المارده

إلى أن يذوب الضباب الثقيل   وتنهار ألوانه الجامدة

فها أنت ذا تستعيد اللقاء   كما عادت الجثة الباردة

* * *

وتمتد عيناك نحو الكتاب   كمن يَنشُد السلوة الضائعة

فتبكي مع العبقري المريض[1]   وقد خاطب النجمة الساطعة:

"تمنيت يا كوكب

ثباتا كهذا – أنام

على صدرها في الظلام

وأفنى كما تغرب"

ويَغشى رؤاك الضياء القديم   بطيئاً... كما سارت القافلة

ترى الباب مثل انعكاس المغيب   على صفحة الجدول الناحلة

ويغشى رؤاك الضياء القديم   ينير لك الغرفة الآفلة

ويغشى رؤاك الضياء القديم   فيا لانتفاضتك الهائلة!

* * *

---

[1] الشاعر الإنكليزي جون كيتس مات مسلولا في الخامسة والعشرين من عمره، وآخر ما كتبه قصيدته التي يخاطب بها كوكبا في السماء.

ترى الباب ألقى عليه الأصيل ظلالاً من الكرمة العارية
فما كان غير اعتناق طويل عصرنا به القوة الباقية

وألقيتُ عبء السنين
ورأسي، على صدرها
فشدت عليه اليمين
وأدنته من ثغرها...

وأيقنت أن الحياة؛ الحياة - بغير الهوى - قصة فاترة
وإني بغير التي أهبت خيالي بأنفاسها العاطرة...
شريد يشق ازدحام الرجال وتخنقه الأعين الساخرة

لـــيلان غامـــا، بـــالنجوم الآفـــلات علــــى سُــــهادي،
يومـــان. لا وعـــد ولا لقيـــا وتخفـــق يـــا فـــؤادي؟!
وغـــداً ســـيمتلئ انتظـــاري بـــالظلام ولا أراهـــا
وتجـــول عـــيني في الطريـــق وتســـتقر علـــى كتـــابي،
وأنـــا ســـأحلم بالشـــتاء واســـتفيق علـــى هواهـــا

* * *

ســـأم... ومصـــباح وحيـــد ران في أقصـــى الطريـــق
مـــرت وجـــوه العـــابرين بـــه... فلوّنهـــا قلـــيلا..
مـــرّت وغابـــت في الظـــلام، ولـــيس يـــبرح في حريـــق
ســأم.. ونافـــذة يطيـــل فضـــاؤها الـــدرب الطـــويلا.
ســـأم ومـــرآة تثـــاءب في قرارتهـــا الوجـــوم..
الغرفـــة الجوفـــاء والأقـــداح والبـــاب القـــديم.

* * *

بالأمس كان هـــوى وكـــانَ... وكـــانَ – ويـــح الـــذكريات
"وافرحتـــاه.. أتصـــدقين؟" وقادنـــا نجـــم المســـاء
في ذلـــك الـــدرب البعيـــد وألـــف نجـــوى واشـــتكاء
تخبـــو وتنـــأى؛ والعنـــاق يعـــد أضـــواء الطريـــق.

بالأمس كـــان هـــوى وكـــان – وخـــيم الصـــمت العميـــق

* * *

دب الـمــــلال إلى فـــــوادك مثـــــل أوراق الخريــــف...

"أهـــواك"؟ مـــاذا تحمســـين؟ أتلـــك حشـــرجة الحفيـــف

في دوحـــــة صــــفراء يقلـــق ظلــــها روح الشـــتاء؟!

تتألقـــــان ولا لهيـــــب.. وتزحفـــــان ولا فضـــــاء

فـــلّ العنـــاق علـــى الجفـــون وحطـــم الـــدرب البعيـــدا

١٩٤٨/٥/٣

نهـــاية

"سأهواك حتى تجف الأدمع في عيني
وتنهار أضلعي الواهية.." "هي"

أضيئي لغيري فكل الدروب
سواء على المقلة الشاردة؛
سأمضي إلى مجهل لا أؤوب
فان عادت الجثة البارده،
فألقي على الأعين الخاويات
طيب السماء –
لعل الرؤى الخابيات،
إذا مس أطرافهن الضياء؛
يخبرن عن ذلك المجهلِ:
عن الريح... والغاب... والجدول
أضيئي لها يا نجوم!

* * *

"سأهواك حتى..." نداء بعيد
تلاشت؛ على قهقهات الزمان
بقاياه.. في ظلمة.. في مكان،

وظل الصدى في خيالي يعيد:

"سأهواك حتى سأهوى" نواح

كما اعولت في الظلام الرياح،

"سأهواك حتى .. س .." يا للصدى

أصيخي إلى الساعة النائية:

"سأهواك حتى.." بقايا رنين

تحدين دقاتها العاتيه،

تحدين حتى الغدا،

"سأهواك" ما أكذب العاشقين!

"سأهوا..." — نعم.. تصدقين.

* * *

ظلام... وتحت الظلام المخيف

ذراعان تستقبلان الفضاء

أبعد اصفرار الخريف

تريدين ألا يجيء الشتاء؟

لقاء وأين الهوى يا لقاء؟!

عويل من القرية النائيه،

وشيخ ينادي فتاه الغريق،

هذا الطريق... وذاك الطريق،

ويمشي إلى الضفة الخالية

يسائل عنه المياه،

ويصرخ بالنهر.. يدعو فتاه،

ومصباحه الشاحب

يغني "سدى" زيته الناضب

"محال يراه!"

ويحنو على الصفحة القاتمة

يحدق في لهفة عارمه،

فما صادفت مقلتاه

سوى وجهه المكفهر الحزين

ترجرجه رعشة في المياه

تغمغم "لا لن تراه"

* * *

أحقاً نسيتِ اللقاء الأخير؟

أحقاً نسيتِ اللقاء...؟

أكان الهوى حلم صيف قصير

خبا في جليد الشتاء؟

خبا في جليد

وظل الصدى في خيالي يعيد:

"خبا في جليد... خبا في جليد – "

ويا رب حلم يهيل الزمان

عليه الرؤى والسنين الثقال

فتمضي ويبقى شحوب الهلال

يلون بالأرجوان

شحوب النجوم وصمت القمر،

ويومض في كل حلم جديد –

شحوب الهلال وظل الشجر

وطيف الشراع البعيد؟

١٩٤٨/٥/٢٦

الكوكب الوسنان يطفئ ناره خلف التلال،

والجدول الهدار يسبره الظلام

إلا وميضاً، لا يزال

يطفو ويرسب... مثل عين لا تنام،

ألقى به النجم البعيد

يا قلب.. ما لك، لست تهدأ ساعة؟ ماذا تريد؟

النجم غاب وسوف يشرق من جديد، بعد حين،

والجدول الهدار.. هينم ثم نام،

أما الغرام — دع التشوق يا فؤادي والحنين!

* * *

أأظل أذكرها.. وتنساني؟

وأبيت في شبه احتضار؛ وهي تنعم بالرقاد؟

شعت عيون حبيبها الثاني

في ناظريها المسبلين على الرؤى — أما فؤادي

فيظل يهمس، في ضلوعي،

باسم التي خانت هواي.. يظل يهمس في خشوع.

إني سأغفو.. بعد حين سوف أحلم في البحار:

هاتيك أضواء المرافئ وهي تلمع من بعيد..

تلك المرافق في انتظار..

تتحرق الأضواء فيها.. مثل أصداء تبيد.

* * *

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب،

تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف

جوفاء.. في بطء تذوب،

واستيقظ الموتى.. هناك على التلال، على التلال

الريح تعول في الحقول. وينصتون إلى الحفيف —

يتطلعون إلى الهلال

في آخر الليل الثقيل.. ويرجعون إلى القبور

يتساءلون متى النشور!!

والآن تقرع في المدينة ساعة البرج الوحيد.

لكنني في القرية الظلماء.. في الغاب البعيد.

* * *

دعها تحب سواي: تقضي في ذراعيه النهار

وتراه في الاحلام يعبس أو يحدث عن هواه،

فغداً سيهوي ساعداه

مثل الجليد، على خطوط باهتات، في إطار؛

وعلى الرفوف الشاحبات رسائل

عادت تلف، على نسيج العنكبوت؛ بها الوعود

والريح تهمس، لن يعود،

ويلون المرآة ظلّ من سراج، ذابل

وحياله امرأة تحدق في كتاب..

بال، وتبسم في اكتئاب..

* * *

الكوكب الوسنان يطفئ ناره خلف التلال.

والجدول الهدار يسبره الظلام

إلا وميضاً، لا يزال

يطفو ويرسب مثل عين لا تنام؛

ألقى به النجم البعيد.

يا قلب؛ مالك في اكتئاب لست تعرف ما تريد؟!

١٩٤٨/٦/٢٠

لستِ أنت التي بما تحلم الروح، ولستِ الــتي أغــني هواهــا،
كان حب يشد، حولي، ذراعيك، ويدني من الشفاه الشــفاها؛
واشتياق كأنما يسرق الروح – فمــا في العيــون إلا صــداها!
وانتهينا، فقلتِ "إني سأنساه" وغمغمت "سوف ألقى ســواها"

* * *

أمس طال اللقاء؛ حتى تثاءبتِ، وشاهدتُ في يــديك المــلالا،
في ارتخاء النسيج تطويه يمنــاك وعينــاك ترمقــان الشــمالا،
في الغياب الطويل؛ والمقعد المهجور ترمي يدي عليه الظــلالا،
في الشفاه البطاء تدنو من الكوب.. وترتــد ثم تلقــي ســؤالا

* * *

التقينا – أهكذا يلتقي العشاق؟ أم نحــن وحــدنا البائســان؟
لا ذراعان في انتظاري على الباب، ولا خــافق يعــد الثــواني
في انتظاري؛ ولا فم يعصــر الأزمــان في قبلــة، ولا مقلتــان
تسرقان الطريق والدمع من عينيَّ؛ والداء والأسى مــن كيــاني

* * *

قد سئمت اللقاء في غرفة أغضى على باب اكتئاب الغــروب:
الضياء الكسول، والمزهريات تــراءى مــن خفــق اللــهيب

كالجناح الثقيل في دوحة صفراء في ضفة الغدير الكئيب

* * *

واحتشاد الوجوه مثل التماثيل احتواهن معبد مهجور،
سمرت قبلة التلاقي على ثغري... فعادت كما يطل الأسير
من كوى سجنه إلى بيته النائي – كما يخفق الجناح الكسير
للغدير البعيد – كالموجة الزرقاء جاشت فحطمتها الصخور!

* * *

عزّ حتى الحديث بين الأحاديث، وحتى التقاؤنا بالعيون،
في فؤادي الشقي مثل الأعاصير، وفي ساعدي مثل الجنون
التقينا؟ أكان شوقي للقياك اشتياقا إلى الضياء الحزين،
واحتشاد الوجوه في الغرفة الجوفاء؛ والشاي، والخطى، واللحون،

* * *

الخطى واللحون؛ من فجوة الباب تسللن والضياء الضئيلا،
والأزاهير تشرب النور في بطء ويعكسنه ابتساماً ذليلاً
كابتساماتي الحيارى وإطراقي برأسي وقد ذكرت الحقولا،
والغناء الطروب، والمعبر المغمور بالنور والشذى؛ والنخيلا

* * *

لستِ أنت التي بها تحلم الروح – ولكنه الغرام المضاع:
الخطى العابرات في النور والأنداء؛ والشط والضحى والشراع –
التقينا: يد تُمَدّ إلى أخرى، وللنور في الشفاه التماع
ترقص القبلة المرجاة فيه – ثم يدنو فمٌ وتطوى ذراع!

* * *

لستِ أنت التي لها تحلم الـــروح – ولكنـــه انتظـــار اللقـــاء:

انتظار التي تحلـــم بهـــا الـــروح إذا لفهـــا اكتئـــاب المســـاء،

واستبد الحنين، وانثالت الأصـــداء مـــن كـــل ضـــفة قمـــراء

لا تراها العيون؛ في عالمٍ ناءٍ؛ ومن كل بـــاب كـــوخ مضـــاء

* * *

إنها الآن في انتظاري؛ تجيل الطرف حيرى، على امتداد الطريق،

والمساء الكئيب قد ماج بالأصداء تنساب من مكان ســـحيق:

"اتبعينا... فان في الشاطئ النـــائي شـــراعاً يهـــيم بالتصـــفيق

والحبيب المجهول ناداك؛ وامتدت ذراعـــاه في انتظـــار عميـــق"

١٩٤٨/١٢/١٤

هل كان حباً

هل تُسمين الذي ألقى هياماً؟
أم جنوناً بالأماني؟ أم غراما؟
ما يكون الحبُّ؟ نَوْحاً وابتساما؟
أم خُفوقَ الأضلع الحرَّى، إذا حان التلاقي
بينَ عينينا، فأطرقتُ، فراراً باشتياقي
عن سماءٍ ليس تسقيني، إذا ما؟
جئتها مستسقياً، إلا أُواما

* * *

العيون الحور، لو أصبحنَ ظِلاً في شرابي
جفت الأقداحُ في أيدي صحابي
دون أن يحظين حتى بالحباب.
هيئي، يا كأسُ، من حافاتكِ السكرى، مكانا
تتلاقى فيه، يوماً، شَفتانا
في خفوقٍ والتهابِ
وابتعادٍ شاعَ في آفاقه ظلُّ اقتراب

* * *

كم تمنى قلبي المكلومُ لو لم تستجيبي
من بعيدٍ للهوى، أو من قريبِ؛

آه لو لم تعرفي، قبل التلاقي، من حبيب!

أيُّ ثغرٍ مسّ هاتيك الشّفاها

ساكباً شكواهُ آهاً.. ثم آها؟

غير أني جاهل معنى سؤالي عن هواها؟

أهو شيءٌ من هواها يا هواها؟

* * *

أحسدُ الضوء الطروبا

مُوشكاً، مما يلاقي، أن يذوبا

في رباطٍ أوسع الشّعرَ التثاما،

السماء البكرُ من ألوانه آناً، وآنا

لا يُنيلُ الطرْفَ إلا أرجوانا.

ليتَ قلبي لمحةٌ من ذلك الضوء السجين؛

أهو حبٌّ كلُّ هذا؟! خبريني.

١٩٤٦/١١/٢٩

فرّ النهارُ من البيوتِ النائياتِ، إلى السحابِ...
من شُرفةٍ زرقاءَ تحلم بالكواكب والضباب،
من مقلتين على الطريق. ومقلتين على كتاب
الدربُ تحرقه النوافذُ والنجوم المُستسرة
سكرانُ ترحمه الظلالُ وتشرب الأوهام خمره
هيهات، لا تأتي.
وهمس "فيم تأتي؟" شبهُ فكرة

* * *

قد أذكرتني مقلتاكِ رؤىً رسبنَ إلى الظلامِ
زرقاءَ تسبح في ضبابٍ من شحوبٍ وابتسام:
الليلةَ القمراءَ تركض بين أشباح الغمام.
أفق يذوبُ على الحنين، يكاد يَغرقُ في صفائه
يطويه ظلٌّ من جناحٍ، ضاع فيه صدى غنائه
أهدابُكِ السوداء تحملني، فأومضُ في انطفائه

* * *

من أنت؟! سوف تمرُّ أيامي وأنسجها ستارا
هيهات تُحرقه شفاهُكِ وهي تستعر استعارا؛

لا تَلمســـيه.. فأنـــت ظِـــلٌّ لـــيس يختـــرقُ القـــرارا

* * *

مـــات الفضـــاءُ، ســـوى بقايـــا مـــن مصـــابيح الطريـــقِ
مبـــهورةِ الأضـــواء، تنضـــبُ في جـــداولَ مـــن بريـــقِ
صـــفراء تخنقهـــا الظـــلالُ علـــى فـــم الليـــل العميـــقِ

* * *

فـــيمَ انتظـــاريَ كـــالفراغ؟ وفـــيمَ يأســـي كالرمـــاد؟
لن يسمع الدربُ الملـــولُ – وإن أصـــاخَ – ســـوى فـــؤادي
أما فؤادُكِ...

ويح نفسي! أين أنت؟ ومن أنـــادي؟

يا ضياءَ الحقول، يا غنوة الفلاح في الساجيات مـــن أســحارهْ
أقبلي، فالربيع ما زال في الوادي، فبلّي صداكِ قبــل احتضــاره
لا تصيبُ العيونُ إلا بقايــاه، وغــير الشــرود مـــن آثــاره:
دوحةً عند جدولٍ تــنفض الأفيــاءَ عنـــها وترتمـــي في قـــراره
وعلى كل ملعـــبٍ زهـــرةٌ غينـــاء فـــرَّت إليـــه مـــن أيــاره

* * *

في المساء الكئيب، والمعبرُ المهجورُ، والعابساتُ مـــن أحجــاره
مصغياتٌ، تكاد من شدّة الاصغاء أن تـــوهِمَ المـــدى بانفجــاره
أرمق الدربَ، كلما هبّت الريحُ وحفَ العتيـــقُ مـــن أشــجاره
كما أذهل الربى نوحُ فـــلاحٍ يبـــثُّ النجـــوم شـــكوى نهــاره
صاح: "يا ليلُ"، فاستفاق الصدى الغافي على السفح والذي في جواره
فإذا كلُّ ربوةٍ رَجعُ "يا ليل"

ونـــامَ الصـــدى علـــى قيثـــاره!

أين منهنَّ خفقُ أقدامك البيضاء بين الحشيش فـــوق اخضـــراره
مثلَ نجمين أفلتا مــــن مـــدارينِ فجـــال الضـــياءُ في غـــير داره
أو فراشين أبيضين استفاقا يســـرقان الرحيـــق مـــن خمــاره!!

* * *

أنتِ في كل ظلمةٍ مَوعدٌ وسنانُ، مـــا زال يومُـــه في انتظـــاره

ديـــوان شـــعر، ملـــؤه غـــزل بـــين العـــذارى بـــات ينتقـــل
أنفاســـي الحـــرى تهـــيم علـــى صـــفحاته، والحـــب والأمـــل
وســـتلتقي أنفاســـهن بهـــا وتعـــوم في جنباتـــه القبـــل
ديـــوان شـــعر، ملـــؤه غـــزل بـــين العـــذارى بـــات ينتقـــل

* * *

لمـــا يحـــين النـــوح والشـــكوى كل تقـــول: مـــن الـــتي يهـــوى؟
وســـترتمي نظـــراتهن علـــى الـــ صفحات بـــين ســـطوره نشـــوى
ولســـوف تـــرتج النـــهود أســـى ويثيرهـــا مـــا فيـــه مـــن بلـــوى
ولربمـــا قرأتـــه فـــاتنتي فمضت تقول: مـــن الـــتي يهـــوى؟

* * *

ســـيرين مـــا لاقيـــت في حـــبي فيصـــحن: يـــا للعاشـــق الصـــب
ولقـــد تســـيل دمـــوعهن علـــى جنباتـــه، موصـــولة الســـكب
يـــا ليـــت قلـــبي مـــن قصـــائده لترى الحســـان الغيـــد مـــا قلـــبي
ســـيرين مـــا لاقيـــت في حـــبي فيصـــحن، يـــا للعاشـــق الصـــب

* * *

ديـــوانَ شـــعري.. رُب عـــذراء أذكرتُهـــا بحبيبـــها النـــائي
فتحســـست شـــفة مقبلـــة وشـــتيت أنفـــاسٍ وأصـــداء
فطوتـــك فـــوق نهودهـــا بيـــد واسترســـلت في شـــبه إغفـــاء

ديــوان شــعري.. رب عــذراء أذكرهـــا بحبيبـــها النــــائي

* * *

يـــا ليــتني أصــبحت ديــواني أختــــال مـــن صـــدر إلى ثــــان

قدِ بتُّ من حســد أقــول لــه: يـــا ليــت مـــن تهـــواك تهـــواني

ألـــك الكـــؤوس ولي ثمالتـــها ولـــك الخلـــود وإنـــي فـــان

يـــا ليــتني أصــبحت ديــواني أختــــال مـــن صـــدر إلى ثــــان

* * *

كــمْ غـــادة شـــاهدت مخـــدعها ومضـــيت تســـهر ليلـــها معهـــا

قـــد هزهـــا شـــوق لمعتســـف أمـــس هـــواه يســـيل أدمعهـــا

فمضـــت تـــذيع إليـــك قصـــتها وتبـــثُّ همـــاً فـــلَّ أضـــلعها

كـــم غـــادة شـــاهدت مخـــدعها ومضـــيت تســـهر ليلـــها معهـــا!

* * *

ســـتعيش بـــين النـــور والعطـــر وتنفـــر مـــن صـــدر إلى صـــدر

فتـــرى الثغـــور تعيـــد هامســـة ما فيك مـــن فـــتن ومـــن ســـحر

والنهد يرمي الظـــل فيـــك علـــى روض الخيـــال ومـــرقص الشـــعر

ســـتعيش بـــين النـــور والعطـــر وتنفـــر مـــن صـــدر إلى صـــدر

* * *

يســـمعن فيـــك أغـــاني الريـــف مترنمـــاً بحســـانه الهيـــف

المـــاء يشـــكو للجـــرار هـــوى والنخـــل في صـــمت وتعزيـــف

والليـــل والأنســـام عـــاطرة والـــزورق الغـــافي المجـــاديف

تلقـــي مســـامعها إلى الريـــف يشـــكو غـــرام حســـانه الهيـــف

* * *

سأبيت في نوح وتسهيد ... وتبيت تحت وسائد الغيد
أوَ لستَ مني؟ إنني نكد ... ما بال حظك غير منكود؟
زاحمتَ قلبي في محبته ... وخرجت منها غير معمود
أأبيت في نوح وتسهيد ... وتبيت تحت وسائد الغيد؟

* * *

ديوان شعر، ملؤه غزل ... بين العذارى بات ينتقل
أنفاسي الحرى تهيم على ... صفحاته، والحب والأمل
وستلتقي أنفاسهن بها ... وتحوم في جنباته القبل
ديوان شعر ملؤه غزل ... بين العذارى بات ينتقل

يــا نهــر، لــولا منحنــاك ومــا يشــابك مــن فــروع

لاقتافـــت البســـمات، في عـــينيَّ، آثـــار الـــدموع

* * *

حَجَّبْـــتَ، بالشـــأو البعيـــد تســـد بابيـــه الظـــلال

وجهـــاً تلاقـــى في محيـــاه الوداعـــة والجمـــال

* * *

مرآتـــك الســـجواء، منـــذ جلوتهـــا تحـــت الســـماء

مـــا لاح فيهـــا مثـــل ذاك الوجـــه.. في ذاك الصـــفاء

* * *

إن أوقـــد الليـــل العميـــق، نجومـــه في جانبيـــك

لماحـــة الأضـــواء، تغمـــر بالأشـــعة ضـــفتيك

* * *

حـــدثت عنـــه الـــنجم، والآهـــات يقطعـــن الخريـــر

والـــنجم يشـــكو، مثلمـــا تشـــكو هـــواك، إلى الأثـــير

* * *

ناشـــدت ألحـــاظ الكواكـــب، وهـــي تخـــترق الظـــلام

ألاّ يـــنمن – وإن تشـــهين الكـــرى – حـــتى تنـــام

* * *

"أنـــتن أســعد مـــا أظـلّ الكـــون، يـــا زهـــر النجـــوم
أنـــــتن أبصــــرتن ذاك الوجـــــه، في الليـــــل البـــــهيم"

* * *

حـــتى إذا مـــا رنّـــح الـــنجم الأخـــير ســـنا الصـــباح
فـــانقض، تحـــت القبـــة الزرقـــاء، محـــترق الجنـــاح

* * *

وانســـاب في الـــوادي شـــتات الـــزارعين أو الرعـــاه
فـــالجو تنـــبض في نســـائمه النديـــة ألـــف آه

* * *

أصـــبحت فـــوق المعـــبر المهجـــور، أرقـــب منحنـــاك
فـــأبوح بالشـــكوى.. وتســـكت عـــن شـــكاتي ضـــفتاك

* * *

يـــا نهـــر (جيكـــور) الجميـــل، ومنتـــهى شـــكواك نـــور
لا الشـــمس مطفئـــة جـــواي، ولا الكواكـــب والبـــدور

* * *

لا الصـــبح يـــوهن لاعجـــات الليـــل والوجـــد المثـــار
في مقلـــتيّ، ولا يهـــيض الليـــل أحقـــاد النـــهار

* * *

الفتنـــة الســـمراء تســـرقها مياهـــك بعـــد حـــين:
الشـــعر والعينـــان.. والثغـــر المفلـــج.. والجـــبين

* * *

فـــإذا المحـــيرة أطلقتـــها زرقـــة الأفـــق البعيـــد

فالظـــل مقصـــوص الجنـــاح يفـــر مـــن عـــود لعـــود

* * *

والجوســـق المســـتوحد، المهجـــور، في غـــاب النخيـــل

تـــأوي إليـــه الغـــادة الســـمراء لاهبـــة الغليـــل

* * *

والدوحـــة اللفـــاء تحتـــبس الـــبرودة في الظـــلال

مهـــد لأطفـــال الحقـــول، وملعـــب رحـــب المجـــال

* * *

ســـارت إليـــك بطيئـــة الخطـــوات، ذابلـــة الشـــفاه

جاءتـــك ظمـــأى.. بالبنـــان الـــرخص تغتـــرف الميـــاه

* * *

كـــم عـــدت مخمـــور الفـــواد بموعـــد المـــد القريـــب

جـــذلان أقـــتحم الظهـــيرة بـــالتطلع والوثـــوب

* * *

التـــوت فـــوق الشـــاطئ الغـــربيِّ، والســـعف الصـــموت

لا يجهـــلان تنهـــداتي وهـــي بينـــهما... تمـــوت

* * *

والغـــاب ســـاعيَ الحبيـ ـــةُ.. مـــن ظـــلالٍ عقرباهـــا

كـــم أنبـــآني أن طـــرفي بعـــد حـــين قـــد يراهـــا

* * *

واليـــوم يســـقي مـــدك العـــاني أواخـــر كـــل جَـــزْر

لا ذاك يجلوهـــــا، ولا هــــذا بمـــا أرجـــوه يجـــري

* * *

واليــوم إن ســكر الخريــر وعــاد يحتضــن الجــرارا

لم ألــق عــذرائي.. فكيــف الصــبر يــا نهــر العــذارى؟

فجـــر الســـلام

(١٩٥١)

كلمـــــة

هذه إحدى مطولات بدر التي لم تنشر في مجموعاته السابقة، وإن كانت قد نشرت مقاطع منها دون ذكر اسم الشاعر، ونشرت مرة أخـــرى في كـــراس خاص، كما نشرت مرة ثالثة في مجموعة هديل الحمام الـــتي أصـــدرها بـــاقر الموسوي، ولقد كتبت هذه القصيدة حوالي سنة ١٩٥٠، وهي لذلك تمثل شعر بدر خلال التزامه بالحزب الشيوعي.

والقصيدة هامة من حيث انها تمثل، بالإضافة إلى ذلك، مرحلة من مراحـــل تطور بدر الشعري والثقافي والسياسي.

ولما كان ما كتبه الدكتور إحسان عباس عن هذه المطولـــة يفـــي بغـــرض تفسيرها وتقييمها، فقد رأينا أن نقدم للقصيدة بدراسة الدكتور إحسان عباس، المعنونة فجر السلام، والتي هي فصل من كتابه: بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره، ص (١٤٩ – ١٥٨).

ليس في قصائد بدر التي نشرت في دواوين أية قصيدة تحمل تاريخ السنوات ١٩٤٩، ١٩٥٠، ١٩٥١، ولكن على الورقة الأخيرة من ديوانـه (أسـاطير) إعلان عن اقتراب صدور ديوان آخر عنوانه (زئير العاصفة) – ويوصف بأنـه ديوان اجتماعي، وتحته إعلان آخر عن قصيدة (حفّار القبور) وأنها "قصـيدة طويلة شائقة ستصدر في كرّاس"؛ وقد نشرت هذه القصيدة سنة ١٩٥٢، أمـا (زئير العاصفة) فلا نعرف ما حلّ به ولا أي قصائد يحتوي، ولكنه – حسـب الإعلان – يمثل الكفة الثانية في ميزان السياب، فإن كان (أساطير) يصوّر الناحية الذاتية العاطفية في شعره فليكن (زئير العاصفة) ممثلاً للناحية الاجتماعية، وقـد كان يحسُّ في قرارة نفسه أن صدور "أساطير" عن شاعر ذي رسـالة إنسـانية ضخمة سيقابل بشيء من الفتور في بعض المجالات، ولذلك قال في مقدمته: "لا تزال لدي مجموعة ضخمة من الشعر الاجتماعي الإنساني ستطبع في المسـتقبل القريب"[١] وكل ما لدينا من قصائده في هذه الفترة قصيدتان طويلتان هما: (فجر السلام) و (حفّار القبور)، ويشير الأستاذ محمود العبطة إلى قصيدة طويلة ثالثـة بعنوان (القيامة الصغرى) نشر منها مقاطع في جرائد بغداد[٢]، ويقول أنها كانت أهم القصائد وأحبها إلى نفس الشاعر، وهو يعتمد في هذا الحكم على إجابـة لبدر سجلها (عام ١٩٥١) عن أحب قصائده إليه فقال:

---

[1] أساطير: ٨.

[2] العبطة: ١٣.

"أحب شعري إليّ ملحمتي الشعرية (القيامة الصغرى) التي بقيت مبتورة لم تتم والتي أحاول جهدي إكمالها، وأحب كذلك قصيدتي (فجر السلام) و (مقتل الطغاة)، وعلى كل فالإجابة بصورة صحيحة عن هذا السؤال متعذرة ولكن هذه القصائد آخر ما كتبت... إلخ"[1]، وقد كانت هذه الإجابة مرهونة بظروفها أولاً لأنها كانت تشير إلى أن الشاعر قد سار في نهج جديد وأن جدّة هذا النهج كانت تحبب تلك القصائد إلى نفسه، لأنها – على حد تعبيره – "آخر ما كتب"، ثم هو يعلم حق العلم أن الذي سأله عن أحب شعره إليه كان صديقاً ذا ميول يسارية، ولذلك فإن التنويه بهذه القصائد – دون سواها – يرضي ذلك الصديق مثلما يرضي بدراً نفسه وهو في غمرة الحماسة لنزعته اليسارية ولأثرها الموجّه، في شعره.

ولكن الشاعر – بعد سنوات – أخذ ينظر إلى قصيدة (فجر السلام) بشيء من التردد، وقد يلمس القارئ في صيغة حديثه عنها – وإن كانت تقريرية – جانباً من الندم الممتزج بالسخرية، وذلك حين يقول: "إن تلك القصيدة كانت من الشعر الشيوعي النموذجي، فقد شحنتها بأفكار حركة السلم: تحدثت عن أشكال السلام في البلدان الاشتراكية والبلدان الاستعمارية والرأسمالية والبلدان المستعمرة وشبه المستعمَرة... و لم أنس أن أتحدث عن الأم الرؤوم حصن السلام والاشتراكية فقلت:

هنـــاك يـــرين الســـلام	كـــأهداب طفـــل ينـــام
وحيث التقت وهي ترنو	عيـــون الـــورى في وئـــام

[1] المبطلة: ٨٨.

برغم اللـــظى والحديد   نَمَـــت زهـــرة الســـلام"[1]

وقد نشرت قصيدة (فجر السلام) في ذلك الحين – أخذها بعض الرفـــاق ونشروها دون أن يذكروا اسم ناظمها، وكان ذلك اقتراحاً من بدر نفســـه[2]، وقد عني المحامي عطا الشيخلي بتقديمها إلى القراء في كراس خاص، ثم طبعـــت مرة ثانية ضمن مجموعة عنوانها (هديل الحمام) – قام بجمعها ونشـــرها بـــاقر الموسوي (دون أن يذكر تاريخ الطبعة)، وصدرت هذه الطبعة الثانية بمقدمـــة، لعل السياب هو الذي كتبها، تصوِّر غاية حركة السلام ثم تورد توضيحاً لبعض أجزاء القصيدة.

وكانت خطة القصيدة ذهنية واعية تعتمد مبدأ التقابل بين جـــانبي الخـــير والشر، بين السلم والحرب، بين الإيجابية والسلبية: فالهول الذي تمثله الحـــرب يتطلب نغمة متفجرة، شديدة الوطأة، صخَّابة الجزالة، ثم تتلوها نغمة كالأغنية الرقراقة، تمثل وداعة الحياة وهناءة العيش في ظل السلام، ولكن الشاعر لم يستطع أن يحتفظ دائماً بهذا الشكل الصناعي على انسجام في التراوح بين الجانبين، ولم يبق لديه من الانسجام سوى النقلة من وزن البسيط (الذي يمثل جلبة الحـــرب والدمار) إلى أوزان أهدأ منه لتمثل سمات السلم في حياة بني الإنسان.

ففي الدورة الأولى صوَّر تكالب تجار الموت على أن يقطعوا يـــد الشـــعب الخيِّرة البناءة بإثارة حرب جديدة، وسرعان ما ترك هؤلاء التجـــار يجمعـــون حطبهم لإضرام النار، والتفت إلى حمى السلم الآمن، أو ما سمَّاه (الأم الـــرؤوم) فصوَّر العيون التي يغازلها الرجاء، والعذارى وهن يحملن الســـلال في مواســـم

[1] جريدة الحرية من مقال بعنوان "شعاراتهم الجماهيرية".
[2] المصدر السابق.

الحصاد، وشيخاً قد كسر حراب الطغاة ودفنها في الجليد واستنبت بدلها ضوء الصباح الجديد، وتأمل السلام وهو يضحك في الحقول والأغاني والمعامل والمدن الضاحيات، ورأى زهرته ترف رفيفها الجميل.

وفي الدورة الثانية صوَّر الحرب وقد فتحت شدقها الواسع تحاول أن تلتهم كل ما يقع في طريقها:

شدق يزيد اتساعاً كلما رفعت ستر الدجى خفقت من كوكب غربا
آلى على الأرض أن يجتثّ عاليها سفلاً ويصفع من يأتي بمن ذهبا
ولا يريق دماً إلا وأضرمه ناراً وذرّى رماداً منه أو لهبا
تسعى به الريح في الآفاق ناسجة للشمس من جذوة أو من دم حجبا

وفيما هو يصوِّر ويلات الحرب وكيف أصبحت الأرض "كالأبرص المنبوذ" وتكدست فوقها الأجساد تنضح قيحاً، علَّق نظره بأجساد النساء الجميلات وقد انحطَّ ثديا كل امرأة منهن كالعجين الرخو، فقطع الوصف، وأخذ يتذكر ما كانت تلك المرأة تمثله من جمال:

كم عاشق كانت أمانيه أن يرتشف النور على جيدها

وبهذه الالتفاتة، وهي تصوِّر مبلغ حرص السياب على ما حرمه من حديث عن المرأة في مثل هذه القصيدة الغائية، فقدَ السياب ذلك التوازي الذي حققه في المقطع الأول بين هول الحرب ووداعة السلم في اتساق متعادل، وانحاز بنظره إلى جزئية صغيرة من خيرات السلم.

وفي الدورة الثالثة تحدَّث عن القنبلة الذرية وفعلها في تشويه الآدميين، وحاول أن يوازي بين الهول في أثرها والتهويل التعبيري، وسمَّاها "ظل قابيل":

إذا تضرم فاندك الفضاء جذى غضبي ونش الدم الفوار والعرق

وانقضَّ من حيث تهوي الشمس غاربة ... ليل من القاصفات السود أو شفق
جن الرضيع الذي يحبو وهبَّ على ... رجليه يعدو ويلوي جسمه العنق
من فرط ما طال واسترخى وقد صهرت ... أعراقه الزرق نار فيه تختنق

وحين أطبقت الظلمة أطباقاً أطلت من الأفق الذي يفتحه الشروق أيدٍ تلوح بالسلام، وتوزع بين الناس نداء تتجمع حوله جميع رغباتهم، هو نداء أنصار السلام في كل مكان. وهكذا جاءت هذه الدورة الثالثة منسجمة مع الأولى في رسم صورتي الظلام والنور.

وبدلاً من أن يمضي الشاعر في رسم دورة جديدة، ترجم فحوى النداء إلى شعر، فقدَّم صورتين متناقضتين أحدهما عن الأب والأم والزوجة والابن والجيران (ولكل واحد مقطع خاص) وهم يعانون أثر القنبلة الذرية، والثانية عن صورة هؤلاء جميعاً وهم يمارسون شؤون الحياة في السلم، - وما أبعد الفرق بين الحالين - ودعا من يستطيع رؤية الفرق الشاسع بينهما إلى التوقيع على نداء أنصار السلام، لأن هذا التوقيع يوقف الدم والدموع عن الانحدار، وعندئذ يتجلى الشاطئ الضحَّاك، والقمر الطروب، وتتنفس الأضواء، وترفرف أجنحة حمامة السلام، والأطفال من ورائها يرمقونها بأعين نديّة بالإخاء.

ولكن هذا كله لا يتحقق إلا بالثورة على العبودية وتحطيم الأغلال، ولهذا صوَّر الشاعر في الدورة الختامية كيف بدأ ليل الاستعباد يزول، وثارت الأمم المستعمرة - والشرق في طليعتها - فحطمت الأغلال، ورفعت رؤوسها أمم كانت مثل سيزيف مشدودة إلى الصخر، كان يخدعها تجار الحروب فيعطونها الدراهم لتقتات باليسير، ويتحول القوت في عروقها إلى دماء تراق على مذابح

الحروب، فهؤلاء العمال بئر من الدم سيغرق فيها الجيل المقبل، وهكذا. وتبدو هذه الفكرة طريفة، ولكن تعبير الشاعر القاصر عن أدائها قد جعلها كالأحجية:

وابتاع بالدرهم المجبول من دمهـا فيض الدم الثـرّ فيهـا شـر تجـار
واستأجروها لصنع الموت منه لهـا بـالزاد يبقـى دمـاً فيهـا لجـزار
أعمارها مثل بئر للـدم ابتلعـت جيلاً سواها هن ابتاعـه الشـاري

وهذا يعني أن نداء السلم قد عمَّ الكون، ولذلك عاد الشاعر فكرر في ختام قصيدته تلك المقاطع التي عبر فيها عن أصالة هذا النداء وعن حمامة السلام التي نشرت جناحيها فلطما ظلماء الحروب ومهدا لطلوع الفجر – فجر السلام.

فالقصيدة تتكون من أربع دورات، في كل دورة شقان متقابلان – وبـين الثالثة والرابعة يقع نداء أنصار السلام (وهو قائم علـى التقابـل أيضـاً بـين صورتين)، وقد كان هذا الشكل صالحاً لهذه القصيدة، لأن الوعي الذهني هـو الذي يرسم لها طريقها، لو أن الشاعر أحسن الالتزام بصناعة البناء، وخاصة في فترات الارتداد من دنيا الأهوال والمخاوف إلى أحضان الهدوء، ولكنه لم يفعل؛ كذلك فإن إيراد نداء أنصار السلام جاء دخيلاً على هذا المبنى الواضـح (وإن التزم فيه الشاعر مبدأ التقابل)؛ إن التعاقب بين الخير والشر في بناء القصيدة هو خير ما فيها لأنه يضع الذهن في موضع المفارقة والمقارنة، وعن طريق ترسيخ هذا التأثير في نفس القارئ حاول الشاعر – واعياً – أن يقول كل ما يجعل الحرب كريهة لديه وأن يجعل السلم جميلاً في عينيه، أي أن القصيدة تراوح مستمر بين التقبيح والتزيين؛ وإذا استثنينا حرصه على التدرج في بناء الشـق الأول – أي رسم صورة مخيفة للحرب – فإنا نجد أن قصيدته تشكو من نقص أساسي وهو عدم التمايز بين الدورات في طبيعة الموضوع الذي يعالجه، كما أن فيها معالجة

من يعيبه التعبير، وهذا يظهر على أشده في فترات الهدوء، أما في تصوير الرعب والفزع فقد حاول أن يغطي بصوت الهدير اللفظي على قصور عباراته، فوفق إلى حد، إلا أن المدقق في أبياته يلمح معاناة شاعر مبتدئ متفاوت الصياغة، مضطر إلى الحشو، يخلق ويسف في البيت الواحد، ويركب ألفاظاً لا تؤدي ما يريده من معنى إلا بالتعسف في التأويل.

إن قصيدة "فجر السلام" – رغم ما يعتريها من سمات الضعف الفني – ومعها قصائد مثل "القيامة الصغرى" و "مقل الطغاة"، تومئ إلى تحول في الشكل في بعض قصائد ديوانه "أساطير"؛ لقد أدركه الشبع من ذلك الشعر الذاتي الذي يعرض فيه مواجده على الناس، وأخذ يحاول التوفيق بين فنه ومبدأه الذي يعتنقه، حتى خيل إليه في لحظة أنه لن يكتب من بعد بيتاً واحداً من الشعر الذي يشبه ما تضمنه ديواناه "أزهار ذابلة" و "أساطير ولذلك صرّح للأستاذ العبطة (١٩٥١) بأنه يكره الشعر الذاتي بل أنه يعتبر الشعراء الذاتيين عملاء للاستعمار حتى وإن لم يشعروا هم بذلك. قال: "وأهم خطر يجب علينا أن نحاربه، أولئك الذين ينشرون الأفكار الانحلالية ويحاولون أن يخدعوا الجماهير بأن لا فائدة من نضالها، لأن الحياة شيء تافه لا يستحق كل هذا الاهتمام وأن البؤس مقدر على البشر"[2]؛ وأضاف أنه يرى ان الشعر السياسي – رغم قصوره – أفضل من الشعر الذاتي لأنا لو "نظرنا إلى الأمر نظرة عميقة لوجدنا من يقول: متى نتحرر من المستعمرين موازياً من حيث الفن لمن يقول متى أرى حبيبتي، إضافة إلى أنه أنبل شعوراً وأوسع نظرة"[3]

---

[1] العبطة: ٨٨.

[2] العبطة: ٨٨.

[3] العبطة: ٨٩، وسنجد من بعد ان السياب تخلى عن هذا الراي.

لهذا فإن قصيدة "فجر السلام ليست هامة في ذاها، وإنما تكمن أهميتها في أنها خط فاصل بين عهدين، أو قل بداية عهد جديد يسميه الشاعر العهد الإنساني، ويؤكد فيه ضرورة الخروج من صدفة الذات لعرض المشكلات الإنسانية الكبرى. ومن الهام أن نتذكر بأن الموضوع الشعري رغم جدته وبعده عن الموضوع الذاتي القديم لم يتطلب شكلاً جديداً أو قالباً خاصاً من التعبير، وأن السياب لم يجد خيراً من البحر القديم والتعبير الجزل الهادر ليعبر بهما عن آلام الحروب وبشاعتها. وقد رأينا ان اختيار هذا الشكل لم يكن مسؤولاً عن سمات الضعف الفني الذي لحق القصيدة؛ وإذن فنحن أمام قضية هامة: في قصيدة "السوق القديم" استغل السياب شكلاً جديداً لموضوع أزلي واخفقت قصيدته، وفي "فجر السلام" ذات الموضوع الجديد استغل شكلاً قديماً واخفقت قصيدته. وعلى هذا لا يحق لنا أن نقول ان الشكل هو الحقيق بإنجاح القصيدة ولا ان الموضوع هو الذي يستطيع أن يجعلها فنية، وإنما هو تلك الموهبة التي تستطيع أن تسخر أي شكل ملائم وتستغله لموضوع ملائم، وان الجدة في الشكل لا تصنع شعراً جديداً كما ان الجدة في الموضوع تعجز عن ذلك.

وقد يقال دون عناء ان السياب كان يجرب، فمرة يضع الموضوع القديم في شكل جديد ومرة يعكس الآية، حتى إذا استقامت التجربة وصلحت، ظهر نجاحه، وهذا أمر لست أناقشه لأن معناه ان الشاعر وجد طريقه الصحيح، ومن أبدى مثل هذا الرأي كان عليه أن يفسر لِمَ يخفق موضوع جديد في شكل جديد فذلك أمر يدل بداهة على أن ممارسة الأمرين معاً ليست كفيلة بالتميز الفني في كثير من الأحيان.

ولنعد إلى قصيدة "فجر السلام": ان الطول الذي تتمتع به القصيدة وأخواتها في الفترة نفسها يشير إلى أن الشاعر لم يحاول تحولاً في الموضوع وحسب وإنما وجد نفسه ينتقل من دور القصيدة الأغنية ذات الطول المقتصد إلى القصيدة الطويلة، وقد شجعته قصيدة "السوق القديم" على هذه النقلة، فأضحت أكثر قصائده في هذه الفترة طويلة مسترسلة. حتى ليحس من يدرس نتاجه في هذا الدور أنه كان يريد أن يعرف بالقدرة على القصائد الطويلة: فجر السلام، القيامة الصغرى، حفار القبور، المومس العمياء، الأسلحة والأطفال، أنشودة المطر، وأن هذا الإحساس تملّك الشاعر حتى سنة ١٩٥٣ ثم تحوَّل عنه تحوّلاً ظاهرياً وحسب، لأن كثيراً من القصائد التي نظمها في أوقات لاحقة إذا جمعت حسب موضوعها كونت كل مجموعة منها قصيدة طويلة.

وسر ذلك كله متصل بطبيعة السياب: فإن القصيدة لم تكن تتسع لانفعاله، فهو انفعال مديد، متشعب أحياناً، ثم هو قد نشأ معجباً ببعض القصائد الأجنبية الطويلة التي يسترسل فيها الشعور بين علو وهبوط كقصيدة "البحيرة" للامرتين، أو قصيدة "ثورة الاسلام" لشللي وغيرهما، ولعله كان يعتقد أن قصيدة "الأرض اليباب" هي التي كسبت لصاحبها تلك الشهرة وهي من القصائد الطويلة في الأدب المعاصر. يضاف إلى ذلك أن القصيدة العربية التي أحبّها السياب لدى أبي تمام أو البحتري أو المتنبي لا تعد قصيرة، و لم يغب عن مخيلته أن الجزالة التي لمحها في القصيدة العربية امتحان عسير للشاعر كلما طالت القصيدة، وهو قد نشأ على إيثار هذه الجزالة وإن أعيته بصعوبتها في كثير من المحاولات؛ ووجدها تصحّ لشاعر معاصر يطيل القصيد دون أن يفقد تلك الجزالة، وذلك هو الجواهري الذي وجده السياب يتقمص النغمة القديمة بحذق ومهارة. و لم يستطع

السياب أن يدرك الفرق بين نغمة الجواهري – في مدى التعمّل الذي تجـرّه في أذيالها – وطواعية التعبير عند أشد القدماء احتفالاً بالصياغة، أعني أبا تمام. ولهذا كان بناء القصائد الطويلة هو المجال الذي يريد السياب أن يتفوق فيه على سواه من المعاصرين، سواء أكان نهجهم تقليدياً أو تجديدياً. وقد تحدثت من قبل عن المقدمات الطويلة التي لم يكن يستطيع أن يتحلل منها، وهي مقدمات تصلح أن يمهد بها للبناء الملحمي، ولم يكن السياب محروماً من النَفَس الملحمي، بل لعلـه هو الشيء الذي يميزه بين الشعراء المحدثين، والقصيدة الطويلة أقرب القصائد إلى الملحمة، وأشدها سماحاً بالحشد الكثير، وتلك نزعة كانت تترك السياب طليقاً في تحديد شكل القصيدة وفي نموها معاً. وكان السياب في هذه المرحلة، وربما في مراحل بعدها يحسّ أن انفعاله لا يستطيع أن يعيش في نطاق ضيق قصير، ولهذا أحس من بعد أنه أخطأ حين كان يعمد إلى أن يقول كل شيء، ولكنه قلمـا حاول النجاة من هذا الخطأ، لأنه لم يكن يملك إشباع ذلك الانفعال أو تسريبه في لمحات خاطفة أو في ومضات سريعة تومئ إلى المحتوى بلباقة خفيفة اليد.



مقدمـــــة

لا أظن أن بي حاجة إلى شرح أهداف حركة السلام ومراميهـا وتبيـان خطوطها العامة، فذلك ما تولاه الكثيرون من قبلي وما سيتولاه الكثيرون مـن بعدي، وما جاءت هذه القصيدة تعبر عنه بالمقدار الذي يستطيع أن يشرح بـه ويبين دون أن يفقد كونه شعراً، ولكن لي رأياً واحداً أود أن أقوله، رأياً يلمسه القارئ في المقطع الأول من هذه القصيدة.. إن الصراع بين الشر والخير، بـين الموت والحياة، بين قابيل وهابيل، منذ أقدم الأزمنة، وقد تبلـور الآن في هـذه الحركة حركة السلام العالمي... فانقسم العالم اليوم لا إلى آشوريين ومصـريين ولا إلى يونان وفرس، ولا إلى مسيحيين ومسلمين، ولا إلى دول متقدمة ودول متأخرة، ولا إلى شيوعيين ورأسماليين، كما كان يحدث دائماً، وإنما انقسـم إلى شيء أعم من ذلك وأشمل وأحفل بالروح الإنسانية كما عبر عنها بوذا والمسيح ومحمد وجميع الأنبياء والمصلحين منذ أقدم العصور حتى الآن.. انقسم العالم إلى أخيار وأشرار. والأخيار كلهم على اختلاف أجناسـهم ولغـاهم وأديـاهم وعقائدهم السياسية، في معسكر واحد هو معسكر السلام، والأشرار كلهم في معسكر آخر هو معسكر أعداء السلام. فإن كنت ممن لا يريدون الموت لهـم ولآبائهم وأمهاهم وأطفالهم، والدمار والخراب لمساكنهم وحقولهم وجوامعهم وكنائسهم ولا يريدون الجوع وقنابل الذرة والجراثيم والنابالم، فأنت من هـذا

المعسكر الخير، معسكر السلام وما عليك إلا أن تعمل في خدمة هذه القضية، في سبيل نفسك، في سبيل أطفالك في سبيل كل الناس الذين تحبهم، إن كنت ممن لم يعملوا في خدمة هذه القضية المقدسة، قضية السلام العالمي.

والآن أود إلقاء بعض الأضواء على أجزاء هذه القصيدة لأكون قد أديت الرسالة كاملة على أتم وجوهها:

فالمقطع الأول "لا شهوة الموت... فدولار" يتحدث عن يد الشعوب، هذه اليد الخيرة التي كانت – منذ البدء – مصدر السعادة والرفاه، والتي أزهقت وستزهق أنفاس الطغاة، ثم يتحدث عن تجار الموت والحروب ويتساءل: أما كفاهم أهم يستغلون دماء الناس قطرة فقطرة، فيريدون الآن إهراق تلك الدماء مرة واحدة، في حرب ماحقة؟ نحن نعتقد ان في الإمكان أن يعيش النظامان الشيوعي والرأسمالي معاً، دون حاجة إلى الحرب.

والمقاطع القصيرة التالية له واضحة لا تحتاج إلى شرح. أما المقطع الذي يليها "واندلح من لجة الليل.. واكفهر الوجه فانقلبا": فهو يتحدث كيف أقبل من لجة الليل، الذي أصبح شاحباً لأن فجر الحرية والعدل والسلام قد أوشك أن يشرق، كيف أقبل من ذلك الليل، فمه مفغور، فم الحرب الذي يريد ابتلاع الحرث والنسل، والذي يذكر الناس بمقبرة تنظر منها عيون الموتى.. عيون ضحايا الحروب منذ أقدم الأزمان وكأنها تتساءل: من كان السبب في هذا المصير الذي انتهينا إليه؟ إنهم دعاة الحرب الذين يريدون أن يفرضوا عليكم الآن هذا المصير نفسه، ويعود المقطع المبتدئ بـ (ظل لقابيل) إلى معاودة الحديث عن القنابل الذرية، ويصف تأثيرها على طفل رضيع، وعلى شيخ، وعن اليد المجرمة التي تهدد العالم بهذه القنابل.

ولكن لا داعي إلى اليأس.. فهناك أيد أخرى تطلُّ من الأفق المشرق تبشـر الناس بالسلام، والأبيات "وتطل..." إلى "بأعين تندي اخاء" واضحة مفهومة.

عن المقطع التالي لها "ليل العبودية النكراء" فهي تصوّر كيف آذن ليل الظلم والعبودية على الزوال، لفعل الحركات التحررية الوطنية في آسيا وأفريقيـا وفي فيتنام وبرما والملايو، وإيران وتونس والجزائر... وكيف أراد الظالمون، وقد رأوا صرح بغيهم يتفطر ويتصدع، أن يذيبوا أجساد الناس لكي يجعلوا منها طيناً أو غراء يلحمون به هذه الصدوع وكيف هبت أعاصير الشعوب فقذفت النار في أوجه مشعليها ورد كيد الظالم إلى نحره.

إن حركات الشعوب في سبيل استقلالها وتحررها الوطني وجلاء الجيـوش الأجنبية من أراضيها، وعدم السماح للمستعمِر بأن يتخذ من بلدانها رأس جسر للحرب يقيم قواعده العسكرية ومطاراته الحربية فيه.. هذا كله جـزء مـتمم لحركة السلام.

اللهم إشهد اني رأيت منكراً فآليت على أن أغيّره وأحاربه بيدي ولسـاني وقلبي!..

* * *

ب. السياب

لا شهوة الموت في أعـــراق جـــزّارِ تقوى عليها ولا سيلٌ مـــن النـــارِ
الموت أوهى يداً مـــن أن يشـــابكها وهي التي مـــدّت المـــوتى بأعمـــار
وهي التي لمت الأحقاب واعتصرت مما انطوى في دجاها، فيض أنـــوار
ومسّت الصخر فاخضلّت جوانبـــه بالسنبل الغـــضِّ والريحـــان والنـــارِ
هذي اليد السمحة البيضاء كم مسحت جرحاً، وكم أزهقت أنفاس جبـــار
وأطلقت في الدجى الأعمى حمامتها بيضاءَ كالمشعل الوهـــاج في غـــار
كأنمـــا فجّـــرت مـــاء لظامئـــة أو أطلعت كوكباً يأتمّـــه الســـاري
سل تاجر الموت كيف اصطلك من فزع لما رآهـــا؟ وكـــم أودت بتجـــار
وسمّرت[1] نعش طاغوت بما شـــرعت كفّاه من خنجـــر يـــدمي وأظفـــارِ
أما كفّاه الذي امتصت على مَهَـــلٍ أنيابه مـــن دم الغرثـــان والعـــاري
وما طفا عن شفاه الطفل من لـــبنٍ؟ أو حلمة المومس الشوهاء من عار؟
فانقضَّ من كهفه الداجي ليبعثهـــا شعواء كالبحر إن دوّى بإعصـــار؟
حتى إذا امتار من أعمارهـــا مـــدداً واقتات مما ستحيا، عمـــره الهـــاري
أهوى على ظهر من لم يقض[2] عصره عن سلعة تعـــبر الـــدنيا، فـــدولار

* * *

[1] سمرت: دقت المسامير فيه.
[2] يقضي: يموت

عيـــــون وراء المــــــدى تنـــــام... وترجـــــو الغـــــدا
دفـــــوق السـنـــــا، باســـــطاً لأحلـــــى رؤاهـــــا يـــــدا
ســـــتجلبها.... واقعـــــاً نقيـــــاً... كـــذوب النـــدى[1]
يُكفّـــــر عمـــــا جنـــــت عصـــــور طواهـــــا الـــــردى
أيفزعهـــــا المجرمـــــونَ بمـــــا أشـــرعوا مـــن مـــدى؟[2]
كـــأن ســـياجاً يقـــامُ ليحجـــز عنـــها الغـــدا

* * *

وفي الحقـــــل بـــــين الظـــــلال عـــــذارى حملـــــن الســـــلال
لهـــــن الهـــــوى والغنـــــاء وللظـــــالمين الغـــــلال[3]
فبعـــــد الشـــــقاء المريـــــر وغـــــبَّ الليـــــالي الطـــــوال
دنـــــا موعـــــد للحصـــــاد فغنينـــــه... للرجـــــال
أيحســـــدهن الطغـــــاة علـــــى منـــــة للخيـــــال؟
علـــــى ضـــــحكة للربيـــــع وأنشـــــودة للـــــتلال؟!

* * *

وشـــيخ يـــربُّ الحفيـــد بأنبـــاءِ قُطْـــرٍ بعيـــدْ
تحـــدى حـــراب الغـــزاة وغيّـــها في الجليـــد
فأنبـــت منـــها ســـنابلَ ضـــوء الصـــباح الوليـــد
هنالـــك يـــبني الحيـــاة كمـــا شـــاء جيـــل ســـعيد
عمالقـــة بالفعـــال وروّاد كـــون جديـــد[4]

---

[1] ذوب الندى: الذائب منه.
[2] المدى (بكسر الميم) السكاكين: جمع مدية.
[3] الغلال: المحاصيل.
[4] الحديث عن الشعوب التي تحررت.

وآلهـــة يخلقـــون.... آلهـــة مـــن عبيـــد!!

* * *

هنـــاك يـــرين الســـلام كأهـــداب طفـــل ينـــام
ويضـــحك مـــلء الحقـــول وفي أغنيـــات الغـــرام
وينـــبض حيـــث المعامـــل يجـــرحن قلـــب "الظـــلام"
وفي المـــدن الضـــاحيات ينـــدس وســـط الزحـــام
وحيـــث التقـــت - وهـــي ترنـــو - عيـــون الـــورى في وئـــام
بـــرغم اللظـــى والحديـــد نمَـــت زهـــرة للســـلام!!

* * *

واندَاحَ من لجة الليل التي شحبت شدق[2] يزيد اتساعاً كلما اقتربا
كأن مقبرة طال الزمان بها وازلزلت فهي تبدي جوفها الخربا
تعلقت أعظم الموتى به ورنت ألحاظها الحور فيما يشبه الغضبا
كأنما صرّت الأسنان من حنق شيئاً، وسخرية منها بمن نكبا
كأن كل قتيل، رغم سكرته بالصمت، يسأل أماً أثكلت وأبا
وزوجة وبنين استقتلوا وأخاً من كان فيما لقينا من ردى سببا
شدق يزيد اتساعاً كلما رفعت ستر الدجى خفقت من كوكب غربا
آلى على الأرض أن يجتث عاليها سفلاً ويصفع من يأتي بمن ذهبا
ولا يريق دماً إلا وأضرمه ناراً وذرّى رماداً منه أو لهبا
تسعى به الريح في الآفاق ناسجة للشمس من جذوة أو من دم حجبا
فالجو مقبرة كبرى.. معلقة تستعرض الشمس في ذرائها الحقبا[3]

---

[1] الى: أقسم.

والأرض كالأبرص المنبوذ هــرّأهُ داءٌ وعانى عليــه الجــوع والتعبــا
تكدست فوقها الأجساد ناضــحة قيحاً[4] ودوّى عويل الناس واصطخبا
من كل رافعة جيــداً كــأن يــداً جبارة، جاذبتــه الطــول فانجــذبا
وانمطّ مثل عجين الرخو مرضــعها[1] لصق الثرى واكفهر الوجه وانقلبــا

* * *

وهي التي بــالأمس كانــت كمــا رجــى خيــال، للــهوى الأولِ
يمــوج في مرآتهــا ظلــها سوســنة بيضــاء في جــدول
وكــان نهــداها إذا رنحــت ريح الصــبا مــن ثوبهــا المخمــل
يشــف تكويراهمــا عــن ســنا يطفــو بطوقيهــا إلى المجتلــي

* * *

كــم عاشــق كانــت أمانيــه أن يرتشــف النــور علــى جيــدها
كــان يغــذيها إذا قطبــت بــالروح والآمــال في عيــدها
يــا زهــرة عاشــقها لم يــذد مــن زعــزع هبــت لتبديــدها
لو كان يهــواك... ارتمــى دونهــا ســداً.. ونجــاك بتصــعيدها

* * *

ظل لقابيل ألقــى عــبء ظلمتــه: فحماً يسود البرايــا حولــه القلــقُ
فحماً تصدى لــه البــاغي بمقلتــه يذكيه منها لظــى يخبــو ويــأتلق
إذا تضرم، فاندك الفضــاء جــذى[5] غضبى، ونش الدم الفوار والعــرق

---

[1] المرضع: الثدي.
[2] الشدق: الفم.
[3] الحقب: الأحقاب، الأزمان.
[4] القيح: الصديد، الخراج.
[5] الجذى: جمع جذوة، وهي الجمرة.

وانقض-من حيث تهوى الشمس غاربة- ليل من القاصفات السود أو شفق[2]

جن الرضيع الذي يحبو وهبَّ على رجليه يعدو ويلوي جسمه العنقُ

من فرط ما طال واسترخى وقد صهرت أعراقه الزرق ناراً فيه تختنق

كأن كفيه مذراتا ثرى.. ودم لا ما يمد ابن عام: لفه الغسق

ولألأ البدر، فاستدناه وانبسطت يمناه بالشوق.. حتى أظلم الأفق

وأزلزت لثة[1] الشيخ التي هرئت من شدقه الأدرد المفغور تندلق

تنساح كاللعنة السوداء يطلقها بعد الردى، نسله المطموس والحنق

يا ربما سرّت الموتى بأن هلكوا قذائف كعيون الجن تنطلقُ

شدت عليها يد عجفاء يدفعها حقد ويقتات من أعصابها فرق

شلّت يداً طالما التفّت أصابعها ثم ارتخت عن وليد بات يختنق

واستجهضت كل انثى وهي تعضبها واستدفأت باللظى والمُدْن تحترق

وقوّست من ظهور كي يطاولها قزم يلج ارتفاعاً وهي تنسحق

* * *

وتطل من أفق يفتحه الشروق إلى الحفافي

أيدٍ تشير على الرقاب المشرئبة: لا تخافي

لن يفصد الجلاد عرقاً من عروقك لارتشاف

* * *

أيدٍ تلوح بالسلام... كأن موشكه الضحايا

---

[1] اللثة: لحم الأسنان.

[2] هذا البيت والبيتان اللذان بعده، تصف طفلا شوه جسمه الفجار القنبلة الذرية، فجن، وأصبح – وهو لم يبلغ أوان المشي – يركض ورقبته التي طالت والمطت تلوي جسمه ذات اليمين وذات الشمال، كما أصبحت كفاه وكل واحدة منهما كالمذارة، وليست كف طفل عمره عاما يرى القمر فيمد يده إليه يريده أن يدنو.

تكتـــال منـــهن البقـــاء – كــأن أحضـــان الصـــبايا
أودعنـــها الأطفـــال – لمـــا ينطفـــوا[1] – حـــذر المنايـــا

* * *

ولكـــم تناقلـــت المعـــابر والـــدروب صـــدى نـــداءٍ[2]
تتشـــابك الرغبـــات، مثـــل الغـــاب؛ فيـــه علـــى رجـــاء
هـــو معـــبر الأجيـــال، مـــن خطـــر يهـــمّ، إلى نجـــاء

* * *

تعـــوي الـــذئاب، ومـــا يـــزال يجـــيش كالـــدم في العـــروقِ
ينـــد العـــواء، ويـــدفع المقـــل الغضـــاب عـــن الطريـــق
ويظـــل يطفئهـــا كمـــا انطفـــأت بقايـــا مـــن حريـــق

* * *

ويظـــل يخفـــق بالســـلام، كأنمـــا نشـــرت جناحـــا
فيـــه الحمامـــة... يلطـــم الظلمـــاء، فـــانفطرت ولاحـــا
مـــن شـــقها الألـــق[3] الحبـــيس وظـــل ينطـــف... ثم ســـاحا

* * *

صـــوّرْ لنفســـك في الخيـــال أبـــاك في وســـط الحريـــقِ
يـــدعوك بالصـــوت الأبـــح؛ وقـــد تخـــبط كـــالغريق
ويمـــد مـــن خلـــل الـــدخان يديـــه.. يبحـــث عـــن طريـــق

* * *

وانظـــر لأمـــك وهـــي ترقـــد في التـــراب علـــى قفاهـــا

---

[1] لم ينطفوا: لم تتكون نطفتهم بعد.
[2] نداء السلام.
[3] الألق: الضياء. ينطف: يقطر.

تتجاذب العقبان ثدييها ويفقأ ناظراها

وتلقّ من دمها الكلاب، وينخر الدود الشفاها

* * *

وتمل[1] زوجك، وهي تركض بين أشباح الجياعِ

شعثاء[2] تلهث؛ والرياح تصكها دون انقطاع

حملت قميصك في ذراع، والرضيعة في ذراع...

* * *

أو جثة ابنك وهي تزحف دون رأس في الدماء

أو مرضع ابنتك الممزق وهو يسحق بالحذاء

ورفات[3] موتاك الرميم وقد تناثر في الهواء

* * *

وإذا رأيت عيون جيرتك[4] الرضية كالمحارِ

ترتج غضبى في قرارة جدول ضحل القرار

أفلا تطاردك العيون... أما تبصك[5] في احتقار

* * *

صور لنفسك في الخيال. أباك في ليل الشتاءِ

وكأنما ردت عليه صباه؛ أخيلة الصلاء[6]

---

[1] تمل: انظر.

[2] شعثاء: منفوشة الشعر.

[3] الرفات: الأجساد الميتة البالية.

[4] الجيرة: الجيران.

[5] تبصك: تنظر إليك.

[6] الصلاء: الموقد.

مـــــا زال يقـــــرأ، والصـــــغار يضـــــاحكونك في الخفـــــاء

* * *

وانظـــــر لأمــــك وهـــــي تنصـــــت أي عجـــــب[1] يزدهيهـــــا

عـــــادت إلى الصـــــوت الرتيـــــب؛ إلى الغـــــوابر مـــــن ســـــنيها

وتمثلتـــــه فـــــتى.... يجمـــــع ســـــاعديه، ويحتويهـــــا

* * *

وابســـــط لزوجـــــك – وانتشـــــلها وهـــــي تلـــــهث في الزحـــــامِ –

كفـــــاً ســـــتختم – إذ توقـــــع بالمـــــداد، علـــــى الســـــلام

فُـــــرَج[2] الجـــــراح، فتوقـــــف الـــــدم والـــــدموع عـــــن انســـــجام

* * *

الشـــــاطئ الضـــــحاك والأصـــــداء والقمـــــر الطـــــروبُ....

ســـــكران يغـــــرق في جدائلـــــها، وتمســـــه الطيـــــوب

وتضـــــمها... ويطـــــل مـــــن خلـــــل العيـــــون مـــــدى رحيـــــب

* * *

تتـــــنفس الأضـــــواء فيـــــه... كأنمـــــا سمعـــــت غنـــــاءَ

حلـــــو الـــــرنين، فراقصـــــته، هنـــــاك أجنحـــــة تـــــراءى

بيضـــــاء... يتبعهـــــا الصـــــغار بـــــأعين تنـــــدى إخـــــاءَ

* * *

ليـــل العبوديـــة النكـــراء صـــدّعه مهوى طواغيت واستبصـــال ثـــوارِ

حـــتى إذا شمّـــر البـــاغي ليرأبـــه[3] شقاً، بأن يصهر الأجســـاد بالنـــار

---

[1] العجب: (بضم العين وتسكين الجيم) الازدهاء والغرور.

[2] فرج: (بضم الفاء وفتح الراء) جمع فرجة، وهي الفتحة.

[3] يرأب شقاً: يلحم الصدوع التي فيه.

هبت أعاصير تذرو مـــا يؤججـــه   في، وجهه الراعب النضـــاح بالعـــار

واستيقظ الشرق عملاقاً تموج علـــى   ؛ينيه دنيا مـــن الأحقـــاد والثـــار

يرمي، ويرمي ويسعى نحـــو غايتـــه   ب لجة من دجى غضـــبى وأنـــوارِ

تطفو عليها الضحايا أوتغـــوص إلى   أعماقهـــا بـــين تيـــار وتيـــار

راياته الداميات الظافرات كـــوى[1]   حمراء ينشقُّ عنها سجنه الضـــاري

ألقى بها السلم في وجه الطغاة ردى   وفي صعيد الضحايا حمـــر أزهـــار

وحطموا أفوق الغل[2] الذي ســـحبوا   كي يطرقـــوا منـــه تابوتـــاً لجبـــار

حيث اشرأبت على جرف الردى أمم   شدت إلى الصخر، إلا بعض أحرار

وابتاع[3] بالدرهم المجبول من دمهـــا   فيض الدم الثرّ منـــها شـــر تجـــارِ

استأجروها لصنع الموت منـــه لهـــا   بالزاد يبقـــى دمـــاً فيهـــا لجـــزار

عمارها مثل بئـــر للـــدم ابتلعـــت   جيلاً سواها لمن ابتاعـــه الشـــاري

* * *

وتطـــلُّ مـــن أفـــقٍ يفتحـــه الشـــروق إلى الخفـــافي

أيـــدٍ تشـــير إلى الرقـــاب المشـــرئبة: "لا تخـــافي!

لـــن يفصـــد الجـــلاد عرقـــاً مـــن عروقـــك لارتشـــاف"

* * *

[1] الكوى: جمع كوة، وهي الفتحة من الجدار.

[2] الغل: القيد.

[3] معنى الأبيات هو: لن اصحاب المعامل التي تنتج الأسلحة قد اشتروا دماء تلك الأمم بدراهم هي في الأصل مبتزة من تلك الأمم؛ من عملها ومن دمائها ثم استأجروها لكي تصنع الأسلحة التي ستجلب الموت لها: لماذا كانت الأجرة؟ دراهم معدودة يشتري العمال بها قليلاً من الطعام، ذلك الطعام الذي يتحول إلى دم ينقله الجزارون إذا شنوا الحرب. ومن هذه الدماء يجمعون ثروة؛ تمكنهم من استغلال الأجيال المقبلة وامتصاص دمائها في مصالحهم. فكأن اعمار العمال الذين يشتغلون بصنع الأسلحة اليوم بئر من الدم؛ يبتلع الجيل المقبل من ابنائهم وأحفادهم إلخ.. وكان تجار الأسلحة قد اشتروا الجيل المقبل بدماء الجيل الحالي اشتروا حياة الأبناء والأحفاد نتيجة لسماح الأباء لهم بأن يستغلوهم.

ولكـــــم تناقلـــــت المعــــابر والـــــدروب صـــدى نــــداء

تتشـــابك الرغبـــات، مثـــل الغـــاب، فيـــه، علـــى رجـــاء

هـــــو معـــــبر الأجيـــال: مــــن خطـــــر يهـــــم، إلى نجـــاء

* * *

مــــا زال يخفـــق بالســـلام: كأنمـــا نشـــرت جناحـــا

فيـــه الحمامـــة – يلطـــم الظلمـــاء، فـــانفطرت ولاحـــا

مــــن شـــقها، الألـــق الحبـــيس، وظـــل ينطـــف ثم ســـاحا

* * *

قيثارة الريح

(١٩٧٤)

مقدمـــــة

أصدرت وزارة الإعلام في العراق هذه المجموعة "قيثـــارة الـــريح" في سلسلة المطبوعات الفنية، ديوان الشعر الحديث رقم ٩، وذلك بمناسبة الذكرى السادسة لوفاة الشاعر.

قام بتحقيق المجموعة الأساتذة: زكي جابر، سامي مهدي، وخالد علي مصطفى، وهم من أصدقاء السياب والمعجبين بشعره، وقد سافر بعض أعضـــاء اللجنة المكلفة برعاية الاحتفال بالذكرى السادسة لوفاة الشـــاعر إلى البصـــرة، واتصلوا بزوجة الشاعر السيدة إقبال عبد الجليل، وبالسيد فؤاد عبـــد الجليـــل، المشرف على كل مخلفات الشاعر، وحصلوا على بعض مخطوطات الشـــاعر في أوراق متناثرة، منها دفتر خاص كما تقول مقدمة المجموعة، يحتوي على قصيدة "اللعنات" المنشورة هنا، ومجموعة "قيثارة الريح"

وقد صادفت اللجنة كثيراً من المتاعب في مراجعة القصيدة، منها مـــا يتعلق بعدم وضوح الكلمات، ومنها التشطيب. ولكن اللجنة عكفـــت علـــى عملها وأخرجت هذه المجموعة.

وهذه المجموعة تقسم إلى قسمين:

الأول: يضم قصائد من بواكيره، نظمها ما بين حزيران وكانون الأول من سنة ١٩٤٤، ما عدا قصيدة واحدة نظمت في نيسان، هي "أراها غـــداً" وهذا القسم تتمة للبواكير المنشورة في المجموعة الأولى التي أسميناها "بواكير"

الثاني: ويحتوي على قصيدتين الأولى "بين الروح والجسد" وما ينشر منها هنا هو بقايا قصيدة طويلة أرسلت إلى الشاعر علي محمود طه، ولكنها ضاعت. وما ينشر هنا لم ينشر معظمه من قبل، وإن نشرت بعض مقاطع هنا أو هناك. والثانية قصيدة "اللعنات" وتبلغ حوالي (٣٠٠) بيت. وهي أنضج القصائد، ويرجح المحققون إنها كتبت أيام التزامه السياسي في مطلع الخمسينات.

والمجموعة التي أقدمها هنا هي المجموعة التي أصدرتها وزارة الإعلام، لم أحذف منها سوى المقدمة. وما عدا ذلك فإنني تركت الهوامش كما هي، و لم أجد سبباً لمزيد من التفسيرات والشروحات.

آمل أن تلقي هذه المجموعة مزيداً من الوضوح على شاعرية بدر، وعلى تطوره الفني والسياسي.

٧٢/١٠/١٥

ناجي علوش

ذبـول أزاهـر الدفـلى

"إلى روح وورد زورث"[1]

لَـــذع الأوام أزاهـــرَ الــدِّفَلِ — فذوت كما يـذوي سـنا المُقـل
كانـــت تعـير النـهر حمرتهـا — فيضـيء فيـه المـوج كالشُّـعَلِ
كانـــت تعـير النـهر حلّتـها — فيسـير في وشـيٍ مـن الحُلـل
كـم زينـت بـالأمس لَبّتـه — بقلائـدِ المرجـان، والقبـل
واليـوم أُطفـئ نورهـا وخبـا — فكأنهـا لم تَنْـدَ أو تَمِـلَ..
واليـوم أصـبح عِقـدها بَـدَداً — فرأيـتُ جيـد النـهر في عَطَـل
ولكـم مـررت بزهـرة ذبلـت — فبكيتُ، حـين بكيتـها، أملـي
وسـقيتُها بـالراحتين كمـا — تسـقي السـحابةُ تربـةَ الطّلـل
فتراعشـت في غصـنها وهـوتْ — ومضى النسيم بهـا علـى عجـلِ
يـا عـينُ أيـنَ أزاهـر الـدِّفَلِ — مُـرّي بجانـب نهرهـا وسـلي
لرجوت – لو دامت غضـارتها – — وصلَ التي وعـدتْ فلـم تَصِـلِ
قد كان وَشْـكُ ذبولهـا أجـلاً — للملتقـى ففُجعْـتُ بالأجـلِ
ولكنـت آمَـل أن أقبّلـها — وأعـبَّ خمـرةَ حسـنِها الثمـل
أمّـا وقـد ذلـت، فـلا أملٌ — لي باللقـاء فكيـف بالقبـلِ

أبو الخصيب – ١٩٤٤/٦/٧

[1] الإهداء في هذه القصيدة، كما في سواها للشاعر. [المحقق]

"إلى روح وورد زورث"

المدّ هـاجرُ ذاك الجـدول النـائي ... والصمتُ معتادُه من بعد ضوضاء

إلا حفيفاً يهـزّ الشـوقُ سـامِعَه ... إلى ظـلالٍ تـنير المـوجَ لَفّـاءِ

يعلو فيعقبه صمتٌ فـإن سـئمت ... أنغامُه الصمتَ هبَّت بعـد إغفـاء

تهدَّلَ السَّعَفُ الفينـان وافترشـت ... أفياؤه الضفّة الظمـأى إلى المـاءِ

واسترسلتْ وَرَقاتُ التوت هاويـةً ... في القعر ما بين أعشاب وحصـباء

كأنهنّ ظلال الدوح قـد نصـلت ... من موجةٍ ضاحكتها الريح زرقـاءِ

فغودرت حين آبَ الجـزْر ثاويـةً ... تلهو الرياح بها من كـل هوجـاء

يا هل رأيت جذوع النخل عاريـةً ... مـن ائـتلاقٍ سـرابيٍّ[1] ولألاء

من كل دائرةٍ في الماء قـد رسمـت ... أخرى على الجذع من نور وأضواء

فلو سرَت في ضمير الموج وسوسةً ... لأظهرتْها الجذوع الشـمُّ للرائـي

يا من رأى شجرات المـوز ذاويـةً ... أوراقهـنّ ظمـاءٌ بعـد إرواء

يا ربما كانت الأمـواج سـاربة[2] ... من خلفهن، وما يشكون مـن داء

وا لهفتاه على الأمواج كم عكست ... خيال كلّ قَتولِ الطـرف عـذراء

وظلَّ كلّ طَروب الظـلّ راقصـةٍ ... من الأزاهـير، حمـراءٍ وصـفراء

---

[1] لم أجد خيرا من هذه الكلمات لوصف ذلك التموج الشعاعي الذي تعكسه حركات الماء على جـذوع النخيل، ولا يدرك جمال هذا الوصف إلا من لاحظ تلك الانعكاسات "الشاعر".

[2] كانت (شابحة) وقد عدّلها الشاعر بخط يده. [المحقق]

فجاءها الصيفُ ثم الـــبين معتســـفاً   واسترسل الجزرُ عوّداً بعد إبـــداء[1]

حتى نظرت وما للعـــين منتجـــعٌ   من أوجهٍ وأزاهـــرٍ ومـــن مـــاء

ومعبرٍ من جذوع النخـــل غيّـــرَه   مـــرُّ الليـــالي بإيحـــاشٍ وإبـــلاء

يا ربما كـــان، والأيـــامُ ضـــاحكةٌ   دربَ الجميلات والزُرّاعِ والشـــاء

يا ربما ردّ – يا نهرُ – الزمانُ لنـــا   ما ليس نرجوه من أنـــسٍ وســـرّاء

لارتدَّ ينصبُّ فيك الماءُ لو رجعـــت   إلى حفافيك بعد النـــأيِ حســـنائي

أبو الخصيب –١٢/٨/١٩٤٤

[1] لاحظ الشاعر ضعف هذا البيت لحاول أن يعيد صياغته، كما يتضح لي في المسودة، إلا أنه لـــم يكمـــل الصياغة الجديدة.

العش المهجور[1]

"إلى روح وورد زورث"

بمنجىً من مراقبة العيونِ ومنأىً عن متابعة الظنون

وفي ظُللِ النخيل، حطام عش تلفّع بالأزاهر والغصون

ترحَّل طائراهُ فبات خلواً عميقَ الحزن متّصلَ السكون

يكاد نسيجه عشباً وزهراً يبوح بما يسرُّ من الأنين

يحنُّ إلى الجداول والروابي وضاحكةِ السهول إلى الحزون

لقد ذهب الذي سلاّه عنها فعاد إلى التشوُّق والحنين

كأن العشَّ حين خلا وأقوى ومات به صدى النغم الحنون

غديرٌ جفّ غاربُه وماتت أغاني موجِه المرِح المعين

كأن قَشاشَه أوتارُ عود مكفّنةٌ بها جثثُ اللحون

وأبدل من ظعين قد تولّى بما لم يُسله حُبُّ الظعين

إذا مَتَع النهار أوت إليه ظلال النخل ناعسة الجفون

ويطرقه شعاع النجم وَهْناً وضوء البدر حيناً بعد حين

طُروقَ الذكريات فؤادَ صبٍّ كثير الشجوِ منقطع الوتين

تمرُّ به النسائم هامسات فتنشرُ فيه عطر الياسمينِ

وتوقظ في جوانبه الأغاني عذابَ الجَرس فاتنةَ الرنين

---

[1] جاء ذكر هذه القصيدة في رسالة إلى الشاعر خالد الشواف وتحدث عنها وعن الرسالة الدكتور إحسان عباس في كتابه (بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وفي شعره).

وكم غمرتْــه أنفــاسُ الخزامــى		قد امتزجت بدمعٍ نـدىً هتـون

وربَّــةَ وحشــة تــأوي إليــه		إذا أوَت الطيــور إلى الوكــونِ

لَيُشْــبِهُني فحــالٌ مثــل حــالي		وشأن في الغرام حكــى شــؤوني

فقلــبي لا يــزال قــرين شــجوٍ		متى هفــت القلــوب إلى قــرين

إذا الأحــلام زُرن عيــون غــيري		تــزور العــبرة الحــرّى عيــوني

يكاد العشُّ إن هتفَــتْ صــدوح		يبادلهــا غنــاء شــجٍ حــزين

وليــلٍ نــام ســامرُه اكتئابــا		أثار لــه الخفــيَّ مــن الشــجون

وأذْكَــرَهُ ليــاليَ ذاهبــاتٍ		فغــصَّ مــن الكآبــةِ بالــدجونِ

٢٧/٧/١٩٤٤ – أبو الخصيب

ثورة الأهلة[1]

"أحببها وهي تكون بسبع
فثارت أهلّة تلك السنين السبع.."[2]

أما زلتَ تصبو إلى قربها ... رويداً فما أنت من صحبِها

تخطّيتَ سبعاً – من المثقَلاتِ ... بما لست تدري – إلى حبها

تركتَ الأهلّة عن جانبيكَ ... حيارى تشكّى إلى ربها:

"أكانت سدىً كلُّ تلك السنين ... وقد هدَّنا السيرُ في دربها

أيطوي مداها إلى حبه ... فتىً ما رأيناه في ركبها"[3]

تخطيتَ سبعاً فكم من ضحىً ... وكم من مساءٍ وليلٍ لها

وكم نبضةٍ من فؤاد التي ... تشوّقتَ للعطف من قلبها

* * *

أما زلتَ مستسلماً للأنين ... رويداً، فعهدي بها لا تلين

وهل تسمع الشعر إن قلْتَهُ ... وفي مسمعيها ضجيج السنين

أطلّت على السبع من قبل عشـ ... ـرين عاماً، وما كنت إلا جنين

وأمسى – و لم تدرِ أنت الغرام – ... هواها حديث الورى أجمعين[4]

---

[1] لقد اختار الشاعر ثمانية أبيات من هذه القصيدة وضمنها في قصيدة أهواء المنشورة في مجموعة أزهار ذابلة.

[2] الحديث للشاعر، والمعنية به هي المعنية بقصيدة (اسم لباب) في ديوانه الأول "أزهار ذابلة".

[3] الأقواس من وضع الشاعر.

[4] كان البيت التالي مكان هذا البيت:

أيخفى الهوى عنك حتى الزمان ... وتنسيك أشواقك العالمين

يبدو أن الشاعر لم يجد فيه ما يعبر عن المعنى الذي يريد فحاول أن يبدله.

لقــد نبّأوهـــا هـــذا الهـــوى فقالت: ومــا أكثــر العاشــقين

أما زلــت في غفلــةٍ يــا حــزين أحبَّــتْ ســواك ففــيم الحــنين

حــرام عليهــا هــنيء الرقــاد أتغفــو ومــا أنــت في النــائمين

حزيران ١٩٤٤ – بغداد

أمير شط العرب

"إلى روح وورد زوورث"

الشـــــط راوحـــــه الأصــــيلُ　　فمضــــى علــــى روْدٍ يســــيلُ
وأتــــاه بعــــد المــــدّ جــــز　　رٌ فهـــــو موهـــــونٌ كليــــل
المــــاء غــــادر جانبيــــــــ　　ــــه وراح يحـــدوه الرحيــــل
فتجـــــرّدا مــــن صــــفحة　　زرقـــــاء زيّنـــــها النخيــــل
يـــا عـــين طـــوفي وامرحـــي　　فمطافُـــكِ الشـــط الجميــــل
وامشــــي علــــى ثــــبَج الميــــا　　هِ كمــــا مشــــى النَّسَــمُ البليــل
فهنــــا شــــراعٌ خــــافق الــــ　　ــــجَنَبات ذهَّبَـــهُ الأصــــيل
وهنــــاك صـــــاريةٌ تلــــو　　حُ، وثَـــمَّ مجـــذافٌ يجــــول
وعلــــى الســــماء غلالــــةٌ　　حمــــراءُ نَشَّــــرها الأفــــول
حمــــراءُ توقــــد في ضــــلو　　عِ المــــوج نـــاراً لا تــــزول
وبــــدا نخيــــل الضــــفة الـــ　　أخـــرى تحركــــه القبـــول
كـــم تحتـــه مـــن منـــزل　　لا يســـتريح بـــه النـــزيل
سَـــعَفٌ وجـــذعٌ قـــام في　　جنباتـــه تعـــبٌ شَـــغول
ســـاجٍ يجـــفُّ بـــه الـــيرا　　عُ[1] الغـــضُّ والـــدُّرُ القليــــل

---

[1] القصب (للشاعر)

وأمامـــــه "بَلَـــــمٌ"[1] حبيـــــــ   سٌ آدَهُ الحــــــبسُ الطويــــــل
وهنـــاك في غـــاب النخيــــــ   ل يلفّــــه الظــــل الظليــــل
ثـــور بخـــــور ونعجـــــةٌ   تثغـــو وأغنيـــة تسـيل
وَلْتَسْـــمَعُ الطفـــلَ الصغيـــــ   ـــر يجيبـــه الشـيخ الجليـــل
والغـــادة الجـــذلى يشـــا   ركهـــا الغـــلام بمـــا تقـــول
وأمـــام عـــيني جـــدول   عـــذبٌ مُقَبَّلُـــهُ ضـــئيل
متعـــانقٌ والشـــط فهـــو بجيُّـــ   ـــه العـــفُّ الوَصـــولُ
يشـــكو إليـــه هـــوى الجـــرا   رِ فمـــا يُبَـــلُّ لـــه غليـــل
يـــا شـــطُّ ليتـــك ســـامعي   أولَيـــت قلبـــك لي يميـــل
يـــا مـــوج، يـــا مـــلاح، يـــا   بِـــيضَ الـــزوارق، يـــا نخيـــل
يـــا رِيـــح، يـــا ســـرب الطيـــو   رِ البـــيض يرشـــده الـــدليل
شـــاركن قلـــبي في المســـرة   لا رقيـــبٌ، لا عـــذول

أبو الخصيب – ١٩٤٤/٨/٣٠

[1] زورق شط العرب، تعمدت ذكره لأن لفظة "زورق" لا تعطي الصورة الصادقة لما أراه. ولمَ لا نذكر البلم وقد ذكر المصريون زورق فيلوسيا (الجندول)، واستعمل الإنكليز لفظة بلم في لغتهم. (الشاعر)

أراها غداً[1]

"على الرغم من ألك تكبريني بسبع من السنوات لقد تجرأت وأرسلت هذه الزفرة مع من يقرأها عليك. ولكن واأسفاه، لا أعلم أأدى الرسالة أم خانها"[2]

أراها غداً، هل أراها غداً ... وأنسى النوى، أم يحول الردى

فؤادي، وهل في ضلوعي فؤاد ... لقد كدتُ أنساه لولا الصدى

كأني به خاذلي إن تمرّ ... على بعْدِ ما بيننا من مدى

مشى العمر ما بيْننا فاصلاً ... فمن لي بأن اسبق الموعدا

ومن لي بِطَيِّ السنين الطوال ... ستمضي دموعي وحبي سدى

أراها فأذكر أني القريب ... وأنسى الفتى الشاردَ المُبْعَدا

أراها فأنفض عنها السنين ... كما تنفض الريح بَرْدَ الندى

فتغدو وعمري أخو عمرها ... ويستوقفُ المولِدُ المولِدا[3]

أغضُّ – إذا ما بدت – ناظريَّ ... فهيهات تعلم كم سُهِّدا

ولو أنها نُبِّئتْ بالغرام ... غرامي، لقربت المنشدا

---

[1] وردت القصيدة في رسالة على الشاعر خالد الشواف وقد نقل أبياتها الدكتور إحسان عباس في كتابه (بدر شاكر السياب – دراسة في حياته وشعره).

[2] الحديث للشاعر.

[3] البيت والأبيات الثلاثة التي تسبقه نشرها الشاعر ضمن قصيدة (أهواء) المنشورة في مجموعة (أزهار ذابلة).

وقالـــت: أيعصـــى نـــداء المحـــب حَرِمْتُ الهوى إن عصَـيتُ النـــدا

سأنسى الجراحـــاتِ والأمنيـــاتِ ســوى أن عـــيني تراهـــا غـــدا

بغداد ١٩٤٤/٤/٢١

يـــا نهـــر

يا نهر عـــاد إليـــك بعـــد شـــتاته
صبٌ يفيض الشوق مـــن زفراتـــهِ

حيرانُ يرمـــق ضـــفَّتيكَ بلوعـــةٍ
فيكـــاد يَصْـــرَعُ شـــوقه عبراتِـــه

كم رافقتْك فآنســـتك خطـــاه في
غدواتـــه للحُـــب أو روحاتـــه

أفأنتَ تـــذكره وتحفـــظ عهـــده
أم قد نســـيت عهـــوده وسماتـــه

قـــد أنكرتْـــه فتاتُـــه وتبعتـــها
وهـــو الـــذي يفـــديكما بحياتـــه

لَيَوَدُّ من شَغَفٍ بمائـــكَ لـــو غـــدا
ظـــلاً يـــداعب فيـــه جنَّياتـــه

متعلقـــاً بشـــراع كـــل ســـفينةٍ
ليجـــاذب المـــلاَّح أغنياتـــه

وتلوذُ أنـــوار النجـــوم بصـــدرهِ
وتراقصُ الأمواج مـــن ضـــحكاته

يا نهر أين مضى الزمـــان بأنســـهِ
والمترَع المعســـول مـــن كاســـاته

وهل اهتدى الزمن الحقود فغال ما
قـــد أودع المفـــؤود في خلواتـــه

قُبلاتـــه في ضـــفَّتيكَ صـــريعةٌ
أفهل حفظت له صـــدى قبلاتـــه

أمواجك اللائي شـــهدنَ غرامـــه
وسمعـــنَ لوعتـــه وبـــثَّ شـــكاته

عبثتْ بهن مـــن الليـــالي غـــدْرَةٌ
وأضـــاعهُنَّ الجـــزرُ في سَـــفَراته

والدوح أســـلم للبلـــى وَرَقاتـــه
ولمالـــة القـــبلات في ورقاتـــه

والـــريح أســـأمها انتظـــار إيابـــه
وأملَّهـــا ترديـــد أغنيَّاتـــه

فرمت لطـــول عيائهـــا مزمـــارَه
وعفا بمســـمعها صـــدى نغماتـــه

يا ساقيَ الشجرات ما لكَ لا تُرى
إلا كئيبـــاً لَـــجَّ في حســـراته

وتطوف ما بين الريـاض أباحثـاً … عن غائبٍ حجَب البعـاد سماتـه

مـا للـروابي أرمَّتْـكَ شـكاها … والمـرجُ ألقـى فيـك شَـبّاباته

فسل الربى عن نورهـا وزهورهـا … والمـرج عـن شـعرائه ورعاتـه

ذهبوا فما في الـروض إلا نـائح … متفـرِّدٌ بدموعـه وأذاتـه

حُلْوَ الخريرِ، ملاذَ كـل معـذَّبٍ … ظمئ الفؤاد وأنت بعـضُ سـقاته

أبو الخصيب – ١٩٤٤/٦/٧

"إلى روح وورد زورث"

مُقَـلُ الظبـاء وأعـين الشـعراءِ — صورٌ إلى المجرى الضـئيل النـائي
بكـرت تتـابع موجَـه وظلالـه — ومساحِبَ الأنسـام فـوق المـاء
ومنابت العُشُبِ النـديّ تنـاثرت — في القعر أو في الضـفّة الخضـراء
كُسيَت بسَلْسَلِ مائـه أنصـافُها — وتلثّمـت أنصـافُها هـواء..
ولكـلّ عـودٍ صـورةٌ أو ظُلّـةٌ — تنسابُ فـوق الصـفحةِ الزرقـاء
أو مـؤنسٌ مـنْ فيئـه متـرَجحٌ — في القعـر بـين فرائـد الحصـباء
فـإذا تنهـدتِ الريـاحُ تعلّقـت — - من خوفها - الأفيـاءُ بالأفيـاء
وتراعَش العُشُبُ النضـير ومـاؤه — مثل ارتعاشِ كواكـب الظلمـاء
أو كالشـراع تجاذبتـه نسـائم — أو كـالفؤاد مُفاجَـأ بلقـاء
والقعر طافَ به ائـتلاقٌ عاجـلٌ — ودوائـرٌ جـذلى مـن الأضـواء
فكأنمـا جـنُّ الفـلاة تَمثّلَـتْ — في خـاطرٍ، وعـرائسُ الـدأماء[1]
من كـل فاتنـةٍ يُنَشّـر ثوبَهـا — لَعِـبُ النسـائمِ واهتـزازُ المـاء

* * *

عَينيَّ شَفّكما السـهادُ وهـا هنـا — ما تصـبوان إليـه مـن نعمـاء
فتَنٌ لها، عما انطـوى وحُرِمْتُمـا — من فـاتن الأحـلام، أي عـزاء

---

[1] البحر. (للشاعر)

وطبيعـــةٌ تغْنيكمـــا بَســـماتُها عـــن بســـمةِ التيّاهـــة الحسناء
نظراً إلى المجـــرى الضـــئيل النـــائي وقد ارتدى حلـــلاً مـــن الـــلألاء
وغدا يتيه على السماء بمـــا سَـــى مـــن لونِهـــا وجمالِهـــا الوضّـــاء
وبما اكتسى من خُضْرَةٍ وغضـــارةٍ وبما اجـــتنى مـــن ورافِ الأفيـــاء
وبما تحيَّـــر مـــن حَبـــابٍ فوقـــه وانســـابَ في مرآتـــه الجلـــواء
وبشاعرٍ سَحَرَ الضـــفافَ غنـــاؤه فمضـــتْ تهـــزّ قيـــاثرَ الأصـــداء

* * *

أوّاه لـــو رجَعْـــتِ لي أصـــدائي مثلَ الضفافِ متى سمعـــنَ غنـــائي
لهتفتُ: حبُّـــكِ شـــفّني، فـــأجبْتني وأعَدْتِ لي قولي ورجـــع نـــدائي
وهمستِ: حبُّك شَـــفّني وأريـــتني صفو الحيـــاةِ ومنتـــهى أهـــوائي

بغداد – ١٩٤٤/١٠/١٧

لامس شعرها شعري

مرّر فلامس شَعرُها شعري — فإذا الهوى بجوانحي يسري
مرت ولم أرها، سوى نبأ — عَذْبِ البشائر ذاع في صدري
القلب يعرفها بِمشْيَتِها، — بالظل، بالأنفاس، بالعطرِ
يا بيت شَعْرَيْنا إذ اعتنقا — عُقِدا فما انفرطا مدى الدهر
بل ليت مسرعة الخطى وقفتْ — ووقفتُ حتى ساعة الحشر
أشكو الغرام لها فتبسم لي — وتلين إن أسمعتها شِعري

* * *

أدعوك، واسمك لست أعرفه — دعوات حُرٍّ ضاق بالأسر
آنستُ منك تطلُّعاً ملكتْ — نظراته الجمّاح من فكري
أفَعَنْ هوى ما كان من نَظَرٍ — أم كان لهواً عاجِلَ المَرِّ
بوّحي بسرِكِ، لا، بل اتئدي — أخشى الأسى إنْ بُحتِ بالسرّ
فدعي الفؤاد يعيش مغتبطاً — جذلان ما بين الرؤى الزُهر
يا ليتني وقد ابتعدتِ مدى — قبّلتُ ما لامستِ من شعري
بل ليت ما لامَسْتِ منه غدا — حمراءَ مشرقةً من الزَهرِ
تكسين شَعرَكِ من مفاتنها — ثوباً من اللألاء والنشر

بغداد — ١٩٤٤/١١/١٧

"من وحي... أ..."

ضحى بَسَمَتْ أشعّته وطابا — وأغصانٌ أبَتْ إلا اضطرابا
وأزهار يذاب الطلُّ فيها — وريحٌ تنفض الطلَّ المذابا
وقلبٌ دائم الهَيَمان أضحى — لفرط الشوق يلتهب التهابا
وهل أنسى (لُبابَ) إذا تناءت — وكل الناس يُذكِرُني (لُبابا):
متيَّمةٌ تسهدها الليالي — وتسمعُها الخليّاتُ العتابا
وأخرى غيرها اجتذبت فتاها — إلى أحضان تخدعها اجتذابا
ومجنونٌ يهيم بألف ليلى — فلا وصلاً ينال ولا اقترابا
وفاتنة تطلّعَ كلُّ طرفٍ — لها ظمآنَ يسألها الشرابا
سريت وراءها وسرت ورائي — نجوب الروضَ عَوْداً أو ذهابا
طروب كلّ مكتئب رآها — فليس يُحسُّ همّاً واكتئابا
وصاحبة لها تبعت خُطاها — كعابٌ غضّةٌ صحبت كعابا
ولما أنْ رأتني بادرتني — بأنظارٍ لقيتُ بها العذابا
وجاذبتِ الرفيقةَ ساعديها: — فأذعنت انعطافاً وانجذابا
وكان تهامسٌ فارتاع قلبي — وأغرق في الظنون وقد أصابا
أجالت طرفها فرأت فراشاً — يُنيل الريحَ أجنحةً رطابا
طروباً عاد يلثم كلّ غصن — وينتهب الأزاهير انتهابا

فمــن متــآلفين هــوى وشــوقاً ومنفــــردٍ أبى إلا اغترابــــا

أتابعـــه بعـــينيَّ اشــتياقاً وتلحظـــه بعينيهـــا ارتيابـــا

فعادت وهــي غاضــبةٌ حسـود فديتُ بروحــي الغيــدَ الغضـابا

نظرتُ لها وقــد بسـطتْ يـديها لقــنصِ فراشــةٍ فـدنوت قابـا

فقلــت أتصــبح الحســناءُ تجــني علـــى واه لتُعْـــذَلَ أو تُعابـــا

تصيدين الفراش، كفــاك صــيداً قلــوبٌ بــات أســلمها مصـابا

سلي عينيك إن حاولــت علمــاً أمـــا دعَتــا فــؤادي فاســتجابا

بغداد – ١٩٤٤/١١/٢٦

ثورة على حواء

عبس الفؤادُ وكان يبتسم ... وهوَت على حنباته الظُلَمُ
وأرى الخيالَ يكاد يخذلني ... فَأرَشْ خيالي أيها الألم
وافسح له الآفاق نائيةً ... لا الوهم صَوَّرها ولا الحلم
قد لَفَّها ليلٌ غلالتُه ... قبْرِيةٌ ونجومُه الرِّمَم
ما في جوانبها من امرأةٍ ... رعناءَ مِلءُ فؤادِها حِمَمُ

* * *

إني عدوُّكِ يا مُغَرَّرَةً ... سكرتْ بخمرةِ شرُّها الأمم
ما فيكِ إلا كلُّ مَثْلَبةٍ ... ما فيكِ إلا الحزنُ والندم
ولأنتِ يا محبوبتاه أسى ... للقلب يحطمه فينحطم
ولأنتِ – مهما كنت – سافلةٌ ... إن شاء ذلك أو أبى الخدم
خدموا جمالكِ وهو – لو علموا – ... دَنَسٌ بثوبِ الطهرِ ملتثم
إني أشكُّ بكلِّ غانيةٍ ... لا بل أكاد، أكاد أتهم
وأقول جهراً أنتِ عاهرةٌ ... وليغضبْكِ ذلك – الكَلِم
حطمتِ قلبي في الهوى سَفَهاً ... فمتى، وأين، وكيف أنتقم

* * *

ويمثِّلُ التذكارُ لي صُوَراً ... زهراً معطَّرةً فأبتسم
كفّاً تصافحني مهنئةً ... فكأنما نبضاتها نغم
وأكاد من شَغَفٍ أقبّلها ... وأكاد حين نصولها أجِمُ

فأعود أغتفر الذنوب لها ويروعني ما خطّه القلم..
فأكاد أمحوه فيمنعني فكر يُريشُ جناحه الألم

* * *

وأعود أذكر من مآلمها ما ردَّ قلبي وهو مضطرم
كيف الرضا والنفس جامحة وجراح قلبي لبس تلتئم
عَبَدَ النساءَ معاشِرٌ جهلوا ماذا يُخبِّئ ذلك الصنم
يُخفي الخساسة في تكبره لا سرٌّ قدرته كما زعموا
وأشكُّ بالعذراء تظهرُ لي عذراءَ ما علقتْ بها التهم
وأقول: وجه البدر مؤتلق ولقد تُحلِّلُ ظهرهُ الظُّلَمُ

* * *

يا مَنْ غُرِرتُ بحبها زمناً[1] اليوم أعقب حُبَّكِ الندم
قد كنت أجهل أنَّ من لبست طهر الهوى بالعهر تتسمُ
لله ما أوحيت من نغم أمن الخيانة ذلك النغم
أورثتني شكّاً بكلّ هوى وبكلّ من تسعى بها قدم
حتى غدوتُ وما أرى امرأةً إلا وثار الحقدُ يضطرم
لي عند كلِّ جميلةٍ تِرَةٌ فمتى، وأين، وكيف أنتقم

بغداد – ١٩٤٤/١١/٤

[1] انظر قصيدة المحبوبة المدنسة. [الشاعر]. هذه القصيدة منشورة في مجموعة أزهار ذابلة. [المحقق].

حواءُ عفوَكِ إنْ جرى القلمُ — بغَويِّ شعرٍ ملؤه تُهَمُ
قد كنت في ما قلت معتسفاً — فلبئس قولاً ذلك الكَلِمُ
عجباً أجرِّد منك عاهرةً — يا عفةً شهدت لها الأمم
لا لومَ فالحرمان أنطقني — ومحا خساسةَ قوليَ الندم
أسكرتِ روحي بالهوى زمناً — فسما الخيال وصفّق النغم
وهجرتِ فامتلأ الفؤاد أسىً — وعَفا الغناء ونُفّر الحلم
وكئيبة النغمات[1] أسرجها — ولوى إليكِ عنانها الألم
وردتْ عليكِ فساء موقعها — وارتدَّ قلبك وهو يحتدم
والحزن لا يخشى إذا جمحت — يوماً قواه وليس يحتشم
حواءُ ليتَ هواكِ طال مدى — أو ليت جرح هواكِ يلتئم
أبتِ الخيانةُ[2] أن تملّكهُ — قلباً بطهر هواه يتّسمُ
لا تعذلي شِعري فليس له — ذنبٌ إذا هو جاء يضطرِم
لومي التي غدرت بصاحبه[3] — وجفتْه وهو من الأسى حُطَم
وظلال هدبكِ، وهي أجنحةٌ — للحب في خديك ترتسم،
لو نلتُ منك العطف ما جزعتْ — نفسي فجئتُ إليكِ أتّهم

* * *

[1] القصيدة السابقة "ثورة على حواء". (الشاعر)
[2] و [3] انظر قصيدة "المحبوبة المدنسة". (الشاعر)

إني امـــرؤٌ يرجـــو لـــديك مـــنىً ... ولســـوف تُـــدنيها لـــه الهِمـــم

إن تمنحيه رضـــىً لقيـــتِ رضـــى ... أو توســـعيه قلـــىً فمنـــتقم

إن رمـــتِ روحانيـــةً وُجـــدتْ ... عنـــدي ومِـــلءُ رياضـــها نِعَـــم

أو رمـــتِ شـــهوانيةً وُجِـــدت ... عنـــدي وفيهـــا النـــار والحمـــم

* * *

وزعمـــتِ ان الشـــعرَ أجمعَـــه ... لـــو لم تكـــوني - غالَـــهُ العَـــدَمُ

مـــا هـــزَّت الأوتـــار أنملـــة ... إلا وكـــان لأجلـــك الـــنغم

كـــذب لعمـــركِ. تلـــك أمنيـــةٌ ... حســـناء صـــوَّرَها لـــك الحلـــم

أفتزدهـــي الأقمـــارُ إن وُصِـــفَتْ ... أم تشـــمخ الربـــواتُ والقمـــم

وتعيِّـــر الصـــحراء شـــاعرها: ... لـــولاي مـــات بكفِّـــك القلـــم

إن تخلصـــي لي بـــتٌّ خالـــدةً ... في الشـــعر، هاتفـــةً بـــك الأمـــم

وإذا نفـــرتِ فَلَغْـــنيّ وُجـــدتْ ... للنـــافرات وكلُّهـــا ضـــرم

بغداد — ١٩٤٤/١١/٨

(قصة شاعرين)

يستفاد من مختلف المصادر ان (بين الروح والجسد) ملحمة للشاعر تقع في ألف ونيف من الأبيات. وكان قد أرسلها كاملة مع السيد فيصل جري السامر (وهو يستعد للدكتوراه) فسلمها بمصر، كما ذكر، إلى المرحوم الشاعر المصري علي محمود طه المهندس.. ولم يعرف مصيرها بعد.

وفيما يلي مائة وعشرون بيتاً منها جمعت من مسودة للشاعر، ومن مجموعة (إقبال) التي صدرت له بعد وفاته، ثم من إحدى الصحف العراقية التي كانت تصدر يومئذ.

[المحقق]

شاعر الروح (١)

هذا الجريحُ وجُرْحــه لا يضــمد | جار الغرام عليــه فهــو مســهَّدُ
صبٌّ أطار الصَّفوَ مــن أضــلاعه | قلبٌ يمــرُّ بــه الهــوى فيعربــد
أوحى إليــه الشــعر مــن آياتــه | سحراً تُحَلُّ به النفــوسُ وتُعقــد
باتت تحلِّــق في الأعــالي روحــه | نشوى، وبــات خيالــه يتصــعَّد
واهي الكيان كأنَّ خطبــاً هَــدَّهُ | ذاوي الشفاه لطــولِ مــا يتنهَّــدُ
وهو المعطَّــلُ مــن قــوامٍ فــارعٍ | يسـبي العيــون ووجنــةٍ تتــورد
لم يُعْطَ من مال ســوى أحلامــه | وكفى لها مــن ثــروةٍ لا تنفــد
ما زال صرف الدهر أبقــى أمَّــهُ | تأسو الجراح بكفِّهــا أو تضــمد
كم باتَ يلتمس الحنان فمــا رأى | طيف الحنان وفاتَــه مــا ينشــد
وأحــبَّ مــن جاراتــه فتّانــةً | ما زال صــائدُ طرفِهــا يتصــيَّد
عفَّ الغــرام بحســبه مــن حبــه | نَظَرٌ يعــفُّ عــن الأنــام ويبعــد

تلـــك الـــدماء بقلبـــه المتضـــرِّم تغلـــي فتـــدفع جســـمه للمـــأثمِ

ردَّ الهـــوى أحلامـــه مشـــبوبة ناراً، فحلّـــل فيـــه كـــلّ محـــرَّم

غضٌّ الإهاب تظـــل تـــبرق عينـــه سحراً تلوذ به القلـــوب وتحتمـــي

وإذا العيـــون لمحـــنَ فـــارعَ قَـــدِّه ورشـــفن حمـــرة ثغـــره المتضـــرّم

أوْحَـــيْنَ للقلـــب الجليـــدِ بحبـــه فأطـــاعهن إطاعـــةَ المستســـلم

جمُّ الثراء سبى العـــذارى بـــالغنى والحسن حتى مـــا يجُـــدْنَ لمغـــرم

عاش الليالي وهـــو عـــفٌّ طـــاهرٌ يهديـــه روحُ العبقـــريِّ المُلْـــهَمِ

حـــتى أحـــبَّ وضـــيعةً غـــدّارةً ألقتـــه في جنبـــات ليـــلِ مظلـــم

قد كان يحســـبها مثـــالاً للتقـــى والطهر والخلـــق الرفيـــع الأكـــرم

حينـــاً وكـــذّبت الليـــالي ظنّـــه وانجاب ثَمّـــة كـــل ســـرّ مبـــهم

ويلاه! ســـاء بكـــلّ خـــود ظنُّـــه وارتـــدَّ يحـــرق جســـمه بالمـــأثم

ما زال يروي الشعر عن شـــيطانه مُتحلّبـــاً شـــرّاً صـــبيغا بالـــدم

وأحـــب غانيـــةً فهيـــا ستّمـــه سرّاً، وخبّـــأ صـــارماً في المبســـم

المحبوبة (٢)

حسناء تسفر عن محيّا شاحب ... ما زال يغلب كلَّ طرفٍ غالبِ

رَمَقَتْ صباها وهي في رَيعانه ... بنواظرٍ عبرى وقلبٍ ناصب

ومضت تقطّع صمنها ووجومها ... بتبسماتٍ كالصباح الكاذب

لم تدرِ ما دَنَسُ الغرام وطهره ... وأرى السفينةَ أمرُها للراكب

في الريف، بــين نخيلـه المتعـانق   وعلى جوانب كــلّ نهــر دافــق
عشبٌ يجاذبُــه النســيم ظِلالَــهُ   وندى يصــفّق[1] بــالأريج العــابق
وأزاهـــر غَيْنــاءُ رفَّ نَــديُّها   فرحاً بأجنحــة الفــراش العاشــق
ومتيَّمان تشــاكيا حَــرَّ الهــوى   حيناً، فَبَرَّدَ خــافقٌ مــن خــافق

* * *

الشــاعر الغرّيــد لاقــى شــاعراً   هذا يُرى شَــبقاً وهــذا طــاهرا
لو كنت ثَمَّــةَ ســامعاً نجواهُمــا   لسمعتَ مُتَّقيــاً ينــاجي فــاجرا
ورأيت روحــاً ينــبري لنضــاله   جَسَــدٌ توثَّــبَ مســتخفاً ثــائرا
وبقيتَ مضطرب الخواطر والهــوى   بــين الفضــيلةِ والرذيلــةِ حــائرا

---

[1] صفقت الخمر: مزجت بالماء. (الشاعر)

شاعر الروح:

حيَّتكَ أنفاس الربيع الباكر ... ورعتك آلهة الهوى من شاعر
مَرَّتْ ليالٍ كنت فيها غائباً ... عني فأظلمت الحياةُ بناظري
واليومَ عُدْتَ فعاد لي صفو المنى ... وتجلَّت الدنيا بثوبٍ ساحر
فَلَتَتْلُوَنَّ عليَّ ما هيَّأتَهُ ... من نغمة سكرى وشعر ناضِر

شاعر الشهوة:

أهوى مفاتنَ جسمكِ المستسلمِ ... وهوىً لذائذه مُزِجْنَ بمأثم
جسد عليَّ أراه باتَ محرَماً ... وعلى حقير الدود غيرَ محرَم
لاطوِّحَنَّ بكلِّ عرفٍ سائد ... ولأعبَثَنَّ بكل آيٍ محكم
ولأهتكنَّ على الفضيلة سترها ... وَلأصْغَيَنَّ لما يقول به دمي[1]

[1] في مجموعة (إقبال) نشر مقطع ميمي يتألف من خمسة عشر بيتا مهداة إلى (روح الشاعر بودلير) وذلك على أساس أنها من ضمن ملحمة (الروح والجسد) كما يقول الناسخ. وقد لاحظنا في الأبيات الخمسة عشر أنها تبدأ بالبيتين الأول والثاني المثبتين أعلاه. كما لاحظنا أن البيت الثالث محذوف كليا. أما البيت الرابع فقد أبدل عجزه أثناء الأبيات الخمسة عشر كما نشرت في مجموعة إقبال:

لا تسهمنَّ وهات أنغام الهوى ... عذراء تقطر بالتصابي والجوى

لم يَلْق شعريَ منك قلباً راضياً ... فلقد سقته مآلمي حتى ارتوى

فلتهتفنَّ بكل نَغْمٍ ساحر ... مما تُفيض عليك أيام النوى

أو ما تُفيضُ عليك ساعات اللقا ... بين النخيل وعند ذاك الملتوى

شاعر الروح:

تأبى (ألِيسُ)[1] عليَّ أن تتبسما ... فترد قلبي هائماً متنعّما

يا صوتها الطَّرِبَ الحنونَ ولا أرى ... أني سمعت أرقَّ منه وأرحما

طُفْ بي، لأقبس من صداك قصائدي ... وأصوغَ في شعري حُلاك مُنَمْنما

أهوى مفاتن جسمك المستسلم ... وهوى لذائذه مزجن بمأثم

جسد علي أراه بات محرما ... وعلى حقير الدود غير محرم

فلأذهبن من الغواية مذهبا ... ولأصغين لشهوتي وتأثمي

ولاهتكن على الفضيلة سترها ... ولأغرقن معازفي بالعلدم

ولأشبعن رغائبا مشبوبة ... تهفو بأنفاسي وتخفق لي بدمي

ولا لهون بكل جسم دائن ... ولأروين تعطش الحب الظمي

ولأجعلن الموصسات مقابرا ... لمآثمي وبرود حب مضرم

ولأحقرن الروح! لست بقادر ... فارجع بروحك عودة المتندم

يا شاعرا نصر التراب على السنا ... أين الغناء من الخلود المبرم

الماء في الأغوار ليس بمطفئ ... ظمأ يشب بقلبك المتضرم

غاد السحائب بكرة فاستسقها ... ماء تولرد من خضم مبهم

لمنتك أحجار الطريق لطول ما ... تسعى لتنعم بالهوى المتأثم

اطعمت جسمك للأثام وموس ... ترمي الفتيات لجسمها المتنهم

كم من بنين تركتهم في حجرها ... صرعى، فيا لك من غوي مجرم

وفتات جسمك سوف يقبر في غد ... والمومس الشهوى بلحد مظلم

هذا وان الأبيات هذه مؤرخة بتاريخ ١٩٤٤/٢/١٢ كما ورد في رواية الناسخ الذي لم تشخصه المقدمة التي كتبها الأستاذ ناجي علوش لمجموعة إقبال. وإذا صحت رواية الناسخ فأننا نستنتج بتحفظ ان الأبيات هذه كتبت أصلا لتكون قصيدة مستقلة، ثم فكر السياب إنطلاقا ملها في كتابة ملحمته. ذلك ان الأبيات التي نرويها نحن (وهي بخط السياب) وإن لم تكن تحمل تاريخا، إلا أنها مثبتة بعد القصيدة عنوانها (عاشقان في الغاب) مؤرخة في ١٩٤٤/١٢/٢٥ علما بان القصائد التي ننقلها هنا تحمل تواريخ متعاقبة، واخرها هي ابيات الملحمة. ومما يقوي استنتاجاتنا هو ان السياب يشير في ما نرويه إلى (أليس) وهي فتاة أحبها بعد (لبيبة) التي ترد في قصائده باسم (لباب). [المحقق].

[1] أليس، فتاة زاملت السياب في الجامعة فأحبها [المحقق].

لو عاشقٌ دنفٌ سواي أحبها ... مثلي، تركت له الهوى فَتَنَعَّما

شاعر الشهوة:

فاترك هواك فقد بُليتَ بِمُدنفٍ ... متيّم، منشوّق، متلهّف

يهوى حبيبتك التي أصفيتها ... وداً كودٍّ صديقك ابن الأحنف

شاعر الروح:

أتحبّ صاحبتي، وحبي طاهرٌ ... وهواك حبٌّ فاجرٌ لم يَشْرُفِ

نزّهتها عن قول هجرٍ قُلته ... كادت تغصُّ به لهاة المِعزفِ

شاعر الشهوة:

هيهاتَ لست بتارك هذا الهوى ... لا الصدُّ يورثني السُّلُوَّ ولا النوى

وحلفتُ ما أنا تاركاً حبي لها[1] ... ظمِئَ الفؤاد - يد الزمان - أم ارتوى

شاعر الروح:

أمشاركي في حبِّ من أحببته ... بئس الشريك، ولا سلمتَ من الجوى

شاعر الشهوة:

أمشاركي في حبّها ما ضرّني ... أني رأيتك لي شريكاً في الهوى

---

[1] أليس الأصح رفع كلمة "تاركا".

مالي ومالـــك أن تظـــلَّ رفيقهـــا — إن نلتُ بعـــد ســـويعةٍ تطويقهـــا

أهوي على تلك الشفاه فـــأرتوي — حيناً،وأرشف-كيف شئت-رحيقها

وأمدّ كفّي أينمـــا شـــاء الهـــوى — فأعود أقطف نورَهـــا وشَـــقيقَها

شـــاعر الروح:

زُورٌ لعمرك ما نطقـــتَ وخُدعـــةٌ — تـــأبى علـــيَّ محـــبتي تصـــديقها

شـــاعر الشهوة:

وأُطوّع الخصـــر النحيـــل بضـــمّةٍ — من ساعدٍ، مـــا خلتُـــه ليُطيقهـــا

شـــاعر الروح:

لا تفجعـــنَّ فـــؤاد بـــاكٍ موجَـــعٍ — بتصـــوراتٍ زُوِّقـــتْ تزويقهـــا

شـــاعر الشهوة:

سأخفُّ بعـــد سُـــويعةٍ للقائهـــا — أوَ لا ترى كيف اعترضتُ طريقها

شـــاعر الروح:

رحماك! ما أبقيتَ لي مـــن ملجـــأ — إن كنت تطمح أن تكون رفيقهـــا

شـــاعر الشهوة:

طال الثـــواءُ وحـــان أن نتفرَّقـــا — فإلى اللقاء ويا لـــه مـــن ملتقـــى

فغداً أعـــود محـــدّثاً عـــن قبلـــة		جنَّ الفؤاد لهـــا وخصْـــرٍ طُوِّقـــا
ونـــــواظرٍ متفتـــــراتٍ نشـــــوةً		وصـــــبابةً، متلـــــذّذاتٍ باللقـــــا

شـــاعر الروح:

لا تَقْسُوَنْ ورحمـــة يـــا صـــاحبي		فالقلب يوشك من ضنى أن يُحرقا
أمخلّفي أشكو لظى الحـــب ارجـــعِ		لا تقسونْ علـــى الفـــؤاد الموجَـــع
بالماضـــيات الزهـــرِ مـــن أيامنـــا		بالمهجة الحرّى، بفـــيض الأدمـــع
لا تعـــدون علـــى الـــتي مَلّكتُهـــا		روحي، ودونك غيرها فاســـتمتعِ
لو شئتَ جاءتك الغـــواني خُشـــعاً		ينظـــرن نظـــرة وامـــقٍ متطلّـــع

شـــاعر الشهوة:

لو كان في وسع المشوق العاشـــق		تَرْكُ الهوى، لصرفتُ عنها خـــافقي

ملاحظة

إلى هنا تنتهي الأبيات المكتوبة بخط السياب في الدفتر الذي روينا أغلب قصائده هنا. أما الأبيات التالية فقد ذكر السيد إلياس سروع – وهو شاب لبناني يعدّ رسالة جامعية عن السياب، وقد زار العراق لأغراض هذه الرسالة – للسيد فؤاد طه العبد الجليل أنه نقلها عن إحدى الصحف العراقية التي كانت تصدر في الأربعينات. وبعد مطالعة هذه الأبيات وجدنا أن الناسخ قد وقع في بعض الأخطاء ولنا أن نتلافاها. هذا و لم يتأكد لنا ما إذا كانت هذه الأبيات تلي الأبيات التي سبقت روايتها مباشرة أم لا. على أن تسلسل المعاني يوضح بأنها لا تليها مباشرة.

شـــاعر الروح:

أأُحبُّ فاســقةً تواصــل فاســقا   هيهات لست – وإنْ رمتني- عاشقا
أأُحبُّ من شربَ الخنا من جسمها   كأســاً تنوّلــهُ الشــراب الرائقــا
أأُحبُّ من طــرق الخنــا أردافهــا   لا كان قلبي – إن عصاني – خافقاً

شـــاعر الشهوة:

أفأنت تعشق جسمها أم روحهــا   فالروح لم يــر شـــارباً أو طارقــاً

* * *

ما زال ناظرها الحـــزين الأســود   يذكي بقلبــك جــذوةً لا تخمــد
وأرى ابتسامتها الشــجية لم تــزلْ   تــوحي إليــك بحســرة تتجــدد
إن كان هَمُّك من سراجِك ضوءه   فدع السؤال (فكل)[1] زيتٍ يوقــد
وإذا عشقتَ من الكؤوس بريقَهــا   فاشربْ سناها واتــركنَّ رحيقَهــا
ماذا يضــيركَ أن يكــون شــرابه   صاباً، وحسبُك أن ترى تصــفيقَها
فلتأخذن مــن الحبيبــة روحَهــا   ولتــــركنَّ لآخـــرِ تطويقَهـــا
ما زلت تضمن ودّهــا ووصــالها   ماذا يضـــيرُك أن يكــون رفيقهــا

شـــاعر الروح:

روح مطهــرةٌ وجســـمٌ فـــاجرُ   لا قَـــرَّ جفنُـــك أيهـــذا الـــداعرُ
الروح والجثمان شـــخصٌ واحـــدٌ   إنْ عَفَّ هذا (عَــفَّ) ذاك الآخـــر

[1] لم ترد عند الناسخ. [المحقق].

هل روحها – إنْ نلتَ يوماً جسمَها فملأتَه دَنَساً وعاراً – طاهر
كلاَّ سأزجرُ عن هواها خافقي فيطيعني وهو الذليلُ الصاغر

شاعر الشهوة:

الروح ليس بمشبهٍ جثمانَه لا تجزِهِ بذنوب جسم خانه
يا ربَّ جسمٍ غارقٍ في قبحه قد ضمَّ روحاً زانه ما زانه
ولرب جسم مُعْجبٍ لك حسنه قد ضمَّ روحاً شانَه ما شانه
والجسمُ ثوبٌ من ترابٍ هَيِّنٍ لا بدعَ إنْ دَنَسٌ علا أردانَه

شاعر الروح:

الجسم لولا روحه لم يفسدِ فهي التي صرخت به أن يعتدي
وإذا الرداءُ تدنَّسَتْ أردانُه بمدنَّسٍ فالذنبُ ذنبُ المرتدي

شاعر الشهوة:

[أزعمتَ][1] أنَّ الروح [أُنزل][2] فاجرا أو طاهراً في الجسم يومَ المولد
قد كان روح (أَليس) عفاً طاهراً ولسوف يصبح غير عفٍّ في غد

---

[1] وردت عند الناسخ أزمعت [المحقق].
[2] وردت عند الناسخ نزل [المحقق].

شـــاعر الشهوة:

لا زلت [حرّان][1] الجـــوانح متعبـــا صَـــبّاً تقـــاربُ مُبغِضـــاً متجنبـــا

غَشَّـــتْكَ روحانيّـــة خذّاعـــةٌ ما إن تنيلكَ عنـــد خـــودٍ مطلبـــا

هنَّ الغواني هَمُّهُـــنَّ مـــن الهـــوى أن يســـتفدن لـــذاذةً أو مكســـبا

لا أن يهـــيم هـــن غِـــرٌّ شـــاعرٌ يرنـــو فيرجـــع باكيـــاً ومشـــببا

---

[1] وردت عن الناسخ حزان [المحقق].

جـــاءت يجاذبهـــا النســـيم ثيابهـــا ... صـــباً يملّـــك ســـاعديّ شـــبابها
أضحت تـــورّد خـــدّها أنفاســـه ... وارتدّ يرشف كيف شاء رضـــابها
ومضى يدغدغ صـــدرَها وبـــودّه ... أن لو يزيح عـــن النـــهود نقابهـــا
ترنـــو فيهلـــك غـــيرة حســـادها ... ويميت أو يحيـــي الهـــوى أحبابهـــا

شـــاعر الشهوة:

وافتك (ناعمـــةُ)[1] القـــوامِ تـــأوَّدُ ... فـــإذا الجـــوانح جمـــرةٌ تتوقـــد

[1] وردت عند الناسخ نائمة. [المحقق].

إلى النـــار (١)

لا ترجفي يا بنان القـــارئ الآنـــا ... لا انشقَّ بابٌ ولا صافحتِ شيطانا

لا ترجفي وانشري سفراً، صحائفه ... دربٌ إلى النار لولاهنّ مـــا كانـــا

أفضى إلى عـــالمٍ نـــاءٍ، إلى ظُلَـــمٍ ... كانت حياةً على الدنيا، وأزمانـــا

حاك الخيال المدمّى بعضها قصصـــا ... والواقع المـــرُّ أنبـــاءً.. وألحانـــا

عذراء؛ ما وطئتْ رجلٌ مـــدارجها ... كالبحر قاعاً.. وغيبِ الله – شطآنا

وادٍ مـــن النـــار داجٍ: لا أُلمُّ بـــه ... "شيخ المعرّة" يستوحيه" غفرانـــا"[1]

ولا تخطّى بـــ (دانتي) بابـــه بصـــرٌ ... خاض الجحيم دماً يغلي.. ونيرانا[2]

وادي حـــزانى ومظلـــومين تملـــؤهُ ... أطيافُ أحيائنا الغضـــى، وموتانـــا

ضجّوا لدى الله بالشكوى فرقّ لها ... قلباً، وهزّ النجوم الزهـــر غضـــبانا

وانثال كالغيث – لو أنّ لظـــى ... صوتٌ سرى زعزعاً، وانشقّ بركانا

"ويل الطغاة السكارى من عقاب غدٍ ... إن زلزل الكوكب المنكود إيذانا"[3]

فزمزمَ الحشـــدُ والنكبـــاء تنشـــرُهُ ... حيناً، وتطويه كـــفُّ الله أحيانـــا:

---

[1] في المخطوطة فوق كلمة يستوحيه يستجديه بخط اكثر حداثة يختلف عن خط المجموعة.
[2] دانتي تقرأ "دنتي" لكي ينسجم الوزن.
[3] هذه الأقواس من وضع الشاعر السياب، وما سولي اكثره من وضعنا.

-"ربّاه لو أن في طول انتظار غـــد جدوى..لما أسمعتكَ الريح شكوانا"[1]

"ما كان حتماً علينـــا أن يُعـــذّبنا طاغٍ، وأن يشهد الرحمن بلوانـــا"

"النار أشهى.. فهات النار تصهرنا يوم الحســـاب ومتّعنـــا بـــدنيانا"

"إن كان لا يدخل الجنّات.. داخلها إلاّ شقيّاً علـــى الأولى وغرثانـــا"

وكان أمرك أن نرضى بما صـــنعوا فاحفظْ عبيدكَ.. فالشيطان مولانا"

---

[1] أصل البيت أجريت عليه تصحيحات بقلم مغاير. كان: رباه لو أن جدوى في انتظـــار غـــد مـــا زال وسنان، لم تسمعك شكوانا.

ضحكة الشيطان (٢)

إبليسُ أصغى إلى الشكوى وعصبتُه، في غفلة من شهابٍ ســاهم النــارِ
والليلُ داجٍ تكــاد العــين تحسَــبُهُ قبراً تمطّى علــى جثمــانِ جبــار
يا هولها في سكون الليل.. قهقهـــةً كأنما انفضَّ عنها جَوْفُ إعصــار
دوَّى الصدى في الكهوف الجوف يقلقها فانقضَّ بالرعد منها كــلُّ منــهار
وهبَّ في مخـــدع الآثـــام طاغيـــةٌ من نومه القانئ المختوم.. بالعــار
وبات يضحك حتى جُنَّ وانطلقتْ ساقاه عَدْواً وراء الكوكب الساري

* * *

إبليسُ:

"وأنت يا آدمَ المجبــول مـــن حمـــأ تُحييه من تحت أقدامي يد الباري"
"لا يبرح الحقد بي أفعى تعبُّ دمي عبّاً وتنفخ في صدري؛ إلى النــار"
"أطلقتُها أمسِ يــوم الــتين نافثــةً في أذن حوّائك الحمقاء أســراري"
"واليوم يا قبحــه يومــاً يطــرّبني أشهى من الدم في سكّين جــزّار"
"واليوم لا فحَّت الأفعى ولا لدغتْ ولا ألمْتُ، ولا أشرعتُ أظفــاري"
"إن كنت لا أترك الدنيا يعيثُ بهــا طاغٍ شراينه الحمــراءُ أوتــاري"
"لو يرفع الغيبُ عن عينيك راحتـــه أو يهمس الغدُ للماضي بأخباري"
"أو كنت تستوقف الموتى وقد ركبوا جياد (عزريــلَ) مـــن دارٍ إلى دارِ

"وتسألُ الميّت المحمول هيكلُه ... من ضفّة (الكنج) ملفوفاً بأطمار"

"عن أمسه الراعب الخاوي وحاضرِه ... والناس ما بين أخيارٍ وأشرارِ

"لاحتثّ أكفانه الصفراء عن فمِه ... وارتجّ-بالآه تترى-صدرهُ العاري)

"وقال "أمّا عن الدنيا فما برحتْ ... أيام قابيل سكرى بالدم الجاري)

"(....) أدمع الثكلى لآلئه ... (....) إليها ذراعا جائعٍ عاري"[1]

"والعالم الحاطم الذرّات – يدفعها ... كيف اشتهى – باع أغلاها بدينارِ"

"واستنزف الشاعر اللاهي ملاحنه ... في مدح سكران أو تمجيد خمّار"

* * *

واحتثّ إبليس أفراساً مجنّحةً ... بالنار حمراءَ، والكبريت ملتهبا

رُقْشُ الثعابين في أفواهها لُجُمٌ ... والريح في منخريها تنفخ القصبا

قصف البراكين أحنى من حوافرها ... وقعاً إذا أطلقتها تضرب السحبا

قد أُنعلتْ قلب سفّاح وطاغيةٍ ... فلو تمسُّ الحجار الجامد ارتعبا

من وقعهنَّ التظى ملء المدى شررٌ ... ينفضُّ برقاً على الآفاقِ أو شُهبا

وقال إبليس، والظلماء راعشةٌ ... من تحتِه أمعنتْ نحو الثرى هربا

"الأرض لي.. ما عليها من ينازعني ... (...) الخطايا (...) للخنى نصبا"[2]

أورثتها من يشاء الشرُّ من خدمي ... باتوا شكوكاً، وباتوا في يدي لعبا

كم أوقد الراهبُ القنديلَ من لهبي ... واستقطر الشيخ مما أهمس الخطبا[3]

ألقى على الأرض ظلّي تاجر جشعٌ ... يخفي به عن عيون الناس ما لهبا

قال اسجدوا خشعاً حتى إذا سجدوا ... عاف المصلّي وأمسى يجمع الذهبا"

---

[1] في هذا البيت تعمية مقصودة لم نستطع أن نتبينها ولعل الكلمة الأولى (ملوككم) أو (وصيكم). والثانية (تهفو).

[2] الشطر الثاني من هذا البيت كلمتان تعمد الشاعر حذفهما ولم نستطع تبين الأصل المحذوف.

[3] إلى جانب لفظة "استقطر" في المسودة لفظة "استنزل" وقد فضلنا الأولى.

"يا سيّد النار" نادى مارد قـــدحتْ عيناه ناراً، وقد أفضى بما رغبـــا:-

"يا سيِّد الهوّة الحمراء مـــن ســـقر لا زلْتَ ربَّ الخطايا والخنى حقبا"

"حتى إذا انصبَّت الأزمانُ في أبـــد ظمآن، أصبحْتَ ظلاًّ فيه، ملتـــهبا"

"لي خنجرٌ طالما احمرَّت مضــاربُهُ حتى صدئْنَ احمراراً، وانحنى تعبـــا"

"أهويتُ يوماً من الأيـــام أصـــقلُهُ بالربعِ من (أطلس) العاتي-ولا عجبا[1]"

فما يزال النجيع الرطـــبُ منـــدفقاً في كلِّ ركنٍ من الدنيا، ومنسكبا"

"حتى إذا ابيضَّ نصلٌ وانبرى حجرٌ أبصرتُ ظلاًّ على مرآتِهِ اضـــطربا"

"أنثى من الطين، لا حوّاء تشـــبهها حسناً، ولا العالم الأعلى بما رحبا"

"أنثى وبغـــداد مأواهـــا، وفاتنـــةٌ بين السكارى، ونارٌ جاورتْ حطبا"

"لمياءُ ما تمتمتْ في الليـــل ســـاحرةٌ مثل اسم لمياءَ لفظاً يبعث الطربـــا"

"غمّازتاها تطـــيلان.. ابتســـامتها عمراً، وتستوقفان الكوكب الشحبا"

"طيفٌ تراءى على نصـــلٍ تقلّبُــهُ يمناي جـــذلان في آنٍ.. ومكتئبـــا"

"أرخيتُ من نشوةٍ كفّي وما حملتْ: الصخرَ والخنجرَ القتّـــال واللـــهبا"

"ثمّ امتطيتُ الغيوم الرائحات: لظىً يذكيه شوقي ويُطفيه السرى خببا"

"حتى سملتُ بأظفاري على خنـــقٍ عينَ الصباحِ ومزّقتُ الضحى غضبا"

"والهار في دجلة الرعناء شـــاطئها فارتاع "نوحٌ" يعدّ القار والخشـــبا"

* * *

"..لمياءُ يا شهوةً في صدريَ احتدمتْ يا لذةً في سرير المـــومس الـــدامي"

"يا ومضة الخنجر المسموم في خلدي يا حيَّة وجْرها القتّال أحلامـــي[2]"

"يا نصفَ عذراءَ يا قـــبراً أوسِّـــدُهُ أشباحَ أبنائي الصرعى، وأيّـــامي"

---

[1] جبل أطلس في أفريقيا الشمالية – السياب – .

[2] في المسودة شطبت لفظة المسموم بالقلم للرصاص وكتب فوقها الماجور ورجحنا الأصل المحذوف.

"يا ملعب الدود يا سوطاً أسوقُ به		خيل الخطايا إلى ساحات آثامي.."
"يا رقية الشرّ – إن خنخنْت مركبةً		أوقرتُها بالبغايا والــدم الظــامي"
"يا مغزلاً في يد الفوضى نسجتُ على		منواله الرخو ثوب العار والــذامِ"[1]

[1] في المسودة شطبت لفظة الجون واستبدلت بالرخو، ويبدو أن الشاطب لم يكن السياب.

غضبة إبليس (٣)

وانقضَّ إبليسُ في الظلماء صـــاعقةً   من غيظةٍ ثم شــقَّ الجـــوَّ مرتفعـــا
واستركض الصافن المحموم يضــــربُهُ   بالدوح من غاب "أفريقيَّة" اقتُلِعـــا
كأنَّ أغصانه الحمرا.. إذا التـــهبت   ناراً وخرَّت تباعاً، كوكبٌ صـــفعا
فارفضَّ في الجوِّ أقباســـاً مروَّعـــةً   تنهال حتى تصيح الأرض: وا جزعا
وامتدَّت القبضة السوداء وانتـــزعت   من سرجه المارد المنكود.. فانتـــزعا
وهـــزَّهُ هـــزةً فكَّـــت مفاصـــله   حتى استغاث ارتياعاً واشتكى وجعا
:-"مولايَ..مولايّ" نادى بعد حشرجة   "لا تأخذ البائس المضنى بما صـــنعا"
"ما كان ذنبي؟ أخنتُ الله معتـــذراً   عما مضى أم نشرتُ البرَّ والورعا"
"ما خنتُ إبليس" وامتدتْ إليه يَـــدٌ   أخرى ودَوّى هزيمٌ ينشـــر الفزعـــا
:-"ما خنتَني؟ أيها الطين الحقير، بلى.   قد خنتَ عهدي وخنت الافعوان معا"
"لمياء سكرى بأقداحي، يضـــاجعها   طاغٍ شوى حلمتيها بعدما رضـــعا"
"ولا تحــــدّثني عنـــها فتطـــربني؟!   أين الهوى من حديث بالدم اندفعا؟"

* * *

فأطرق المارد المنكـــود وانحـــدرت   من مقلتيه الجذى دمعـــاً فأخفاهـــا
واحتثَّ من غيمةٍ ربداء معظمهـــا   وجفَّف الـــدمع حينـــاً ثم خلاَّهـــا
وقال:-"لولا يدٌ من سيدي اعترضتْ   أسمعتُه من لحون الشرِّ.. أحلاهـــا"

"ما كانت الغادة السكرى سوى قدحٍ أسقي به السمّ، فانظر بعض قتلاها:"

...هذا هو الشاعر الفاني تخلّـدهُ أنشودةٌ تعــبرُ الأجيــالَ غنّاهــا"

"ما انفكَّ يشدو وما انفكت ملاحنُهُ يحفرنَ قبري وإن حجّبتُ معناهــا"

"حتى رآهــا، فغنّــى بابتســامتها وأخفتِ الظلمَ عن عينيه عيناهــا"

"لا أنة الكادح الغرثــان.. تلهمــهُ شعراً ولا الأيم الغرثى، وطفلاهــا"

"سكران يصحو على كأسٍ فيثمله ما عَبَّ منها، ويستوحي بقاياها.."

"يستوقف اليوم، لا يدري إذا وقفتْ أنوارَه، فــالتقى ليلــى وناجاهــا"

"كم من قلوب حيارى تحتها انسحقتْ وكم شقيٌّ بعين اليــأس يرعاهــا"

"عامان ذابا على قيثــارهِ.. غــزلاً وقطّرا روحــه الــولهى وعبّاهــا"

"شدّ اليمين على كأسٍ، وطالعــه من غورها الواقع الدامي فأرخاها"

"واستنطق الكأس والأشباح فارتجفتْ مذعورة ثم قالت كيف نهواهــا؟!"

"قم فانظر النور من شبّاك يخــدعها يلقي على الشرفة الوسنى خطاياها"

"ظلّان رانا على الأســتار واقتربــا حتى استحالا إلى ظــلٍّ تغشــاها"

* * *

فاجتاحت الجوَّ من إبليس قهقهــةٌ كادت لها الأنجم الزرقــاء تنتثــر..

وقال: "عُدْ.. واجمع الأوتار في يده واتركهُ يشدو بما لم يــروه وتــر

"وليصرف القلب عن لمياء يعصــرهُ للبائسين.. فماذا أنــت تنتظــر؟"

"كم شاعرٍ قَبْله انسابت قصــائده فاستقبلتْها قلوبٌ مسَّها الخدرُ..[1]"

"في غرفة خاف أن يجتاز مدخلــها ضوء النهار فغشى جوّها الكــدرُ"

"جدرانها الراعبات السود ما استلمت إلا لهاث الضحايا وهــي تحتضــر

---

[1] يلي هذا البيت ٤ أبيات لا تؤثر على سياق المعنى وغير واضحة في المسودة اضطررنا إلى حذفها.

"ولا اكتست من ظلالٍ غيرما عكسوا ولا ارتوتْ من دماء غير ما قطروا"
"يستقبل الليل لا أقدامه امتلكتْ أرضاً سوى ما يَمسُّ الأصبع الحذِرُ"
"ولا ذراعاه والأغلال تشبحها تُطوى ارتياحاً ولا الساعات تُختصر"
"حتى إذا اكتظَّت الآلام فانعصرتْ نوماً كما امتصَّ عبء الغيمةِ المطرُ"
"نادى به الحارس السجان يوقظه بالنار من فوَّهات النار تنفجرُ"
"وكم يدٍ يتأبّى أن يلامسها.. ثوب البغي، ويأبى العار، والقذرُ"[1]
"أهوت عليه انتقاماً منه تلطمه على شفاه ثمنى لحنها الوتر"
"تنزَّل الشعر منها للعييِّ فماً وللذي ارتابَ عزماً ليس ينكسر
"وللضعيف سلاحاً، والطريد أخاً وللظلوم رقاداً ملؤه الحَذَرُ"
واجتازت الباب آهات يرددها مستضعفون احتوتهم مثله الحجر
حتى إذا صرَّ ذاك الباب منفرجاً عن فجوةٍ دسَّ فيها ضوءه القمرُ
وحدَّق الشاعر المفجوع.. لاح له نعش عليه اصفرار النور منكسر
تلطَّختْ بالدم القاني جوانبه ولم تزل قطراتٌ منه.. تنحدر..
ولم يزل شاعر الأحرار تعصره آلامه السود حتى أقبل السحر
فقطَّعتْ ضحكة جوفاء أطلقها ما لم يقطِّعه من أعصابه السهر

* * *

والشاعر الثائرُ التركيُّ ما برحتْ تُلقي عليه الظلال السود قضبانُ[2]
إنْ مرّت الطير أسراباً به التمعتْ عيناه بالشوق واستبكاه تحنان
أو شعَّتْ الكوّة السوداء عن شفقٍ قانٍ، دماء الضحايا فيه ألوانُ

---

[1] في الأصل واشتهارها العار..إلخ.

[2] اعتقد ان الشاعر المقصود "ناظم حكمت" [المحقق].

نزا وأهوى على القضبان يجذها ... ودمدمت منه كالآهات ألحان

كم بات يغفو على رؤيا مكررة ... ما غيّرتها على جفنيه أزمانُ

الليل في نصفه الثاني يلوّنهُ ... نصفٌ من القمر المكدود، نعسان

تثاءبت منه في البسفور أخيلة ... كسلى ورانت على الشطّين أحزان

وللسفينة في الأمواج وهوهةٌ ... يصدي لها الشاطئ الساجي، وإرنان

ثم التظى الماء والشطّان وانفجرا ... كما تشظّى ومجَّ النار بركانُ

وازّلزَلَ الأفق حتى كاد يلمسُهُ ... لو كان في الشاطئ المذعور، إنسانُ

وأومضت بالدم القاني كواكبه ... كما يحدّق تحتَ الليل ذؤبان

وعبّت الموت عبّاً وهي مائلة ... سفينةٌ لم يزدها عنه ربّان

حتى إذا ما استقرّ الموج وائتلقتْ ... في أرجوانٍ من القمراء شطآن

وكدَّس القمر الدامي أشعَّته ... جسراً على الماء، تطفو منه ألوانُ

سارت عليه من الأشباح قافلةٌ ... شتّى: عظام تُغشّيهنَّ أكفان

ورجّرجَ الماء من بعد السكون صدى ... ناءٍ: سيندكّ مهما اجتاح طغيان"

* * *

حتى إذا ارتاح مما قال، بادرَهُ ... من موكب الجنّة الصاغين.. ملحاح

"أين السُّرى، فيم نجتاز الفضا صعداً؟ ... والشرقُ وسنانُ لا يغشاه مصباحُ"

فقال إبليس: "إنّ الأرض لهي كما ... حدِّثتَ عنها فما للناسِ إصلاحُ"

"أما السماء فقد سدَّت مسالكها ... من خصمي الظافر الجبّار أشباح"

"ما زال فيها يحفّ الأنبياء به ... حفّاً وتُزجي له التسبيح أرواحُ"

"واللعن حظّي إذا ما آية تُليتْ ... أو رتِّلتْ باسمه المرهوب أمداح"

"لأجعلنَّ سماء الله لي هدفاً ... أحتلّ آفاقها القصوى وأجتاح"

آليتُ ألاّ يرى الله المقيم بها إلا صريعاً على الغبراء ينداحُ
فولّول الماردُ الملحاحُ واختلجت عيناه ذعراً وإن غطّتهما راح:
"يا سيد الشرِّ، والحكّامُ ماثلةٌ أكوابَهم ،من دماء الفتية الراح"
"أما تمت أفعاك في الظلماء فانطلقت غرثى على الكوكب الأرضيّ تجتاح"[1]
"في كل حقل تهزُّ الريح سنبله جيش وفي كل قصر للردى ساح"
"في النهر نار وخلف الليل فوّهةٌ "حمراءُ، والشطّ بالبارود نضّاحُ"
"اليوم قد هبَّ شعب الصين من أسر فالليل ينجاب، والأغلال تنزاح
"في ثغرها غنوة حمراء ينقلها من ثغر (هومير) للأسماع فلاّح"
"هبَّتْ وفي يدها الكأس التي صرعت سقراط يسقي بها الطاغين كدّاح"

* * *

حتى إذا ما انتهى من قوله، اتقدتْ أحداق إبليس تختار الشياطينا
حتى استقرت على (بلزاب) فانغمدت في قلبه الخائف المذعور سكينا
وانهال إبليس بالألفاظ صاخبة كالنار مسرى وكالإعصار تلحينا
:-"عار وأنت الذي لم يثن ركبته لله، إنْ صرت عبد الآدميّينا"
"وطأت خديك للثوار يسحقها حافٍ وعارٍ وخذّلت السلاطينا"
"ورحت تزعم أن الناس ما برحوا صرعى على باب طاغٍ من موالينا"
"إذا سألتك عن أحوال مملكة نبأتَ دون اكتراث:-مثلما شينا..
"أما استقرَّت على اليونان ذات ضحى عيناك أو وطأت أقدامك الصينا؟
"واهتزَّ ظلّك في الأنهار فاصطخبت بالناس غرقى ودمّرن البساتينا"
ولا سمعت عن اليونان من نبأ نطوي به ما انتهزنا من ليالينا

---

[1] اضطررنا إلى حذف أربعة أبيات بعد هذا البيت لعدم وضوحها لعلها تتحدث عن ثورة الصين الشعبية.

وما الذي جد في الدنيا، وهل وطن منها ارتخى عنه ظلُّ المستبيحينا
"وقد تمرّ على اليابان تقصفها بالصاعقات وتفتضُّ البراكينا
"فكيف لم تدر أن الصين ثائرة تمشي على النار تجتاح الميادينا
فقال بلزاب عندي ما ستسمعه فاستعمل الرفق في التأنيب واللينا
:-"أمّا السماء فلن نرقى معارجها والأرض كالنار تغلي تحت أيدينا"
"فلنثنِ أفراسنا عنها نومًا.. هما ركناً من الأرض حتى الصبحِ يؤوينا"
"نستطلع الرأي عما سوف نصنعُه" فقال إبليس:-هيَّا..نأتِ" شيرينا.

على شيـــرين (٤)

ولاح شيرين في الظلمـــاء تحسـبه أكداس غيمٍ تغطّي جانب الـــوادي
صاغ الجليـــدُ لـــه تاجـــاً لآلئـــهُ نار الرعاة وظلّ الكوكب الهـــادي
واصطكّت الريح تعوي في مغاوره كالمستغيث وقد شـــدَّت بأصـــفاد
وسدّت الأفـــق الشـــرقي أخيلـــة سودٌ كموتى أفـــاقوا دون ميعـــاد
تدنو فينحلُّ عنـــها مـــا يخالطهـــا من عتمة الليل إذ تكسى بأجســـاد
حتى استقرّت على شيرين وانتصبتْ ما بين تلك الذرى في زيّ أكـــراد
واختال إبلـــيس بالجلبـــاب قانيـــة ألوانه يشـــتهيها كـــلُّ.. جـــلاّد
وقال: "يا معشر الجنّ انتحوا جهة تغزوها واتركوني بـــين قـــوّادي"

* * *

ثم انثنى يرســـم الـــدنيا بأصـــبعه فوق الجليـــد ويمحوهـــا ويبتســـم
حتى استقرَّت على حـــالٍ فلوَّنهـــا من نار عينيه يرنو وهـــي تضـــطرمُ
و لم يزل تتقـــرّى الطـــينَ راحتُـــه حيناً، ويهمس إنّي ســـوف أنـــتقم
وتارة يلمـــس اليونـــان.. متقـــداً بالغيظِ يرنو إلى بلـــزاب أو يجـــمُ
فقال بلزاب: "إنّ الأنجم انطفـــأت خلف الجبال وكادت تسطع القمم"
"فلنسبق الفجر نقضي قبل مطلعـــه حاجاتنا من حـــديث ملـــؤه الألم"
"أما عن الصين فالجوّ الفسيح لظى داجٍ وملء الصحاري والحقول دمُ

جرى جداولاً فاقتات الجياع على حافاتها والضحايا شأنها الكرم
"وارتجَّ فيها خيال من يدٍ حطمتْ غلا من العار يصدا فوقه القِدَمُ"
"وانجاب عنها ظلامٌ كان ينشره غربانك السود حين اجتاحه الضَرَم"
"أما الشمال ففي أقصاه ما شحبت من عاطلين يدٌ، أو جائعين.. فمُ"
"آساه بالرحمة الثوّار واختصروا عمر الشقاء بما شادوا وما هدموا"
أما الجنوب فحتى الآن تمهره من كلّ طاغٍ بأختام الردى قَدَم"
"وَهي فما عاد يقوى أن يخوض وغى جيشٌ هو الجوع والإعياء والسَقَمُ"
وآوت (الكايَ) في أقصى جزائره دارٌ بها الظالم المقهور يعتصم
أذكى بريق المنايا في لآلئه نار الوغى ثم ولّى وهي تضطرم
كم ليلةٍ باتَ والمصباح يغسلها بالنور يرنو إليها.. وهو مبتسم
ونقّطتها عيون الدود يعكسها قبرٌ على الجثة العجفاء ينهدم
ما درّها الأحمر القاني سوى حُلُمٍ باقٍ عليهن من ثغر الرضيع دم
"وما الوميض الذي فيها سوى رئةٍ يهتزُّ فيها خيالٌ للردى.. نَهِم

* * *

هيهات هيهات لا أنسى ضحىً غرقتْ آفاقُهُ في لهاث العسجد النائي
في قريةٍ في شمال الصين لوَّنها أيلول، فاستقبلتْها صفحةُ الماء
وأومض الدرب حتى ذاب آخره ثم اختفى غير ذكرى تُقلقُ الرائي
وأقبَلَتْ من بعيدٍ فيه مركبة تطوي الحقول النشاوى ذات ضوضاء
تنسابُ جذلى وفيها اثنان سائقها وأجنبٌ جاء يسعى خلف أبناء
ما سرّح الطرف حتى اهتزَّ من طربٍ وصاح يشفع أقوالاً بإيماءِ:
"يا روعةَ الجوسقِ النائي تعانقهُ بيض الأزاهير في استحياء عذراء"

"أيلول والزهر قبل اليوم ما اجتمعا ... في جوف وادٍ ولا في قاع بطحاء"

فغمغمَ السائق الجذلان مرٌّ.. على ... عينيه كالليلة القمراء.. تذكار

:"هذا دم الصين! هذا جهد قائدها ... ذاك ابتسام الضحايا! تلك أثمارُ"

"تفاحةٌ بعد أخرى لفَّ حمرتها ... عن لحظ أيلول فلاّحون أحرار"

والعدل إن عمَّ أرضاً فهي عابقةٌ ... بالزهرِ، ملأى وكلّ العام آذارُ"

"بالأمس كنا نجرُّ النير تحمله ... أعناقنا ثم تعيا ثم تنهارُ"

"وكلّما انهارَ جيلٌ قام يخلفه ... جيلٌ أو انزاحَ طاغٍ لاح جبارُ"

"ناعورة ثورها المعصوب ناظره ... شرع الطغاة، ومجرى مائها العارُ"

"والجيل للجيل كالأقداحِ فارغةً ... تهوي، وملأى ستهوي وهو دوّارُ"

"حتى انتبهنا على الرايات نشّرها ... مصبوغة بالدم المسفوك ثوّارُ"

"تلقي على الموقد المهجور أخيلةً ... فانزاح ظلّ الردى واهتزّت النارُ"

"واجتاحت الأرض تطوي باع سيّدها ... بالغلّ عنها ويمشي خلفها الثارُ"

"ثم اجتمعنا على البشرى وجيء به ... كنعجةٍ ساقها للذبح جزارُ"

"تنفّس الرعب في عينيه فانطفأت ... في ذلك الزئبق المذعور أنوارُ"

"يهوي على ركبتين اصطكّتا فرقاً ... ويستغيث وماء العين مدرارُ"

وقال: "لم أجنِ ذنباً.." ثم طاف به ... طرفٌ على الأوجه العجفاء ينهارُ

فطالعته عيونٌ من مغاورها ... وأعظمٌ برزتْ جوعاً، وأطمار

كأنما الكون تابوت أُعدّ له ... من كلّ عينٍ عليه انحطّ مسمارُ

وصاح قاضٍ من الثوّار نحنُ لكم ... عونٌ على الظالم الباغي وأنصار

هذا أوان التشفّي لا نجاء لمن ... خان الشعوب ولن يجديه إنكار

يوم الظلامات لا الشكوى بضائعة ... ولا القضاءُ محابٍ فيه غدّارُ

فليطفح المرجل الغالي بما خنقتْ ... من حقده العاصف المكبوت أظفار

مغموسة بالدم المنساب شدّ بها ... شرعٌ أجير وسفّاكون أشرار

ولتقضموا من يدٍ كانت تمدّ على ... آثامها من جراب البغي أستارُ

فما تشكّى امرؤٌ منّا ولا شخصت ... إلا إلى المنزل المرعوب أبصار

"قال: "انطقوا، لا تخافوا بأس من نسجت ... أكفانه اللذة الحمراءُ.. والعارُ"

"وأثقل الأمسُ والأغلال حاضره ... حتى انحنى فارتمى عن رأسه الغار"

فقالت امرأةٌ غرقى.. مفجعةٌ:- ... "لم يطوِ شكواه شانٍ وهو مختار"

"نحن المدينون للباغي بما امتلأتْ ... به صكوكٌ وضاقت عنه أسفار"

"ألفٌ وألفان موكولٌ بهنَّ.. دمٌ ... للبائسينَ وآمالٌ.. وأوطار"

"نحن المدينون ما ينفكُّ يخنقنا ... صكٌّ إذا ندّتِ الشكوى وإنذار"

"يا ضيعة الثأر والأفواه تلجمها ... مستمسكاتٌ لدى الباغي وأسفار"

أختامها الحمر أفواه قد التصقت ... بالقلب يروي صداها منه تيّارُ.."

"مختومةٌ كلّ ختمٍ صاحَ فيه فمٌ ... ظمآن للدم، في الأكباد حفّار"

"قد سطرتْها يد الباغي وخبأها ... درج تخفّى فما افتضّتْهُ أنظار"

"فاستلّت الدرج من أحضان مخبئه ... أيدٍ ونادى فمٌ: "فلتضرم النارُ"

واستوقدَ النارَ من مصباحٍ ثاكلةٍ ... ذو غلّةٍ من بنيها حقده النارُ

"حتى تذرّى رماداً كلُّ مستند ... وازحزحت عن رقاب الناس أنيارُ"

يا ريحُ ذرّيه.. هذا البغيُ طاح به ... من هذه الأمة الصمراء إعصارُ

"حتف المدينين لا ينشقّ باب غدٍ ... إلا عليها، ولا تمتدُّ أعمارُ"

فولّول الناس بالشكوى كما انفجرتْ ... من نعشها الأبيض المصهور أنهار؟

وأقبلتْ تخنق الجاني بحاضرِهِ ... من أمسه الداعر الممسوخ أخبار

يا للكتاب المدمّى: كـاد كاتبـه يرميه بالزور لـو لم تبـق آثـار.

تطويه إطراقـة الثكلـى وينشـره لحظ اليتيم، ودمـعٌ فيـه يحتـار

حتى سمعنا دم الطـاغوتِ يهرقـه قاضٍ نزيـهٌ، وجـلاّدون أخيـار

واخضلّت التربة الجرداء، وزّعهـا بالحقّ فينـا، وبالقسـطاس ثـوارُ

* * *

أهوى بإبهامـه العـاتي وخاتمـه يمضي لمستأجريه الصيد ما كتبـوا

أو تحمل الخائف الموتور حيث بدت ألحاظ إبليس واستشرى به الغضبُ

وقال: "يكفيك" نادى بعد زجرةٍ: "رفقاً فقد أزعجتنا هذه الخطـبُ"

"حدَّثت حتى كأنّ العالم انبسـطتْ أنحاؤه تحت عيني وهـو يلتـهب"

"قرّبت أطرافه القصوى سوى بلـدٍ يرتاد سمعي حديثٌ عنه مقتضَـبُ"

* * *

فازورّ بلزاب كالمفجوء وارتفعـت عيناه نحو الشمال المعـتم الخـالي

"مولاي" نادى وقد أوما بأصـبعه بين الذرى: "تحت ذاك الكوكب العالي"

"شعبٌ خطا في طريقٍ ربّما بقيـتْ لـولاه أمنيـة عـزلاء في بـالِ"

"طافت رؤاها بـأفلاطون باهتـة ألوانها فـاكتفى منـها بـأطلال"

"إعتادت الشاعر الوسنان فانتلقَت أبواب أيتوبيـا الزرقـاء كـالآل

"حتى إذا امتدَّت الأيدي لتطرقهـا دابتْ فلم يبقَ إلاّ محـض أقـوال"

"وأقبل الفيلسوف الحرّ وانتزعـتْ كفّاه خيط الستار القـاتم البـالي"

فهـــرس


الناشيء

ديوان

بدر شاكر السيّاب





ديوان

بدر شاكر السيّاب

المجلد الثاني

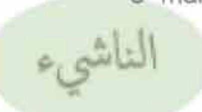





الناشيء

- عنوان الكتاب: ديوان بدر شاكر السياب المجلد الثاني
- المؤلف : بدر شاكر السياب
- الطبعة : 2016

- يطلب من دار العودة - بيروت - لبنان
- كورنيش المزرعة بناية الريفييرا سنتر
- هاتف:006911818405
- فاكس:009611818406
- e-mail:Daralawda@hotmail.com



ISBN: 978-9953-593-72-2

ديوان

بدر شاكر السيّاب

المجلّد الثاني

دار العودة . بيروت

أنشودة المطر

(١٩٦٠)

غريب على الخليج

الريح تلهث بالهجيرة، كالجثام، على الأصيلِ
وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل
زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ
من كلّ حافٍ نصف عاري.
وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريبُ، يسرّح البَصَر المحيَّر في الخليج
ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيجِ
"أعلى من العبّاب يهدر رغوُه ومن الضجيج
صوتٌ تفجّر في قرارة نفسي الثكلى: عراق،
كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي: عراق،
والموج يُعوِل بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق.
بالأمس حين مررتُ بالمقهى، سمعتك يا عراقُ...
وكنت دورة أسطوانهْ
هي دورة الأفلاك من عُمُري، تكوّر لي زمانه

في لحظتين من الزمان، وإن تكن فقدت مكانه.

هي وجه أُمي في الظلامِ

وصوتُها، يتزلَّقان مع الرؤى حتى أنام؛

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب

فاكتظَّ بالأشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروب؛

وهي المفلّيةُ العجوز وما توشوش عن "حزامْ"[1]

وكيف شُقَّ القبر عنه أمام "عفراءَ" الجميلةْ

فاحتازها.. إلا جديلةْ.

زهراءُ، أنت.. أتذكرين

تنورَنا الوهّاجَ تزحمه أكفُّ المصطلين؟

وحديث عميَ الخفيض عن الملوك الغابرين؟

ووراء بابٍ كالقضاء

قد أوصدته على النساء

أيدٍ تُطاع بما تشاء، لأنها أيدي رجال –

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال.

أفتذكرينَ؟ أتذكرين؟

سعداءَ كنا قانعينَ

بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء.

[1] هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق عروة بن حزام عند العامة الذين يروون قصة حبه لعفراء وموته ويرددون معاني قصيدته، بشعر عامي.

حَشْدٌ من الحيَوات والأزمان، كنا عُنْفوانهْ،
كنا مَداريْه اللذين وحدتُ بينهما كيانهْ.
أفليس ذاك سوى هباء؟
حُلُمٌ ودورة أسطوانهْ؟
إنْ كان هذا كلَّ ما يبقى فأين هو العزاء؟
أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنت فيه؛
يا أنتما، مصباح روحي أنتما – وأتى المساء
والليل أطبق فلتشعّا في دجاه فلا أتيه.
لو جئت في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء!
الملتقى بكِ والعراقُ على يديّ... هو اللقاء!
شوق يخضُّ دمي إليه، كأنَّ كلّ دمي اشتهاء،
جوعٌ إليه... كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء.
شوقِ الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادهْ!
إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!
أيخون إنسانٌ بلادهْ؟
إن خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟
الشمس أجملُ في بلادي من سواها، والظلامْ
– حتى الظلام – هناك أجملُ، فهو يحتضن العراق.
واحسرتاه، متى أنامْ
فأحسّ أن على الوسادهْ
من ليلك الصيفي طَلاًّ فيه عطرُك يا عراق؟

بين القرى المتهيّبات خطاي والمدن الغريبه
غنّيتُ تُربتكَ الحبيبه،
وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبهْ،
فسمعتُ وقع خطى الجياع تسيرُ، تدمى من عثار
فتذرُّ في عينيَّ، منكَ ومن مناسمها، غُبار.
ما زلتُ أضرب، مُتربَ القدمين أشعث، في الدروب
تحت الشموس الأجنبيَّهْ،
متخافقَ الأطمار، أبسُطُ بالسؤال يداً نديّهْ
صفراء من ذُلٍّ وحُمّى: ذلِّ شحّاذٍ غريبِ
بين العيون الأجنبيهْ،
بين احتقارٍ. وانتهارٍ، وازورارٍ... أو "خطيّة"[1]،
والموت أهون من "خطيه"،
من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيهْ
قطرات ماءٍ... معدنيّهْ!
فلتنطفي، يا أنت، يا قطراتُ، يا دمُ، يا نقودُ،
يا ريحُ، يا إبراً تخيط لِيَ الشراعَ – متى أعودُ
إلى العراق؟ متى أعودُ؟
يا لمعةَ الأمواجِ رنَّحهنَّ مجذافٌ يرودُ
بِيَ الخليجَ، ويا كواكبَه الكبيرةَ... يا نقودُ!
* * *

[1] كلمة إشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة.

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سفارِ
أو ليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريضِ، بلا بحار!
ما زلتُ أحسب يا نقودُ، أعدُّكنَّ وأستزيد،
ما زلتُ أُنقصُ، يا نقود، بكنَّ من مُدَد اغترابي،
ما زلتُ أُوقد بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي
في الضفّة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ
متى أعود؟ متى أعودُ؟
أتراه يأزف، قبل موتي، ذلك اليوم السعيدُ؟
سأفيقُ في ذاك الصباح، وفي السماء من السحابِ
كِسَرٌ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشبَع بعطور آبِ؛
وأُزيح بالثُؤَباء بُقيا من نعاسي كالحجابِ
من الحرير، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبينْ:
عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى، وشكٌّ في يقين.
ويضيءُ لِي – وأنا أمدُّ يدي لألبس من ثيابي –
ما كنتُ أبحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب
لِمَ يملأُ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب؟
اليوم – واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأُني – أعودُا

* * *

واحسرتاه ... فلن أعودَ إلى العراق!

وهل يعـــودُ

من كان تُعوزُهُ النقود؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ
وأنت تأكل إذ تجوع؟ وأنت تُنفقُ ما يجودُ

به الكرام، على الطعام؟

لتبكينَّ على العراقِ

فما لديك سوى الدموع

وسوى انتظارك، دون جدوى للرياح وللقلوع!

الكويت ١٩٥٣

- "بابا بابا..."

ينساب صوتُكَ في الظلام، إليّ، كالمطر الغضيرِ،

ينساب من خَلَل النُعاس وأنت ترقد في السريرِ

من أيِّ رؤيا جاء؟ أيِّ سماوةٍ؟ أيِّ انطلاق؟

... وأظلُّ أسبح في رشاشٍ منه، أسبح في عبير.

فكأنَّ أوديةَ العراقِ

فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي: كلُّ واد

وهبته عشتارُ الأزاهرَ والثمار. كأنَّ روحي

في تربة الظلماء حبةُ حنطةٍ وصداكَ ماءُ.

أعلنت بعثي يا سماءُ.

هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ.

* * *

"بابا..." كأنَّ يد المسيح

فيها، كأنَّ جماجم الموتى تُبرعِمُ في الضريحِ.

تموز عاد بكل سنبلةٍ تُعابث كلَّ ريحِ.

* * *

"بابا... بابا..."

أنا في قرار بُوَيْبَ[1] أرقد، في فراشٍ من رمالهْ،

---

[1] بويب نهر في قرية الشاعر.

من طينه المعطور، والدم من عروقي في زلالهْ
ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ.
أنا بَعْلُ: أخطر في الجليلِ...
على المياه، أنثُّ في الورقات روحي والثمارِ
والماء يهمس بالخرير، يصلّ حولي بالمحار
وأنا بوَيْبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري.

* * *

"بابا... بابا..."
يا سُلَّم الأنغام، أيَّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ؟
"سيزيف" يرفعها فتسقط للحضيض مع الهيارِك.
يا سُلَّمَ الدم والزمان: من المياه إلى السماءِ
غيلانُ يصعد فيه نحوي، من تراب أبي وجدي
ويداه تلتمسان، ثَمَّ، يدي وتحتضنان خدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي.
"بابا... بابا..."
جيكور[1] من شفتيكَ تولَد، من دمائكَ، في دمائي
فتُحيل أعمدةَ المدينهْ
أشجار توتٍ في الربيع. ومن شوارعها الحزينهْ
تتفجَّرُ الأنهار، أسمع من شوارعها الحزينه
ورَقَ البراعم وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباحِ
والنُّسغَ في الشجرات يهمس، والسنابلَ في الرياح

---

[1] جيكور قرية الشاعر في جنوب العراق.

تَعدُ الرَّحى بطعامهنّ.

كأنّ أوردةَ السماء

تتنفسُ الدمَ في عروقي والكواكب في دمائي.

يا ظلّيَ الممتدَّ حين أموت، يا ميلاد عمري من جديد:

الأرضُ (يا قفصاً من الدم والأظافر والحديد

حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا.. كظلّ،

كيدٍ بلا عَصَبٍ، كهيكل ميِّتٍ، كضُحى الجليد،

النورُ والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ)

عشتارُ فيها دون بَعْلِ

والموت يركض في شوارعها ويهتف: يا نيامُ

هبّوا، فقد وُلِدَ الظلامُ[1]

وأنا المسيح، أنا السلامُ.

والنار تصرخ: يا ورود تفتَّحي، وُلِدَ الربيعُ

وأنا الفُرات؛ ويا شموعُ

رشّي ضريحَ البَعْل بالدم والُحباب وبالشحوبِ.

والشمس تُعْوِل في الدروبِ:

بردانةٌ أنا ، والسماء تنوء بالسُحُبِ الجليد.

* * *

"بابا... بابا..."

من أيّ شمس جاء دفؤُك أيّ نجمٍ في السماء؟

ينسلُّ للقَفَص الحديدِ، فيورقُ الغدُ في دمائي؟

---

[1] كان كهنة ايزيس ينطلقون، في منتصف ليلة ١٢/٢٥ من كل عام، هاتفين في شوارع الاسكندرية: لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس.

تموز يموتُ على الأفقِ

وتغور دماهُ مع الشفق

في الكهف المعتمِ والظلماءْ

نقّالة إسعافٍ سوداء

وكأن الليل قطيع نساء:

كحلٌ وعباءاتٌ سودُ

الليل خباء

الليل نهار مسدودُ.

نادت مربية الأطفال الزنجيةْ:

الليل أتى يا مرجانهْ

فأضيئي النور. وماذا؟! إني جوعانةْ

و.. نسيت – أما من أغنيّةْ؟

لم يهذر هذا المذياعُ؟!

في لندنَ موسيقى جازٍ، يا مرجانةْ

فإليها... إني فرحانه

والجاز من الدم إيقاعُ

* * *

تموز يموت ومرجانةْ

كالغابــــة تــــربض بردانــــةْ...

* * *

وتقــــول، ويخـــــذلها الــــنفَسُ:
"الليــــلُ"، الخنـــــزير الشـــــرسُ
الليل شقــاء!"
مرجانـــــةُ.. هــــل قـــرع الجـــرسُ
فتقـــــول، ويخـــــذلها الـــــنفَسُ
"في البـــــاب نســـــاء"
وتعـــــدُّ القهـــــوة مرجانـــــةْ

* * *

وعلــــى الأكتــــاف البــــيض فــــراء:
الــــذئب يــــدثّر إنســــانهْ
وعلــــى الأثـــداء مــــن النَمــــرِ
شرق يتسلل، مــلء الغــاب، مــن الشــجر
والليـــــل يطــــول مــــع الســــمر
الليــــل كتّنــــورٍ – مــــن أشــباح البشــــر
خبــــز يتنشـــــق نيرانـــــةْ
والضـــــيفة تأكـــــل جوعانـــــةْ
مـــــن هـــــذا الـــــزاد. ومرجانـــــةْ
كالغابــــة تــــربض بردانـــــةْ
والضيفة تضحك وهي تقول: "خطيب ســعاد
جافاهـــــا، وانطـــــوت الخطبـــــةْ!

الكلب تنكّر للكلبة..."

تموز يموت بدون معاد

والبرد ينثُّ من القمر

فنلوذ بدفأة من أعراض البشر!

* * *

سيعود إذا انتصف الليلُ،

زوجي سيعود إلى الدارِ

من بيت صديق أو بارِ

لا شوقَ يعلّق بالرقّاص ولا بالعقرب أبصاري

لا آهةَ – من رهَبٍ – تعلو:

من رنة مفتاح في البابْ

وضياء من شقٍّ ينساب

كالماء المالح أشربه حتى تتفطّر أغواري!

ولقد يتأخر أو يأتي

قبل الميعاد إلى البيت

لكن سيعود

لا لوم عليه، فقد أعطى ما أطلب منه، ولا عتبُ!

خدمٌ، ورياشٌ ملء البيت، وأبهةٌ. دنيا، ونقود

ماسٌ، وبقيّتها ذهبُ:

وهدية والدها؟! الله هدية والدها.. عجب:

صياد بين يديه شباك

تـــــتلامح مـــــلأى بالأسمـــــاك

ذهــــب وزعـــانفُ مــــن فضـــةْ

ولآلـــئ تـــوهم أن هياكلـــها تثــبُ

وبــــأن لصــــائدها خضّـــــةْ!"

تمـــوز يمــــوت ومرجانـــــه

تتعـــوَّذ، مــــن عُقَــــد الســحرِ

والليـــــل الراكــــد، بالخُضْـــــر

والليـــــل يطفّـــــئُ شـــــطآنهْ

والضـــــيفة تقبــــع بردانـــــه

وفـــــراء الــــذئب تغطيهـــــا

وتطفّأت النيران اللاتي كانت بالـدم تـذكيها.

* * *

ليلٌ وجليد

يتســاقط عبرهمـــا صـــوتٌ، رنـــاتُ حديــد

وعــــواء ذئـــــاب يخفيهـــــا...

الصوت بعيد،

والضـــــيفة مثلـــــي بردانـــــه.

* * *

فتعـــال وشـــاركني بـــــردي

بالله تعـــال...

يــــا زوجـــي، هــــا إني وحـــدي

- والضـــيفة مثلــــي بردانـــه -

فتعـــال، تعـــال

فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناء

بالله تعـــال

فالنــــــاس كـــــثير... والظلمـــــــاء

نقّالةُ موتى سائقها أعمـــى، وفـــؤادك جبّانـــةْ!

في قلبه تنُّور
ألنار فيه تطعم الجياع
والماء من جحيمه يفور:
طوفانه يطهّر الأرض من الشرور
مقلتاه تنسجان من لظىً شراع
تمّعان من مغازل المطر
خيوطه، ومن عيونٍ تقدح الشررْ
ومن ثُديٍّ الأمهاتِ ساعة الرضاعْ
ومن مُدى تسيل منها لذة الثمَرْ
ومن مُدى للقابلات تقطع السررْ
ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع
شراعُه النديُّ كالقمرْ
شراعه القوي كالحجرْ
شراعه السريع مثل لمحة البصرْ
شراعه الأخضر كالربيع
الأحمر الخضيب من نجيع
كأنه زورق طفل مزّق الكتاب
يملأ مما فيه، بالزوارق النهَر،
كأنه شراع كولمبس في العبابْ
كأنه القدر.

حين يذرّ النُّورْ

- يلقي به التنور -

عن وجهكِ الظلماء

ويهمس الديجورْ

آهاته السمراء

على محيَّاك

تهجس عيناك

بكلّ حزن الدهور

وكل أعيادها:

أفراح ميلادها

وغمغمات النذور

وزهرها والخمور!

* * *

ألنورُ والظلماء

أسطورةٌ منحوتة في الصخورْ:

كم ذادَ بالنَّارِ،

من أسدٍ ضاري

وكم أخاف النمور،

إنسان تلك العصور

بالنُّور والنّارِ!

فأطفئي مصباحنا أطفئيه

ولنطفئ التنورْ

وندفن الخبز فيه،

كي لا تعيد الصخورْ

أُسطورةً للنار، ظلّت تدور

حتى غدا أول ما فيها

آخرَ ما فينا — وليلُ القبور

أوّلُ ما فيها —

كي لا ترانا نمور

تجوس في الظلماء

لترجم الأحياء

- من غابة في السماء -

بالصخر والنار

وتستبيح القبور!

أنا ما تشاء: أنا الحقيرْ
صبَّاغُ أحذية الغزاة، وبائع الدم والضمير
للظالمين. أنا الغراب
يقتات من جثث الفراخ. أنا الدمار، أنا الخراب!
شفة البغيِّ أعفّ من قلبي، وأجنحة الذباب
أنقى وأدفأ من يديَّ. كما تشاء... أنا الحقير!
لكنَّ لي من مقلتيَّ — إذا تتبَّعتا خطاك
وتقرّتا قسمات وجهك وارتعاشك — إبرتينِ
ستنسجان لك الشراكْ
وحواشيَ الكفن الملطّخ بالدماء، وجمرتين
تروّعان رؤاك إن لم تحرقاكْ!
وتحول دونهما ودونك بين كفيَّ الجريدهْ
فتندّ آهتك المديدهْ
وتقول: "أصبح لا يراني"   بيد أن دمي يراك
إني أحسّك في الهواء وفي عيون القارئين.
لمَ يقرأون: لأنّ تونسَ تستفيق على النضال؟
ولأن ثوّار الجزائر ينسجون من الرمالْ

ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين

كفنَ الطغاة؟ وما تزال قذائف المتطوعين

يصفرن في غسق القنال؟

لمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين

كالشامتين؟

سيعلمون من الذي هو في ضلالْ

ولأكينا صدأُ القيود... لأكينا صدأ القيود...

لأكينا... —

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفرُّ، سأقتفيه إلى السعير.

أنا ما تشاء: أنا اللئيم، أنا الغبيّ، أنا الحقود

لكنّما أنا ما أريد: أنا القويّ، أنا القدير.

أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيِّد من أشاءُ

بمثلهنّ من الحديد، وأستبيح من الخدود

ومن الجباه أعزَّهنَّ. أنا المصير، أنا القضاء.

الحقد كالتنور فيَّ: إذا تلهَّب بالوقود

- الحبر والقرطاس - أطفأ في وجوه الأمَّهاتْ

تنورهنّ، وأوقف الدم عن ثُديٍّ المرضعات.

في البدء كان يطيف بي شبَحٌ يقال له: الضمير

أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير.

شبَحٌ تنفَّس ثم مات

واللص عاد هو الخفيرْ.

في البدء لم أكُ في الصراع سوى أجير

كالبائعات حليبهنّ، كما تؤجَّر – للبكاء

ولندبِ موتى غير موتاهنّ – في الهند النساء.

قد أمعن الباكي على مضضٍ، فعاد هو البكاء!

* * *

ألخوف والدمُ والصَّغار. فأيُّ شيء أرتجيه؟

فعلى يديَّ دمٌ وفي أذني وهْوهة الدماء

وبعقليَّ دمٌ، وللدّم في فمي طعمٌ كريه!

أثقلْ ضميرك بالأثام فلا يحاسبْك الضمير

وانسَ الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا.

لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير

لفرط رعبك أو لفرط أساك... واحتضن الخطايا

بأشدّ ما وسع احتضانٌ تنجُ من وخز الخطايا.

* * *

قوتي وقوتُ بنيَّ لحمٌ آدميٌّ أو عظام

فليحقدن عليّ كالحمم الأنام

كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك، ولا أكون

وريث قابيل اللعين سيسألون

عن القتيل فلا أقول:

"أأنا الموكّل، ويلكم بأخي؟" فإن المخبرين

بالآخرين موكّلون!

سحقاً لهذا الكون أجمعَ وليحلّ به الدمارْ!

ما لي وما للناس؟ لست أباً لكل الجائعين

وأريد أن أروى وأشبع من طوًى كالآخرين

فلينـــزلوا بي ما استطاعوا من سباب، واحتقار

لي حفنة القمح التي بيدي ودانية السنين

- خمسٌ وأكثر... أو أقلّ - هي الربيع من الحياة

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة

روحَ النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين

فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من يجوع.

إني سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع،

لا شيء غير الرعب والقلق الممض على المصير

ساء المصير!

ربّاه إن الموت أهون من تَرقُّبِه المرير

ساء المصير:

لمَ كنت أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقير؟!

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النُضارْ
عن جناح الفراشة، مات النهار –
ألنهار الطويلْ.
فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلاّ القليل.
كانَ نقْرُ الدَّرابك منذ الأصيل
يتساقط، مثلَ الثمار،
من رياح تحوِّم بين النخيل –
يتساقط مثل الدموع
أو كمثلِ الشرار:
إنها ليلة العُرس بعد انتظار!
مات حبٌّ قديمٌ، ومات النهار
مثلما تُطفئُ الريح ضوءَ الشموع.
ألشموع... الشموع،
مثل حقل من القمح عند المساء،
من ثغور العذارى تعبُّ الهواء،
حين يرقصنَ حول العروس
منشداتٍ: "نوارُ، اهنئي يا نوار!

حلوةٌ أنت مثل الندى، يا عروس"

يا رفاقي، سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار.

زهَّدتما بنا حفنةٌ من نضار:

خاتمٌ أو سوار، وقصرٌ مشيدْ

من عظام العبيد...

وهي، يا ربٌ، من هؤلاء العبيد!

ولو أنَّـــا وآباءنا الأولين

قد كدحنا طوال السنين

وادَّخرنا – على جوع أطفالنا الجائعين –

ما اكتسبناه في كدِّنا من نقود،

ما اشترينا لها خاتماً أو سوارا

خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرقِ

من رفات الضحايا مئات اللحود

اشتراها به الصيرفيُّ الشقي.

مثلما تنثر الريح عند الأصيل

زهرةَ الجلّنار –

أقفر الريفُ لـــَّما تولّت نوار.

بالصبابات، يا حاملات الجرار

رحْنَ واسألْنَها: "يا نوار

هل تصيرين للأجنبي الدخيل؟

للذي لا تكادين أن تعرفيه؟

يا ابنةَ الريف، لم تنصفيه!

كم فتىً من بنيه

كان أولى بأن تعشقيه؟

إنهم يعرفونك منذ الصغرْ

مثلما يعرفون القمر...

مثلما يعرفون حفيف النخيلْ

وضفاف النهَر

والمطر

والهوى، يا نوار...

احصدوا يا رفاقي، فإن المغيب

طاف بين الروابي يرشُّ اللهيب

من أباريقَ مجبولةٍ من نضار؛

والزغاريد تصدّى بها كل دار:

أوقد القصر أضواءه الأربعين،

فاتبعوني إليها مع الرائحين.

اتركوني أغني أمام العريس

وأراقص ظلي كقرد سجين

وأمثّل دور المحب التعيس

ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين،

من هواي المضاع،

من قلوب الجياع

حين تهوى، ومن ذلة الكادحين.

سوف آكل حتى ينـــزَّ الدمُ

من عيوني... فما زال عندي فمُ:

كل ما عندنا نحن، هذا الفمُ!

كان وهماً هوانا، فإنّ القلوب

والصبابات وقفٌ على الأغنياء!

لا عتابٌ فلو لم نكن أغبياء

ما رضينا بهذا، ونحن الشعوب.

مرثيـة الآلهـة

بلينا وما تبلـى النجـومُ الطوالـعُ[1] ويبقى اليتـامى بعـدنا والمصـانعُ
ويـبقى "كربٌ"[2] الجالب الكربَ: كالصدى يغصّ المنادي بالردى، وهو راجـعُ
كأنَّ الأميبى[3] تـوأمٌ وهـو تـوأمٌ لها، فهو في منجىً من الموت قـابعُ
ولكنه الفرد الذي يزحـف الـورى إلى حيث ترمي مقلتيـه المطـامعُ
أعنقاءُ من صحراء نجـدٍ تقحَّمـت بها مغربَ الشمس البعيدَ الزعـازعُ
أم انسلَّ من أهرام فرعـونَ هـاجعٌ وقتَه انتقاص الدود منه، المباضـعُ؟
ومن ليس يحيا لن يرى وهو هالـكٌ فلو كان يحيا ما عدتـه الفواجـعُ
وما كان إلا اسماً "كربٌ" ابن مثلـه به يُدمغ اثنان: الـورى والبضـائعُ
ولكنـه اسـمٌ بالأسـاميِّ يغتـذي تمجَّـاه زفـار اللّظـى والمـدافعُ
تمنَّيـتُ أني آلــةٌ: لا يُصـيبها كلالٌ ولا وقتٌ لهـا مـرّ ضـائعُ
لها من دماء الناس قـوتٌ وخلفهـا من المال عن أن ينفد القوتَ مـانعُ
وما تخطئ الآلات في الجمـع تـارةً وفي الطَّرح، إن يخطئْ من الناس جامعُ
ولا عاقبتها عصـبةٌ مـن ورائهـا علينا عقابٌ بُرِّئـوا منـه، واقـعُ
ألا كم رفعنا من إله وكـم هـوى إلهٌ وأضحى ثالـث وهـو رابـعُ
فما جاوزتْنا صـورةٌ منـه خطَّهـا على غفلةٍ منـا مُجيـعٌ وجـائعُ

---

[1] لم توضع الأبيات المضمنة بين الأقواس، وإنما اكتفي بالإشارة إليها.
[2] كرب Krupp صاحب معامل الأسلحة الألمانية الشهيرة.
[3] الأميبى حيوان ذو حجيرة واحدة، وهو خالد لا يموت لانعدام شخصيته.

وما كان معبوداً سوى ما نخافه ... ونرجوه أو ما خيَّلته الطبائع

فتموزُ مثل اللاّت، والرعدُ ما رمى ... بغير الذي تُطوى عليه الأضالع

وكم ألّه التمر التهامي معشرٌ ... لما ليس يحيا دونه الناس راكع

فلّما شكا بعد الأثافيّ قدرها ... وضنَّت على الشّدق الخفيِّ المراضع

كفى كل ثغرٍ كان يدعوه جوعه ... إلهٌ أحاطته المدى والأصابع

دمي هذه الخمر التي تشربونها ... ولحمي هو الخبز الذي نال جائعُ

ولما تشظّى قلب نرسيس وانثنى ... يلمُّ الشظايا منه شارٍ وبائعُ

وغذّى بها القلب الذي حين ذاقها ... نما فيه نابا كوسجٍ فهو قاطعُ

هوى كلُّ عالٍ من إلهٍ وسافلٍ ... إلى حيث ما من راحلٍ ثمَّ راجعُ

وأفضى إلى العرس السديميّ معدنٌ ... بما امتاحَ من أحداق "ميدوزَ"[1] لامعُ

هو الشمس إلاّ أنّ في زمهريره ... من الموت ظلاً حجَّبته البراقعُ

جزى أمّه الأرض التي من عروقها ... ربا واغتذى في جوفها وهو هاجعُ

بشرٌّ الذي يُجزى به شرّ من غذا ... وأروى، ويُجزاه العدوُّ المنازعُ

فأدمى بنيها وارتعى من بناتها ... حقولاً ترجّى، فهي شوهٌ بلاقعُ

كقابيل يغتال الأشقاء، راكلٌ ... - كأوديب - للخبز الإلهيِّ صافعُ

وهذا الإله الأملس الفظّ ما جلا ... لنرسيس يجثو عنده وهو خاشعُ

سوى وجه نرسيسَ الرخاميِّ، شابه ... شحوبٌ يهوذيُّ التلاوين ناقعُ

وأوفى من الأرباب جيل يؤمُّه ... على قمَّة الأولمب ربٌّ مخادعُ

ترى "فحمَ" إذ يلقاه يَلقاه راجفاً ... و "فولاذُ" من تلماح عينيه مائعُ[2]

---

[1] ميدوز هي إلهة في أساطير الإغريق تحيل من تلتقي عينه بعينيها إلى صخر.

[2] جرّدت من الفحم والفولاذ شخصين لإلهين من الأرباب الجدد، أتباع زيوس الجديد - الذهب - وعاملتهما كاسمي علم، ومنعتهما من الصرف.

ويا عهد كنّا كابن حلاّج: واحـداً   مع الله إن ضاع الورى فهو ضـائعُ
أكَلَّ الرّجالَ الجوف أن يملأوا بـه   خواء الحشا هذا الإلـهُ المضـارِعُ
فعادَ الفقير الرّوح من ليس كاسـياً   به ظاهراً منّا... فحـلَّ التنـازعُ

(فوكاي، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما، جُن من هول ما شـــاهده غداة ضُربت بالقنبلة الذرية).

١ – هياي... كونغاي، كونغاي[1]

ما زال ناقوسُ أبيك يُقلق المساءْ

بأفجع الرثاء:

"هياي... كونغاي، كونغاي"

فيفزع الصغارُ في الدروبْ

وتخفق القلوب

وتغلق الدُور بكّينَ وشنغهايْ

من رجع: كونَغاي، كونَغاي.!

فلتُحرقي وطفلكِ الوليد،

ليَجمَعَ الحديدَ بالحديد

والفحمَ والنحاس بالنُّضار

والعالمَ القديمَ بالجديد

---

[1] تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوساً ضخماً يُصنع من الذهب، والحديد، والفضة، والنحاس. وكلف أحد الحكام بصنعه. ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي – وهي ابنة ذلك الحاكم – العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن... فكان الناقوس... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق: "هياي.. كونغاي، كونغاي".

آلهةُ الحديد والنحاس والدّمار،

أبوك رائدُ المحيط، نامَ في القرار:

من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار[1]

وحظك الدُّموع والمحار

وعاصفٌ عاتٍ من الرصاص والحديد.

وذلك المجلجلُ المُـــرِنُّ من بعيد:

لمن، لمن يدق: "كونغَاي، كونغَاي"؟

أهمَّ بالرّحيلِ في "غرناطة" الفجرُ؟

فاخضرَّت الرياحُ، والغديرُ، والقمرُ[2]؟

أم سُمِّرَ المسيحُ بالصليب فانتصرْ

وأنبتتْ دماؤه الورودَ في الصخَرْ؟

أم أنها دماءُ كونَغاي؟

ورغمَ أن العالَمَ استسرَّ واندثر[3]،

ما زال طائرُ الحديد يذرعُ السماء،

---

[1] شكسبير – العاصفة: اغنية "اريل" –.روح الهواء الذي سخره "بروسبيرو" الساحر – لفردينالد: "على عمق أذرعة خمس ينام ابوك في قرارة البحر، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين... اسمع ها هـو النـاقوس ينعاه" وقد اتخذه ت.س. إليوت في قصيدته الكبرى "الأرض الخراب" رمزا عن "الحياة مـن خـلال الموت" ولكن لاحظ كيف حولت "يبيعه التجار" المعنى!

[2] هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الاسباني القتيل لوركا. شاعر الغجر.

[3] هذا البيت والأبيات الستة التي تليه – تكاد تكون حرفية – عن الشاعرة الإنكليزية إيديث ستويل مـن قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون – القردة – في قاع المحيط تهزّ مهد طفل بشري – قتل "طائر الحديد" أمه – وتغني له مصبحة بهذا – وهي القردة – أما للطفل البشـري ومطعمة له ايضا.

وليلاحظ قراء قصيدتي هذه أن هناك شخوصا ثلاثة تترابط في ذهني: الصياد الياباني – او الصيني– الغريق الذي أخاطب ابنته، وأبو "فرديناند" – الذي زعم اريل أنه غرق –، والقردة "البـابيون" التـي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط كما جاء في قصيدة إيديث ستويل.

وفي قرارة المحيط يعقد القرى

أهداب طفلك اليتيم – حيثُ لا غناءْ

إلاّ صراخَ "البابيون": "زادُكَ الثرى،

فازحفْ على الأربع فالحضيض والعلاء

سيّان "جنكيزُ"، و "كنَغاي"

هابيلُ قابيلُ، وبابلٌ كشنغَهاي،

وليست الفضّة كالحديد!

هياي.. كونغاي، كونغاي!

الصين حقلُ شايْ،

وسوقُ شنغهاي

يعجُّ بالمزارعين قبلَ كلِّ عيد.

هياي.. كونغاي. كونغاي!

٢- تسديد الحساب

تلك الرواسي كم اختطَّ النهار على أقصى ذراها، وكم مرَّت بها الظلَمُ

فما فرحن بآلاف الشموسِ، ولا من ألف نجمٍ تردى مسَّها ألم

صمَّاءُ، بكماء، لم تأخذ، ولا وهبتْ ولا ترصَّدها موتٌ ولا هرم

لو أودع الله إياها أمانته لنالهنّ على استيداعها ندمُ

لاقتسمنَ مع الأحياء ما دفعت من جزية لا تُوفّى حين تُقتسم:

عن كل مقهة من صرخةٍ لمن وما استجدَّ دمٌ إلا وضاع دم

ومـا تحمَّـل آلامَ المخـاض و لم ... يقرب من النور إلاّ الفكرُ والـرحمُ

وإن يكن أسعدَ الأحيـاء أكملـها ... فإنمـا هـو أشـقاهنَّ لا جَـرَمُ؟

"قابيلُ" باق وإن صارت حجارتـه ... سيفاً، وإن عادَ ناراً سـيفُه الخـذم

وردَّ "هابيلُ" مـا قاضـاه بارئـه ... عن خَلقه، ثمّ ردَّت باسمـه الأمَـمُ

واليومَ، في حين وفي الدِّينَ غارمـه ... إلا بقايا وكـادت تخلـص الـذِّمم

وكاد يُرجـع للـدنيا بشاشـتها ... ما قرَّبته الضـحايا وهـي تبتسـمُ

مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه ... من وحشها في المخاض الأولِ الضرمُ

خَلقٌ تراءى لـ "يحيى"[1] ساعةافترستْ ... عينيه رؤيا لهـا مـن هـؤلاء فـمُ

لو يُقبض النورُ بالأيـدي لسـوَّره ... دونَ الورى... ولتعمَّ العالم الظّلـم

ريَّانُ عطشانُ لا يروى، بلا فـرحٍ ... جذلانُ، بادٍ عليه الجـوع والبشـمُ

كأنه – وهو ماض في غوايتـه – ... من نفسه اقتصَّ، فهو الماءُ والحمـمُ

تفجر الضَّحكُ المسلوبُ من رئـة ... منخوبةٍ بعد أخرى هـدَّها السـقم

عن ضحكة أطلقوها فهي صـاعقةٌ ... أصابهم والورى من رجعهـا صـمم

واستنـزفوا متعةَ الأحياء: ما دفعوا ... عنها، ولا غارماً ما استنـزفوا رحموا

ثم استزادوا... فإن لم يذهبوا ديـةً ... أو يقصروا عن طماحٍ يرجع العدمُ!

---

[1] القديس يوحنا – كما يسميه المسيحيون.

٣- حقائق كالخيال[1]

ماذا تريد العيونُ السود من رجلٍ ... قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها
زهراً على جسمي المحمومِ أقطفه ... في باقةٍ من جراحٍ بتُّ أصلاها:
هذا الربيع الذي تهدي شقائقه ... ريحَ المنايا إلى قلبي بريّاها
أزهارُ تموزَ[2] ما أرعى: أسلّمه ... في عتمة العالم السُّفليِّ اياها؟
أم صِلُّ حوّاء بالتفّاح كافأني ... وهو الذي أمسِ بالتفاح أغواها؟
ماذا تريد العيون السود؟ إن لها ... ما لستُ أنساه منها حين أنساها
ما بالهن استعَضنَ البوم أوعيةً ... عن أوجه الغيد... حتى ضاع معناها
أين المناقير من لُعْسٍ مراشفُها ... ربّي؟ وأين ابتسام كان يغشاها
من هذه الخربةِ الظلماء محدقةً ... بي أعين البومِ من أجداث موتاها؟
قفراءُ من غيرِ ثكلى شفَّ مئزرها ... عن وهج فانوسها الكابي وأخفاها
تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعتَه[3] ... طفلٌ، وطارت وقد ألوى جناحاها
محنيّةً تتقرّى كلُّ شاهدة ... من كل قبرٍ، كما لو كان طفلاها
في كلِّ قبرٍ يذوقان الردى: ديةً ... عمّن يؤاوي وعن أحياء دياها
نادتهما فانبرى يزقو لصيحتها ... -من حيث ردّ الصدى- بُومٌ وناداها:
"أمّاه إنا هنا. ريحٌ بنا عصفت ... لم ندر أين انتهينا بعد لقياها"
وانشقّ من خلفها قبرٌ ليبلعها ... واحتازها واشرأبّت منه كفّاها

---

[1] المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها، ولكنه - خلال أوهامه ودون وعي منه - يصور جانبا مما حدث في هيروشيما حين ألقيت عليها القنبلة.

[2] تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء، وحبيب عشتروت - أو فينوس - إلهة الحب. وهو يقضي نصفا من السنة - الشتاء - في العالم السفلي مع برسفون، والنصف الآخر - الصيف أو الربيع - على الأرض مع فينوس.

[3] اليراعة: ذبابة مضيئة، حباحب.

يختضُّ فانوسها التّمتامُ بينهما والريحُ خرساء تعيِ...
غير "ها. ها.. ها.."

* * *

وَيْلُمّ سازاك[1] كيف اندكَّ حائطه حتى تعرَّى ليَ السهلُ الذي حجبا؟
سهلٌ يكنُّ الصلالَ الرّقطَ، أجهضه عادٍ من المحل حتى يفزع العطبا
وانبحَّت التربةُ العجفاء-من عطش- عن أشدُقٍ فاغراتٍ تنبح السحبا
والشمس كالأطلس[2] المسعور تنهشه والريحُ تصليه من تنورها لهبا
الريح؟ لا ليست الريح التي ركضت بيضاء سوداء رقطاء القفا عجبا
عنقاء[3] في مسعر الجوزاء أعينُها والصخر يرفضّ من أظلافها شهبا
تلك الزرافات[4] في السهل العقيم لها مرعى روًى من سرابٍ، ينبت السَّغبا
ما روّعتها سوى ضوضاء خشخشة في كفِّ أبرص يعدو خلفها خببا
تخفيه عنها ضماداتٌ، ويظهره ما نزَّ من قيحه الدامي وما شخَبا
نادى، وكفّاه تختضّان، "واحربَا" فاستعبر العاصف المصدور "واحربا"!
"ماءَ اسْقِ يا ماءُ.." تلهاثٌ مقاطعه منزوعة من لسان يشبه الخشَبا
حتى استجاب السحاب الجوْن فانعقدت في الجوّ حبّاته الغبراء فاحتجبا
والهلُّ: لا عن ندىً صافٍ ولا مطر بل عن دمٍ، من ثُديٍّ مُزّقت حُلبا
أو عن مشاشٍ من الأحداق فقّأها سِيخٌ لجنكيزَ[5] دامٍ ينفث اللهبا
"ماء، اسق يا ماءُ.." والغيثُ الرهيب كلى مَفريَّةٌ سحَّت الآجال والكربَا

---

[1] الدكتور سازاكي كان طبيبا في مستشفى لصليب الأحمر في مدينة هروشيما.
[2] الأطلس: الذئب.
[3] عنقاء طويلة العنق.
[4] الزرافات جمع زرافة، للحيوان المعروف.
جنكيز خان السفاح المشهور.

لم يبقَ من مرتوٍ أو ظـامئٍ، بفـمٍ — أو دون...، إلا ومن ماء الردى شربا

* * *

ويلٌ لسازاكَ! ماذا ينتـوي بـدمي — من نيّةٍ... فهو يستصـفي ويمتـار؟

تلك الزجاجـات أشـلاء مجـزأة — مني، دمي مختـزٍ فـيهن مـوّارا!

لم تثن سازاك عن شـحذٍ لمديتـه — آهـات مرضـى، ولا أهـاه روار

إنِي لـدارٍ بـأي حـين يشـرعها — رانٍ إليهـا، فملـدوغ، فمُنْهـار

هل تبتغي شـفرتاها غـير آنيـةٍ — فيها دمي راحفٌ، والـداء والعـار؟

ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرَضٍ — -في عين سازاك- يُجبى منه إنجـار

ست وعشرون: أعدادٌ على سـررٍ — أما الأصحاء والمرضـى فأصـفار!

فالرقْم "عشرونَ" لا يسقى سوى لبنٍ — والرقْم "عشرٌ" نعـاه اليـومَ محـرارُ

واليوم لم يبقَ ما أعطيه من مـرضٍ — إلا دعائي وقولي "نعمـت الـدارُ"!

فليلْقَ سازاكُ من يسـمى "ثمانيـة" — غيري، ويستوف أجر القبر حفـارُا

قـافــلة الضيـــاع

أرأيت قافلة الضَّياع؟ أما رأيت النازحين؟
ألحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين
آثامَ كل الخاطئين
ألنازفين بلا دماءْ
ألسائرين إلى وراءْ
كي يدفنوا "هابيل" وهو على الصليب ركام طين؟
"قابيل، أين أخوك، أين أخوك؟"
جمّعت السماءْ
آمادَها لتصيح. كُوّرت النجوم إلى نداءْ:
"قابيل، أين أخوك؟"
- "يرقد في خيام اللاجئين
السلُّ يُوهن ساعديْه، وجئتُه أنا بالدواءْ
والجوع لعنة آدمَ الأولى وإرثُ الهالكين
ساواه والحيوانَ ثم رماه أسفل سافلين
ورفعته أنا بالرغيف، من الحضيض إلى العلاءْ"
أللیل يُجهض، والسفائن مثقَلات بالغزاه:
بالفاتحين من اليهود

يلقين في حيفا مراسيَهنّ – كابوس تراه

تحت التراب محاجرُ الموتى فتحجظ في اللحود.

ألليل يُجهَضُ ، فالصباحُ من الحرائق.. في ضحاه

ألليل يُجهَض ، فالحياه

شيء ترجَّح لا يموت ولا يعيش بلا حدودْ

شيء تفتّحَ جانباه على المقابر والمهود

شيء يقول "هنا الحدود!

هذا لكل اللاجئين، وكل هذا.. لليهودْ!"

* * *

ألنار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب

في كل منعطف تصيح: "أنا النضار، أنا النضار"

من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دارْ:

"أنا عجلُ "سيْناءَ" الإلهُ، أنا الضمير، أنا الشعوب

أنا النضار!"

ألنار تتبعنا، كأنّ مدى اللصوص وكل قطّاع الطريقْ

يلهثن فيها بالوباء، كأنْ ألسنةَ الكلاب

تلتزُّ منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور بابْ

تتصبّب الظلماء كالطوفان منه؛ فلا ترابْ

ليُعادَ منه الخلق، وانجرف المسيح مع العبابْ

كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيقِ

يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب

فاحتاحه الطوفان: حتى ليس ينـــزف منه جنبٌ أو جبين
إلا دجىً كالطين تبنى منه دورُ اللاجئين.
ألنار تركض كالخيول وراءنا. أهمُ المغولُ
على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرينَ
أروَّضوا أمسِ الخيول؟
أم نحن بدء الناس: كل تراثنا أنصاب طينْ.

* * *

ألنار تصهل من ورائي والقذائف لا تنامُ
عيونُها وأبي على ظهري، وفي رحمي جنينْ
عُريانُ دون فمٍ ولا بصرٍ تكوّر في الظلامْ
في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ. وكالجرس الصغيرِ
يرنُّ ملء دمي صداه – تكاد تومض كل روحي بالسلام
حتى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير
عريانُ دون فمٍ كأفقر ما يكون: بلا عظامْ
وبلا أب، وبدون حيفا دون ذكرى – كالظلام!
أسْريتُ أعبر، تحت أجنحة الحديد به الزمان
من الحقول إلى المراعي فالكهوف
والأرض تطمس من وراء ظهورنا، كالأبجديه
ألدُورُ فيها والدوالي شاخصات كالحروف
فكأن أمسِ غدٌ يلوح وليس بينهما مكانْ.
لم يخرجونا من قرانا وحدَهنّ ولا من المدن الرخيّه:

لكنهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّه!

فاليوم تمتلئ الكهوف بنا ونعوي جائعين

ونموت فيها لا نخلّف للصغار على الصخورِ

سوى هباب ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين!

ونموت فيها لا نخلّف بعدنا حتى قبور

ماذا نخطّ على شواهدها؟. أ.. "كانوا لاجئين"؟

أليوم تمتلئ الكهوف بنا: تُظلــّـل بالخيامِ

وبالصفيح، وقد تغلفهنَّ بالآجرّ دور

والنور كالتابوت فيها، ليس فيه سوى ظلامْ.

* * *

بين الكهوف وبين حيفا من ظلامٍ ألفُ عام أو يزيدْ

بين الكهوف وبين أمسِ هناك بئرٌ لا قرارَ

لها، كهاوية الجحيم تلزّ فاها دون نارْ

تتعلّق الأحداث فيها كالجلامد في جدارْ

لحداً على لحدٍ، أُزيحَ الطينُ عنها والحجارْ

من يدفن الموتى وقد كُشفوا وماتوا من جديدْ؟

من يدفن الموتى

ليولد، تحت صخرةِ كلّ شاهدةٍ، وليدْ؟

من يدفن الموتى لئلا يزحموا باب الحياة

على أكفّ القابلاتْ؟

من يدفن الموتى لنعرف أننا بشر جديدْ!

في كل شهرٍ من شهور الجوع يومئ يوم عيدْ
فنخفّ نحمل من "تذاكرنا" صليب اللاجئين:
- "يا مكثاً للغوث في سيناء هبْ للتائهين
منّاً وسلوى من شعيرٍ، والمشيمة للجنين
واجعل له المطّاط سُرّةْ
وارزقْه ثدياً من زجاجٍ واحْشُ بالإدريج صدره.

* * *

وبأيما لغةٍ نقول فيستجيب الآخرون
ونورث الدم للصغار؟
أعلمتَ - حين نقول: دار أو سماء - أيّ دارٍ
أو سماء تخطران على العيون؟
هيهات، ليس للاجئين ولاجئات من قرار
أو ديار،
إلا مرابع كان فيها أمسِ معنى أن نكون
سنظل نضرب كالمجوس نحسّ ميلاد النهار!
كم ليلة ظلماء كالرّحم انتظرنا في دجاها
نتلمس الدم في جوانبها ونعصر من قواها
شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاح نار
حتى حسبنا أن باب الصبح يفرح ثم غار
وغادر الحرسُ الحدود.
واختص رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار،

م اضمحل إلى غبار بين احذية الجنود.

أليل أُجهِضَ: ناره الحمى وديمته انتحاب الضائعين

أليل أجهض: ليس فيه سوى مجوس اللاجئين.

* * *

ألنار تركض كالخيول وراءنا. أهمُ المغولُ

على ظهور الصافنات؟ وهل سألتَ الغابرينَ

أروّضوا أمسِ الخيول؟

أم نحن بدء الناس: كل تراثنا أنصاب طين؟

(أغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته)

- "إلى الملتقى..."، وانطوى الموعدْ

وظلّ الغدْ:

غد الثائرين القريبْ.

يداً بيدٍ من غمار اللهيب

سنرقى إلى القمة العاليه

وشعرك حقلٌ حباه المغيب

أزاهيرَه القانيه.

* * *

نرى الشمس تنأى وراء التلالْ

وبين الظلال

وقد رفّ، مثل الجناح الكسير

على كومة من حطام القيود

على عالم بائد لن يعود –

سناها الأخير.

تقولين لي: "هل رأيت النجوم؟

أأبصرتها قبل هذا المساء

لها مثل هذا السّنا والنّقاء؟"

تقولين لي: "هل رأيت النجوم
وكم أشرقت قبل هذا المساء
على عالم لطّخته الدماء:
دماء المساكين والأبرياء!"
تقولين لي: "هل رأيت النجوم
تُطلّ على أرضنا وهي حرّه
لأول مرّه؟"
نعم. أمس حين التفتّ إليك
تَراءين كالهجس في مقلتيك.

* * *

وإذ يستضيء المدى بالحريق
فيندكّ سجن ويُجلى طريقْ
ويُذكي بأطيافه الدافئه
محيّاك باللهفة الهانئه؟
تقولين "نحن ابتداء الطريق
ونحن الذين اعتصرنا الحياه:
من الصّخر تدمى عليه الجباه
ويقتص ريّ الشماه،
من الموت في موحشات السجون:
من البؤس، من خاويات البطون؛
لأحيالها الاسد

لنا الكوكب الطالعُ

وصبح الغد الساطعْ

وآصاله الزاهيه!"

لا تسمعيها.. إنّ أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،
بابٌ علينا من دمٍ مُقْفَلُ
ونحن في ظلماتنا نسأل:
"من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟
من يصلب الخبز الذي نأكلُ؟
نخشى إذا واريت أمواتنا
أن يُفزِعَ الأحياء ما يُبصرونْ،
إذ يُقفر الكهف الذي يأهلون؛
إن عربد الوحشُ الذي يطعمون
من أكبُد الموتى، فمن يبذلُ؟

يا أُختنا المشبوحةَ الباكيه،
أطرافُك الداميه
يقطرْن في قلبي ويبكين فيه.
يا من حملت الموتَ عن رافعيه
من ظلمة الطين التي تحتويه

إلى سماوات الدم الواريه،
حيث التقى الإنسان والله، والأموات والأحياء في شهقةٍ،
في رعشةٍ للضربة القاضيه.
الأرضُ، أمُّ الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبلِ،
لم تبلُ في إرهاصها الأولِ
من خضّة الميلاد ما تحملينْ:
ترتجُّ قيعان المحيطات من أعماقها، ينسحُّ فيها حنين،
والصخر منشدٌّ بأعصابه – حتى يراها – في انتظار الجنين.
الأرض؟ أم أنت التي تصرخين؟
في صمتك المكتظّ بالآخرين؟
في ذلك الموت، المخاض، المحب، المبغض، المنفتح، المقفلِ.
ونحن؟ أم أنت التي تولدين؟
أسخى من الميلاد ما تبذلين،
والموت، أقسى منه، من كل ما عاناه أجيالٌ من الهالكين،
أنّ الذي من دونه الجُلْجله
والسوطَ والسجّانَ والمقصله،
أنّ الذي يفديكِ أو تفتدين،
غيرُ الذي آذاه بالنار أو بالعار والماء الذي تشربين:
عبءٌ من الآجال ما أثقله!
كم حاول الجلاد أن ينــزله،
كم ودَّ أن تُلقيه إذ تعجزين.

مشبوحة الأطراف فوق الصليبْ،
مشبوحة العينين عبر الظلام،
يأتيك من وهران - يا للزحام!
حشْدٌ مُشع باشتعال المغيب،
يأتيك كلُّ الناس، كل الأنام،
يرجون، مما تبذلين، الطعام
والأمن والنعماء والعافيه.
و ت مثلُ الدوحة العاريه،
لم يبق منك البغي إلا الجذور
الموتُ واهٍ دونها، والنشور
فيها وتجري دونك الساقيه.
ما شبَّ في وهران من بُرعُمِ
أو أزهرت في أطلسٍ عَوسجه،
إلا ودبّت في مسيل الدمِ
نمنمةٌ معشَّةٌ مبهجه
توحي بأن الأرض ظلت تدور
طاحونةً للقاتل المجرمِ
تسحق منه واهن الأعظُمِ،
وأنّ ألوان الأذى والعذاب
ذخرٌ لنا، نجلوه يوم الحساب
نسقي به الباغين، نروي التراب

من لَفْحه – أنَّ الهوى والشباب

لم يذهبا – أن البعاد اقتراب –

أن من الدفع الذي تسكبين أسلحةً في أذرع الثائرين.

جاء زمانٌ كان فيه البشرْ

يفدون من أبنائهم للحجر:

"يا ربّ عطشى نحن. هات المطر!

روٌ العطاشى منه. روٌ الشَّجَر"

وجاء حينٌ عاد فيه البشر

يفدون بالأنعام ما تَحبس السماء في أعماقها من قدر.

وجاء عصرٌ سار فيه الإله

عريان، يدمى، كي يروّي الحياه.

واليوم ولّى محفلُ الآلهه،

اليوم يفدي ثائر بالدماءْ

الشيب والشبان، يفدي النساء،

يفدي زروع الحقل، يفدي النماء،

يفدي دموع الأيّم الواله.

بالأمس دوّى في ثرى يثرب

صوتٌ قويٌّ من فقيرٍ نبي،

ألوى ببغي الصَّخر. لم يضرب،

وحطّم التيجان. أيُّ انطلاقْ

في مصر، في سوريّةٍ، في العراق،

في أرضك الخضراء. كان انعتاقا

بالأمس وارى قومك الآلهه.

عشتار، أمُّ الخصْب، والحب، والإحسان، تلك الربّة الوالهه

لم تُعط ما أعطيت، لم تُرْوِ بالأمطارِ ما روّيت: قلبَ الفقير،

لم يعرف الحقد الذي يعرفون

والحسَدَ الآكلَ حتى العيون.

نحن بنو الفقر الذي يزعمون

في كل عصر أنهم وارثوه.

قابيل فينا ما تهاوى أخوه

من ضربة الحقد التي يضربون.

يوم ابتدأنا كان عبءُ السماء

ملقىً على أطلسِ،

يزحمه بالمنكب الأملسِ.

ثم ارتقى "إيفل"[1]، تمّ البناء

فانحطّ ذاك العبءُ حيناً عليه،

ثم انطلقنا نحن من جانبيه

حتى حملنا عبئها، كلّ ما فيها من الأبراج والأنجمِ،

يا أختنا المشبوحة الباكيه،

أطرافك الداميه

يقطرن في قلبي ويبكين فيه.

---

[1] برج إيفل في باريس.

لم يلقَ ما تلقين أنت المسيح –
أنت التي تفدين جُرح الجريح
أنت التي تُعطين.. لا قبض ريح،
يا أُختنا، يا أُمَّ أطفالنا
يا سقفَ أعمالنا
يا ذروة تعلو لأبطالنا.
ما حزَّ سوط البغي في ساعديْك
إلا، وفي غيبوبة الأنبياءْ،
أحسست أنّ السوط، أن الدماء،
أنّ الدجى، أن الضحايا.. هباء
من أجل طفل ضاحكته السماء
فرحان في أرضه
وبعضُه فرحانُ من بعضه،
أحسسته يحبو على راحتيْك،
سمعته يضحك في مسمعَيك،
يهتف: "يا جميله
يا أختيَ النبيله،
يا أُختيَ القتيله،
لك الغد الزاهي كما تشتهين"
وأنت إذ أحسست، إذ تسمعين،
تعلو بك الآلام فوق الترابْ

فوق الذرى، فوق انعقاد السحاب،

تعلين حتى محمل الآلهه

كالربّة الواله،

كالسمة التائهه.

لا تسمعيها.. إنّ أصواتنا

تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،

باب علينا، من دمٍ، مقفلُ

ونحن نحصي، ثَمَّ، أمواتنا.

الله لولا أنت يا فاديه

ما أثمرت أغصاننا العاريه

أو زنبقت أشعارنا القافيه.

إنّا هنا.. في هوة داجيه

ما طاف لولا مقلتاك الشعاعْ

يوما بها. نحن العراة الجياع؛

لا تسمعي ما لفّقوا، ما يُذاع،

ما ربّوا، ما خطّ ذاك اليراع.

إنّا هنا كومٌ من الأعظم

لم يبق فينا من مسيل الدمِ

شيء يروّي منه قلب الحياة.

إنّا هنا موتى، حفاة، عراة.

لا تسمعيها، ان أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،
باب عينا، من دمٍ، مقفلْ
ونحن في ظلماتنا نسأل:
"من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟"
يا نفحةً من عالم الآلهه
هبَّت على أقدامنا التائهه،
لا تمسحيها من شواظ الدماء،
إنا سنمضي في طريق الفناء؛
ولترفعي "أوراس" حتى السماء
حتى تروّى من مسيلِ الدماء
أعراقُ كلّ الناس، كلّ الصخور،
حتى نمسّ الله.

حتى نثور!

رسالة من مقبرة

"إلى المجاهدين الجزائريين

من قاع قبري أصيحْ
حتى تئنَّ القبورْ
من رَجع صوتي، وهو رملٌ وريح
من عالمٍ في حفرتي يستريح،
مركومةٌ في جانبيه القصورْ،
وفيه ما في سواه
إلاّ دبيبَ الحياه،
حتى الأغاني فيه، حتى الزُّهور
والشمسُ، إلاّ أنها لا تدور
والدُّود نخّارٌ بها في ضريح.
من عالمٍ في قاع قبري أصيح:
"لا تيأسوا من مولدٍ أو نشور!"
* * *
النور من طينٍ هنا أو زجاجْ،
قُفلٌ على باب سورْ.
النور في قبري دجيٌّ دون نور.
النور في شبّاك داري زجاج،

كم حدّقتْ بي خلفه من عيون

سوداء كالعارِ

يجرحن بالأهداب أسراري

فاليوم داري لم تعدْ داري

والنور في شبّاك داري ظنون

تمتصُّ أغواري.

وعند بابي يصرخ الجائعون:

"في خُبزِكَ اليوميِّ دفءُ الدّماء

فاملأْ لنا، في كل يومٍ، وعاء

من لحمك الحيِّ الذي نشتهيه،

فنكهةُ الشمس فيه

وفيه طعم الهواء!"

وعند بابي يصرخ الأشقياءْ:

"أُعصرْ لنا من مقلتيكَ الضياء

فإننا مُظلمون!"

وعند بابي يصرخ المخبرون:

"وَعرٌ هو المرقى إلى الجلجله [1]،

والصَّخرُ، يا سيزيفُ، ما أثقله.

سيزيف... إنّ الصخرةَ الآخرون!"

لكنَّ أصواتاً كقرع الطبولْ

---

[1] الجلجلة الجبل الذي حمل المسيح صليبه إلى قمته.

تنهل في رمسي
من عالم الشمس
هذي خُطى الأحياء بين الحقول
في جانب القبر الذي نحن فيه.
أصداؤها الخضراء
تنهلُ في داري
أوراقَ أزهارِ
من عالم الشمس الذي نشتهيه.
أصداؤها البيضاء
يصدعن من حولي جليدَ الهواء
أصداؤها الحمراء
تنهلُ في داري
شلالَ أنوارِ،
فالنور في شبّاك داري دماء
ينضَح من حيث التقى، بالصخورْ
في فوهة القبر المغطّاة، سور.
هذا مخاضُ الأرض لا تيأسي؛
بُشراك يا أجداث، حان النشورْ!
بشراك.. في "وهران" أصداءُ صورْ.
سيزيفُ ألقى عنه عبء الدُّهور
واستقبل الشمس على "الأطلس"!
* * *
آهِ لوهرانَ التي لا تثور!

قرأتُ اسمي على صخره
هنا، في وحشة الصحراءْ،
على آجرّةٍ حمراء،
على قبرٍ. فكيف يحسُّ إنسان يرى قبرهْ؟
يراه وإنه ليحارُ فيه:
أحي هو أم ميتٌ؟ فما يكفيه
أنْ يلقى له ظلاً على الرملِ،
كمئذنة مُعفــرةٍ
كمقبــرةْ
كمجد زالْ
كمئذنة تردَّد فوقها اسمُ الله
وخُطَّ اسم له فيها،
وكان محمدٌ نقشاً على آجرَّةَ حصراء
يزهو في أعاليها...
فأمسى تأكل الغبراء
والنيرانُ، من معناه،
ويركله الغزاةَ بلا حذاء
بلا قدمٍ

وتنـــزف منه، دون دمٍ،
جراحٌ دونما ألم –
فقد ماتْ
ومتنا فيه، من موتى ومن أحياء.
فنحن جميعنا أموات
أنا ومحمد والله.
وهذا قبرنا: أنقاض مئذنةٍ معفرةٍ
عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله،
على كسرٍ مبعثرةٍ
على الآجرّ والفخَّارْ.
فيا قبر الإله، على النهار
ظلٌّ لألف حربة وفيلْ
ولونُ أبرهَه
وما عكسته منه يدُ الدليل،
والكعبة المحزونة المشوَّهةْ.
قرأت اسمي على صخره،
على قبرين بينهما مدى أجيالْ
يجعل هذه الحفره
تضمّ اثنين: جد أبي – ومحض رمالْ
ومحضُ نثارة سوداء منه، استنـــزلا قبره –
وإياي، ابنَه في موته والمضغة الصلصال.

* * *

وكان يطوف من حدِّي

مع المدِّ

هتافٌ يملأُ الشطآنَ: يا ودياننا ثوري!

ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالْ

يا إرث الجماهيرِ،

تشظَّ الآن واسحقْ هذه الأغلالْ

وكالزلزال

هُزَّ النيرَ، أو فاسحقْه واسحقْنا مع النيرِ."

وكان إلهنا يختالْ

بين عصائب الأبطال،

من زندٍ إلى زند

ومن بندٍ إلى بند

* * *

إلهُ الكعبة الجبّارْ،

تدرَّعَ أمسِ في ذي قار

بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثارْ.

إله محمد وإله آبائي من العربِ،

تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار،

وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار.

وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحبِ:

جريحاً كان في أحيائنا يمشي ويستجدي،

فلم نضمُدْ له جرحا

ولا ضحًى

له منا بغير الخبز والأنعام من عبْدا

* * *

وأصوات المصلين ارتعاشٌ من مراثيه

إذا سجدوا ينـــزُّ دمُ

فيسرع بالضماد فمُ:

بآياتٍ يغضّ الجرح منها خير ما فيه،

تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحييه

إذا ما هلل الثوار منا: "نحن نفديه!"

* * *

أغار، من الظلام على قرانا

فأحرقهنَّ، سربٌ من جراد

كأن مياه دجلة، حيث ولّى،

تنمّ عليه بالدم والمداد.

أليس هو الذي فجأ الحُبالى

قضاه، فما ولدْنَ سوى رماد؟

وأنعل، بالأهلة في بقايا

مآذنها، سنابك من جواد؟

وجاء الشام يسحب في ثراها

خُطى أسدين جاعا في الفؤاد؟

فأطعم أجوع الأسدين عيسى

وبلّ صداه من ماء العماد

وعضّ نبيَّ مكة... فالصحارى
وكل الشرق ينفرُ للجهادِ؟
* * *
أعاد اليوم، كي يقتصّ من أنـــا دحرناهُ؟
وإن الله باقٍ في قرانا، ما قتلناه؟
ولا من جوعنا يوماً أكلناه؟
ولا بالمال بعناهُ —
كما باعوا
إلَهَهُمُ الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه؟
كما أكلوه إذ جاعوا —
إلَهَهُمُ الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ؟
وفي باريس تتخذ البغايا
وسائدهنّ من ألم المسيحِ
وبات العقمُ يزرع في حشاها
فم التنّين: يشهق بالفحيحِ
ويقذف من حديدٍ في حمانا
جحافل كالفوارس، دون ريحِ
تجدّ وراء مكةَ في الصياصي
أقمناها، ويشرب في السفوحِ
* * *
قرأت اسمي على صخره...
وبين اسمين في الصحراءْ

تنفس عالمُ الأحياء

كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض

ومن آجرّةٍ حمراء ماثلة على حُفره

أضاء ملامح الأرضِ

بلا ومضِ

دمٌ فيها، فسمّاها

لتأخذ منه معناها

لأعرف أنها أرضي

لأعرف أنها بعضي

لأعرف أنها ماضيَّ، لا أحياه لولاها

وأني ميِّت لولاه، أمشي بين موتاها.

أذاك الصاخب المكتظّ بالرايات وادينا؟

أهذا لونُ ماضينا

تضوّأ من كوى "الحمراءْ"

ومن آجرّةٍ خضراء

عليها تكتب اسمَ الله بقيا من دمٍ فينا؟

أنبرٌ من أذان الفجر؟ أم تكبيرة الثوارْ

تعلو من صياصينا...؟

تمخّضت القبور لتنشرَ الموتى ملايينا

وهبّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصارْ:

إن إلهنا فينا

مرثيــة جيكــور

يا صليبَ المسيح ألقاكَ ظلاً فوق "جيكور"[1] طائرٌ من حديد
يا لظلٍّ كظلمة القبر في اللون، وكالقبر في ابتلاع الخدود
والتهامِ العيون من كل عذراء كعذراء "بيت لحم" الولود
مرّ عجلانَ بالقبور العواري من صليبٍ على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلا رمز الهلاك الأبيد:
لا رجاءٌ لها بأن يُبعث الموتى ولا مأمل لها بالخلود!
ويل جيكور؟ أين أيامها الخضرُ ولياليات صيفها المفقود؟
والعشاءُ السخيّ في ليلة العرس وتقبيلة العروس الودود
وانتظارٌ له على الباب؟.

- "محمود، تأخرت يا أبا محمود
ناد محمود!"

ثم يوفي على الجمع بمنديل عرسه المعقود
نقطتْه الدماء يشهدنَ للخدر بعذراء، يا لها من شهود[2]
لا على العقم والرَّدى، بل على الميلاد والبعث والشباب الجديد!
أيّ صوت يصيح: "محمود، محمود تأخرتَ!" كالنواح البعيد؟

---

[1] جيكور، قرية الشاعر في جنوب البصرة.
[2] من التقاليد المتبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس في ليلة العرس منديلا ملطخا بالدماء يشهد على أن العروس عذراء!

أين محمود؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل!

يا أبا محمود

نـاد محمـود. كـاد أن يهتـف الـديكُ ومـا زال جمعنـا في الوصـيد

قـل لـه يُـبرز الـدماءَ فإنـا في انتظـار لهـا وشـوق مبيـد!

ذرَّ نجـمُ الصـباح. محمـود، محمـود، أأقبلـت بالـدم المنشـود؟

أي جـرح ينـزُّ منـه الـدم المـوَّار في بـاب دارِكَ المرصـود؟

إنه منـك! منـك هـذا الـدم الثرّ ومـن جانـب العـروس القديـد!

الصـليبُ، الصـليبُ! إنـا رأينـاه وقـد مـرَّ كالخيـال الشَّـرود،

قـد رأينـاه في الصـباح. وفي الليـل سمعنـا كقعقعـات الرعـود

أهـو هـذا الـذي يريـدون؟ أشـلاءً وأنقـاض منـزل مهـدود؟

أفمـا قامـت الحضـارات في الأرض كعنقـاءَ مـن رمـاد اللحـود؟

لا و لم تُفـرخ العقـولُ علـى المجهـول يسـرْنَ فيـه غـورَ الوجـود!

أو يشـقُّ العُبـابَ قلـعٌ يصـكُّ الـريحَ صـكاً إلى البعيـد البعيـد؟

أو يلـمّ النسـيمَ عقـداً مـن النـور ويـذروه باقـةً مـن ورود

سـاحرٌ فحـَّر المـدى عـن مـدى مـلآنَ بـاللحن مُتـرعٍ بالنشـيد؟

أو تدقَ الأجراس: "يـا أرضُ، يـا بشـراك بالحـبّ والمسـيح الوليـد"؟

لا و لم يُختـم الزجـاج علـى كـل "هِرقِـل"[1] مـن العقـار الأكيـد

يخنـق المـوتَ كلمـا هـمَّ بالنـاس ويجتـاح كاسـرات الأسـود؟

لا ولا قـيس بعـدما لفّـه الليـل مـن الأرض واحتـوى مـن حـدود

الـذي قـاس حافـةَ السـاعة القـوراء في قرصـها ذراعـا حديـد؟

---

[1] هرقل الجبار: خنق الموت ونال الأسود الكاسرة.

أو يفضّ الظلام؟ - إلا لكي تندكّ "جيكور" بالسلاح الجديد؟
كي يراها على اتساع المدى والشأوِ من ليس طرفه بالحديد؟
من وراء المحيط والليل والغابات والبيد والذرى والسدود!
أين من شالِ "جينَ" أطمار "كلثوم"؟ وأن الغضا من الأركيد؟
فيم أسرى صحاب "جين" المغاويرُ على زوج "كلثمَ" المنكود؟
يا رماداً تذرُّه الزعزع الشعثاءُ في مقلة القُمَير الوحيد،
أنت "جيكور" كل جيكور: أحداق العذارى وباسلات الزنود
والرؤوس التي حنا فوقهنَّ الدهرُ ما في رحاه من تنكيد:
صرَّد القمح من نثار لها اللون، ولم تحظَ بالرغيف الوئيد
فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى، لماتها الموؤود!

خورس

شيخ اسمُ الله.. ترللا
قد شابَ ترلّ ترلّ ترارِ ... وما هلاّ

ترلل العيد ترللا
ترللا.. عرّس "حمادي"،
زغردن ترلّ ترلّلاّ
الثوب من الريز.. ترلّلا
والنقشُ صناعةُ بغداد

* * *

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود!

يغني الخورس أغنيتين عراقيتين شعبيتين: (شيخ اسم الله) نبات كالحلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها، وتتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس التي شابت.

قطْب الصمتُ حيث كانت أغانيك، وحيث العبير نتن الصديد
جاء قرن وراح والمدْن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود،
ضاع صوتُ الضعاف فيها وآهات النبيِّين وابتهال الطريد
واستحال الفضاء – من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد –
غير هذا الفضاء: شيئاً لغير الآدميين – ربما للقرود...
ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد!
ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود،
ثمة التمُّ في كرات من النار... فألقى عليك صمت اللحود!
لا عليك السلام يا عصر "تعبانَ بن عيسى" وهنت بين العهود!
ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتلتظي من جديد:
ذلك الكائن الخرافي في جيكور، "هومير"[1] شعبه المكدود
جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط "الرشيد"،
يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام، بالشدق والخيال الوئيد
ما تزالُ "البسوسُ" محمومةَ الخيل لديه، وما خبا من "يزيد"
نار عينين ألقاهما على "الشمْر"[2] ظلالاً مذبَّحات الوريد!
كلما لزّ شمرُه الخيل أو عرّى أبو زيده[3] التحام الجنود
شدّ راحاً وأطلق المغزل الدوَّار يدحوه للمدار الجديد!
وانتهى من حديثه الضخم عن ضخم من الغزل، وانتهى من قعود
نصف عريان يسحب الطرف عن صدر تعرى وعن قميص فقيد

---

[1] هومير الشاعر الإغريقي الأعمى.
[2] الشمر قاتل الحسين، وتصوره القصص مرتديا ثيابا حمر اللون.
[3] أبو زيد الهلالي.

غير بقيا على فمٍ دقّ حتى عن فم العنكبوت، في رأس عود:

مغزلٌ ينقض الذي حاكه النولُ، وجهدٌ أضاع شتى جهود

فهو كدٌّ وليس بالكدّ، أردى قبله اثنين وادعى بالمزيد -

حاضرٌ غير حاضر، منه للماضي فناء وللغد الموعود!

لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود

أنت أيتمت كل روح من الماضي، وسوّدت آلة من حديد

تسكب السم واللظى لا حليب الأم أو رحمةَ الأب المفقود

سُلَّمٌ في الحضيض أعلاه - مرقاه انخفاضٌ وإن بدا كالصعودِ

حدَّقت منه في الورى مقلتا "فوكاي" تستشرقان أيام "هود"

والمسيحَ المبيعَ بخساً بما لو بيع لحماً لناء عن تسديد!

حدّقي حيث شئتِ، يا عين فوكاي المدمّاة، من مداك المديد!

فهي سوق تُباع فيها لحومُ الآدميين دون سلخ الجلود:

كلُّ أفريقيا وآسيةَ السمراء، ما بين زنجها والهنود

واشترى لحم كلّ من نطق الضاد تجارٌ تبيعه لليهود!

هكذا قد أسفَّ من نفسه الإنسان وانهار كانهيار العمود

فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود!

والذي حارت البرية فيه[1] بالتأويل، كائنٌ ذو نقود!

---

[1] قال المعري: والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد.

نابُ الخنـــزير يشقّ يدي

ويغوص لظاه إلى كبدي،

ودمي يتدفّق، ينسابُ:

لم يغدُ شقائقَ أو قمحا

لكنْ ملحا.

"عشتار" ... وتخفقُ أثوابُ

وترفّ حياليَ أعشابُ

من نعْلٍ يخفق كالبرق

كالبرق الخلْبِ ينسابُ.

لو يومض في عِرْقي

نورٌ، فيضيء ليَ الدنيا!

لو أنهض، لو أحيا!

لو أُسقى! آهٍ لو أسقي!

لو أنّ عروقيَ أعنابُ!

وتقبِّل ثغري عشتارُ،

فكأنّ على فمها ظُلمةْ

تنثال عليَّ وتنطبقُ،

فيموت بعينيَّ الألق

أنا والعَتَمـــه...

* * *

جيكورُ... ستولدُ جيكورُ:

النّور سيُورق والنُّورُ.

جيكور ستولد من جُرْحي،

من غصَّة موتي، من ناري؛

سيفيض البَيْدر بالقمحِ،

والجرْن سيضحك للصبحِ،

والقريةُ داراً عن دارِ

تتماوج أنغاماً حلوَه،

والشيخ ينامُ على الربوه؟

والنخل يوسوس أسراري.

جيكور ستولد... لكنّي

لن أخرجَ فيها من سجْني

في ليل الطين الممدود

لن ينبض قلبي كاللحْنِ

في الأوتارِ،

لن يخفقَ فيه سوى الدود.

* * *

هيهات.. أتولد جيكورُ

إلا من خضة ميلادي؟

هيهات.. أينبثقُ النورُ
ودمائي تُظلم في الوادي؟
أيسَقْسقُ فيها عصفورُ
ولساني كومةُ أعواد؟
والحقل، متى يلد القمحا
والوردَ، وجُرحي مغفورُ
وعظامي ناضحةٌ ملحا؟
لا شيء سوى العدم العدمِ،
والموتُ هو الموتُ الباقي.
يا ليلُ أظلِّ مسيلَ دمي
ولتغدُ تُراباً أعراقي؟
هيهات.. أتولد جيكور
من حقد الخنـــزير المتدثّر بالليل
والقُبْلة بُرعمةُ القَتلِ
والغيمةُ رملٌ منثورُ
يا جيكور؟

وتلتفُّ حولي دروب المدينه:

حبالاً من الطين يمضغن قلبي

ويعطين، عن جمرةٍ فيه، طينهْ،

حبالاً من النار يجلدْن عُريَ الحقول الحزينه

ويُحْرقن جيكور في قاع روحي

ويزرعن فيها رماد الضغينهْ.

دروبٌ تقول الأساطير عنها

على مَوْقدٍ نام: ما عاد منها

ولا عاد من ضفّة الموت سارٍ،

كأن الصدى والسكينهْ

جناحا أبي الهول فيها، جناحان من صخرةٍ في ثراها دفينه.

فمن يفجُر الماء منها عيوناً لتُبنى قرانا عليها؟

ومن يرجع الله يوماً إليها؟

* * *

وفي ليل، فردَوْسها المستعاد،

إذا عرَّش الصخرُ فيها غصونه

ورصَّ المصابيحَ تُفاحَ نارٍ

ومدّ الحوانيتَ أوراقَ تينه،

فمن يُشعل الحبَّ في كل درب وفي كلِّ مقهى وفي كل دار؟
ومن يُرجع المخلبَ الآدميَّ يداً يمسح الطفلُ فيها جبينه؟
وتخضلُّ من لمسها، ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟
وبين الضُّحى وانتصاف النهار:
إذا سبّحت باسم ربِّ المدينه
- بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب الصغار -
رحى معدنٍ في أكُفِّ التجار
لها ما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار،
فمن يسمع الروحَ؟ من يبسط الظلَّ في لافحٍ من هجير النضار؟
ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيحُ السفينه؟
وجيكور، من غلّق الدور فيها - وجاء ابنها يطرق
البابَ - دونه؟
ومن حوَّل الدرب عنها... فمن حيث دارَ اشرأبت إليه المدينه؟
وجيكور خضراءُ مسَّ الأصيل ذرى النخل فيها
بشمس حزينه.
يمدُّ الكرى لي طريقاً إليها:
من القلب يمتدُّ، عبرَ الدهاليز عبر الدجى والقلاع الحصينه...
وقد نام في بابلَ الراقصون
ونام الحديدُ الذي يشحذونهْ،
وغشّى، على أعين الخازنين، لهاثُ النُّضار الذي يحرسونه:
حصادَ المجاعات في جنتيها.

رحىً من لظى مرَّ دربي عليها،

وكرْمٌ، عساليجُه العاقراتُ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينه،

شرايينُ في كل دارٍ وسجنٍ ومقهى

وسجنٍ وبارٍ وفي كل ملهى

وفي كل مستشفيات المجانين...

في كل مبغىً لعشتار...

يُطلعنَ أزهارَهنَّ الهجينه:

مصابيحَ لم يُسرج الزيتُ فيها وتمسسْه نار

وفي كل مقهى وسجن ومبغى ودار:

"دمي ذلك الماء، هل تشربونه؟

ولحمي هو الخبز، لو تأكلونه!"

وتموز تبكيه لاةُ الحزينه.

* * *

تَرفع بالنواح صوتها مع السَّحَرْ

ترفع بالنواح صوتها، كما تنهَّد الشجر

تقول: "يا قطار، يا قدَرْ

قتلتَ - إذ قتلته - الربيع والمطرْ"

وتنشر (الزمان) و (الحوادثُ) الخبرْ[1]

ولاةُ تستغيث بالمضمّد، الحُفرْ

أن يُرجِع ابنها: يديه، مقلتيه، أيّما أثرْ!

---

[1] واضح ان "الزمان" و "الحوادث" جريدتان.

وترسل النواح: يا سنابل القمر

دم ابنيَ الزجاجُ في عروقه انفجر..

فكهرباءُ دارنا أصابت الحجَرْ

وصكَّه الجدارُ، خضّه، رماه لمحةَ البصرْ

أراد أن يُنير، أن يبدِّد الظلامَ... فاندحر"

وتُرسل النواحَ...

ثم يصمت الوَتَرْ.

* * *

وجيكور خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها

بشمسٍ حزينه.

ودربي إليها كومض البروق،

بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنارَ المدينه

وعرَّى يدي من وراء الضّماد كأن الجراحات فيها حروق.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

فمن يخرق السورَ؟ من يفتح البابَ؟ يدمي على كل قفل يمينه؟

ويُمناي: لا مخلبٌ للصراع فاسعى بها في دروب المدينه

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين...

لكنها محضُ طينه.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

على جواد الحُلُم الأشهبِ
أسريتُ عَبرَ التلالْ
أهرب منها، من ذُراها الطوال،
من سوقها المكتظّ بالبائعين،
من صبحها المتعَبِ
من ليلها النّابح والعابرين،
من نورها الغَيهب،
من ربها المغسول بالخمرِ،
من عارها المخبوء بالزهرِ،
من موتها الساري على النهرِ[1]
يمشي على أمواجه الغافيه.
أوّاه لو يستيقظ الماء فيهْ،
لو كانت العذراء من وارديه،
لو أن شمس المغرب الداميه
تبتلُّ في شطّيه أو تُشرقُ،
لو أن أغصان الدُّجى تورقُ
أو يُوصَدُ الماخور عن داخليه.

[1] كان المسيح، في عهده هو الذي مشى على الماء.

* * *

على جواد الحُلْم الأشهب
وتحت شمس المشرق الأخضرِ
في صيف جيكور السخيِّ الثري
بين الندى والزهر والماءِ
أبحث في الآفاق عن كوكبِ
عن مولد للروح تحت السماءْ
عن منبعٍ يروي لهيب الظماء
عن منـــزلٍ للسائح المُتْعب.

* * *

جيكور، جيكور: أين الخبزُ والماءُ؟
الليل وافٍ وقد نام الأدلاَّءُ؟
والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ
والريح صرٌّ، وكل الأفق أصداءُ.
بيداءُ ما في مداها ما يبين به
دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ
جيكور مدّي لنا باباً فندخلَه
أو سامرينا بنجم فيه أضواءُ!

* * *

من الذي يسمع أشعاري؟
فإن صمْتَ الموت في داري

---

[1] وبزغ كوكب عرف منه المجوس ان المخلص قد ولد.

والليلَ في ناري.

من الذي يحمل عبء الصليبْ

في ذلك الليل الطويل الرهيب؟

من الذي يبكي ومن يستجيب

للجائع العاري؟

من يُنـــزل المصلوبَ عن لَوحه؟

من يطرد العقبان عن جرحه؟

من يرفع الظلماء عن صبحه؟

ويُبدل الأشواكَ بالغارِ[1]؟

أواه يا جيكور لو تسمعينْ!

أواه يا جيكور... لو توجَدين!

لو تنجبين الروح، لو تُجهضين

كي يُبصر الساري

نجماً يضيء الليلَ للتائهين.

* * *

نَزْعٌ ولا مَوْتُ،

نُطْقٌ ولا صوتُ،

طَلْقٌ ولا ميلاد.

من يصلب الشاعرَ في بغداد؟

من يشتري كفَّيه أو مُقْلتيه؟

من يجعل الإكليلَ شَوْكاً عليه؟

---

[1] وألبسوا المسيح تاجا من الشوك... سخرية به.

جيكور يا جيكورْ

شدَّت خيوطُ النور

أرجوحةَ الصُّبحِ.

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي.

* * *

هذا طعامي أيُّها الجائعون

هذي دموعي أيها البائسون

هذا دعائي أيها العابدون:

أن يقذف البركانُ نيرانَهُ،

أن يُرسل الفراتُ طوفانَهُ،

كي نشرق الظُّلْمَه،

كي نعرف الرحمه؛

جيكور يا جيكور

شدّت خيوط النور

أرجوحة الصبحِ

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي!

* * *

هذا حرائي[1] حاكت العنكبوتْ

---

[1] حراء، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد. حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ – والمشركون جادون في أثره – في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجورا ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد.

خيطاً إلى بابه
يهدي إليّ الناس ، إني أموت
والنور في غابه
يُلقي دنانير الزمان البخيلْ
من شرفة في سعفات النخيل.
جيكور، يا جيكور: خلٌّ وماءْ
ينساب من قلبي،
من جُرحيَ الواري،
من كل أغواري.
أوّاه يا شعبي...
جيكور، يا جيكور هل تسمعين؟
فلْتفتح الأبواب للفاتحين
ولتجمعي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية. هذا العشاءْ.
هذا حصاد السنين:
الماء خمرٌ، والخوابي غذاء[1]
هذا ربيع الوباء.

* * *

أقوى من الأسوار هذا الجوادْ
"أقوى جوادُ الحُلُمِ الأشهبُ"
لانَ الحديدُ المغتذي بالحداد

---

[1] وأحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون.

وانخذل الموكبُ.

جيكور، ماضيك عاد.

هذا صياحُ الديك: ذاب الرقاد

وعدتُ من معراجي الأكبرِ:

الشمس أمُّ السنبل الأخضرِ

خلف المباني، رغيفٌ.

لكنها في الرصيف

أغلى من الجوهرِ.

والحُبُّ: "هل تسمعين

هذا الهتافَ العنيف؟

ماذا علينا؟ إن عبد اللطيف[1]

يدري بأنّا... ما الذي تحذرين؟

وانخطفتْ روحي، وصاح القطارْ

ورقرقت في مقلتيَّ الدموعْ

سحابةً تحملني، ثم سار.

يا شمس أيامي، أما من رجوع؟

جيكور، نامي في ظلام السنين.

---

[1] اقرأ مذكراتي "كنت شيوعياً" المنشورة في جريدة الحرية العراقية.

حطّت الرؤيا على عينيَّ صقراً من لهيبْ:
إنّها تنقضّ، تجتثُّ السواد
تقطع الأعصاب تمتص القذى من كل
جفنٍ، فالمغيبْ
عاد منها توأماً للصبح – أنهار المدادْ
ليس تطفي غُلّة الرؤيا: صحارى من نحيب
من جحورٍ تلفظ الأشلاء، هل جاء المعادْ؟
أهْو بعثٌ، أهْو موتٌ، أهْي نار أم رماد؟
أيها الصّقر الإلهيّ الغريبْ
أيها المنقضُّ من أولمبَ في صمت المساءْ
رافعاً روحي لأطباق السماء
رافعاً روحي – غنيميدا[1] جريحا،
صالباً عينيّ – تموزاً، مسيحا،
أيها الصقر الإلهيّ ترفّقْ
إن روحي تتمزّق،
إنما عادت هشيماً يوم أن أمسيت ريحا.

---

[1] غنيميد راع يوناني شاب وقع زيوس كبير آلهة الأولمب الإغريقي في حبه، فارسل صقرا اختطفه وطار به إليه.

في غيمة الرؤيا

يوم بلا ميعاد

جنكيز هل يحيا

جنكيز في بغداد؟

عينٌ بلا أجفانْ

ممتدٌ من روحي

شدقٌ بلا أسنانْ

ينداح في الريحِ

يعوي: أنا الإنسانْ.

* * *

يا جواداً راكضاً يعدو على جسمي الطريح

يا جواداً ساحقاً عينيّ بالصخر السنابك

رابطاً بالأربع الأرجل قلبي

فإذا بالنبض نقرٌ للدرابكْ

وإذا بالنار دربي.

سحَّت الرؤيا ضياء من لظاها

صابغاً ما تبصر العين القريحْ

مازجاً بالشيء ظلّهْ

خالطاً فيها يهوذا بالمسيح،

مدخلاً في اليوم ليله

بانياً في عروة المهد الضَّريح

الدماء

الدماء

الدماء

وحّدت بالمجرمين الأبرياء،

نصبت في شدّقيي الذئبة كرْسيًّ القضاء،

ماذا جنى شعبي؟

حلت به اللعنهْ

من زاده المحنه،

رحماك يا ربي.

من مائه الديدانْ

من لبسه الأكفان

من طيره الغربانْ

ينقرن في قلبي.

واليوم في بيدري

لم يبقَ من حبي

شيءٌ – هنا حبــّتان

فأمطري أمطري

وإن يكن نيرانْ.

وأمري أمري

وإن يكن ثعبان.

* * *

ما الذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال؟
منجلٌ يجتثّ أعراق الدوالي
قاطعاً أعراق تموز الدفينه.
وعلى القنّب أشلاءٌ حزينهْ:
رأس طفلٍ سابح في دمه
نهد أُمٍ تنقر الديدان فيه، في سكينه،
أي آهٍ من دمٍ في فمه؟
ما الذي ينطف من حلمته، من لحمه؟
يا حبال القنبِ التفّي كحيّات السعيرِ
واخنقي روحي وخلّي الطفل والأم الحزينه؟
يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبيرِ
- جفنة قد هيّأوها للوليمهْ -
يا حبالاً تسحب الأحياء - من شيخٍ كبيرٍ؛
من فتاةٍ أو عجوزٍ، من ضلوعٍ حطموها
علّقت فيها تميمه،
من صدورٍ مزّقوها،
زرعوا فيها بذوراً من رصاصٍ، من حديد.
ما الذي تثمر هاتيك البذور
غير أحجار القبور؟
غير تفاح الصديدْ؟

* * *

تموز هذا، أتيس

هذا، وهذا الربيع.

يا خبزنا يا أتيس،

أنبتْ لنا الحب وأحيِ اليبيس.

إلتأم الحفل وجاء الجميع

يقدّمون النذورْ،

يحيون كل الطقوسْ

ويبذرون البذورْ

سيقان كل الشجرْ

ضارعة، والنفوس

عطشى تريد المطر

شدّوا على كل ساق

يا ربّ، تمثالكْ

فلتسقِ كل العراقْ

فلتسقِ فلاحيك، عمالك

شدّوا على كل ساق

أواه، ما شدّوا؟

أوّاه،ما سمّروا؟

أغصان زيتوننا أثقلها الوردُ

---

[1] أتيس يقابل تموز الإله البابلي عند سكان آسيا الصغرى القدماء. يحتفل بعيده في الربيع، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة. وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قربانا دلالة الخصب.

وردِ الدم، الأحمرِ.

شدوا على كل ساقْ

يا ربِ تمثالكْ

فاسمعْ صلاة الرفاق

ولترع فلاحيك، عمالك

تمثالك البعلُ

تمثالك الطفل

تمثالك العذراءْ

تمثالك الجانون والأبرياء

تمثالك الأمّ الشماليه،

لأنها ليست شيوعيه

يُقطع نهداها

تُسمل عيناها،

تُصلب صلباً فوق زيتونه،

تهزها الريح الجنوبيهْ.

تمثالك الآلاف، مجنونه

من رعبها، تمثالك الأحمرُ

كأنه الشقيق إذ يُزهرُ

* * *

عشتار[٢] على ساق الشَّجره

---

[١] في الأساطير البابلية أن دم تموز القتيل أصبح شقائق.

[٢] إلهة الخصب والحب عند البابليين وهي حبيبة تموز.

صلبوها، دقّوا مسمارا

في بيت الميلاد – الرَّحِمِ.

عشتار بحفصةَ[1] مستتره

تدعى لتسوق الأمطارا

تدعى لتُساقَ إلى العدمِ.

عشتار العذراء الشقراء مسيل دمِ

صلّوا... هذا طقسُ المطرِ

صلّوا... هذا عصر الحجر

صلّوا، بل أصلوها نارا.

تموز تجسَّد مسمارا

من حفصةَ يخرج والشجره.

النهد الأعذَرُ فاض ليطعم كل فمِ

خبزَ الألمِ.

"الأُقةُ"، صاح القصّابُ،

"من هذا اللحم بفلسينِ"،

إقطعْ من لحم النهدينِ

اللحمُ لنا، والأثوابُ –

ستكون لمسح السكّينه

من آثار دم الأطفال

من آثار دم المسكينه

---

[1] حفصة إحدى شهيدات مذبحة الموصل.

فلتحي زنود العمال.

في قلبي دمدم زلزالُ

فجنائن بابل تندثرُ،

في قلبي يصرخ أطفالُ،

في قلبي يختنق القمر.

الظلمة تعبس في قلبي

والجو رصاص

والريح تهبُّ على شعبي

والريح رصاص

أواه لقد هجم التتر

فالصبح رصاص

والليل رصاص.

* * *

الرؤيا تلمح كالقلعِ

في بحر يُزبد غضبانا،

طوراً للأغوار وأحيانا

يعلو فنراه، وفي سمعي

أصداء تصمت أو تعلو،

وبياني يغمض أو يجلو:

* * *

أي حشد من وجوهٍ كالحات،

من أكفٍّ كالتراب

بتها الآجرّ والفولاذ كالأرض اليباب؟

أي حشدٍ من ذئاب؟

يطعمون الجو ريح المعملِ؟

أي نعشٍ، أي شكوى، أي دمعٍ من نساء ثاكلات؟

أي جمعٍ من عذارى نادبات

أي موتٍ مثكلِ

يا لعشتاراتِنا يبكينَ تموز القتيل.

* * *

ألعازَرُ قام من النعشِ —

شخنوب[1] العازر قد بعثا

حيّاً يتقافز أو يمشي.

كم ظلَّ هناكَ وكم مكثا.

أترى عاماً أم عامين؟

أم دامت ميتته ساعه؟

شخنوب العامل، من راعه؟

فتنكر للدينارين

وتواثب يركض مذعورا؟

---

[1] العازر الميت الذي أحياه المسيح من قبره. وشخنوب هو عامل السمنت الذي استأجره الفوضويون، فتظاهر بالموت وحملوه في النعش تشهيرا بالجيش "الذي يقتل العمال" كما قالوا، ثم قام ماشيا حين سقط النعش.

الموت الزائف خاتمةٌ

لحياة زائفة مثلهْ،

والبعث الزائف عاقبةٌ

للموت الزائف من قبلهْ.

* * *

ولفَّني الظلام في المساءْ

فامتصت الدماء

صحراءُ نومي تُنبت الزهَرْ؛

فإنما الدماء

توائم المطر.

أنا أيها الطاغوت مقتحم الرِّتاج على الغيوبْ
أبصرت يومك وهو يأزف

هذه سحب الغروب

يتوهّج الدم في حفافيها وتنثر في الدروب
شفقَ البنفسج والورود ولونَ أردية الضحايا
فتشعّ أعمدةٌ عوابسُ، والرصيف من الصبايا
والنسوةِ المتهامسات كحقل قمح، والسطوح
كأن بابل أودعتها من جنائنها بقايا
لو أن غرساً كان من بشر، وأسمع من يصيح
"هوذا يساق إلى الحساب" كأن أعراق المغيب
قُطعت فصاح، كأن صوتاً من لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم – هواه   -!

* * *

إني شهدت سواك ينسفه اختناقٌ للصدورِ
بغيظها، وسمعت قفقفة الضحايا في القبورِ
ودمَ الحوامل وهو تشربه الأجنَّة في دجاها
فسمعت وقع خطاك خائرةً تجر إلى السعيرِ

حطام جسمك، والسعير مدى تراها
تحتز من قصبات صدرك ثأرَ كل دم العصور؛
إني أكلت مع الضحايا في صحاف من دماء،
وشربت ما ترك الفم المسلول منه عاى الوعاء،
وشممتُ ما سلخ الجُذام من الجلود على ردائي
ونشقت ماء جوارب السجناء في نفَس الهواء
فشممت فيه دخان دارك واحتراقَ بنيك فيها
وشواء لحم بنيك، لو لا أن شيمة محرقيها
ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء
إني شببت مع الجياع، مع الملايين الفقيره
فعرفت أسراراً كثيره:
كل اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء:
إغضاءة المقل الضريرهْ
يتطلع الدم في ظلام جفونهنّ إلى الضياء،
والحاملات نذورَهن إلى قبور الأولياء
ألموقدات شموعَهنّ تلقّ ألسنها الكثيره
كسَرَ الرغيف ويعتصرن د. الثديٍّ إلى الدماء
وتأوُّه المستنقعات وزفة البرديٍّ فيها
وطنين أجنحة البعوض كأن غرقى ساكنيها
يتنفسون من القرار ويضرعون إلى السماء
أن ينجو الأطفالُ من غرق وحمّى في الهواء

وملالة الأكواخ تشرب كل أمطار الشتاء

حتى تغصَّ بها فللقصب النقيع بكل ماء

شهقات محتضَرٍ يُغرّ وإن تقيأ بالدواء،

وتنهد الأشجار عطشى يابساتٍ في الظهيره

تتكسر الورقات فيها والمناقير الصغيره،

فكأن مقبرة الهجيره

تمتصُّ من رحم الحياة لتسقي الموتى عصيره.

* * *

أنا قارئ الدم لا تراه وأنت أنت المستبيحُ،

أفلست تجرؤ أن تحدِّق فيه علك تستريحُ

من ازدياد دمٍ تُذرّ على جفونك منه نار

لزجٍ يسلُّ مع الرقاد كأن بؤبؤك الذبيح

قابيل حدَّق في دماء أخيه أمسِ.

وأنت يأخذك الدوار

من رؤية الدم وهو ينـــزف ثم يركد فالغبار

من تحته كفم الرضيع له اختلاج وافترار

أتخاف أن تطأ النبوءةُ مقلتيك "هو الدمار"

أتخاف منها أن تفرّ كأن سرب قطا يثارُ

فأنت من هلع تخضّ إلى المشاش "هو الدمار"

إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمصّ مائي

وعرفت ما قلق الطريد يكاد كل فم ورائي

يعوي بـــ "ها هوذا" وتوشك كل عين ألتقيها

أن يومض اسمي في قرارتها وجهلي بالدروب

ولست أسأل عابريها عن بعيد عن قريب

من منتهاها واكتئابي والحنين مع الغروب

وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها

وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مُستريب

ألاّ تشدَّ يدٌ على كتفي، وأُوشك أن أراها.

أعرفتَ ذاك؟ فسوف تعرف منه دنيا في مداها

تصطفّ أعمدةٌ عوابسُ ثم تسمع من يصيحُ

"هوذا يساق إلى الحساب" كأنما اطَّرحت رداها

جثثُ القبور، كأن صوتاً من لظى حملته ريح

من كل أودية الجحيم: هوا...ه!

كم يُمضُّ الفؤادَ أن يُصبح الإنسان صيّداً لرميةِ الصــيّاد؟

مثل أيّ الظّباء، أيّ العصافير، ضعيفا

قابعاً في ارتعادة الخوف، يختضُّ ارتياعاً، لأنْ ظــلاً مخيفــا

يرتمي ثمّ يرتمي في اتّئاد.

ثعلبُ الموت، فارسُ الموت، عزرائيــل يــدنو ويشــحذ

النّصْلَ. آه

منه آه، يصكُّ أسنانه الجوعى ويرنو مهــدِّداً. يــا إلهــي

ليت أنّ الحياة كانت فناء

قبل هذا الفناءِ، هذي النهايهْ،

ليت هذا الختامَ كان ابتداء.

واعذاباه، إذ ترى أعْيُنُ الأطفالِ هذا المهــدِّدَ المســتبيحا،

صابغاً بالدماء كفّيْه، في عينيْه نــارٌ وبــين فكّيْــه نــارُ.

كم تلوَّتْ أكفُّهم واستجاروا،

وهو يدنو... كأنّه احتث ريحا،

مستبيحا،

مستبيحاً، مهدِّداً، مستبيحا.

مَنْ رآها، دجاجةَ الريف، إذ يُمسي عليها المساءُ في بستانهْ؟

حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفرّاس، يا للصريف من أســنانه!
وهي تختضُّ، شلّها الرعبُ، أبقاها بحيثُ الردى –
كأنَّ الدروبَ
... استلّها ماردٌ، كأنَّ النيوبا
سورُ بغداد موصد الباب، لا منجى لديه ولا خلاصٌ يُنال.
هكذا نحن، حينما يُقبل الصيّادُ عزريل:
رجفةٌ فاغتيــالُ.

بغداد[1]؟ مبغىً كبيرْ

(لواحظ المغنِّيه

كساعةٍ تتكُّ في الجدارْ

في غرفة الجلوس في محطّة القطارْ)

يا جثةً على الثرى مستلقيَهْ

الدود فيها موجةٌ من اللهيب والحريرْ.

* * *

بغداد كابوسٌ: (ردىً فاسدُ

يجرعه الراقدُ

ساعاته الأيام، أيّامه الأعوام، والعام نيرْ:

العامُ جرْحٌ ناغرٌ في الضمير)

* * *

عيون المها بين الرصافة والجسْرِ

ثقوب رَصاصٍ رقّشتْ صفحة البدرِ؛

ويسكب البدر على بغداد

من ثُقْبي العينين شلاّلاً من الرمادْ:

الدور دارٌ واحده،

---

[1] كتبت في العهد البائد قبل ثورة سنة ١٩٥٨.

وتُعصر الدروب، كالخيوط، كلُّها

في قبضة مارده

تَمطُّها، تشلُّها،

تُحيلها درْباً إلى الهجيرْ.

وأوجه الحسان كلُّهنَّ وجه "ناهده"

(حبيبتي التي لُعابها عَسَلْ،

صغيرتي التي أردافُها جبل

وصدرُها قُلل.)

* * *

ونحن في بغداد؟ من طينِ

يعجنه الخزّافُ تمثالا،

دنيا كأحلام المجانينِ

ونحن ألوانٌ على لجِّها المرتجِّ أشلاءً وأوصالا

* * *

بالأمس كان العيد، عيد الزهورْ:

الزادُ تحنوه الربى، والخمور،

والرقص، والأغنيات

والحب، والكركرات.

ثم انتهى إلا بقايا طيور

تلتقط الحَبَّ، وإلاّ دماء

ممّا نماه الحقلُ – طيرٌ وشاء –

وغير أطفال يطوفون أُور:

- "العيدُ، من قال انتهى عيدُنا؟

فلتملأْ الدنيا أناشيدُنا

فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور..

بالأمس كان العيد، عيد الزهور،

واليوم؟ ما نفعلُ؟

نزرعُ أم نقتلُ؟

* * *

أهذه بغـــداد؟

أم أن عاموره

عادتْ فكان المعادْ

موتاً؟ ولكني في رنّة الأصفادْ

أحسستُ.. ماذا؟ صوتَ ناعوره

أم صيحةَ النُسْغ الذي في الجذورْ؟

بُوَيب...

بُوَيبْ...

أجراسُ بُرجٍ ضاع في قرارة البَحَرْ.

الماء في الجرار، والغروبُ في الشَّجَر

وتنضحُ الجرارُ أجراساً من المطرْ

بلُّورُها يذوب في أنينْ

"بُوَيبُ... يا بُوَيبْ!"،

فيَدْلَهِمُّ في دمي حنينْ

إليْكَ يا بُوَيْب،

يا نهري الحزينَ كالمطرْ.

أودُّ لو عدوْتُ في الظلامْ

أشدُّ قبْضتيَّ تحملان شوْقَ عام

في كلِّ إصبَعٍ، كأني أحملُ النذورْ

إليكَ، من قمحٍ ومن زهور.

أودُّ لو أُطلُّ من أسرّةِ التلال

لألمحَ القَمَرْ

يخوض بينَ ضفتيكَ، يزرع الظلالْ

ويملأ السِّلال

بالماء والأسماك والزَّهرْ.

أودُّ لو أخوض فيكَ، أتبعُ القمرْ

وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرار

صليلَ آلافِ العصافير على الشجر.

أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نَهَرْ؟

والسَّمكُ الساهرُ، هل ينام في السَّحَرْ؟

وهذه النجومُ، هل تظلُّ في انتظارْ.

تُطْعمُ بالحرير آلافاً من الإبَرْ؟

وأنتَ يا بُوَيب...

أودُّ لو غرقتُ فيك، ألقِطُ المحارْ

أشيدُ منه دارْ

يُضيءُ فيها خُضْرةَ المياه والشَّجرْ

ما تنضحُ النجومُ والقمر،

وأغتدي فيكَ مع الجَزْرِ إلى البحَرْ!

فالموت عالَمٌ غريبٌ يفتنُ الصِّغار،

وبابُه الخفيُّ كان فيكَ، يا بُويبْ...

* * *

بوَيبُ... يا بُويبْ،

عشرون قد مضيْن، كالدُّهور كلُّ عام.

واليوم، حين يُطبقُ الظلامْ

وأستقرُّ في السرير دون أن أنام
وأُرهفُ الضميرَ: دوحةً إلى السَّحَرْ
مرهفة الغصونِ والطيور والثمرْ —
أُحسُّ بالدِّماء والدموع، كالمطرْ
ينضَحُهُنَّ العالَمُ الحزينْ:
أجراس موتى في عروقي تُرعشُ الرنينْ،
فيدلهمُّ في دمي حنين
إلى رصاصةٍ يشق ثلجُها الزُّؤامْ
أعماقَ صدري، كالجحيم يُشعِلُ العظام.
أودُّ لو عدوتُ أعضد المكافحين
أشدُّ قبضتيَّ ثم اصفعُ القدَرْ.
أودُّ لو غرقتُ في دمي إلى القرار،
لأحملَ العبْءَ مع البشرْ
وأبعث الحياة. إنَّ موتي انتصار!

بعدما أنزلوني، سمعتُ الرياحْ

في نواحٍ طويلٍ تسفُّ النخيلْ،

والخطى وهي تنأى. إذن فالجراحْ

والصليبُ الذي سمّروني عليه طوال الأصيلْ

لم تُمتْني. وأنصتُّ: كان العويلْ

يعبر السهلَ بيني وبين المدينه

مثل حبل يشدّ السفينه

وهي تهوي إلى القاع. كان النواح

مثل خيط من النور بين الصباح

والدجى، في سماء الشتاء الحزينهْ.

ثم تغفو، على ما تُحسُّ، المدينه.

* * *

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالْ،

حين تمتدُّ "جَيْكورُ" حتى حدود الخيال،

حين تخضرُّ عشباً يغنّي شذاها

والشموس التي أرضعتها سناها،

حين يخضرُّ حتى دجاها،

يلمس الدفءُ قلبي، فيجري دمي في ثراها.

قلبي الشمسُ إذْ تنبضُ الشمس نورا،

قلبيَ الأرض، تنبض قمحاً، وزهراً، وماءً نميرا،

قلبيَ الماءُ، قلبي هو السنبلُ

مَوته البعثُ: يَحيا بمن يأكلُ.

في العجين الذي يستدير

ويُدحى كنهدٍ صغيرٍ، كثدي الحياه،

متُّ بالنار: أحرقت ظلماء طيني، فظلَّ الإله.

كنتُ بدءاً وفي البدء كان الفقيرْ.

متُّ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسمِ،

كم حياةٍ سأحيا: ففي كل حفره

صرتُ مستقبلاً، صرت بذرهْ،

صرتُ جيلاً من الناس: في كل قلبٍ دمي

قطرةٌ منه أو بعض قطره.

* * *

هكذا عدتُ، فاصفرَّ لما رآني يهوذا...

فقد كنت سِرَّهْ.

كانَ ظلاً، قد اسودَّ، منّي، وتمثال فكرهْ

جُمّدتْ فيه واستُلّت الروحُ منها،

خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...

(عيناه صخره

راح فيها يُواري عن الناس قَبرَه)

خاف من دفئها، من محالٍ عليه، فخبَّر عنها.

- "أنتَ! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفضَّ نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى! هو الموتُ مرَّه.

هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا فهل كان زورا؟"

ذاك ما ظنَّ لما رآني، وقالته نظرهْ.

* * *

قدمٌ تعدو، قدمٌ، قدمُ

القبر يكاد بوقْع خطاها ينهدمُ.

أترى جاءوا؟ من غيرهُمُ؟

قدمٌ... قدمٌ.. قدمُ

ألقيتُ الصخر على صدري،

أو ما صلبوني أمسِ؟.. فها أنا في قبري.

فليأتوا — إني في قبري.

من يدري أني..؟ مَن يدري؟؟

ورفاق يهوذا؟! من سيصدِّق ما زعموا؟

قدَمٌ... قدمُ.

ها أنا الآن عريانُ في قبريَ المظلمِ:

كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ، كالبرْعم،

تحت أكفاني الثلجِ، يخضلُّ زهرُ الدمِ،

كنتُ كالظلِّ بين الدجى والنهارْ —

ثم فجَّرتُ نفسي كنوزاً فعرَّيتها كالثمار.

حين فصَّلْتُ جيبي قماطاً وكمّي دثار،

حين دفّأتُ يوماً بلحمي عظامَ الصغار،

حين عرَّيتُ جرحي، وضمّدتُ جرحاً سواه،

حُطِّمَ السورُ بيني وبين الإلهْ.

* * *

فاجأ الجندُ حتى جراحي ودقات قلبي

فاجأوا كلَّ ما ليس موتاً وإن كان في مقبرهْ

فاجأوني كما فاجأ النخلةَ المثمرهْ

سربُ جَوْعى من الطير في قريةٍ مقفره.

* * *

أعينُ البندقيات يأكلْنَ دربي،

شُرَّعٌ تحلم النارُ فيها بصلبي،

إن تكن من حديدٍ ونارٍ، فأحداقُ شعبي

من ضياء السماوات، من ذكرياتٍ وحُبٍّ
تحمل العبء عني فيندى صليبي، فما أصغرهْ
ذلك الموتُ، موتي، وما أكبرهْ!

* * *

بعد أن سمَّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينه
كدتُ لا أعرف السهلَ والسور والمقبره:
كان شيءٌ، مدى ما ترى العينُ،
كالغابة المزْهره،
كان، في كلِّ مرمى، صليبٌ وأمٌّ حزينه.
قُدِّس الربُّ!
هذا مخاضُ المدينه.

جوعانُ في القبر بلا غذاءْ

عُريان في الثلج بلا رداء

صرختُ في الشتاء:

أقضّ يا مطرْ

مضاجعَ العظام والثلوج والهباءْ،

مضاجعَ الحَجَرْ،

وأنبت البذور، ولتفتّح الزّهرْ،

وأحرق البيادر العقيم بالبروقْ

وفجّر العروقْ

وأثقلِ الشجرْ.

وجئتَ يا مطرْ،

تفجّرَتْ تنثُك السماءُ والغيومْ

وشُقّقَ الصخَر،

وفاض؛ من هباتك، الفراتُ واعتكرْ

وهبّت القبورُ، هُزَّ موتها وقامْ

وصاحت العظام:

تبارك الإلهُ، واهبُ الدّمِ المطرْ.

فآه يا مطرْ!

نودُّ لو ننامُ من جديد،

نودُّ لو نموت من جديد،

فنومنا براعمُ انتباه

ومَوتنا يخبّئ الحياه؛

نودُّ لو أعادنا الإله

إلى ضمير غيبه المُلبّد العميق؛

نودُّ لو سعى بنا الطريق

إلى الوراء، حيث بدْؤه البعيد.

مَنْ أيقظَ "العازرَ" من رقاده الطويلْ؟

ليعرف الصباحَ والأصيلْ

والصيفَ والشتاءْ،

لكي يجوع أو يُحسَّ جمرةَ الصدى،

ويحذرَ الردى،

ويحسب الدقائق الثّقال والسِّراعْ

ويمدح الرعاع

ويسفك الدماء!

من الذي أعادنا، أعاد ما نخاف؟

من الإلهُ في ربوعنا؟

تعيش نارُه على شموعنا

يعيش حقده على دموعنا

* * *

أهذا أدونيس، هذا الحواءْ؟

وهذا الشحوبُ، وهذا الجفافْ؟

أهذا أدونيس؟ أين الضياءْ؟

وأين القطافْ؟

مناجلُ لا تحصدُ،

أزاهرُ لا تَعقدُ،

مزارعُ سوداءُ من غير ماءْ!

أهذا انتظار السنين الطويله؟

أهذا صراخ الرجوله؟

أهذا أنينُ النساء؟

أدونيس! يا لاندحار البطوله.

لقد حطّم الموتُ فيك الرجاءْ

وأقبلتَ بالنظرة الزائغه

وبالقبضة الفارغه:

بقبضةٍ تهدّدُ

ومنجل، لا يحصدُ

سوى العظام والدمِ.

اليومَ، والغدُ؟

متى سيولد؟

متى سنُولد؟

* * *

الموتُ في الشوارعِ،

والعقم في المزارعِ،

وكلُّ ما نحبّه يموتْ.

الماء قيَّدوه في البيوتْ

وألهث الجداولَ الجفافْ.

هُمُ التتارُ أقبلوا، ففي المدى رُعافْ،

وشمسنا دمٌ، وزادُنا دمٌ على الصِّحاف.

محمّدُ اليتيمُ أحرقوه فالمساءْ

يضيءُ من حريقه، وفارت الدماءْ

من قدميه، من يديه، من عيونه

وأُحرق الإله في جفونه.

محمَّد النبيُّ في "حراءَ" قيَّدوه

فسُمِّر النهارُ حيث سمّروه.

غداً سيُصلب المسيحُ في العراقْ،

ستأكل الكلابُ من دم البراقْ[1]

* * *

يا أيها الربيع

يا أيها الربيعُ ما الذي دهاكْ؟

جئت بلا مطرْ

جئتَ بلا زَهَرْ،

---

[1] الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليلة معراجه.

جئتَ بلا ثمرْ،

وكان منتهاكَ مثل مبتداكْ

يلفُّه النجيع...

وأقبل الصيفُ علينا أسودَ الغيومْ

نهاره هموم،

وليله نسهر فيه نحسب النجوم؛

حتى إذا السنابلُ

نضجْنَ للحصادْ

وغنّت المناجلُ

وغطّت البيادرُ الوهادْ،

خُيِّل للجياعِ أنْ ربَّة الزَّهرْ،

عُشتار، قد أعادت الأسير للبشر،

وكلَّلت جبينه الغضير بالثمر،

خُيِّل للجياع أنْ كاهل المسيحْ

أزاح عن مدفنه الحجَر

فسار يبعث الحياة في الضَّريحْ

ويُبرئُ الأبرصَ أو يجدِّد البصر؟

من الذي أطلق من عقالها الذئاب؟

من الذي سقى من السَّراب؟

وخبّأ الوباء في المطرْ؟

ألموتُ في البيوت يُولَدُ،

يولد قابيلُ لكي ينتـــزعَ الحياه

من رحم الأرض ومن منابع المياه،

فيُظلم الغدُ

وتُجهض النساء في المجازر،

ويرقص اللهيبُ في البيادر،

ويهلك المسيحُ قبل العازرِ؛

دعوه يرقدُ،

دعوه فالمسيح ما دعاه!

ما تبتغون! لحمه المقدَّدُ

يُباع في مدينة الخُطاه،

مدينة الحبال والدماء والخمور،

مدينة الرصاص والصخور!

أمس أزيح من مداها فارس النُحاس،

أمس أزيح فارسُ الحجر،

فران في سمائها النعاسْ

ورنَّق الضجَر،

وجال في الدروب فارسٌ من البشرْ

يقتل النساء

ويصبغ المهودَ بالدماء

ويلعن القضاء والقدر!

* * *

كأن بابل القديمة المسوَّرهْ

تعود من جديدْ،

قبابها الطوالُ من حديدْ

يدق فيها جرسٌ كأنّ مقبرهْ

تئن فيه والسماء ساحُ مجزره

جنانها المعلقات زرعُها الرؤوس

تجزُّها قواطعُ الفؤوس

وتنقر الغربان من عيونها،

وتغرب الشموس

وراء شعرها الخضيب في غصونها.

أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول

خُطَّ عليها: "عاشت الحياة"

من دم قتلاها، فلا إله

فيها، ولا ماءَ، ولا حقول؟

أهذه مدينتي؟ خناجر التتر

تغمد فوق بابها، وتلهث الفلاه

حول دروبها، ولا يزورها القمر؟

أهذه مدينتي أهذه الحُفرْ

وهذه العظامْ؟

يطلُّ من بيوتها الظلام

وتُصبغ الدماء بالقتام

لكي تضيع، لا يراها قاطع الأثر؟

أهذه مدينتي؟ جريحة القباب

فيها يهوذا أحمر الثيابْ

يسلّط الكلاب

على مهود إخوتي الصغار... والبيوت،

تأكل من لحومهم. وفي القرى تموت

عشتار عطشى، ليس في جبينها زهَرْ،

وفي يديها سلّةٌ ثمارُها حَجَرْ

تُرجَم كلُّ زوجة به. وللنخيلْ

في شطّها عويل

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناكِ حين تبسمان تورق الكرومْ
وترقص الأضواء... كالأقمار في نَهَرْ
يرجُّه المجذاف وهْناً ساعة السَّحَر
كأنما تنبض في غوريْهما، النُّجومْ...
وتغرقان في ضبابٍ من أسى شفيفْ
كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،
والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛
فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء
ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ
وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...
وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر

أنشودةُ المطر...

مطر...

مطر...

مطر...

تثاءب المساء، والغيومُ ما تزالْ

تسحُّ ما تسحَ من دموعها الثقالْ.

كأنَّ طفلاً بات يهذي قبل أن ينام:

بأنَّ أمّه – التي أفاق منذ عامْ

فلم يجدْها، ثمَّ حين لجَّ في السؤال

قالوا له: "بعد غدٍ تعودْ..." –

لا بدَّ أن تعودْ

وإن تهامس الرفاق أنّها هناكْ

في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ

تسفّ من ترابها وتشرب المطر؛

كأن صياداً حزيناً يجمع الشّباك

ويلعن المياه والقَدَر

وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ.

مطر...

مطر...

أتعلمين أيَّ حزْنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟
بلا انتهاء – كالدَّم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى – هو المطر!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحار،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ.
أصيح بالخليج: "يا خليجْ
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرّدى!"
فيرجعُ الصّدى
كأنّه النشيجْ:
"يا خليج
يا واهب المحار والردى..
أكاد أسمع العراق يذْخرُ الرعودْ
ويخزن البروق في السّهول والجبالْ،
حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرّجالْ
لم تترك الرياح من ثمودْ
في الواد من أثرْ.
أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر
وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج، والرعود، منشدين:
"مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوعْ
وينثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشّوان والحجر
رحىً تدور في الحقول... حولها بشرْ
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموعْ
ثمّ اعتللنا – خوف أن نلامَ – بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أنْ كنّا صغاراً، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر،
وكلَّ عام – حين يعشب الثرى – نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ.

مطر...

مطر...

مطر...

في كل قطرة من المطر

حمراءَ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حَلْمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!

مطر...

مطر...

مطر...

سيُعشبُ العراق بالمطر..."

أصيح بالخليج: "يا خليج...

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!"

فيرجع الصدى

كأنّه النشيج:

"يا خليج

يا واهب المحار والردى."

وينثر الخليج من هباته الكثارْ،

على الرمال،: رغوه الأُجاجَ، والمحار

وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق

من المهاجرين ظلّ يشرب الردى

من لجّة الخليج والقرار،

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرَّحيقْ

من زهرة يربُّها الفرات بالنّدى.

وأسمع الصدى

يرنّ في الخليج

"مطر..

مطر...

مطر...

في كلّ قطرة من المطرْ

حمراء أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.

وكلّ دمعة من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد

أو حَلمةٌ تورَّدت على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة..

ويهطل المطر...

سربروس في بابل

ليعوِ سَرْبوسُ[1] في الدروب
في بابل الحزينة المهدَّمهْ
ويملأ الفضاءَ زمزمهْ،
يمزّق الصّغار بالنيوب، يقضم العظامْ
ويشرب القلوبْ.
عيناه نَيزكان في الظلامْ
وشدقُه الرهيب موجتان من مُدى
تخبئ الردى.
أشداقه الرهيبة الثلاثةُ احتراقْ
يؤجُّ في العراقْ –
ليعوِ سربوس في الدروب
وينبشِ التراب عن إلهنا الدفين
تموزِنا الطعين،
يأكله: يمص عينيه إلى القرارْ،
يقصم صلبه القويَّ، يحطم الجرار
بين يديْه، ينثر الورود والشقيقْ.

[1] الكلب الذي يحرس مملكة الموت، في الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش "برسفون" آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت وقد صوره دانتي في "الكوميديا الإلهية" حارسا ومعذبا للأرواح الخاطئة.

أواه لو يُفيق
إلهنا الفتيُّ، لو يُبرعمُ الحقولْ،
لو ينثر البيادر النُّضارَ في السهول،
لو ينتضي الحُسام، لو يفجر الرعود والبروقَ والمَطرْ
ويطلق السيول من يديه. آه لو يؤوب!
لحافنا التراب، فوقه من القَمَرْ
دمٌ، ومن نهود نسوة العراق طينْ.
ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنين
نرى العراقَ، يسألُ الصغارُ في قراه:
"ما القمحُ؟ ما الثمرْ؟"
ما الماءُ؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البَشَرْ؟
فكلُّ ما نراه
دمٌ ينـزُّ أو حبالٌ، فيه، أو حُفَرْ.
أكانت الحياه
أحبَّ أن تُعاش، والصغارُ آمنين؟
أكانت الحقولُ تُزهرُ؟
أكانت السماء تُمطر؟
أكانت النساء والرجال مؤمنينْ
بأنْ في السماء قوّةً تدبّرُ،
تُحسُّ، تسمع الشكاةَ، تُبصر،
ترقُّ، ترحم الضّعافَ، تغفر الذنوبْ؟

أكانت القلوبْ

أرقَّ، والنفوسُ بالصفاء تقطرُ؟"

وأقبلتْ إلهة الحصادْ،

رفيقةُ الزهورِ والمياه والطيوبْ،

عُشتارُ ربَّةُ الشمال والجنوبْ،

تسير في السهول والوهادْ

تسير في الدروب

تلقط منها لحم تمُّوزَ إذا انتثرْ،

تلمُّه في سلَّةٍ كأنه الثمر.

لكنَّ سربروس بابل – الجحيم

يَحبُّ في الدروب خلفها ويركضُ،

يمزِّق النعالَ في أقدامها، يعضعضُ

سيقانَها اللدْان، ينهش اليدين أو يمزِّق الرداءْ،

يلوِّث الوشاح بالدمِ القديم

ويمزج الدمَ الجديدَ بالعواءْ.

ليعوِ سربروسُ في الدروبْ

لينهش الإلهة الحزينةَ، الإلهة المروَّعه؛

فإنْ من دمائها ستُخصب الحبوبْ،

سينبت الإلهُ، فالشرائحُ الموزَّعه

تجمَّعتْ؟ تململتْ. سيُولَدُ الضياءْ

من رحِمٍ ينـــزُّ بالدماء.

مدينتُنا تؤرّق ليلَها نارٌ بلا لَهَب.

تُحمُّ دروبها والدُّور، ثم تزول حمّاها

ويصبغها الغروبُ بكلّ ما حملته من سُحُبِ

فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبَّ موتاها:

"صحا من نومه الطينيِّ تحت عرائش العنَبِ...

صحا تمّوزُ، عاد لبابلَ الخضراء يرعاها."

وتوشك أن تدقَّ طبولُ بابلَ، ثم يغشاها

صفيرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها.

وفي غرفات عُشْتارِ

تظل مجامر الفخّار خاويةً بلا نارِ،

ويرتفع الدعاءُ، كأن كلَّ حناجر القَصَبِ

من المستنقعات تصيح:

"لاهثةً من التَعَبِ

تؤوب إلهةُ الدمِ، خُبزُ بابلَ، شمسُ آذارِ.

ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارِ

لنسألَ عن هداياها.

جياعٌ نحن... واأسفاه! فارغتان كفّاها،

وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب.
سحائبُ مُرْعداتٌ مُبرِقاتٌ دون إمطارِ
قَضَيْنا العامَ، بعد العام، بعد العام، نرعاها،
وريحٌ تشبه الإعصار، لا مرَّت كإعصارِ
ولا هدأتْ — ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها.
فيا أربابنا المتطلعين بغيّر ما رحمه،
عيونكُم الحجار نُحسُّها تنداح في العتمه
لترجمنا بلا نقمه؛
تدور كأنهنَّ رحىً بطيئاتٌ تلوكُ جفونَنا..
حتىَ ألفْناها،
عيونكم الحجار كأنَّها لَبناتُ أسوارِ
بأيدينا، بما لا تفعل الأيدي، بنيناها.
عذارانا حزانى ذاهلاتٌ حول عشْتارِ
يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محيَّاها،
وغصناً بعد غصْن تذبل الكرمه.
بطيءٌ موْتنا المتْسلُ بين النور والظلمه،
له الويلاتُ من أسد نكابد شَدقه الأدردْ!
أنارُ البرق في عينيه أم من شُعلة المعبد؟
أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار؟
أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود:

هنالك حيث يحمل كلَّ عامٍ، جُرحَه الناريّ،
جُرحَ العالم الدوّار، فاديه
ومنقذه الذي في كل عامٍ من هناك يعود بالأزهارِ
والأمطار – تجرحنا يداه لنستفيقَ على أياديهِ؟
ولكن مرّت الأعوام، كثراً ما حسبناها،
بلا مطرٍ... ولو قطرَه
ولا زهرٍ... ولو زهرةْ
بلا ثمرٍ – كأنَّ نخيلَنا الجرداء أنصابٌ أقمناها
لنذبل تحتها ونموت.

سيِّدنا جفانا. آه يا قَبْرَهْ

أما في قاعك الطينيِّ من جرّه؟
أما فيها بقايا من دماء الربّ، أو بذرةْ؟
حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها:
سرقنا من بيوت النمْل، من أجرالها، دخْناً وشوفاناً
وأوشاباً زرعناها
فوفَّينا – وما وفى لنا – نَذره!"
وسار صغار بابلَ يحملون سلال صبَّارِ
وفاكهةٍ من الفخَّار، قرباناً لعشتار
ويشعل خاطفُ البرق،
بظلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار،
وجوهَهُم المدوَّرة الصغيرة وهي تستسقي.

فيوشك أن يفتّح – وهي تومِضُ – حقلُ نوّارِ
ورفَّ – كأنّ ألف فراشةٍ نُثرتْ على الأفْقِ
نشيدُهم الصغيرُ:

"قبورُ إخْوتِنا تنادينا

وتبحث عنكِ أيدينا
لأنّ الخوفَ ملءُ قلوبنا، ورياحَ آذارِ
تهزُّ مهودنا فنخاف. والأصواتُ تدعونا.
جياعٌ نحن مرتجفون في الظُّلمه
ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا، تغطّينا،
نشدُّ عيوننا المتلفّقات بزندها العاري.
ونبحث عنكِ في الظلماء، عن ثديَيْن، عن حَلْمَه
فيا من صدرُها الأفْق الكبير وثديُها الغيْمه
سمعت نشيجنا ورأيت كيف نموت... فاسْقينا!
نموت، وأنت – واأسفاه – قاسيةٌ بلا رحمه.
فيا آباءنا، من يفتدينا؟ من سيُحيينا؟
ومن سيموت: يُو لُم لحمَه فينا؟"
وأبرقت السماءُ كأنّ زنبقة من النارِ
تفتّح فوق بابل نفسَها. وأضاء وادينا،
وغلغلَ في قرارة أرضنا وَهجٌ فعرّاها
بكلّ بذورها وجذورها وبكلّ موْتاها.
وسحَّ – وراء ما رفعتْه بابلُ حول حُمّاها

وحول تراها الظمآن، من عَمَدٍ وأسوارِ
سحابٌ.. كان لولا هذه الأسوار روّاها!
وفي أبَدٍ من الإصغاء بين الرعد والرعد
سمعنا، لا حفيفَ النّخل تحت العارض السحّاح
أو ما وشوشته الريحُ حيث ابتلّت الأدواحْ،
ولكنْ خفقةَ الأقدام والأيدي
وكركرةً و "آهُ" صغيرةَ قبضتْ بيُمناها
على قمَرٍ يرفرفُ كالفراشة، أو على نجْمَه..
على هبة من الغيْمه،
على رعشاتِ ماءٍ، قطرةٌ همستْ بها نسمَه
لنعلم أنّ بابلَ سوف تُغسَل من خطاياها!

بور سعيد

يا حاصدَ النار من أشـلاء قتلانـا ... منكَ الضحايا، وإن كانوا ضحايانا

كم من ردىً في حياة، وانخذالِ ردىً ... في ميتة، وانتصـارٍ جـاء خُـذْلانا!

إنّ العيون الـتي طفّـأتَ أنجُمَهـا ... عجّلْن بالشـمس أن تختـار دنيانـا

وامتدّ، كالنور، في أعماق تُربتنـا، ... غرْسٌ لنا من دمٍ، واخضـلّ موتانـا

فازّلْزَلِي يـا بقايـا كـاد أوَّلُنـا ... يبقي عليها، من الأصـنام، لولانـا

نحن الذين اقتلعنـا مـن أسـافِلِها ... لاةً وعُـزّى، وأعليْنـاهُ إنسـانا

حُيِّيت بورْتَ سعيدٍ، من مسيلِ دمٍ ... لولا افتداءٌ لـا يُغليـه، مـا هانـا

حُيِّيتِ من قلعةٍ صـمّاءَ ناطَحَهـا ... عادٍ من الوحش يُـزجيهنَّ قُطعانـا

عاناك في اللّيل داجٍ من جحافِلِها: ... نـوراً مـن الله أعماهـا ونيرانـا

ما عاد ليلٌ قد اسـتخفى بأقنعـة ... من أوجُه الناس، لولا أنت، عرْيانـا

ليلٌ تُعيذ الكهوفُ السـودُ آنيـةً ... فيهـا وفكّـاً لموتاهـا وصَـوّانا

من بعضِ ما فيه من ظلماءَ، ما عُرفتْ ... باسمٍ لها، فهي قبلَ اسـمٍ إذا كانـا

حُيِّيت من قلعة مـا آدَ كاهلَـها ... عبءُ السماوات إلاّ خـفّ إيمانـا

أمسكتِها أن يميـد الظـالمون بهـا ... دينـاً لنـا وانتصـاراتٍ وعُنوانـا.

يا مرفأ النور، ما أرجعت وادعـة ... من غير زاد، ولا آويـتِ قُرصـانا

ولا تلفظت من مرسـاك معتـدياً ... إلا مـدمّى ذليـلَ الهـام خزْيانـا

جمّعتِ من شطّ صُورٍ لُمَحَ أحرُفِها ... واخترت من بابلٍ واحتزْت مروانـا

والنيلُ ساقَ العذارى من عرائسه ... للخصْب، في موكب الفادين، قُربانا!
فالويْل.. لو كان للعادين ما قَدَروا! ... لاتهدَّ من حاضرٍ ماضٍ فأحزانا
فلا ابتنى هرماً بانٍ، ولا لبستْ ... تيجانَها، في انتظار الروحِ، موتانا
ولا تفجَّر في "ذي قارَ" فتيتُها ... ولا تنفَّست الصحراءُ قُرآنا!
حُيِّيت موتى، وأحياءً، وأبنيةً ... مستشهدات أو استعصيْن أركانا
والنار والباذرونَ النارَ كم زرعوا ... من كلِّ ثكلى لعزرائيل بُستانا!
من كلِّ وَجهٍ لطفلٍ فيه زنبقةٌ ... تَدْمى، وتلتمُّ فيه الرِّيح غرْبانا
الجوَّ مما يلزّون الحديدَ به ... قاعُ الجحيم التظى وانصبَّ طوفانا
سقَّاك من كلِّ غيمٍ فيه أحرزَهُ ... جوفُ الثرى واشتهتْه النارُ أزمانا
كأس الرَّصاص التي غنّى بتوأمها ... "سقراطُ" وابتلَّ منها جرحُ وهرانا[1]

من أيّما رئةٍ؟ من أي قيثارِ
تنهلُ أشعاري؟
من غابة النارِ؟
أم من عويل الصبايا بين أحجار
منها تنزُّ المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟
من أيِّ أحداق طفلٍ فيكِ تُغتصبُ؟
من أيِّ خبزٍ وماءٍ فيك ما صلبوا؟
من أيّما شُرْفةٍ؟ من أيّما دارِ؟
تنهلُ أشعاري
كالثارِ؟

---

[1] أُجبر الفيلسوف الأغريقي سقراط على تجرع كأس من السم.

كالنور في رايات ثوّار؟

من مائكِ السهران أوتاري؟

أم بُرجكِ الهاري

يبكي دماً من جرح بحّار؟

أطفالك الموتى، على المرفأ

يبكون في الريح الشماليّة،

والنور من مصباحه المطفأ

قد غار كالمديهْ

في صدريَ العاري.

أطفالك الأموات عارُ الحديدْ

في عرسه الدامي، وذلُّ الرصاصْ،

مالوا بملك من شقاء العبيد

واستنــــزلوا أربابه للقصاص

في ساحة النارِ.

يبكون في الريح الشماليه

أسرى، على السُّفْن الصليبيه،

والريح كالمديه

تحتثُّ أظفاري.

يبكون.. في داري.

بالقشِّ والطين سدّوا كوّةَ القَمَرِ،

والريحُ في الشجر
قد كمَّموا فاها،
كي لا تصيح: اخبئوا عن أعيُن الفَجَرِ
أطفالكم، فهي ما ترتدُّ إحداها
إلا وحال الذي تلقى، إلى حَجَرِ
الريحُ قيثاري
قد كمَّموا فاها

هاويكِ أعلى من الطاغوت فانتصبي ... ما ذلَّ غيرُ الصفا – للنار – والخشب
حُيِّيت من قلعة شقَّ الفضاء بها ... أُسّ لها في صدور الفتية العرب
الطين فيها دمٌ منه، وجندلُها ... من عزمة، والحديد الصَّلْدُ من غضب
أنت السماواتُ والأرض، التي خُلقت ... في عشرة تحسب الأيام بالحُقُب
والصخر فيكِ استمدَّ الروحَ إذ لمستْ ... عُقْمَ الجمادات فيه إصبَعُ اللّهب
في كلِّ أنقاض دار، من صفاه يدٌ ... جبّارةٌ تصفع العادين كالشهب
ما الهدَّ إلا وأعلى في ضمائرنا ... سدّاً من الثار أعيا حيلة النُّوَب.
والماء، حتى زلالُ الماء، فيكِ مُدىً ... من فضَّة الله توهي جحفل الذهب
ما بلَّ للجحفل المأجور غُلّته ... حتى جبى قذرَ ماءٍ من دمٍ سرِب!
أملى على كلِّ شيء فيكِ جوهَرَه ... حلْفٌ لجيشين: ذي قُربى وذي أرَب
إن الحديدَ الذي صُنت الحياةَ به ... غيرُ الحديد الذي وافاك بالعطب
والخير في بُندقيات قذائفها ... حتفُ المغيرين، والميلادُ في قُضُب
لكنه الشرُّ في خبزٍ حقائبُه ... عونٌ لأعدائك الجوعى، وفي قِرَب!

ليت المسيحَ الذي داجى بشرْعته ... من باع مثواه، راء فيك عن كثب:

خرسٌ نواقيسكِ الثكلى، ودامية ... فيكِ الأناجيلُ، والموتى بلا صُلُب

والحابس الماءَ من جرحاك حمَّلها ... عبءَ الصليبين: من حُمَّى ومن خشب

واستنطق الأمَّ ثكلى: أين جيرتها ... من فتية لاصطياد العسكر اللُّجب؟

فالتمَّ في مقلتيها، وهي تنظره، ... كلُّ المخاضات والتسهيد والنَّصب

كأنما استودعتها كلُّ والدة ... آجالَ كلِّ الذراري طيلة الحقب

فاختارت الموت معلوكاً مراضعُها، ... معروكةً في رحىً تترى من الرُّكَب

تفدي بما يستبيح الجندُ من دمها ... والنار، أعراض كلِّ الخرَّدِ العُرُبِ.

أبناءُ "جنكيز" في روحٍ، وإن بعدوا ... في نسبة: ربَّ قُربى دون مُنْتَسب

شرُّ اللصوص، إذا عفَّ التتارُ.. فما ... عفّوا عن الرِّيش والأسمال واللُّعَب!

فلتنفخ الصُّور في أفريقيا أُمَمٌ ... بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتب

ولتُسمعنَّ الزنوج البيض صيحتها: ... "إنا إلى الله أدنى منك في نسب"!

حُيِّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبهُ؛ ... يا غابة النار قد أمرَّت بالغَلَب!

من أيِّ عبءٍ على روحي ومسمارِ
من أعينٍ، في صليب تحت أسواري،
تأتيك أشعاري؟
حمراءَ خضراءَ من جُرحٍ ومن غارِ،
خضراء من راية، حمراءَ من نار،
خضراءَ كالماء في فردوسك الجاري؟

يا ليت أوتاري

خضراءُ حمراءُ من قلبي ومن ناري!

يا ليتَ أبوابَ قلبي منكِ تلتهبُ!

يا ليتها دون قُفْلٍ، ليتها خشَبُ!

أو خرّبَ الجندُ قلبي، فهي تنتحبُ

في كلّ إعصار!

سودٌ، كما اسودّت الأموات، أنهاري

فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري،

والريحُ في داري

سوداءُ ما رفّ منها باللّظى عَصَبُ.

لا تسألي بعدُ عنها: إنما عشُب

أعواده السود غذّى عجلَه الذهبُ

منها، فخبّأتُ في عينيّ قيثاري!

كوني لأشعاري

وحياً، وشدّي ببأسٍ منك أوتاري.

يا مرفأ النور، كن مرسىً لأفكاري!

يا مرفأ النار

الهبتَ أغواري

بالثارِ

مزّقت عنها سودَ أستارِ

فانهلّت الشمسُ على داري.

كم من دفين، كلُّ ماء القنالْ
في مدّه العاتي وفي جزره،
يلقي على صدره
عبثاً من الظلماء – كان القتال
من أجل أن يرتاحَ في قبره!
ما كان إلاّ من دموع الرجَال
والنسوة الباكين في قعره،
هذا الذي بين العُبابيّنِ سال!
كالليل هذا الماءُ فوق القبورْ
كالنار، كالإعصار، كالداء:
تختضُّ في ليل الخليج الصدور،
والشمسُ تحسو كلَّ ماء الصدور
في عالم لم تمشِ فيه العصور –
من ملتقى للماء بالماء!
كالليل هذا الماء، ندُّ الحياه:
الموْت والميلاد بوّابتاه.
في قاعه الموتى قد استبدلوا
بالنبض، ما يُرغي به المرجلُ
في موقرات، من سفين الغزاه،
بالموت مما يصنع المعملُ.
حتى إذا ما رشَّ عارَ العُتاه

بالدمعِ من عينيه، والنارِ
من قلبه المورق بالغارِ،
إنسانُكِ العملاق ظِلّ الإله،
ظِلُّ الملايين التي مقلتاه
عنها ترى ما في خيال تراه،
هذا الذي أعصابُها في قواه –
أحيا دمَ الموتى، فخرَّ الطغاه!
فليحرسِ الأحياء باب الحياه!

غاضَ المغيرونَ عن واديكِ وانحسروا ... فالأرضُ تـدمى بقتلاهـا وتزدهـرُ
وازدارك الموتُ لا مُلْسـاً ملامحـه ... بيضاً، كما تملك الأنعـام والشـجَر
حاشاك! فالموتُ توري فيك حدّتهُ ... طعْمَ الدم الحيِّ، ما يرقى به البشـر
أخفاهُ عنك التزامٌ واشـتباكُ يـد ... في مثلها، فهو حيثُ اجتازهُ البصـر
حتى إذا ارتدَّ واستبشعت صـورتهُ ... أدركت أيّ انتصارٍ ذلـك الظّفـرُ!
أدركت أنَّ الضـحايا ردّ كاثرَهـا ... فيكِ الأقلُّ المضَـحِّي أنّهـا كثُـر
من سدّدَ النارَ في أيديكِ، يُوردهـا ... كيْدَ المغيرينَ منـه الظـنُّ والنظـر؟
واحتاز في قلبه الأحقابَ، يزرعهـا ... في جانب منه، واستبسـالك الثمـر
واستنفر الشرق حتى كـاد ميِّتـه ... يسعى؟ أهذا صلاحُ الدين أم عمـر؟
هذا الذي حـدثتنا عنـه أنفسـنا ... في كـلِّ دهيـاءَ نبلوهـا وننتظـر
هذا الذي كلٌّ، عن سحقِ لبذرتـه ... بالخيل والـذابلات، الـرومُ والتتـر
يا أمّةً تصنع الأقـدارَ مـن دمهـا ... لا تيأسي. إنّ "سيف الدولة" القـدر

أعلى لكل انتصارٍ فيـك جدّتـهُ فاخضل واخضلت الاياتَ والسّـور
في مسـجدٍ أمَّ مشّـاءً بأمّتـه فيه المصلّين! حـتى كبَّـر الحجـر!
واستشرفَ الساحَ ناءٍ عنه يحملـه ما بين جنبيْـه، رامٍ فيـه منْتصـر:
عينٌ لسـيناءَ ترقـى كـلّ رابيـة فيها، وعـينٌ وراء النيـل تنحـدر
أو تنفضُ الأفقَ، حتى ضاء من لهبٍ حملاقها، فهـي ممّـا راء تسـتعر!
جاؤوك! جاء الصليبيون، قاصـفة تنقضُّ في إثْر أُخرى، فاللظى مطـر
في كلِّ فانوس موتى من قـذائفها نورٌ له اختضّت الأبعـادُ والعُصُـر
فالشرق عارٍ مدى عينيْه، منبسـطٌ كالراحة: الدور، والأكواخ والحُفـر
يكاد يبصر مـا أبقـاه مكتـدَحٌ في جبهةٍ، واغتذى من مقلـةٍ سـهرُ
إيماضةَ الـبرق: إلا أنهـا حقـبٌ تُطوى، ومسـتقبل يُـبْنى ويـدّخر!
المجـد لله والإنسـان: أن يـداً تحيي وقلباً يـداوي، منـهما أثـر!
يا قلعة النور تـدمى كـلُّ نافـذةٍ فيها، وتلظى، ولا تستسلم، الحُجَـر
أحسسْتُ بالذُّلّ أن يلقاك دونَ دمي شعري، وأني بما ضـحَّيت أنتصـر
لكنّها باقـةٌ أسـعى إليـك بهـا حمراءُ يخضلُّ فيها من دمـي زهَـر!

الليل يُطبق مرّة أخرى، فتشربه المدينه

والعابرون، إلى القرارة مثل أغنيةٍ حزينه.

وتفتحت، كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق،

كعيون "ميدوزا"[1]، تحجِّر كل قلب بالضغينه،

وكأنها نذرٌ تبشِّر أهل "بابل" بالحريق

من أي غابٍ جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف

من أي وجر للذئاب؟

من أي عشٍّ في المقابر دفَّ أسفع كالغراب؟

"قابيل"[2] أخفِ دم الجريمة بالأزاهر والشفوف

وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء

ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء

عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي المدينه،

والليل زاد لها عماها.

والعابرون:

الأضلع المتقوّسات على المخاوف والظنون،

والأعين التعبى تفتش عن خيال في سواها

[1] في الأساطير اليونانية أن عيون ميدوزا تحول كل من تلتقي بهما عيناه إلى حجر.
[2] في القرآن الكريم أن الغراب هو الذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله.

وتعدّ آنية تلألأ في حوانيت الخمور:

موتى تخاف من النشور

قالوا سنهرب، ثم لاذوا بالقبور من القبور!

أحفاد "أوديب"[1] الضرير ووارثوه المبصرون.

(جوكست) أرملةٌ كأمسِ، وباب "طيبةَ" ما يزال

يُلقي "أبو الهول" الرهيب عليه، من رعب ظلال

والموت يلهث في سؤال

باقٍ كما كان السؤال، ومات معناه القديم

من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه.

وما الجواب؟

"أنا" قال بعض العابرين...

وانسلّت الأضواء من بـاب تثـاءب كـالجحيم

تطفو علـيهن البغايـا كالفراشـات العطـاش

يبحثن في النيران عن قطرات ماء... عن رشـاش.

لا تـنقلنّ خطـاك فـالمبغى "علائـي"[2] الأديم:

أبناؤك الصرعى تراب تحـت نعلـك مسـتباح،

يتضـاحكون ويعولـون.

---

[1] تزوج "أوديب" امه "جوكست" وهو لا يدري بانها امه. وطيبة هي المدينة التي دخلها بعد أن قتل أباه ملك طيبة، فتزوج امه، زوجة الملك القتيل. وكان "ابو الهول" يحرس مدخل المدينة ويلقي على كل غريب يداخلها سؤالا: "ما الكائن الذي يمشي على اربع في الفجر واثنتين في الظهيرة وثلاث في المساء" وقد حل أوديب هذا اللغز وكان الجواب. "الإنسان".

[2] نسبة إلى أبي العلاء المعري، الأعمى والقائل "ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد" و "هذا جناه أبي عليّ...".

أو يهمسون بما جناه أب يبرّؤه الصباح
مما جناه، ويتبعون صدى خطاك إلى السكون

الحارس المكدود يعبر، والبغايا متعبات،
النوم في أحداقهن يرفّ كالطير السجين،
وعلى الشفاه أو الجبين
تترنّح البسمات والأصباغ ثكلى، باكيات،
متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقهات،
وكأن عاريةَ الصدور
أوصال جنديٍّ قتيل كللوها بالزهور،
وكأنها درج إلى الشهوات، تزحمه الثغور
حتى يهدَّم أو يكاد. سوى بقايا من صخور.

جيفٌ تستَّرُ بالطلاء، يكاد ينكر من رآها
أن الطفولة فجّرتها، ذات يومٍ، بالضياء
كالجدول الثرثار – أو أن الصباح رأى خطاها
في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء،
ويكاد ينكر أن شقّاً لاح من خلل الطلاء
قد كان – حتى قبل أعوامٍ من الدم والخطيئهْ –
ثغراً يكركر، أو يثرثر بالأقاصيص البريئه
لأب يعود بما استطاع من الهدايا في المساء:

لأب يقبّل وجه طفلته النديَّ أو الجبينْ
أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء.
ما كان يعلم أن ألف فمٍ كبئرٍ دون ماءْ
ستمصُّ من ذاك المحيا كلَّ ماء للحياء
حتى يجفّ على العظام – وأن عاراً كالوباء
يصمُ الجباه فليس تُغسل منه إلا بالدماء
سيحلّ من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين –
والساعدين الأبيضين، كما تنوّرُ في السهولْ
تفاحةٌ عذراءُ، سوف يطوّقان، مع السنين
كالحيتين، خصور آلاف الرجال المتعبين
الخارجين، خروج آدمَ، من نعيم في الحقول
تفاحُه الدمُ والرغيف وجرعتان من الكحول
والحية الرقطاء ظلٌّ من سياط الظالمين
يا أنتَ، يا أحد السكارى،
يا من يريد من البغايا ما يريد من العذارى
(ما ظلّ يحلم، منذ كان، به ويزرع في الصحارى
زبد الشواطئ والمحارا
مترقباً ميلاد "أفروديت"[1] ليلاً أو نهارا)
أتريد من هذا الحطام الآدميّ المستباحْ
دفء الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح

[1] في أساطير الإغريق أن "أفروديت" ولدت من زبد البحر ونزلت محمولة على صدفة محار.

ودواءَ مـــا تلقـــاه مـــن ســـأمٍ وذلٍّ واكتـــداح

المال، شيطان المدينه

لم يحظَ، من هذا الرهان، بغــير أجســاد مهينــة

"فاوست"[1] في أعمــاقهن يعيــد أغنيــة حزينــة

المال، شيطان المدينـــه، ربُّ "فاوســـتَ" الجديــد

جارت على الأثمان وفرة ما لديــه مـــن العبيـــد،

الخبـــز والأسمـــال حـــظُّ عبيــــده المتـــذللين

مما يوزع من عطايـــا — لا اللآلـــئ والشـــباب،

والمومس العجفاء — لا "هيلين"[2]، والظمأ اللعـــين

لا حكمة الفـــرح المجـــنَّح والخطيئـــة والعـــذاب

الخيل من سأمٍ تحمحم وهي تضـــرب بـــالحوافر[3]

حجر الطريق.

هلمَّ: فالحوذي يبحث عن مسافرْ

والريح صرٌّ، والبغيُّ بـــلا زبـــائنَ منـــذُ حـــين.

إن لم تضاجعها وصدَّ ســـواك عنـــها معرضـــينَ

فكيف تحيا، وهي، مثلك لا تعيش بـــلا طعـــام؟

لا تخشَ منـــها أن تُـــراعَ بمـــا تأكّلـــه الجـــذام

---

[1] تراهن الله والشيطان على فاوست، وزعم الشيطان أنه يستطيع شراءه روحا وجسدا... وقبل فاوست بأن يبيع نفسه فوضع الشيطان نفسه في خدمته لقاء ذلك. فرد عليه للشباب ووهبه اللآلئ والمال وأراه شبح هيلين الإغريقية.

[2] وفي النهاية لم يحصل الشيطان إلا على جسد فاوست، بينما صعدت روحه إلى السماء.

[3] البيت من "فاوست" لغوته، بقوله الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت "التي غرر بها وقتل أخاها وولدت طفلا فقتلته" وهي في سجنها.

من صدرك النخر العريض. وأنت ويحك يا أخاها
ماذا تريد، وعمَّ تبحث في الوجوه؟ ويــا أباهــا
اطعن بخنجرك الهــواء.. فأنتمــا لــن تقتلاهــا.
هي لن تموتْ:
سيظل غاصــبها يطاردهــا وتلفظهــا البيــوت
ستظلّ – ما دامت سهام التبر تصفر في الهــواء –
تعدو، ويتبعها "أبولو"[1] من جديــد كالقضــاء،
وتظلّ تهمــس، إذ تكــاد يــداه أن تتلقّفاهــا:
"أبتِ... أغثني" بيد أنك لا تصــيخ إلى النــداء،
لو كنت من عرق الجبين ترشّــها ومــن الــدماء
وتخيلــها امــرأة بحــقٍّ، لا متاعــاً للشــراء
كلّلتَ منها، بالفخــار وبــالبطولات، الجباهــا!

وكأن ألحاظ البغايا.
إبَرٌ تُسَلُّ لها خيــوط مــن وشــائعَ في الحنايــا
وتظل تنسج، بينــهن وبــين حشــد العــابرين،
شيئاً كبيت العنكبوت يخضّــه الحقــد الــدفين:
حقدٌ سيعصف بالرجالْ

[1] كانت "دفني" ابنة إله صغير، إله لحد الأنهار وقد رآها "أبولو" إله الشمس الجبار فأحبهــا وطاردهــا محاولاً اغتصابها. وقد استنجدت بأبيها فرشّها بحفنة من الماء وأحالها إلى شجرة غار تضفــر مــن أغصانها الأكاليل للأبطال. أما سهام التبر، الذهب، فهي السهام التي كان كيوبيد يرشق بها قلب أبولو ليلهب الحب فيه وقد استعرناها رمزاً لسطوة المال.

والأخريات، النائمات هناك في كنــف الرجــال

والساهرات على المهــود وفي بيــوت الأقــربين

حول الصلاء بلا اطّــراحٍ للثيــاب ولا اغتســال

في الزمهريــر، ودون عــدٍّ لليــالي والســنين!

ويمرُّ عمــلاقٌ يبيــع الطــير، معطفــه الطويــلْ

حــيران تصــطفق الريــاح بجانبيــه، وقبضــتاه

تتراوحــان: فللــرداء يــدٌ وللعــبء الثقيــلِ

يدٌ، وأعنــاق الطيــور مرنحــات مــن خطــاه

تدمى كأثداء العجــائز يــوم قطّعهــا الغــزاه.

خطواته العجلى، وصرخته الطويلة: "يــا طيــورْ

هذي الطيور، فمن يقول تعال..."

أفزعهـــــــ صـــــــداه

يأتيه في غُرَف البغايا كاللــهاث مــن الصــدور.

ويدٌ تشير إليــه عــن كثــب، وقائلــة تعــال!

بين التضاحك والسعال:

عمياء تطفئ مقلتاها شــهوة الــدم في الرجــال

وتحسّســـــته كــأن باصــرةً لهــــم، ولا تــدور

في الراحتين وفي الأنامل وهــي تعثــر بــالطيور،

وتوسلته: "فدى لعينك – خلّني. بيدي أراهــا"

ويكاد يهتك ما يغلّــف ناظريهــا مــن عماهــا

قلبٌ تحرَّق في المحــاجر واشــرأبَّ يريــد نــورا!

وتمسّ أجنحةً مرقّطةً فتنشرها يداها،
وتظل تذكر – وهي تمسحهن – أجنحة سواها
كانت تراها وهي تخفق ... ملء عينيها تراها:
سربٌ من البطّ المهاجر، يستحثُّ إلى الجنوب
أعناقه الجذلى.. تكاد تزيد من صمت الغروب
صيحاتُه المتقطعات، وتضمحلُّ على السهوب
بين الضباب، ويهمس البرديّ بالرجع الكئيب.
ويرج وشوشة السكونْ
طلْقٌ.. فيصمت كل شيء.. ثم يلغط في جنون.
هي بطّة فلمَ انتفضتِ؟ وما عساها أن تكون؟
ولعل صائدها أبوكِ، فإن يكنْ فستشبعون.
وتخفّ راكضةً حيال النهر كي تلقى أباها:
هو خلف ذاك التل يحصد. سوف يغضب إن رآها.
مرَّ النهار و لم تُعنْهُ... وليس من عونٍ سواها
وتظل ترقى التل وهي تكاد تكفر من أساها.

يا ذكرياتُ علامَ جئتِ على العمى وعلى السهاد؟
لا تمهليها، فالعذاب بأن تمرّي في اتئاد.
قصّي عليها كيف مات وقد تضرَّج بالدماء
هو والسنابل والمساء –
وعيون فلاحين ترتجف المذلّة في كواها

والغمغمات: "رآه يسرق.."، واختلاجات الشفاه

يخزين ميّتها، فتصرخ: "يا إلهـي، يـا إلهـي...

لو أن غير "الشيخ"!، وانكفأت تشدّ على القتيـل

شفتين تنتقمـان منـه أسـى وحبـاً والتياعـا

وكأن وسوسة السـنابل والجـداول والنخيـل

أصداء موتى يهمسون: "رآه يسرق" في الحقـول

حيث البيادر تقصد الموتى فتـزداد اتسـاعا!

وتحسُّ بالدم وهو ينـزف من مكـانٍ في عماهـا

كالماء من خشب السفينة، والصديد من القبـور،

وبأدمعٍ من مقلتيها كالنمـال علـى الصـخور

أو مثل حبـات الرمـال مبعثـرات في عماهـا

يهـوين منـه إلى قـرارة قلبـها آهـاً فآهـا.

ومَن الملوم وتلك أقدارٌ كُـتبن علـى الجـبين؟

حتمٌ عليها أن تعيش بعرضـها، وعلـى سـواها

من هـؤلاء البائسـات. وشـاء رب العـالمين

ألا يكون سوى أبيهـا - بـين الآف - أباهـا

وقضى عليه بأن يجوع

والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساءْ

وبأن يلصّ فيقتلـوه... (وتشـرئب إلى السـماء

كالمستغيثة، وهي تبكي في الظلام بـلا دمـوع)

والله – عزّ الله – شاء
أن تقذف المدن البعيدة والبحار إلى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستجيبوا، في زقاق
دون الأزقة أجمعين
ودون آلاف الصبايا، بنت بائعة الرقاق:
تلك الشقيّةَ، ياسمينْ.
(ذاك اسم جارتها الجديد، فليتها كانت تراها
هل تستحق اسماً كهذا: ياسمين وياسمين؟)
ومن الذي جعل النساءْ
دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟
الله – عزّ وجلّ – شاء
ألا يكنّ سوى بغايا أو حواضنَ أو إماء
أو خادماتٍ يستبيح عفافَهن المترفونْ
أو سائلاتٍ يشتهيهن الرجال المحسنون!!
لو لم تكن أنثى! – وتسمع قهقهاتٍ من بعيد:
"عباس عاد من الترصُّد بالرجال على الوصيد
ولسوف تنزح راحتاه غُسالة الضيف الجديد.
لو لم تكن أنثى... وتسمع قهقهاتٍ من بعيد.
يا ليت حمّالاً تزوجها يعود مع المساء
بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين.
لكن بائسة سواها حدثتها منذ حين

عن بيتها وعن ابنتيها، وهـــي تشـــهق بالبكـــاء:
عن زوجها الشرطيّ يحمله الغـــروب، إلى البغايـــا
كالغيمـــة الســـوداء تُنـــذر بالمجاعـــة والرزايـــا،
أزراره المتألّقـــات علـــى مغـــالق كـــل بـــاب
مُقَلُ الذئاب الجائعات ترود غابـــاً بعـــد غـــاب
وخطاه مطرقة تسمّر، في الظلام، علـــى البغايـــا
أبوابهنّ إلى الصـــباح - فـــلا انّهـــارٌ بالخطايـــا
إلا لعاهرةٍ تُجاز بـــأن تكـــون مـــن البغايـــا...
ويظلّ يخفرهن مـــن شـــبحٍ، وينشـــر في الريـــاح
أغنيَّـــةً تصـــف الســـنابل والأزاهـــر والصـــبايا،
وتظل تنتظر الصـــباح وســـاعديه مـــع الصـــباح
تصغي - وتحتضن ابنتيها في الظلام - إلى النبـــاح
وإلى الرياح تـــئن كـــالموتى وتعـــول كالســـبايا
وتُجمّع الأشباح من حفر الخرائـــب والكهـــوف
ومن المقابر والصحارى بالمئـــات وبـــالألوف...
فتَقفُّ من فـــزعٍ وتحجـــب مقلتيهـــا بالغطـــاء،
ويعود والغبش الحـــزين يـــرشُّ بالطـــلّ المضـــاء
سعفَ النخيل... يعود من سهرٍ يئن ومـــن عيـــاء
- كالغيمة اعتصرت قواها في القفـــار، وترتجيهـــا
عَبرَ التلال قوىً تجوع - لكي ينـــام إلى المســـاء:
عيشٌ أشـــقُّ مـــن المنيّـــة، وانتصـــار كالفنـــاء

وطوى يعبّ من الدماء وسُمٌّ أفعــى في الـدماء
وعيون زانٍ يشـتهيها، كـالجحيم يشـعّ فيهـا
سخرٌ وشوق واحتقـار، لاحقتـها كالوبـاء...
والمال يهمـس أشـتريك وأشـتريك فيشـتريها

يا ليتها، إذن انتهى أجلٌ بهـا فطـوى أسـاها!
"لو أستطيع قتلتُ نفسي.." همسةٌ خنقت صـداها
أخرى توسوس: "والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟
وإذا اكفهرَّ وضاق لحدك، ثم ضـاق، إلى القـرارِ
حتى تفجّر من أصابعك الحليـب رشـاش نـارِ
وتساءل المَلكان: فيمَ قتلت نفسـك يـا أثيمـه؟
وتخطّفاك إلى السـعير تكفّـرين عـن الجريمـه.
أفتصرخين: أبي! فيـنفض راحتيـه مـن الغبـارِ
ويخف نحوك وهو يهتف: قد أتيتك يا سـليمه؟"
حتى اسمُها فقدتـه واسـتترت بـآخر مسـتعارِ
هـي – منـذ أن عميـت – "صـباحُ"
فأيُّ سـخريةٍ مريـره!
أين الصباح من الظلام تعـيش فيـه بـلا نهـار
وبلا كواكبَ أو شموعٍ أو كوى وبـدون نـار؟
أوَ بعد ذلك تـرهبين لقـاء ربّـك أو سـعيرهْ؟

القبر أهون من دجاك دجىً وأرفق، يــا ضــريره
يا مستباحةُ كالفريسة في عــراءٍ، يــا أسيره
تتلفّتين إلى الـــدروب ولا سبيل إلى الفــرارِ؟

وتحسّ بالأسف الكظيم لنفسها: لــمَ تُستباح؟
ألمر نام على الأريكة قربهــا لــمَ تستباح؟
شبعان أغفى، وهي جائعة تلــمُّ مـن الريــاح
أصداء قهقهة السكارى في الأزقــة، والنبــاح
وتعدّ وقع خطى هنا وهناك: ها هــو ذا زبــون
هو ذا يجيء — وتشرئبُّ، وكاد يُلمــس.. ثم راح
وتدقّ في أحد المنازل ســاعة.. لــمَ تستباح؟
الوقــت آذن بانتــهاءٍ والزبــائن يرحلــون.
لمَ تستباح وتستباح على الطوى؟ لــم تستباح؟
كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصــباح؟
الجوع ينخر في حشاها، والسكارى يرحلــون،
مروا عليهــا في المســاء وفي العشــية ينسجون
حلماً لها هي والمنون:
عصبّات مهجتها سَداه وكل عــرق في العيــون،
والآن عادوا ينقضون —
خيطاً فخيطاً من قرارة قلبــها ومــن الجــراح —
ما ليس بالحلم الذي نسجوه، ما لا يــدركون..

شيئاً هو الحلم الذي نسجوا وما لا يعرفون،
هو منه أكثرُ: كالحفيفِ من الخمائل والرياح،
والشعرِ من وزن وقافية ومعنى، والصباح -
من شمسه الوضّاء... وانصرفوا سكارى يضحكون!
فلْيرحلوا. ستعيش، فهي من السعال ومن عماها
أقوى، ومن صخب السكارى.
فامضِ عنها يا أساها!
ستجوع عاماً أو يزيد، ولا تموت، ففي حشاها
حقدٌ يورِّث من قواها.
ستعيش للثأر الرهيب
والداء في دمها وفي فمها. ستنفث من رداها
في كل عرق من عروق رجالها شبحاً من الدم واللهيب،
شبحاً تخطَّفَ مقلتيها أمسِ، من رجلٍ أتاها
ستردُّه هي للرجال، بأنهم قتلوا أباها
وتلقّفوها يعبثون بها وما رحموا صباها،
لم يتغوها للزواج لأنها امرأة فقيره،
واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريره،
وتهامس المتقولون فثار أبناء العشيره
متعطشين - على المفارق والدروب - إلى دماها.
وكأن موجة حقدها ورؤى أساها.
كانت تقرّب من بصيرة قلبها صوراً علاها

صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة من عماها:
كل الرجال؟ وأهل قريتها؟ أليسوا طيبين؟
كانوا جياعاً – مثلها هي أو أبيها – بائسين،
هم مثلها – وهم الرجال – ومثل آلاف البغايا
بالخبز والأطمار يُؤتَجَرون، والجسدُ المهين
هو كل ما يتملّكون، هم الخطاة بلا خطايا
وهم السكارى بالشرور كهؤلاء العابرينَ
من السكارى، بالخمور.. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور
الشاربين – كمن تضاجع نفسها – ثمن العشاء
الدافنين خروق بالية الجوارب في الحذاء،
يتساومون مع البغايا في العشيّ على الأجور
ليوفروا ثمن الفطور!
ليس الذين تغصّبوها من سلالة هؤلاء:
كانوا كآلهة مقطّبة الجباه من الصخور
تمتصُّ من فزع الضحايا زهوها ومن الدماء
متطلعين إلى البرايا كالصواعق من علاء!
وتحسّ، في دمها، كآبة كلِّ أمطار الشتاء
من خفق أقدام السكارى، كالأسير وراء سور
يصغي إلى قرع الطبول يموت في الشفق المضاء.
هي والبغايا خلف سورٍ، والسكارى خلف سور،
يبحثن هنَّ عن الرجال، ويبحثون عن النساء،

دميتْ أصـــابعهن: تحفــر والحجـــارة لا تلـــين،
والســـور يمضــغهن ثم يقيــئهن ركـــامَ طـــين:
نصـــباً يخلّـــد عـــار آدم وانـــدحار الأنبيـــاء،
وطلول مقبرةٍ تضم رفـــات "هابيـــل" الجـــنين!
سورٌ كهذا، حدّثوها عنه في قصـــص الطفولـــه:
"يأجوج"[1] يغرز فيه، من حنق، أظـــافره الطويلـــه
ويعضّ جندله الأصمَّ، وكفُّ "مـــأجوج" الثقيلـــه
تهوي، كأعنف ما تكون، على جلامده الضخام،
والسور باقٍ لا يُثَلُّ.. وسوف يبقى ألـــف عـــام،
لكنّ (إن – شاء – الإله)
– طفلاً كذلك سمّياه –
سيهبُّ ذات ضحىً ويقلع ذلك الســـور الكـــبير.
...ألطفل شاب وسورها هي ما يزال كمـــا رآه
من قبل يأجوج البرايـــا. تـــوأمٌ هـــو للســـعير!
لصَّ الحجارةَ من منازلَ في الســـهول وفي الجبـــال
يتواثب الأطفـــال في غرفاتهـــا ويكركـــرون...
والأمهـــات يلـــدن والآبـــاء للغـــد يبســـمون،
لم يُبْقِ من حجَر عليها، فهـــي ريـــح أو خيـــال.

[1] قصة ياجوج وماجوج يعرفها كل من قرا القران الكريم، ولكن الأساطير الشعبية تضيف إليها انهمـــا يلحسان السور بلسانيهما كل يوم حتى يصبح في رقة قشرة البصل، ويدركهما التعب فيقـــولان "غـــدا سنتم العمل" وفي الغد يجدان السور على عهده من القوة والمتانة.. وهكذا. حتى يولـــد لهمـــا طفـــل يسميانه "إن شاء الله" فيحطم السور.

وأدار من حُطَمِ البلاط رحى، وساط من البطون
ما ترتعيه رحاه من لحم الأجنّة والعظام،
وكشاطئين من النجوم على خليج من ظلام
يتحرّقان ولا لقاءَ ويخمدان سوى ركام -
شق الرجالَ عن النساء: سُلالتين من الأنام
تتلاقيان مع الظلام وتَنْفَصلان مع الشروق:
زانٍ وزانية، وبائعة وشارٍ - والطعام
لا الحبُ والأحقاد لا الأشواق - تنبض في العروق!
زان وزانية؟.. أيمكن ذاك وهي بلا عشاء؟
لِمَ يُعرض الزانون عنها وحدها؟ لَمْ يعرضون
وهي الفقيرة فقر شحّاذ؟ أما هي كالنساء؟
أو ما لها جسد كناضجة الثمار؟ أيعثرون
لو يقطعون الليل بحثاً والنهار - على سواها
في حسنها هي؟ في غضارة ناهديها أو صباها
وبسعرها هي؟ أيَّ شيء غير هذا يبتغون؟
أ "زهورُ" أجمل أو "سعادُ"؟ بأي شيء جارتاها
تتفوقان؟
وعضّت اليد وهي تهمس: بالعيون..."!
عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يا سليمه.
وتلوب أغنية قديمة

في نفسها وصدى يوشوش: يا سليمه، سليمه
نامت عيون الناس. آه.. فمن لقلبي كي ينيمه؟"
ويل الرجال الأغبياء، وويلها هي، من عماها!
لم أصبحوا يتجنبون لقاءها؟ أيضاجعونَ
عيونَها، فيخلّفوها وحدها إذ يعلمونَ
بأنها عمياء؟ فيم يكابرون ومقلتاها
ما كانتا فخذين أو ردفين؟

وهي لهؤلاء
أدرى، وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون.
بالأمس، إذ كانت بصيره،
كان الزبائن بالمئات، و لم يكونوا يقنعون
بنظرة قمراء تغصبها من الروح الكسيره
لترش أفئدة الرجال بها، وكانوا يلهثون
في وجهها المأجور، أبخرةَ الخمور، ويصرخون
كالرعد في ليل الشتاء:
عَبر ابتسامتها أو الفخذ التي زلق الرداء
عنها، أو النهدين ثم عليهما قلق الضياء -
"إن كنت لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود،
إن كنت لا تتجردين.. فلا نقود!"
ولعلّ غيرة "ياسمين" وحقدَها سبب البلاء:

[1] اغنية شعبية "سليمة يا سليمة. نامت عيون الناس. كلبي (قلبي) ش ينيمه؟"

فهي التي تضع الطــلاء لهــا وتمســح بالــذرور
وجهاً تطفأت النواظر فيه...

- "كيف هو الطــلاء؟
وكيف أبدو.؟"

- وردةٌ.. قمر.. ضياء!"

زورٌ.. وكل الخَلق زور،
والكون مَيْنٌ وافتراء.

لو تبصر المرآةَ - لمحــة مقلتيهــا - لــو تراهــا
- لمح النيازك - ثم تغرق من جديد في عماهــا!
برقٌ ويُطفأ... ثم تُحكــم فرقهــا بيــدٍ، وفاهــا
بيدٍ، وترسم بالطلاء على الشــفاه لهــا شــفاها.
شفتاك عارية وخدُّك ليس خــدك يــا ســليمه،
ماذا تخلّف منك فيك سوى الجراحات القديمــه؟
وتضمُّ زهرةَ قلبها العطشى على ذكــرى أليمــه:
تلك المعابِثة اللعوب... كأنهــا امــرأة ســواها!
كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب - مقلتاهــا،
والشَّعر يلــهث بالرغائــب والطــراوة والعــبير
وبمثل أضواء الطريــق نعسْــنَ في ليــل مطــير،
والثغر بــين الجلّنــار وزهــرة النهــد الصــغير.
كانت إذا جلســت إلى المــرآة يفتنــها صــباها
فتظل تعصــر نهــدها بيــدٍ، وتحملــها رؤاهــا

من مخدع الآثام في المنفـى، إلى قصـر الأمـير:
تقتات بالعسل النقيّ، وترتدي كسـل الحريـر.
ليت النجوم تخـرُّ كـالفحم المطفَـأ، والسـماء
ركام قـارٍ أو رمـاد، والعواصـف والسـيول
تدقُّ راسية الجبال ولا تخلّف في المدينة من بنـاء!
أن يعجز الإنسان عن أن يسـتجير مـن الشـقاء
حتى بوهم أو برؤيا، أن يعـيش بـلا رجـاء...
أوَ ليس ذاك هو الجحيم؟ أليس عدلاً أن يـزول؟
شبع الذُّباب من القمامـة في المدينـة، والخيـول
سرّحن مـن عربـاتهن إلى الحظـائر والحقـول،
والناس ناموا — وهي ترتقب الزناة بـلا عشـاء.
هذا الذي عرضته كالسلع القديمـة: كالحـذاء،
أو كالجرار الباليـات، كأسـطوانات الغنـاء...
هذا الـذي يـأبى عليهـا مشـترٍ أن يشـتريه
قد كان عرضاً - يوم كان - ككل أعراض النساء!
كان الفضاء يضيق عن سعة، وتُـرخص الـدماء
إن رنّق النظر الأثيم عليـه. كـان هـو الابـاء
والعزة القعسـاء والشـرف الرفيـع. فشـاهديه
يا أعين الظلماء، وامـتلأي بغيظـك وارجميـه
بشواظ عارك واحتقارك يـا عيـون الأغبيـاء!
- "لا تتركوني يا سكارى

للموت جوعا، بعد موتي – ميتة الأحياء – عارا.

لا تقلقوا... فعماي لـيس مهابـة لي أو وقـارا.

ما زلت أعرف كيف أُرعش ضحكتي خلل الرداء

– إبّان خلعي للرداء – وكيف أرقص في ارتخـاء

وأمسُّ أغطيـة الســرير وأشـرئبُّ إلى الـوراء.

ما زلت أعرف كل ذاك، فجربوني يا سـكارى!

مَن ضاجع العربية الســمراء لا يلقـى خسـارا.

كالقمح لونك يا ابنة العرب،[1]

كالفجر بين عرائش العنب

أو كالفرات، على ملامحه

دعةُ الثرى وضراوة الذهب.

لا تتركوني.. فالضحى نسبي:

من فاتح، ومجاهد، ونبي!

عربية أنا: أمتي دمها

خير الدماء.. كما يقول أبي.

في موضع الأرحاس من جسدي، وفي الثدْيِ المذال

تجري دمـاء الفـاتحين. فلوّثوهـا، يـا رجـال

أواه من جنس الرجال.. فأمس عاث بها الجنـود

الزاحفون من البحـار كمـا يفـور قطيـع دود

[1] ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين. يجب أن تكون القومية شعبية، والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشـة تليق بهم كبشر وكورثة لأمجاد الأمة العربية.

يا ليت للموتى عيوناً من هباء في الهواء

ترى شقائي

فيرى أبي دمه الصريح يعبُّ أوشال الدماء

كالوحل في المستنقعات. فلا يردَّ الخاطبينَ

أبٌ سواه: لأن جدة أمِّ ذاك من الإماء

ولأن زوجة خال ذلك بنت خالة هؤلاء!

أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعين

إلا العفاة المفلسين.

أنا زهرة المستنقعات، أعبُّ من وحل وطين

وأشعَ لونَ ضُحىً..."

وذكُرها بجعجعة السنين

سُعالها. ذَهبَ الشباب!!

ذهب الشباب!! فشيِّعيه مع السنين الأربعين

ومع الرجال العابرين حيال بابك هازئين.

وأتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب،

فاستقبليه على الرصيف، بلا طعام أو ثياب،

يا ليتك المصباحُ يخفق ضوْؤُه القَلقُ الحزين

في ليل مخدعك الطويل، وليت أنك تُحْرِقينَ

دماً يجفُّ فتشترينَ

سواه: كالمصباح والزيـــت الــذي تســتأجرين

عشرون عاماً قد مضين، وشبْت أنت، وما يــزالُ

يذرذر الأضواءَ في مُقَل الرجال.

لو كنت تدّخرين أجْرَ سناه ذاك علــى الســنين

أثريْتِ...

هــا هــو ذا يُضــيء فــأيَّ شــيءٍ تملكــين؟

ويح العراق! أكان عــدلاً فيــه أنــك تــدفعينَ

سُهاد مقلتك الضريرة

ثمناً لملء يــديك زيتــاً مــن منابعــه الغزيــره؟

كي يثمر المصباحُ بــالنور الــذي لا تبصــرين؟

عشرون عاماً قد مضين، وأنت غرثــى تــأكلين

بنيك من سَغَبٍ، وظمأى تشربينَ

حليب ثديك وهو ينــزف من خياشيم الجــنين!

وكزارعٍ لهمَ البذور

وراح يقتلع الجذور

من جوعه، وأتى الربيع فمــا تفتَّحــت الزهــورُ

ولا تنفّست السنابل فيه...

ليس ســوى الصــخورِ

سوى الرمال، سوى الفلاه –

خُنْتِ الحياة، بغير علمك، في اكتداحك للحيــاه!

---

[1] تدفع البغايا للسمسارات أجرا ليليا عن المصابيح في غرفاتهن قدره ربع دينار لكل مصباح!.

كم ردّ موتَك عنك موتُ بنيك. إنك تقطعين
حبل الحياة لتنقضيه وتضفري حبلاً سواه،
حبلاً به تتعلّقين على الحياة: تضاجعينَ
ولا ثمار سوى الدموع، وتأكلين،
وتسهرين ولا عيون، وتصرخين ولا شفاه،
وغداً بحبلك تُشنقين!
وغداً. وأمسِ.. وألف أمسِ – كأنما مَسح الزمان
حدودَ ما لك فيه من ماض وآت
ثم دار، فلا حدود
ما بين ليلك والنهار، وليس، ثَمَّ، سوى الوجود..
سوى الظلام، ووطء أجساد الزبائن، والنقودِ،
ولا زمان، سوى الأريكة والسرير، ولا مكان!
لَمَ تحسبين ليالِيَ السأم المسهَّدة الرتيبه؟
ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك، ما الشهور؟ وما السنين؟
ماتت "رجاء" فلا رجاء. ثكلت زهرتك الحبيبه!
بالأمس كنت إذا حسبت فعُمْرَها هي تحسبين.
ما زال من فمها الصغيرِ
طراوة في حلمتيك، وكركراتٌ في السرير.
كانت عزاءك في المصيبه،
وربيع قفرتك الجديبه.
كانت نقاءك في الفجور، ونسمةً لك في الهجير،

وخلاصك الموعود، والغبشَ الإلهيَّ الكبير!
ما كان حكمةَ أن تجيء إلى الوجود وأن تموت؟
ألتشرب اللبن المرنَّق بالخطيئة واللعاب:
أو شالَ ما تركتْه في ثديك أشداقُ الذئاب؟
كان الزُّناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قوت.
فكأنها، وهي البريئه،
كانت تشاركك العذاب لكي تكفِّر عن خطيئه!
أفترضينَّ لها مصيرك؟

فاتركيها للتراب
في ظلمة اللحد الصغير تنام فيه بلا مآب.
فالنور والأطفال والبسمات حظ المترفين،
والجوع والأدواء والتشريد حظ الكادحين..
وأنت بنت الكادحين.

مات الضجيج. وأنت، بَعْدُ، على انتظارك للزناه،
تتنصَّتين، فتسمعين
رنين أقفال الحديد يموت، في سأم، صداه:
الباب أُوصد.
ذاك ليل مرَّ...

فانتظري سواه.

ضوءُ الأصيل يغيم، كالحلم الكئيب، على القبـــور
واهٍ، كما ابتسم اليتامى، أو كما بُهِتَتْ شُـــموعْ
في غيهب الذكرى يُهوِّم ظلُّهـــنَّ علـــى دمـــوعْ
والمدْرجُ النائي تهـــبّ عليـــه أســـراب الطيـــور،
كالعاصفات السود، كالأشباح في بيـــتٍ قـــديمْ
برزتْ لتُرعب ساكنيه
من غرفة ظلماء فيه.
وتثاءب الطَّلَلُ البعيد – يُحـــدّق الليـــل البـــهيمْ
من بابه الأعمى ومن شُـــباكه الخـــربِ البليـــد.
والجوُّ يملؤه النعيبْ...
فتُردّدُ الصـــحراءُ، في يـــأسٍ وإعـــوالٍ رتيـــبْ،
أصداءه المتلاشياتْ،
والريح تذروهنَّ، في سأم. علـــى التـــل البعيـــد!
وكأنَّ بعض الساحراتْ
مدَّت أصابعها العجاف الشاحبات إلى الســـماء:
تُومي إلى سربٍ مـــن الغربـــان تلويـــه الريـــاحْ
في آخر الأفقِ المضاء –

حتى تعالى ثم فاض على مراقيه الفساخْ

فكأن ديدانَ القبورْ

فارتْ لتلتهم الفضاءَ وتشربَ الضوء الغريقْ

وكأنما أزفَ النشورْ

فاستيقظَ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق!

وتدفّع السربُ الثقيلْ،

يطفو ويرسب في الأصيل،

لجباً يرنّق بالظلام على القبور الباليات

وظلاله السوداء تزحف، كالليالي الموحشات،

بين الجنادل والصخورْ

وعلى القبور!

وتنفس الضوء الضئيلْ

بعد اختناقٍ بالطيوف الراعبات وبالجُثامْ،

ثم ارتخت تلك الظلال السود وانجابَ الظلام:

فانجاب عن ظلٍ طويل

يُلقيه حفارُ القبورْ:

كفّان جامدتان، أبرد من جباه الخاملين،

وكأنَّ حولهما هواءً كان في بعض اللحودِ

في مُقلةٍ جوفاءَ خاويةٍ يهوّم في ركود

كفّان قاسيتان جائعتان كالذئب السجينْ،

وفمٌ كشقٍّ في جدارِ

مُستوحدٍ بين الصخور الصمّ مــن أنقــاض دارِ
عند المســاء.. ومقلتــان تحــدقان، بــلا بريــقْ
وبلا دموعٍ، في الفضاء: -
هُوذا المساء
يدنو، وأشباح النجوم تكــاد تبــدو، والطريــق
خالٍ - فلا نعشٌ يلوح على مَداه.. ولا عويــلْ -
إلا النعيبْ
وتنهُّدَ الريح الطويل!
وعلامَ تنعب هذه الغربــان، والكــون الرحيــبْ
باقٍ يدور.. يعجُّ بالأحيــاء: مرضــى، جــائعين
بيض الشعور كأعظمُ الأموات - لكن خالــدين
لا يهلكون؟ علامَ تنعــب؟ إنّ عزرائيــلَ مــاتْ!
وغداً أموتُ، غداً أموت!"

وهــزّ حفــارُ القبــورْ
يُمناه في وجه السماء، وصاحَ: ربًّا أمــا تثــور
فتبيدَ نسلَ العار.. تُحرقَ، بــالرجوم المهلكــات،
أحفادَ عادٍ، باعــةَ الــدمِ والخطايــا والــدموعِ؟
يا ربّ.. ما دام الفناءْ
هو غايةُ الأحياء، فأمرْ يهلكــوا هــذا المســاء!
سأموتُ من ظمأٍ وجوعِ
إنْ لم يمتْ - هذا المساء إلى غدٍ بعــضُ الأنــامْ؛

فابعثْ به قبلَ الظلام!

يا ربّ... أسبوعٌ طويل مـرَّ كالعـام الطويـلْ،

والقبرُ خاوٍ، يفغر الفم في انتظـارٍ.. في انتظـارْ،

ما زلت أحفره ويطمره الغبارْ –

تتاءب الظلمـاء فيـه ويرْشـح القـاع البليـلْ

مما تعصّـر أعـين المـوتى وتنضـحه الجلـود:

تلك الجلود الشاحبات وذلـك اللحـم النـثيرْ!

حتى الشفاه يمصُّ من دمها الثرى – حتى النـهود

تذوي، ويقطر، في ارتخاءٍ من مراضعها، المغـيرْ![1]

واهـاً لهاتيـك النواهـد، والمـآقي، والشـفاه!

واهاً لأجساد الحسان! أيأكـل الليـل الرهيـبْ

والدودُ، منها، مـا تمنّـاه الهـوى؟ واخيبتـاه!

كم جثةٍ بيضـاء لم تفتضَّـها شـفتا حبيـبْ،

أمسى يضاجعها الرغام؟

هل كان عدْلاً أن أحنّ إلى السـراب، ولا أنـالُ

إلاّ الحنين – وألف أنثى تحـت أقـدامي تنـامْ؟

أفكلّما اتّقدتْ رغابٌ في الجـوانح شـحَّ مـالُ؟

ما زلت أسمع بالحروب – فأين أين هي الحروب؟

أين السنابك والقذائف والضحايا في الـدروب..

لأظلّ أدفنها وأدفنها.. فـلا تسـع الصـحارى

---

[1] اللبن الممزوج دماً.

فأدسُّ في قمم التلالِ عظـامهنَّ وفي الكهـوف؟
فكأن قعقعة المنـازل في اللظـى نَقـر الـدّفوف
أو وقع أقدام العذارى
يرقصن حولي لاعباتٍ بالصـنوجِ وبالسـيوف!
نُبِّئتُ عن حربٍ تدور – لعلَّ عزرائيـل فيهـا..
في الليل يكدح والنهار، فلنْ يمـرَّ علـى قرانـا
أو بالمدينة وهي توشـك أن تضـيقَ بسـاكنيها!
نبئت أن القاصفات هناك مـا تركـتْ مكانـاً
إلاّ وحلّ به الـدمار... فـأيُّ سـوقٍ للقبـور!
حتى كأن الأرض من ذهب يُضاحك حافريهـا،
حتى كأن معاصـر الـدم دافقـاتٌ بـالخمورِ!
أوّاه لـو أني هنـاك أسـدّ، بـاللحم النـثيرِ،
جوع القبور وجوعَ نفسي.. في بلادٍ ليس فيهـا
إلاّ أراملُ... أو عذارى غـاب عنـهنَّ الرجـالُ
وافتضّهنَّ الفاتحون إلى الـذماء – كمـا يُقـال!
ما زلت أسمع بالحروب. فمـا لأعـين موقـديها
لا تستقرُّ علـى قرانـا؟ ليـت عـيني تلتقيهـا
وتخضُّهن إلى القـرار – وكالنيـازك والرُّعـود
تهوي بهنَّ على النخيل، على الرجال؛ على المهود!
حتى تحدّق أعـين المـوتى، كـالاف الـلآلي،
من كل شـبرٍ في المدينـة.. ثم تُـنظم كـالعقود

في هذه الأرض الخراب – فيا لأعينــها ويــا لي!

رباه! إني أقشــعرُ... أكــاد أسمــع في الخيــال

أغنيَّةً تصف العيون...

تنثال من مقهى، فأنصت في الزحام، وينصــتون!

وكأنَّ ما بــيني وبــين الآخــرين مــن الهــواء

ثــديٌ ســخيٌّ بالحليــب وبالمحبــة والإخــاء.

يا ربِّ.. أسبوع يمرُّ ولست أسمــع مــن غنــاء

إلاّ النعيبْ

وتنهُّد الريح الرتيب!

واخيبتاه! ألن أعــيش بغــير مــوت الآخــرين؟

والطيِّبات: من الرغيف، إلى النســاء، إلى البــنين

هي منّة الموتى عليَّ. فكيــف أُشــفق بالأنــامِ؟

فلتمطــرنهمُ القــذائف بالحديــد وبالضــرام،

وبما تشاء من انتقام:

من حُمَّيا أو جذام!

نذرٌ عليَّ: لئنْ تشــبَّ لأزرعــنَّ مــن الــورودِ

ألفاً تروَّى بالدماء.. وســوف أرصــف بــالنقودِ

هذا المزار... وسوف أركض في الهجير بلا حــذاء

وأعدّ أحذيةَ الجنود...

وأخطُّ، في وحل الرصيف وقد تلطــخ بالــدماء،

أعدادهنَّ... لأستبيحَ عــدادهنَّ مــن النــهودِ!

وسأدفن الطفلَ الرميَّ وأطرح الأمَّ الحزينه

بين الصخور على ثراه...

ولسوف أغرز بين ثدييها أصابعي اللعينه.

ويكاد يخنقها لهاثي وهي تسمع، في لظاه،

قلبي ووسوسةَ النقودِ... نقودها! واخجلتاه!

أنا لست أحقرَ من سواي. وإن قسوت فلي شفيعُ

أني كوحشٍ في الفلاء...

لم أقرأ الكتبَ الضخام – وشافعي ظمأ وجوع.

أو ما ترى المتحضرينَ

المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟

مهما ادَّنأت فلن أسفَّ كما أسفُّوا.. لي شفيع

أني نويت.. ويفعلون؛ وإنَّ من يئد البنينْ

والأمهات ويستحل دم الشيوخ العاجزين

لأحطُّ من زانٍ بما انتهك الغزاة وما استباحوا!

والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور؛

وهم الذين يلوِّنون لي البغايا بالخمور،

وهم المجاعة، والحرائق، والمذابح، والنواحُ،

وهم الذين سيتركون أبي وعمته الضريره

بين الخرائب ينبشان ركامهن عن العظام،

أو يفحصان عن الجذور، ويلهثان من الأوام..

والصخر كالمقل الضريره.

وسيوثقون بشعر أختي قبضتيّ.. وكالظلامِ
وكخضّة الحمّى، تسمّرها على دمها صدورُ
تعلو وتهبط باللهاث، كأنهن رحىً تدور.
يا مجرمون، إلى الوراء! فسوف تنتفض القبورُ
وتقيءُ موتاها. ويا موتى، على اسم الله ثوروا
رباه، عفوك.. إنّ "قابيل" المكبّل بالحديدْ
في نفسيَ الظلماء هبَّ وقرَّ يعصره الملالْ!
فالليل جاءَ، وما أزال
مستوحداً أرعى القبور وأنفض الدربَ البعيد.
وكأن يا بشرى! كأنّ هناك في أقصى الجنوب
خطاً كأذيال الظلام ولمعةً كدمِ الغروب!
لكأنه ضيفٌ جديد!"
وبدا الجنازُ، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاءْ،
الأوجه المتحجّرات يضيئها الشفق الكئيب،
والغمغمات الخافتات من انفعالٍ أو رياءْ،
والنعشُ يحجبه غطاءْ
ألوانه المترنّحات كأنما اعتصر المغيبُ
فيها قواهُ، وذاب فيها كوكب واهي الضياءْ،
حتى إذا انهال الترابُ وصُفّحَ القبر الجديدْ،
وتراعشَ الألقُ الضئيل، على الظهور المتعبات
حتى اضمحل، وغيّبتها ظلمةُ الأفق البعيد -

كانت مصابيح السماء تذرُّ ضوءاً كالضباب
بين القبور الموحشات
وعلى الخرائب والرمال. وكان حفار القبور
متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلامْ...
يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئابْ،
ويظلُّ يحلم بالنساء العاريات وبالخمور،
وتحسستْ يده النقودَ وهيَّأ الفم لابتسام -
حتى تلاشى في الظلام!

* * *

النور ينضح من نوافذ حانةٍ عبر الطريق،
وتكاد رائحة الخمورْ
تلقي، على الضوء المشبَّع بالدخان وبالفتورْ
ظلاً كألوانٍ حيارى واهياتٍ من حريقِ
ناء. تهوّم، في الدجى الضافي، على وجه حزين.
وتلوح أشباحٌ عجافُ
خلف الزجاج.. تهيم في الضوء السراجيّ الغريقِ.
ويشدُّ حفار القبور على الزجاجة باليمين،
وكمن يحاذر أو يخافُ
يرنو إلى الدرب المنقط بالمصابيح الضئال،
وتحركت شفتاه في بطء وغمغم في انخذال:
"أظننت أنك سوف تقتحم المدينة كالغزاه..

كالفاتحين. وتشتريها بالـذي ملكت يداك:
بأقل من ثمن الطلاء القرمزيِّ على شفاه
أو في أظافر لاحقتها، ذات يوم، مقلتاك،
سأعودُ، لا نَمَدٌ تعصّره يدي حتى الذهولْ،
حتى التأوه، والأنينِ وصرخة الدم في العروقْ
والسكرةِ العمياءِ.. والخدر المضعضع.. والأفول!
والأذرع المتفتّرات – يلوّن الضوءُ الخفوقُ
هزاتها المستسلمات، وينفح الدم والعبيرْ
ظلٌّ لهن على السريرْ.
الأذرع المتفتراتُ، وزهرتان على الوسادْ
نسجتهما كفٌّ مخضَّبة الأظافرِ – زهرتانِ
تتفتحان على الوسادة كالشفاه – وتهمسان
نغماً يذوب إلى رقادْ.
ونعومة الكتفين، والشعر المعطَّر، والشحوبُ،
وتألق الجيد الشهيِّ ولفحةُ النفس البهيرِ.
والنور منفلتاً من الأهداب.. تثقله الطيوبُ،
قلقاً كمصباح السفينة راوحته صباً لعوبُ،
وتخافق الأظلال في دعةٍ، ووسوسةُ الحريرِ.
والحلمتان: أشد فوقهما بصدري في اشتهاءْ –
حتى أحسهما بأضلاعي وأعتصر الدماء
باللحمِ والدمِ والحنايا، منهما – لا باليدين،

حتى تغيبا فيه – في صدري – إلى غير انتهاء،
حتى تمصّا من دماي... وتلفظاني، في ارتخاء،
فوق السرير...

وتشرئبّا

ثمّ نشوي جثتينْ!"

* * *

دربٌ كأفواه اللحودْ –
لولا التماعات الكواكب، وانعكاس من ضياء
تلقيه نافذةٌ – ووقع خطىً تهاوى في عياء
يُصدي له الليلُ العميق، وحارسٌ تعبٌ يعودْ
وَسْنان يحلم بالفراش وزوجة: تُذكي السراجْ
وتوجّج التنّورَ صامتةً.. وأخيلةُ اللهيب
تُضفي عليها ما تشاءُ من اكتئاب وابتهاجْ.
ثمّ اضمحلّ الحارس المكدود، والنغم الرتيبْ:
– وقع الخطى المتلاشيات. كأنه الهمس المريب –
ما زال يخفق من بعيدْ.

وتململت قَدَمان، وارتفعت يدٌ بعد انتظارِ
وهوت على الباب العتيقِ، فأرسل الخشبُ البليدْ
صَوتاً كإيقاع المعاولِ حين إدبارِ النهار
بين القبور الموحشات. وأطبق الصمتُ الثقيلْ،
وأطلّ من إحدى النوافذ، وهي تُفتح في ارتيابْ،

وجهٌ حزين... ثم غاب!

وتحرَّك البابُ المضَعْضَع وهو يُجهِش بالعويلْ.

وتقول أنثى في اكتئاب:

"ضيفٌ جديدٌ!" ثم تفرك مقلتيها في فتور.

ويظلُّ يزحف كالكُسوف - يُحجّب الألقَ الضئيلْ

عن وجهها - ظلٌ يقيّدُها بحفّار القبور!

* * *

في زهوة الشَّفَقِ الملوَّن حيث يحترق النهارُ -

في عَودة الرُّعيان أشباحاً يظللها الغُبار -

في ساعة الشوْق الكئيبِ إلى شواطئ كالضباب،

وإلى أكُفٍّ مُخلصاتْ،

وإلى أغانٍ مُبهماتٍ هائماتٍ في شعاب

أنأى من الأصْداء.. تغشاها نُجومٌ ساهماتْ -

في ساعة الشَّفَق الملوَّن كان إنسانٌ يثورْ

بين الجنادل والقبورْ،

نَفسٌ معذَّبة تثورْ

بين الجنادل والقبور:

"أأظلُّ أحلم بالنُّعوش، وأنفضُ الدرب البعيدْ

بالنظرة الشَّزْراء، واليأس المظلَّلُ بالرجاءْ

يطفو ويرسب، والسماء كأنها صنمٌ بليدْ

لا مأملٌ في مقلتيه... ولا شواظَ... ولا رثاءْ؟

لو أنها انفجرتْ تُقهقـهُ بـالرعود القاصـفات!
لو أنها انكمشتْ وصاحت كالذئاب العاويـات:
"فاتَ الأوانُ، فخُطَّ لحدَكَ واثوِ فيه إلى النشـورِ!
لو أنها انطبقـت علـيَّ كأنهـا فـمُ أفعـوانْ!
لو أنها اعتصرتْ قواي!.
ومات ظلّ الأرجـوانْ
في آخر الأفق البعيـد، ولألأتْ قطـراتُ نـورِ
ممـا تُبعثـره المدينـةُ وهـي تبسـمُ في فتـور.
وكأنمـا رضـعتْ مصـابيحَ المدينـة مُقلتـاه
فَسرتْ لهيبـاً في دمـاهُ وألغمتْهـا بالرغـاب،
وكأنهُنَّ، على المـدى المقـرور، آلافُ الشّـفاه
تدعوه ظمأى، لاهثات.. مثل أحداق الـذّئاب:-
"ما زلت تحترقين من فَرحٍ، وأحتـرقُ انتظـارا،
صُبّي سناك على التراب
وعلى الكؤوس الفارغات: وبَعْثريه على كتـاب
أو بين أغطية الموائـد وهـي تنتظـر النـهارا..
ظلّتْ تُعابثها شفاه الريح، وانصرفَ السـكارى!
راحوا إليها مسرعين - إلى التي ارتعشتْ قواهـا
بين التوجعِ والذهول، على يـديَّ وفي دمـائي.
ليـلٌ وأعقبـهُ الصـباح.. ونبّـأتني مقلتاهـا
أنّا انتهينا.

يـا سمـاءُ، ويـا قبـورُ.. أمـا أراهـا؟

لا بُدَّ من هذا!" – وصوَّبَ مقلتيـه إلى السـماء

حنقاً يُزمجر، ثم أطـرقَ وهـو يحلـم باللقـاء:

بابٌ تفتَّح في الظلام. وضحكةٌ. وشذىً ثقيـلْ..

ويـدانِ تجتـذبان أغطيـةَ السـرير وتُرخيـانِ

إحدى الستائر...

ثم تنطفئـان في الضَّـوء الضـئيلْ!

وتغيم أخيلـةٌ وتجلـى – ثم تـبرز حَلمتـان...

ويُطلُّ وجهٌ شاحب القسمات مُختـلج الشـفاه.

وتغـيم أخيلـة وتُجلـى – ثم تُفـتح مقلتـاه:

فيرى القبورْ،

ويرى المصـابيح البعيـدةَ كالمجـامر في اتّقـاد،

ويرى الطريق إلى القبورْ

يكتظّ بالأشـباح زاحفـةً إليـه علـى اتّئـاد،

فيصيح من فرحٍ: "سألقاها، فإن علـى الطريـق

نعشاً... وإنْ حفَّ النساءُ به وأملـنَ حـاملوه!

إني سألقاها!" – وينهض وهـو يرفـع بـاليمين

فانوسَهُ الصدئَ العتيقْ

يلقي سناه على الوجوه

وعلى الدثار القرمـزيّ وفي عيـون القـادمين.

لو أنـه اخـترقَ الـدثارَ بمقلتيـه وبالضـياء –

لو حدّثَ التابوتُ عمَّنْ فيه... أو رفعـتْ يـداها
"أو هبّـةٌ للزعـزع النكبـاء حاشـيةَ الغطـاء
تحت النجومِ الساهمات...
لكاد ينكر من رآها!
ماتتْ كمنْ ماتوا، وواراها كما وارى سـواها:
واسترجعتْ كفّاه من يـدها المحطمـة الدفينـةْ
ما كان أعطاها - وإنْ حملتْ يدُ امـرأةٍ سـواها
تلك النقودَ.. بل البقايا مـن نفايـات المدينـةْ -
وتظل أنوار المدينـة وهـي تلمـعُ مـن بعيـد،
ويظلُّ حفار القبورْ
ينأى عن القبر الجديد
متعثّر الخطوات... يحلـم باللقـاء، وبـالخمور!

عصافيرُ؟ أم صبيةٌ تمرح
عنيها سناً من غد يُلمح؟
وأقدامُها العارية
تحارُ بصلصل في ساقية
لأذيالهم رفةُ الشمألِ
سرت عبر حقل من السبل
وهسهسة الخبز في يوم عيد
وغمغمة الأم باسم الوليد
تناغيه في يومه الأول

* * *

كأني أسمع خفق القلوع
وتصخاب بحارةِ السندباد:
رأى كنزه الضخم بين الضلوع
فما اختار إلاه كنزاً... وعاد!

* * *

صدى عابر من وراء العصور:
من الكهف، والغاب والمعبد
سرى دافئاً من عروق الصخور

وإزميل نحاتها المجهد
يغني بأشواقه العاتية
إلينا: (إلى القمة العاليه)...
إلى أن يفلَّ الردى بالحياه
وتلقاه أجيالها الآتيه
على صخرة حملتها يداه
تحاياه: في بسمة في الشفاه
وفي أعين حجَّرتْ مقلتاه
عليها دموعَهما الجاريه

* * *

صدىً رجَّعتْه الأكفّ الصغار
يصفِّقن في الشارع المشرق
كخفق الفراشات مرَّ النهار
عليها بفانوسه الأزرق

* * *

وكم من أبٍ آيب في المساء
إلى الدار من سعيه الباكرِ
وقد رمَّ من ناظريه العناء
وغشاهما بالدم الخاثر
تلقَّاه، في الباب، طفل شرود
يكركر بالضحكة الصافيه
فتنهلُّ سمحاء ملء الوجود

وتـــزرع آفاقـــه الداجيـــه

نجومـــاً، وتنســـيه عصـــبء القيـــود

* * *

وهـــم في ليـــالي الشـــتاء الطـــوال

ربيـــع مـــن الـــدفء والعافيـــه

تلـــمُّ العجـــائز فيـــه الـــورود

ويلمحـــن عهـــد الصـــبا ثانيـــه

ويرقصـــن بـــين الـــتلال

يـــرجّحن أرجوحـــة في الخيـــال:

بعـــذراء في ليلـــة مقمـــره

وفي ظـــل تفاحـــة مزهـــره

تنـــام العصـــافير فيهـــا...

وهـــم في الصـــباح

خطـــى خافقـــات علـــى السُـــلَّمِ

وأيـــدٍ علـــى أوجـــه النُـــوَّم

يدغدغنـــها في مـــزاح!

وأغنيـــة مـــن أغـــاني الطريـــق

بلحـــن ســـوى لحنـــها الأولِ

وشـــأوٍ مـــن الصـــوت مســـتعجلِ

وهـــم رفقـــة الأم إذ تســـتفيق

وإذ تشـــعل النـــار في الموقـــد!

كخيط ترى فيه بدء الغد!

* * *

عصافير؟ أم صبية تمرح؟
أم الماء: من صخرة ينضحُ
زهورٌ ونور
وقبُرّةٌ تصدحُ
وتفاحةٌ مزهره
لخفق العصافير فيها
صدى قبلة الأم تلقى بنيها
"دعيني .. فما تلك بالقبره!
دعيني أقُلْ إنه البلبلُ
وإن الذي لاح ليس الصباح"
أتلك السفين التي تُغْولُ؟
على مرفأ ناوحته الرياح؟
تُلَوِّحُ منها أكفٌّ الجنود
لألفِ كـ "جوليت" فوق الرصيف:
"وداعا وداع الذي لا يعود!"
وأمٍ كما استوحشتْ في الخريف
وراء الدجى، دوحةٌ عاريه
وفرَّت عصافيرها الشاديه!

* * *

عصافير؟ أم صبية تمرحُ؟

أم المـــاء مـــن صـــخرة ينضـــح

ولكـــن علـــى جثـــة داميـــه؟

وقبـــرة تصـــدحُ ولكـــن علـــى خربـــة باليـــه

عصافير؟!

بـــل صـــبية تمـــرح

وأعمارهـــا في يـــد الطاغيـــه

وألحانهـــا الحلـــوة الصـــافيه

تُغلغـــلَ فيهـــا نـــداءٌ بعيـــد

"حديد عتـــ...يـــق

رصـــا...ص

حـــديـــ...ـــد"

وكالظـــلّ مـــن باشـــق في الفضـــاء

- إذا اجتـــاح، كالمديـــة الماضـــيه

عصـــافيرَ تشـــدو علـــى رابيـــه -

ترامـــى إلى الصـــبية الأبريـــاء

نـــداءٌ تنشّـــقتُ فيـــه الـــدماء

"حديد عتيق...

حديد عتيـــق!

رصـــا...ص" فحـــتى كـــأن الهـــواء

رصـــاص، وحـــتى كـــأن الطريـــق

حديد عتيق.

ويـــــــنقضُّ، كــــــالمعولِ الحـــــافرِ

صــــدى راعــــبٌ مـــن خطــــى التــــاجر

لــــه الويــــــلُ... مـــــاذا يريــــــد؟!

"حديد عتيق

رصـــــا..ص

حديــــــد!"

لــــك الويــــل مـــــن تـــاجر أشــــأمِ

ومــــن خــــائضٍ في مســـيل الــــدم

ومــــن جاهــــلٍ أن مـــــا يشــــتريه

- لــــدرء الطـــوى والـــردى عـــن بنيـــه -

قبـــور يـــــوارون فيهـــــا بنيـــــه!

"حديد عتيق

رصــا...ص

حديـــــــد..

حديـــــدٌ عتيــــقٌ لمـــوتٍ جديـــــد!

* * *

"حــــد...يــــد"

لمـــــن كــــل هــــذا الحديــــــد!

لقيـــــدٍ ســــيُلوى علـــــى معصـــــمِ

ونصـــــلٍ علــــى حَلْمــــة أو وريـــــد

وقفــــلٍ علـــى البـــاب دون العبيــــد

وناعورةٍ لاغتراف الدمِ

"رصا..ص"

لمن كل هذا الرصاص؟

لأطفال كوريَّةَ البائسين

وعمال مرسيليا الجائعين

وأبناء بغدادَ والآخرين

إذا ما أرادوا الخلاص

حديد

رصاص

رصاص

رصاص!

(حديد...)

وأصغي إلى التاجرِ

وأصغي إلى الصبية الضاحكين

وكالنصل قبل انتباه الطعين

وكالبرق - ينفضُ في خاطري

ستارٌ، وكالجرح إذ ينزفُ -

أرى الفوَّهات التيَ تقصف

- تسدُّ المدى - واللظى والدماء

وينهلُّ كالغيث، ملء الفضاء

رصاص ونار ووجه السماء

عبوسٌ لما اصطكَّ فيه الحديد..

حديد ونار، حديد ونار

وثَمَّ ارتطامٌ، وثْمَّ انفجار

ورعد قريب، ورعد بعيد

وأشلاء قتلى، وأنقاض دار!

حديد عتيق لغزوٍ جديد

* * *

حديد ليندكَّ هذا الجدار

بما خَطَّ في جانبيه الصغار

وما استودعوا من أمان كبار:

"سلام"

كأن السنا في الحروف

تخطّى إليها ظلامَ الكهوف

بآمال إنسانها الأولِ

وما اختط من صورة في الحجار

تحدّى بها الموت: فهي انتصار

وتَوْقٌ إلى العالم الأفضلِ!

"حديد

رصا..ص

حديد عتيق

رصاص..." ليخلوَ هذا الطريق

مـــن الضـــحكة الثـــرَّة الصـــافيه
وخفـــقِ الخطـــى والهتـــاف الطـــروب
فمـــن يمـــلأُ الـــدار عنـــد الغـــروب
بـــدفء الضـــحى واخضـــلال الســـهوب؟
لظـــى الحقـــد في مقلـــة الطاغيـــه
ورمضـــاءُ أنفاســـــه الباقيـــــه
يطوفـــان بالـــدار عنـــد الغـــروب
وأطـــلالها البـــاليـــه!
"حـــديد عتيـــق
نحـــاس عتيـــق"
وأصـــــداء صـــــفَّارة للحريـــق!

* * *

"حـــديد، حـــديد"
وأمٌّ تبيـــــع الســـــرير العتيـــق
تبيـــع الحديـــد الـــذي أمـــس كـــان
مهـــاداً عليـــه التقـــى عاشـــقان
وشـــدَّ نـــداء الحيـــاة العميـــق
ذراعـــاً بـــأخرى، فمـــا تخفقـــان!
فيـــا حســـرتا حـــين يمســـي غـــدا
شـــظايا تـــدوّي وبعـــض المُـــدى
تُنحَّـــى بهـــا عـــن ذراع ذراع

وينهدُّ مهدٌ، ويخبو شعاع!

* * *

أمن حيث كان التقاء الشفاه

على الحب: ينسجن خيط الحياه

يحوك الردى غزلَه الأسودا

دماً أو دخاناً؟ يحوك الردى

شباكاً من النار حول البيوت

على صبية أو صبايا تموت؟

وأرباب (وول ستريت) القساه

يحيلون حتى حديد السرير

جناحاً عليه المنايا تغير

وحتى الذي في عيون الدمى

من المعدن الزئبقيّ الحسير

رصاصاً أبحَّ الصدى، مُرْزِما.

* * *

"حديد عتيق، حديد، حديد"

وأقدامُها العاريه

محارٌ يصلصل في ساقيه

ويعتاد بالي - كرعد بعيد -

ضجيجُ الخطى و تيار الصخور

وخفقُ الفوانيس في المنجمِ

وما نضَّ من عاريات الظهور

ومـــا انســـحَّ في ســـعلةٍ مـــن دم!

ومـــلء الســـنا مـــن غبـــار الحديـــد

نـــواقيسُ فيهـــا يـــرنُّ الســـكون...

وأجـــراس مركبـــةٍ مـــن بعيـــد

يخـــفُّ لهـــا صـــبية يلعبـــون:

نـــواقيس في الفجـــر، واليـــوم عيـــد

وفي المـــاء أطـــلال جســـر جديـــد

وهمـــس النـــواعير، والزارعـــون

وفي كـــل حقـــل - كنـــبض الحيـــاه -

تهـــزُّ المحاريـــث قلـــبَ الثـــرى

وتبـــنى القـــرى:

قـــرى ، طينُهـــا مـــن رمـــيم الطغـــاه

وتخضـــلُّ حـــتى الصـــخور الضـــنينهْ

ويثمـــر حـــتى ســـراب الفـــلاه

مدينـــه

فـــأخرى، فـــأخرى، إلى منتـــهاه!

* * *

"حـــديد... حـــديد!"

وأقدامُهـــا العـــاريه

وخفـــقُ الفـــوانيس في المـــنجم

وأعماقُـــه الرطبـــة الداجيـــه

كظلِّ الردى فاغراتُ الفم

كبئر من الظلمة الطاميه

ستمتاح منها ألوفُ القبور

ويهوي – مع الزعزعِ العاتيه –

عمى مر دجاها على كل نور:

على النور من باب كوخ مضاء

ومن كوَّةٍ في خيام الرعاء

ومن شرفة ظلُّها الياسمين

– "دعيني أقل إنه البلبلُ

وإن الذي لاح ليس الصباح" –

على النور من موقد السامرين

ومن مدرج بالسنا يُغسلُ

على كل نور، تذرّ الرياح

ظلال الطواغيت في المنجمِ

كناعورة لاغتراف الدمِ

تذر الرياح، الرياح، الرياح

أراجيح في الملعب المظلمِ

وخفق الفوانيس والأنجم

وخفق الخطى والأكفّ الصغار

وخفق الفراشات مرَّ النهار

عليها بفانوسه المعتمِ

فمــــن يمــلأُ الـــدار عنـــد الغـــروب

بـــدفء الضـــحى واخضـــلال الســـهوب؟

رصـــاص، حديـــد، رصـــاص، حديـــد

وآهـــاتُ ثكلـــى، وطفـــلٌ شـــريد!

* * *

ومـــن يُفْهِـــمُ الأرض أن الصـــغار

يضـــيقون بـــالحفرة البـــارده[1]؟

إذا استنـــزلوها وشـــطَّ المـــزار

فمـــن يتبـــع الغيمـــةَ الشـــارده؟

ويلـــهو بلقـــط المحـــار؟

ويعـــدو علـــى ضـــفَّة الجـــدول؟

ويســـطو علـــى العـــش والبلبـــل؟

ومـــن يتـــهجى – طـــوال النـــهار –

ومـــن يلثـــغ الـــراء، في المكتـــبِ؟

ومـــن يرتمـــي فـــوق صـــدر الأب

إذا عـــاد مـــن كـــدِّه المتعـــبِ؟

ومـــن يـــؤنس الأم في كـــل دار؟

أســـىً موجـــعٌ أن يمـــوت الصـــغار

أســـى ذقـــتُ منـــه الـــدموع، الـــدموعَ

أجاجـــاً ومثـــل اللظـــى في الفـــمِ

---

[1] يحدث سيتويل في قصيدتها لمْ ترثي طفلها: "إن الأرض عجوز شاخت حتى لا تعلم بأن الصغار جركون كظلال الربيع".

وأحسست فيه اشتعالَ الدمِ

بعينيَّ، من نازفات الضلوع:

عويلٌ من القرية النائيةْ

وشيخ ينادي فتاه الغريقْ

هذا الطريق وذاك الطريق

ويسعى إلى الضفة الخاليةْ

يسائل عنه المياه

ويصرخ بالنهر يدعو فتاه

ومصباحُه الشاحبُ

يغّني سدى زيتُه الناضبُ:

"محال تراه!"

ويحنو على الصفحة القاتمه

يحدّق في لهفة عارمةْ

فما صادفت مقلتاه

سوى وجهه المكفهرِّ الحزين

ترجرجه رعشةٌ في المياه

تغمغم: "لا، لن تراه!"

* * *

"حديد عتيق" ورعب جديدا

"حديد

رصا..ص

لأن الطغاه

يريدون ألا تُنمَّ الحياه

مداها، وألا يحسَّ العبيد

بأن الرغيف الذي يأكلون

أمرُّ من العلقمِ

وأن الشراب الذي يشربون

أجاجٌ بطعم الدمِ

وأن الحياة الحياة انعتاق

وأن ينكروا ما تراه العيون:

فلا بيدرٌ في سهول العراق

ولا صبيةٌ في الضحى يلعبون

ولا همس طاحونةٍ من بعيد

ولا يطرق الباب ساعي البريد

ببشرى، ولا منزلُ

يضيءُ الدجى منه نور وحيد

سخيٌّ كما استضحك الجدولُ

ولا هدهداتٌ، ولا جلجلْ

يرنُّ بساق الوليد

وبين الربى في رقاب الجداء

ولا وسوس الشاي فوق الصِّلاء

ولا قصةٌ في ليالي الشتاء

لأن الطواغيت لا يسمعون

صداحَ العصافيرِ في المغرب

- كما صلصلَ الفضةَ القامرون -

ولا زفّةَ السنبلِ المذْهَب

لأن الطواغيت لا يعلمون

بغيرِ المبيعات والأسهمِ

وأن الطواغيت لا يسمعون

سوى رنّة الفلس والدرهمِ

لأن الطواغيت لا يبصرون

على الشاطئِ الأسيوي البعيد

سوى أن سوقاً يباع الحديد

وتُستهلك الريح والنار فيها

تدرّ العطايا على فاتحيها

* * *

بأقدام أطفالنا العاريه

يميناً، وبالخبز والعافيه:

إذا لم نعفّرْ جباهَ الطغاه

على هذه الأرجل الحافيه

وإن لم نذوّبْ رصاصَ الغزاه

حروفاً هي الأنجم الهاديهْ

(فمنهن في كل دار كتاب

ينادي: قفي واصدأي يا حراب)

وإن لم نضوِّ القرى الداجيه

و لم نخـــرس الفُوَّهـــات الغضـــاب

ونُخْـــلِ المغيريـــن عـــن آســـيه

فـــلا ذكرتنـــا بغـــير السِّـــباب

أو اللعـــن أجيالُنـــا الآتيـــه!

* * *

ســـلام علـــى العـــالم الأرحـــب

علـــى الحقـــل، والـــدار، والمكتـــب

علـــى معمـــل للـــدمى والنســـيج

علـــى العـــشّ والطـــائر الأزغـــب

علـــى التـــوت وشـــنان فيـــه الأريـــج

ووقـــع المجـــاذيف في المغـــرب

علـــى زهـــرةٍ في وســـاد العـــروس

علـــى صـــبيةٍ في انتظـــار الأب

علـــى شـــاعر تســـتحمُّ الشـــموس

بعينيـــه، يصـــغي إلى جنـــدب

ســـلام علـــى العـــالم الأرحـــب

ســـلام علـــى (الكـــنج)[1] فـــاض النعـــيم

ورنـــتْ أغاريـــدُ في ضـــفتيه:

قـــرى مـــن ســـناً عاصـــرات عليـــه

عناقيـــدَ مـــن ضـــوئهن العظـــيم

---

[1] وردت كلمة "الدون" في طبعة سابقة، ووردت في طبعة أخرى "الكنج"

سلام على الصين والحاصدين
وصياد أسماكها الأسمرِ
وما أنبتت من دم الثائرين
وما افترَّ في البيرق الأحمر
على صبية في قراها البعاد
وفي ظل تفاحها المزهر
وما حزَّرت في ليالي الحصاد
ثياب العذارى على البيدر
سلام لأن الربيع
يمرُّ بودياننا كلَّ عام
وما زال قوس الغمام
وأجدى على الأرض، من أن يبيع
طواغيت (وول ستريت) الحديد
عشيش جديد!
ولولا الذي كدَّسوا من نضار
به يستضيئون دون النهار
تجوع الملايين عن جانبيه
ويسحطُ، في كل يوم، عليه
دمٌ من عروق الورى أو نثار
كذرٍّ الغبار
لما هزت الأمهات المهود
على هوَّة من ظلام اللحود
ولم تذرف الدمع عبَرَ البحار
وعبر الصحارى، نساءُ الجنود

ولم يرفـــع الـــــزارع الأشـــيبُ

إلى مقلتيـــــه، اليـــــدَ الراجفـــــه

تحـــدِّق في عتمــــــة العاصـــــفهْ

ويصـــغي وفي روعــــه "القاصـــفه"

ولم يبـــكِ صــــرعى بنيـــه الأبُ

جزوعـــاً بـــأن يثكـــل الآخـــرين

ولا شـــرّدت نومـــــةَ العاشـــقين

كـــوابيس مــــن أعـــين الهـــالكين

وأرنـــان صفـــارة تنعـــبُ:

"وغـــى..." فاســـتفاقوا ولا كوكـــبُ

ولا لمعـــةٌ مـــن ســـراج تـــبين

ســـوى قعقعـــات الســـلاح

وعصـف الريـاح

ولا ســـاءل الأمَّ طفـــلٌ غريـــر.

"ألا بلـــدةٌ لـــيس فيهـــا سمـــاء؟"

- فـــلا قاذفـــات المنايـــا تغـــير

ولا مـــن شـــظايا تســـد الفضـــاء -

ولم تحصـــد النـــارُ حـــيَّ الزنـــوج

ولا مـــجَّ فيـــه الرصـــيفُ الـــدماء

ولا اجتاحـــه المجرمـــون العلـــوج

بمـــا جـــرروا مـــن غـــلاظ الحبـــال

ومـــا صـــفدوا مـــن رقـــاب الرجـــال

ولا أن مرضـــــى بطـــــاء الليـــــال

ولا اخـــتضَّ في الصرصـــر اللاجئـــون

ولألاء (يافــــا) تـــــراه العيـــون

وقـــد حـــال مـــن دونـــه الغاصـــبون

بمـــا أشـــرعوا مـــن عطـــاش الحـــراب

ومـــا اســـتأجروا مـــن شـــهود كـــذاب

ومـــا صـــفّحوا بـــالردى مـــن حصـــون

ســـلام علـــى العـــالم الأرحـــب

علـــى مشـــرق منـــه أو مغـــرب

ســـلام لآفـــونَ روَّى عـــروق

شكســـبير والزهـــر والداليـــه.

أفـــقْ شـــاعر النـــور، إن الشـــروق

تهـــدده غيمـــة داجيـــه

ســـعى (مكبـــثٌ) نحـــها في احتـــراس

لقتل النعاس

لقتل النعاس البريء...

ســـلام لبـــاريس "روبســـبير"

و"إلـــوارَ" والغابـــة الحالمـــه

وعشـــاقها في المســـاء الأخـــير

تـــذرّيهمُ قـــوة ظالمـــه

كدوّامـــــة مـــن ريـــاح الســـعير.

علـــى (تـــونسٍ) مـــن لظاهـــا ظـــلال

وحـــول (الربـــاط) المـــدمَّى هـــدير

وفي جـــيرة الصـــين حـــلَّ انخـــذال

بقطعانهـــــا الفظّـــــة الضـــــاربه.

لـــك المجـــد يـــا آسيـــه!

ســـــلام لفينـــــيس والكرنفـــــال

وأضـــــوائه النـــــرة الزاهيـــــه

وهمـــس المحـــبين بـــين الظـــلال

وفي دفء قمْرائـــــه الضـــــاحيه

ســـلام علـــى المسيســـي الكـــبير

ومـــا طـــاف مـــن أغنيـــات الزنـــوج

بشـــطّيْه وانســـاب عـــبر المـــروج

هنـــاك اســـتقل الضـــياء الأســـير

إلـــهُ الـــوغى، مركبـــاً للـــدمار

يـــرشُّ الجـــرائيم، حيـــث اســـتدار

بأعجالـــه القادحـــات الشـــرار

ويُـــدمي الشـــيوخ، ويصْـــلي الصـــغار

شآبيب نـــار

ومـــا شـــاء مـــن زعـــزعٍ عاتيـــه

تبيــــــد الملايـــــين في ثانيـــــه.

* * *

عصـــــافير؟ أم صـــــبية تمــــــرح؟

أم المــــاء مـــن صـــخرة ينضـــح؟

وأقدامهــا العــاريه

مصـــابيح مـــلء الـــدجى تُلْمَـــحُ

هتكنــــا بهـــا مكمــــن الطاغيـــه

وظلْمـــــاء أوجـــارِه الباليـــــه

علينــــا لهــــا: أنهـــا الباقيـــه

علينــــا لهــــا: أنهـــا الباقيـــه

وأن الــــدواليب في كـــل عيـــد

ســـترقى بهـــا الـــريح.. جـــذلى تـــدور!

وترقـــى بهـــا مـــن ظـــلام العصـــور

إلى عـــالم كـــلُّ مـــا فيـــه نـــور

فقـــد لاح فجـــرُ انطـــلاق العبيـــد

وأنّـــا رفعنـــا لـــواء الســـلام

رفعنـــاه.. فليخســـأنّ الظـــلام!

* * *

(رصاص، رصاص، رصاص،

حديـــد، حديـــد عتيـــق)...

لكونٍ جديـــد!


الناشيء

المَعبَدُ الغريق

(١٩٦٢)


الناشيء

شبـاك وفيقــة (١)

شبّاكُ وفيقةَ في القريه
نشوان يطلّ على الساحه
(كجليل تنتظر المشيه
ويسوعَ) وينشر ألواحه —
إيكار يمسّح بالشمس
ريشات النسر وينطلقُ،
إيكار تلقّفه الأفق
ورماه إلى اللجج الرمس —
شبّاك وفيقةَ يا شجره
تتنفّسُ في الغَبَش الصاحي
الأعين عندك منتظره

تترقّب زهرةَ تفاح،
وبُوَيب نشيدْ
والريح تُعيدْ
أنغام الماء على السَّعَف
ووفيقةُ تنظر في أسف

من قاع القبر وتنتظرِ

سيمرّ فيهمسه النّهرُ

ظلاً يتماوج كالجَرَسِ

في ضحوة عيدْ،

ويهفّ كحبات النّفسِ.

والريح تُعيد

أنغام الماء (هو المَطَرُ)

والشمس تكركر في السعف.

شباك يضحك في الأَلَقِ؟

أم باب يُفتَح في السورِ

فتفر بأجنحة العَبق

روح تتلهف للنورِ؟

يا صخرةَ معراج القلب

يا "صورَ" الألفة والحبِّ

يا درباً يصعد للربّ

لولاك لما ضحكتْ للأنسام القريه،

في الريح عبير

من طوق النهر يهدهدنا ويغنينا

(عوليس[1] مع الأمواج يسير

---

[1] هو اوديسيوس بطل الأوديسة.

والريح تذكّره بجزائر منسيّه:
"شبنا يا ريح فخلّينا")

العالم يفتح شبّاكه
من ذاك الشباك الأزرقْ،
يتوحّد، يجعل أشواكه
أزهاراً في دعة تعبق.

شباكٌ مثلك في لبنان،
شباكٌ مثلك في الهند،
وفتاة تحلم في اليابان
كوفيقة تحلم في اللّحد
بالبرق الأخضر والرعد.

شباك وفيقة في القريه
نشوان يطل على الساحه
(كجليل تحلم بالمشيه
ويسوع).
ويُحرق ألواحه.

أطلّي فشبّاكك الأزرقُ
سماء تجوع،
تبيّنتُه من خلال الدموع
كأني بي ارتجف الزورق.
إذا انشقّ عن وجهك الأسمر
كما انشقّ عن عشتروت المحار
وسارت من الرغو في مئزر
ففي الشاطئين اخضرار
وفي المرفأ المغلقِ
تصلّي البحار.
كأني طائر بحرٍ غريب
طوى البحر عند المغيب
وطاف بشبّاكك الأزرق
يريد التجاءً إليه
من الليل يربدّ عن جانبيه
فلم تفتحي.
ولو كان ما بيننا محض باب

لألقيتُ نفسي لديك
وحدّقت في ناظريك.
هو الموت والعالم الأسفلُ
هو المستحيل الذي يُذهل.
تمثّلت عينيك يا حفرتينِ
تطلان سخراً على العالمِ
على ضفة الموت بوّابتين
تلوحان للقادم.
وشبّاكك الأزرقُ
على ظلمةٍ مطبقُ،
تبدّى كحبل يشدّ الحياه
إلى الموت كيلا تموت.
شفاهك عندي ألذّ الشفاه
وبيتُك عندي أحبّ البيوت
وماضيك من حاضري أجملُ:
هو المستحيل الذي يُذهل:
هو الكامل المنتهي لا يريد
ولا يُشتهى أنه الأكملُ،
ففي خاطري منه ظلّ مديد
وفي حاضري منه مستقبلُ.

* * *

تُرى جاءكِ الطائرُ الزنبقيّ

فحلّقت في ذات فجر معَه

وألقى نعاس الصباح النقيّ

على حسِّك المشتكي بُرْقُعَه؟

وفتّحت عينيكِ عند الأصيل

على مدرجٍ أخضر

وكان انكسار الشعاع الدليل

إلى التل والمنـــزل المرمر.

هناك المساء اخضرارٌ نخيل

من التوت والظل والساقيه

وفي الباب مدّ الأمير الجميل

ذراعيه يستقبل الآتيه:

"أميرتي الغاليه

لقد طال منذ الشتاء انتظاري

ففيم التأني وفيم الصدود؟"

* * *

وهيهات أن ترجعي من سفار

وهل ميِّتٌ من سفار يعود؟

جيكور ١٩٦١/٤/٢٩

حدائق وفيقة*

لوفيقه

في ظلام العالم السفليّ حقل

فيه مما يزرع الموتى حديقه

يلتقي في جوها صبح وليل

وخيال وحقيقه

تنعس الأنهار فيها وهي تجري

مثقلات بالظلال

كسلال من ثمار، كدوال

سُرّحت دون حبال

كل نهر

شرفة خضراء في دنيا سحيقه

ووفيقه

تتمطى في سرير من شعاع القمر

زنبقيٌّ أخضر،

في شحوب دامع، فيه ابتسام

* نشرت هذه القصيدة في مجلة "الأديب" البيروتية – عدد أكتوبر ١٩٦١، ثم نشرها الشاعر بعد ذلك في ديوان "المعبد الغريق" – ص ١٧، وهي مؤرخة بتارخي ١٩٦١/٨/١٢ وقد أجرى الشاعر في النص الثاني المنشور في المعبد الغريق عدة تعديلات لغرض فني، ذلك أنه حذف فقرتين في النص الذي كان قد نشر في "الأديب" لأنهما من وزن مختلف عن الوزن الذي استخدمه في بقية فقرات قصيدة. كما سأبين.

مثـــل أفـــق مـــن ضـــياء وظـــلام

وخيـــال وحقيقـــه

أي عطـــر مـــن عطـــور الـــثلج وان

صعَّدتـــه الشفتـــان

بـــين أفيـــاء الحديقـــه

يا رفيقـــه؟

* * *

نخالهـــا تلـــوح في القـــرار

مـــن جـــدول أحالـــه النـــهار

صـــدى مـــن الميـــاه مقمـــرا

كـــأن عشـــتروت آخـــى فوقهـــا الحجـــار

صـــفائحاً مـــن الزجـــاج، أصـــبح الثـــرى

ذرّاً مـــن الضـــياء والغبـــار

* * *

والحمـــام الأســـود

يـــا لـــه شـــلالَ نـــور منطفـــي!

يـــا لـــه نهـــر ثمـــار مثلـــها لم يُقطـــف!

يا لـــه نـــافورةً مـــن قـــبر تمـــوز المـــدمّى تصـــعد

والأزاهـــير الطـــوال، الشـــاحبات، الناعســـه

في فتـــور عصـــرت إفريقيـــا فيـــه شـــذاها

ونداهـــا

تعزف النايات في أظلالها السكرى عـــذارى لا نراهـــا

روحـــــت عنـــــها غصـــــون هامســـــه

ووفيقـــــه

لم تـــــزل تثقـــــل جيكـــــور رؤاهـــــا

آه لـــــو روّى نخـــــيلات الحديقـــــه

مـــــن بويـــــب كركـــــرات! لـــــو ســـــقاها

منـــــه مـــــاء المـــــد في صـــــبح الخريـــــف!

لم تـــــزل ترقـــــب بابـــــاً عنـــــد أطـــــراف الحديقـــــه

ترهـــــف الســـــمع إلى كـــــل حفيـــــف!

ويحهـــــا... ترجـــــو ولا ترجـــــو وتبكيهـــــا مناهـــــا

لـــــو أتـــــاهـــــا...!

لـــــو أطـــــال المكـــــث في دنيـــــاه عامـــــاً بعـــــد عـــــامِ

دون أن يهـــــبط في ســـــلّم ثلـــــجٍ وظـــــلام!

* * *

هنـــــاك حـــــين يهـــــبط المـــــوت في ســـــكون

يسمـــــر العيـــــون

علـــــى شمـــــوش تنشـــــر الظـــــلام

هنـــــاك يســـــتنيم، في محفّـــــة الغصـــــون

شـــــذى إذا تنشـــــقته روح ميّـــــت غفـــــا

لـــــه، ونـــــام

شـــــعوره القـــــديم واســـــتراح للقتـــــام

ووفيقـــــه

تبعث الأشذاء في أعماقها ذكرى طويله

لعشيش بين أوراق الخميله

فيه من بيضاته الزرق اتقاد أخضر

(أي أمواج من الذكرى رفيقه)

كلما رفَّ جناح أسمر

فوقها والتم صدر لامعات فيه ريشات جميله

أشعل الجوُّ الخريفيُّ الحنانُ

واستعاد الضمة الأولى وحوَّاء الزمانُ

تسأل الأموات من جيكور عن أخبارها

عن رباها الرُّبد، عن أنهارها

آه والموتى صموت كالظلام

أعرضوا عنها ومروا في سلام

وهي كالبرعم تلتف على أسرارها

والحديقه

سقسق الليل عليها في اكتئاب

مثل نافورة عطر وشراب

وخيال وحقيقه

بين نهديك ارتعاش يا وفيقه

فيه بَرْدُ الموت باك

واشرأبت شفتاكِ

همسان العطر في ليل الحديقه

١٩٦١/٨/١٢

(المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها
تطاردها، وراء الليل، أشباح الفوانيسِ
سمعت نشيج باكيها،
وصرخة طفلها، وثغاء صادٍ من مواشيها،
وفي وهج الظهيرة صارخاً "يا حاديَ العيسِ
وعلى ألمِ مغنّيها.
ولكن لم أرَ الأموات يطردهنّ حفّارُ
من الحفر العتاق وينـــزع الأكفان عنها أو يغطيها –
ولكن لم أر الأموات، قبل ثراك، يُحليها
مجونُ مدينةٍ، وغناء راقصةٍ، وخمّارُ.
يقول رفيقيَ السكران: "دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر، تحضن الأحياء، تسقينا
شراباً من حدائق برسفون[1]، تعلّنا حتى
تدور جماجمُ الأموات من سُكْرٍ مشى فينا!"

[1] ابنة آلهة الخصب اليونانية، اختطفها بلوتو سيد العالم السفلي، عالم الموتى، فصارت تعيش معه هناك.

مدينتنا منازلها رحىً ودروبها نارُ،
لها من لحمنا المعروك خبزٌ، فهو يكفيها...
علام تمدّ للأموات أيديها، وتختارُ،
تلوك ضلوعَها وتقيئها للريح تسفيها؟!
تسلّل ظلّها الناريّ من سجْن ومستشفى
ومن مبغى ومن خمارةٍ   من كلِّ ما فيها،
وسار على سلالم نومنا زحفا
ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيبكيها.
وكانت، إذ يُطلّ الفجر، تأتيك العصافيرُ
تساقَطُ، كالثمار على القبور، تنقر الصمتا
فتحلم أعين الموتى
بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النورُ،
وتسمع ضجةَ الأطفال أُمّ ثلاثةٍ ضاعوا
يتامى في رحاب الأرض: إن عطشوا وإن جاعوا
فلا ساق ولا من مُطعمٍ، في الكوخ ظلوا واعتلى النعشُ
رؤوس القوم والأكتاف   أفئدةٌ وأسماعُ
ولا عينٌ ترى الأمّ التي منها خلا العشّ.
وفي الليلِ
إذا ما ذرذر الأنوارَ في أبدٍ من الظلمه،
ودبّتْ طفلة الكفّين، عارية الخطى، نسمه
تلمُّ من المدينة، كالمحار وكالحصى من شاطئٍ رملِ،

نثار غنائها وبكائها – لم تترك العتمه

سوى زَبَدٍ من الأضواء منثور

يذوب على القبور، كأنه اللبنات في سورِ

يباعد عالَمَ الأموات عن دنيا من الذلّ،

من الأغلال، والبوقات، والآهات، والزُّحمه.

وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموت

تقلّع أعينَ الأموات ثم تدسُّ في الحفرِ

بذور شقائق النعمان، تزرع حبّة الصمت

لتثمر بالرنين من النقود، وضجّة السفر،

وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها.

وعصّرت الدفين من النهود بكلِ أيديها

تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمَرِ

وتركلهنّ كالأكَر

تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها

وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجد

وعاد الحب ملمس دودة وأنين إعصار،

تثاءبت المدينة عن هوىً كتوقّد النارِ

تموت بجرّها ورمادها ودخانها الهاري،

ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابهْ

ترددها المقاهي: "ذلك الدلاّل جاء يريد أتعابه"

إذا سمعوك رنّ كأنه الجرس الجديد يرن في السحَرِ

صدى من غمغمات الريف حول مواقد السَمَر:

"إذا ما هزت الأنسام مهد السنبل الغافي

وسال أنين بجذاف

كأن الزورق الأسيان منه يسيلُ في حُلُم،

عصرتُ يديَّ من ألَمِ."

فأين زوارق العشاق من سيارة تعلو

بنت هوىً؟ وأين موائدُ الخمَّار من سهل يمد موائد القَمَر؟

على أمواتك المتناثرين بكلِّ مُنحَدَرِ

سلامٌ جال فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ،

على المتبدّلات لحودُهُمْ والغادِيات قبورُهم طُرقا

وطيبُ رقادهم أرَقا

يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلات في الدرب

ويرقب مَوْعدَ الربّ.

١٩٦١/٧/٢١

منطرحاً أمام بابك الكبيرْ

أصرخ، في الظلام، أستجيرْ:

يا راعيَ النمال في الرمالْ

وسامعَ الحصاة في قرارة الغدير.

أصيح كالرعود في مغاور الجبال

كآهة الهجير.

أتسمع النداء؟ يا بوركتَ، تسمعُ.

وهل تجيب إن سمعتَ؟

صائدُ الرجال

وساحقُ النساء أنتَ، يا مفجّعُ

يا مهلك العباد بالرجوم والزلازل

يا موحشَ المنازل

منطرحاً أمام بابك الكبير

أحسّ بانكسارة الظنون في الضمير.

أثور؟ أغضبُ؟

وهل يثور في حماك مذنبُ

* * *

لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ:

الهريُ بالغلال يزحم الظلام في مداه،
وحقليَ الحصيد نامٍ في ضحاه
نفضتُ من ترابه يديّ.
ليأت في الغداه
سواي زارعون أو سواي حاصدون!
لتنثرِ القبور والسنابلَ السنون!
أريد أن أعيشَ في سلام:
كشمعة تذوب في الظلام
بدمعة أموت وابتسام
تعبتُ من توقُّد الهجير
أصارع العباب فيه والضمير،
ومن لياليّ مع النخيل، والسراج، والظنون
أتابع القوافي
في ظلمة البحار والفيافي
وفي متاهة الشكوك والجنون.
تعبت من صراعي الكبير
أشقّ قلبي أطعم الفقير،
أضيء كوخه بشمعة العيون،
أكسوه بالبيارق القديمه
تنث من رائحة الهزيمه.
تعبت من ربيعي الأخير

أراه في اللقاح والأقاح والورود،

أراه في كل ربيع يعبر الحدود.

تعبتُ من تصنّع الحياه

أعيش بالأمس، وأدعو أمسيَ الغدا.

كأنني ممثل من عالم الردى

تصطاده الأقدار من دجاه

وتوقد الشموع في مسرحه الكبير،

يضحك للفجر وملء قلبه الهجير.

تعبت كالطفل إذا أتعبه بكاه!

* * *

أودّ لو أنام في حماك

دثاري الآثام والخطايا

ومهدي اختلاجة البغايا

تأنف أن تمسّني يداك.

أود لو أراك.. من يراك؟

أسعى إلى سدّتك الكبيره

في موكب الخطاة والمعذبين،

صارخة أصواتُنا الكسيره

خناجراً تمزّق الهواء بالأنين:

"وجوهنا اليباب

كأنما ما يرسم الأطفالُ في التراب،

لم تعرف الجمال والوسامه.

تقضّت الطفولة. انطفا سنا الشباب

وذاب كالغمامه،

ونحن نحمل الوجوه ذاتَها،

لا تلفت العيون إذ تلوح للعيون

ولا تشفّ عن نفوسنا، وليس تعكس التفاتَها.

إليك يا مفجّر الجمال، تائهون

نحن، نهيمُ في حدائق الوجوه. آهْ

من عالم يرى زنابق الماء على المياه

ولا يرى المحار في القرار

واللؤلؤ الفريد في المحار!"

* * *

منطرحاً أصيح، ألهث الحجار:

"أريد أن أموت يا إله!"

١٩٦١/٨/٢٦

المومس الأجيرة الحقيره
أكثر من حبيبتي سخاءا
أتيتُها مساءا
معانقاً أعانق الهواءا
هبّ من القطب على الظهيره،
مقبّلاً عيونها الخواءا،
كأنني كيشوت في الأصيل
يركض خلف ظله الطويل
ويطعن السنابل الكسيره
يظنها الأعداء.
ضممتُ منها جثةً بيضاءا
تكفنت من داخلٍ، وقبرها
في جوفها تناءى.
حملت منها صخرة صمّاءا
تشدني إلى الثرى،
أرفعها لتلثم الجوزاءا.
الحب أن تبذل، أن تنال ما تريدُ
كالنبع إذ يدفق، لا كالبئرِ،
كالنار تطوي نحوك السماءا

لا شرر الزناد.

أستزيدُ

فألتقي دمي، كغيمة تعيد نفسها للبحر.

أتعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجله

بأن ماءها سيستحيل غيمة إليها مقبله،

تبذله في الفجر

وتلتقي به قبيل العصر؟

أريد أن أضمّ، أن أقبِّلَ

الدم الذي ينبض في الشفاه

كأنما القلب الذي يقبِّلُ.

الجسد الموات لا يحس شهقة الإله

تغور كالمدية حين تقتل

فتبعث الحياة في القتيلِ.

أريد أن أحرق كالحريق من أخيلِ:

في القلب واليدين والكعبينِ

ويأكل النار لظى في عيني.

لو كان ما تحسه الحبيبه

الألم، الدوار... لا الخواءا

ما كنت مثل غيمة غريبه

ترعد حتى تشعل الهواءا

رعداً

وتأبى الأرض أن تجيبه!

البصرة ١٩٦١/١٢/٢٢

مطفأةٌ هي النوافذ الكثار

وباب جدّي موصَدٌ وبيته انتظار

وأطرق الباب، فمن يجيب، يفتحُ؟

تجيبني الطفولةُ، الشباب منذ صار،

تجيبني الجِرار جف ماؤها، فليس تنضح:

"بويب"، غير أنها تذرذر الغبار.

مطفأة هي الشموس فيه والنجوم.

الـــحُقُب الثلاث منذ أن خفقتُ للحياه

في بيت جديَ، ازدحمن فيه – كالغيوم

تُختصر البحار في خدودهن والمياه.

فنحن لا نُلمُّ بالردى من القبور

فأوجه العجائز

أفصح في الحديث عن مناجل العصور

من القبور فيه والجنائز.

وحين تقفر البيوت من بُناتها

وساكنيها، من أغانيها ومن شكاتها

نحس كيف يسحق الزمان إذ يدور.

* * *

أأشتهيك يا حجارة الجدار، يا بلاط، يا حديد، يا طلاء؟
أأشتهي التقاء كنَّ مثلما انتهى إليَّ فيه؟
أم الصِّبا، صباي والطفولة اللعوب والهناء؟
وهل بكيت أن تضعضع البناء
وأقفر الفناء أم بكيت ساكنيه؟
أم أنني رأيت في خرابك الفناء
محدِّقاً إليَّ منك، من دمي
مكشِّراً من الحجار؟ آه، أيَّ برعم
يُربُّ فيك؟ برعم الردى!! غداً أموت
ولن يظل من قواي ما يظل من خرائب البيوت:
لا أنشق الضياء، لا أعضعض الهواء،
لا أعصر النهار أو يمصّني المساء.

* * *

كأنّ مقلتيّ، بل كأنني انبعثت (اورفيوس)
تمصّه الخرائب الهوى إلى الجحيم
فيلتقي بمقلتيه، يلتقي بها، بيورديس:
"آه يا عروس
يا توأم الشبابْ، يا زنبقة النعيم!"
طريقه ابتناه بالحنين والغناء:
براعم الخلود فتّحت له مغالقَ الفناء.
وبالغناء، يا صباي، يا عظام، يا رميم،

كَسوتكَ الرُّواء والضياء

* * *

طفولتي، صباي، أين.. أين كلُّ ذاك؟

أين حياةٌ لا يحدّ من طريقها الطويل سور

كشّر عن بوّابة كأعين الشباك

تُفضي إلى القبور؟

والكون بالحياة ينبض: المياه والصخور

وذرة الغبار والنمال والحديد.

وكل لحن، كل موسمٍ، جديد:

الحرث والبذار والزهور.

وكل ضاحك فمن فؤاده، وكل ناطق فمن فؤاده

وكل نائح فمن فؤاده. والأرض لا تدور

والشمس، إذ تغيب، تستريح كالصغير في رقاده.

والمرء لا يموت ان لم يفترسه في الظلام ذيبْ

أو يختطفه ماردٌ، والمرء لا يشيب

(فهكذا الشيوخ منذ يولدون

الشعَر الأبيض والعصيّ والذقون).

* * *

وفي ليالي الصيف حين ينعس القَمَرْ

وتذبل النجوم في أوائل السَّحَرْ،

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدحٍ ليقتل السعال والهُزال.

وفي المساء كنت أستحمّ بالنجوم،

عيناي تلقطانهنَّ نجمةً فنجمةً، وراكب الهلال

سفينةً كأنّ سندباد في ارتحال:

شراعيَ الغيوم

ومرفأي المحال،

وأُبصر الله على هيئة نخلةٍ، كتاج نخلة يبيضُّ في الظلام،

أحسّه يقول: "يا بنيَّ، يا غلام،

وهبتُك الحياة والحنان. والنجوم

وهبتها لمقلتيك، والمطر

للقدمين الغضّتين. فاشرب الحياه

وعبّها، يحبّك الإله."

* * *

أهكذا السنون تذهبُ

أهكذا الحياة تنضب؟

أحس أنني أذوب، أتعبُ،

أموت كالشجرْ.

يتثاءب جسمك في خلدي

فتَحِنّ عروقْ،

عريان تزلّقَ في أبد

تُنهيه الرعشة، فهي شروق

في ليل الشهوة. كل دمي

يتحرق، يلهث، ينفجر،

ويقبّل ثغركِ ألفُ فمِ

في جسمي تُنبِتُها سَقَرُ

وأحنّ، أتوق.

* * *

وأحس عبيرَك في نَفَسي

ينهدّ، يدندن كالجرسِ.

* * *

ووليمةُ جسمكِ يا واها

ما أشهاها!!

* * *

يا فجر الصيف إذا بردا

يا دفء شتائي، يا قبلاً أظمأها

أحيا منها، وأموت بها وأضم الأمس

أمسَّ غدا

* * *

وتعود اللحظةُ لي أبدا.

ما أناى بيتكِ، ما أناى عينكِ

بحـــار،

* * *

وجبالُ دم: زَمنٌ جمدا

ليعود مدى. واحنُّ ، أُثار

* * *

فأحسّ عبيرك في نَفَسي

ينهد، يدندن كالجرسِ.

* * *

ما أسعدها، ما أشقاها؟!

أرضي، آسيةُ العريانه

أنا في روما أبكيها وأعيش بذاكرها

ألأنك فيها أهواها؟

* * *

من جوع صغارك يا وطني، أشبعتَ الغرب وغربانه.

صحراء من الدم تعوي، ترجف مقروره

ومرابط خيل مهجوره

ومنازل تلهث أوّاها

ومقابر ينشج موتاها.

وأحسّ عبيركِ في نَفَسي

ينهدّ، يدندنُ كالجرسِ

لو شئتُ لطيفكِ أوربا

وطناً، لحملتُ معي زادي

وعبرتُ مرافئها، وطويتُ شوارعها درباً دربا

أسقيه الشمس وأطعمه قُبلاً وبراعم أوراد.

لكنك أثبتُ في الشرق...

سأعود فأقطع سلّمنا وثبا

لأضمَّك يا أبدَ الشوقِ

يا نور المرفأ يهدي القلب إذا تاها

يا قصة عنترَ إذ تروى حول التنُّور فأحياها

سأحسّ عبيرك في نفَسي

ينثال ويقرعُ كالجرَسِ

روما ١٩٦١/١٠/١٩

قفي، لا تغربي، يا شمس، ما يأتي مع الليلِ
سوى الموتى. فمن ذا يُرجع الغائب للأهلِ
إذا ما سدّت الظلماء
دروباً أثمرت بالبيت بعد تطاول المحل؟
وان الليل ترجف أكبد الأطفال من أشباحه السوداء
من الشهب اللوامح فيه، مما لاذ بالظلّ
من الهمسات والأصداء.
شعاعك مثل خيط اللابرنث، يشدّه الحب
إلى قلب ابنتي من باب داري، من جراحاتي
وآهاتي.
مضى أزلٌ من الأعوام: آلاف من الأقمار، والقلب
يعد خوافق الأنسام، يحسب أنجم الليل،
يعد حقائب الأطفال، يبكي كلما عادوا
من الكتّاب والحقل.
ويا مصباح قلبي، يا عزائي في الملّمات،
مُنى روحي، ابنتي: عودي إليّ فها هو الزادُ
وهذا الماء. جوعي؟ هاكِ من لحمي

طعاماً. آه!! عطشى أنت يا أمي؟
فعبّي من دمي ماء وعودي.. كلهم عادوا.
كأنك برسفون تخطّفتها قبضة الوحش
وكانت أمها الولهى أقل ضنى وأوهاما
من الأم التي لم تَدْرِ أين مضيتِ
في نعش؟
على جبل؟ بكيت؟ ضحكت؟ هبّ الوحش أم ناما؟
وحين تموت نار الليل، حين يعسعس الوسن
على الأجفان، حين يفتش القصّاص في النار
ليلمح من سفينة سندباد ذوائبَ الصاري
ويُخفت صوته الوهَنُ،
يحن دمي إليك، يحن، يعصرني أسىً ضارِ.
مضت عشر من السنوات، عشرة أدهر سود
مضى أزلٌ من السنوات، منذ وقفتُ في الباب
أنادي، لا يردّ عليّ إلا الريحُ في الغاب
تمزق صيحتي وتعيدها... والدرب مسدود
بما تتنفس الظلماءُ من سُمُر وأعنابِ
وأنت كما يذوب النور في دوّامة الليل،
كأنك قطرة الطلِّ
تشرّبها التراب... أكاد من فَرَقٍ وأوصابِ

أسائل كل ما في الليل من شبحٍ ومن ظل،

أسائل كلّ ما طفلِ:

"أأبصرت ابنتي؟ أرأيتها؟ أسمعتَ ممشاها؟"

وحين أسير في الزحمه

أصغّر كل وجه في خيالي: كان جفناها

كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمه،

وكان جبينها... وأراكِ في أبد من الناسِ

موزّعة فاهٍ لو أراكِ وأنت ملتمّه!

وأنتِ الآن في سَحَر الشباب، عصيره القاسي

يغلغل في عروقك، ينهش النهدين والثغرا

وينشر حولك العطرا،

فيحلم قلبك المسكين بين النور والعتمه

بشيء لو تجسد كان فيه الموت والنشوه!

وأذكر أن هذا العالم المنكود تملأ كأسَه الشقوه

وفيه الجوع والآلام، فيه الفقر والداء.

أأنت فقيرة تتضرع الأجيال في عينيك، فهي فمُ

يُريد الزاد، يبحث عنه والطرقات ظلماءُ؟

أحدّق في وجوه السائلات أحالها السقمُ

ولوّحها الطوى، فأراك فيها، أبصر الأيدي

تُمَدّ، أحسّ أن يدي.. يدي معهن تعرض زرقة البرد

على الأبصار وهي كأنهن أدارها صنمُ
تجمَّدَ في مدى عينيه أدعيةٌ وسال دم
فأصرخ "في سبيل الله" تخنق صوتي الدمعه
بخيط الملح والماء.
وأنت على فمي لوعه
وفي قلبي، وضوء شع ثم خبا بلا رجعه
وخلّفني أفتش عنه بين دجى وأصداءِ

البصرة ١٩٦١/١٠/٦

وكانت تجمّعُ في خاطري

خيوطٌ ضبابيّةٌ قاتمةْ

نهاياتُها في المدى عائمة

وأعراقها السود في ناظري.

ودارتْ خيوطٌ ولُفّتْ سواها

فعانقنَ أفْقا

ووسوسْنَ غيماً على الريح مُلقى

تجمّعَ من كل صوب، ورعداً وبرقا:

لقد أغضب الآثمون الإلها

وحقّ العقاب!

يا أفراسَ الله استبقي

يا خيلاً من نارٍ وسحَاب،

من وقْع سنابكك الرعدُ

والبرق الأزرق في الأُفُق

وصهيلك صور لظىً وعذاب،

الوعد!! لقد أزف الوعدُ.

فيا قبضةَ الله، يا عاصفاتُ

يا قاصفات، ويا صاعقهْ
ألا زلزلي ما بناه الطغاةُ
بنيرانك الماحقه!
وتلتمّ في خاطري
خيوطُ السحاب
وتُلقى على الأُفقِ الدائرِ
وراء القباب:
وأحسستُ أن الغيوم انتظارْ
وأنّ انتظاراً يشدّ الترابْ
وأصدى... بماذا؟
بصوت انفجار
على الشطّ وادٍ وزمّ الشرار
ورقّعتُ بالنظرة الشامتهْ
ثقوبَ الكوى الصامته:
سيندكّ سورٌ، ستنصبّ نار.
وكان انتظار.
وجمّعت الأرضُ أطباقَها:
سيندكّ سورٌ، ستنصبّ نار،
وعصّرت السُّحْبُ أعراقها
فبلّ الثرى عاصفٌ ممطر!

جيكور ١٩٦١/١١/٣

عبرتُ أوربا إلى آسِيه
وما انطوى النهارْ
كأنما الجبال والبحار
رُبىً وأطرافٌ من الساقيه
يطفرها الصغار.
بين شروق الشمس والغروبْ
تعانق الشمال والجنوب
ونامت المروج في القفار.
وأنتِ يا ضجيعتي، كأنك الكواكبُ البعيده،
كأنّ بيننا من الكرى جدار.
تضمّك اليدان، تعصران جثة بليدهْ،
كأنني مُعانقٌ دمي على حجار
في منـــزلٍ لصوصُه الرياح والهجير والغيوم،
مساؤه السكون والنجوم
وصبْحه انتظار.
ترامت السنون بيننا: دماً ونار،
أمدّها جسور

فتستحيل سور،

وأنت في القرار من بحارك العميقه

أغوص لا أمسّها، تصكّني الصخور،

تقطّع العروق في يديّ، أستغيث: "آه يا وفيقه

يا أقربَ الورى إليّ أنت يا رفيقه

للدود والظلام".

عشر سنين سرتُها إليكِ يا ضجيعةً تنام

معي وراء سورها، تنام في سرير ذاتها،

وما انتهى السّفار

إليك يا مدينة السراب، يا ردى حياتها.

عبرت أوربا إلى آسيه

وما انطوى النهار،

وأنت يا ضجيعتي، مدينة نائيه

مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار.

البصرة ١٩٦١/١١/٢

"تنبأ عراف هندي بأن الحياة علـــى الأرض
ستنتهي يـــوم ٢ شـــباط ســـنة ١٩٦٢."

نبوءتُك المريرةُ عذّبتني، مزقت روحي؛
نبوءتك الرهيبةُ، أيها العراف تبكيني؛
رأيتَ مسالك الأفلاك تُهرع بالملايينِ.
قرأتَ خواطِرَ الريحِ
ووسوسة الظلام كأنّ حقلاً بات ينتحب:
"ستنطفئ الحياة"، ورحتَ ترسم موعدَ القدرِ.
إذا حدجتْنيَ الشهُبُ
هتفت بها: "غداً سنموت. فانهمري على البَشَرِ:
لأهْونُ أن أموت لديك وحدي دون حشرجةٍ ولا آنَهْ
من القدر المروِّع يجرف الأحياء بالآلافْ."
ولكني أصيخ إلى النهار فأسمع العراف
يهدِّد: "سوف يهلك من عليها، سوف تلتهبُ.
وتسرب في دمي جنّه.
وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظلَموت أحلامي
رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثم تنقطع

أفقتُ وما تزال تضيء في خَلَدي وتندلع
كما يتفجّر البركان في ظلمات ليل دون أنسامِ،
بلا قمر وإنْ يك في المحاق أكاد أُقتلع
أكاد أمزق الدم في عروقي بارتعادة روحيَ الحيرى...
أكاد أعانق القبرا.
أرى أفقاً وليلاً يطبقان عليّ من شُرفه
ولي ولزوجتي، في الصمت، عند حدودها وقفه
نحدّق في السماء ونمنع الطفلين من نظر
إلى ما في دجاها الراعب المأخوذ من سقر،
تطفّأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشرر
تطفّأ تحت ذيل الريح وهي تسُفّه سفّا،
كأنّ عصاً تسوق مواكب الأفلاك في صحراء من ظُلَمِ،
ويلهث تحتنا الآجرُ، يزحف تحتنا زحفا...
تضعضع فهو يُمسك نفسه ويئن من ألمِ
ليهويَ حين يغفل، حين يعجز ثم ينهارُ:
دجىً نُثرت لها نارُ.
بنيّ إليك صدري، فيه فادفنْ وجهك الطفلا
بنيّ صه أقصّ عليكَ... أيّة قصّة عندي؟
تفجّرت الفقاعة وانتهى أبدٌ إلى حدٍّ:
علام أتيتَ للدنيا؟
ليدركَ عُمْرُك الليلا؟

لتحيا أربع السنوات ثم لتبصر الساعه
تقوم ولست تُدرك ما تراه؟ تريد أن تحيا
وتجهل أن موتك فيه بعثُك، أن للدنيا
نهاية سلّمٍ يفضي إلى أبدٍ من الملكوت.

قلبُك؟ آه.... من راعه؟
بكاؤك وارتعابك فيهما لله إحراجُ
وباسمهما اسائله الحساب: أتصرع الأطفال
لتشهد لوعة الآباء؟ تسعد قلبك الآمال
تخيب!!

يكاد يهوي من صراخي عنده التاجُ
ويُهدم عَرْشُهُ ويخرّ، تُطفأ حوله الآباد والآزال
ويقطر لابن آدم قلبه ألماً وينفطر.

بغداد ١٩٦١/١١/٢٦

ذهبت فاستحال بعدك النهارْ

كأنه الغروبْ،

كأنما سحبت من خيوطه النّضار.

وظلّل المدارج انكسارْ

ومثلَها انكسرتُ، غام في خيالي الجنوبْ

ينوء بالخريفْ

تعرّت الكروم والجداول انطفأنَ، والحفيفْ

يموت في ذرى النخيل، والدروب،

بصمتها، انتظار.

كحّل عينيك سوادُ نار

تشبّ من قلبكِ، من براعم النهود،

يهتف بي إذا نظرت: أنتِ في استعار

يا أيّها البركان من ورود.

أوّاه لو أشدّ عينيك إلى النهار،

إلى غدٍ فوق دمي يحومْ.

أيُّ سماء أشعلتها رعشة النجومُ

وأثقل الظلام فيها من ندى المطرْ

نظرت من قرارها إليّ، كالغيوم

تكنُّ في اربدادها الزَهَرْ!

يا نظرةً تخطّفتني ريحها السّموم

إلى الضفاف الخضر من نَهَرْ

غرقتُ فيه، أشعليني! أطفئي اللهيبْ

يا نظرةً يشدّ قلبي بالسما وتر

يعزف مرُّها عليه غنوةَ القمر.

١٩٦٢/١/٢٠

يا نهر عاد إليك من أبد اللحود ومن خواء الهالكين
راعيك في الزمن البعيد، يسرّح البصر الحزين
في ضفتيك ويسأل الأشجار عندك عن هواه
أوراقها سقطت وعادت ثم أذبلها الخريف
وتبدلت عشرين مرَّه.
هيهات يسمع، إذ توسوس في الدجى، أصداء آه
بالأمس أطلقها لديك ترنُّ في جرس الخفيف.
كم قبلةٍ عادت دوائر في مياهك مستمرَّه،
دنياه كانت أمس فيك، فهل تعود إلى الحياه؟
ليودَّ من شغفٍ بمائك لو غدا
ظلاً يداعب فيه جنيّاته
متعلقاً بشراع كل سفينةٍ
ليجاذب الملاح أغنيّاتِه
وتلوذ أنوار النجوم بصدره
وتراقصُ الأمواج من ضحكاته.
ما أخيب الموتى إذا رجعوا إلى الدنيا القديمه
وتلصصوا يتطلعون كما تطلّع من كُوى دارٍ شريدُ

ورأى ثمار الجمر سالَ عصيرها دفئاً وحال عبيرها المهدودُ

ما أخيب الموتى تكاد تحيل موتهمُ الهزيمه

شيئاً أمرَّ من الحياه.

ما أخيبَ الموتى! تغير كل شيء، كل باقِ

مما أطلّ على الحياة لأنهم كانوا كُواه،

أم مات ما عرفوه إذ ماتوا، فليس سوى رؤاه؟

فتكبّدوا ألمَ الفراق،

ألم التغرُّب مرَّتينِ. فيا ضفاف النهر، يا أمواجه ومحاره

ماذا تبقّى فيكِ من أمس الهوى؟

الدوح أسلم للبلى ورقاته

وهي التي سمعت لديك حواره

وهي التي أودعتُ فيها، في الضحى،

قبلاتنا وطويت فيها ناره،

إني ذويتُ مع الظلام كما ذوى

يا ليت لي شفة فتلثم أو يداً فتمسَّ ماءَكْ.

إني لأكثر من غريب غربةً وأشد حيْره؛

لم يبق فيك سوى الزمان، وليس مما فيك قطره

من ماء أمس. كأن فجرَك عادَ قبل غدٍ مساءَكْ

وكأن ضفتك الحبيبة ضفّة الأبد البعيد.

يا نهر إن وردتْك "هالةُ" والربيع الطلق في نيسانه

ولّى صباها فهي ترتجف الكهولةَ، وهي تحلم بالورود

في حين أثقلها الجليدُ، كأن نبعاً في اللحود

تمتص منه عروقها دمها، فقل: لم ينس عهدك

وهو في أكفانه.

أبو الخصيب ١٩٦٢/٢/٢

وذرّى سكونَ الصباحِ الطويلْ
هُتافٌ من الدّيك لا يصدأُ
وهزّ الصدى سَعَفات النخيلْ
وأشرقَ شبّاكُنا المطفأَ.
هتافٌ سمعناه منذ الصِّغَرْ
سمعناه حتى نموتْ
يمرّ على عَتَبات البيوت
فيرسمُ أبوابَهَا والحُجَرْ
ولا يهدأ
إلى أنْ تسيرَ الحقولْ
إلينا فنقطفَ منها الثمرْ

* * *

وعند الضحى وانسكاب السماء
على الطِّين والعُشْبةِ اليابسه،
يشقّ إلينا غصونَ الهواء
صياحٌ، بكاءٌ، غناءٌ، نداء
يُبشّر شطآننا اليائسه
بأنّ المَطَرْ

على مَهْمه الرِّيح مدَّ القلوعْ،
هو البطّ... فَلْتَهنأي يا شموعْ
بموتٍ به تعرفين الحياةَ
به تعرفين ابتسامَ الدموعْ:
نذوراً تذوبين، للأَوْلياءْ.

* * *

صياحٌ... كأنَّ الصِّياحْ
ينشُرُ، مما انطوى من رياح،
سهولاً وراءَ السهولْ
أزاهيرُها في الدجى من نباح
وعند النهار خُزامى، أقاحْ
وختميَّةٌ ما لها من ذيول...
ينشُرُ في شاطئٍ مُشمسِ
من القَصَبِ الكث غاباً له عَذَبات تطولْ.
صياحٌ كأجراس ماءٍ... كأجراس حقْلٍ من النرجسِ
يُدنْدنُ والشمسُ تُصغي، يقولْ
بأنَّ المطرْ
سيهطلُ قبل انطواء الجناح
وقبل انتهاء السَّفَرْ....

١٩٦٢/٣/١٨

خيولُ الريح تصهلُ، والمرافئُ يَلْمسُ الغَرْبُ
صواريَها بشمس من دمٍ، ونوافذُ الحانه
تراقَصُ من وراءِ خصاصها سُرُجٌ، وجمّع نَفْسَه
الشَّـــرْبُ
بخيْط من خيوط الخوْف مشدوداً إلى قنّينةٍ، ويمدّ آذانه
إلى المتلاطم الهدّار عند نوافذ الحانهْ.
وحدّث — وهو يهمس جاحظَ العيْنيْن، مرتعدا،
يعبّ الخَمْرَ — شيخٌ عن دجىً ضافٍ وأدغال
تلامحَ وَسْطَها قَمَرُ البحيْرةِ يلثم العَمَدا...
يمسّ البابَ من جنبات ذاك المَعْبد الخالي
طواهُ الماءُ في غَلَسِ البحيرةِ بيْن أحراش مبعثَرةٍ
وأدغالِ.

* * *

هنالك قَبْلَ ألْفٍ، حينَ مجّ لظاه من سَقَرِ
فمٌ يتفتّح البُرْكان عنه فتنفضُ الحُمّى
قرارةَ كلّ ما في الواد من حَجَرٍ على حَجرٍ،
تفجَّر باللظى رَحمُ البحيرة ينثر الأسماكَ والدمَ،
مُرْغياً سُمّا

وقرَّ عليه كلكلُ معبدٍ عصفتْ به الحمّى.

تطفأ في المباخر جَمْرُها وتوهّجَ الذّهَبُ

ولاح الدُرّ والياقوت أنماراً من النورِ،

نجوماً في سماء الماء تزحفُ دونها السّحبُ

تمرّغَ فوقَها التمساحُ ثم طفا على السّورِ

ليحرس كنــزَه الأبديَّ حتى عن يد الظلماء والنور

* * *

وأرسى الأخطبُوطُ فنارَ مَوْتٍ يرصد البابا،

سجا في عينه الصّوْراء صُبْحٌ كان في الأزَلِ....

تمزّأ بالزمان، يمرّ لَيْلٍ بعد ليلٍ وهو ما غابا

ففيمَ غرورُ هذا الهالكِ الإنسان، هذا الحاضرِ المشدود

بالأجَلِ؟

أعُمَّرَ ألْفَ عامٍ؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شُرْفَةَ الأزَلِ؟

* * *

ألا يا لَيْته شهِدَ السلاحفَ: تسحقُ الدّنيا

قياصرَها، ويمنع دِرْعُها ما صوّبَ الزمنُ

إليها من سهام الموت!

لكنّ الذي يحيا

بقلْبٍ يعبر الآبادَ، يكسر حدّه الوَهَنُ

فيصمتُ، عُمْرُه أزَلٌ يمسُّ حدودَه أبَدٌ من الأكوان

في دنيـــا

هنالك ألْفُ كنـــزٍ من كنوزِ العالَم الغرْقى

سَتُشبعُ أَلْفَ طفْلٍ جائعٍ وتُقيل آلافاً من الداءِ
وتُنقذُ ألف شعْبٍ من يد الجلاّد، لو تُرْقى
إلى فَلَكِ الضميرا

أكلّ هذا المال في دنيا الأرِقّاءِ
ولا يتحرّرون؟ وكيف وهو يُصفّدُ الأعناقَ،
يربطها إلى الداءِ؟

كأنّ الماء في ثَبج البحيرة يمنع الزمنا
فلا يتقحّم الأغوارَ، لا يخطو إلى الغرفِ
كأنّ على رتاج الباب طلسمَه، فلا وسنا
ولكنْ يقظةٌ أبَدٌ، ولا مَوْت يحدّ حدودَ ذاك الحاضر
الترِفِ
كأنّ لهجُدَ الكُهّان نبعٌ في ضمير الماء يدفق منه
للغُرَف.

إذن ما عاد من سَفَرٍ إلى أهليه عوليسُ...
إذن فشراعه الخفّاقُ يزرع فائرَ الأمواجْ
بما حَسَب الشهورَ وعدّ حتّى هدّهُ البؤسُ.
فيا عوليس... شابَ فتاك، مَبْسم زَوْجِكَ الوهّاج
غدا حَطَباً. ففيم تعود، تفري نحو أهلك أضلعَ الأمواجْ
هلُمّ فماء شيني[1] في انتظاركَ يحبس الأنفاسْ
فما جرحتْه نَقْرةُ طائرٍ أو عكرته أناملُ النسمِ.

* * *

[1] بحيرة في الملايو غرق المعبد إلى قرارتها.

هلُم فإنّ وحْشاً فيه يَحلم فيكَ دونَ الناسْ
ويخشى أن تفجّرَ عيّنه الحمراء بالظلم
وأنْ كنوزَهُ العذراء تسأل عن شراعكَ خافقَ النّسمِ.
أما فجعتْكَ في طروادةَ الآهاتُ من جَرْحى
ومحتضرين؟
يا لدمِ أريقَ فلطّخ الجدْرانْ
وردّ ترابَها الظمآن طيناً، ردّه جُرْحا
كبيراً واحداً، جرْحاً تفتح في حشا الإنسان
ليصرخَ بالسماء.
فيا لصوتٍ ردّدته نوافذُ الحجُرات والجدران:
* * *
"لأجْلِ فجورِ أُنثى وانْقاد مُتوَّجٍ بالثارْ
تخضبُ من دمِ المُهجات حتى سُلّم الأفقِ؛
وحلّ بلا أوانٍ يوْمنا، وتساوت الأعمار
كزرع منه ساوى منجلٌ...
وهناك في الشّفَقِ
تنوحُ نساؤنا المترمّلات، يُوَلوِل الأطفال عند مدارج الأفق"
* * *
هلمَّ فقد شهدتُ، كما شهدتَ، دماً وأشلاءا:
تفجَّر في بلادي قُمْقُمٌ ملأته بالنارِ
دهورُ الجوع والحرمان.
أيَّ خليقةٍ قاءا؟

رأينا أنّ أفئدةَ التّتار، وأذْوَبَ الغارِ
أرقّ من الرّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنار
شفاهَ الحَلْمة العذراء.

يا نَهْراً من الحقْد
تدفّقَ بالخناجر والعصيِّ، بأعْينٍ غضى:
نجوماً في سماء شدّها قابيلُ بالزّند.
فليْتكَ حين هزّ الموْصلَ الأعصارُ (لا دَرْبا
ولا بيتاً، ولا قبْراً نجا فيها) شهدتَ الأعْيُنَ الغَضبى
ولَيْتكَ في قطارٍ مرّ حين تنفّس السّحَرُ
فقصّ، على سرير السكّة الممدود، أمراسا[1]
تعلّقَ في نهايتهنّ جسْمٌ يحصدُ النّظَرُ
عليه الجُرْحَ بعد الجُرْح بعد الجرح أكْداسا
ليهويَ جسم "حفصة"[2] لابساً فوق النجيع دماً
وأمراسا.

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيْرة أو حفافيها
كواسجَ[3] ضارياتٍ أو تماسيحَ التظتْ لَهَبا
نواجذُها الحديدةُ؟ فيم نخشى كلّ ما فيها؟

فإنّ عقارب الرقّاع[4] يُضمر سمّها العَطَبا

---

[1] الأمراس: الحبال.
[2] إحدى شهيدات الموصل (العراق).
[3] سمك القرش، كلاب البحر.
[4] أحد أبطال المد الفوضوي في العراق... يلزل السجن الآن محكوماً عن سبع جرائم.

وتزرع في الجسوم أزاهرَ الدم والجراحَ بلا دمٍ لهَبا

* * *

هلُمَّ نشقّ في الباهَنْج[1] حقلَ الماء بالمجذافْ
وننثر أنجُمَ الظلماء، نُسقطُها إلى القاعِ
حصىً ما ميّزتْه العينُ عن فَيروزه الرفّاف
ولؤلؤهِ المنقّط بالظلام.

سنُرعب الراعي
فيُهرع بالخرافِ إلى الحظيرةِ خوْفَ أن يغرقْنَ في القاعِ.

* * *

هلُمَّ فَلَيْلُ آسيةَ البعيد مداه، يدعونا
بصوتٍ من نُعاس، من ردىً، من سجْع كُهّان.
هلُمَّ... فما يزال الدهرُ يُطوى بين أيدينا.
لنطْوِ دُجاه قبل طلوع شمسٍ دونَ ألوانِ
تبدِّد عالمَ الأحلام، تُخفتُ – إذْ يرنُّ التِّبرُ فيها –
سَجْعَ كُهّانِ!

* * *

يجول التِّبرُ فيها مثل وَحْشٍ يأكلُ الموْتى
ويشرب من دم الأحياء، يسرق زادَ أطفالِ
ليتّقدَ اللظى في عَيْنه، ليُعيره صَوْتا
يحطّمُ صوتَ كلِّ الأنبياء هناك.

---

[1] النهر المؤدي إلى بحيرة شيني.

يا لرنين أغلالِ

ويا لصدىً من الساعات، بالأكفان مسَّ رؤوسَ أطفالِ

وفلَّ عناقَ كلِّ العاشقين، ودسَّ في القُبْله

مُدىً من حَشْرجات الموت، ردّ أصابعَ الأيْدي

أشاجعَ غابَ عنها لحمها، وستائرُ الكُلّه

يحوِّلها صفائح تحتها جُثث بلا جلْد

هلُمَّ فبَعْدَ ما لمح المجوسُ الكوكب الوهّاج تُبْسَطُ

نحوه الأيدي

ولا ملأت حِرَاءَ[1] وصبّحه الآياتُ والسّوَرُ.

هلُمَّ فما يزال زيوس يصبغ قمَّة الجَبَلِ

بخمرتِه، ويُرسل ألف نسْرٍ نزّ من أحداقها الشَّرَرُ

لتخطف مي يُدير الخمر[2] يحمل أكؤس الصهباء

والعَسَل

هلُمَّ نزور آلهةَ البحيرة،

ثم نرفعُها لتسكن قمَّةَ الجبل!

البصرة ١٩٦٢/٢/١٧

---

[1] الغار الذي نزل الوحي فيه على محمد.
[2] غانيميد الشاب اليوناني الذي أرسل إليه زيوس (كبير الآلهة) نسرا فاختطفه وأصبح ساقيا للآلهة.

نافورة من ظلالٍ، من أزاهيرِ
ومن عصافيرِ...
جيكورُ، جيكورُ، يا حَقلاً من النور
يا جدولاً من فراشات نُطاردها
في الليل، في عالم الأحلام والقَمرِ
ينشرْن أجنحة أندى من المطرِ
في أوّل الصيف.

يا باب الأساطيرِ
يا بابَ ميلادنا الموصولَ بالرحِمِ
من أين جئناك، من أيّ المقاديرِ؟
من آيّما ظُلَمِ؟
وأيّ أزمنةٍ في الليل سرناها
حتى أتيناك أقبلنا من العَدَمِ؟
أم من حياة نسيناها؟
جيكورُ مسّي جبيني فهو ملتهبُ
مسّيه بالسّعَف
والسنْبل الترِف.

مُدّي عليَّ الظلالَ السمْرَ، تنسحبُ
ليلاً، فتخفي هجيري في حناياها.

* * *

ظلٌّ من النخْل، أفياءٌ من الشَّجَرِ
أندى من السَّحَرِ
في شاطئٍ نام فيه الماء والسُّحبُ...
ظلٌّ كأهداب طفلٍ هدّه اللعبُ،
نافورة ماؤها ضوء من القَمَر
أودّ لو كان في عينيّ ينسربُ
حتى أحسّ ارتعاش الحُلم ينبع من روحي وينسكب
نافورةً من ظلالٍ، من أزاهيرِ
ومن عصافير....

* * *

جيْكورُ... ماذا؟ أنمشي نحن في الزّمَنِ
أم أنه الماشي
ونحن فيه وقوفٌ؟
أين أوّله
وأين آخرُه؟
هل مرّ أطولَه
أم مرّ أقصره الممتدّ في الشجَنِ
أم نحن سيّانِ، نمشي بين أحراشِ
كانت حياةَ سوانا في الدياجيرِ؟

هل أنّ جيكور كانت قبل جيكورِ

في خاطر الله.. في نبْعٍ من النور؟

جيكور مدّي غشاءَ الظلّ والزهرِ،

سُدّي به باب أفكاري لأنساها.

وأثقلي من غصون النوْم بالثمرِ

بالخوْخ والتين والأعناب عاريةً من قشرها الخصرِ.

رُدّي إليّ الذي ضيّعْت من عُمْري

أيّام لهوي... وركضي خَلفَ أفراسِ

تعدو من القَصَص الريفيّ والسّمَرِ؛

ردّي أبا زَيْدَ، لم يصحب من الناسِ

خلاً على السفرِ

إلاّ وما عاد.

ردّي السندباد وقد ألقته في جُزُرِ

يرتادها الرخُّ ريحٌ ذات أمراسِ

* * *

جيكورُ لُمّي عظامي، وانفضي كفَني

من طينِهِ، واغسلي بالجدْوَل الجاري

قلبي الذي كان شبّاكاً على النارِ.

لوْلاك يا وطني،

لولاك يا جنّتي الخضراء، يا داري

لم تَلقَ أوتاري

ريحاً فتنقل آهاتي وأشعاري،

لولاكِ ما كان وَجْهُ الله من قدري

أفياءُ جيكور نبع سال في بالي

أبلّ منها صدى روحي...

في ظلّها أشتهي اللقيا، وأحلم بالأسفار والرّيحِ

والبحر تقدح أحداق الكواسج في صخابه العالي

كأنما كسَرٌ من أنجمٍ سقطتْ

كأنما سُرُجُ الموْتى تقلبُها أيدي العرائس من حالٍ

إلى حالِ.

أفياءُ جيكور أهواها

كأنما انسرحتْ من قبرها البالي،

من قبر أمي التي صارت أضالعها التعبى وعيناها

من أرض جيكور... ترعاني وأرعاها.

جيكور ١٩٦٢/٣/١٧

"إلى شارل بودلير"

حملتَ للنـــزِال سيفك الصديءْ
يهتـــز في يدٍ تكاد تُحرق السماءْ
من دمها المتقد المضيء،
تريدُ أن تمزّق الهواء.
وتجمعُ النساء
في امرأةٍ شفاهُها دمٌ على حليدْ
وجسمها المخاتل البليد
أفعى إذا مشت، وسادة على الفراش...
لا تُريدْ
أن تفتح الكوى ليدخل الضّياء
كيْ لا تُحسّ أنها خَواء.
ويرفع الشَّرْقُ أمام عينك الستورْ،
توشك أن تعانقَ الجمَال عند سُدَّة الإله،
تكاد أن تراه
يهفُّ وسْطَ غيْمة من عَبَقٍ ونور.
تراه في حَلمة نَهْدٍ توقد النجومْ

بجمرةٍ لها...

أريته يقوم

من قبره، تحمله سحابةُ الدّخانْ

ينام تحت ظلّها الفقير والشريد:

فهو أميرٌ حوله الكؤوسُ والقيان،

وبيته العتيد

جزيرةٌ من جُزر المرّجان

كأنّ بحراً غاسلاً لسبوسَ[1] بالأمواج

تشربه روحك من صدىً إلى القرارْ

كأن سافو أورثتك من دم العروق نار،

وأنت لا تضمّ غير حُلْمك الأبدْ

كمن يضمّ طيفَه المُطلّ من زجاجْ:

حُرْقةُ نرسيس، وتنتلوسُ[2] والثمارْ!

كأنّ أفريقيةَ الفاترة الكسولْ

(أنهارُها العراضُ والطبول

وغابُها الثقيلُ بالظلال والمطرْ،

وقيْظُها النديّ.. والقَمر)

تكورتْ في امرأةٍ خليعة العذار

رضعتَ منها السُمّ واللهيبْ،

---

[1] الجزيرة التي اتخذت الشاعرة الأغريقية سافو هيكلا لها فيها.

عشق نرسيس ظله. وتنتلوس جائع أبداً يقترب من فمه غصن مثقل بالثمار، حتى إذا كاد يأكل أبعدت الريح الغصن عن فمه.

قطرْتَ فيها سُمّكَ الغريب...
كأنّها سحابةُ الدخانِ والخَدَرْ
أقمْتَ منها، بين عالم تَشدّه نوابضُ النّضار
وبين عالمٍ من الخيال والفكَرْ،
من نشوةٍ جدار
تقبع خلف ظلّه فلا ينالُكَ البَشَر.
دخلتُ، من كتابك الأثيم،
حديقةَ الدم التي توّجَ بالزّهَرْ،
شربتُ من حروفه سلافةَ الجحيم
كأنّها أثداء ذئبةٍ على القفار
حليبُها سُعار
وفيئُها نعيم.
غرقتُ فيه، صكّني العُبابْ
يقذفني من شاطئٍ لشاطئٍ قديم،
حملتُ من قراره محارةَ العذاب
حملتُها إليْكْ
فمُدّ لي يديْك
وزحزحِ الصخور والتراب

البصرة ١٩٦٢/٣/٢٤

لأنـــي غـــريب

لأنّي غريبْ
لأنّ العراقَ الحبيب
بعيد، وأنّي هنا في اشتياقْ
إليْه، إليْها... أنادي: عراق
فيرجع لي من ندائي نحيب
تفجّر عنه الصدى
أحسّ بأني عبرتُ المدى
إلى عالمٍ من ردى لا يجيب
ندائي؛
وإمّا هززْتُ الغصونْ
فما يتساقطُ غيْرُ الردى:
حجارْ
حجارٌ وما من ثمار،
وحتّى العيون
حجارٌ، وحتى الهواء الرطيب
حجارٌ يندّيه بعضُ الدمِ.
حجارٌ ندائي، وصَخْرٌ فمي
ورجْلاي ريحٌ تجوب القفار.

بيروت ١٩٦٢/٤/١٥

وتراجع الطوفان، لملمَ كل أذيال المياه
وتكشّفت قمم التلال، سفوحها، وقرى السـهول،
أكواخها وبيوتها خِرب تناثر في فلاه.
عركت نيوب الماء كل سقوفها ومشى الذبول
فيما يحيط بهنَّ من شجر... فآه
آهٍ على بلدي، عراقي: أثمر الدم في الحقول
حسكاً، وخلّف جرحه التتريّ ندباً في ثراه.
يا للقبور كأن عاليها غدا سفلاً وغار إلى الظلام
مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق.
يتنفس الأحياء فيها كل وسوسة الرغام،
حتى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق.
جثث هنا، ودمٌ هناك...
وفي بيوت النمل مدٌّ من الجفون
سقف يقرمده النجيع، وفي الزوايا
صفر العظام من الحنايا.
ماذا تخلّف في العراق سوى الكآبة والجنون؟
أرأيت أرملة الشهيد؟

الزوج مد عليه من تربٍ لحافاً ثم نام
متمدداً بأشد ما تجد العظام
من فسحة: سكنت يداه على الأضالع،
والعيون
تغفو إلى أبد الإله، إلى القيامة: في سلام.
رمت الرداء العسكريَّ ونشّرته على الوصيد...
لثمته، فانتفض القماش يرد برد الموت،
برد المظلمات من القبور.
يا فكرها عجباً.. ثقبت بنارك الأبد البعيد،
يا فكر شاعرة يفتش عن قوافٍ للقصيد
ماذا وجدت وراء أمسي وعبّرَ يومك من دهور؟
"الثأر" يصرخ كل عرق، كل باب
في الدار. يا لفم تفتّح كالجحيم... من الصخور،
من كل ردن في الرداء، من النوافذ والستور،
من عيني ابنك، يا شهيد، تسائلان، بلا جواب،
عنك الأسرة والدروب، وتسألان عن المصير،
مذ ألبسته الأم ثوبك في معاركك، الأثير
ويداه في الردنين ضائعتان، والصدر الصغير
في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب
ورنا إلى المرآة
أبصرَ فيه شخصك في الثياب.

- "آبني كان أبوك نبعا من لهيب، من حديد،

سوراً من الدم والرعود،

ورماه بالأجل العميل فخرَّ – واهاً – كالشهاب،

لكن لمحاً منه شع وفض أختام الحدود

وأضاء وجه الفوضوي ينـــز بالدم والصديد

وكأن في أفق العروبة منه خيطاً من رغاب"

وتنفس الغد في اليتيم ومد في عينيه شمسهْ

فرأى القبور يهب موتاهن فوجاً بعد فوج

أكفانها هرئت...

ولكن الذي فيها يضم إليه أمسهْ

ويصيح "يا للثار ... يا للثار..."

يصدي كل فج

وترنّ أقبية المساجد والمآذن بالنداء.

وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء.

البصرة ١٩٦٣/٣/٩

في ليلة كانت شرايينها
فحماً، وكانت أرضُها من لحود
يأكل من أقدامنا طينُها،
تسعى إلى الماء،
إلى شراعٍ مزقته الرعود
فوق سفينٍ دون أضواء،
في الضفة الأخرى... يكاد العراق
يومئ؟ يا أهلاً بأبنائي
لكنّنا، واحسرتا، لن نعود
أواهُ لو سيكارةٌ في فمي
لو غُنْوَةٌ... لو ضمَّةٌ، لو عناق
لسَقْفة خضراءَ أو بُرعم
في أرضي السكرى برؤيا غد.
إنّا مع الصبح على موعد
رغم الدجى يا عراق!
ريفٌ وراء الشطِّ بين النخيلْ
يغفو على حُلمٍ طويل طويل،

تثاءبتْ فيه ظلالٌ تسيل
كالماء بين الماء والعُشب.
يا ليتَ لي فيه
قبراً على إحدى روابيه،
يا لَيتني ما زلت في لعبي
في ريف جيكور الذي لا يميل
عنه الربيعُ الأبيضُ الأخضرُ:
السّهْل يندى والرّبى تُزهرُ.
ويطفئ الأحلام في مقلتيّ
– كأنها منفضةٌ للرمادْ –
هَمسٌ كشَوكٍ مسّ من جبهتي
يُنذر بالسارين فوقَ الجياد
سنابكُ الخيْل مساميرُ نارْ
تدقّ تابوت الدجى والنهار:
ناعورةٌ تحرس كرْمَ الحدود
أثقلَ طينَ الخوف ما للفرار
من قدم تدمى... ومدّ السّدود.
أمن بلادي هاربٌ؟ أيّ عار!!
وارتعشَ الماءُ وسار السّفينْ
وهبَّت الريحُ من الغرْب
تحمل لي دَرْبي...

تحمل لي من قبرها ذرَّ طينْ،

تحمل جيْكورَ إلى قلبي.

يا ريحُ يا ريحُ

توهَّجتْ فيك مصابيحُ

من ليل جيكور، أضاءت ظُلمةَ السفينْ

لأبصر الأعينَ كالشُّهُب

تلتمّ حوْلي، لأراها تلين!

وأنجُمُ الشطِّ زهورٌ كبارْ

أوشكْتُ أن أُبصر سيقانها

تمتدّ في الماء، تمسّ القرار،

لَمْلَمَ فجرُ الصيف ألوانَها

كأنّها أوجُهُ حورٍ تحار

فيها تباريحُ الهوى والحياءْ...

كأنّها زنبقُ نارٍ وماء.

البصرة ١٩٦٢/٣/٢١

ما نفضْتُ الندى عن ذرى العُشْب فيها،
ما لثمتُ الضبابَ الذي يحتويها،
جئتُها والضّحى يزرع الشمس في كلّ حَقل وسطْحِ
مثلَ أعواد قَمْحِ.
فرّ قلبي إليها كطَيرٍ إلى عُشّه في الغروب.
هل تُراهُ استعاد الذي مرّ من عُمْرِهِ، كل جُرْحٍ / وابتسامٍ؟
أبعد انطفاءِ اللهيب
يستطيع الرماد اتّقاداً؟ ومن أين؟ من أيّ جَمْرَه؟
يا صباي الذي كان للكون عطراً وزهْواً وتيها...
كان يومي كعامٍ، تعدُّ المسرّه
فيه نبْضاً لقلبي تفجّر منها على كلّ زهره.
كانت الأرض تلقى صباها لأوّل مرّه...
كان قابيلُها بذرةً مُسْتسِرّه...
كان للأرض قلبٌ، أُحسُّ به في الدروب،
في البساتينِ، في كل نهرٍ يُروّي بنيها.
آه جيكور، جيكور...
ما للضّحى كالأصيلِ

يسحب النُّور مثل الجناحِ الكليل؟
ما لأكواخكِ المقفرات الكئيبه
يحبس الظلُّ فيها نحيبَه؟
أين أينَ الصبايا يوسْوِسْنَ بين النخيل
عن هوىً كالتماع النجوم الغريبه
أو يجرّرْنَ أذيالهن التي لوَّنتهنَّ أقمار صيْف
أو شموسٌ خريفيَّةٌ، عند شطٍّ ظليلِ
الشِّفاهُ ابتساماتُ حبٍّ وخوْف؟؟؟
عجائزُ أو في القبور -
عجائزُ يغزلْنَ حول الصِّلاء
ويروينَ، عبْرَ الكرى والفتور،
أقاصيص عن جنّةٍ في بيوتٍ خُواءْ،
لأحفادهنَّ اليتامى.
وجيكور شابتْ وولى صباها
وأمسى هواها
رماداً، إذا ما
تأوَّهْنَ هزّته ريحٌ..
أثارته حتى ارتمى في صداها
هباءً وذرّاً تضيقُ الصدور
به عن مداها.
أين جيْكورُ؟

جيكور ديوان شعري،

موعدٌ بين ألواح نعشي وقبري

كرْكرات المياه التي كسّر الشمس منها ارتجاف،

والأنين الذي منه كنا نخافُ

صاعداً مثل مدّ تنـــزّ القبور

عنه، والشمس تمتص من كلّ هر.

ودرابك في الأرض تنقرهنّ النذور

وهي تنشقّ في كلّ فجرِ –

ذكرياتٌ كما يترك الصوت من ميّت

في خيال رنينه

مثلْ ناي تشظّى وأبقى أنينه.

ايه جيكور، عندي سؤالٌ، أما تسمعينه؟

هل تُرى أنت في ذكرياتي دفينه

أم تُرى أنت قبر لها؟ فابعثيها

وابعثيني

وهيهات! ما للصّبى من رجوع.

إن ماضيَّ قبري وإني قَبْرُ ماضيّ:

موتٌ يمدّ الحياةَ الحزينَه؟

أم حياةٌ تمدّ الرَّدى بالدموع؟

* * *

ما نفضتُ الندى عن ذرى العشب فيها.

جيكور ١٩٦٢/٤/٢

وحتى حين أصهرُ جسمَك الحجريّ في ناري
وأنزع من يديك الثلج، تبقى بينَ عينينا
صحارى من ثلوج تُنهك الساري،
كأنك تنظرين إليّ من سُدُمٍ وأقمارِ،
كأنّا، منذ كنّا، في انتظارِ ما تلاقيْنا.
ولكنّ انتظار الحبّ لُقيا... أين لقيانا؟
تمزّقَ جسمُك العاري...
تمزق، تحتَ سقْف الليل، نَهْدُك بين أظفاري...
تمزقَ كل شيءٍ من لهيبي، غير أستارِ
تحجّبُ فيك ما أهواهْ.
كأنّي أشرب الدمَ منك ملْحاً ظلّ عطشاناً
من استسْقاه. أين هواك؟ أين فؤادك العاري؟
أسدّ عليك بابَ الليل ثم أُعانقُ البابا
فألثمُ فيه ظلّي، ذكرياتي، بعض أسراري...
وأبحث عنك في ناري
فلا ألقاك، لا ألقى رمادك في اللّظى الواري.
سأقذف كل نفسي في لظاها، كلّ ما غابا
وما حضرا.

أريدُك فاقتليني كي أُحسَّك.

واقتلي الحجرا

بفيض دمٍ، بنارٍ منك... واحترقي بلا نارِ؟

بيروت ١٩٦١/١٠/٢٦

سهرتُ فكل شيء ساهرٌ: قدماي والمصباحْ
وأوراقي.
أنا الماضي الذي سدّوا عليه الباب، فالألواح
غدي والحاضر الباقي.
أنا الغد في ضمير الليل، مدّ الليل ألف جناح
عليه، فطار، لما طار، بالظلماء والشّهب.
أصختُ السّمعَ والظلماءُ حولي بوقُ سياره
يبث إلى البغيّ رسالةَ الحبِّ
ويومئ للسكارى: أن تعالوا، ألفُ خمّاره
تكشر، تفرج الساقين، تقطع نومةَ الدرب
بوهوهة اليون.

أصختُ والظلماء دمفارة
وخطوةُ حارسٍ...
فذكرتُ نهر القرية المكسالْ
يسيل لكي يعيش، لكي يموت، يمصّه الجزْرْ
فيعرى جَرْفُهُ الطينيُّ حتى يُقبل الفجرُ
فيحمل في سناه المدّ، يحمل زورقاً يختال

بصيادٍ يُعدُّ شاكه ويرود في الماء
مسارب كلّ ناعسةٍ من الأسماك خضراء.
ذكرتُ مقابر الأطفال
تلوذ بكلّ سفحٍ، نام فيها دون أثداء
ولا قُمُطٍ، صغارٌ من حصاد الجوع والداء
لقد رضعوا من الثدي الذي لم تُبله الأجيالْ
وناموا في حمى الأمِّ التي لا يستوي الأطفال
ولا الأشياء إلا في حماها، في حمى تُرَب وظلماء.
سهرت الليل في بيروت، لا بين المواخيرِ
(كهوف العالم المتحضِّر المغسول بالنور)
هنا يتوكأون على العظام ليصعدوا أفقاً من النشوه،
لينحدروا إلى فجوه
تثاءب ظلُّها وأصيلها بين الدياجير
وبين منابع الأضواءْ،
تثاءب ظلّها وأصيلُها بين العقارب والسنانير
وبين المُسرج الظلماء
والممتدِّ حتى الله في القدْس وفي سيناء.
سهرت يرنّ صورُ الموت في أذنيْ كالزلزالْ:
"تهدَّم حائط الأجيال
وكاد يغور إذ لمسته كفيّ، ألفُ نوحٍ زالْ
وألفُ زليخة صيَّرتْ كحل عيونها ظُلْمه.

أنا الباقي بقاء الله أكتب باسمه الآجال
وما لسواه عند مطارق الآجال من حُرمه.
هنا في كلّ موت ألفُ موتٍ: كان في الضمّه
وفي القبلات، في الأقداح،
تدور الأسطوانةُ وهو فيها لمعةُ الضَّوْءِ
يوسوِسُ في تمدّج صوتِها فيُخادع الأرواح،
ويلمس جبهةَ الملاّح في النّوءِ.
سهرتُ لأنني أدري
بأني لن أقبّل ذاتَ يوم وجنةَ الفجْرِ
سيُقبل مطلقاً في كل عشٍّ نغمةً وجناح
وسوف أكون في قبري.

بيروت ١٩٦٢/٤/١٥

من مرضي،
من السرير الأبيضِ
من جاري انهار على فراشه وحشرجا
يمصّ من زجاجةٍ أنفاسَه المصفّره،
من حُلمي الذي يمدّ لي طريقه للمقبره
والقمر المريّض والدجى...
أكتبها وصيَّةً لزوجتي المنتظره
وطفلي الصارخ في رقاده: "أبي، أبي"،
تلمُّ في حروفها من عُمْريَ المعذَّب.
لو أنَّ عوليس وقد عاد إلى ديارهِ
صاحتْ به الآلهةُ الحاقدةُ المدمِّره
أن ينشر الشراعَ، أن يضلَّ في بحاره
دون يقينٍ أن يعود في غدٍ لداره،
ما خضَّه النذيرُ والهواجسُ
كما تخضُّ نفسي الهواجسُ المبعثره،
اليوم ما على الضمير من حياءٍ حارسْ:
أخافُ من ضبابة صفراء

تنبع من دمائي
تلفّني فما أرى على المدى سواها
أكاد من ذلك لا أراها،
يقصُّ جسميَ الذليلَ مِبْضَعُ
كأنه يقصُّ طينةً بدون ماءِ
ولا أُحسّ غير هبَّةٍ من النسيم ترفَعُ
من طرَف الستائر الضّبابِ
ليقطرَ الظلامُ، لستُ أسمع
سوى رعودٍ رن في اليبابِ
منها صدىً وذاب في الهواءِ...
أخاف من ضبابةٍ صفراءِ!
أخاف أنْ أزْلقَ من غيبوبة التخديرِ
إلى بحارٍ ما لها من مرسى
وما استطاع سندبادُ حين أمسى
فيهنَّ أن يعودَ للعودِ وللشراب والزهور،
صباحها ظلامْ
وليْلُها من صخرةٍ سوداء.
من ظلّ غيْبوبتي المسحور
إلى دجى الحمامْ
ليس سوى انتقالة الهواءِ،
من رئةٍ تغفو، إلى الفضاءِ.

أخاف أن أُحس بالمبضع حين يجرحُ

فأستغيث صامتَ النِّداءِ

أصيح لا يردّ لي عوائي

سوى دمٍ من الوريد ينضَح.

وكيف لو أفقتُ من رقاديَ المخدَّرِ

على صدى الصور، على القيامة الصغيره:

يحمل كلُّ ميِّتٍ ضميرَه

يشعُّ خلف الكَفن المدثَّرِ،

يسوق عزرائيلُ من جموعنا الصّفر إلى جزيره

قاحلةٍ يقهقه الجليدُ فيها،

يصفر الهواء في عظامنا ويبكي.

ماذا لو انَّ الموْتَ ليس بعده من صَحْوَه،

فهو ظلامٌ عَدَمٌ، ما فيه من حسٍّ ولا شعورا

أكلُّ ذاك الأُنسِ، تلك الشقْوه

والطمعِ الحافرِ في الضمير

والأملِ الخالقِ من توثُّبِ الصغيرِ

ألفَ أبي زيدٍ تفور الرغْوَه

من خيله الحمراء كالهجير...

أكلُّها لهذه النهايه؟

تُرى الحمامُ للحياة غايه؟

* * *

إقبالُ يا روجتيَ الحبيبة

لا تعذليني ما المنايا بيدي

ولستُ، لو نجوْتُ، بالمخلَّد.

كوني لغيلان رضى وطيبه

كوني له أباً وأماً وارحمي نحيبه

وعلّميه أن يُذيل القلب لليتيم والفقير

وعلميه...

ظُلْمةُ النعاس

أهدابُها تمس من عيوني الغريبه

في البلد الغريب، في سريري

فترفع اللهيب عن ضميري...

لا تحزني إن متُّ أيُّ باس

أن يحطَم الناي ويبقى لحنه حتى غدي؟

لا تبعدي

لا تبعدي

لا

بيروت ١٩٦٢/٤/١٩

مَنزِل الأقتَــــان

(١٩٦٣)

رحــــل النهــــار

رحل النهار
ها إنه انطفأت ذبالتُه على أفقٍ توهَّج دون نار
وجلستِ تنتظرين عودة سندبادَ من السِّفار
والبحرُ يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود.
هو لن يعود،
أوَ ما علمتِ بأنه أسرتْه آلهةُ البحار
في قلعةٍ سوداء في جزرٍ من الدمِ والمحار.
هو لن يعود،
رحل النهار
فلترحلي، هو لن يعود.
الأفقُ غابات من السحب الثقيلة والرعود،
الموتُ من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار
الموتُ من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار
الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار
رحل النهار
رحل النهار.

وكأنّ معصمكِ اليسار

وكأنّ ساعدكِ اليسار، وراء ساعته، فنار

في شاطئٍ للموت يحلم بالسفين على انتظار.

رحل النهار

هيهات أن يقف الزمان، تمر حتى باللحودِ

خطى الزمان وبالحجار.

رحل النهار ولن يعود.

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود

الموت من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار

الموت من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار

رحل النهار

رحل النهار.

خصلات شعرك لم يَصُنْها سندبادُ من الدمار،

شربتْ أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار

ورسائل الحب الكثار

مبتلـــةٌ بالماء منطمسٌ بها ألَق الوعود

وجلستِ تنتظرين هائمة الخواطر في دوار:

"سيعود. لا. غرق السفين من المحيط إلى القرار

سيعود. لا. حجزته صارخة العواصف في إسار

يا سندباد، أما تعود؟

كاد الشباب يزول، تنطفئ الزنابقُ في الخدود

فمتى تعود؟

أوّاه، مدَّ يديك بين القلب عالمه الجديد

بهما ويحْطم عالم الدم والأظافر والسعار،

يبني ولو لهنيهةٍ دنياه.

آه متـــى تعـــود؟

أترى ستعرف ما سيعرف، كلّما انطفأ النهار،

صمتُ الأصابع من بروق الغيب في ظلم الوجود؟

دعني لآخذ قبضتَيْك، كماء ثلج في انهمار

من حيثما وجّهت طرْفي... ماء ثلج في انهمار

في راحتيّ يسيل، في قلبي يصبّ إلى القرار.

يا طالما بهما حلمتُ كزهرتين على غدير

تتفتّحان على متاهة عزلتي.

رحـــل النهـــار

والبحر متّسع وخاوٍ. لا غناء سوى الهدير

وما يبين سوى شراعٍ رنحته العاصفات، وما يطير

إلا فؤادك فوق سطح الماء يخفق في انتظار.

رحل النهار

فلترحلي، رحل النهار

بيروت ١٩٦٢/٦/٢٧

هدير البحر يفتل من دمائي، من شراييني
حبال سفينة بيضاء يعس فوقها القمر
ويُرعش ظلَّها السحَرُ.
ومن شبّاكي المفتوح تهمس بي وتأتيني
سماء الصيف خلّف طيفَه في صحوها المطرُ.
ونحن نسير، والدنيا تسير وتقرع الأبواب
فتوقظ من رؤاه القلب: ذاك عدوك الزمن
تدور رحاه.. كم ستظلّ تخفق؟ ها هم الأصحاب
تراب منه تمتلئ الدروب وتشرب الدمنُ!

يودُّ القلبُ لو حطّمته، لو حطّمتْ خفقاته شفتيك
والكتفين والصدرا،
ولو ذرّتك من رفراقي الحرّى.
رياحُ الوجد والحرمان. والمغفي على عينيك
ليتهما تمرّان
بدمع أو بإشفاقٍ على صحراء حرماني
لينبت في مداها الزهر. ليتهما تمرّان،

بما نسج التأمل من غيوم فيهما حيرى
بما نسج التفرد من نجوم فيهما سكرى،
على عمري الذي عرّاه من زهراته الداءْ.
يود القلب لو حطّمته لو حطّمتْ خفقاته شفتيك
والكتفين والصدرا
ولو عرّاك، لو ذرّاك، لو أكلتك أشواقي
ولو أصبحت خفقاً أو دماءً فيه أو سرّا
فإن أحببتك الحب الذي أقسى من الموت
وأعنف من لظى البركان والحب الذي يأتي
إليّ كأنّ نفخ الصور فيه، فكل ذرّ الميتين دمّ وأحياء
فذاك لأنك النور الذي عرّى دجى الأعمى
وأنت صباي عاد إليّ، أختاً عاد أو أمّا.
وأنت حبيبتي، أفديك، أفدي خفق جفنيك
وما نفضا من السحب
وأفدي خفق نهديك
على قلبي!

بيروت ١٩٦٢/٧/١

يمدّون أعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي:

أن تعــالَ،

نداء يشقُّ العروق، يهزّ المشاش، يبعثر قلبي رمادا

"أصيل هنا مُشْعَل في الظلال

تعال اشتعل فيه حتى الزوال"

جدودي وآبائي الأوّلون سراب على حدِّ جفني تمادى.

وبي جذوة من حريق الحياة تريد المحال.

وغيلانُ يدعو "أبي سرْ، فإني على الدرب ماشٍ أريد

الصباح.

وتدعو من القبر أمّي "بنيَّ احتضنّي فبردُ الردى في عروقي

فدفّئْ عظامي بما قد كسوتُ ذراعيك والصدر، واحمِ

الجــراح

جراحي بقلبك أو مقلتيك ولا تحرفنّ الخطى عن طريقي

ولا شيء إلا إلى الموت يدعو ويصرخ، فيما يزولْ،

خريف، شتاء، أصيلٌ، أفولْ.

وباقٍ هو الليلُ بعد انطفاء البروق

وباقٍ هو الموت، أبقى وأخلد من كل ما في الحياه.

فيا قبرها افتح ذراعيك...

إني لآت بلا ضجّة، دون آه!

بيروت ١٩٦٢/٥/٣

سلاماً بلاد اللظى والخراب

ومأوى اليتامى وأرض القبور،

أتى الغيث وانحلّ عقد السحاب

فروّى ثرى جائعاً للبذور.

وذاب الجناح الحديد

على حمرة الفجر تغسل في كل ركن بقايا شهيد

وتبحث عن ظامئات الجذور.

وما عاد صبحك ناراً تُقعقع غضبى وتزرع ليلا

وأشلاء قتلى

وتنفث قابيل في كلّ نارٍ يسفّ الصديد

وأصبحت في هدأةٍ تسمعين نافورةً من هتاف

لديك يبشّر أن الدجى قد تولّى

وأصبحت تستقبلين الصباح المطلاّ

بتكبيرةٍ من ألوف المآذن كانت تخاف

فتأوي إلى عاريات الجبالِ

تبرقع أصداءها بالرمال.

* * *

بماذا ستستقبلين الربيع؟

بقيا من الأعظم الباليهْ
لها شعلة رشّت الداليهْ،
تعير العناقيدَ لونَ النجيع.
وفي جانبيْ كل درب حزين
عيون تحدّق، تحت الثرى
تحدّق في عورة العاجزين.
لو تستطيع الكلام
لصبّت على الظالمين
حميماً من اللعنات، من العار، من كل غيظ دفين
ربيعك يمضغ قَيْحَ السلام.

* * *

بيوتك تبقى طوال المساء
مفتّحةً فيك أبوابها
لعل المجاهد بعد انطفاء اللهيب وبعد النوى والعناء
يعود إلى الدار يدفن تحت الغطاء
جراحاً، يفرّ إليه الصغار ترفرف أثوابها
يصيحون "بابا" فيُفطر قلب السماء
- "وماذا حملتَ لنا من هديّه؟"
- "غداً ضاحكاً أطلعتْه الدماء.
وكم دارةٍ في أقاصي الدروب القصيّه
مفتّحة الباب، تقرعه الريح في آخر الليل قرعا

فتخرج أمُّ الصغار

ومصباحها في يد أرعش الوجد منها،

برود الدجى، ما أنار

سوى الدرب قفر المدى، وهي تصغي وترهف سمعا

وما تحمل الريح إلا نباح الكلاب البعيد،

فتُخفت مصباحها من جديد

* * *

"ولّما استرحنا بكيْنا الرفاق!"

هماس لأنييس[1] عبر القرون

وها أنت تدمع فيك العيون

وتبكين قتلاك.

نامت وغنّ فاستفاق

بك الحزن: عاد اليتامى يتامى،

ردىً عاد ما ظُنّ يوماً فراق.

سلاماً بلاد الثكالى، بلاد الأيامى

سلاما

سلاما...

بيروت ١٩٦٢/٦/٧

[1] بطل "انياذة" فرجيل.

خذينـــــي

خذيني أطرْ في أعالي السماء

صدى غنوةٍ، كركراتٍ، سحابهْ!

خذيني فإن صخور الكآبهْ

تشدّ بروحي إلى قاع بحرٍ بعيد القرار

خذيني أكن في دجاك الضياء

ولا تتركيني لليلِ القفارِ.

إذا شئت ألاّ تكوني لناري

وقوداً، فكوني حريقا.

إذا شئت أن تَخلُصي من إساري،

فلا تتركيني طليقا.

خذيني إلى صدرك المثقل

همَّ السنين.

خذيني فإني حزين

ولا تتركيني على الدرب وحدي أسير إلى المجهل.

وكانت دروبي خيوط اشتياق

ووجد وحبٌ

إلى منـــزلٍ في العراق

تضيء نوافذه ليل قلبي،

إلى زوجة كان فيها هنائي

وكانت سمائي

كواكبها ترسم الدرب، دربي.

وهبّت عليها رياح سموم

تبعثر خيطان تلك الدروب البعيده،

فعادت جذىً كل تلك النجوم

صُلبتُ عليها، وعادت مسامير نعش

وعادت دروبي درباً إذا جئت أمشي

رمابي إليك، كوزنٍ يقود القصيده.

فوا لهف قلبي عليك!

ودربٍ رمابي إليك!

أما تعلمين بأني تشهيّتك البارحه

أشمُّ رداءك حتى كأني

سجين يعود إلى داره يتنشّق جدرانها:

هنا صدرها، قلبها كان يخفق — كان النمي

يدغدغه، يُشعل الشوق فيه إلى غيمة رائحهْ

لأرض الحبيب: ستنضح أركانها

بذوّب نداها.

تشهّيتك البارحه

فقبّلت ردن الرداء: هنا ساعداها،

هنا إبطها، يا لكهف الخيالْ

ومرفأ ثغري إذا جرفته رياح ابتهال

ودحرجه مدُّ شوقٍ ملحٍّ، وقد حار فيه السؤال:

"تحبينني أنت؟ هل تخجلين؟

أم استنـــزفتْ شوقَكِ الكبرياء

فلم يبقَ إلا ابتسام الرثاء؟

أترثين لي أم ترى تشفقين

على قلبك الهدّ تحت الصليب المعلّق في صخرة الكبرياء؟"

نباح الكلاب المبعثر في وشوشات النخيل

ينبّه في قلبي الذكريات العتاق

ويربط دقات قلبي بأرض العراق

لأسمع "بابا" فيُطفأ حبي وتبرد نار الغليل

وأعدو على الدرب سدّت خطاي عليه

نوافذ بيتي تجمَّد فيها الضياء:

تغربتُ عنه وعدتُ إليه.

بيروت ١٩٦٢/٧/٣

ماذا حملتَ لها سوى الخرز الملوّن والضباب؟
ما خضت في ظلمات بحر أو فتحت كوى الصخور
والريح ما خطفت قلوعك، والسحاب
ما بلّ ثوبك. ما حملتَ لها سوى الدم والعذاب.
في سجنها هي، خلف سور.
في سجنها هي، وهو من ألم وفقر واغتراب.
عشر من السنوات مرّت وهي تحلم في ارتقاب:
أطفالها المتوثبون مع الصباح
صمتوا وكفّوا عن مراح،
زجرتهمُ لتُحسّ وقع خطاك. برعمت الزهور
وأتى الربيع وما أتيت، وجاء صيفٌ ثم راح.
ماذا يعيقك في سواحل نائيات؟ في قصور
قفرٍ يعيش الغول فيها، كلما رمَت الرياح
بحطام صاريةٍ تحفّز؟ ما يعيقك عن رجوع؟
لم تبق للغد من دموع
في مقلتيها، لا ولم يبق ابتسامٌ للّقاء!
ستعود، حين تعود، بالخرز الملوّن والهباء،
ستضم منها طيف أمس، فلا يُجيبك في الضلوع
منها سوى دمك المفجّع والخواء!

بيروت ١٩٦٢/٥/٩

سفر أيوب (١)

لكَ الحمد مهما استطال البلاءْ

ومهما استبدّ الألم،

لك الحمد، إنّ الرزايا عطاء

وإنّ المصيبات بعضُ الكَرمْ.

ألم تُعطني أنت هذا الظلامْ

وأعطيتني أنت هذا السّحرْ؟

فهل تشكر الأرض قَطْرَ المطر

وتغضبُ إن لم يجُدْها الغمام؟

شهورٌ طوالٌ وهذي الجراحْ

تمزّق جنبيَّ مثل المُدى

ولا يهدأُ الداءُ عند الصباح

ولا يمسح اللّيلُ أوجاعه بالردى.

ولكنّ أيّوب إن صاح صاح:

"لك الحمدُ، إن الرزايا ندى،

وإن الجراح هدايا الحبيبْ

أضمُّ إلى الصَّدْر باقاتها،

هداياكَ في خافقي لا تغيب،

هداياك مقبولةٌ. هاتها!"

أشدّ جراحي وأهتف بالعائدينْ:

"ألا فانظروا واحسدوني، فهذي هدايا حبيبي.

وإن مسَّت النارُ حَرَّ الجبين

توهَّمْتُها قُبلةً منكَ مجبولةً من لهيبِ.

جميلٌ هو السُّهدُ أرعى سماكَ

بعينيَّ حتى تغيبَ النجومْ

ويلمس شبَّاكَ داري سناكْ.

جميلٌ هو الليل: أصداء بوم

وأبواقُ سيارةٍ من بعيد

وآهاتُ مرضى، وأمّ تُعيد

أساطيرَ آبائها للوليد.

وغاباتُ ليل السُّهاد، الغيوم

تحجّبُ وَجْهَ السماءْ

وتجلوه تحت القمر.

وإن صاح أيُّوبُ كان النداءْ:

"لك الحمد يا رامياً بالقَدَرْ

ويا كاتباً، بَعْدَ ذاكَ، الشِّفاء!"

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٦

من خَلَلِ الثلج الذي تنثُّه السماءْ
من خللِ الضباب والمطَرْ
ألمح عينيْك تشعّان بلا انتهاء
شعاعَ كوكبٍ يغيب ساعةَ السَّحَرْ
وتقطران الدمعَ في سكونْ
كأنَّ أهداهما غصون
تنطف بالندى مع الصباح في شتاء.
من خلل الدّخان والمداخن الضخامْ
تمجّ من مغارِ قابيلَ على الدروب والشّجرْ
ذرّاً من النجيع والضّرام
أسمع غيْلان يناديك من الظلام
من نوْمه اليتيم في خرائب الضجرْ.
سمعت كيف دقّ بابنا القدَر؟
فارتعَشتْ على ارتجاف قرْعهِ ضلوعْ؟
ورفْرفتْ دموعْ؟
فاختلس المسافرُ الوداعَ وانحدر؟
* * *

وقبلة بين فمي وخافقي تُحار
كأنها التائه في القفار
كأنها الطائرُ إذْ خرَّب عشَّه الرياح والمطرْ،
لم يَحوِها خدّ لغيْلان ولا جبينْ
ووجْه غيلانَ الذي غابَ عن المطار!!
وأنتِ إذْ وقفتِ في المدى تُلوِّحين!!
إقبالُ... إنَّ في دمي لوجهك انتظار،
وفي يدي دمٌ، إليك شدَّهُ الحنينْ.
ليتك تُقْبلين
من خَلَلِ الثلج الذي تنثّه السماء،
من خَلَلِ الضباب والمطر!

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٧

بعيداً عنك، في جيكور، عن بيتي وأطفالي
تشدُّ مخالبُ الصَّوان والأسْفلتِ والضَّجرِ
على قلبي، تُمزِّق ما تبقّى فيه من وترِ
يدَندنُ: "يا سكونَ الليل، يا أنشودَةَ المطَر"،
تشدُّ مخالبُ المال
على بطني الذي ما مرَّ فيه الزادُ من دَهَرِ.
عيون الجوع والوحدة
تحومي في دجىً صارعتُ بين وحوشه بَرْده،
وإن البرد أفظعُ، لا.. كأنْ الجوعَ أفظع، لا.. فإنَّ الداءْ
يشلُّ خطاي، يربطُها إلى دوَّامة القَدَرِ.
ولولا الداء صارعتُ الطوى والبرد والظلماء.
بعيداً عنك أشعر أنني قد ضعت في الزحمه
وبين نواجذ الفولاذ تمضغ أضلعي لُقْمه.
يمرُّ بي الورى متراكضين كأنْ على سَفرِ،
فهل أستوقف الخطوات؟ أصرخُ: "أيها الإنسان
أخي، يا أنتَ، يا قابيلُ.. خُذْ بيدي على الغُمَّه!
أعنّي، خفف الآلامَ عني واطرد الأحزان"؟
وأين سواك من أدعوه بين مقابر الحَجَرِ؟

* * *

ولولا الداء ما فارقتُ داري، يا سنا داري
وأحلى ما لقيتُ على خريف العُمْر من ثَمر.
هنا لا طير في الأغصان تشدو غير أطيارِ
من الفولاذ تهدر أو تُحمحمُ دونما خوفٍ من المطرِ
ولا أزهارَ إلا خلْفَ واجهةٍ زجاجيَّه
يُراح إلى المقابر والسجون بهنَّ والمستشفيات.

ألا.. ألا يا بائع الزهَر

أعندك زهرةٌ حيَّه؟
أعندك زهرةٌ مما يربــــي القلبُ من حُبٍّ وأهواء؟
أعندكَ وردةٌ حمراء سقَّتها شموسٌ إستوائيَّه؟

* * *

أأصرخُ في شوارع لندنَ الصَّماء: "هاتوا لي أحبائي"؟
ولو أني صرختُ فمن يُجيب صراخَ منتحرٍ
تمرّ عليه طولَ الليلِ آلافٌ من القُطُرِ؟

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٨

سفر أيوب (٤)

يا ربَّ أيُّوبَ قد أعيا به الداءُ
في غربة دونما مالٍ ولا سَكَنِ.
يدعوك في الدُّجنِ
يدعوك في ظَلَموت الموت: أعباء
ناء الفؤاد بها، فارحمهْ إن هتفا.
يا منجياً فُلْكَ نوحٍ مزِّق السُّدَفا
عني. أعدْني إلى داري، إلى وطني!

* * *

أطفالُ أيّوب من يرعاهمُ الآنا؟
ضاعوا ضياع اليتامى في دجى شات.
يا ربِّ أرجعْ على أيُّوب ما كانا:
جيكور والشمس والأطفال راكضةً بين النُّخَيْلات
وزوجَه تتمرَّى وهي تبتسم
أو ترقبُ البابَ، تعدو كلَّما قُرِعا:
لعلَّه رجعا
مشّاءةً دون عُكّازٍ به القَدَمُ!

* * *

في لندنَ الليلُ مَوتٌ نزْعُهُ السَّهر

والبرْدُ والضَّجرُ

وغُرْبةٌ في سواد القلب سوداءُ.

يا ربّ يا ليت أنّي لي إلى وطني

عوْدٌ لتلثمني بالشمس أجواءْ

منها تنفّستُ روحي: طينها بدني

وماؤها الدمُ في الأعراق ينحدرُ.

يا ليتني بيْن مَن في تُربها قُبروا.

لأنه منك، حُلوٌ عنديَ المرَضُ،

حاشا، فلستُ على ما شئت أعترضُ.

والمال؟ رزقٌ سيأتي منه موْفور،

هيهات أن يذكر الموتى وقد نهضوا

من رقدة الموت كم مصّ الدماء لها دودٌ ومدَّ بساط

الثلج ديْجورُ!

إني سأشفى، سأنسى كلّ ما جرَحا

قلبي، وعرّى عظامي فهي راعشةٌ ، والليل مقرور.

وسوف أمشي إلى جيكور ذات ضُحى!

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٩

سفـر أيوب (٥)

نازلاً نازلاً من صحارى السماءْ،
من عصور جليديّةٍ، من قبورْ
نام فيها الهواء.
أيُّها الثلج، يا حشرجات الدهور
وانتحاب المساكين في كل كهفٍ يغور
في جبال السينْ،
كن لهيباً على أوجه العابرين،
قنّعِ الخوف فيها بلون الرجاء.

* * *

أيها الثلج رحماكَ، إني غريب
في بلادٍ من البرد والجوع سكرى،
إنَّ لِي منــــزلاً في العراق الحبيب
صبيتي فيه تعلك صخرا.
آه، لولاك يا داءُ ما عفتُ داري،
ما تركت الزهور التي فتَّحتْ في جداري
والعصافير في ركن بيتي لهنّ اختصامُ.
مرّ يومٌ، فشهرٌ، فشهر، فعامُ

* * *

والزمان ارتماءٌ بدون انتهاءْ
تزفر الأرض عنه وتبكي السماء.
رب، هل لي إلى منـــزلي من رجوع؟
كم أمدّ الذراع وأهدم سقف الضلوع
لا أمسّ المدى أو أصيبُ الزمانا،
فهو شيء على الروح يسعى: هباءٌ وظلْمهْ.
ليت عَصر النبوّات لم يطوِ حُلمه...
وشّت المعجزاتُ الحواشي فكانت وكنّا.
* * *
ليتني العازرُ انفضّ عنه الحمامْ،
يسلك الدربَ عند الغروبْ،
يتمهَّلُ لا يقرع الباب: من ذا يؤوب
من سراديبَ للموت عبر الظلام؟
لن تصدِّق أنّي... ستهوي يداها
عن رتاجٍ، وتصفرُّ لي وجنتاها
ثم تركض مذعورةً، تشدّ بخيْط الدروب
نحو قبري، وتطويه حتى تمسّ الضريح الحُطام.
* * *
إيه إقبالُ، لا تيأسي من رجوعي
هاتفاً قبل أن أقرع الباب: عادا
عازرٌ من بلاد الدجى والدموعِ،
قبّليني على جبهةٍ صكّها الموْتُ صكّاً أليما،

حدّقي في عيون شهدن الردى والمعادا.

عدتُ. لن أبرح الدارَ حتىَ لو انّ النجوما

دحْرجت سُلّماً من ضياءٍ وقالت:

تَخَطَّ السديما.

لندن ١٩٦٢/١٢/٣١

خيالُ الجَسد العاري
يُطلّ عليّ محمولاً على موْجٍ من النارِ
من المدفأة الحمراء، ذاك الرّحِمِ الضاري.

* * *

لكلّ تقلّبٍ من موْجها خفْقٌ من القلب.
تدحرجَ: عُرْيَ النهدان، بان الجيدُ والساقْ،
تدحرجَ لي على الجنب،
تدحرج ثمّ صكّ أصالعي، وتُثار أعراقُ
ويطفر للجبين دمٌ، ويعروني
دُوارٌ منه تصطكُّ النواجذُ: خوْف محّار
يُطلّ فيُبصر التيّار يزفر مثل تنّين.
ويصرخ آدمُ المدفونُ فيّ: رضيتُ بالعار،
بطرْدي من جنان الخُلْد أركض إثْرَ حوّاءا.
أريدك، يا سراباً في خيالي ليس يسقيني.
أريدك. ثمّ تُطوى موْجةٌ وتطير أشلاءا
فقاعاتٌ من النيران، من شوْق وتذكارِ.

* * *

وجاء الجسدُ العاري،

خيالاً جاء محمولاً على موْجٍ من النار
من المدفأة الحمراء، ذاك الرّحمِ الضاري.

* * *

يميل عليّ كيف أشاءُ، أعصره كما أهوى،
ولا يقوى
على رفضي، على هدمِ عَرْشٍ من لظىً وارِ
أتوّج فوقه الآمالَ راعشةَ القوى شهوى.
بحارٌ بيننا: ليْلان من مُدُنٍ وأمطارِ،
وإنّك منك أقربُ، أنت بعضُ دمي،
خيالي أنت، أمنيّات عمري... كل أمنيّه
بعاطفيَ تُحرِّكُ لا عواطفك الأنانيَّه.
علام مددت بحْراً بيننا، دنيا جليديَّه
أعانقُ في دجاها جسمَك العاري
يطلُّ عليَّ محمولاً على موجٍ من النارِ
من المدفأة الحمراء، من وهمي وأفكاري.

لندن ١٩٦٢/١٢/٣١

البرْدُ وهَسْهَسَةُ النارِ
ورماد المدفأة الرّمْلُ
تطويه قوافلُ أفكاري.
أنا وحدي يأكلني اللّيْلُ.

* * *

ويَخبّ المركب في داري:
برقٌ يتلامح في الآفاق، يعرّيها
ويُذرّيها
كرماد المبخرة الثكلى
في مقبرةٍ تهبُ اللّيلا
ألوان الموت وآهات الموتى

* * *

يا ليل، لكم طال الدّربُ.
تعب الركبُ،
وعراقي شطٌّ، وسمّاري
ناموا. وبقيتُ ولا زادٌ
عندي، وظمئتُ ولا ماءٌ. ظمئ القلبُ:
لا سقيا غير شظيّات البرق الواري.

يا أغصانَ الليل المقمري ثمراً إذ يؤكل يزدادُ
السلّةُ منه سأملأها حتّى إن عدتُ إلى داري
فرحَ الأطفالُ به، هتفوا: "بابا...

يا برقُ، أما تخبو

فيغيب الدربُ، ولا يبدو
كم منه على الساري بَعْدُ!

* * *

البرد وهسهسةُ النار
ورماد المدفأة الرملُ
تطويه قوافلُ أفكاري.
أنا وحدي يأكلني الليلُ!

لندن ١٩٦٣/٢/١

سفـر أيوب (٨)

ذكرتُك يا لميعةُ والدجى ثلجٌ وأمطارُ،
ولندن مات فيها الليل، مات تنفُّسُ النورِ.
رأيتُ شبيهةً لكِ شعرها ظُلَمٌ وأنهارُ،
وعيناها كينبوعين في غاب من الحورِ.
مريضاً كنت تثقل كاهلي والظّهر أحجارُ،
أحنُّ لريف جيكورِ
وأحلم بالعراق: وراء بابٍ سدّت الظلماءُ
باباً منه والبحر المزمجرُ قام كالسورِ
على دربي.
وفي قلبي
وساوسُ مظلمات غابت الأشياء
وراء حجابهنّ وجفّ فيها منبع النور.
ذكرتُ الطلعةَ السمراءْ،
ذكرتُ يديْكِ ترتجفان من فرَقٍ ومن بردِ
تنـــزُّ به صحارى للفراق تسوطُها الأنواء.
ذكرتُ شحوب وجهك حين زمَّرَ بوقُ سيَّارهْ
ليؤذن بالوداع. ذكرتُ لذْع الدمع في خدّي

ورعشة خافقي وأنينَ روحي يملأ الحاره

بأصداء المقابر. والدجى ثلجٌ وأمطار

لندن ١٩٦٣/١/٢

بالعضل المفتول والسواعد المجدولهْ
هِرَقْلُ صارع الردى في غارهِ المحجّبِ
بظلمة من طحلب.
وقام تّموزُ بجرح فاغرٍ مخضّبِ
يصكُّ (مَوْتَ) صكّةً، محجّباً ذيولَهُ
وخطْوَهُ الجليدَ بالشقيق والزنابق.
* * *
وانخطف الموتُ عليّ كانخطاف الباشقِ
على العصافير، أحال ظهري
عمود ملْحٍ أو عمود جمرٍ،
أحرّك الأطراف لا تطيعني، مشلوله،
مات الدم الفوّار فيها، أُطفئ الشبابُ،
وامتدّ نحو القبْر دَرْبٌ، بابُ
من خشب الصليب: فالمسيحُ
ماتَ، وفي الطوفان ضلّ نوحُ.
وأُغضيتْ نواظري الذليله...
لعلّها تعتاد من دجاها
على دُجىً غطاؤها الضريحُ.
* * *

أيَّ سلاحٍ؟ آه، أيَّ ساعد؟

أيَّــةُ أزهارٍ تمدُّ فاها

لتأكل الموت؟ وأيَّ ناصرٍ مساعد؟

سللتُ من قصائدي

سيْفاً كأنَّ البرقَ حدّادٌ رمى أصوله

وصبَّ مقبضاً له وشفره.

بالشّعر، بالمبرق، بالمُجلْجلِ المدوّي

رميتُ وجهاً كان يهوي نحوي

كأنه الستار في روايةٍ هزيله،

رميت وجهَ الموت ألف مرّه

إذا أطلّ وجهه البغيضُ

كأنه السيرين[1]، يسعى جسميَ المريضُ

نحو ذراعيْه بلا تردُّد

فأنتضي من سيفيَ المجرّدِ،

ويقطر الشّعْرُ ولا يغيضُ،

لأنني مريضُ

أودّع الحياةَ أو أشُدّ بالحياة

بخيْطه الموروث عن أموات

لم يدفع الشّعْرُ مناياهم وقد

جاءت إليهم غيلهْ!

١٩٦٣/١/٢

---

[1] السيرين، كما في الأوذيسة، حورية بحر تغني فتجذب إليها من يسمعها.

سفـر أيوب (١٠)

يا غيمةً في أوّل الصباحْ
تعربد الرياح
من حولها، تنتفُ من خيوطها، تطير
بها إلى سماوةٍ تجوع للحرير،
سينطوي الجناح،
ستَنْتفُ الرياح ريشَهُ مع الغروب،
يا غيْمةً ما أمطرتْ، تذوب.

* * *

فأبرقي وأرعدي وأرسلي المطرْ
ومزّقي ذوائبَ الشجرْ
وأغرقي السهوبْ
وأحرقي الثمرْ.
سَتَرْجَحِنُّ بعدك السنابل الثقالُ بالحبوب،
وتقطف الورودَ والأقاحْ
صبيَّةٌ يلوجَ في وجنتها الجنوب،
وأنت ذرّة من الدماء والجراحْ.

* * *

وأنتَ يا شاعر واديك، أما تؤوب

من سَفَرٍ يطول في البطاحْ،
تُراقص النَّهَرْ
وتلثم المَطَرْ؟
أما سمعتَ هاتف الرواح؟:
"خامٌ وزنبيلٌ من الترابْ
وآخر العُمْر ردى". ويطلع القَمَرْ.
فأبرقِ، ارعِدْ، أرسلِ المطرْ
قصائدَ احتوى مداها دارةَ العُمُرْ،
يا غيمةً في أول الصباح،
يا شاعراً يهمّ بالرواح،
وودِّعِ القمرْ!

لندن ١٩٦٣/١/٢

خرائبُ فانزعِ الأبواب عنها تغْدُ أطلالا،
خوالٍ قد تصكُّ الريحُ نافذةً فتُشْرعها إلى الصبْحِ
تُطلُّ عليكَ منها عينُ بومٍ دائبِ النوْحِ.
وسلّمُها المحطّمُ، مثل برجٍ دائرٍ، مالا
يئنّ إذا أتته الريح تصعده إلى السَّطْحِ،
سفينٌ تعركُ الأمواجُ ألواحهْ

* * *

وتملأ رُحْبَةَ الباحهْ
ذوائبُ سدرةٍ غبراءَ تزحمها العصافيرُ
تعدّ خطى الزمان بسقْسقات، والمناقيرُ
كأفواهٍ من الديدان تأكل جثّةَ الصمت
وتملأ عالم الموْت
بَهسْهسَة الرثاء، فتفزع الأشباح تحسب أنه النورُ
سيُشرق، فهي تُمسك بالظلال وتهجر الساحهْ
إلى الغرف الدجيّةِ وهي توقظ ربّة البيْت:
"لقد طلع الصباح" وحين يبكي طفلها الشّبَحُ
تهدهدُه وتنشد: "يا خيول الموت في الواحهْ

تعالي واحمليني، هذه الصحراء لا فرحُ
يرفّ بها ولا أمنٌ ولا حبٌ ولا راحهْ"
ألا يا منــزلَ الأقنان، كم من ساعدٍ مفتولْ
رأيتَ ومن خطىً يهتــزّ منها صخركَ الهاري!
وكم أغنيَّةٍ خضراء طارت في الضحى المغسولِ
بالشمس الخريفيّه،
تحدّث عن هوىً عاري
كماء الجدول الرقراق! كم شوقٍ وأمنيّهْ!!
وكم ألم طويْتَ وكم سُقيتَ بمدمعٍ جاري!؟
وكم مهد لمزهز فيك: كم موْت وميلاد
ونارٍ أوقدتْ في ليلة القرّ الشتائيه!!
يدنْدنُ حولها القصّاص: "يُحكى أنّ جنّيه..."
فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دَهَشٍ وإخلاد
كأنّ زئير آلاف الأسودِ يرنّ في واد
وقد ضلّوا حيارى فيه، ثمّ ترنّ أغنيّه:
"أتى قمرُ الزمان..." ودندن القصّاص! "جنيّه"
وبؤسهمُ المرير: الجوع والأحزان والسَقَمُ
وطفلٌ مات لما جفّ دَرٌّ ـــ ماتت المعزى
وجاعت أمّه فالثّديُ لا لبنٌ ولا لَحَمُ.
سمعتُ صراخها والليل ينظر نجمُه غمْزا،
وولْوَلةَ الأب المفجوع يخنق صوته الألَمُ
* * *

ولو خُيِّرْتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا،

ممضّ ما أعاني: شُلَّ ظهرٌ وانحنتْ ساقُ.

على العكّاز أسعى حين أسعى، عاثر الخطوات مرتجفا

غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحَد

بلا مالٍ، بلا أملٍ، يقطِّعُ قلبَه أسفا.

ألستُ الراكض العدّاء في الأمس الذي سلفا؟

أأمكث أم أعود إلى بلادي؟ آه يا بلدي

وما أمل العليل لديْك شحَّ المال ثم رَمَتْهُ بالداءِ

سهامٌ في يد الأقدار ترمي كلّ من عطفا

على المرضى وشدّ على ضلوع الجائعين بصدره الواهي

وكفْكَفَ أدمع الباكين يغسلُها بما وكفا

من العبرات في عينيْه - إلا رحمةُ الله؟؟

* * *

ألا يا منـــزل الأقنان، سقّتْك الحيا سُحُبُ

تروّي قبريَ الظمآن،

تلثمه وتنتحبُ!

لندن ١٩٦٣/١/٣

وصية من محتضر

يا صمتُ، يا صمتَ المقابر في شوارعها الحزينهْ،
أعوي، أصيح، أصيح في لَهَفٍ فأسمع في السكينهْ
ما تنثر الظلماءُ من ثلجٍ وقارِ
تُصدي عليه خطىً وحيداتٌ، وتبتلع المدينهْ
أصداءهنّ، كأنّ وحشاً من حديدٍ، من حجارِ،
سفَّ الحياة فلا حياةَ من المساء إلى النهارِ.
أين العراق؟ وأين شمس ضُحاه تحملها سفينهْ
في ماء دجلةَ أو بُوَيْبَ؟ وأين أصداء الغناء
خفقتْ كأجنحة الحمام على السنابل والنخيلِ
من كلّ بيت في العراء؟
من كلّ رابيةٍ تدثّرُها أزاهيرُ السهول؟
إنْ متّ يا وطني فقبرٌ في مقابرك الكئيبه
أقصى مناي. وإنْ سلمتُ فإن كوخاً في الحقول
هو ما أريد من الحياة. فدى صحاراك الرحيبه
أرباضُ لندن والدروب، ولا أصابتْك المصيبهْ!

* * *

أنا قد أموت غداً، فإنّ الداء يقرض، غَيْرَ وانِ،

حبلاً يشدّ إلى الحياة حطام جسمٍ مثلِ دارِ
نخرتْ جوانبَها الرياحُ وسقْفَها سيلُ القطارِ،
يا إخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمالِ
بين المعابر والسهول ، وبين عالية الجبالِ
أبناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبه..
لا تكفروا نعَمَ العراق...
خير البلاد سكنتموها بين خضراءٍ وماء،
الشمس، نور الله، تغمرها بصيْفٍ أو شتاء،
لا تبتغوا عنها سواها.
هي جنّةٌ فحذارِ من أفعى تدبّ على ثراها.
أنا ميّتٌ، لا يكذب الموتى. وأكفر بالمعاني
ان كان غير القلب منبعها.
فيا ألقَ النهارِ
أغمر بعسجدك العراق، فإنّ من طينِ العراقِ
جسدي ومن ماء العراق...

١٩٦٣/١/٢

الشـــاهدة[1]

"يا قارئاً كتابي

ابكِ على شبابي.

شاهدةٌ بين القبورتبكي

تستوقف العابر. يا صحابي

غضُّوا الخطى ولْتصمتوا: إن القرون تحكي

في جملةٍ خُطت على الترابِ.

من نام في القبر ودودَ القبرِ؟

يُسأل لا ينطق بالجواب؟!

سيّان عنده ائتلاقُ الفجرِ

وظلمة الليل، بلا ثياب

بلا طعام، لا هوىً، لا حقدُ.

أفْقر أهل الفقر

فيه وأغنى الأغنياء. تعدو

في قبره الجرذان، وهو غاف

نام من الديدان في لحاف؟!

* * *

[1] لوحة توضع عند القبر يكتب عليها اسم الميت أو حكمة أو أبيات من الشعر.

لي نومةٌ مع التراب في غد

صباحُها أوّلُ ليل الأبد،

يمر بي الشيوخ والشبّانُ

يثرثرون: يدها فوق يدي

وعينها..." ويُنفث الدخانُ!

رُبَّ فتى مُورَّدِ

يقرأ من شعري على الصحابِ،

يقرأ في كتابي

قصيدةً خضراء عن جيكورِ

غافيةً تحت غصونِ النورِ

تحلم بالسحابِ.

مرّ على قبري فقال: قَبْرُ!

وأين من هذا الرميم الشِّعرُ

يدفق بالعواطفِ

كهبّة العواصف القواصف؟"

مَرّ على قبري فكاد الصّخرُ

يصرخ: "تحتيَ نام هذا الشاعرُ

صاحبُ هذه القوافي، يسمعُ

ما قلتموه فالعيونُ تدمعُ

في عالمٍ لا يرجعُ المسافرُ

منه ولا للنوم فيه آخرُ.

رفقاً به، دعوه في رقدته

يؤنسه الديوانُ في وحدته

كان له قلبٌ وكان أمسُ،

حتى إذا استنــــزف من مُدَّته

توسَّد الترابا.

لا تقرأوا الكتابا"

* * *

ثمَّ تغيبُ الشمسُ!

درم ١٩٦٣/١/٦

أسمعه يبكي

أسمعُهُ يبكي، يناديني

في ليلي المستوحد القارسِ،

يدعو: "أبي كيف تخلّيني

وحدي بلا حارسِ؟"

غيلان، لم أهجرْكَ عن قصْد...

الداء، يا غيلان، أقصاني.

إني لأبكي، مثلما أنت تبكي، في الدجى وحدي

ويستثير الليلُ أحزاني.

فكلّما مرّ نهارٌ وجاءْ

ليلٌ من البرْدِ،

ألفيْتني أحسب ما ظلّ في جيْبي من النقد:

أيشتري هذا القليلُ الشفاء؟

سأطرقُ البابَ على الموت في دهليز مستشفى

في البرد والظلماءِ والصمت،

سأطرق البابَ على الموت

في بُرْهة طال انتظاري لها في معبر من دماء،

وأرسلُ إلاّ الدجى والخُواء.

يا ويلتيَ إنْ يُفتح البابُ

فأبصرُ الأمواتَ من فُرْجتهْ

يدعونني: "ما لكَ ترتابُ

بالموت؟ في هجعته

ما يعْدل الدنيا وما فيها:

دفءٌ، نُعاسٌ، خَدَرٌ وارتخاء!"

أوشكُ أن أعبر في برْزخٍ من جامدات الدماء

تمتدُّ نحوي كفُّها، كفّ أمي بين أهليها:

"لا مالَ في الموت، ولا فيه داء!"

ثم تسدّ البابَ كفُّ الطبيب

تجرح في جسمي،

وهاتفاً باسمي

أسمع صوْتاً ناعساً، قد أجيبْ

فيُهزمُ الموتُ على صوتي،

وربما استسلمتُ للموت!

درم ١٩٦٣/١/٩

دَرَمْ...

بنفسيَ مما عراني بَرَمْ

فمدّي ذراعيك ولْتحضنيني

إلى هوةٍ من ظلام العدم،

فما قيمة العمر أقضيه أمشي

بعكّازة في دروب الهَرَم؟

أهذا شبابي؟ وأين الشباب؟

ألا حُبّ، لا زهوَ، لا عنفوان؟

أهذا مشيبي؟ حصدتُ السراب

إذا كان معنى المشيب الهوان؟

أعُقْبى المشيب الأسى والندم؟

أما من شبابي الذي مرّ ذكرى؟

أما منه مالٌ وبُقيا شمم؟

أكان الذي منه خلّفتُ شعرا

وبيتاً وراء الرياح الهدم؟

درم...

تمنّيتُ لو متُّ بين الثلوج

على جدولٍ جمّدته النسَمْ،
فروحي تجوب المروج
وتأوي إلى رِمّةٍ في الظُّلَم.
ومن أين للروح هذا البقاء؟
فناءٌ، فناء
سوى قصّةٍ قد تثير السّأم
يُردِّدها سامرٌ في الشتاء:
"لقد خطّ شعْراً له من هباء،
وكانت له زوجةٌ وابنُ عمْ
وطفلانِ... لا، لا، نسيتُ... ابنتانْ
وطفلٌ." ويخبو لديه الضّرَم،
فيغفو على المسند السامرُ
وتُفتحُ بوّابةٌ من دخانْ
عليها الدجى حائرُ
يُبعثر أنجمَهُ من خلال الضباب.
أهذا هو الشاعرُ؟
حديثٌ يُنيم الصحاب
إذا مات، أو عاش فهو الألم.
دَرَمْ
بنفسي مما عراني بَرَمْ!

بيروت ١٩٦٣/١/٥

من دَرَم أكتُبها قصيدهْ
كالنجم في آفاقهِ البعيده
لا يبعث الدفْءَ ولا يُنيرُ،
يلمحه الصغيرُ
فيبسط الكفَّ له، يُشير
يقْطر في أحلامه السعيده
يَغْلق بالضباب
كنُغفة السراب
تضلِّل القوافلَ الشريده.

* * *

اليأسُ يوحيها أو الملالُ
كأنها في الظلمة الظِّلالُ
تعمِّقُ الظلْمةَ حين تُنشَرُ.
أظلُّ ما يُقالُ
في نفس شاعرٍ يموتُ عُمرهُ، يُبعثَرُ
ويُقبَرُ؟
يمشي على عكّازةٍ ويعثرُ،

أيّامه إلى رَداه سَفَرُ،

وعيْشُهُ انسلالُ

عَبْرَ جدار الموت ما يزالُ؟

شاء الرَّدى، حاول أن يُريدهْ،

لكنّ وحشاً ضارياً يُزمجرُ

في كهفه، وحيّةً من بابلَ التليده –

يطير نحو الموت منه شرَرُ،

تفحُّ في وجه الردى وتصفرُ،

فيكتب القصيده

يريد أن يُجدِّد البقاء، أن يُعيده،

أن يهديَ القوافلَ الشريده

فلا تتيهَ في صحارى العَدَمِ.

بقبره في دَرَمِ.

* * *

من درمٍ أكتبها قصيده

كالنجم ضلّ في سديم العَدمِ.

درم ١٩٦٣/١/٥

قـالوا لأيـوب

قالوا لأيوبَ: "جفاكَ الآلهْ!"

فقال: "لا يجفو

من شدّ بالإيمان، لا قبضتَاه

تُرخي ولا أجفانُه تغفو"

قالوا له: "والداء من ذا رماه

في جسمك الواهي ومن ثبّتَهْ ؟

قال: "هو التكفيرُ عمّا جناه

قابيلُ والشاري سُدىً جنّته.

سيُهزَم الداء: غداً أغفو

ثمّ تفيقُ العينُ من غَفوَهْ

فأسحبُ الساقَ إلى خَلْوهْ

أسأل فيها الله أن يعفو.

عكّازتي في الماء أرميها

وأطرقُ الباب على أهلي.

إنْ فتحوا البابَ فيا وَيْلي

من صرخةٍ، من فرحةٍ مسّتْ حوافيها

دوّامةَ الحُزْنِ... وأأيوبُ ذاكْ؟

أم أن أمنيّه

يقذفها قلبي، فألفيها

ماثلةً في ناظري حيّه؟

غيلان، يا غيلان، عانقْ أباك!"

* * *

يا ربِّ لا شكوى ولا من عتاب،

ألستَ أنت الصانعَ الجسْما؟

فمن يلوم الزارع التمّا

من حوله الزرعُ، فشاء الخراب

لزهرةٍ والماءَ للثانيةْ؟

هيهات تشكو نفسي الراضيه.

إني لأدري أنّ يومَ الشفاء

يلمحُ في الغيْبِ،

سينـــزع الأحزانَ من قلبي

وينـــزع الداء، فأرمي الدواء،

أرمي العصا، أعدو إلى دارنا وأقطف الأزهار في دَرْبي

ألمّ منها باقةً ناضره

أرفعُها للزوجةِ الصابره

وبيْنها. ما ظلَّ من قلبي!

درم٦/١/١٩٦٣

وفي الصباح يا مدينةَ الضبابْ

والشمس أمنيَةُ مصدورٍ تُدير رأسَها الثقيلْ

من خَلَلِ السحاب،

سيحملُ المسافرُ العليلْ

ما تركَ الداءُ له من جسمه المذاب

ويهجرُ الدخانَ والحديدْ

ويهجر الأسفَلْتَ والحَجَرْ.

لعله يلمح في درامَ من نَهَرْ،

يلمح وجه الله فيها، وجهه الجديد

في عالم النقود والخمور والسَّهَرْ.

* * *

رُبَّ صباحٍ، بعد شهرٍ... بعد ما الطبيبْ

يراه – من يعلم ماذا خبّأ القَدَر؟ –

بألف ألفِ رائعٍ عجيبْ،

بالحَلْي والحجر،

باللّعَب الخبيئه

يفجأ غيلانَ بها – يا طول ما انتظر!

يا طولَ ما بكى ونام تملأُ الدموعْ
برنّة الأجراس أو بصيحة الذئاب
عوالِمَ الحُلم له، وتنشر القلوع
يجوب فيها سندبادُ عالم الخطَرْ:
هناكَ فارس النحاس يرقبُ العُباب
ويُشْرِعِ السهْمَ ليرمي كلَّ من عَبَرْ!
إنْ يكتب الله ليَ العَوْدَ إلى العراق
فسوف ألثم الثرى، أعانق الشجر،
أصيحُ بالبَشَرْ:
"يا أُرَجَ الجنّة، يا إخوةُ ، يا رفاقْ،
الحَسنُ البصْريّ جابَ أرض واق واق
ولندن الحديد والصّخَرْ،
فما رأى أحسنَ عيْشاً منه في العراق..
ما أطولَ الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ
صديئةً تحزّ عينيَّ إلى السّحَرْ!
* * *
وزوجتي لا تطفئ السراجَ: "قد يعودْ
في ظُلمة الليل من السّفَرْ."
وتُشعل النيرانَ في مَوْقدنا: "برودْ
هو المساء، وهو يهوى الدفء والسّمَرْ."
* * *
وتنطفي مدفأتي، فأضرمُ اللهيبْ

وأذكر العراقَ: ليتَ القمر الحبيب

من أفق العراق يرتمي عليّ: آه يا قمر

أما لثمتَ وَجْه غيْلانَ؟ أنا الغريب

يكفيه، لو لثمتَ غيْلان؟ أن انتثر

منك ضياءٌ عَبْرَ شبّاك الأب الكئيب

ومسّ منه الثّغْرَ والشَعَرْ:

أحسُّ منه أنّ غيلان (شذىً وطيب

من كفّه اللّينة انتشر)

عابث شَعْري، صاحَ: "آه جاء

أبي، وعاد من مدينة الحَجَرْ"

وشدّ بالرداء.

ما أطول الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ

ومديةَ النوم بلا قمر!

لندن ١٩٦٣/١/٤

جنازتي في الغرفة الجديدهْ
تهتفُ بي أن أكتب القصيدهْ،
فأكتبُ
ما في دمي وأشطبُ
حتى تلينَ الفكرةُ العنيدهْ.
وغرفتي الجديده
واسعةٌ، أوسعُ لي من قبْري.
إذا اعتراني تَعَبُ
من يقظةٍ فالنوم منها أعذبُ،
ينبع حتى من عيون الصّخرِ،
حتّى من المدفأة الوحيده
تقوم في الزاوية البعيده.

* * *

وترفع الجنازةُ اليابسةُ المهدَّمه
من رأسها، ترنو إلى الجدران
والسقْف والمرآة والقَناني.
ما للزوايا مظلمه
كأنهنّ الأرضُ للإنسان

تريد أن تحطّمه

بالمال والخمور والغواني.

والكذْب في القلب وفي اللسان،

تُريدُ أن تُعيده

للغابة البليده؟

وصفحةُ المرآة ما لها تُطلّ خاويه

ما أثمرَتْ بغانيه،

بالشَّفَة المرجان

تُنيرها، كالشَفَقِ، العَينان

وبالنهود العاريه،

كهذه المرآة

ستُصبح الأرضُ بلا حياة.

وفي الليالي الداجيه،

في ذلك السكون ليس فيه

إلاّ الرياحُ العاويه،

سيفزع الله من الأموات

ويسحبُ الموتَ ويغفو فيه

مثلَ دثارٍ في الليالي الشاتيه

* * *

وهكذا الشاعرُ حينَ يكتب القصيده

فلا يراها بالخلود تنبضُ،

سيهدمُ الذي بنى، يقوّض
أحجارَها ثم يملُّ الصمتَ والسُّكونا.
وحين تأتي فكرةٌ جديده،
يسحبُها مثل دثارٍ يحجب العيونا
فلا ترى. إنْ شاء أن يكونا
فليهدم الماضيَ، فالأشياء ليس تنهضُ
إلا على رمادها المحترق
منتثراً في الأُفقِ..
وتولد القصيده..

درم ١٩٦٣/١/١٠

بالأمسِ كنتُ إذا كتبتُ قصيدةً فرحَ الدمُ
فأغمغمُ
وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيلْ
أشدو بها، أترنَّمُ:
زادٌ لروحي منذ سَقْسقة الصباح إلى الأصيل.
زادٌ.. ولكنْ عنه قد صدفت، تجوع ولا تريدْ
ما يُنعش الآمالَ فيها،
هي حشرجاتُ الروح أكتبها قصائد لا أفيد
منها سوى الهُزْء المرير على ملامحِ قارئيها.

هَرِمَ المغنّي، هدّ منه الداءُ فارتبكَ الغناءْ.
بالأمس كان إذا ترنّم يُمسك اللّيْلُ الدروبْ
بنجومه المترنّحات فلا تخرّ على الدروب،
واليوم يهتف ألفَ آهٍ لا يهزُّ مع المساء
سَعَف النخيل ولا يُرجِّحُ زورقَ العرس المحلّى
بعيون آرامٍ ودفْلى
ودرابكَ ارتعدت حناجرُها فأرعدت الهواء.

هرِمَ المغنّي فاسمعوه، برغم ذلك، تسعدوه،
ولتُوهموه بأنّ من أبَدٍ شباباً من لحون
وهوى ترقرقُ مقلتاه له وينفح منه فوه.
هو مائتٌ، أفتبخلونَ
عليه حتى بالحُطام من الأزاهر والغصون؟
أصغوا إليه لتسمعوه
يرثي الشبابَ ولا كلامَ سوى نشيجٍ: "بالعيون
سلّمْ عليّ إذا مررتَ."،
أتى وسلّمَ.. صَدِّقوه!
هرم المغنّي فارحموه.

درم ٥/ /١٩٦٣

عملاءُ "قاسمَ" يُطلقون النارَ، آه، على الربيعْ
سيذوب ما جمعوه من مالٍ حرامٍ كالجليدْ
ليعود ماءً منه تَطْفحُ كلُّ ساقيةٍ، يُعيد
ألقَ الحياة إلى الغُصون اليابسات فتستعيد
ما لُصّ منها في الشتاء القاسميّ.. فلا يضيع
يا للعراقْ!
يا للعراق! أكاد ألمحُ، عَبْرَ زاخرةِ البحارْ،
في كلّ مُنعَطَفٍ، ودربٍ، أو طريق، أو زقاق
عَبْرَ الموانئ والدروبْ،
فيه الوجوه الضاحكات تقولُ: "قد هربَ التتارْ
والله عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النهار،
طلع النهار فلا غروب!"
يا حفصةُ[1] ابتسمي فثغرُك زهرة بين السهوب،
أخذتْ من العملاء ثأرَكِ كفُّ شعبي حين ثار
فهوى إلى سَقَرٍ عدوّ الشَعْب، فانطلقتْ قلوب
كانت تخاف فلا تحنّ إلى أخٍ عَبْرَ الحدودْ،

[1] عذراء عربية من الموصل، صلبها عملاء قاسم ومثلوا بها.

كانت على مَهَلٍ تذوب،
كانت إذا مال الغروب
رفعتْ إلى الله الدّعاء: "ألا أغثْنا من نمود،
من ذلك المجنون يعشق كلّ أحمرَ، فالدماءْ
تجري وألْسنةُ اللهيب تُمدُّ، يُعجبه الدمار.
أحرقْه بالنيران تهبط، كالجحيم، من السماء،
واصرعْه صرعاً بالرّصاص! فإنّه شبحُ الوباء"

* * *

هُرِع الطبيبُ إليّ – آه، لعلّه عرف الدواء
للدّاء في جسدي فجاء؟ –
هرع الطبيب إليّ وهو يقول: "ماذا في العراق؟
الجيْشُ ثارَ ومات "قاسم" " – أيّ بُشرى بالشّفاء!
ولكدتُ من فَرَحي أقوم، أسيرُ، أعدو دون داء.
مرحى له.. أي انطلاقْ!؟
مرحى لجيْش الأمّة العربيةِ انتـــزع الوثاق!
يا إخوتي بالله، بالدم، بالعروبة، بالرجاء،
هُبّوا فقد صُرِعَ الطغاةُ وبدّد اللّيْلَ الضياء!
فلتحرسوها ثورةً عربيّةً صُعق "الرّفاق"
منها وخرّ الظالمون،
لأنّ "تمُّوزَ" استفاقْ
من بعد ما سرق العميل سناه، فانبعث العراقْ

لندن – مستشفى سان ماري ١٩٦٣/٢/٨


الناشيء

شناشيل ابنة الچلبي

إقبال


الناشيء

شناشيل ابنة الجلبي [1]

وأذكرُ من شتاء القريةِ النضّاحِ فيه النورُ
من خَلَل السّحاب كأنّه النّغَمُ
تسرّبَ من ثقوب المعزف – ارتعشتْ له الظلَمُ
وقد غنّى – صباحاً قبلَ ... فيم أعدُّ ؟ طفلاً كنت أبتسمُ
لليلي أو نهاري أثقلتْ أغصانَه النشوى عيونُ الحوْر .
وكنا – جدّنا الهدّار يضحك أو يغنّي في ظلال الجوسق القَصَبِ

---

(١) الشناشيل : شرفة مغلقة ، مزينة بكثير من الخشب المزخرف والزجاج الملون ، كان شائعاً في البصرة وبغداد قبل مائة سنة . والجلبي لقب هو عند المصريين « شلبي » وعند الأوروبيين « ماركيز ».

وفلاّحيه ينتظرون : « غيْثَك يا إلهُ » وإخوَتي في
غابة اللّعبِ
يصيدون الأرانبَ والفَراش ، و (أحمدَ) الناطور —
نحدّقُ في ظلال الجوْسق السمراء في النّهْرِ
ونرفع للسحاب عيوننا سيسيل بالقطْرِ .
وأرعدتِ السماءُ فرنّ قاعُ النهر وارتعشتْ ذُرى السَّعَفِ
وأشعلهنّ ومْضُ البرْق أزرقَ ثمّ اخضر ثم تنطفىءُ
وفتحت السماءُ لغيْثِها المدرار باباً بعد بابِ
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىءُ
تكلّلُه الفقائعُ ، عــاد أخضرَ ، عاد أسمر ، غصّ
بالأنغام واللّهَفِ
وتحت النخْل حيثُ تظلُّ تمطِرُ كلُّ ما سعْفَه
تراقصتِ الفقائعُ وهي تُفجَرُ — إنّه الرُّطَبُ
تساقطَ في يد العذراء [١] وهي تهزُّ في لهفه
بجذع النخلةِ الفرعاء (تاجُ وليدكِ الأنوارُ لا الذّهَبُ ،

(١) « وهزي إليك بجــذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » (سورة مريم — القرآن الكريم) .

سيصلب منه حبُّ الآخرين ، سيُبرىءُ الأعمى
ويبعث من قرار القبر ميتاً هدَّه التعبُ
من السفرِ الطويل إلى ظلام الموت ، يكسو عظمَه اللحما
ويُوقد قلبَه الثلجي فهو بحبّه يثبُ !)

* * *

وأبرقتِ السماءُ فلاح ، حيث تعرّجَ النهرُ ،
وطاف معلّقاً من دون أسٍّ يلثمُ الماءَ
شناشيلُ ابنة الجلبيِّ نوّر حوله الزّهَرُ
(عقود ندىً من اللبْلاب تسطع منه بيضاءا)
وآسيةُ الجميلة كحّل الأحداقَ منها الوجد والسّهَرُ

* * *

يا مطراً يا حلبي
عبّرْ بنات الجلبي
يا مطراً يا شاشا
عبّر بنات الباشا (١)
يا مطراً من ذهبِ

* * *

---

(١) هكذا يغني الأطفال في قرى البصرة حين تقطر السماء : « مطر ، مطر ، حلبي . عبر بنات الجلبي » الخ ..

تقطّمتِ الدروب ؛ مقص هذا الهاطلِ المدرارِ
قطّعها ووراها ،
وطوّقتِ المعابرُ من جذوع النخل في الأمطارْ
كغرقى من سفينةِ سندبادَ ، كقصّةٍ خضراء أرجأها وخلاها
إلى الغدِ (أحمدُ) الناطورُ وهو يديرُ في الغرفهْ
كؤوسَ الشاي ، يلمس بندقيّتَه ويسعل ثم يعبر طرْفُه
الشُّرْفه
ويخترق الظلامَ
وصاح « يا جدّي » أخي الثرثارْ
« أنمكث في ظلام الجوْسق المبتلّ ننتظرُ ؟
متى يتوقفُ المطرُ ؟ »

* * *

وأرعدتِ السماءُ ، فطار منها ثَمّةَ انفجرا
شناشيلُ ابنة الجلبيّ
ثمّ تلوحُ في الأفُقِ
ذُرى قوس السّحاب وحيث كان يُسارق النّظرا
شناشيلُ الجميلةِ لا تصيبُ العينُ إلا حمرةَ الشّفَقِ

* * *

ثلاثون انقضتْ ، وكبرْتُ : كم حبٍّ وكم وجْدِ
توهّج في فؤادي !
غيرَ أني كلّما صَفقَتْ يدا الرّعْدِ
مددتُ الطّرف أرقبُ ربما ائتلقَ الشناشيلُ
فأبصرتُ ابنةَ الجلبي مقبلةً إلى وعدي !
ولم أرها هواءٌ كلُّ أشواقي ، أباطيل
ونبْتٌ دونما ثمرٌ ولا وَرْدِ !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٤

إرم ذات العماد

(عند المسلمين أن « شداد بن عاد » بنى جنة
لينافس بها جنة الله ، هي « إرم » . وحين أهلك
الله قوم عاد ، اختفت « إرم » وظلت تطوف ،
وهي مستورة ، في الأرض لا يراها إنسان إلا مرة
في كل أربعين عاماً وسعيد من انفتح له بابها) .

من خَلَلِ الدُّخان من سيكاره ،
من خلل الدخانْ
من قَدَحِ الشاي وقد نشَّر ، وهو يلتوي ، إزارَه
ليحجبَ الزمان والمكانْ ،
حدثنا جدُّ أبي فقال « يا صغارْ ،
مقامراً كنتُ مع الزمانْ ؛

نقودي الأسماكُ ، لا الفضةُ والنضارْ ،
والورَق الشّباك والوِهار [1]
وكنتُ ذات ليْله
كأنما السماء فيها َصدَأٌ وقار ،
أصيدُ في الرُّميْله
في خوْرها العميق ، أسمعُ المحارْ
موسْوساً كأنما يبوح للحصى وللقِفار
بموطن اللؤلؤةِ الفريده ،
فأرهفُ السّمعَ لعلّي أسمع الحوارْ
وكان من ندى الخريف في الدجى بُروده
تدبُّ منها رعشةٌ في جسدي فأسحبُ الدّثارْ
وانفرجَ الغيمُ فلاحتْ نجمةٌ وحيده
ذكرتُ منها نجمتي البعيده
تنام فوق سطْحها وتسمعُ الجِرارْ
تنضحُ (يا وقْعَ حوافرٍ على الدروبْ

(١) الوهار : أداة لصيد السمك تصنع من أغصان الشجر .

في عالمَ النـُّعاس ؛ ذاك عنـْترٌ يجوب
دجى الصَّحارى . إن حيَّ عبْلةَ المزارْ) .
فسرتُ والسَّماءُ وجهتي ، ولا دليلْ ،
أرقب نجمها الوحيد ، والشُّعاعْ
يخفتُ أو يؤُجُّ مانعاً ومانحاً ، وكالشـِّراع
ترفع أو تحطـُّه الرِّياحُ في الصِّراع .
أسرتُ ألف خطوة ؟ أسرتُ ألفَ ميلْ ؟
لم أدرِ إلا أنـَّني أمالني السَّحَرْ
إلى جدار قلعةٍ بيْضاءَ من حَجَرْ ،
كأنما الأقمارُ منذ ألـْفِ ألف عامْ
كانت له الطـِّلاءْ ،
كأنما النجومُ في المساءْ
سلـْنَ عليْه ثمَّ فاض حوله الظـَّلامْ
وسرتُ حول سورها الطويلْ
أعدُّ بالخطى مداه (مثلَ سندُبادْ
يسيرُ حول بيْضة الرُّخِّ ولا يكاد

يعود حيث ابتدأ

حتى تغيب الشمس ، غشى نورَها سوادْ ،

حتى إذا ما رفع الطرْفَ رأى ... وما رأى ؟)

حتى بلغتُ في الجدار موْضعَ العمادْ

تقوم فيه ، كالدُّجى ، بوّابةٌ رهيبه

غلّفها الحديدُ ، مدَّ حوْلَها نحيبه

أراه بالعيون لا تحسُّه المسامعُ

وقفتُ عندها أدقُّ

يا صدىً أراجعُ

أنت من المقابر الغريبه ؟

أحسُّ في الصدى

برودةَ الرّدى ،

أشمُّ فيه عفَنَ الزّمان والعوالِمِ العجيبه

من إرَمٍ وعادْ

وحين كلَّ ساعدي

وملّني الوقوفُ في الظلامْ

(كناسكٍ ، كعابدِ
يرفضُه الإلهُ في معبده ، يظل لا ينام
ولا يريد الماء والطعامْ ،
يصيحُ « كن على الهوى مساعدي
يا رافعَ السّماء ، يا موزّعَ الغمام »)
جلستُ عند بابها كسائلٍ ذليلْ
جلستُ أسمع الصدى ، كأنه العويلْ ،
يلهثُ خلْفَ حائطٍ من حَجَر ثقيلْ
كأنّ بين دَقّةٍ ودقة يمرُّ ألف عامْ
وما أجاب العَدمُ الخواءْ
وحين أوشكَ الصباحُ يهمس الضياءْ
نعستُ ، نمتُ ... واستفقتُ مر ألفُ جيلْ !!
الشمسُ والفلاه
والغيْمُ والسماءْ
وكل ما أراه
هناك حيث كان سورُها ، المياه

تشعُّ في الخليجْ » .
وقال جدُّنا ولجَّ في النشيج
« ولن أراها بعدُ ، إنَّ عمريَ انقضى
وليس يُرجع الزمان ما مضى .
سوف أراها فيكُم ، فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتي . فإن رأى إرم
واحدُكم فليطرقِ البابَ ولا ينمْ
إرَمْ
في خاطري من ذكرها ألَمْ ،
حلمُ صباي ضاعَ ... آهِ ضاع حين تمّ
وعمري انقضى » .

لندن ١٩٦٣/٢/٢١

في الليل

الغُرْفةُ موصَدَةَ البابِ
والصمتُ عميقْ
وستائرُ شبّاكي مرخاةٌ
رُبَّ طريق
يتنصّتُ لي ، يترصّدُ بي خلفَ الشبّاك ، وأثوابي
كمفزّعِ بُستان ، سودُ
أعطاها البابُ المرصودُ
نَفَساً ، ذرَّ بها حسّاً ، فتكادُ تفيقْ
من ذاك الموت ، وتهمس بي ، والصّمْتُ عميق
« لم يبقَ صديق

ليزورك في الليل الكابي

والغرفةُ موصدةُ البابِ » .

ولبسْت ثيابيَ في الوهْمِ

وسريتُ ستلقاني أمّي

في تلك المقبرةِ الثكلى ،

ستقول « أتقتحمُ الليْلا

من دون رفيق ؟

جوعانُ ؟ أتأكل من زادي

خرّوبِ المقبرة الصادي ؟

والماءُ ستنهله نهْلا

من صدر الأرض

ألا ترمي

أثوابك ؟ والبسْ من كفَني ،

لم يبْلَ على مرّ الزمَنِ ؛

عزريلُ الحائكُ ، إذْ يبلى ،

يرفوه . تعال ونَمْ عندي

أعددْتُ فراشاً في لَحْدي
لكَ يا أغلى من أشواقي
للشمس ، لأمواهِ النّهْرِ
كسلى تجري ،
لهُتاف الدّيكِ إذا دوّى في الآفاقِ
في يوم الحشْرِ »
سآخذُ دربي في الوَهْمِ
وأسير فتلقاني أمّي

لندن - ٢٧ / ٢ / ١٩٦٣

في انتظار رسالة

وذكرتُها ، فبكيتُ من ألـمي
كالماء يصعدُ من قرار الأرض ، نزَّ إلى العيون دمي
وتحرّقت قطراتُه المتلاحقات لتستحيلَ إلى دموعْ
يخنقـنَني فأصكُّ أسناني ، لتنقذفَ الضلوع
موْجاً تحطّم فوقهنّ وذابَ في العَدَمِ

دخانٌ من القلب يصعدْ
ضبابٌ من الروح يصعد
دخانٌ ضبابْ
وأنتِ الخطافُ وراء البحار ، وأنت انتحابْ

ونوحٌ من القلب كالمدّ يصعد
ودمعٌ تجمّدْ
وغصّت به الآهُ في الحنجُره .
ذكرتُك يا كلّ روحي ويا دفْءَ قلبي إذْ الليل يبرد
ويا روضةً تحت ضوء النجوم بقدّاحها مُزْهره

وذكرتُ كلّتنا يهف بها ويسبحُ في مداها
قَمَرٌ تحيرَ كالفراشةِ ، والنجومُ على النجوم
دندنّ كالأجراس فيها ، كالزنابق إذْ تعومُ
على المياهِ ... وفضّضَ القمَرُ المياها
وكأنّ جسمك زورقُ الحبّ المحمّلُ بالطيوبْ
والدّفْء ، والجدافُ همْسٌ في المياه يرن آها
فآهاً والنّعاس يسيل منكِ على الجنوب
فينامُ فيه النّخْلُ تلتمعُ السطوحُ بنوْمهنّ إلى الصباحْ
أواه ، ما أحلاكِ ! نام النورُ فيكِ ونمتِ فيهِ ،
والليْلُ ماءٌ ، والنّباح
مثل الحصى ينداح فيه ، وأنتِ أوّلُ ورادِيهِ

هو الصَّيْفُ يلثمُ شطَّ العراقْ
بغيماتهِ ذاب فيها القَمَرْ ،
وتوشِكُ تسبح بيضُ النجوم لولا برودة ماء النَّهَرْ
وهفَّ شراعٌ لأضلاعه في الهواء اصطفاقْ ،
وغنّى مغنٍّ وراء النَّخيل
يغمغمُ « يا ليلُ ، طال السَّهَرْ
وطال الفراق ! »
كأنَّ جميعَ قلوبِ العراق
تُنادي ، تريد انهارَ المَطَرْ

وصعدتُ نحوكِ والنُّعاس رياحٌ فاترات تحملُ الوَرَقا
لتمسَّ شعركِ والنّهودَ به ، تموتْ
حيناً وتلهثُ في النوافذِ من بيوت
ألقاكِ في غُرُفاتها ، وأشدُّ جسمكِ فارَ واحترقا
إنّي أريدكِ ، أشتهيكِ أمسُّ ثغركِ في رساله
طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترقُ الزوارقُ والتخوت

في ضفّة العشّار تنفضُ ، وهي لاهثةٌ ، ظِلاله
علّ الرّياحَ حملنَ منكِ لها رساله
لمَ تبخلين عليّ بالورقات، بالحبر القليل وسحبة القلم الصّموت؟
إني أذوب هوىً ، أموتْ
وأحنُّ منك إلى رساله

لندن ١٩٦٣/٣/٩

الباب تقرعه الرياح

البابُ ما قرعتْه غيرُ الرِّيحِ في اللَّيْل العميقْ ،
البابُ ما قرعته كفُّكِ
أين كفُّك والطَّريقْ
ناءٍ ؟ بحارٌ بيننا ، مُدُنٌ ، صحارَى من ظَلامْ
الرِّيحُ تحمل لي صدى القُبُلات منها كالحريق
من نخلةٍ يعدو إلى أخرى ويزهو في الغمامْ

* * *

البابُ ما قرعتْه غير الرِّيح
آهِ لعلَّ روحاً في الرِّياح
هامت تمرُّ على المرافىء أو محطاتِ القطار

لتُسائل الغرباء عني ، عن غريبٍ أمسِ راح
يمشي على قدمين ، وهو اليوم يزحفُ في انكسارِ
هي روحُ أمي هزها الحب العميق ،
حب الأمومة فهي تبكي :
« آه يا ولدي البعيدَ عن الديار !
ويلاه ! كيف تعودُ وحدكَ ، لا دليلَ ولا رفيقْ ؟ »
أماه ليتك لم تغيبي خلف سورٍ من حجارِ
لا بابَ فيه لكي أدق ولا نوافذَ في الجدارِ !
كيف انطلقتِ على طريقٍ لا يعود السّائرونْ
من ظلمةٍ صفراء فيه كأنها غَسَقُ البحارِ ؟
كيف انطلقْتِ بلا وداع فالصّغار يولولون ،
يتراكضون على الطريق ويفزعون فيرجعون
ويُسائلونَ الليل عنكِ وهم لِعودكِ في انتظارِ ؟
الباب تقرعه الرياح لعلّ روحاً منكِ زارْ
هذا الغريب !! هو ابنكِ السهران يُحرقه الحنين
أماه ليتك ترجعينْ

شبحاً . وكيف أخافُ منه وما امّحتْ رغم السنينْ
قسماتُ وجهِـكِ من خيالي ؟
أين أنتِ ؟ أتسمعينْ
صَرخاتِ قلبي وهو يذبحه الحنينُ إلى العراقِ ؟

* * *

الباب تقرعه الرياحُ تهبّ من أبدِ الفراقِ

لندن ١٩٦٣/٣/١٣

من ليالي السهاد

١ – ليلة في لندن

كما ينسلُّ نورٌ خائفٌ من فُرْجةِ البابِ
إلى الظلماء في غُرْفه
سمعتُ هُتافَه المجروحَ يَعبر نحويَ الشُّرْفه
ليرفعَ من سماوة لندنَ اللَّيْلَ المُطِلَّ بلوْنه الكابي
على الطُّرُقاتِ ترقدُ في دثار الثلج ملتفّه
وأمسِ سمعتُ في ايرانَ صوت الدّيكِ في الفجْرِ ،
ومن أفْقِ المنائر في الكويتِ وزُرْقةِ البحْرِ
أهابَ ، فرشَّ جفني بالنُّعاس (رنينُ أكوابِ
بماء البصرةِ الرّقراق تُملأ ثم تسقيني) ،
نداءٌ راح ينثره المؤذّنُ.. : أطفىءَ الفانوسُ ، رفَّ ضياؤه رفّه

وبعثره الظلام .

وليلي الأوّاهُ في بيروت يُحييني

لأبصر فيه وجهَ الموت ، راح يُذيبُه نبعٌ من اللّهفه

تدفّقَ من فؤاد البُلبُل المسكوب بين غصون لَبْلابِ

ليالٍ مس عذابٍ ، من سقامٍ ، لستُ أنساها

غريباً كنتُ حتى حين أحلمُ ، لستُ في جيكور

ولا بغداد ، أمشي في صحارى قلبي المسعور

يُريد الماءَ فيها: « ماءُ أين الماء ؟» وهي تُريه أفواها

على آفاقها الرّبداء ظمأى تشرب الدّيجور

فلا تروى. أأقضي العمر في صحراءَ،في ليلٍ من العَطَشِ؟

أُفتّشُ عن عيون الماء ، عن إشراقة الغَبَشِ ؟

كأعمى نال منه السُّكرُ صاح،ورفرفت كفاه بين مساند الماخور

ليبحثَ عن رفيقٍ : «أين جاري؟أين داري؟ أين –أوّاها–

أميرتي التي كانت تناولني كؤوسَ النُّورْ ؟

فيُبصرُ قلبي الدنيا ويلقاها ؟ »

كأنّ الصُّبْحَ أشرقَ في العراق ، وتعبر الرُّؤيا

بِحاراً بي وتطوي ألف دربٍ في الدجى تاها

تراجعَ عالمٌ وأطلّ ثانٍ عالمٌ يحيا

على الأقمار تُولَدُ ثم تكملُ ثم تندثرُ ،

وما لبس الجديدَ بغير يوم العيد ، يدّخرُ

ويجمع ثم ينفق ثم يضحك وهو يفتخر

بأن الله يرزق حين يرزق ... هكذا الدنيا

شتاءٌ ثمّ صيفٌ ليس في جيكورَ محتكِرُ

ولا فيها مصارفُ أو جرائدُ « ليْلُ كوريّا

يُرى شَفَقاً من النيران »

فالنيران فيها حين تستعر

تضيء لحى الشيوخ يحدّثونَ ، وأعيُنَ النّسوه

تحدق في الطعام وترقب الأطفالَ في نشوه .

أعدْني يا إله الشّرْق والصحراء والنخْلِ

إلى أيامي الحلوه ،

إلى داري ، إلى غيلانَ ألثمُه ، إلى أهلي !

لندن ٣ / ٢ / ١٩٦٣

٢ – ليلة في باريس

وذهبتِ فانسحب الضياء ،
أحسستُ بالليلِ الشتائيِّ الحزين ، وبالبكاءْ
ينثالُ كالشلاّل من أفقٍ تحطّمه الغيومْ
أحسستُ وخزَ الليل في باريسَ ، واختنقَ الهواء
بالقَهْقهات من البغايا   آه ! ترتعش النجوم
منها كبلّور الثريّات الملطّخ بالدماء
في حانةٍ لمدى السكارى في جوانبها انتضاء .
لم يبقَ منكِ سوى عبيرْ
يبكي وغيرُ صدى الوداع « إلى اللقاء ! »
وتركتِ لي شفقاً من الزّهرات جمّعها إناء

كالأنجم الزرقاء والحمراء في أفقٍ به حلم الصغيرْ ،
أرجعن لي عُمُرَ الطفولة يا محاراً في غدير
تتقارعُ الأقداحُ فيه ، ترن أجراسٌ كثارْ
خوْخٌ وأعنابٌ ورمّانٌ ... وتمتلىءُ الجرار
عند الغروب ؛ هو الخريف ونحن نـسْمر حول نار .
وكمستفيقٍ في العراءْ
من حُلمه هو شَهْرَيار وتلمس الكفُّ الخـُواء
ذهبَ التـُّرابِ ... ورنَّ في الليل النـُّباحُ أو العواء ،
عانقتُ كفـّكِ باليدينِ « إلى اللـّقاء »
— « إلى اللقاء » !

وذهبتِ فانسحبَ الضياء
لو صحَّ وعْدُكِ يا صديقه ،
لو صحَّ وعدك . آه لانبعثتْ وفيقه
من قبرها ، ولعاد عمري في السنين إلى الوراء
تأتين أنتِ إلى العراقِ ؟
أمدُّ من قلبي طريقه

فامشي عليه كأنما هبطتْ عليه من السماء
عشتار فانفجر الربيعُ لها وبرعمتِ الغُصون
توتٌ ودفلى والنخيل بطلْعه عبقَ الهواء ،
وهو الأصيل وتلك دجلةُ
والنواتيُّ الخفاف يردّدون
« يا ليْتني نجْمُ الصباحْ
آهٍ لأسقطَ يا حبيبي ، إذْ تنام ، على الغطاء ،
أعتل بالبرد ارتجفتُ فلفّني ، بَرَد الهواء ! »
وهو الأصيل وأنتِ في جيكورَ تجتذب الرياحْ
منك العباءة ، فاخلعيها
ليس يدثّر الضياء !
يتماوج البَلَمُ [1] النحيلُ بنا ، فتَنتَثرُ النجومْ
من رفّة الجداف كالأسماك تغطس أو تعوم ،
ويحار بين الضفتّين بنا كأنا منه في أبَد الزمانْ
زمن ولا ماضٍ يعود له ، ولا غدَ كي يسيرَ

١ – البلم: زورق البصرة ذو الشكل الشبيه، إلى حد ما، بجندول (البندقية).

إليه . تنطفىءُ النجومُ ونحن نحن العاشقان .

وذهبتِ فانسحب الضياء ،
لم يبق منك سوى عبير
يبكي وغير صدى الوداع « إلى اللقاء ! »
وتركتِ لي شفقاً من الزهرات جمّعها إناء ...

باريس ١٩٦٣/٣/١٨

٣ – ليلة في العراق

وألهبَ كل ألواح الزجاج الزُرق في الظلماءْ
فنوَّر غرفتي ، إيماضُ برقٍ ثم رشَّ مدارجَ الأفقِ
نُثارٌ من حُطام الرعْد فارتعشتْ له الأصداء
وحفَّ ،على الدجى، غابٌ من الأمطار والأزهار والورقِ ،
وكنتُ أصيح من أرقي
ومن مرضي « أريد الماء ! »
وتخنق صوتي الظمآن وهوَهةُ الدجى والماء
ويعول من بعيدٍ بوقُ سيّاره
يجيءُ إليَّ عبرَ الماء في الحاره ،
يجيءُ إليَّ من أعماق بحرٍ شمسه الخضراء

تنثُ على شراع السندباد أزاهرَ الشّفَقِ .
وكنتُ أصيحُ من أرقي
ومن مرضي « أريد الماء ! »
كأني وسط هذا الكون حيث يسوطني العطشُ
نواةٌ حولها ارتجفَ العصيرُ الحلوُ في ثمره
ويُحرقها صداها
وانتظرتُ سيغسل الغبَشُ
صداي ، يُحيلني شجَره
تمصُّ الماءَ ، يقرع في مداها النّسغُ !

* * *

وألقى البرْقُ ، أرقصَ ، ظلّ نافذتي على الغرفه
فذكّرني بماضٍ من حياتي كلّه ألمُ
طفولتي الشقيّةِ ، والصبى ، وشبابي المفجوع تضطرمْ
مشاعري البريئة فيه : كيف يجوع آلافٌ من الأطفال ملتفّه
بآلاف الخُروق تعربد الريح الشتائيّه
بها وأظلُّ أحلمُ بالهوى ، والشطّ والقمَرِ ؟

وتزحم كل دربٍ من دروبي هذه الخُوَذُ الحديديه
وتتبعني عيون الموت من زُمَرِ البنادق نزّ بالشررِ
كواها   في دروب الجوع ألهث زائغَ النظر
وإذ يتمرّد الإنسانُ فيّ على العبوديه
أثور على الشيوعيّه
ولكنّ البنادقَ ما تزال عيونُها الغضبى
تطاردني لأني غيرَ ربّي وحده ، لم أتّخذ ربا

* * *

وحين تنفست عند انحسار الليّل عُشتار
تنفّض جُرح تمّوزَ المدمّى ، تغسل التربا
عن الجنبات منه ، وحين هدّ البغيَ ثوّارُ ،
أرحتُ جبينيَ المحمومُ
على شبّاك داري أرقب الدّربا
تدفّق بالحبال وبالعصيّ يشدّها العار
لتسحبَ أو تمزّقَ جسْم طفلٍ ثغره المحروم
من القبلات والغنوات والزادِ

ينادي دون صوتٍ

« آه يا أمّي ! عرفتُ الجوع والآلام والرُّعْبا
ولم أعرف من الدنيا سوى أيّام أعياد
فتحت العين فيها من رقادي لم أجد ثوْبا
جديداً أو نقوداً لامعاتٍ تملأ الجيْبا
لأن أبي فقيراً كان »

يا لكِ ثورةً تتأكّلُ القلبا
فأصرخ : « أيها الجبناء كفّوا ! »

ثم تزحم دربي الخوذ الحديديه
وتخنق من فم التنور في داري
فألهث في دروب الجوع أطحن من حصاها ثم أعجنه
وأقذفه إلى النارِ
لأطعم منه زُغباً يطلبون الزاد في قر العشيات الشتائيه

* * *

ويمضي بالأسى عامان ، ثمّ يهدُّني الداءُ
تلاقفني الأسرّة بين مستشفى ومستشفى
ويعلكني الحديد
ومن دمي ملأ الأطباء

قنانيَ وزعوني في القناني تصبغ الصّيفا
دمائي والشتاء .
وذات صُبحٍ قيل إن الشرّ قد دُحرا
ودكّ معاقلَ الطاغوت في بغداد أبطالُ
فقلتُ سأوقدُ القمرا
سراجاً عند بابي إنّه ظفري ، أما قالوا
بأن الشرّ قد دُحرا ؟

* * *

وعدتُ إلى بلادي . يا لنقالات إسعافِ
حملن جنازتي !! متمدّداً فيها أئنُّ رأيتُ (غيْلانا)
يحدّق ، بانتظاري ، في السّماء وغيمها السّافي .
وما هو غير أسبوعين ممتلئين أحزانا
ويفجأني النّذير بأنّ أعواماً من الحرمان والفاقه
ترصدُ بي هنا ، في غابة الخُوَذِ الحديديه

* * *

غريقٌ في عباب الموج تنحبُ عنده الفاقه [1]
تئنُّ الريح في سَعَف النخيل ، عليه ترثيه
قصائده الحزينة بين أوراقٍ من الدفلى أو الصفصاف تبكيه !

البصره ١٩٦٣/٤/٨

---

١ – الفاقة : النورس ، طائر بحري

خلا البيت

خلا البيْتُ ، لا خفقةٌ من نعالْ
ولا كركراتٌ على السُّلَّمِ ،
وأنـَّتْ على الباب ريحُ الشمال
وماتت على كرمه المظلم
تلاشت خـُطى موكب الدّافنينْ
ومن مسجد القريةِ المعْتم
تلوّى ، كما رفّ فوق السفين
شراعٌ حزين ،
أذانٌ (هو الله باقٍ ، وزال
عن الأرض إلاّ ه) الله أكبرْ ؛

وفي قبره اهتزّ ، كالبرعم
إذا الصُّبْح نوّر ،
دفينٌ وأصغى أنين الرمال
وتهويدةُ النـّخل ينعّس والليـّلُ أقمر
وفي بيْته الآن – خلّ العويلْ
ونوحَ اليتامى وندْبَ النسّاءْ –
لقد فتـّح الآن زهرُ الشتاء
ليملأ تنوره بالشذى والضياء ،
أنار وجوهاً وأخفى وجوهاً ، فسال الأصيل
ينثُّ سنابله الدافئه ،
وسمراء تـُصغي إلى الشاي فوق الصّلاء
يوسوس عن خيمةٍ في العراء
وعن عيشةٍ هانئة

* * *

خلا البيت وانسلّ لونُ المغيب
إلى المخدع المقفرِ ؛
هنا كان يطوي خيوط الدروب

صغيران تطفىءُ شمس الغروب
بشعريهما نار فانوسها الأحمر ؛
إذا ما ارتخت تحت ظلّ الهجير
جفونٌ يرنـّقُ فيها النعاس
أفاءا إلى قصّةٍ عن أمير
تخطـّفَه الجنُّ حتى أتى منزلاً من نُحاس
تلامحَ شبّاكه عن أميره
تُدلـّي إليه الضفيره
ليرقى إليها
خلا البيْت إلا أنينٌ يابقا
يصعّدها شاطىءٌ من حنين .

البصرة ٢٦/٧/١٩٦٤

جيكور واشجار المدينة

أشجارُها دائمةُ الخُضره
كأنّها أعمدةٌ من رخامْ
لا عُري يعروها ولا صفره ،
وليلُها لا ينام
يُطلع من أقداحه فجره
لكنّ في جيكور
للصّيف ألواناً كما للشتاءْ ،
وتغرب الشمسُ كأنّ السماء
حقلٌ يمصّ الماء ،
أزهاره السكرى غناء الطيور

ناحلةٌ كالصدى
أنغامه البلور ،
كأن فيها مدى
يجرْحنَ قلبي فيستنزفنَ منه النور .
وتغرب الشمسُ وهذا المساء
أمطر في جيكور
أمطر ظلاً ، نثّ صمتاً – مساء
غافٍ على جيكور
واللـّيْلُ في جيكور
تهمس فيه النجوم
أنغامها ، تولد فيه الزهور
وتخفقُ الأجنحه
في أعين الأطفال ، في عالمٍ للنـّوم – مرّت غيوم
بالدرب مبيضّاً بنور القمر ،
تكاد أن تمسحه ،
تسرق منه الزّهَرْ

البصرة ١٩٦٣/٤/٢٢

ها .. ها .. هوه

تنامين أنت الآن والليّلُ مُقمرُ
غانيه أنسام وراعيه مِزهر ،
وفي عالم الأحلام ، من كلّ دَوْحةٍ
تلقّاكِ مَعْبَر
وبابٌ غفا بين الشجيرات أخضر
لقد أثمر الصمتُ (الذي كان يُثمر
مع الصُّبح بالبوقات أو نوح بائعٍ) ،
بتينٍ من الذكرى وكرْمٍ يقطّرُ
على كلّ شارع
فيحسو ويسكر

برفقٍ فلا يهذي ولا يتنمّرُ

* * *

رأيتُ الذي لو صدق الحُلم َنفْسَهُ
لمدّ لك الفما
وطوّق خصراً منك واحتاز معصما ؟
لقد كنتِ شمسَهُ
وشاء احتراقاً فيك ، فالقلب يُصهر
فيبدو ، على خدّيكِ والثّغْرِ ، أحمر
وفي لَهَفٍ يحسو ويحسو فيسكرُ

* * *

لقد سئم الشّعرَ الذي كان يكتبُ
كما ملّ أعماقَ السماء المذنّبُ
فأدمى وأدمعا
حروب وطوفان ، بيوتٌ تُدمّرُ
وما كان فيها من حياةٍ تصدّعا
لقد سئم الشّعر الذي ليس يذكرُ

فأغلقَ للأوزان باباً وراءه
ولاح له بابٌ من الآسِ أخضر
أراد دخولاً منه في عالم الكرى
ليصطاد حلماً بين عينيك يخطر
وهيهات يقدر !

* * *

من النّفس ، من ظلمائها ، راح ينبع
وينثال نَهْرٌ سال فانحلّ مئزر
من النّور عن وضّاءَ تخبو وتظهر .
وفي الضفّة الأخرى تحسّين صوته
(فما كان يُسمَعُ)
كما يشعر الأعمى إذِ النور يظهر ،
يناديكِ
« ها ها هوه »
ماءٌ ويقطر
من السّعفة النّشوى
بما شربتْ من غيمةٍ نثّها نجوى

وأصداء أقدامِ إلى الله تعبرُ

* * *

وناديتِ « ها .. ها .. هوه » لم ينشرِ الصدى
جناحيه أو يبكِ الهواء المُثرثرُ
ونادى وردّدا
« ها ها .. هوه ا »
وفتّحتِ جفناً وهو ما زال ينظر ،
ينادي ويجأر

لندن ٢٩ / ٢ / ١٩٦٣

احبيني ..!

وما من عادتي نكرانُ ماضيَّ الذي كانا ،
ولكنْ كلُّ من أحببْتُ قبلك ما أحبّوني
ولا عطفوا عليَّ ؛ عشقتُ سبعاً كنّ أحيانا
ترف شعورهن عليَّ ، تحملني إلى الصينِ
سفائنُ منعطور نهودهنّ، أغوص في بحْرٍ من الأوهام والوجدَ
فالتقط المحار أظنُّ فيه الدُرَّ ، ثم تظلـُّني وحدي
جدائلُ نخلةٍ فرعاءْ
فابحث بين أكوام المحار ، لعلَّ لؤلؤة ستبزغ منه كالنـَّجمه ،
وإذ تدمى يداي وُتنزع الأظفار عنها ، لا ينزُّ هناك غيرُ الماء
وغير الطين من صَدَفِ المحار ، فتقطر البسمه

على ثغري دموعاً من قرار القلب تنبثقُ ،
لأن جميع من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأجلسهنَّ في شُرَف الخيال .. وتكشف الحُرَق
ظلالاً عن ملامحهنَّ آهِ فتلك باعتني بمأفونِ
لأجل المال ، ثم صحا فطلّقها وخلاّها
وتلك .. لأنها في العمر أكبرُ أم لأنَّ الحُسنَ أغراها
بأني غير كفءٍ ، خلّفتني كلما شرب الندى ورَقُ
وفتّح برعمٌ مثّلتُها وشممتُ ريّاها ؟
وأمسِ رأيتُها في موقف للباص تنتظرُ
فباعدتُ الخُطى ونأيتُ عنها ؛ لا أريد القربَ منها ،
هذه الشمطاء
لها الويلات ؟ ثم عرفتُها أحسبْتِ أن الحسْنَ ينتصرُ
على زمن تحطّم سور بابلَ منه ، والعنقاء
رمادٌ منه لا يُذكيه بعث فهو يستعر ؟
وتلك كأنَّ في غمّازتيها يفتح السَّحَرُ
عيونَ الفُلّ والَّلبلاب ، عافتْني إلى قصر وسيّاره ،

إلى زوج تغيَّر منه حالٌ ، فهو في الحاره
فقير يقرأ الصحفَ القديمةَ عند باب الدار في استحياء ،
يحدِّثُها عن الأمس الذي ولَّى فيأكل قلبَها الضَّجَرُ
وتلك وزوْجها عبْداً مظاهرَ ليْلُها سَهَرُ
وخمرٌ أو قمارٌ ثم يوصدُ صُبُحَها الإغفاء
عن النَّهر المكركر للشراع يرفّ تحت الشمس والأنداء .
وتلك ؟ وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها ،
شربتُ الشِّعر من أحداقها ونعستُ في أفياء
تنشّرُها قصائدُها عليّ فكل ماضيها
وكل شبابها كان انتظاراً لي على شطٍّ يهوم فوقه القَمَرُ
وتنعس في حِماه الطيرُ رشّ نُعاسَها المطرُ
فنبهها فطارت تملأ الآفاقَ بالأصداءِ ناعسةً
تؤج النور مرتعشاً قوادمُها ، وتخفقُ في خوافيها
ظلالُ الليل أين أصيلُنا الصيفيُّ في جيكورْ ؟
وسار بنا يوسوس زورقٌ في مائه البلّور ؟
وأقرأ وهي تُصغي والربى والنَّخل والأعناب تحلم فيدواليها؟

تفرّقت الدروب بنا نسير لغير ما رجعَه ،
وغيَّبها ظلامُ السجن تؤنسُ ليلَها شمعه
فتذكرني وتبكي   غير أني لستُ أبكيها
كفرت بأمَّة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكَّةٍ أو عند واديها
وآخرهنّ ؟؟

آهِ   زوجتي ، قَدَري . أكان الداء
ليقعدني كأني ميّتٌ سكران لولاها ؟
وهأنا   كلُّ من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأنتِ ؟ لعلّه الإشفاق !!
لستُ لأعذرَ اللهَ
إذا ما كان عطفٌ منه ، لا الحب ، الذي خلاّه يسقيني
كؤوساً من نعيمٍ .
آهِ ، هاتي الحبّ ، روّيني
به ، نامي على صدري ، أنيميني
على نهديك ، أوّاها

من الحُرَق التي رضعتْ فؤادي ثمّةَ افترستْ شراييني .
أحبّيني
لأني كلُّ من أحببتُ قبلك لم يحبّوني .

باريس ١٩ / ٣ / ١٩٦٣

يقولون تحيا ...

لاحببْتُ لو أن في القلب بُقيا
– وقد لفّه اللّيْلُ – للمشرقِ ،
يقولون « ما زلت تحيا » أيحيا
كسيح إذا قام أعيا
به الداءُ فانهار ، لم تخفقِ
على الدرْب منه الخطى ؟ يا أساه
ويا بؤس عينيْه ممّا يراه ؟

* * *

يقولون « تحيا » فيبكي الفؤادْ
فلو لم يكن خافقاً لاستراح ؛

كطيرٍ رميٍ يجرُّ الجناح
وقد مد ، عبر الربى والوهاد ،
بعينيه في دوحةٍ خلف تلك الظـّلال
سجا عشّه ، فيه زُغبٌ جياع
إذا حجّب الغيمُ ضوءَ الهلال
يقولون « هذا جناح أبينا وقد عاد بعد الصراع
بزهره ،
بقطره
من الطلّ » .. حتى يُطلّ الصباح .
كطيرٍ رميٍّ يجرُّ الجناح ،
أقضّي نهاري بغير الأحاديث ، غير المنى ،
وإن عسْعَسَ الليلُ نادى صدىً في الرياح
« أبي يا أبي ، طاف بي وانثنى ،
« أبي .. يا أبي »
ويُجهش في قاع قلبي نُواح
« أبي يا أبي »

« أبي   يا أبي » في صفير القطارْ
« أبي .. يا أبي » في صياح الصّغار
(خفاف الخُطى يعبرون الدروبْ
بلا غايةٍ ، يقطفون الثّمار
ولا يُطعمون ابنةً جائعه
ولي منزل في سهول الجنوب
إذا كنتُ أسعى ، من السابعه
إلى أوْبة الطير عند الغروب ،
فكي أطعمَ الجائعينْ
وراء نوافذه شاخصين
إلى الدرب « أين الأبُ المُطعمُ »)
« أبي   يا أبي » والدُّجى مظلمُ
وجيكور خلف الدجى والدروب وخلف البحار

لندن ٢٣ / ٢ / ١٩٦٣

وغدا سألقاها

وغداً سألقاها ،
سأشدُّها شداً فتهمس بي
« رحماك » ثم تقول عيناها
« مزّق نهوديَ ، ضمَّ - أوّاها -
ردفيَّ ... واطوِ برعشة اللّهَبِ
ظهري ، كأنّ جزيرةَ العربِ
تسري عليه بطيب ريّاها » .
ويموج تحت يدي ويرتجفُ
بين التمنّع والرضا ردِفُ ،
وتشب عند مفارق الشَّعرِ

نارٌ تدغدغها هو الشّغَفُ
من قريتي رعشتْ لدى النّهْر
خوصاته ؛ وتلين لا تدري
أيّان تنقذف .
ويهيم ثغري وهو منخطفُ ،
أعمى تلمّس دربه ، يقفُ
ويجسُّ نهداها
يتراعشان ، جوانب الظّهْرِ
تصطكُّ ، سوف تبلُّ بالقطْرِ ؛
سأذوب فيها حين ألقاها !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٧

ليلة وداع

(إلى زوجتي الوفيّة)

أوْصدي الباب ، فدنيا لستِ فيها
ليس تستأهل من عينيّ نظره
سوف تمضين وأبقى .. أي حسره ؟
أتمنّى لك ألاّ تعرفيها ؟
آهِ لو تدرين ما معنى ثوائي في سرير من دمِ
ميّتَ الساقين محموم الجبينْ
تأكل الظلماءَ عيناي ويحسوها فمي
تائهاً في واحةٍ خلف جدارٍ من سنين
وأنين

مستطار اللبّ بين الأنجم .

* * *

في غدٍ تمضين صفراء اليدِ
لا هوىً أو مغنمٌ ، نحو العراقِ
وتحسّين بأسلاك الفراقِ
شائكات حول سهلٍ أجرد
مدّها ذاك المدى ، ذاك الخليج
والصحارى والروابي والحدود
أيُّ ريشٍ من دموع أو نشيج
سوف يُعطينا جناحين نرود
بهما أفق الدجى أو قبّة الصبح البهيج
للتلاقي ؟
كلُّ ما يربط فيما بيننا محْضُ حنينٍ واشتياقِ
ربما خالطه بعضُ النفاق !
آهِ لو كنتِ ، كما كنتُ ، صريحه
لنفضنا من قرار القلب ما يحشو جروحه

ربما أبصرت بعض الحقد ، بعض السأم
خصلةً من شعر أخرى أو بقايا نَغَمِ
زرعتْها في حياتي شاعره
لست أهواها كما أهواك يا أغلى دمٍ ساقى دمي .
انها ذكرى ولكنـَّك غيرَى ثائره
من حياةٍ عشتها قبل لقانا
وهوىً قبل هوانا
أوصدي الباب غداً تطويك عني طائرة
غير حبٍّ سوف يبقى في دمانا

الكويت ٢١/٨/١٩٦٤

اغنية بنات الجن

شعورنا بلّلها المطَرْ
وأشعلَ القمرْ
فيها فوانيسَ ، فيا قوافلَ الفَجَرْ
بشعرنا اهتدي ،
سيري إلى السَّحَرْ ،
سيري إلى الغدِ ؟
نحن بنات الجنّ لا ننامْ ،
نهيم في الظلام
على ذرى التلال أو نركضُ في المقابرِ ،
نعشق كلَّ عابر ،

نسمعه أغانيَ الشباب والغرامْ
إن نزلتْ صبيّةٌ فيها من البشرْ
وأوحشتْها وحدةُ القبور أو دجنّة الحُفر
سرتْ أغانينا إليها تعبر الترابْ
تقول « إنْ عريتِ فالثياب
تنسجها عناكبُ الشّجَرْ
وكلُّ خيْطٍ من خيوطها يرنّ كالوتر .
نامي إلى أن يؤذنَ القَدَر
ويُحشر الموْتى إلى الحساب .
حبيبكِ الوفيُّ مسَّ ثغرَه ابتسام ،
فقد رأى سواكِ
بل رآكِ في قوامها النديّ كالزّهرْ
وهُدبها ومقلتيْها أشعل الهُيام
في عيْنه السَّهَرْ ،
رآكِ فيها فاشتهاكِ ليته انتظر ؟ »

* * *

نلوح للطِّفْل فراشاتٍ من الشُّعاعْ
تخفقُ في ذوائب الشجَرْ ،
ويلمحُ العاشقُ في عيوننا الوداع
إذْ يصفر القطار أو يصفّقُ الشراع .
ونحن للشاعر إن شعر
نلوح في الدُّخان والعقارْ ،
نُنشد « فُلْكُ سندبادَ ضلّ في البَحَرْ
حتى أتى جزيرةً يهمس في شطآنها المحار ،
يهمس عن مليكة يحبها القمر
فلا يغيب عن سماء دارها النضار »
فيهتف الشاعر « خُذْني إلى حماها
لأنني أهواها
لأنني القمر ! »
وجُنّ وانتحر .

* * *

شعورنا بلّلها المطرْ ،

ويرشف القمر
منها إلى أن يُقبل السَّحَرْ
نركض في المقابرِ
نُضلُّ كلَّ شاعر
وكلَّ من عبر ؟

لندن ١٩٦٣/٢/٢٦

جيكور امي [1]

تلك أمّي ، وإنْ أجئْها كسيحا
لاثماً أزهارها والماء فيها ، والترابا
ونافضاً ، بمقلتي ، أعشاشها والغابا
تلك أطيار الغد الزرقاء والغبراء يعبرن السطوحا
أو ينشّرْن في بويب [2] الجناحيْن: كزهْرٍ يفتّح الأفوافا.
ها هنا ، عند الضحى ، كان اللّقاءْ
وكانت الشمس على شفاهها تكسّر الأطيافا
وتـفح الضياء
كيف أمشي ، أجوب تلك الدروب الخضر فيها وأطرق الأبوابـــا ؟

أطلب الماء فتأتيني من الفخّار جرّه
تنضح الظلّ للبرود الحلوَ قطره
بعد قطره .
تمتد بالجرة لي يدان تنشران حول رأسي الأطيابا
(هالتي) تلك ، ام (وفيقة) ام (إقبال) ،
لم يبقَ لي سوى اسماء
من هوىً مرّ كرعدٍ في سمائي
دون ماء .
كيف أمشي ! خطاي مزّقها الداء . كأني عمود
ملحٍ يسيرُ
أهي عامورة الغويّة أم سادوم ؟
هيهات .. إنّها جيكورُ
جنّةٌ كان الصبى فيها وضاعت حين ضاعا
آه لو انّ السنين السود قمحٌ أو صخورُ
فوق ظهري حملتهُنّ ، لألقيتُ بحملي فنفضتْ جيكورُ
عن شجيراتها تراباً يغشّيها وعانقتُ معزفي ملتاعا ،

يُجهش الحبّ ، به ، لحناً فلحنا
ولقاءً فوداعا

آه لو أن السنين الخُضر عادت ، يوم كُنّا
لم نزل بعدُ فتيّينِ لقبّلتُ ثُلاثاً أو رُباعا
وجنتيْ (هالةَ) والشَّعر الذي نشّر أمواج الظلامِ
في سيولٍ من العطور التي تحمل نفسي إلى بحارٍ عميقه
ولقبّلتُ ، برغم الموت ، ثغراً من وفيقه
ولأوصلتُك يا (إقبال) في ليلة رعدٍ ورياح وقتامٍ ،
حاملاً فانوسيَ الخفّاق تمتدُّ الظلالْ
منه أو تقصر ، إذْ يرعش في ذاك السكونْ ،
ذلك الصمتِ سوى قَعقعة الرعد ،
سوى خفْق الخطى بين التّلال
وحفيف الريـــح في ثوبكِ ، أو وَهوهة الليل مشى بين الغصون ،

ولعانقتُك عند الباب ، ما أقسى الوداعْ !!
آهِ لكنّ الصِّبى ولّى وضاع ؛

الصّبى والزمانُ لن يرجعا بعْدُ ،

فقرّي يا ذكريات ونامي .

لندن ٥ / ٢ / ١٩٦٣

---

(١) إذا كان ٣ (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) = ٣ فاعلاتن، ٣ مستفعلن ، ٣فاعلاتن مثلاً فإن الفرضية التي تقوم هذه القصيدة موسيقياً، عليها صحيحة. ارجو ان تتاح الفرصة لتجربة هذه الفرضية على جهاز الأصوات الذي سبق للدكتور محمد مندور ان قام ببعض التجارب عليه في باريس . غير اني لم التزم بذلك إلا في الأجزاء الأولى من القصيدة .

(٢) نهر في جيكور

يا غربة الروح

يا غربةَ الروح في دنيا من الحَجَرِ
والثلج والقار والفولاذ والضجرِ ،
يا غربة الروح   لا شمْسٌ فأئتلقُ
فيها ولا أفُقُ
يطير فيه خيالي ساعةَ السّحَرِ .
نارٌ تضيء الخَوَاء البرد ، تحترقُ
فيها المسافات ، تُدنيني ، بلا سَفَرِ ،
من نخل جيكورَ أجني دانيَ الثّمَرِ .
نارٌ بلا سَمَرِ
إلاّ أحاديثَ من ماضيٌ تندفقُ
كأنهنّ حفيفٌ منه أخيلةٌ
في السّمْع باقيةٌ تبكي بلا شَجَرِ .
يا غربةَ الروح في دنيا من الحجر !

* * *

مسدودة كلُّ آفاقي بأبنيةٍ
سودٍ ، وكانت سمائي يلهث البَصَرُ
في شطّها مثل طيرٍ هدّه السَّفَرُ
النهر والشَّفَقُ
يميلُ فيه شراعٌ يرجف الألَقُ
في خفقِهِ ، وهو يحنو ، كلما ارتعشا ،
دنيا فوانيسَ في الشطّين تحترقُ ،
فراشةٌ بعد أخرى تنشر الغَبَشا
فوق الجناحين .. حتى يلهث النَّظَرُ

* * *

الحبُّ كان اختطافَ الروح ناجاها
روحٌ سواها ، له من لمسةٍ بيدٍ
ذخيرةٌ من كنوزٍ دونما عَدَدِ
الحب ليس انسحاقاً في رحى الجَسَدِ
ولا عشاءً وخمراً من مُحيّاها
تلتفُّ ساقٌ بساقٍ وهي خادرةٌ

تحت الموائد ُتخفي نشوةَ البَشَرِ
عن نشوةِ الله من َهمْسٍ ومن َسَمَرِ
في خيمةِ القَمَرِ
يا غربةَ الروح لا روحٌ فتهواها .

* * *

لولا الخيالات من ماضيٍّ تنسربُ
كأنها النوم مغسولاً به التَّعَبُ
لم يترك الضجرُ
مني ابتساماً لزوجٍ سوف ألقاها
ان عدتُ من غربة المنفى هو السَّحَرُ
والحلم كالطلِّ مبتلاً به الزَّهَرُ
يمس جفنين من نورٍ وينسكبُ
في الروح أفرحها حيناً وأشجاها
تسللتْ طرقتي للباب تقتربُ
من َوعيها وهو يغفو ثم تنسحبُ ،
ونشَّر الحلمُ أستاراً فأخفاها

ورفَّ جفناها

حتى كأنَّ يدي

إذ تطرق الباب مسَّتْ منها « واها !

من دقّ بابي ؟ أهذا أنت يا كبدي ؟ »

وذاب في قبلتي ما خلّف السَّهَرُ

في عينها من نعاس ، فهْي تزدهر

كوردةٍ فُتّحت للفجر عيناها

لندن ١٩٦٣/٢/٢٦

ام كلثوم والذكرى

وأشربُ صوتَها فيغوص من روحي إلى القاعِ
ويُشعل بين أضلاعي
غناءٌ من لسان النار ، يهتف « سوف أنساها
وأنسى نكبتي بجفائها وتذوب أوجاعي »
وأشرب صوتها .. فكأن ماء بويبَ يسقيني
وأسمع من وراء كرومه ورباه « ها ها .. ها »
تردّدها الصبايا السُّمْرُ من حينٍ إلى حين
وأشربُ صوتها فكأنَّ زورقَ زفّةٍ وأنينَ مزمارِ
تجاوبُه الدرابكُ ، يعبران الروح في شَفَقٍ من النار
يلوح عليه ظل وفيقةَ الفرعاء أسودَ يزفر الآها

سحائب من عطورٍ ، من لحونٍ دون أوتارِ .
وأشرب صوتها .. فيظل يرسم في خيالي صفّ أشجارِ
أغازل تحتها عذراءَ ؛ أوّاها
على أيامي َ الخضراء بعثرها وواراها
زواجٌ ليت لحن العُرس كان غناء حفّارِ
وقرعاً للمعاولِ وهي تحفر قبرَي المركوم منه القاع بالطين
وأذكرها ، وكيف (وجسْمُها أبقى على جسمي
عبيراً منه ، دفئاً غلّف الأضلاع) أنساها ؟
أأنساها ؟ أأنسى ضحكةً رعشت على لحمي
وأعصابي ، وكفّاً مسّحت وجهي بريّاها ؟؟
قساة كلُّ من لاقيتُ لا زوجٌ ولا ولدٌ
ولا خِلٌ ولا أب أو أخ فيزيل من همّي ..
ولكنْ ما تبقى بعدُ من عُمري ؟ — وما الأبَدُ
بعمري —
أشهُرٌ ويريحني موتٌ فأنساها

لندن — ١٩٦٣/٣/٩

كيف لم أحببك ؟

كيف ضيَّعتك في زحمة أيامي الطويله ؟
لم أحلّ الثوبَ عن نهديكِ في ليلة صيف مُقْمرَه ؟!
– يا عبير التّوت من طوْقيهما   مرّغتُ وجهي في خميله
من شذى العذراء في نهديك –
ضيّعْتك ، آهِ يا جميله !
إنه ذنبي الذي لن أغفره !
كيف لم أحببكِ ؟! يا لهفة ما بعد الأوان
في فؤادٍ لم تكوني فيه إلا جذوةً في مجمره !
شعرك الأشقر شعّ اليوم شمساً في جناني
يتراءى تحتها ساقاكِ ، يا للزنبقِ

رفٌّ من ساقيْكِ ؟!
آهِ كيف ضيّعتكِ يا سرحة خوخٍ مُزهرَه ؟
آه لو عندي بساط الريح !!
لو عندي الحصان الطائرُ !!
آه لو رجلاي كالأمس تُطيقان المسيرا !
لطويتُ الأرضَ بحثاً عنكِ
لكنَّ الجسورا
قطعتها بيننا الأقدار مات الشاعرُ
فيّ وانسدّت كوى الأحلام

آهِ يا جميله !

البصرة — ٦٣/١١/٨

أسير القراصنة

أجنحةٌ في دوحةٍ تخفق
أجنحةٌ أربعة تخفق
وأنتَ لا حبٌ ولا دارُ ،
يُسلمك المشرقُ
إلى مغيبٍ ماتت النارُ
في ظلّه والدرب دوّار
أبوابه صامتةٌ تُغلقُ !

جيكور في عينيك أنوارُ

خافتةٌ تهمسُ
« مات الصبي ! »
لم تبقَ آثارُ
من فجره ، وانفرط المجلسُ ،
فالتل لا ساقٍ ولا سامرٌ باقٍ وسمارُ
وأراهمُ في سفحه الموحش المهجور حفّار !

وتحسدُ الشحاذ إن لاحا
يمشي على عكازه البالي .
مشلولة رجلاك مشدودة عيناك بالآل
وألف دربٍ دونك انداحا
يدعوك أن تقطعه في الدجى
وتقطف الأثمار عن جانبيْه
وأنت لا تملك غير الشجّى
ودمعة تجري اشتياقاً اليه
عامان من نزع بلا موتٍ
وأنت ما كنت سوى صوتٍ ،

صوتٍ يدوي في قلاع الرياحْ
يا ليتك المشاء في صمْتٍ
لا عازف القيثار باسم الجراح ؟
وأنت في سفينة القرصان
عبدٌ أسيرٌ دون أصفادِ
تقبع في خوفٍ وإخلادِ
تُصغي إلى صوت الوغى والطعّانْ
سال الدم ،
اندقت رقاب ومال
ربّانها العملاقْ
وقام ثانٍ بعده ثم زالْ
فامتدت الأعناقْ
لأي قرصان سيأتي سواه
وأي قرصانٍ ستعلو يداه
حيناً على الأيدي ا؟

(وليأت من بعدي

من بعديَ الطوفان »

تسمعها تأتيك من بُعْدِ

يحملها الأعصار عبر الزمان !

البصرة - ١٩٦٣/١٠/٢٩

نسيم من القبر

نسيم الليْل كالآهات من جيكور يأتيني
فيبكيني
بما نفثتْه أمي فيه من وجدٍ وأشواقِ
تنفس قبرها المهجور عنها ، قبرها الباقي
على الأيّام يهمس بي « تراب في شرابيني
ودودٌ حيث كان دمي ، وأعراقي
هباءٌ من خيوط العنكبوت ؛ وأدمعُ الموتى
اذا ادّكروا خطايا في ظلام الموت ترويني
مضى أبدٌ وما لمحتك عيني ! »
– ليت لي صوتا

وتصطخب البحار إلى القرار يخضُّها الإعصار

* * *

أما حَملت إليك الريحُ عَبْرَ سكينةِ الليْلِ
بكاء حفيدتيْكِ من الطوى وحفيدك الجوعانْ ؟
لقد جعنا وفي صمتٍ حملنا الجوع والحرمان ،
ويهتك سرنا الأطفال ينتحبون من ويلِ
أفي الوطن الذي آواك جوع ؟أيُّما أحزان
تؤرّق أعين الأموات ؟
لا ظُلم ولا جورُ
عيونها زجاجٌ للنوافذ يخنقُ الألوانْ
هناك لكل ميت منزلٌ بالصمت مستورُ ،
ولكنا هنا عصفت بنا الأقدارُ من ظلّ
إلى ظلٍ ومن شمس إلى شمس يغيب النورْ
على شرفات بيتٍ ضاحكاتٍ ثم يُشرق وهي أطلالْ
ويخفق حيث كركر أمسِ أطفالُ

صريرٌ للجنادب هامسات :« إنه المقدورْ
تصدّعُ برج بابل منه وانهدمت صخور السور ! »

* * *

أما حملت إليك الريح عَبر سكينة الليلِ
بكاء حفيدتيك من الطوى بعلو من السّهلِ ؟

البصرة – ١٨/٤/١٩٦٣

في المستشفى

كمستوحدٍ أعزلٍ في الشتاءْ
وقد أوغل الليل في نصفه ،
أفاق فأوقظ عين الضياء
وقد خاف من حتفه ،
أفاق على ضربة في الجدار —
هو الموت جاء !
وأصغى أذاك انهيار الحجارْ
أم الموت يحسو كؤوس الهواء ؟
لصوصٌ يشقون درباً إليه
مضوا ينقبون الجدار

وظلَّ يعدُّ انهيار الترابْ
ووقعَ الفؤوس على مسمعيهْ
يكاد يحس التماع الحِراب
وحزاتها فيه يا للعذابْ !!
وما عنده غير محض انتظار
هو الموت عَبر الجدار !

* * *

كذاك انكفأتُ أعضُّ الوساد
وأسلمتُ للمشرط القارسِ
قفاي المدمى بلا حارس .
– بغير اختياري ، طبيبي أراد ! –
لقد قصّ مدّ الجسّ الطويل ..
لقد جره الآن أواه .. عادْ
ولا شيء غير انتظار ثقيل
ألا فاخرقوا ، يا لصوص ، الجدارْ
فهيهات ، هيهات ، مالي فرار !

لندن – ١٩٦٣/٢/٥

ساوو

ظلامُ الليل أوتارُ
يدندن صوتك الوسنان فيها وهي ترتجف ،
يرجع همسها السعَفُ
وترتعش النجوم على صداه يرن قيثار
بأعماق السماء ظلام هذا الليل أوتار !

* * *

وكم عبر الخليج إليَّ والأنهار والترعا ،
يدغدغ بيض أشرعة يهيم وراءها القمر
وينشج بينها المطر ؛
وأوغل في شعاب البرق ، يرجف كلما لمعا

ليحمل من قرارة قلبك الآلام والفزَعا

* * *

أشمُّ عبيركِ الليليّ في نبراتك الكسْلى
يناديني ويدعوني
إلى نهدين يرتعشان تحت يدي وقد حلاّ
عُرى الأزرار من ذاك القميص ، ويملأ الليلا
مشاعلَ في زوارق ، في عرائشَ ، في بساتينِ

* * *

شذى الليمون يصرع كلّ ظلٍّ في دواليها
أراكِ على السرير وأنت بين الليل والفجرِ
يكاد النجم في الشباك والمصباحُ في الخِدْرِ
يمسُّها النعاس ، وأنت زنبقةٌ حواشيها
ينبّهها هُتاف الدّيكِ يعبر ضفّةَ النهرِ .

* * *

ويهمس بي صدى « سلوى

تغنّي ، كلُّ سلوى في خيالي تكشف الأضواء عنها
وهي تبتسمْ
صديقةُ كلّ فحلٍ من سدومٍ ، في يدٍ قلَمُ
يسطّرُ في الجريدة أنها تهوى ولا تهوى ،
هي امرأتانِ في امرأةٍ ويسرب في دمي ضَرَمُ

* * *

وجارتنا الصبيّةُ في حرير النوم تنسربُ ،
يشف الثوبُ عن نهدين طوْديَّين كم رجفا
من الأحلام تحت يدٍ تُعصّر بردُها لَهَبُ
لها من فورة العذراء عطرٌ يرتخي ، يثبُ ،
يمازجُ نفحَ ما نفثَحَ الحشيشُ ، يسيلُ مرتجفا

* * *

وألمحُ في سماء الصيف عبرَ تماوجِ الشجَرِ
سماوةَ لندنَ المنهلُّ فيها الثلج كالمطر ،
ونافذةً تعلّقَ في الظلام زجاجُها الألِقُ ،
ومدفأةً وراء الليل تحترق ،

وأسمع من يحدّث عن هوى سلوى ويرقبُ طلعةَ السّحرِ:

* * *

« وأشعلتِ الظهيرةُ نارها في الشارع الممتدّ بين حدائق
النارنج والعِنَبِ
وأصدتْ في رحاب المنزل الخالي
خُطى سلوى ، وأرخِيتْ الستائر يا لشلاّلِ
من الألوان والخدَر البَرود
ومسّها لَهَبي
فارْعشَ كلّ عرْق في صِباها ، كلّ ما عَصَبِ

* * *

ويزرع ألفَ غابٍ للنخيل غناؤكِ المكسالْ
ترقرقتِ الجداولُ بينهنّ وأزهرَ اللّيمونْ
وأنسامُ الربيع تمرُّ تنثّر زَهرَهُ في مائها السلْسال
لما حمَلَ الوجوهَ إليّ ماءُ غنائكِ المكسال
ويحملني النّعاس إلى جزائرَ في مدىً محزونْ !

البصرة ٩ / ٩ / ١٩٦٣

متى نلتقي ؟

ألا يأكلُ الرعبُ منا الضلوعْ
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه ،
فلاحتْ لنا ، من ظلامٍ ، قلوع
تهدهدُها غمْغماتٌ حزينه ؟
ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟
ألا تتحجَّرُ منا العيونْ
إذا لاح في الليل ظل البيوتْ
هزيلاً كما ينسجُ العنكبوت
ألا تتحجّر منا العيون
ويلمع فيها بريقُ الجنون ؟

وبالأمس كنّا يُذيبُ العناقْ

دماً في دمٍ ،

كنورٍ ونارٍ ، سناً واحتراقْ

يجولان في منزلٍ مُظلمٍ

ولكن ما بيْننا كان بَحْرْ

تغنّيك أمواجُه العاتيه

« سنرعاكِ من قلعةٍ شدّ منها حديد وصخْرُ

فما الحب هدّمُ لجدرانكِ العاليه »

ولكن ما بيْننا كان بَحْرُ

وصحراء تنشجُ فيها النجومْ

ولا نلتقي في دجىً أو صباحْ ،

تموت على رملها عاصفاتُ الرياحْ

وتأكل عيْنَ الدليل التخوم

وصحراءُ تنشج فيها النجومْ

وطارتْ بي الريحُ عبْرَ البحار

إلى الليل والثلج والجهلِ ،

فصرنا إلى واقعٍ لا نحار
بالـغازه فاسألي
- وطارت بي الريحُ عبر البحارْ -
« أما من لقاءٍ لنا في الزمان ؟ »
بلى .. حينما تفهمين اللـّقاءْ
فيأوي إلى اللوحة المُفرَقان
يشدانها ، يرفعان الدعاء
« ألا نجّنّنا يا إله السماء ! »

ألا يأكل الرعب منا الضلوع
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه
فلاحت لنا ، من ظلام ، قلوع
تهدهدها غمغمات حزينه ؟
ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟

لندن - ١٩٦٣/٣/١٠

أقلُّ من بَشر[1]

يا رب لو جدت على عبدك بالرقادْ
لـَعله ينسى
من عمرهِ الأمسا
لعله يحلم أنه يسير دونما عصا ولا عماد
ويذرع الدروب في السحرْ
حتى تلوحَ غابةُ النخيلْ
تنوء بالثمرُ
بالخوخ ؛ والرمان ، والأعناب فيها يعصر الأصيل
رحيقه المشمس أو تألقْ القمر

(١) كانت هـذه القصيدة مشطوبة

يدخلها فيختفي تحت ذوائب الشجرْ
ويقطف الجنى
علق في رمّانةٍ عصاه وانثنى
يأكل أو يجمّع الزهرْ
حتى إذا ما انطلقا
وراح يطوي الطُّرُقا
أحسّ أو ذكرْ
بأنه بلا عصاً سار وما شعَرْ !
يا رب لو جدت على عبدك بالرقاد
لأنه يُذكرُهُ السَّهَر
بأنه أقلُّ من بَشر !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٥

الفن والهجرة

ولولا زوجتي ومزاجُها الفوارُ لم تنهدّ أعصابي [١]
ولم ترتدّ مثل الخيط رجلي دونما قوّه ،
ولم يرتجّ ظهري فهو يسحبني إلى هُوّه ،
ولا فارقتُ أحبابي ،
ولا خلّفتُ اودْسيوس[٢] يضرب في دجى الغابِ
وتقذفه البحار إلى سواها دونما مرسى .
هناك تركتُه وطويتُ عنه كتابيَ المهجور ،
سأكمل سفرتي معه ، ستحملني إلى جيكور
سفينتُه ، ولن أنسى
بأنّ وراء رغو البحر قلباً هدّه القَلَقُ

وعيناً كلما زرع الغروبُ حدائقَ الدَّيجور
بأنجمها الصبايا شدَّ من حملاقها الشَّفَقُ
على الافق البعيد لعل خفقاً من شراع أو سنا مصباع
على اللُّجَج الضواري لاحْ
فآهٍ لوْ كبنلوبَ الحزينةِ زوجتي تترقبُ الأنسامْ
لعلَّ جناح طيّاره
كمحراثٍ من الفولاذ ، شقّق بينها الأثلامْ
ليزرع ، َثمَّ ، أزهاره

* * *

ألا تباً لحبٍّ هذه الآلامُ من عُقباهْ !
كأنَّ شفاهنا ، حين التقتْ ، رسمت من القبُل
سريراً نمتُ فيه أنثُ منه الآهَ بعد الآهْ ،
وعكّازاً عليه مشيْتُ ثم هويْتُ في ثقَلِ
كأنَّ حجارة السور الذي ما بيننا قاما
لها من هذه القبلات طينٌ شدَّها شدّا .

أدهراً كان أم سبعاً من النكبات أعواما ؟

* * *

ولكنْ ما عليها من جُناحٍ ؛ كنتُ معتدّا
بذهني أو شبابي
سوف أصهرها ، أغيّرها كطينٍ في يد الفنّانْ
وقد غيّرتُ لكنّ الذي غيّرتُ ماذا كانْ ؟
فؤاداً ضيّقاً كاللحْد كيف اوسّعُ اللحدا ؟
ونفساً حدُّها بين السرير وبين قائمة الحساب كأنها قنٌّ
من الأقنان

مداه يمد بين البيْت والحقلِ
حبالاً قيدت قدميه وهو يردد الألحانْ
ولم يكُ يفهم الكلمات (ليس لقطرة الطلّ
مكان إذ يجوع البطن يا لتلهف الظمآن ! !
أترويه المجرة وهي بحر – هكذا زعموا – على الشطآن
منه تناثرت كسَرُ الكواكب فهي كالرمل

هنالك ، والمحار ؟ أكل هذا يشبع الجوعانْ ؟)

* * *

ولكني أحنُّ .. فهل أعود غداً إلى أهلي ؟
نعم سأعود ،
أرجع ، لا إليها بل إلى غيلان ؟

لندن - ١٩٦٣/٣/٢

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة في سورة غضب ، إذ ان زوجته أصرت عليه بالرجوع إلى العراق وقد ساءت صحته بعد ذلك: فتشاءم واعتبر زوجته مسؤولة عن تدهور صحته « وكان من المفروض أن تنشر هذه القصيدة في « شناشيل ابنة الجلبي » ولكنه طلب عدم نشرها حينذاك ووضع مكانها قصيدة ليلة الوداع المنشورة في صفحة (٧٠) والتي أهداها إلى زوجته الوفية ؛ وفي قصيدة « ليلة الوداع » وقصائد أخرى نشرت في مجموعاته المختلفة ما يدل على أن قصيدة القن والمجزرة بنت سورة غضب وتشاؤم . ونحن ننشرها هنا احتراماً لتراث الشاعر الذي يجب إلا يضيع منه شيء .

عكاز في الجحيم

وبقيت أدور
حول الطاحونة من ألمي
ثوراً معصوباً ، كالصخرة ، هيهات تثور
والناس تسير إلى القممِ
لكني أعجز عن سير – ويلاه – على قدمي
وسريري سجني ، تابوتي ، منفاي إلى الألمِ
وإلى العدمِ !!
وأقول سيأتيني يوم من بعد شهور
أو بعد سنين من السقمِ
أو بعد دهورْ !!

فأسير ... أسير على قدمي
عكازُ في يديَ اليمنى
عكاز ؟   بل عكازانِ
تحت الإبطين يعينان
جسماً من أوجاع ... يفنى
طَللاً يغشاه مسيل دمِ
وأسير   أسير على قدمي !!
لو كان الدرب إلى القبرِ
الظلمة والدود الفرّاس بألف فمِ
يمتد أمامي في أقصى أركان الدنيا   في نحرِ
أو واد أظلم أو جبل عالِ
لسعيت إليه على رأسي أو هدبي أو ظهري
وشققت إلى سقر دربي ودحوت الأبواب السودا
وصرخت بوجه موكلّها
لم تترك بابك مسدوداً ؟؟
ولتدعُ شياطين النار

تقتص من الجسد الهاري
تقتص من الجرح العاري
ولتأتِ صقورك تفترس العينين وتنتهشُ القلبا
فهنا لا يشمتُ بي جاري
أو تهتف عاهرة مرّت من نصف الليل على داري :
« بيت المشلول هنا ، أمسى لا يملك أكلاً أو شربا
وسيرمون غداً بنتيه وزوجته دربا
وفتاه الطفل إذا لم يدفع متراكم إيجارِ »
انثرني ، ويكَ ، أباديدا
وافتح بابك لا تتركه أمام شقائي مسدوداً
ولتطعم جسميَ للنارِ !!

لوي مكنيس

أتى نعيُه اليوم ، جاب الديارْ
وجاب المحيطات حتى أتاني ،
فلم تجر بالأدمع المقلتان
فقد غلغلتْ من دمي في القرار
(أبي مات لم أبكِ حزناً عليه
وإن جنّ قلبي
من الهمّ وانهد شوقاً اليه)
نعته إلينا مجلـّته ،
نعاه مقالٌ حزينْ
نعته لنا آدمياً مؤله

سماواته الشّعر يصرخ بالغافلين ؛
وأحسستُ بالشوق (كالمدمنينْ
إلى جرعة من طلىً ظامئين)
إلى شعره
لأحرق ، قربانَ وجدٍ وحبٍّ ،
فؤادي في جمره
ولكنّ ديوانه
دفيناً غدا بين أكداس كُتبٍ
تلصّ العناكبُ ألوانه
ويقرأه الصمتُ للآخرين
ومن لي بإخراج كنز دفينْ
تهاوى عليه الحجارْ ؟
كسيحٌ أنا اليوم كالميتين
أنادي فتعوي ذئاب الصدى في القفار
« كسيحْ
كسيحٌ وما من مسيحْ » (١)

* * *

وتقرع – للصدى في خيالي –
نواقيس من شعرهِ في الضبابْ
أمن بعد عشرين مثل الحرابْ
يمزّقن جنبيّ مثل النّصالِ
ارّجي ادّكاراً لأبياتِهِ ؟
وهل يتذكر طفلٌ ملامح أمواته
وقد بعثرتها صروف الليالي ؟
« وبين المحبين ، زوجين عادا ،
يُدحرجُ شايُ الصباحْ
صحارى يضيع الصدى في دجاها الفساحْ ،
وعند المساء تقوم الجريده
جداراً يدقانه بالأكفّ الوحيده
فتضحك ، إذ يضربان ، الرياحّ ! » [٢]

* * *

وما بين زوجي وبيني خواءْ ،
فليت الصحارى وليت الجدارْ

توحّد ما بين زوجي وبيني ببرد الشتاء
وصمت الحجار !
ويا ليتني مت إن السعيد
من اطّرحَ العبء عن ظهرِهِ
وسار إلى قبره
ليولد في موته من جديد !

البصرة - ٩ - ١ - ١٩٦٤

(١) توفيق صايغ ؛ معلقة توفيق صايغ .
(٢) الأصل للوي مكنيس .

حميد

« حميد » أخي في البلاء الكبير
– فقد كان مثلي كسيحا
يدب بكرسيه مستريحا
تساءلت عنه فقالوا « يسير
على قدميه فقد عاد روحا
لقد مات »
يا ويلنا للمصير !!
ينام ورجلاه مطويتان
شهوداً على الداء ، في قبره
إذا ما رأى الله رأي العيان

وقد سار زحفاً على صدره
فأي انسحاقٍ وأي انكسار
يشعان من عينه الضارعه !!
سيبكي له الله من رحمة واعتذار

* * *

وفي الساعة السابعه
إذا ذرت الريح ورد الغروب
سأجلس في الشرفة الخاليه
ومن تحتيَ الدرب يخفقُ ، ينأى ، يذوب
ألوف من الأرجل الماشيه
إلى أي مبغى وراء الدروبْ
وخمارة في الدجى نائيه !!
إلى اللغو والقهقهات الكذوب
وألمح فيما وراء الظلال
حميداً وكرسيه في الخيال
فتخنقني اللوعة الباكيه

فأواه لو توقدين الشموع
لدى مسجد القرية المترب
تمد من النور خيطاً تعلق فيه الدموع ،
ولو تضرعين ، مع المغرب ،
إلى الله « يا رب رفقاً بطفلي الصغير
وابقِ أباه
وجنّبه ، يا رب ، هذا المصير ! »
ولكنني متُّ ... واحسرتاه !

المعول الحجري

رنين المعول الحجري في المرتج من نبضي
يدمر في خيالي صورة الأرضِ
ويهدم برج بابل ، يقلع الأبواب ، يخلع كلَّ آجره
ويحرق من جنائنها المعلقة الذي فيها
فلا ماءٌ ولا ظلٌ ولا زهره
وينبذني طريداً عند كهف ليس تحمي بابه صخره
ولا تدمي سواد الليل نار فيه يحييني وأحييها
تعالي يا كواسر يا أسود ويا نمور ومزقي الإنسان
إذا أخذته رجفة ما يبث الليل من رعب
فضجي بالزئير وزلزلي قبره

دماغي وارث الأجيال ، عابر لجة الأكوان

سيأكل منه داءٌ شلّ من قدمي وشديداً على قلبي

كلامٌ ذاك أصدق من نبوّة أيّ عرّافِ

تريه مسالك الشهُبِ

حمى الأسرار ، تطلعه على المتربص الخافي

إذا نطق الطبيبُ فأسكتوا العرّاف والفوّالْ

رنين المعول الحجري يزحف نحو أطرافي

سأعجز بعد حين عن كتابة بيت شعر في خيالي جالْ

فدونك يا خيال مدىً وآفاقٌ وألف سماءْ

وفجّر من نجومك ، من ملايين الشموس من الأضواءْ

وأشعلْ في دمي زلزالْ

لأكتب قبل موتي أو جنوني أو ضمور يدي من الإعياءْ

خوالج كل نفسي ، ذكرياتي ، كل أحلامي

وأوهامي

وأسفح نفسي الثكلى على الورَقِ

ليقرأها شقي بعد أعوام وأعوام

ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا
وآلى رغم وحش الداء والآلام والأرقِ
ورغم الفقر أن يحيا
ويا مرضي ، قناع الموت أنت ، وهل ترى لو أسفر الموتُ
أخاف ؟ ألا دع التكشيرة الصفراء والثقبين ،
حيث امتصت العينين
جحافلُ من جيوش الدود يجثم حولها الصمتُ ،
تلوح لناظري . ودع الدماء تسحّ من أنفي من الثقبين
فأين أبي وأمي أين جدي أين آبائي
لقد كتبوا أساميهم على الماءِ
ولست براغب حتى بخط اسمي على الماءِ
وداعاً يا صحابي ، يا أحبائي
إذا ما شئتمو أن تذكروني فاذكروني ذات قمراءِ
وإلا فهو محض اسم تبدد بين أسماءِ
وداعاً يا أحبائي

في غابة الظلام

عينايَ تُحرقان غابة الظلامْ
بجمرتيهما اللتين منهما سقرْ ،
ويفتح السّهرْ
مغالق الغيوب لي   فلا أنام
وأسبر الأرض إلى قرارها السحيق
ألمّ في قبورها العظامْ
فطالعتني – كالسراج في لظى الحريق –
تكشيرة رهيبةٌ رهيبة
تُليحها جمجمتي الكئيبه
سخرية الإله بالأنام

* * *

عيناي َ من سريري الوحيدْ
تحدّقان في المدى البعيد ؛
الليل وحشٌ تطعنانه ، مع النجومْ ،
بخنجريها وخنجر السَّحَر ،
الليل خنزير الردى ، العنيد
يشقُّ خنجراهما إهابَه الغشوم
لألمح العراق مرّغ القمرْ
على ترابه البليل ضوءه الحزينْ

* * *

و ُمقلتا غيلانَ تومضان بالحنينْ ،
يرقب من فراشه ذوائب الشجرْ ،
أمضّه السهاد ، عذّبتْه زحمةُ الفِكَرْ
(أين من الطفولة السهاد والفكرْ ؟)
عيناه في الظلام تسربان كالسفين
بأيّ حقلٍ تحلمان ؟ أيما نَهَرْ ؟
بعودة الأب الكسيح من قرارة الضريحْ ؟

(أميّتُ فيهتفَ المسيحْ
من بعد أن يزحزح الحَجَرْ
« هلم يا عازر » ؟)
عيناه لظىً وريحْ
تحرق في أضالعي مضارب الغَجَرْ !

* * *

أليس يكفي أيّها الآلهْ
أنّ الفناء غايةُ الحياه
فتصبغَ الحياةَ بالقتامْ ؟
تحيلني ، بلا ردىً ، حطام
سفينةً كسيرةً تطفو على المياه ؟
هاتِ الردى ، أريد أن أنام
بين قبور أهليَ المبعثره
وراء ليل المقبره
رصاصة الرحمة يا إله !

الكويت ١٩٦٤/٧/٩

رسالة

رسالةٌ منكِ كاد القلبُ يلثمها
لولا الضلوع التي تثنيه أن يثبا
رسالة لم يهبَّ الورد مشتعلاً
فيها ؛ ولم يعبق النارنج ملتهبا
لكنها تحمل الطيِّب الذي سكرت
روحي به ليل بتنا نرقب الشّهبا
في غابةٍ من دخان التّبغ أزرعها
وغابةٍ من عبـــير منك قد سربا
جاءت رسالتكِ الخضراء كالسّعَفِ
بلَّ الحيا منه والأنسام والمَطَـرُ

جاءت لمرتجفٍ
على السرير ، وراء الليل يُحتَضَرُ
لولا هواك وبُقيا فيه من أسفٍ
أنْ لم يروّ هواه منك فهو على الشطّين ينتظرُ
سفينةً يتشهّى ظلّها النّهَرُ
فيها الشفاءُ هو الربّان ، والقَدَرُ
فيها المغني
لكان ممّا عراه الداء ينتحرُ !
جاءتْ تحدّثني عنّي
عن شهقة الصيف في جيكور يُحتضَرُ
عن صوت أغربة تبكي ، وأصداءِ
تذرْذر الظلمةَ الصفراءَ في السّعَفِ
وعن بناتٍ لآوى خلف منعطفِ
تعوي فتهتفُ أم ! « أين أبنائي ؟؟! »
وتنفض الدرب عيناها وتهتف !
« يا محمود علوان ! »

لا ردٌّ ولا خَبَرُ !

* * *

ويا حديثك عن « آلاء » يلذعُها
بعدي فتسأل عن بابا « أما طابا » [1]
أكاد أسمعها
رغم الخليج المدوّي تحت رغوتهِ
أكاد ألثم خدّيها وأجمعُها
في ساعديَّ
كأنيَ أقرع البابا
فتفتحين ...
وتُخفي ظلّنا السُتُرُ !!

الكويت ١٩٦٤/٨/٣

---

١ – « آلاء » طفلة الشاعر ، و « أما طاب » أي أما أبلّ من مرضه وقد أوردها على ما يبدو كما تلفظها طفلته ، وهي عامية .

ليلة انتظار

يدُ القمر النديّةُ بالشذى مرّتْ على جُرحي ،
يدُ القمر النديةُ مثلَ أعشاب الربيع لها إلى الصّبحِ
خفوقٌ فوق وجهي ، كفُّ طفلتيَ الصغيرةِ ، كفُّ آلاءِ !
وهمسٌ حول جُرحي : كفُّ طفلتي الكبيرة ، كفُّ غيداء
تُدغدغني ونحنُ على السرير معاً ، على السّطحِ
هناك !! وآه من ذاك المدى النائي ،
لأقربُ منه مجرةُ الثريّا وهي تلتَهبُ
بعيدٌ بُعْدَ يوم فيه أمشي دون عكازٍ على قدمي
يئست من الشفاء ، يئست منه وهدّني التعبُ
وحلّ الليلُ ما أطويه من سَهَر إلى سهر ومن ظلمٍ إلى ظلم

ولكنّ اليد النديانةَ الكسلى ترشُّ سنابلَ القمح
على دربٍ من الهمسات في حُلـُم
بلا نومٍ يرفّ على جفوني ثم يحشوهنّ بالملحِ

* * *

غداً تأتين يا إقبال ، يا بعثي من العدمِ
ويا موتي ولا موت
ويا مرسى سفينتيَ التي عادتْ ولا لوحٌ على لوحِ
ويا قلبي الذي إن متُّ أتركه على الدنيا ليبكيني
ويجأرُ بالرثاء على ضريحي وهو لا دمعٌ ولا صوتُ
أحبّيني ! إذا أُدرجتُ في كفني أحبّيني
ستبقى – حين يبلى كلُّ وجهي ، كل أضلاعي
وتأكل قلبيَ الديدانُ ، تشربه إلى القاعِ
قصائدُ كنت أكتبها لأجلك في دواويني
أحبيها تحبيني !!

الكويت – المستشفى الأميري ١٩٦٤/٨/٥

نفس وقبر

نفسي من الآمـــال خاويةٌ
جرداء لا مــــاءٌ ولا عُشُبُ
ما أرتجيه هو المحال ومـــا
لا أرتجيـــه هو الذي يجبُ
قدرٌ رمى فأصاب صادحـــة
في الجوّ خرّتْ وهي تنتحبُ
من ذا يُعيدُ إلى قوادمهـــا
أفق الصبــاح تضيئه السُّحبُ

* * *

صُلِبَ المسيحُ فأيُّ معجزة

تأتي ؟ وأيُّ دعـــاء ملهوفِ

ستزيح أبوابُ السماء لـــه

أغلاقها ؟! حبْلٌ من الليفِ

هيهات يُرقى للسماء به

ليهـــزّ عرش الله تخريفي

« مولاي مشلولٌ ! » فتحدجني

عَينُ الملاك « وأي ملهوفِ

لا يشتكي لله محنتـــه ؟

إرجع لبيتك دون إبطاء »

فبأيّ آمــالٍ أعيش إذن

وأدبُّ حيّـــاً بين أحياء

لولا مخافـــة أن يعاقبني

عـــدْلُ السماء لعنتُ آبائي

ولعنتُ ما نسلوا وما ولدوا

من بائسين ومن أذلّاء

الدودة العمياءُ يلسعها

بردٌ يقلّصها ويطويها

أوّاه لو ترضى تبادلني

عيْشي بعيشٍ كاد يُفنيها

ولو استجاب الله صرخة ذي

بلوى لصحتُ « وخيرُ ما فيها

موتٌ يجيء كأنه سِنةَ

ويمس آلامي فينهيها »

* * *

كم ليلةٍ قمراء يطفئها

ليل النجوم ودورةُ الشّهر

محسوبةٌ ، ويلاه ، من عُمري

وهْي التي ضاعت على عمري

وثلاثـــةٌ خضراء ، أربعةٌ ،

نثرت أزاهرهـــا وما أدري

يا ليتهـــا بغـــدٍ تعوّضني

فتمرُّ باكيــة على قبري

الكويت – المستشفى الأميري ١٠/١١/١٩٦٤

اقبال والليل

وما وَجدُ ثكلى مثلَ وجدي إذا الدجى
تهاوْينَ كالأمطار بالهمّ والسهْدِ
أحن الى دارٍ بعيدٍ مزارُها
وُزْغبٍ جياعٍ يصرخون على بُعْدِ
وأشفقُ من صبح سيأتي ، وأرتجي
مجيئاً له يجلو من اليأس والوجدِ

***

الليل طار وما نهاري حين يُقبلُ بالقصيرِ
الليل طال : نُباحُ آلاف الكلاب من الغيومِ

ينهلُّ ، ترفعه الرياح ، يرنُّ في اللّيْل الضريرِ
وهتافُ حرّاسٍ سهارى يجلسون على الغيومِ
الليل والعُشّاق ينتظرون فيه على سنا النجم الأخيرِ

* * *

يا ليل ضمّخكَ العراقْ
بعبير تُرْبتهِ وهدأةِ مائه بين النخيلِ
إني أحسُّك في الكوْيت وأنت تُثقل بالأغاني والهديلِ
أغصانك الكسلى و « يا ليل » طويل
ناحت مطوّقةٌ بباب الطاق في قلبي تذكّر بالفراقْ
في أيّ نجْمٍ مطفأ الأنوار يخفق في المجرّه
ألقت بي الأقدار كالحجر الثقيل
فوق السرير كأنه التابوت لولا أنّةٌ ودمٌ
يُراقْ
في غرفةٍ كالقبر في أحشاء مستشفى حواملَ
بالأسرّة .

يا ليل أين هو العراقْ ؟
أين الأحبّة ؟ أين أطفالي ؟ وزوجي والرفاق ؟
يا أمّ غيلان الحبيبة صوّبي في الليل نظره
نحو الخليج تصوّريني أقطع الظلماء وحدي
لولاكِ ما رمتُ الحياة ولا حننتُ إلى الديارْ
حبّبتِ لي سُدَف الحياة ، مسحتها بسنا النهار
لِمَ توصدين الباب دوني ؟ يا لجوّاب القفارْ
وصل المدينة حين أطبقت الدجى ومضى النّهار
والبابُ أُغلق فهو يسعى في الظلام بدون قصدِ

* * *

وخوّض في الظلماء سمعي تشدُّه
بجيكور آهاتٌ تحدَّرْنَ في المدّ
بكاءٌ وفلاحون جوعى صغارهم
تصبّرهم عذراءُ تحنو على مهدِ
يغنّي أساها خافقُ النجْم بالأسى
وتروي هواها نسمة الليل بالوردِ

أين الهوى ممّا ألاقي والأسى مما ألاقي؟
يا ليتني طفل يجوع ، يئنّ في ليل العراقِ !
أنا ميّت ما زال يحتضر الحياه
ويخاف من غده المهدّد بالجاعة والفراقِ
إقبال مدّي لي يدَيك من الدجى ومن الفلاه ،
جسّي جراحي وامسحيها بالمحبّة والحنانْ
بكِ ما أفكر لا بنفسي مات حبُّك في ضحاه
وَطوى الزمان بساط عرسك والصبى في
العنفوان [1]

(١) لم تؤرخ هذه القصيدة ويحتمل أنها آخر قصيدة كتبها الشاعر .

ليلو

قـرِّبْ بعينيكَ منّـي دونَ اغضاءِ
وخلـّني أتملـّى طيفَ أهوائي [1]

أبصرتَها ؟ كادت الدنيـــا تفجّر في
عينيك دنيـــا شموس ذات الاءِ

أبصرتَ ليلى فلبنان الشموخ على
عينيك يضحكُ أزهاراً لأضواءِ

إني سألثمها في بؤبؤيك كمـــن
يقبّل القمَر الفضيّ في المـــاء

---

(١) من القصائد التي نظمت في الكويت ولا يعرف تاريخها

ليلى ! هواي الذي راح الزمان به
وكاد يفلت من كفـــي بالداء
حنانهـــا كحنان الأم دثـّرني
فأذهب الداءَ عن قلبي وأعضائي
أختي الـــتي عرضها عرضي وعفتها
تاجٌ أتيـــه به بـــين الأخلاء
عرفتـُها فعرفتُ اللهَ عن كـَثـَبٍ
كأنّ في مقلتيها درب اسرائي

ليلى هوايَ منايَ شعري
روحي الأعزّ عليّ من روحي وآمالي وعُمري
حملت ضفيرتُها هوايَ كأنها أمواجُ نهرِ
حملته نحو مدى السماءْ
نحو المجرة والنجوم ونحو جيكور الجميلة
فأنا فتى أتصيّد الاحلام يالك من فراشات خضيلة

أتصيّد الأشعارَ فيها والقوافي والغناءْ
أو تذكرين لقاءنا في غرفة للداء فيها
ظل كظلّ الليل يخنق ساكنيها

لكننا بالشعر حوّلناه زرعاً من ضياءْ

بالحب أزهر واللقاءْ

ما كان أحلى حبنا العربي حب كثّير وجنون قيسِ

التبغ صحرائي أهيم على رفارفها الحزينه

وهناك نبني خيمتين من التأسي

« ليلى منادٍ دعـــا ليلى فخفّ له

نشوانُ في جَنبَـات القلب عربيـــد

كسا النداء اسمها سحراً وحببـــه

حتى كأن اسمهــا البشرى أو العيد

هل المنادون أهلوهـــا وإخوتهـــا

أم المنـــادون عشاق معاميـــد

إن يشركونيَ في ليلى فلا رجعـــت

جبـــال نجد لهم صوتا ولا البيد »

ليلى تعالي نقطع الصحراء في قمراء حُلوة

متماسكين يداً الى يد من نحب

وترن في الأبعاد غنوة

للرمل همس تحت أرجلنا بها ، للرمل قلبٌ

يهتز منها أو ينام وللنخيل بها أنين .
وتهرعن بعدِ كلابٌ يا لِغيم من نباحْ
هيهات يعشقه سوى غبش الصباحْ
فأنا وأنتِ نسير حتى تتعبين
« ماء أريد أليس في الصحراء غير صدى وطين ؟ »

وتكركر الصحراء عن ماء وراء فم الصخورِ
فأظل بالكفين أسقيك المياه فترتوين
أسقي صداك فترتوين
أو َتذكرين لقاءنا في كل فجر
وفراقنا في كل أمسية إذا ما ذاب قرصُ
الشمس في البحر العتي
تأتين لي وعبير زنبقة يشق لك الطريق فأي عطر !
وتودعين فتهبط الظلماء في قلبي ويطفىء نوره القمر الوضي
فكأن روحي ودعتني واستقلّت عبر بحر
وأظل طول الليل أحلم بالزنابق والعبير
وحفيف ثوبك ، والهدير
يعلو فيغرق ألف زنبقة وثوب من حرير

أقلُّ من بشـــر[1]

يا ربُّ لو جُدْتَ على عبدك بالرقادْ

لَعله ينسى

من عمرِهِ الأمسا

لعله يحلم أنه يسير دونما عصا ولا عماد

ويذرع الدروب في السحرْ

حتى تلوحَ غابةُ النخيلْ

تنوء بالثمرْ

بالخوخ؛ والرمان، والأعناب فيها يعصر الأصيل

رحيقه المشمسَ أو تألَّـقَ القمر

يدخلها فيختفي تحت ذوائب الشجرْ

ويقطف الجنى.

علَّقَ في رمّانةٍ عصاه وانثنى

يأكل أو يجمِّع الزهرْ:

حتى إذا ما انطلقا

وراح يطوي الطُّرُقا

أحسّ أو ذكرْ

---

[1] كانت هذه القصيدة مشطوبة.

بأنه بلا عصاً سار وما شعَرْ!

يا رب لو جدت على عبدك بالرقاد

لأنه يُذكِّرُهُ السَّهَر

بأنه أقلُّ من بَشر!

لندن ١٩٦٣/٢/٢٥

الهـــدايا

(١٩٧٤)

قصائد متفرقة تعود إلى مراحل

مختلفة من حياة الشاعر

وقد جمعناها من مصادر مختلفة

يـا أبـا الأحــرار[1]

هبَّ في الفجر هبوب العاصـفات ... قـدرٌ حطّـم أبـواب الطغـاة

قـدر مـن سـدّة الله سـعى ... يزرع الزيتـونَ في الأرض المـوات

يا لهـا مـن قبضـة في حـدّها ... يكمن المـوتُ وأسـباب الحيـاة

حـررت أعناقنـا مـن نيرهـا ... وأنـارت في الليـالي المظلمـات

يـا كريمـاً مـا رأينـا.. مثلـه ... من كريم، يـا نجـي المكرمـات

لم تلُـح لـولاك في ذاك الـدجى ... شمسـنا، أو تمـوِ أصـنام البغـاة

يـا أبـا الأحـرار، يـا رافعهـا ... رايةً تزهو علـى شـطّ الفـرات

دُمْ لشـعب عـاش مـن تمـوزهِ ... في نعـيم فـوق أشـلاء الطغـاة

---

[1] ذكرها علي الحلي في العدد السابع من السنة ١١ من مجلة "الآداب" ١٩٦٣ في مقـال عـن "الفنـان والخلق الثوري .. وكانت القصيدة قد نشرت في جريدة "العهد الجديد" العـدد ٧٧؛ فـي ١٩ تمـوز ١٩٦٢

عثر الأستاذ عبد الإله أحمد على هاتين
القصيدتين، فنشرهما في مجلة الأديب المعاصر:
العدد ٣، وقدَّم لهما بهذه المقدمة:

عنيت وزارة الإعلام بنشر قصائد الشاعر بدر شاكر السيّاب، الـتي لم يضمَّها إلى مجاميعه الشعرية المعروفة، أزهار ذابلة، أساطير، أنشودة المطر، المعبد الغريق، منـزل الأقنان، شناشيل ابنة الجلبي، إقبال. فكان أن أصدرت "قيثـارة الريح" عام ١٩٧١، بمناسبة الاحتفال بالذكرى السادسة لوفاة الشاعر.

ثم أصدرت الوزارة في مستهل عام ١٩٧٢، مجموعة أخرى للشـاعر بعنوان "أعاصير" تضم العديد من القصائد السياسية الـتي ألقاهـا الشـاعر في مناسبات وطنية مختلفة في الأربعينيات.

ويبدو أن هاتين المجموعتين، لم تحيْطا بشعر الشاعر كله وبقي خارجهما ربما شعر كثير يحتاج إلى ديوان ثالث، يتوفر على أعداده آخرون، وقد يكون من مواد هذا الديوان الثالث، قصيدتان وجدتهما وأنا أبحث في الصحف العراقيـة، غفل عن نشرهما معدُّو المجموعتين، أولاهما: قصيدة بعنوان "وحـي الـنيروز" نشرتها جريدة (السلام) في العدد ١٩ السـنة ١، ٢٤ أذار ١٩٤٨ وقدمتـها بقولها: "القصيدة العصماء التي ألقاها شاعر الجماهير الأستاذ بدر شاكر السياب في الحفلة التأبينية التي أقامتها الشبيبة الكردية في ملهى الجواهري يـوم الجمعـة ٤٨/٣/١٦" وكانت هذه الجريدة قد نشرت في عدد سابق هـو العـدد ١٤ السنة ١، ١٨ آذار ١٩٤٨ قصيدة أخرى للشاعر، ضمتها مجموعة "أعاصـير

ص/١٥ بعنوان حطمت قيداً من قيود... وقد أثبتت الجريدة للقصيدة عنواناً مغايراً هو "الجلاء" كما أن هناك بيتاً من الشعر، ورد في هذه القصيدة، ويبدو أنه سقط من طبعة الديوان لسبب من الأسباب، قد يكون في تثبيته، ما يؤكد اتجاهاً كان عليه الشاعر آنذاك و لم يعد مجهولاً، والبيت:

عادت مناجلُه مرايا ينجلي   فيهن وجهُ الثورة الحمراءِ

وقد ورد في الجريدة بعد قوله:

حيث التفتُّ رأيت شعباً جائعاً   عريان، يملأ جوفه بالماء

أما القصيدة الثانية فهي بعنوان "قاتل أخته" نشرها جريدة العصور في العدد ٨٤، السنة ١، ٢٦ أيلول ١٩٤٨، وقد وصفت الجريدة الشاعر بشاعر الشباب، وقدمت القصيدة بكلام قد يكون للشاعر نصه: "أثمت فقتلها.. ولكن شبحها المنكود ما زال يعتاده كلما لفّه الظلام"

ولا نريد هنا أن نشير إلى جوانب في القصيدتين، أدخلت في النقد. ويكفي أن نقول أن القصيدتين من الشعر الساذج، الذي كتبه الشاعر في أوائل حياته الأدبية، وإن كانتا لا تقلان جودة، عما نشر في المجموعتين. واننا ننشرهما انقاذاً لهما من الضياع، في صحف قد لا يتيسر الوصول إليها بسهولة، ودعوة في الوقت ذاته، للآخرين ممن يحتفظون بقصائد للشاعر مجهولة أو نادرة، أن يعدوها للنشر، لكي يوفروا للباحثين إمكانية تعمق دراسة هذا الشاعر الممتاز الذي رفد الشعر العربي الحديث بالكثير من العطاء"

(القصيدة الأولى)

طيف تحدّى بـه البـارودُ والنـارْ ... ما حاك طاغٍ وما استبناه جبّارْ

ذكرى من الثورة الحمراء وشّحها ... بالنور والقانئ المسفوك، أدار

مرّت على القمة البيضاء صاهرةً ... عنها الجليد، فملء السفح أنهار

في كل نهر ترى ظلاً تخف به ... أشباح (كاوا)[1] ويزهو حوله الفار

يا شعب (كاوا) سل الحدّاد كيف هوى ... صرح على الساعد المفتول ينهار؟

وكيف أهوت على الطاغي يد نفضت ... عنها الغبار وكيف انقضّ ثوار؟

والجاعل (الكير) يوم الهول مشعلةً ... تنصبُّ منه على الآفاق أنوار

* * *

قف عند (شيرين)[2] واهتف ربما نطقت ... وحدّثتك بما تشتاق أحجار

وربما ارتجّت الأصداء، وانفجرت ... قيثارة في يد الراعي ومزمار

والفارس الثائر المغوار هل بقيت ... من خيله الصافنات البُلْق آثار

* * *

تكاد تسمع في الآفاق صيحته ... كأنها في سماء الحق إعصار

مرّت على الظلم فاهتزّت دعائمه ... وجلجلت فهي للباغين إنذار

---

[1] كاوا الحداد بطل الشعب الكردي في عيد نوروز التحريري.

جبل في أربيل. (الجريدة)

وساء مستعمراً أن يستفيق على   أصدائها، جائع في الحقل منهار

وأن يهبَّ إلى الأغلال يحطِمها   شعب، وتنشق عن عينيه أستار

* * *

كم أيتم البغي من طفل، وسار على   بيت هوى، جحفلٌ للبغي جرّار

واستؤسر الجائع العريان واغتصبت   عذراؤه واستبيح الحقل والدار

وشُرِّدت في صحارى الثلج أفئدةٌ   من فوقها أعظم تدمى وأطمار

وكشَّر السجن عن بابيه، وارتفعت   حمر المشانق يغذوهن جزّار

* * *

شيرين، يا جبل الأحرار، ما غفلت   عن حقها الضائع المسلوب أحرار

كاوا كيعرب.. مظلوم يمد يداً   إلى أخيه، فما أن يهدر الثار

والمستغلان في سهل وفي جبل   يدميهما بالسياط الحمر غدّار

سالت دماؤهما في السوط فامتزجت   فلن يفرقها بالدس أشرار

وأغمد الظلم في الصدرين مخلبه   فجمّعت بالدم الجرحين أظفار

ووحَّد الجوع عزم الجائعين على   أن يوقدوها.. وألا تخمد النار

وكدَّس العري أجساد العراة على   درب إلى النور قد أفضى بمن ساروا

وقرَّب القيد من شعبين شدّهما   ووجّهت من خطى الشعبين أفكار

يا فرحة العيد ما في العيد من مرح   حتى تُحرَّر من محتلها الدار

---

[1] حر في الصحيفة، وهو خطأ مطبعي.

(القصيدة الثانية)

ليلى.. كفـــاك! إلى يـــدي نظـــراً ماذا ترين ســـوى الـــدم القـــاني
هذي دمـــاؤك فوقهـــا صـــرختْ: "ما كان ذنـــي أيهـــا الجـــاني!؟"
عودي فقد شحب الدجى ومشـــى نعش الكواكب فـــوق أجفـــاني!
شُدّي عظامـــك والبســـي كفنـــاً قـــد كـــان أجـــدر بي وبـــالزاني

* * *

الـــدود جـــاع وضـــجَّ مـــن ألمٍ والقبر أوصـــد بابـــه الضـــجر...
عـــودي إليـــه وأشـــبعيه دمـــاً حتى يُـــرنَّحَ جســـمك النخـــرُ!"
حتى يكـــون عـــداد مـــا نهشـــت منك الـــروب وعبَّـــت الزمـــر
وخـــزٌ يســـيل لـــه الضـــمير ومـــا يجـــري ورائـــي حـــين أنتحـــر!

* * *

أختـــاه أنطقُهـــا ومـــلء فمـــي آهٍ يقطِّـــع حرُّهـــا كَلمـــي..
أختـــاه، صـــوتك مـــا يفـــارقني يدعو الي ظُلَـــم الـــتراب دمـــي!
حيـــث التفـــتُّ رأيـــت ثَـــمَّ يـــداً صـــفراء تجـــذبني إلى العـــدم
إني أكـــاد أحســـها لمســـت بالثلج خـــدّي، والنجيـــع فمـــي!

* * *

أغـــواك بالومضـــات مـــن ذهـــب طامٍ، فـــأغرق حسَّـــك الـــذهبُ
وتنبَّـــه الحرمـــان فيـــك، علـــى قصـــر يحـــوِّم حولـــه لقـــب،

لما رأيت أخاك بيع دماً بالفلس من رتبته يغتصبُ

هان العفاف عليك وانحطمت قيم تعهّد صوغها الكذب!

* * *

إن التراب غداً سيجمعنا في حجره المتجمد النائي!!

فاطوي عتابك إن موعده يمشي على رمم وأشلاء!

بين العظام هناك في جدث راجٍ.. يهزُّ أساك إصغائي

شدي عليَّ بقبضةٍ سحقتْ أوصالها شهوات عذراء!

* * *

آثار كفك بالدم انطبعت في كل ناحية، على كفي

أبلى، وتلبث غير بالية حتى تجف منابع الزمن

حتى أعود ثرى تنقّله بين القفار عواصفُ الدُجن

حتى تذوب على مدارجها بيض النجوم صريعة الحزن

* * *

رباه.. هلك وهو متكئ بين الكؤوس يداعب الأملا؟

يجني.. فيقتلها.. ويقتلني ظلماً – ويجهل أنه قتلا؟

هيهات يجهل، لست أحسبهُ، لكنَّ طرفك عنه قد غفلا!

أين العدالة، كيف تصرخ بي "جان"، وتُشبع كفّه قبلا!؟

أمضي وألف دم سيتبعني ما دام أثمن شيء الذهب

العاطفاتُ غدت تباع به والغيد، والحيوات، والرتب

والعقل صانع كل معجزة والساعد المفتول والعصب

والفن: من وتر وقافية ودمى تُصاغ وريشة تثب!

* * *

إني لأضـــحك ســـاخراً حنقـــاً، آنـــاً – وأحْطِـم أضـلعي آنـــا!

مـــاذا أرى؟؟ أدمـــى مســـخرةً للمـــال يحشـــدهنَّ قطعانـــا؟

خـــتم الغبـــاء علـــى بواظرهـــا فتلبـــدت حـــدقاً وأجفانـــا!!

تبكـــي وتضـــحك وهـــي سـائرة تحـــت السـياط، دمـــاً وإذعانـــا

* * *

إني أكـــاد.. أكـــاد أسمعهـــا تعلـــو علـــى مهـــل أغانيهـــا

كالـــدود زاحفـــة مقاطعُهـــا، كـــالقبر.... بـــاردة قوافيهـــا

كـــالخنجر المســـموم مرتعشـــاً في كـــف منتحـــر – معانيهـــا

كالطفـــل يرضـــع ثـــدي زانيـــة شـــهوى وعاشـــقها يواليهـــا!!

* * *

أودعـــتَ يـــا أبتـــاه في عنقـــي أنثـــى، وقلـــتَ: ســأرقد الآنـــا!

أورثـــتَني.. قُـــبَلاً مجنحـــةً والـــذلُّ يوثقهـــا.. وحرمانـــا

أودعـــتَني جســـداً تكبِّلـــه أسمالُـــه، فيثـــور طغيانـــا!

أنثـــى تريـــد هـــوى تعانقـــه عطـــراً وأرديـــة وعقيانـــا

* * *

أنثـــى يـــؤجج في جوانحهـــا طيف الـلآلي والحلـى، لهبـا..

يتلقَّـــف المـــرآة مـــن يـــدها حلـــم يكلّـــل جيـــدَها ذهبـــا

فتـــرى وراء دموعهـــا، أفقـــاً جاشـــت بـــه قبلاتهـــا شـــهبا

حصـــناً ترفَّـــل بـــالحرير علـــى عرش من المهجـات قـد نصبا

* * *

حلـــمٌ يمـــد يـــداً إلى يـــدها ســـكرى... ويجـــذبها فتنجـــذبُ

جذلان يهمـس: يـا فتـاةَ غـد آت... أعنَّـــةُ خيلـــه ذهـــبُ

طارت إليك به – على عجل – في الجو مركبةٌ لها صخب
ساعاته غزل يقطّره ثغران مرتقب ومرتقَب

* * *

لا تحسبيني ما همتُ به طعناً تسدّده يد الحنقِ
طعناً يعدُّ على جوانحه حمر الليالي تُضاء بالشبق
في كل ومضة خنجر ترةٌ من ومضة ذهبيّة الألق
أعمت نواظرَ غادةٍ.. فكبا جسمٌ بها... وهوى إلى نفق!

* * *

يا خنجراً رسم الجنون على مرآته رسماً وأشباحا
رقصت على لجج النجيع يداً سوداء تملأ منه أقداحا
وتخيطه مقلاً موججةً بالحقد، أحملهن مصباحا
كيف انحطمت على يديَّ.. فلا جرح أمات ولا دم ساحا؟!

* * *

أقبلتُ وهو على أرائكه سكران بالضحكات والخمر..
حتى إذا رفع انتقام أبي يمناي فاغرةً فم القبر
صاح الشقيُّ: أأنت تقتلني؟! يا ليت أختك في الثرى تدري
العار تاجُك.. سله: أي يدٍ قد كلّلته بقانئ الدر؟!!

الهديــــة..[1]

يقـــــول المجبــــون: إنّ الهـــــدايا طعام الهــوى".. ذاك مــا أسمــعُ
وإني لأهـــواك، حـــتى لأفشـــو بحبّــي، وتـــدمى بـــه الأضـــلع
وأهـــواك حـــتى اللقـــاء اشـتياق وحـــتى يضـــيق المـــدى الأوســـع

* * *

فماذا ســأهديك يــوم اللقـــاء؟ وماذا ســأهديك يــوم النــوى؟
أيرضيك مـــا يشــتريه انحـــداري إلى حيث يــأبى علــيَّ الهـــوى؟
فمــــا المــــال إلاّ دمــــاء تبـــاع كعرض البغايا.. لــدرء الطــوى

* * *

سأصحو مع الفجر قبــل الطيــور ولمســـةُ كفيـــك في خـــاطري
ألمُّ الندى مــن حقــول الربيـع وأشـــدو مـــع القُبَّـــرِ الطـــائر
وأجمـــع مـــن زهرهـــا باقـــةً لعينيـــك.. يـــا زهـــرة الشـــاعر

* * *

وهيهـــات، هيهـــات إن الريـــاح يـــذرّين أزهـــاريَ الذابلـــةْ
ويـــبقين في مقلتيـــك انكســـاراً كمـــن يتبـــع الأنجـــم الآفلـــةْ
ســـأهديك أغنيـــةً كنســـيم المدينـــة يســـتقبل القافلـــةْ
ومـــاذا أُغنّيـــك، والحشـــرجات وعصف اللظى كـل مـا أسمـع
كـــأنّ البرايـــا دم في عروقـــي تصـــدّى لـــه الخنجـــر المشـــرع

---

[1] جريدة "الجهاد" البغدادية العدد ١٠٦ – ٣١ آب ١٩٥٢.

فيا قبضـــة مـــن رمـــاد الحريـــق   علـــى ســـلّمٍ دكُّـــه المـــدفع...

* * *

سأهديك مـــن ســـاعديَّ الحيـــاه   ومن قلـــبي الضـــحكة الصـــافية

سأهديك ما في عبوس الســـحاب   مـــن النـــور للدوحـــة العاريـــة

ســـأهديك أن لا تكـــوني رمـــاداً   علـــى مـــدرج الزعـــزع العاتيـــه

ســـأهديك دنيـــا يـــرين الســـلام   عليهـــا "كحشـــد" مـــن الأنجـــم

تنـــامين فيهـــا وتســـتيقظين   بـــلا ريبـــة في الغـــد المبـــهم

ولا خوف من أن يعـــزّ الرغيـــف   وأن تســـتباحي.. وأن ترمـــي!

يوم ارتوى الثائر

بشراك هذا سحاب الذلة انقشعا ... وانفكّ عن ساعديك القيد وانقطعا[1]

إزّلزل الشر ما خلّفت زاوية ... يندسُّ فيها ولا أبقيت منتجعا

يا أمةً ما اهوى من صدرها صنمٌ ... إلا وأوصى لداني مه فافترعا

من كل جازي يد بالزاد تطعمه ... غلاً، ومن آكل الثدي الذي رضعا

هاك اسمعي الصُور والموتى إذا انبعثوا ... فاليومَ كلٌّ سيُجزى بالذي صنعا

الله أكبر، ما أمهلت طاغيةً ... إلا لكي يحصد النار التي زرعا

جيل من الأعين الغضى وقافلةٌ ... من غيظ جيلين في ميعادك اجتمعا

وانحط منها على الباغي وزمرته ... ظل تخطى إليه السور والقلعا

كالسيل من حمم والنار من ظُلَمٍ ... والموت لو كان يحوي ذلك الفزعا

ما رعب (قابيل) إذ يعدو فتتبعه ... عينا أخيه المسجى حيثما نزعا

شق الثرى عنه من لحظيهما شبح ... أزجى عليه الدمَ المطلول فاتسعا

يوماً بأوفى من الرعب الذي فجأت ... نكباؤه الصرصرُ الطاغوتَ فامتقعا

يوم اشتفى كل قلب كان فاجعه ... وزلزل القصر حتى مال وانصدعا

وامتد من حيث ولّى باعُ محتجز ... واسودّ من حوله الفولاذ والتمعا

في موقف تنفس الشحاذ ذلتها ... فيه الأمير الذي من جوعها شبعا

---

[1] كتب السياب هذه القصيدة إبان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ولم ينشرها في حينها. وقد ألقاها في ذكرى الثورة الثالثة بدعوة من مدير مصلحة الموانئ العراقية في البصرة، وأضاف إليها بإيعاز منه البيت الثامن والعشرين والبيت الثاني والثلاثين.

وزمرة من لصوص كل ما جمعت ... ما ردّ عنها قضاء الشعب أو دفعا

أنزلت بالثورة البيضاء عاليَها ... سفلاً وعاجلت منها الرأس فاقتطعا

لم يرتوِ الثأر من جلاد أمته ... حتى وإن جندلته النار وانصرعا

فاقتصَّ من جيفة الجلاد مجتزياً ... منها عداد الضحايا من دم دفعا

هذا الذي كل ثكلى فهو مثكلها ... والمستحل الضحايا ليته ارتدعا

والسارق النور من عينيَّ أطفأه ... والجاعل النوم في مهد ابنتي وجعا

بالأمس كنّا سبايا دون سدّته ... فاليوم نعطيه ما أعطى وما منعا

ما قطّعته الجموع الثائرات ولا ... أدمته إلا بما أدمى وما قطعا

لم يكذب الجيش إلا ظن شرذمة ... خالته في كل ما تبغي له تبعا

والجيش ما كان إلا سور أمته ... زالرافع الجور عنها كلما وقعا

إن تعلُ يعلُ وإن تُمسسْ بنائبة ... مَسّته أدهى وإن نادت به سمعا

والجيش ما كان إلا سرّ قائده ... هذا الذي حرّر الأعناق إذ طلعا

عبد الكريم الذي أجرى بثورته ... ماء ونوراً كغيم ممطر لمعا

أسرى وبغدادُ تحت الليل غافية ... في سجنها وسهيلٌ بعدُ ما طلعا

فما تنفّس أو كاد الصباح بها ... إلا وقد حطم الأوثان واقتلعا

في ثورة عاد منها الشعب منتصراً ... والحق مزدهراً والبغي منصرعا

حتى ازدهى كل شبر في العراق ففي ... مينائه اليوم نور الفجر قد سطعا

ليلة القدر

يا ليلة تفْضل الأعوامُ والحقبا   هيَّجت للقلب ذكرى فاغتدا لهبا[1]

وكيف لا يغتدي ناراً تطيح به   قلبٌ يرى هرم الإسلام منقلبا

يرى شعائرَ دين الله هاربة   يسفها النَّوءُ تمضي حيثما ذهبا

أين العنان الذي تلويه عاصفة   ما فاتحين يرون الموت مطّلبا

للرغو حول شدوق الخيل وسوسةٌ   والنقع يذري لثاماً قنّع السحبا

من كل محتسبٍ بالله متكلٍ   عليه يفري ضلوع البغي إن ضربا

كأنّ أسيافهم في كل معمعةٍ   جسرٌ إلى جنة الفردوس قد نصبا

* * *

يا ليلة القدر، يا ظلاً نلوذ به   إن مسَّنا جاحم الرمضاء ملتهبا

ذكراك في كل عام صيحة عبرت   من عالم الغيب تدعو الفتية العربا

أقومُ أحمدَ مضروبٌ على يدهم   بالذل من هول ذاك الفتح[2] واعجبا

تفرَّقوا شيعاً في كلّ حاضرة   قوم يقيمون من أغلالهم نصبا

لولا بقايا من الثوّار صامدةٌ   في ظل وهران تسقي خصمها العطبا

الموت ولّى فراراً من جحافلها   والرعب مما تصك الظالم ارتعبا

لكنَّ واضيعة الإسلام في بلد   بالأمس أعلى منار الحق ثم خبا

* * *

[1] كتب السياب هذه القصيدة لإلقائها في احتفال في مكتبة ناحية الزبير. ولعل ذلك في سنة ١٩٦١. وقد نقلها مؤيد العبد الواحد عن نسخة مهلهلة واهية.

[2] كلمة "الفتح" أضافها مؤيد العبد الواحد ليستقيم الوزن بها.

يا ليلة القدر أعْلى قدر أمتنا | شهم تعالى على الشطّين وانتصبا
عبد الكريم الذي جاد الكريم به | أقال من عثرة شعباً بما وهبا
ما كان يرغب عن أنوار ثورته | إلا الخفافيش. ساءت تلك منقلبا
هوَوا إلى قاع بئرٍ لا قرار لها | مستمسكين بحبل من دم خضبا
حبلٌ تشدُّ يد الشيطان أوّله | ويجذب الفوضويّ الخائنُ الذنَبا
كم جيد عذراء دق الحبل أتلعَه | وكم ذراعٍ لطفل قصّ واجتذبا

* * *

يا ليلة القدر يا نوراً أضاء لنا | قاع السماء فأبصرنا مدى عجبا
تنزّل الروح رفّافاً بأجنحة | بيض على الكون أرخاهنّ أوسحبا
عطف الأمومة في عينيه متقد | وإن يكن للتقاة المحسنين أبا
وللملائك تسبيح وزغردة | تكاد رنّاتها أن تذهل الشهبا
ومن دماء الضحايا في جوانبه | نار تمد اللسان المغلق الذرِبا
يشكو إلى الله من ذرى عقاربه | فأنبتت زهراً من سمّها أشبا
ومن هوَت تقطع الأضلاع مديته | وساق ظلماً على الجلاّد من هربا
ذكرى تعود كأن الغدر يبعثها | من كهف أمس الذي ولّى بما كسبا
أمس الذي إن غفلنا عاد جامحه | فاقتصّ ممن يحبّ الله والعربا
لا صلح بين الهدى والبغي، لا سنةٌ | تعمي النواظر عمن سامنا العطبا

مولد المختار

دموع اليتامى في دجى الليل تقطرُ ... ونوح الثكالى عاصفٌ فيه يصفرُ[1]
وأغفى على الآهات طفلٌ ميتمٌ ... تقطّرُ فيه الحقدَ أمٌّ وتبذرُ
إذا جنّ ليل في الصحارى ولألأت ... نجومٌ وقد يخضلُ ليلٌ ويقمرُ
ففي كل قلبٍ من دجى الليل سدفةٌ ... وفي كل عقلٍ ظلمة ليس تسفرُ
وقامت من الأنصاب في البيت عصبةٌ ... كدَوح من الصَّوان بالشر يثمرُ
وأجرى على النهرين أقيال فارس ... دماً يعربياً واستباحوا ودمروا
وفي الشام يطغى في حمى الروم تابعٌ ... ويعدو على الأحرار كسرى وقيصر

* * *

وأشرقتَ فاهتزتْ نواويس في الدجى ... وأوشك موتى أن يهبّوا وينشروا
نبيّ الهدى يا نفحة الله للورى ... ويا خير ما جاد الزمان المقتّر
إذا ما افتخرنا كنت للفخر أوّلاً ... وإن جاءنا نصر فذكراك تنصر
ولولاك ما اندكت عروش ولا هوى ... صليبٌ على كفيه كنّا نسمّر
وكم سار في شرق من الغرب جحفلٌ ... بقرآنك الهادي وفي الغرب عسكروا
ويا مولد المختار ميلاد أمّة ... وميعاد بعث أنت فيها مُقدّر

* * *

---

[1] هذه القصيدة مسجلة على شريط بصوت السياب، ومحفوظة في مكتبة جامع العلامة السيد عبد الحكيم الموسوي في المعقل. وقد نقلها كتابة مؤيد العبد الواحد، ووجد في ذلك صعوبة لقدم الشريط وعدم وضوح الصوت في مواضع منه والمقاطع فيها تشير إلى وقفات السياب أثناء الإلقاء. ولعلها من نتاج سنة ١٩٦١. ألقاها السياب بمناسبة المولد النبوي فأعطاها مؤيد العبد الواحد هذا العنوان.

ألا قبسةٌ مما تنفستَ في الدجى | فنحيا وينهدّ الظلام المسوّر
ألا تفجُر البركان في مقفراتنا | فيتبسل الأحرار أيان يُفجر
تلبّد وجه الليل يخفيه غيمة | من الوحل والقار المدّمى تزمجر
ومالت على الأفق الضرير منائرٌ | وخرَّت قبابٌ والهوى ثَمَّ منبر
كأن لم يضئ بالنور ميلاد أحمد | ولم تنطفئ للفرس نارٌ ومسعر
ولم يدحر الجيش الصليبيّ صامد | ولا راعت الغازين "ألله أكبر

* * *

رمت رأسها أفعى من الفرس تغتذي | بأشلاء ما أبقاه قيس ومنذر
شعوبية رقطاءُ بالدين تارة | وبالعدل أخرى تحتمي وهي منكر
وما الدين إلا العُرب إن ذل منهمُ | عزيز تهاوى وهو دامٍ معفّر
هي الراية الحمراء من عهد قَرْمَطٍ | وهيهات يخطي بالذي شاء أحمر
إذا خبأوها فهي للشرّ مكمن | وإن نشروها فهي للعار مظهر
ولاحت من الكيد اليهوديّ غيمة | على أفقنا المنكوب بالويل تنذر
تبدّى لظاها فهو نور ورحمة | وسرمٌ[1] لمن بالمال يشرى ويؤجر
تذكرت والميلاد حالٍ بنوره | شعاعاً من المعراج ذكراه مطهر
سما من مطاوي نومه بقصد السما | نبيّ تلقّاه البُراق المطهر
أتى صخرة بيضاء يندى بياضها | كما لاح في الظلماء نجم منوّر
فيا صخرة المعراج قد سدّ بالدجى | وبالإثم منّا فيك شقٌّ ومعبر
فما عاد بين الله والناس منفذ | كأنْ حل بالأرض العذاب المسعَّر

* * *

---

[1] كذا سمعت، ولعلها "سحر".

وعـــاث ببيـــت الله قـــدمٍ مشــــردٌ كــأن فلســطين المــدماة خيــبر

كأن لم يَسر طــه إليهــا ولا دحــا أبو حسنٍ من بابها فهــي تصــفر

وما زال في وهران والأرض حولهــا قلوج[1] أباحوا واستباحوا ودمــروا

إذا جـــنّ ليـــل ســـاءلت كـــلُّ أنجمٍ كواكبه عـــن بعلـــها أيـــن يقـــبر

جهاد على اســم الله يلظــى أواره فيكوي جبين الظلــم ممــا يسـعَّر

نبيَّ الهدى عذراً إذا الشــعر خــانني ولكنّــه قلـــبي بمـــا فيـــه يفطـــر

نبي الهدى كن لي لـــدى الله شـــافعاً فإني ككـــل النـــاس عـــانٍ محـــير

تمرســـت بالآثـــام حـــتى تهـــدمت ضلوعي وحتى جنتي لـــيس تثمـــر

ولكن من ينجدْه طــه فقــد نجــا ومن يهده - والله - هيهات يخسر

---

[1] كذا سمعت، ولعلها "علوج".

ثورة ١٤ رمضان

أألف لسانٍ جاء عندك يشكر ... لإيفاء ما أسديتَ؟ هيهات يقدر[1]

بعثتَ حياةً من رداها ونفّضت ... أياديك عنها كل ما كان يوقر

جزاك الإله الخير عن أم صبيةٍ ... أعدت لها البعل الذي كاد يقبر

فصار اليتامى من جداك ذوي أب ... فداك الأب الفاديه درٌّ وجوهر

أسير فيكسو شارق الشمس جبهتي ... فيعلو دعائي: ظِلْتَ بالله تنصر

ألست الذي أحيا – وقد ثار – شعبه ... فصاح ابتهاجاً منه: "الله أكبر"

وقام الكسيح المبتلى من فراشه ... يسير على ساق ويعدو ويطفر

تقحَّمْتَ أوكانَ المنيَّات والسنا ... يئن وآلاف الشياطين تصفر

فما هي إلا ضربة الثأر وانجلى ... ظلام من البلوى وبغداد تنظر

فمن ير بغداد التي أنت نورها ... يقلْ عاد هارونٌ وقد مات جعفر

ثأرت لشوّافٍ وأمطرت ناظماً ... بما قد روى القبر الذي كاد يطمر

وسد من التهريج أعلاه قاسمٌ ... وما كان يوماً كاسمه فهو يشطر

يجرّ إلى النيل الفرات ودونه ... صحارى وقد قالوا لنا تلك كوثر

ألوف الضحايا سامها الخسف والأذى ... غلوم ورقاع وبخش وقنبر

ولولاه ما عاد الشيوعيُّ حاكماً ... كما شاء أو كان الشيوعي ينحر

---

[1] كتب السياب هذه القصيدة وهو في مستشفى سانت ماري بلندن، وذلك إثر سماعه بنبأ ثورة ١٤ رمضان. وقد أشار عليه صديقه مؤيد العبد الواحد بإهمالها لأنها دون مستوى شعره، ثم كتب السياب بعد أيام قصيدة من الشعر الحر عنوانها (قصيدة إلى العراق الثائر) نشر في آخر مجموعة (منزل الأقنان). ولكنه جعل تاريخها ٨ شباط ١٩٦٣، وهو يوم الثورة.

فكنت الجواب المرتجى مـــن دعائـــه وكنت لنا النور الذي فيـــه نبصـــر

فيا جيش-لا نلت الأذى-دونك الذي هبطنا إلى الأعماق إذ كان يهـــدر

يمنّ بمال الشـــعب أعطـــاه عـــاجزاً ومن ظلمة الداء الذي فيـــه ينخـــر

لقد جاع حتى حطّم الجوع جســـمه وطورد حتى ما على المشي يقـــدر

لك الحمد إذ أرويت بالثأر أرضـــنا فسرنا على الدرب الذي كاد يطمر

لندن – سانت ماري

١٩٦٣/٢/١٠

حب وشاعر

سألتني ذات يوم عابرةْ عن غرامي وفتاتي الساحرةْ

لم تكن تعلم أني شاعر ملهم أهوى فتون الطاهره

وحبيب لست أهوى عاتباً إنما أهوى العيون الآسره

وقواماً أهيفاً خلّفني ساهماً خلْف روحي سادره

ووفاء لم أكن أنكره أترى ينكر غصن طائره

* * *

سألتني والربى مزدانة في شروق، والأماني زاهره

ليتها تدرك أني ها هنا شاعر لا بد لي من شاعره

قلت يا أختاه لا لا تسألي أنا ذاك الصبُّ أهوى "نادره"

البصرة ١٩٦٣/١٠/١٧

أنـــت تـــدري أن في قلـــي جرحـــي

ألـــف آهٍ تتنــــزّى دون بـــوحِ

أنت تدري صـــار مثـــل الليـــل صـــبحي

أنـــت تـــدري أيهـــا الجـــاني – فـــنحٌ

ودّع الآلام واقبـــل بعـــض نصـــحي

يـــا عـــذابي خلّـــني وحـــدي أضـــحّي

دعْ أغـــانيّ اللــــواتي صـــغتهن

في أســـار مبـ[illegible] بين الدُّجنَّه

دع أمـــانيّ، فـــإني عفتـــهن

يـــا عـــذابي دع رؤى عـــاودتهن

ودع الآه فلـــن تجـــديك أنَّـــه

ثم دعـــني، فأنـــا أشـــتات محنـــه

البصرة ١٩٦٣/١/١

أنشودة المطر (١٩٦٠) ٥


الناشيء

ديوان

بدر شاكر السيّاب

المجلد الثاني



